COLIN WILSON

BEYOND THE OCCULT

The long-awaited sequel
to his
bestselling *The Occult*

ما وراء الغموض بواسطة كولين ويلسون

يناقش القوى غير المرئية للعقل البشري

WATKINS PUBLISHING
LONDON

كولن ويلسون يُعدّ من أكثر الكُتّاب غزارةً وتنوعًا وشعبيةً في عالم الكتابة اليوم. وُلد في ليستر عام ١٩٣١، وترك المدرسة في السادسة عشرة من عمره. بعد أن أمضى سنواتٍ يعمل في مستودع صوف، ومختبر، ومصنع بلاستيك، ومقهى، نُشر كتابه الأول "الغريب" عام ١٩٥٦. وقد نال إشادةً نقديةً واسعةً، وأصبح من أكثر الكتب مبيعًا فور صدوره.

منذ ذلك الحين، ألّف العديد من الكتب في الفلسفة والغيبيات والجريمة والانحراف الجنسي، بالإضافة إلى مجموعة من الروايات الناجحة التي أكسبته شهرة عالمية. تُرجمت أعماله إلى الإسبانية والفرنسية والسويدية والهولندية واليابانية والألمانية والإيطالية والبرتغالية والدنماركية والنرويجية والفنلندية والعبرية.

محتويات

جدول المحتويات التحليلي الجزء الأول: القوى الخفية

مقدمة

طُلب مني كتابة كتاب عن "الغيبيات". لحظات "الحرية الصوفية". تجربة موز موراي في قبرص. تجربتي الخاصة في الألزاس. ديريك جيبسون يرى ما وراء الأشجار. رؤية جاكوب بوهم لـ"بصمة كل شيء". يوليا فوروبييفا تُطور رؤية بالأشعة السينية. جيم كوربيت و"حساسيته تجاه الأدغال". لماذا فقد الإنسان "قدراته الخفية". عبقريات حسابية. كيف نسيطر على "قوانا الخفية". شكوكي الأصلية حول "الغيبيات". اتساق مُبهر في التقارير. "القراءة" من خلال جلد المعدة. "مجتمع الإحساس" تحت التنويم المغناطيسي. بوكانان واكتشاف علم النفس القياسي. بيتر هوركوس والاستبصار. محاولاتي لوضع "نظرية نيوتنية" في الغيبيات. شكوكي المتزايدة.

1 الوسطاء والصوفيون

يدرس لورانس ليشان إيلين غاريت. تُجري قياسات نفسية لشعر ابنته. قضية الطبيب المفقود. قضية مذكرات مارمونتيل. إيلين غاريت تتحدث عن الوساطة الروحية: "نوع من التأمل الداخلي". "لحظة خالدة" لوارنر ألين في قاعة الملكة. هل الزمن وهم؟ الشعراء كـ "متنبئين طبيعيين". أ.

ل. روز على وشك أن تُقطع رأسه. "علية العقل الفائق الوعي". التجربة الصوفية. ويندي روز-نيل مستلقية على حديقتها. كلير مايرز أوين و"الضوء الذهبي". ومضة باك من "الوعي الكوني". "شعاع نور ساطع من السماء". رؤية الله في حظيرة أبقار. مويرا كالديكوت و"الواقع الخالد". رؤية أوسبنسكي لـ"الترابط". بصيرة ستيبنوولف الصوفية. هنري برغسون يتحول من المادية إلى التصوف. عجز الفكر عن استيعاب التجربة. طريقتان لاستيعاب الواقع. الدماغ الأيسر والأيمن. تجارب الذروة. تجربة آن بانكروفت الصوفية. غصن الرودودندرون. دوغلاس هاردينغ يفقد رأسه. هل من المرغوب فيه ألا يكون له رأس؟ "اقتراح حول التصوف" لويليام جيمس. روبرت جريفز و"السيد غان البغيض". عبقري رياضي آخر.

2 الذات الأخرى

حلمي بمنتزه ترفيهي. تومسون جاي هدسون يشاهد عرضًا منومًا

مظاهرة. عودة الفلاسفة الأموات. شاركو والتنويم المغناطيسي. "عقلان" الإنسان - الذاتي والموضوعي. قوة العقل الذاتي: هنري كلاي يتحدث لساعتين. الفنان الذي رأى لوحة قبل أن يرسمها. بويسيغور و"المغناطيسية". المستشار فيزرمان يجري اتصالاً تـوارد خواطر مع صديق. قضية الحقيقة. هدسون يمارس "الشفاء عن بُعد". نجاحه. الدكتور ألبرت ماسون يُجري معجزة. لماذا لم يكن شكسبير بيكون؟ تعلم استخدام الدماغ الأيمن. نظرية لوريل وهاردي للوعي. "الروبوت". التغذية الراجعة السلبية. قوة الشبح. غراهام غرين والمسدس في خزانة الزاوية. كآبة الفلاسفة العظماء. شوبنهاور يشكو من الحياة. "جحر الفأر القذر" لديلان توماس. "خيبة الأمل" لتوماس مان. مرضى الفصام "يتوقفون عن رؤية الأشياء". نقطة الانهيار لآرتسيباشيف. يكتب المعلم إيكيو "انتباه". رحلة هيسه إلى الشرق. تجربتي في عاصفة ثلجية. رفع الوعي بفعل إراديّ. الرحلة إلى نورثامبتون. حل ريلكه: "الثناء رغمًا عن".

3 في حفرة الأرنب رؤية أرنولد توينبي لمعركة فارسالوس. رؤية فرانك سميث للمذبحة قرب غلين غلوماتش. "انزلاق الزمن" لدى توينبي في كريت. تجربته في أنقاض معبد أفسس. رؤيته في مونيمفاسيا. تدمير ميسترا. طبيعة الكلية إكس. الدكتور جونسون ووادي السعادة. رؤية توينبي لـ "التاريخ كله". بروست والمدلين المغموسة في الشاي. تجارب أخرى للكلية إكس موصوفة في بروست. "لقد خُلق الماضي للتعدي على الحاضر". جي كي تشيسترتون و"الأخبار السارة السخيفة". تعلمت هيلين كيلر تهجئة "الماء". لماذا يصعب تحقيق الكلية إكس؟ سارتر و"الغثيان". كامو و"العبث". "الوعي العادي هو شكل من أشكال الغثيان". روكونتان "يمرض" من شجرة. موباسان والفشل الجنسي. مفتاح المحو. الشيطان سكروتاب يصدّ عملية تحوّل. القيم الجسدية والعاطفية والفكرية. "الانقلاب". سارتر في المقاومة الفرنسية. مثل الإمبراطور والصدر الأعظم. آلية "الانقلاب". انضمام آرثر كويستلر إلى الحزب الشيوعي. تجربة كويستلر الصوفية في سجن إسباني. أينشتاين والعلم والتصوف. "وعي العطلة".

4 عالم المعلومات: يرى السيد تشيس كوخًا لم يعد موجودًا. "الانزلاقات الزمنية". السيدات الإنجليزيات في فرساي. جين أونيل وكنيسة فوثرينغهاي. السقوط "في جحر الأرنب". جيه بي بريستلي يتحدث عن الكلية إكس. "الانزلاق الزمني" لإيفان ساندرسون في هايتي. هل يمكن تفسير "الانزلاقات الزمنية" علميًا؟ ليثبريدج ونظرية "التسجيل على الأشرطة". المعرض الطويل في هامبتون كورت. بوكانان و"كلاب الصيد النفسية". دينتون يُجري تجارب على الجيولوجيا.

شظايا. هدسون يهاجم نتائج دينتون. "ذاكرة العقل الذاتي تبدو وكأنها لا حدود لها تقريبًا". فيلا سولا. باسكال فورتوني يُجري قياسًا نفسيًا لرسالة من قاتل. تجارب باجنشيتشر مع ماريا دي زيرولد. والتر فرانكلين برنس و"حبة البحر". ماريا "تشارك" باجنشيتشر وعيه. تجربة ريلكه في قلعة دوينو. كيفية إيقاف الزمن. مطاردة البندول البري لبنتوف. يرى ستيفن جينكينز جيشًا شبحيًا في كورنوال. ترى جوان فورمان أشباحًا في قاعة هادون. "تسجيل صوتي" لمعركة إيدجهيل. ستيفن جينكينز على خطوط الطاقة. تجارب الدكتور روبن بيكر على مغناطيسية الأرض. هل استخدام المنظار خرافة؟ تجارب هارفاليك على المجالات الكهربائية. "جسم الإنسان كاشف مغناطيسي". يكتشف هارفاليك موجات الدماغ. ليثبريدج والبندول الطويل. توم ومينا ليثبريدج يتبادلان الحجارة. إدغار ديفو يبحث عن ربة منزل مفقودة. إديسون يخترع أسطوانة الغرامافون. روبرت ليفتويتش وأنبوب المياه الجوفية. زوجتي تحقق في سجن بودمين. الدكتور ماكسيميليان لانغسنر يحل جريمة قتل. هل الواقع "هناك"؟ "الكون الهولوغرامي". كارل بريبرام وديفيد بوم. هل يمكن أن يكون العالم صورة ثلاثية الأبعاد؟ نظرية بوم عن الواقع باعتباره "نظامًا ضمنيًا". قائد الجناح غودارد يحلق فوق مطار دريم ويرى المستقبل. إيلين غاريت تتحدث عن الاستبصار.

5 الاختراقات؟

حلم ج. ب. بريستلي بإطلاق النار عليه. رؤى تُرى على حافة النوم. ويلسون فان دوسن يتحدث عن الصور التنويمية. امرأة قتلت زوجًا عديم الفائدة. قدرتها على التنبؤ. "الجانب الأنثوي للإلهي" يكتب باليونانية. مريضة الدكتور هيوستن تتحدث مع سقراط. خادمة أمية تتحدث اليونانية واللاتينية والعبرية. "التعلم أثناء النوم". مافروماتيس والصور التنويمية. هل يمكن أن تكون تخاطرًا؟ أبتون سنكلير يُجري تجارب على "الراديو العقلي". جاي بلاي فير يتعلم إحداث حالات التنويم. بلاي فير ينقل صورًا ذهنية إلى جمهور. قوى مارسيل فوجل. الفتاة التي استيقظت في السرير مع زميل ذكر. رودولف شتاينر و"الفضاء الداخلي". شتاينر وأعضاء هيئة التدريس إكس. بليك يتحدث عن الخيال. سجلات أكاشا. ابن دينتون يسافر إلى المريخ. الذاكرة الكونية. سويدنبورغ و"عالم الأرواح". زوجة السفير الهولندي. يونغ يسقط في "جحر الأرنب". خيال نشيط. "الأفكار كالحيوانات في الغابة". "كيان ذكي...". نيلسون بالمر يحل جريمة قتل جوي أكين. مريض يونغ ينتحر. الأشباح تُملي "سبع عظات للموتى". يونغ والكوخ المسكون. يونغ وكتاب التغييرات. يونغ والتزامن. قدرة باولي على التسبب في الحوادث. تجاربي الشخصية مع التزامن. جاك فالي وعبادة ملكي صادق. ريبيكا ويست في مكتبة لندن. كاميل فلاماريون وم. فورتجيبو. تجارب هيلموت شميدت في التحريك النفسي. "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل". هل يستطيع العقل البشري أن "يصنع"؟

"الأشياء تحدث"؟

6 ذكريات المستقبل: يتنبأ أعز أصدقاء ويلبر رايت بموته. يحلم ويلبر رايت بالفائزين. يحلم إيرل أتلي بالفائز في سباق الجائزة الكبرى الوطني. يفوز اللورد كيلبراكن بمبلغ 450 جنيهًا إسترلينيًا. يطور بيتر فيرلي حسًا ثانيًا. أحلام ويلبر رايت للمستقبل: الطائرة الحمراء. جيه دبليو دان وتجربة مع الزمن. نظرية دان عن "الزمن التسلسلي". أحلام ليثبريدج عن المستقبل. "الزمن الحقيقي" لدان. نظريات جيه بي بريستلي عن الزمن. "الزمن ثلاثي الأبعاد" لأوسبنسكي. تجارب آرثر أوزبورن في الاستبصار. هل يمكن تغيير المستقبل؟ المارشال الجوي جودارد و"الليلة التي ظهر فيها رقمي". هل المستقبل مُقدّر مسبقًا؟ جي كي تشيسترتون يتحدث عن القدر المُقدّر. هواجس حول تيتانيك. "مصادفات" مذهلة للتوائم المتطابقة. "توأم جيم". لمحات من قصة حب مستقبلية: آرثر أوزبورن، ج. ب. بريستلي. زمن متوازي؟ أرشيف بريستلي. امرأة تتنبأ بموت ابنها. "كلب سينبح من بعيد". نظرية "الحاسوب العملاق". "الذات الثلاث" لبريستلي. نظرية ويلبر رايت للزمن. روبرت موريس يُقتل بتحية عسكرية. "حقل الزمن الثابت" لويلبر رايت. مفارقات فيزياء الكم. هل يمكن للفوتون أن يتداخل مع نفسه؟ سلوك الإلكترونات غير المنتظم. أينشتاين يصرخ: "الله لا يلعب النرد". يثبت أينشتاين خطأه. نظرية بيل للتباين. توأمان متطابقان مرة أخرى. آلان يذهبان إلى ووتون هاتش. تجربة "الانزلاق الزمني" الخاصة بهم. هل يمتلك البشر الحرية؟

7 عقول بلا أجساد؟
رؤية السيدة ماك ألباين للانتحار. "الشلل". تجربة روبرت كراكنيل مع "الشلل". سيلفان مولدون وإسقاط الجسد النجمي. "تجربة الخروج من الجسد". تقرأ الآنسة زد رقمًا من خمسة أرقام في الغرفة المجاورة. يخرج روبرت مونرو من جسده. يرى غوته شبيهه. دبليو بي ييتس والإسقاط النجمي العرضي. حالات من "أشباح الأحياء". تجربة سوزي باور للإسقاط النجمي. الفتاة و"الساحر". حالات ذكرتها كاميل فلاماريون. تجربة آرثر إليسون مع "الإسقاط النجمي". تجارب إليسون في المختبر. لدغة مامبا سوداء طولها اثني عشر قدمًا من جاك سيل. يتعافى بعد ثمانية أيام من "موته". فان إيدن و"الأحلام الواضحة". "جسد الحلم". يسقط ألبرت هايم من حافة صخرية. تكاد كاريس كروسبي تغرق. تجربة "الخروج من الجسد" لليل واتسون. "الرؤية بعيون الروح". أليكسيس ديدييه و"السفر النجمي". ديدييه يحلّ جريمة. مسمر يُؤثّر على رجل عبر جدار من الطوب. يُنوّم الدكتور جيبرت امرأة مغناطيسيًا عن بُعد. هل من الممكن تنويم شخص مغناطيسيًا رغماً عنه؟ قضية تيموثيوس كاستيلان. قضية فرانز والتر. التنويم المغناطيسي لدى الحيوانات. قدرة الليدي أبركرومبي على التأثير على عقول الآخرين. "بينية". روبرت مونرو يزور أندريا.

بوهاريتش. وعيٌ مُقسّم. انقسمت روزاليند هيوود إلى "أنا الأبيض" و"أنا الوردي". غادر السير أوكلاند جيديس جسده. هل لدينا "مجموعة كاملة من الوعي"؟

الجزء الثاني: قوى الخير والشر 1 البحث عن الأدلة
مشاركتي الشخصية في "البحث عن الأدلة". سكروتاب حول كيفية إبقاء البشر أغبياء. عدم القدرة على الإيمان بالمجهول عندما يكون المألوف في متناول اليد. رامبو عن التحول إلى صاحب رؤية. العطلات تملؤنا بالشجاعة. مشكلة الغريب. هل يمكن للحضارة أن تنجو بدون دين؟ أبراهام ماسلو وتجارب الذروة. ييتس و"العقل الجزئي". تعدد الشخصية: حالة كلارا فاولر. الوجوه الثلاثة لحواء. هل الشخصيات المتعددة هي أشباه؟ حالة دوريس فيشر. نوبات الهلع التي تصيبني. "الإحباط". مشكلة انقسام الذات. حالة بيلي ميليغان. ماكس فريدوم لونغ والعلم السري وراء المعجزات. نظرية هونا عن "الذات الثلاث". الدكتور بريغهام و"لعنة الموت". حالة الدكتور ليبسلي عن تعدد الشخصية. هل يمكن أن يكون تعدد الشخصية "استحواذًا روحيًا"؟ هل توجد الروح منفصلة عن الجسد؟ حالة شانتي ديفي. قضية جاسبير لال جات. قضية عماد. قضية ماري روف ولورانسي فينوم. نظرية ويليام جيمس في تعدد الشخصيات. قضية أنسيل بورن. بداية الروحانية. طرقات هايدسفيل. لماذا لم يؤمن هدسون بالروحانية؟ ناندور فودور والبولترجيست. قضية إستر كوكس. قضية روزنهايم. بولترجيست بونتفراكت. أخبرني غاي بلايفير أن البولترجيست أرواح. تجربتي في بونتفراكت. قصة الراهب الأسود.

2 حقيقة السحر: حياة آلان كارديك. كارديك يشكك في الأرواح. نجاح كتاب الأرواح. مقدمة في علم الأرواح. معالجو الأرواح في البرازيل. أريغو، جراح السكين الصدئة. بلاي فير يحقق في الأشباح في البرازيل. مراكز السحر الأسود. ديفيد سانت كلير مسحور. الفتاة التي دفعها شبح إلى الانتحار. قصة مارسيا وتمثال ييمانجا. لماذا يكون "الخوارق" دائمًا لا يُصدق. إعادة تقييمي للسحر. ساحرات نورث بيريك. السحر في أفريقيا. هل كان شبح روزنهايم روح فتاة مقتولة؟ قضية ربة المنزل المسحورة. مونتاج سامرز وآراؤه في السحر. الشامان رامون ميدينا. شتاينر وعصور الحضارة. مارغريت موراي وعبادة الساحرات في أوروبا الغربية. ستان جوتش يتحدث عن الخوارق. يتعرض مارتن برابر لهجوم من "كيان غير مرئي". ستان غوتش يُغوى من قبل شيطانة. قضية روث. نظرية غوتش عن "التنويم المغناطيسي" للأشباح. جاي بلاي فير وقضية

شبح إنفيلد.

3 عالم الأرواح القضية التي أقنعت يونغ بالحياة بعد الموت. قضية نيلز جاكوبسن. يرى ويلبر رايت شبحًا. الشبح الذي صافح. يظهر جون كوبر باويس لثيودور درايزر. هل الأشباح صور تلفزيونية ذهنية؟ قضية الممرضة الفلبينية المقتولة. قضية إريك تومب. "مس" الأرواح وتعدد الشخصيات. راهبات لودون. قضية والتر فرانكلين برينس لفيليس لاتيمر. كيف آمن جيمس هيسلوب بمس الروح: قضية فريدريك تومسون. قضايا الدكتور تيتوس بول. قضية الشاب العربي "المسكون". بيل سلاتر يقاوم المس. ويلسون فان دوسن وإيمانويل سويدنبورغ. كيف تعلم فان دوسن التحدث إلى "الأرواح". فيليب ك. ديك ممسوس من قبل كيان خير. مس روحي تبتي. آدم كرابتري وقضية آنا إيكلوند. قضية سارة ورثينجتون في قضية كرابتري. قضية الفتاة التي استحوذ عليها والدها. استحواذ أرواح العائلة. الفتاة التي استحوذت عليها إليزابيث باريت براونج. قضية ماريوس. آرثر غيردهام يتحدث عن الهوس. رالف أليسون وقضية جانيت. قضية كاري هورنسبي. قضية بابس. قضية إليز وشانون. هل كان "دينيس" روحًا؟ تصنيفات أليسون لاستحواذ الأرواح. ما وراء العقلانية.

4 رؤى
إيلين غاريت والوعي الرؤيوي. ألبرت تاكر - وسيط روحي غير راغب. المرأة التي جلست على ساقيه. الرجل ذو المعطف الصوفي. تجارب روزاليند هيوود الروحانية. "الغناء". وجود غير بشري. مسيرة إيلين غاريت كوسيطة روحانية. موت أطفالها. "أوفاني". كرهها المتزايد للروحانية. عملها في البحث الروحاني التجريبي. تجربة في الإسقاط النجمي. فشل مع بطاقات زينا. مطاردة قصر آش. قوى خارقة للطبيعة بين البشر البدائيين. نظام "الهاتف" لدى هنود مونتانياس. دوغ بويد والرعد المتدحرج. الرعد المتدحرج في سجن ليفنوورث. قصة دونالد ويلسون عن حداد. هل كان حداد منومًا مغناطيسيًا؟ داسكالوس يتحدث عن التنويم المغناطيسي وخدعة الحبل الهندية. داسكالوس والأرواح النازية. داسكالوس يتحدث عن "العناصر". داسكالوس يتقبل كارما صهره. كيف اقتنع ماركيدس. قصة مصاص الدماء. وباء السحر الأسود. الشيطان في القمقم. داسكالوس وسكاي لاب. داسكالوس عن التركيز. التواصل مع الطبيعة. داسكالوس وستاينر. داسكالوس عن التناسخ. مستويات الوجود الثلاثة. "المنطقة الحدودية" بين عالمين.

5 إكمال الصورة: هل يهم وجود "عالم روحي"؟ المزيد عن التجربة الصوفية. تجربة دالي كينج على رصيف السكة الحديدية.

كومبتون ماكنزي على زاوية شارع. تسرب الطاقة. "أن تكون حراً لا شيء؛ أن تصبح حراً سماوي". الحرية وتجربة الذروة. تجربة باربرا تاكر في الاستماع إلى بيتهوفن. ألبرت تاكر ومتحف الفن الحديث. ما الذي يمنعنا من تجربة الوعي الصوفي؟ تجربة فرانكلين ميريل وولف الصوفية. "المأساة الكبرى - فشل الإنسان في إدراك ألوهيته". بيتهوفن يتحدث عن قوة الموسيقى. تركيز "الأنا". الجنس وتجربة الذروة. داسكالوس يتحدث عن الشخصيتين. مشكلة "الانقلاب". مفهوم "الإكمال". تطور قدرة "الإكمال". كيركيغارد: "خذني لرؤية المخرج". الصوفية و"القوى الخفية". جون هيرون و"الإسقاط النجمي". "الكيانات الحامية"؟ أنيتا غريغوري تتحدث عن "البقاء". لودج وكونان دويل. تي إس إليوت عن شتاينر.

6 نحو المنطقة المجهولة مبدأ الأنثروبولوجيا الضعيف. مبدأ الأنثروبولوجيا القوي: كان على الكون أن يُوجد الحياة. فريد هويل و"المشرف". مبدأ الأنثروبولوجيا التشاركي لجون ويلر. تجربة الفوتون الواحد. هل خُلق الكون بواسطة مراقبين؟ مبدأ الأنثروبولوجيا النهائي: الحياة لن تنقرض أبدًا. هل أتت الحياة من "الخارج"؟ مذهب الحيوية عند برغسون وشاو. التطور البشري. ماذا يقول الصوفيون عن طبيعة الكون؟ التجربة الصوفية أكثر واقعية من الوعي العادي. تجربة آر إتش وارد تحت غاز الأسنان. تجربة الاقتراب من الموت. "ترابط" كل شيء. رؤية أوسبنسكي للزهرة. مستويات الوعي السبعة. ماذا نفعل في هذا "العالم الخشبي"؟ مشكلة "الروبوت". الوعي غير الآلي. "الروح التي تنفي". تجربة مارغريت لين للفصام. غرض اللغة. مشكلة "الشك". كرات البلياردو. ما هو الخيال؟ تطور الإبداع البشري. مشكلة "الغريب". لماذا اعتبر شكسبير الحياة "قصة يرويها أحمق". مشكلة "الانقلاب". فهم آليات تجربة الذروة. "القوى النفسية" دليل على إمكانات الإنسان التطورية.

فهرس

الشكر والتقدير

كالعادة، أُقدّر عاليًا جمعية البحوث النفسية (وخاصةً أمين مكتبتها نيك كلارك-لويس)، وكلية الدراسات النفسية، ومكتبة لندن. كما زودني العديد من الأصدقاء بمعلومات، وأشاروا إلى حالات لم أكن على دراية بها، وسردوا تجارب شخصية. من بينهم: موز موراي، ونونا كوكسهيد، وجون كينيدي ميلينغ، وليال واتسون، ولورانس ليشان، وأندريا بوهاريتش، وغاي ليون بلايفير، وآدم كرابتري، وويليام أركل، وآن بانكروفت، وكريستوفر بيرد، ودوغلاس هاردينج، وديفيد بيت، وبيل كورليس، وبوب كراكنيل، وجيه فينلي هيرلي، وبريان إنجليس، ومينا ليثبريدج، وستانلي كريبنر، وسكوت روغو، وبيتر راسل، وجون هيرون، وديفيد سانت كلير، وإيان كيمبر، وجوان فورمان، وجو غوت. كان لطف ويلبر رايت بالسماح لي بالاقتباس من مخطوطته غير المنشورة عن كتاب التغييرات حافزًا كبيرًا لكتابة هذا الكتاب. عرّفني صديقي هوارد دوسور على ألبرت وباربرا تاكر، اللذين كانت مساهمتهما بالغة الأهمية. أود أن أشكر السير ستيفن رانسيمان على المعلومات التي مكّنتني من تصحيح رواية توينبي عن تجربته في ميسترا. وأخيرًا، أتقدم بجزيل الشكر لجيم كوكرين على اقتراحاته التحريرية القيّمة وعلى صبره الكبير.

سي دبليو

مقدمة للطبعة الجديدة

هذا هو كتابي غير الخيالي الأكثر أهمية.

نُشر هذا الكتاب لأول مرة في عام 1988، وهو يجمع بين تيارين رئيسيين في تفكيري: الأفكار "الوجودية" التي طورتها في كتابي "الخارج"، والأفكار التي تطورت من دراستي لـ"الغامض".

الغريب أنني لم أكن أرغب في كتابته. جاء ذلك بعد أن تواصل معي صديق قديم كان محررًا للعديد من كتبي الأولى.

— من بينها "مصاصو دماء الفضاء" و"تاريخ إجرامي للبشرية". كان يعمل الآن لدى ناشر آخر، وأراد أن يُكلفني بتأليف كتاب "غامض" آخر. كنتُ حريصًا على تلبية طلبه، لكنني لم أرغب في كتابة كتاب آخر عن "الغامض". أخيرًا، اقتنعتُ. بالنظر إلى الماضي، لم أكن يومًا راضيًا عن أي قرار اتخذته.

قبل ثلاثين عامًا، وتحديدًا عام ١٩٥٦، صدر كتابي الأول "الغريب"، وحقق لي شهرةً واسعةً بين عشية وضحاها، وجدتها مُذهلةً ومُرهقةً. ونظرًا لأهمية أفكار "الغريب" في كتاب "ما وراء الغيب"، فلا بد لي من البدء بمحاولة شرحها.

منذ طفولتي، حيرتني ظاهرة غريبة: كيف يمكن أن نرغب بشدة في شيء ما، ثم نشعر بالملل بمجرد حصولنا عليه تقريبًا. لاحظت ذلك بشكل خاص في وقت عيد الميلاد. لأشهر قبل عيد الميلاد، كنت أتطلع إلى امتلاك لعبة طالما رغبت فيها؛ ولكن بعد ساعات قليلة من استلامها، بدأت بالفعل "أعتبرها أمرًا مسلمًا به"، بل وأجدها مخيبة للآمال بعض الشيء. لاحظت الشيء نفسه في العطلات المدرسية - كم كنت أتطلع إليها بشغف خلال الفصل الدراسي، وكم كنت أشعر بالملل منها بسهولة. لمحت حل هذه المشكلة عندما كنت لا أزال تلميذًا في الثالثة عشرة من عمري. في أحد الأيام، في بداية عطلة أغسطس التي استمرت ستة أسابيع، ذهبت إلى بازار الكنيسة، واشتريت مقابل بضعة بنسات بعض مجلدات موسوعة بعنوان "المعرفة العملية للجميع". كان يحتوي على دورات في كل موضوع يمكن تخيله، من المحاسبة، والطيران، والفلك، والأحياء، وعلم النبات والكيمياء، إلى الفلسفة وعلم الحيوان. كنت مفتونًا بعلم الفلك والكيمياء منذ سن العاشرة، والآن بدأتُ أتخيل...

فكرةٌ سخيفةٌ أن أحاول تلخيص كل المعارف العلمية في العالم في دفتر واحد. أطلقتُ عليه عنوانًا مُبالغًا فيه: "دليل العلوم العامة"، وكتبتُ بانتظام طوال عطلة أغسطس تلك، مُلئًا أربعة دفاتر بخط يدي المُستدير كخطّ تلميذ المدرسة. ولاحظتُ أنني لم أشعر بالملل قط. أسعدني تعلّمي - وكتابتي - عن الجيولوجيا والأحياء والفلسفة - من كتاب "المعرفة العملية للجميع" - أكثر من أي وقت مضى في حياتي، وواصلتُ كتابة الكتاب خلال عيد الميلاد، عندما بدأتُ المجلد السابع - المُخصص للرياضيات. طوال فترة كتابتي لهذا الكتاب، كان لديّ شعورٌ أشبه بالسكر بضخامة عالم الأفكار، الذي بدا وكأنه يمتد، كأرضٍ مجهولةٍ رائعة، إلى أفقٍ لا حدود له. كل يوم، عندما بدأتُ الكتابة، شعرتُ وكأنني مسافرٌ يستعد لاكتشاف بحيراتٍ وغاباتٍ وسلاسل جبالٍ جديدة. شعرتُ بالأسف على رفاقي في المدرسة، الذين كانوا يجهلون هذه المملكة السحرية حيث كنتُ أقضي أمسياتي وعطلات نهاية الأسبوع. لقد تعلمتُ درسًا أساسيًا: سرُّ تجنُّب الملل يكمن في امتلاك هدفٍ قوي. للأسف، عندما انتهيتُ من قراءة الكتاب، عادتْ لي مشكلة الملل، إذ لم أكن أعرف ما العمل التالي. قضيتُ عطلةً مدرسيةً طويلةً أحاول قراءة جميع مسرحيات شكسبير ومعاصريه الكبار - مارلو، جونسون، ميدلتون، وغيرهم. وفي عطلةٍ أخرى، قرأتُ أعمالًا لكبار الكُتّاب الروس - أكساكوف، بوشكين، غوغول، تولستوي، دوستويفسكي، وتشيخوف. وفي عطلةٍ ثالثةٍ، درستُ تاريخ الفن، واكتشفتُ فان جوخ وسيزان. ولكن لأني كنتُ أقرأ فقط، لا أكتب عنهما، فقد تركني هذا أيضًا أشعر بالملل وعدم الرضا.

عندما بلغت السادسة عشرة من عمري، عثرتُ على دليل مهم آخر. كان ذلك بعد انتهاء الحرب بفترة وجيزة، عندما بدأ ناشر بريطاني بإعادة نشر روايات دوستويفسكي. اشتريتُ رواية "الجريمة والعقاب" بنقودي. في مقدمة المترجم، قرأتُ رسالة دوستويفسكي إلى أخيه ميخائيل يصف فيها كيف اقتيد هو - وغيره من الثوار المدانين - إلى ساحة سيميونوفسكي لإطلاق النار عليهم.

أصدروا الأوامر من فوق رؤوسنا، وأجبرونا على ارتداء القمصان البيضاء التي يرتديها المحكوم عليهم بالإعدام. ولأنني الثالث في الصف، ظننتُ أن أمامي بضع دقائق من الحياة. فكرتُ فيكم وفي أحبائكم، وقررتُ تقبيل بليتشيف ودوروف، اللذين كانا بجانبي، لوداعهما. وفجأةً، دقّ الجنود وشمًا، وفُكّ قيدنا، وأُعيدنا إلى منصة الإعدام، وأبلغونا أن جلالته... قد أبقى على حياتنا.

أصيب أحد رفاقه في السجن بالجنون. خطر ببالي أنه لو عُرض على دوستويفسكي العفو بشرط أن يتعهد بألا يمل أبدًا طوال حياته، لقبله بصدر رحب، وكان على يقين تام من إمكانية ذلك - بل سهولة تنفيذه. وبدا لي أنه محقٌّ تمامًا. أليس من المؤكد أن من مر بمثل هذه المحنة سيحتاج فقط إلى تذكر موقفه أمام فرقة الإعدام ليغمره النشوة؟

في الواقع، كانت هذه الحادثة - والسنوات التي تلتها في سيبيريا - هي التي حوّلت دوستويفسكي إلى كاتب عظيم. قبل اعتقاله، كان كاتبًا جيدًا ولكنه ثانوي - على غرار ديكنز وغوغول - لكنه كإنسان كان حساسًا ومهووسًا بذاته لدرجة جنون العظمة. جعله اعتقاله - وسجنه الطويل في سيبيريا - يدرك أن مجرد كونه على قيد الحياة هو في حد ذاته سبب للفرح. تتجلى نتيجة رؤيته الجديدة في مقطع في "الجريمة والعقاب"، حيث يخشى البطل أن يُعدم لقتله امرأة عجوز، ويفكر: "لو اضطررت للوقوف على حافة ضيقة إلى الأبد، في ظلام أبدي وعاصفة، لفضلت ذلك على الموت في الحال". لقد رأى أن "فشل الحياة" - أن تشعر بالملل والبؤس وتعذبها مشاعر الذنب - هو شكل من أشكال التدليل الطفولي.

في منتصف مراهقتي، لم تكن مشكلتي مجرد الملل من حياتي كطبقة عاملة (كان والدي عامل أحذية براتب أسبوعي يبلغ حوالي ثلاثة جنيهات إسترلينية). بل كانت رغبتي في الهروب من هذا الملل والعودة إلى ذلك العالم السحري للعقل الذي اكتشفته عند كتابة "دليل العلوم العامة". وقد ازداد هذا الشعور اشتعالاً باكتشافي - من خلال كتاب "المعرفة العملية للجميع" - لعالم الشعر الإنجليزي. تركت المدرسة في السادسة عشرة من عمري، وعملت لبضعة أشهر في مصنع، بينما كنت أستعد لخوض امتحان الرياضيات للمرة الثانية. جعلني العمل في المصنع أشعر بالبؤس الشديد لدرجة أنني كنت أقضي أمسياتي وعطلات نهاية الأسبوع في قراءة الشعر - جميع أنواعه، من "حكايات كانتربري" لتشوسر إلى "الأرض الخراب" لتي إس إليوت. سرعان ما اكتشفتُ أنه بعد نصف ساعة من الانغماس في عالم كيتس أو شيلي أو وردزورث، تحول غضبي ويأسي إلى شعورٍ لطيفٍ بالكآبة، والذي تحول تدريجيًا إلى شعورٍ بالسعادة والتفاؤل، كما لو كنتُ أحلق فوق العالم، أنظر إليه كطائر. عندما صادفتُ لاحقًا في كتابات ريتشارد فاغنر عبارة: "فنٌ يجعل الحياة تبدو كلعبة، ويبعدنا عن مصيرنا المشترك"، فهمتُ على الفور ما يعنيه.

كانت المشكلة الوحيدة في هذه الحالة الذهنية، أي "النظرة الشاملة"، هي أنها زادت من صعوبة العودة إلى العمل في صباح اليوم التالي وقبول "النظرة الشاملة" للملل والتفاهة. بعد سنوات، عندما قرأت رواية توماس مان "بادنبروكس"، أدركت مشكلتي في الحلقة التي ذهب فيها الشاب هانو بودنبروك إلى دار الأوبرا لمشاهدة أوبرا فاغنر.

لوهينجرين، وينتقل إلى حالة من النشوة، فيشعر وكأنه يمشي على السحاب. ولكن عندما يضطر في صباح اليوم التالي إلى الاستيقاظ مع فجرٍ قارس البرودة والتوجه إلى المدرسة عبر الشوارع المظلمة والجليدية، يكون يأسه أشد وطأة لأنه اختبر النشوة في الليلة السابقة.

بدا لي حينها أن مشكلة الوجود الإنساني يمكن التعبير عنها ببساطة شديدة. على فترات متباعدة، نمر بلحظات من القوة والسعادة نشعر فيها بأننا نملك القدرة على تغيير العالم وحياتنا. لكن هذه اللحظات قصيرة. في معظم الأحيان، نشعر بأننا ضحايا الظروف، كأوراق الشجر الذابلة التي يحملها النهر، عاجزين عن اختيار مسارنا. وعندما تشتد الظروف، يسهل علينا أن نتخيل أن القدر سيصيبنا بسلسلة من المصائب، مثل أيوب، ستدمر كل أماننا وتتركنا عاجزين تمامًا.

بينما كنت أقرأ لكتّابي المفضلين - أفلاطون، وهوفمان، وشيلي، ونيتشه، ودوستويفسكي، وإليوت - أو أستمع إلى موسيقى بيتهوفن، أو أنظر إلى لوحات فان جوخ، بدا لي أن الجميع يشتركون في إدراك هذه المشكلة. قال أفلاطون إن الكون ينقسم إلى عالم الوجود وعالم الصيرورة. عالم "الصيرورة" هو عالم المادة اليومي، عالم التغير اللامتناهي، الذي نعلق فيه. عالم "الوجود" هو عالم الفكر والأفكار، عالم الحقيقة والقيم المختبئ خلف واجهة العالم المادي. بينما يستعد سقراط للانتحار، يعلن أن الفيلسوف يقضي حياته محاولًا العيش في عالم الوجود الحقيقي، ولذلك يجب عليه أن يرحب بالموت، الذي يحررنا أخيرًا من ملهيات عالم "الصيرورة" اللامتناهية. أدركت أن هذا هو سبب انبهار الكثير من الرومانسيين بالموت. ومع ذلك، ما زلت أجد فكرة الموت غبية ومنفرة. كانت محاولةً للهروب من الواقع. ولحظات النشوة، تلك الرؤية الشاملة، بدت وكأنها تُبشر بإمكانية عيش الحياة نفسها في سعادةٍ وطمأنينةٍ متواصلتين.

عندما بدأت كتابة رواية في أواخر سنوات مراهقتي، كان من المحتم أن تتناول هذه الرواية مشكلة النظرة الشاملة للأمور من منظور عين الطائر والنظرة الشاملة للأمور من منظور عين الدودة.

بطل رواية "طقوس في الظلام" شابٌّ قضى سنواتٍ يعمل في وظائفَ مُملة، ورغبتهُ الجامحة هي أن يتمتع بحرية القراءة والتفكير والاستماع إلى الموسيقى. ثم يتلقى إرثًا صغيرًا يُمكّنه من استئجار غرفةٍ رخيصة وقضاء أيامه في المكتبات والمعارض الفنية. ويجد أن هذا النوع من "الحرية" مُملٌّ بشكلٍ غريب. ثم يتورط بالصدفة مع رجلٍ يشتبه في أنه قاتل، ويشعر بالخجل لأنه، الآن وقد أصبح لديه ما يُبقي "اهتمامه"، لم يعد يشعر بالملل. يشعر بالخجل لأنه احتاج إلى مُحفّزٍ خارجيٍّ ليُجدّد فجأةً شعوره بالحياة الكاملة، في حين أنه يشعر أنه يجب أن يكون قادرًا على فعل ذلك بنفسه. بالتأكيد يجب أن يستيقظ كل صباحٍ بشعورٍ عميقٍ من الامتنان.

لعدم الحاجة للذهاب إلى المكتب؟ ما الخلل في العقل البشري الذي يبدو عاجزًا عن الحرية؟

بينما كنت أكتب هذه الرواية، قررت التوقف ومحاولة التعبير عن بعض أفكارها الأساسية في مجلد فلسفي. حتمًا، كان هذا الكتاب عن "الغرباء"، الأشخاص الذين شعروا بالشوق إلى شكل أكثر هدفًا من أشكال الوجود، والذين شعروا بالفخ والاختناق في تفاهات الحياة اليومية. كان كتابًا عن "لحظات الرؤية"، وعن فترات الملل والإحباط والبؤس التي تضيع فيها هذه اللحظات. كان عن رجال مثل نيتشه ودوستويفسكي وفان جوخ وتي إي لورنس وويليام بليك، الذين لديهم لمحات واضحة عن طريقة حياة أكثر قوة وذات معنى، ومع ذلك يجدون أنفسهم على وشك الانتحار أو الجنون بسبب إحباط حياتهم اليومية. تلخص مشكلة الغريب في حياة فينسنت فان جوخ. لوحته المسماة ليلة النجوم مليئة بالحيوية الصوفية والتأكيد. ومع ذلك، انتحر فان جوخ وترك رسالةً كُتب فيها: "البؤس لن ينتهي أبدًا". وهنا يكمن السؤال الجوهري: هل كانت مأساة نيتشه وفان جوخ حتمية، أم ينبغي إيجاد طريقةٍ ما تُمكّن البشر من العيش بمستوىً أعلى من الشدة؟

كان استنتاجي الشخصي أن المأساة ليست حتمية. تسبب العديد من الغرباء في سقوطهم من خلال الشفقة على الذات - بمعنى آخر، سمحوا لأنفسهم بالضعف. لماذا؟ لأنهم يميلون إلى الشعور بأن الحياة عبثية وبلا معنى - أو على الأقل، أنها صعبة للغاية لدرجة أنها لا تستحق الجهد المبذول. في القرن العشرين، تم التعبير عن هذا الشعور بوضوح في أعمال صموئيل بيكيت. يُسجل أنه عندما كان شابًا، كان بيكيت يبقى في السرير طوال اليوم لأنه لم يكن يرى سببًا للنهوض. وأعماله جزء من تقليد طويل من "الانهزامية" يعود إلى سفر الجامعة، بما فيه من "باطل الأباطيل، كل شيء باطل"، و"لا جديد تحت الشمس". هذا هو الشعور الذي يطارد العديد من الغرباء، وخاصة عندما يشعرون بالتعب والإحباط. وقد تم التعبير عنه بقوة كئيبة معينة في فلسفة شوبنهاور. لقد أطلقت على هذا الشعور بالملل والعبث اسم "تأثير الجامعة".

عبّر عن هذا الشعور باللامعنى فيلسوف يوناني توفي قبل خمسين عامًا من ميلاد أفلاطون. جادل هيراقليطس بأن عالم "الصيرورة" هو الحقيقة الوحيدة: كل شيء يتغير باستمرار. الثبات وهمٌ من نسج الحواس. لذلك، لا يمكن للإنسان أن يترك أثرًا حقيقيًا على العالم، لأن أي أثر نتركه يتلاشى بسرعة كما يمحو المدّ الكلمات المكتوبة على الرمال. ويعني هذا الرأي، بطبيعة الحال، أنه لا وجود للخير أو الشر، وأن "القيم" مجرد وهم.

هذا هو الشعور الذي ينتابنا بالتأكيد عندما نُنهك من الجهد، وتبدو الحياة كسلسلة لا تنتهي من المشاكل والتعقيدات. لكن الحقيقة هي أن

من المستحيل أن تكون تابعًا حقيقيًا لهيراقليطس. فوفقًا لهيراقليطس، الموت حتمي، فلا جدوى من بذل أي جهد. ومع ذلك، لو سقط هيراقليطس في النهر، لكافح للخروج منه. ولو وضع أحدهم سكينًا على حلقه وسأله: "هل أقطع قصبتك الهوائية وأوفر عليك عناء الحياة؟" لصاح: "لا!".

مع ذلك، لا شك أن هيراقليطس قد وضع يده على مشكلتنا الأساسية: أن كل ما نفعله سرعان ما يتلاشى مع مرور الزمن. فالحياة في جوهرها تكرار. في "أسطورة سيزيف"، كتب كامو:

الاستيقاظ، الترام، أربع ساعات عمل، وجبة طعام، نوم، وأيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، على نفس الإيقاع... ولكن في يوم من الأيام، يبرز السؤال "لماذا؟"، ويبدأ كل شيء في ذلك التعب الممزوج بالدهشة.

يُطلق كامو على هذا الكشف المفاجئ اسم "العبث"، وهي كلمة استعارها من صديقه سارتر، الذي صاغ أيضًا كلمة "الغثيان" للتعبير عن رد فعل الإنسان على العبث. الغثيان هو إدراك مفاجئ بأننا "غير ضروريين"، وأن عالم المادة المحيط بنا هو الحقيقة الوحيدة. أما "المعنى" فهو وهم.

ومع ذلك، وكما هي الحال مع هيراقليطس، تناقض سارتر وكامو. سجّل سارتر أنه لم يشعر قط بحرية كهذه التي شعر بها عندما كان يعمل مع المقاومة الفرنسية، وأنه كان مُعرّضًا للاعتقال والإعدام رميًا بالرصاص في أي لحظة. وفي الليلة التي سبقت إعدامه، غمر بطل رواية كامو "الغريب" شعورٌ بالسعادة والثقة يُشبه ليلة فان جوخ المرصعة بالنجوم. كتب: "كنت سعيدًا، وما زلت سعيدًا".

هذا، بالطبع، يعيدنا إلى دوستويفسكي وهو يواجه الإعدام. فجأةً، أدرك أن الحياة ليست بلا معنى أو غاية. وجميعنا نعرف الشيء نفسه كلما واجهنا أي مشكلة أو أزمة خطيرة. نعلم أن عبارة "الحياة بلا معنى" أو "لا شيء يستحق العناء" هي انغماس فيلسوف كسول وضعيف في آن واحد.

لكن لحظات الأزمة ليست اللحظات الوحيدة التي نُدرك فيها أن فلسفة هيراقليطس وصموئيل بيكيت مجرد هراء. الأمر نفسه يحدث في جميع لحظات السعادة المفاجئة - الشعور الذي نشعر به في صباح ربيعي، أو عند انطلاقنا في عطلة. في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، يصف تي إي لورنس هذه التجربة:

انطلقنا في صباحٍ صافٍ يوقظ الحواس مع شروق الشمس، بينما كان العقل، وقد سئم من تفكير الليل، لا يزال نائمًا. لساعةٍ أو ساعتين، في صباحٍ كهذا، صدمت أصوات العالم وروائحه وألوانه الإنسانَ فردًا فردًا، دون أن يتسلل إليها الفكر أو يُضفي عليها طابعًا نمطيًا: بدت وكأنها موجودةٌ بذاتها بما يكفي، ولم يعد يُزعجها غياب التصميم والدقة في الخلق.

هذه هي الرؤية الشعرية الأساسية، ذلك التأكيد المحض الذي اختبره وردزورث وشيلي وويليام بليك. وقد حدد لورنس أيضًا المشكلة: "العقل المُنهك" الذي يُشكك في كل شيء. وفي موضع آخر، أشار إليها بـ"طبيعته المُثقلة بالأفكار". إنها "الطبيعة المُثقلة بالأفكار" التي تجعل الغرباء يرون الحياة بلا معنى. إنهم في وضع من يرتدي نظارات شمسية ويشكو من ظلمة العالم. ولكن إذا كان الفكر هو سبب هذه المشكلة، فمن المؤكد أنه قادر على تحديد المشكلة والتغلب عليها؟

دعوني أُعرّف هذه المشكلة مجددًا. إنها الشعور بأن "لا شيء يستحق القيام به"، وأن الحياة بالغة التعقيد، والعالم في حالة من التقلب المستمر، لدرجة أن جميع أفعالنا عبث. إنه الشعور بأننا لا نستطيع فعل شيء. ومع ذلك، يتلاشى هذا الشعور - ويُعتبر وهمًا - كلما شعرنا بـ"شعور الصباح الربيعي" الذي وصفه تي إي لورنس. يمنحنا التفاؤل اليقين بأن العمل جدير بالاهتمام، وأن استخدام العقل كفيلٌ بتحقيق الحرية. يكفي أن ننظر حولنا لنرى حقيقة هذا القول. نحن نعيش في عالمٍ تحوّل تمامًا، في غضون ما يزيد قليلًا عن قرن، بفضل العلم والتفاؤل. في الواقع، منذ أيام الإنسان البدائي، غيّر الجهد البشري والتفاؤل العالم باستمرار. مات أفرادٌ في الفشل والبؤس، لكن جهود الجنس البشري غيّرت حياتنا حتى لم نعد مجرد حيوانات، تعيش وتتكاثر وتموت. نحن نتعلم ببطء كيف نصبح شيئًا أشبه بالآلهة.

هذه إذن هي الفلسفة الأساسية التي توصلتُ إليها بعد رواية "الغريب". قال الدكتور جونسون ذات مرة: "عندما يعلم المرء أنه سيُشنق بعد أسبوعين، يُركز ذهنه تركيزًا رائعًا". إن تشاؤم هيراقليطس وصموئيل بيكيت نابعٌ أساسًا من قلة التركيز. إن شعورنا بالعبث، والشعور بأن الحياة مجرد "لعنة تلو الأخرى"، هو وهمٌ ناجمٌ عن التعب.

لكن كيف ننقذ أنفسنا من هذا الشعور؟ أولًا، علينا دراسته وفهمه، كما حاولتُ دراسته وفهمه في رواية "الغريب". حليفنا الأهم في هذه المعركة هو الخيال. إذا استطعتَ تخيّل مشاعر دوستويفسكي وهو يقف أمام فرقة الإعدام، فأنتَ تتعلم بالفعل كيف تتغلب على المضايقات التافهة ونقاط الضعف الطفولية التي تُحزن معظم الناس. الحقيقة هي أنه ليس من حقنا أن نكون تعساء.

إن هذا إهانة لروح الحياة. فالرجل الذي يُحتضر بسبب الإيدز يعلم أنه لو شُفي، لعاش حياته بمستوى أعلى بكثير من العزيمة والتفاؤل.

حتى أواخر ستينيات القرن الماضي، كنت أعتبر نفسي فيلسوفًا وجوديًا، يحاول إنقاذ الوجودية من تشاؤم سارتر وكامو وهايدغر. ولكن في هذه المرحلة، صادفتُ موضوعًا دراسيًا جديدًا غيّر تفكيري تمامًا. سألني ناشر أمريكي إن كنتُ مهتمًا بكتابة كتاب عن "الغيبيات". لم يكن هذا الموضوع يثير اهتمامي كثيرًا. في طفولتي، كنتُ مفتونًا بـ"الروحانية" ومسألة وجود حياة بعد الموت. ولكن بمجرد أن بدأتُ دراسة الكيمياء والفيزياء وعلم الفلك، بدا أن هذا الاهتمام قد تبدّد كالحلم. بعد طلب الناشر، بدأتُ أُفكّر في الأمر من جديد. كما بدأتُ أسأل معارفي إن كانوا قد مرّوا بتجارب "خارقة للطبيعة"، وفوجئتُ بعدد الذين أجابوا بنعم.

كان أحد أصدقائي عازف بيانو يُدعى مارك بريدين. أخبرني كيف كان عائدًا في وقت متأخر من الليل من حفل موسيقي في وسط لندن، وكان يستقل سيارة أجرة على طريق بايزووتر. فجأة، أدرك يقينًا أن سيارة أجرة ستحاول تجاوز الإشارة الضوئية التالية، وستصطدم بها جانبًا. تساءل إن كان عليه تحذير سائقه، لكنه شعر أنه قد يُنظر إليه على أنه مجنون قليلًا. وعند الإشارة الضوئية التالية، حاولت سيارة أجرة تجاوز الإشارة الضوئية في كوينزواي، واصطدمت بها جانبًا.

بدا لي أن هناك تشابهًا بين تجربة مارك وتجربة تي إي لورانس في بزوغ الفجر. كان كلاهما متعبًا، وبالتالي كان "العقل" نائمًا. ولكن ما هي القوة العجيبة التي تُمكّن مارك من إدراك أمرٍ سيحدث في المستقبل؟ كنتُ قد أدركتُ بالفعل أن العقل يمتلك القدرة على النجاة من التشاؤم والهزيمة بالتأمل في فرقة الإعدام. لكن هذا كان أمرًا أغرب وأكثر غرابة.

أخبرني صديق آخر، المؤرخ أ.ل. راوس، كيف كان يُطلّ من نافذة في أكسفورد. كان إطار النافذة ثقيلًا جدًا، وخطر بباله أنه إذا سقط، فقد يقتله بسهولة. ولأنه كان في مزاج سيء، فكّر: "فليسقط هذا الشيء اللعين!". بعد لحظات، وبعد أن سحب رأسه، سقطت النافذة.

أخبرني روز أيضًا كيف راوده شعورٌ مفاجئٌ في ظهيرة هادئة، بأنه إذا دخل مكتبة الكلية، فسيجد شابين يتعانقان. عبر ساحتين ودخل المكتبة، فرأى الشابين يتعانقان.

وكان الأمر الأكثر غرابة هو التجربة التي وصفها لي صديق في منتصف العمر

كاي لونيس، التي كانت تقضي عدة أيام أسبوعيًا في منزلنا، تُساعد في رعاية أطفالنا. وصفت كاي كيف أصيبت بمرض خطير، وشعرت بنفسها ترتفع فوق جسدها لتنظر إليه من أعلى؛ ثم نزلت وعادت إلى جسدها.

قبل بضع سنوات، كنتُ سأفكر على الأقل في احتمال أن يكون هذا نوعًا من الهلوسة بسبب الحمى. ولكن أثناء جمعي للمواد الخاصة بعلم الغيب، صادفتُ حالاتٍ كثيرة جدًا من "تجارب الخروج من الجسد" لدرجة أنني لم أشك في إمكانية ذلك. وصف صديق آخر، ليال واتسون، كيف أنه عندما انقلبت سيارته في كينيا، وجد نفسه فجأةً يحوم فوق الحافلة، وينظر إلى رأس وكتفي صبيٍّ قُذف من منتصف سقف القماش. خطر بباله أنه إذا انقلبت الحافلة أكثر من ذلك، فسوف يُسحق الصبي. بعد بضع دقائق، استعاد وعيه وهو يقود السيارة، وخرج من السيارة، وأنقذ الصبي، الذي كان في نفس الوضع الذي رآه قبل لحظات. الآن، إذا كان هؤلاء الأصدقاء يقولون الحقيقة - وأنا أميل بشدة إلى الاعتقاد بأنهم كانوا كذلك - فإن البشر يمتلكون على الأقل "قوتين" لم يتوقعهما هيراقليطس، وشوبنهاور، وصمويل بيكيت: القدرة على "رؤية" المستقبل، والقدرة على "مغادرة الجسد".

من الواضح تمامًا أنه لو كان هذا صحيحًا، لوجب أخذه في الاعتبار عند أي محاولة لوضع "فلسفة للوجود الإنساني". تتطلب هذه الفلسفة أن نحاول فهم "ماهية الإنسان". وإذا استطاع الإنسان، في لحظات معينة، أن يبصر المستقبل، فهو بالتأكيد أكثر مما افترضه هيراقليطس.

حتمًا، كان عليّ أيضًا إعادة النظر في مسألة الحياة بعد الموت. كان صديق آخر، البروفيسور جي ويلسون نايت، روحانيًا مقتنعًا، وقد روى لي قصة ظرفية بدت وكأنها تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن والدته نجت من الموت. كان دوستويفسكي قد لاحظ ذات مرة أنه إذا وُجد شيء اسمه الحياة بعد الموت، فسيكون أهم ما يمكن للبشر معرفته. وكان دوستويفسكي أعمق الفلاسفة "الوجوديين". في رواية "الإخوة كارامازوف"، يجادل إيفان كارامازوف بأن العالم مليء بالمعاناة لدرجة أنه لا يمكن لأي "دين" تبريره؛ يقول إيفان إنه يريد "إعادة تذكرة دخول الله". هنا يعبر عن فلسفة هيراقليطس وسفر الجامعة وسارتر - أنه في عالم تهيمن عليه المادة الخام، "الإنسان شغف لا طائل منه" محكوم عليه بالهزيمة. ومع ذلك، أدرك دوستويفسكي أنه إذا وُجدت حياة بعد الموت، فإن هذه الحقيقة ستغير كل شيء.

لهذا السبب، اعتبرتُ أدلة الخوارق بالغة الأهمية. فوفقًا للفلسفة الغربية الحديثة، التي بدأت مع ديكارت، من واجب الفيلسوف أن "يشك في كل شيء" حتى يصل إلى قدرٍ من اليقين المطلق - مهما كان ضئيلًا - يستطيع أن يتخذ منه موقفًا.

للأسف، لم تُسفر هذه الطريقة عن أي يقين. فقد دفعت الأسقف بيركلي إلى الشك في وجود العالم المادي، وديفيد هيوم إلى الشك في السبب والنتيجة، بل وحتى في وجود "الذات". كما دفعت سارتر إلى استنتاج أن "حياتنا لا معنى لها، وموتنا لا معنى له"، وكامو إلى اعتبار الحياة البشرية "عبثية". أما جاك دريدا، أشهر فلاسفة فرنسا المعاصرين، فهو ببساطة من نسل هيراقليطس، الذي يعتقد أنه لا وجود لما يُسمى "المعنى الكامن" (الذي يُسميه "الحضور") في الكون؛ وأن الحقيقة الوحيدة هي التدفق اللانهائي للمادة.

عندما ظهر كتاب "الغيبيات" عام ١٩٧١، سرعان ما اتضح أن كثيرًا ممن اعتبروني وجوديًا متمردًا، باتوا يعتقدون الآن أنني انصرفت إلى مواضيع أكثر تفاهةً، وتخليت عن صرامة كتبي "الغريب". بالنسبة لي، كان هذا الرأي غير مفهوم. بدا لي جليًا أنه إذا كان "الخوارق" واقعًا - وهو ما كنت مقتنعًا به بشكل متزايد - فإن أي فيلسوف يرفض أخذه في الاعتبار يكون قد غض الطرف فحسب.

بدايةً، يبدو أن معظم الفلاسفة المعاصرين متحدون في إنكار وجود "ذات" (أو روح) مركزية للإنسان. بدأ الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم هذه الثورة في القرن الثامن عشر عندما أعلن أنه "عندما أتعمق فيما أسميه نفسي، أتعثر دائمًا بإدراك معين أو آخر... لا ألحظ نفسي أبدًا". أعلن سارتر أن الإنسان لا "ذات" له؛ ما يعتقده "نفسه" هو في الواقع من صنع العالم الخارجي، "نظرة الآخرين". وهذا هو الموقف الذي تبناه الفلاسفة الفرنسيون منذ ذلك الحين. يعتقد دريدا، المشهور بنظريته "التفكيكية"، أن "الذات" وهمٌ ابتكره الفلاسفة "الميتافيزيقيون"، الذين يرفضهم بازدراء.

وقد عبرت سيمون دي بوفوار، حليفة سارتر المقربة، عن نفس الفكرة عندما كتبت (في كتابي بيروس وسينياس):

أنظر إلى نفسي عبثًا في المرآة، وأحكي لنفسي قصتي، لا يمكنني أبدًا أن أدرك نفسي ككائن كامل، أشعر في داخلي بالفراغ الذي هو أنا، أشعر أنني لست موجودًا.

بمعنى آخر، الإنسان كائن سطحي بحت؛ فشعوره بالذات أشبه بانعكاس على سطح بركة. وقد أوصل سارتر هذه الرؤية إلى نتيجتها المنطقية عندما أعلن عدم وجود ما يُسمى "العقل اللاواعي".

ومع ذلك، بمجرد أن نبدأ في دراسة ما هو خارق للطبيعة، نواجه على الفور

وجود جميع أنواع القوى التي تُناقض سارتر وسيمون دي بوفوار. فالإنسان أبعد ما يكون عن كونه مجرد انعكاس على سطح بركة، بل يبدو كجبل جليدي يختبئ أهم جزء منه تحت السطح. بالطبع، سبق لفرويد ويونغ أن أخبرانا عن "اللاوعي" (وهي في الواقع من ابتكار لايبنتز). ولكن يبدو أنهما قللا من شأن قدراته. حتى القصص التي ذكرتها آنفًا تشير إلى أن ذلك الجزء من "الذات" المختبئ تحت سطح الماء يمتلك قوى سحرية.

بالطبع - كما أقرّ دوستويفسكي - فإن التناقض النهائي لرأينا القائل بأننا "لا نملك ذاتًا" سيكون دليلًا فعليًا على الحياة بعد الموت، لأنه بدون ذات، لن يكون هناك ما ينجو من الموت. هذا الدليل النهائي بعيد المنال؛ لكن يبدو أن وجود قوى خارقة أخرى لا يدع مجالًا للشك في صحة رؤية "جبل الجليد" للعقل البشري. علاوة على ذلك، يبدو واضحًا أن بعض هذه القوى الكامنة تحت السطح تبدو متناقضة مع الرؤية "العلمية" للإنسان. يخبرنا العلم أن المستقبل لم يحدث بعد؛ لذلك لا يسعنا إلا تخمين ما سيحدث. ومع ذلك، عندما كان مارك بريدين في حالة استرخاء عميق، كانت لديه حدس واضح عما سيحدث عندما تصل سيارته الأجرة إلى إشارة المرور التالية.

لفت روبرت جريفز، الصديق الذي أُهدي إليه كتاب "الغيبيات"، انتباهي إلى مثال آخر عجيب على هذه القوى المجهولة. وُصف هذا المثال في إحدى قصصه الذاتية بعنوان "السيد غان البغيض". في صف جريفز بالمدرسة الإعدادية، كان هناك صبي يُدعى ف. ف. سميلي، يبدو أنه عبقري في الرياضيات، "آلة حاسبة خاطفة". عندما سأل المعلم (السيد غان) الصبية مسألة رياضية صعبة، دوّن سميلي الإجابة ببساطة. وأوضح أنه لم يكن مضطرًا لحلها، لأنها "جاءت إليه" للتو. اتهمه السيد غان بالبحث عن الإجابة في نهاية الكتاب. أنكر سميلي ذلك، وأشار إلى أن الإجابة في نهاية الكتاب تحتوي على رقمين خاطئين. اعتبر السيد غان هذا وقاحة، وأرسل سميلي إلى مدير المدرسة ليُعاقب بالعصا. بعد ذلك، أرغم سميلي على حل المسائل "بالطريقة المعتادة".

في القصة نفسها، يروي جريفز حكاية طريفة عن نفسه. في إحدى أمسيات الصيف، بينما كان جالسًا خلف جناح الكريكيت (وعلى الأرجح في حالة استرخاء تام، مثل تي إي لورانس ومارك بريدين)، تلقّى "نورًا سماويًا مفاجئًا".

خطر ببالي أنني أعرف كل شيء.
أتذكر أنني تركت عقلي يتنقل بسرعة بين جميع الموضوعات المألوفة

المعرفة؛ لأكتشف أن هذا لم يكن وهمًا أحمق. كنت أعرف كل شيء. بصراحة: مع أنني كنت أدرك أنني قطعت أقل من ثلث الطريق في التعليم الرسمي... إلا أنني كنت أحمل مفتاح الحقيقة في يدي، وكان بإمكاني استخدامه لفتح أي باب. لم تكن نظريتي نظرية دينية أو فلسفية، بل طريقة بسيطة للنظر إلى الحقائق غير المنظمة من منظور جانبي لفهمها تمامًا.

هذا، بالطبع، هو تحديدًا ما تسعى إليه الوجودية - وهو تحديدًا ما أحاول فعله في هذه المقدمة: "النظر جانبًا" إلى حقائق الوجود البشري المضطربة، ومحاولة إيجاد طريقة لفهمها. يبدو أن غريفز فعل ذلك عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. يقول إنه جرّب رؤيته "على أقفال عنيدة مختلفة" ووجد أنها جميعًا انفتحت بسلاسة. ظلت هذه الرؤية سليمة عندما استيقظ في اليوم التالي. ولكن عندما حاول تسجيلها في دفتر تمارين، "اندفع ذهني بسرعة تفوق سرعة قلمي". حاول مرة أخرى لاحقًا، لكن هذه الرؤية اختفت.

ومع ذلك، إلى جانب قدرات سمايلي الغريبة، أقنع جريفز بأننا نمتلك قوة غريبة لا يعترف بها العلم عمومًا، وهي "منطق فائق يقطع كل العمليات الروتينية للتفكير وينتقل مباشرة من المشكلة إلى الإجابة".

يجدر بنا أن نتعمق في هذا اللغز. هناك أعداد تُسمى "أعدادًا أولية"، لا يمكن قسمتها على أي عدد آخر دون ترك باقي - مثل 3 و5 و7 و11. العدد 9 ليس عددًا أوليًا لأنه قابل للقسمة بدقة. العدد الفعلي للأعداد الأولية لا نهائي، ولكن إذا كان العدد كبيرًا جدًا، فلا سبيل لمعرفة ما إذا كان أوليًا أم لا - إلا من خلال العملية الطويلة والمرهقة لقسمة كل عدد أصغر عليه. ومع ذلك، سُئلت "عاشقة الحساب" الكندية، زيراه كولبورن، عما إذا كان عدد معين من عشرة أرقام أوليًا، فأجابت بعد لحظة: "لا، يمكن قسمته على 641".

لا توجد طريقة منطقية للقيام بذلك. وصف الطبيب النفسي أوليفر ساكس توأمين غير طبيعيين في مستشفى للأمراض العقلية بنيويورك، يستمتعان بتبادل الأعداد الأولية المكونة من ٢٤ رقمًا. من الواضح أن التوأمين ارتفعا في الهواء، كالطيور، فوق حقل الأعداد الصحيحة، ولاحظا على الفور أيهما أولي وأيهما ليس كذلك.

أود أن أقترح أن القدرة التي مكنت مارك بريدين من "معرفة" أن سيارته الأجرة سوف تصطدم بسيارة أجرة أخرى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقدرة توأم زيرا كولبورن وساكس، وأن كليهما مرتبط بمشاعر تي إي لورانس في الصباح عندما "استيقظت الحواس قبل العقل".

الآن، قبل وقت طويل من اهتمامي بـ "الغامض"، كنت مفتونًا بمثال آخر للقوى التي تكمن "تحت جبل الجليد". (أقول "تحت جبل الجليد").

(جبل جليدي) بدلاً من "تحت الجزء المرئي من جبل الجليد" لأنه بدا لي دائمًا أن القوى الخفية للإنسان تكمن في البحر تحت جبل الجليد بقدر ما تكمن في جبل الجليد نفسه.) وكما يعلم الجميع، فإن رواية بروست الضخمة "البحث عن الزمن المفقود" نشأت من حادثة واحدة في طفولته، تمامًا كما نشأت نظريات جريفز في "الإلهة البيضاء" من تجربته خلف جناح الكريكيت. في أحد الأيام، شعر بطل بروست بالتعب والاكتئاب، فعرضت عليه والدته كعكة صغيرة (تسمى مادلين) مغموسة في شاي الأعشاب. وبينما كان يتذوقها، شعر بإحساس رائع بالسعادة المطلقة. "لقد توقفت الآن عن الشعور بأنني عادي، وعرضي، وفاني". بعد أن تناول لقمة أخرى، تذكر ما الذي تسبب في هذا الشعور بالقوة والسعادة: لقد أحيت المادلين ذكريات طفولته في بلدة ريفية صغيرة تسمى كومبراي، حيث اعتادت عمته ليوني أن تعطيه طعم المادلين الخاص بها مغموسًا في نفس شاي الأعشاب.

لماذا يُسعده هذا الأمر كل هذا السعادة؟ لأنه ذكّره بأعماق جبل الجليد. كان يشعر بالملل والاكتئاب - أي بالسطحية. الآن، يُلقي نظرة خاطفة على أعماق عقله، وعلى قواه الخفية. يُدرك أيضًا أنه لو استطاع إتقان "خدعة" استعادة هذا الشعور، لما عاد إليه التعاسة أبدًا. لهذا السبب، شرع في إحياء هذا الشعور بكتابة روايته الذاتية الضخمة. لكن هذا النشاط الفكري المُتعمّد يفشل. فعندما تُراوده لمحات أخرى من هذا الشعور الساحر بالقوة والجبروت، يكون ذلك دائمًا بالصدفة، عندما يُفكّر في شيء آخر.

في المجلد العاشر من كتابه "دراسة التاريخ"، يصف أرنولد توينبي عدة مناسبات رأى فيها لمحاتٍ غريبة عن واقع الماضي - ليس ماضيه، بل ماضي التاريخ. في كل مناسبة، بدا وكأنه يرى الماضي بالفعل، كما لو أنه نُقل عبر آلة الزمن. في إحدى هذه المناسبات، بدا وكأنه رأى معركة فارسالوس، التي وقعت عام ١٩٧ قبل الميلاد، ورأى بعض الفرسان - الذين كان يجهل هويتهم - يركضون بعيدًا عن المذبحة. يبدو واضحًا من وصفه أنه شعر أن هذا لم يكن "خيالًا"، بل لمحة من الماضي، مثل لمحة مارك بريدين عن المستقبل. (في كتاب "ما وراء الغيب"، أستشهد بالعديد من الأمثلة الأخرى على لمحاتٍ أبعد عن المستقبل، والتي ثبتت صحتها).

في يوم ثلجي بواشنطن عام ١٩٦٦، وأنا أفكر في هذه القدرة الغريبة على "جعل" أوقات وأماكن أخرى حقيقية، أطلقت عليها اسم "الكلية س". لكن لا ينبغي اعتبار الكلية س ملكة "خارقة للطبيعة". إنها ببساطة عكس ذلك الشعور بأننا "عاديون، عرضيون، فانون"، الذي نشعر به جميعًا عندما نشعر بالتعب والاكتئاب، والذي يسميه سارتر "عرضيًا". وكلما استيقظت الكلية س، فإنها تخبرنا أننا لسنا عرضيين، ولسنا عاديين، عرضيين، فانين. قدراتنا أعظم بكثير مما ندرك.

في كتابي "الغيبيات"، أشرتُ إلى أن الحيوانات تمتلك، على ما يبدو، قوى خارقة للطبيعة. أخبرتني زوجة الشاعر الاسكتلندي هيو ماكديارميد أن كلبها يعرف متى سيعود زوجها من رحلة طويلة، ويذهب ويجلس في نهاية طريقهم قبل وصوله بعدة أيام. في إحدى المرات، علم الكلب بعودته قبل وصوله، إذ دفعته الظروف إلى اتخاذ قرار مفاجئ بالعودة إلى المنزل.

في كتابه "آكلو لحوم البشر في كومون"، يصف صائد النمور جيم كوربيت كيف اكتسب موهبةً أطلق عليها "حساسية الغابة"، والتي كانت تُنبئه بموعد الخطر. أزعم أن جميع أسلافنا القدماء كانوا يمتلكون هذه الموهبة، وأننا فقدناها تدريجيًا لأننا لسنا بحاجة إليها. ومع ذلك، لم يفقدها الكثيرون. وصف عالم الآثار كلارنس ويانت كيف يستطيع هنود مونتانييه في شرق كندا التواصل مع أصدقائهم وأقاربهم البعيدين عن طريق التخاطر. عندما يرغبون في التواصل، يذهب الهنود إلى كوخ ناءٍ في الغابة، ويجمعون الطاقة النفسية اللازمة (المانا) من خلال التأمل. عندها يسمع قريبهم صوته - لم تُحدث المسافة فرقًا.

من الواضح الآن أن الرد على الهاتف أسهل عندما نريد التواصل مع قريب بعيد. لكن هذا لا يعني أن الرد على الهاتف "بنفس جودة" التواصل معه عبر الاستبصار. فالهندي القادر على استدعاء هذه القدرات من أعماق عقله يمتلك فهمًا للطبيعة، وشعورًا بالارتباط ببقية الكون، ومعرفة أعمق بذاته فقدناها نحن.

ما حدث واضح. حتى مع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر، كان الشاعر الإنجليزي ماثيو أرنولد ينعى فقدان الإنسان الفيكتوري القدرة على "الشفاء بقوّة وردزورث"، بينما كان تينيسون يشكو من أن العلم دمّر الإيمان وترك الإنسان في كونٍ فارغ، حبيس صغره. لكن المشكلة بدأت قبل القرن التاسع عشر بوقت طويل - ربما عندما نظّم إقليدس الهندسة، ودحرج أرخميدس ثقلاً على مستوٍ مائل. هذا النوع من المعرفة - الذي يُطلق عليه غريفز "المعرفة الشمسية" - طغى تدريجيًا على "المعرفة القمرية" للإنسان، أي وعيه الحدسي بالجزء الخفي من جبل الجليد.

كانت هذه هي المشكلة التي ناقشتها في المجلد الثاني من كتاب "الغريب" (المُسمّى في إنجلترا "الدين والمتمرد"). الآن، في كتاب "ما وراء الغيب"، حاولتُ الجمع بين فلسفة "الغريب" هذه والرؤى التي اكتسبتها من دراسة "الغيب". مع ذلك، بدأتُ كتابة الكتاب على مضض، إذ شعرتُ أنني أُعيد صياغة شيء سبق أن عبّرتُ عنه في كتب سابقة. لكنني سرعان ما أدركتُ أنني أُنشئ توليفة جديدة. تكمن مشكلة البشر في إمكانية "معرفة" شيء ما دون معرفته الحقيقية. ظنّ بروست البالغ أنه "يعرف" أنه...

كان طفلاً في كومبراي، لكن المادلين علّمته أن هذه المعرفة "البالغة" سطحية. ظننتُ أنني أعرف الأفكار التي عبّرتُ عنها في كتب مثل "الغريب" و"الغامض". الكتابة عنها مجددًا جعلتني أدرك أن معرفتي بها سطحية. لكي نعرف شيئًا معرفةً حقيقية، علينا التأمل فيه حتى نستوعبه. (لا بد لي من الاعتراف بأن كتابة هذه المقدمة جعلتني أدرك هذه الحقيقة مجددًا).

ما وراء الغيبياتهي محاولة لجمع كل الأفكار التي ناقشتها هنا، وغيرها الكثير - وخاصة أفكار من مروا بتجارب "صوفية" مفاجئة. جميعها تُعلّمنا الشيء نفسه: أن وعينا "العادي" بأنفسنا سطحي ومخادع. كلنا مثل سيمون دو بوفوار، ننظر في المرآة ونشعر أننا لا نستطيع أبدًا إدراك أنفسنا ككائن متكامل.

إليكم مثالًا نموذجيًا على إحدى هذه التجارب. تصف فتاة كيف، وهي في السادسة عشرة من عمرها، انطلقت في طريقها نحو غابة. "لم أكن أشعر بسعادة أو حزن شديدين، كنتُ عادية فحسب". وبينما كانت تقف في حقل ذرة، تنظر نحو الغابة، تغير كل شيء فجأة.

كان كل شيء يحيط بي هذا الضوء الأبيض الساطع المتلألئ، مثل الشمس على الثلج المتجمد، مثل مليون ماسة، ولم يكن هناك حقل ذرة، ولا أشجار، ولا سماء، كان هذا الضوء في كل مكان ... كان الشعور لا يوصف، لكنني لم أختبر أي شيء في السنوات التي تلت ذلك يمكنني مقارنته بتلك اللحظة المجيدة؛ لقد كان سعيدًا ومبهجًا، وشعرت بالدهشة التي جعلتني مفتوح الفم. ثم أصبحت قمم الأشجار مرئية مرة أخرى، ثم قطعة من السماء، وتدريجيًا اختفى الضوء، وامتد حقل الذرة أمامي. وقفت هناك لفترة طويلة، أحاول عبثًا أن يعود، وقد حاولت مرات عديدة. لقد رأيته مرة واحدة فقط؛ لكنني أعرف في قلبي أنه لا يزال هناك - وهنا - حولنا.

من الواضح أن الفتاة - التي تصف هذا في كتاب بعنوان "رؤية اللامرئي" (وهو عبارة عن رسائل عن التصوف، كُتبت لمؤسسة أليستر هاردي) - مرت بتجربة تُشبه، من بعض النواحي، تجربة بروست. شيء ما "حفّز" هذا الإدراك الرائع للضوء المتلألئ. وهي لا تزال مقتنعة بأنه "لا يزال موجودًا" - وأن وعينا اليومي يُصفّيه بطريقة ما، كما لو كنا نرتدي نظارات شمسية.

من المُحبط للغاية، بالطبع، أننا لا نستطيع تعلم كيفية الوصول إلى هذه الأعماق "تحت جبل الجليد" متى شئنا. ومع ذلك، وكما حاولتُ أن أُبيّن، فإن الأمر ليس صعبًا كما يبدو.

الاستنتاجات التي توصلت إليها على مر السنين هي كما يلي. الرومانسيون

كان لدى رواد القرن التاسع عشر العديد من هذه "اللمحات"، لأنهم عرفوا كيف "يسترخيوا". (لم تذكر الفتاة في الحكاية المذكورة ذلك، ولكن من الواضح أنها كانت في حالة استرخاء عميق). ولكن لأن الرومانسيين كانوا ميالين إلى الضعف - مثل صموئيل بيكيت - لم يجد معظمهم سببًا للنهوض من الفراش، ففشلوا في فهم الدليل الأهم: أن هذه التجارب تجلب شعورًا بالقوة، وأن أفضل طريقة لتحقيقها هي بالتأكيد عدم الانغماس في الضعف والشفقة على الذات. اكتشف أبراهام ماسلو، الذي أطلق على هذه اللحظات "تجارب الذروة"، أن "من وصلوا إلى الذروة" كانوا عادةً أشخاصًا أقوياء وأصحاء، يتأقلمون جيدًا مع حياتهم.

في كتابي "ما وراء السحر"، وصفت مثالاً مثيراً للاهتمام لكيفية نجاحي في تحقيق "وعي أعلى" طوال معظم فترة ما بعد الظهر في عام 1979.

كان رأس السنة، وكنت قد ذهبت إلى مزرعة نائية في ديفون لإلقاء محاضرة على مجموعة من الطلاب. في ذلك المساء، بدأ الثلج يتساقط، وفي صباح اليوم التالي كان كثيفًا لدرجة استحال معها العودة إلى المنزل بالسيارة. اضطررتُ للبقاء هناك ليلة أخرى. في صباح اليوم التالي، أعلنت الأرصاد الجوية عن تساقط المزيد من الثلج، وكان من الواضح أنني قد لا أتمكن من المغادرة لمدة أسبوع. قررتُ محاولة الهرب، وبدأت مجموعة منا بإزالة الثلج من ساحة المزرعة بالمجارف. عندما خفت الثلوج، حاول كل منا قيادة سيارته صعودًا على المنحدر المؤدي إلى البوابة؛ كانت سيارتي هي السيارة الوحيدة التي تمسك إطاراتها بالسطح الزلق.

كان لا يزال هناك نصف ميل من درب المزرعة المغطى بالثلوج بين فناء المزرعة والطريق الرئيسي. كنت أقود سيارتي لبضعة أمتار، ثم أنزل وأساعد في إزالة الثلج. في لحظة ما، خاطرتُ بالقيادة مباشرة عبر حقل لتجنب منعطف طويل في الطريق. وأخيرًا، بعد ساعات من العمل الشاق، عدتُ سيرًا على الأقدام إلى المزرعة لتناول الغداء وأخذ حقائبي. ثم عدتُ سيرًا على الأقدام إلى البوابة الرئيسية، وبدأتُ رحلة العودة الطويلة إلى المنزل.

ومع ذلك، حتى الآن، كان من المستحيل أن أخفف من يقظتي، لأن الطرق الريفية الضيقة كانت مغطاة بالثلوج، وكان من المستحيل رؤية الخندق على كلا الجانبين. كان من السهل أن أبتعد عن الطريق وأعلق مجددًا، ربما طوال الليل. لذلك جلستُ في مقعدي، أُحدّق من خلال الزجاج الأمامي، مُركّزًا كل تركيزي.

بعد ساعات، وصلتُ إلى الطريق الرئيسي، حيث حوّلت حركة المرور الكثيفة الثلج إلى طينٍ موحل، فأصبحتُ قادرًا على الاسترخاء والقيادة بشكل طبيعي. حينها أدركتُ أنني كنتُ مفعمًا بالقوة والتركيز. كل ما رأيتُه كان آسرًا بلا شك، وشعرتُ بمعاني تمتد من حولي إلى البعيد. كل ما رأيتُه ذكّرني بشيء آخر - على سبيل المثال، بأعياد الميلاد في طفولتي. كان الأمر كما لو أن تركيزي، الذي كان ضيقًا ومحدودًا في العادة، قد اتسع وتعمق، حتى أصبح العالم بأسره ساحرًا.

علمني أن "الوعي الأعلى"، "الوعي الإيجابي"، يمكن تحقيقه من خلال فعل التركيز المركّز.

في كتابي "ما وراء الغيب"، أقتبس أيضًا تجارب كاتب يُدعى آر إتش وارد، الذي يُعد كتابه عن المخدرات المهلوسة، "مذكرات متعاطي المخدرات"، من الكلاسيكيات الحديثة. يصف وارد في بداية الكتاب كيف مرّ بتجربة استثنائية تحت تأثير غاز الأسنان. يكتب: "بعد الاستنشاقات القليلة الأولى للغاز، انتقلتُ مباشرةً إلى حالة وعي أكثر اكتمالًا من أقصى درجات الوعي العادي". كان لديه إحساس برؤية واسعة للغاية، بحيث كان عقله مُدركًا لجميع أنواع الأشياء التي عادةً ما تكون خارج نطاق وعيه الطبيعي. ومثل روبرت جريفز خلف جناح الكريكيت، بدا وكأنه يفهم كل شيء. وبينما كان يواصل "الارتقاء"، بدا وكأنه يمر عبر "منطقة من الأفكار". "كل شيء كان فكرة، والشكل غير موجود". ويضيف: "يبدو لي من المثير للاهتمام للغاية أن يتلقى المرء، على كرسي طبيب الأسنان وفي القرن العشرين، تأكيدًا عمليًا لنظريات أفلاطون". باختصار، أدرك وارد صحة فكرة أفلاطون القائلة بأن الكون يتكون من عالمين: عالم الوجود، وعالم الوجود الحقيقي. كما أدرك زيف اعتقاد هيراقليطس بأن العالم الوحيد هو عالم الوجود.

إذا تأملنا دوستويفسكي مرة أخرى أمام فرقة الإعدام، لرأينا أن توقع الموت حفّزه إلى مستوى جديد من التركيز، حيث ركّز عقله بشكل غير مسبوق - كما ركّزتُ أنا عقلي وأنا أقود سيارتي عبر الثلج. إن هذا التركيز - كسحب مكبس زنبركي أو خيط قوس ونشاب - هو ما يمنح العقل القدرة على إدراك الأعماق الهائلة الكامنة "تحت جبل الجليد".

الجزء الأول
القوى الخفية

مقدمة

بدأ اهتمامي الجاد بالظواهر الخارقة للطبيعة قبل عشرين عامًا، في أواخر ستينيات القرن الماضي، عندما سألني ناشر أمريكي إن كنت مهتمًا بكتابة كتاب عن "الغيبيات" - وهو موضوع حقق شعبية هائلة منذ أن بيع كتاب "صباح السحرة" للكاتبين لويس باولز وجاك بيرجييه أكثر من مليون نسخة في فرنسا عام ١٩٦٠. قبلت العرض بروح مرحة نوعًا ما. فمثل معظم الناس، لطالما استمتعت بقراءة التكهنات حول أطلانطس، ووحش بحيرة لوخ نيس، وأشباح قصر بورلي، وجمعت مكتبة كبيرة نسبيًا من الكتب المستعملة والكتب الورقية الرخيصة حول هذه الأمور. ولكن كان لدي سبب آخر للقبول. فلسنوات عديدة، كنت متمسكًا بقناعة راسخة، ترقى إلى حد اليقين، بأن جميع البشر يمتلكون "قوى خفية".

بعض هذه القوى تندرج تحت عنوان الإدراك الحسي الفائق؛ فقد عانيتُ من آلام ولادة زوجتي، وفي إحدى المرات عانيتُ من ألم أسنانها. وصفت لي صديقة مقربة من العائلة كيف وجدت نفسها تطفو فوق جسدها أثناء مرض خطير، بينما تنبأت أخرى بحادث مروري - تصادم مع سيارة أجرة أخرى - قبل دقيقة على الأقل من وقوعه. لكن لم يكن هذا النوع من "القوى الخفية" هو ما أثار اهتمامي حقًا. لقد كنتُ أكثر انبهارًا بتلك اللحظات الغريبة من الفرح الخالص التي نشعر فيها بإحساس إلهي بالقوة أو الحرية. على سبيل المثال، ما يلي مأخوذ من رواية صديق عن "تنوير" حدث له عندما كان يتجول حول العالم عام ١٩٦٤:

مررتُ باضطرابات عاطفية وحرمان شديدين خلال رحلاتي، ووصلتُ إلى ميناء ليماسول [في قبرص] بارتياح كبير بعد أن تركتُ مشاهد معاناتي خلفي. في إحدى الأمسيات، كنتُ جالسًا أتأمل البحر في ضوء الغروب، بعد أن انتهيتُ لتوي من تناول وجبة في مطعم يوناني صغير، أشعرُ بسكينة واسترخاء شديدين، عندما بدأتُ أشعر بضغط غريب في رأسي. كان الأمر كما لو أن يدًا حنونة لذيذة انزلقت بخدر تحت جمجمتي، وضغطت على رأس آخر فوقي.

لقد شعرت بسيولة مثيرة للوجود وإحساس لا يوصف، كما لو أن

كان الكون كله يُسكب فيّ، أو ربما كما لو كان الكون كله يتدفق مني من مركز عميق. ارتعشت "روحي" وانتفخت، وتجاوز وعيي المحيط واليابسة في كل الاتجاهات، عبر السماء وإلى الفضاء. في لحظات، كنت بين النجوم والكواكب وكيانات فضائية عجيبة. بطريقة ما، أدركتُ وجود كائنات عظيمة، على ارتفاع ملايين الأميال، تتحرك في الفضاء، ويمكن رؤية النجوم من خلالها. اجتاحت موجة تلو الأخرى من الوحي كياني كله، بسرعة تفوق قدرة عقلي على تسجيل سوى فرحها ودهشتها.*

لم أختبر يومًا تجربةً غامرةً كهذه. ولكن منذ طفولتي، كنتُ أميلُ إلى الانجراف في أجواءٍ من السعادة الغامرة والثقة بالنفس، تلك التي يُطلق عليها عالم النفس أبراهام ماسلو "تجارب الذروة". إحدى أكثر هذه التجارب وضوحًا حدثت لي عندما كنتُ في التاسعة عشرة من عمري، وكنتُ أسافرُ عبر فرنسا إلى ستراسبورغ. أوصلني سائق شاحنة إلى حافلة صغيرة، وتناولتُ وجبةً ساخنةً وشربتُ كأسًا من النبيذ. حتى ذلك الحين، كنتُ أجدُ الأمرَ مُرهقًا نوعًا ما في بلدٍ أجنبيٍّ بثروةٍ ضئيلة؛ ولكن بينما كنتُ أخرج من الحافلة وأنظر عبر الريف المُمتدّ إلى الجبال البعيدة، شعرتُ بفرحٍ عميقٍ لدرجة أن جميع مشاكل حياتي تلاشت تمامًا. كان الأمرُ أشبهَ بتغييرٍ في وجهة نظري، كما لو أنني غادرتُ جسدي فجأةً ونظرتُ إلى حياتي. لا شكَّ أن للنبيذ علاقةً بذلك، ولكن هذا ليس هو المهم، فما اختبرتُه لم يكن مجرد "شعور" بل رؤية. مرة أخرى، كما في مناسبات عديدة أخرى، أدركتُ أن مشكلة البشر الحقيقية تكمن في انغماسهم في الحياة، كرسام قصير النظر يضطر للرسم وأنفه على بُعد بوصة واحدة من اللوحة، وهذا القرب يحرمنا من المعنى. نقبل هذا كأمر حتمي - فنحن في النهاية بشر، ولسنا طيورًا، والحياة العصرية تتطلب اهتمامًا مستمرًا بالتفاصيل. لكن "لحظات الرؤية" تكشف أن هذا الافتراض خاطئ. يبدو أننا نمتلك موهبةً تُبعدنا فورًا عن الواقع الحاضر - تمامًا كما يستطيع الرسام قصير النظر، إن شاء، أن يبتعد عن اللوحة ويضع نظارة قوية. لو تعلمنا كيف نستدعي هذه الموهبة متى شاءنا، لتغيرت حياتنا، لأننا نهدر 90% من وقتنا في التعامل آليًا مع مشاكل تافهة، ونبالغ في تقديرها بشكل كبير. وإذا استطاع كثير من الناس أن يتعلموا ذلك، فإن أرضنا نفسها سوف تتحول، لأن معظم القبح والشر في حياتنا يرجع إلى التوتر و"الانغلاق".

ولعل أهم جانب في "لحظات الرؤية" هذه هو أنها توحي بوجود طريقة لاكتساب المعرفة تختلف تمامًا عن الطريقة التقليدية "للتعلم من التجربة". فعندما تُفعّل القدرة الرؤيوية، يبدو أن العقل قادر على اختراق الواقع - بالأحرى في...

طريقة الأشعة السينية - وفهم المعاني التي عادة ما تفلت منها.
في عام 1969، كان رجل يُدعى ديريك جيبسون مسافرًا إلى العمل بالدراجة النارية عندما لاحظ أن صوت محرك دراجته النارية قد تلاشى إلى مجرد همهمة:

ثم تغير كل شيء فجأة. استطعتُ رؤية كل شيء بوضوح كما كان من قبل، شكلاً ومضموناً، لكن بدلاً من النظر إلى كل شيء، كنتُ أنظر إلى داخل كل شيء. رأيتُ ما تحت لحاء الأشجار ومن خلال جذوعها. كنتُ أنظر إلى العشب أيضاً، وكان كل شيء مُكبّراً بلا حدود. لدرجة أنني استطعتُ رؤية كائنات مجهرية تتحرك! حينها، لم أكن أرى كل هذا فحسب، بل كنتُ حرفياً بداخله. في الوقت نفسه الذي كنتُ أنظر فيه إلى هذه الكتلة الخضراء، كنتُ أُدرك كل شفرة عشب وطية من الأشجار كما لو أن كل واحدة منها وُضعت أمامي واحدة تلو الأخرى ودخلتُ إليها.
أصبح عالمي أشبه بعالم خيالي من الأخضر والبني الزاهي، ألوانٌ لا تُرى بل تُلمس. وفجأةً، لم يعد عقلي يُلاحظ، بل كان يعيش ما يُسجله. لم أكن موجودًا. تدفقت القوة والمعرفة في ذهني. تبلورت الكلمات في داخلي - أتذكرها بوضوح - "الآن أعرف"، "لا يوجد شيء لا أستطيع الإجابة عليه. أنا جزء من كل هذا".[*]
وقد وصل وحي مماثل إلى المتصوف البروتستانتي جاكوب بوهم في عام 1600. وهذا ما وصفه كاتب سيرته الذاتية الأسقف هانز مارتنسن:

في أحد الأيام، بينما كان جالسًا في غرفته، وقعت عيناه على طبق من القصدير المصقول، يعكس ضوء الشمس ببهاءٍ بديع، فغمرته نشوةٌ داخلية، وبدا له أنه يستطيع الآن النظر في مبادئ الأشياء وأساساتها العميقة. ظنّ أنها مجرد وهم، ولكي يطردها من ذهنه، خرج إلى الحقول الخضراء. لكنه هنا لاحظ أنه يستطيع النظر إلى جوهر الأشياء، إلى الأعشاب والعشب، وأن الطبيعة الحقيقية تتناغم مع ما رآه في أعماقه.[†]
يبدو جليًا أن ديريك جيبسون وجاكوب بوهمي مرّا بنفس التجربة الأساسية، وبالتالي فهي قدرة طبيعية تمامًا يمكن تفعيلها في أي وقت لدى أيٍّ منا. وكأن الجنس البشري يعاني من عمى الألوان.
- كما هي الحال مع معظم الحيوانات - وفجأة يتطور لدى عدد قليل من الرجال القدرة على رؤية الألوان.
يبدو واضحًا أيضًا وجود صلة وثيقة بين هذه التجارب "الصوفية" والقدرة التي تُسمى الإدراك الحسي الفائق. على سبيل المثال،

ذكرت صحيفة إزفستيا الروسية في يونيو 1987 حالة امرأة تدعى يوليا فوروبييفا، 37 عامًا، والتي أُعلن عن وفاتها بعد تلقيها صدمة كهربائية بقوة 380 فولت في مارس 1978. تعافت بعد يومين في المشرحة، لكنها لم تتمكن من النوم لمدة ستة أشهر تالية. ثم غرقت في نوم طويل، واستيقظت لتكتشف أنها اكتسبت قوى خارقة للطبيعة. "ذهبت للتسوق في صباح أحد الأيام. وصلت إلى محطة الحافلات وكانت امرأة تقف هناك. فجأة أصابني الرعب - ظننت أنني أستطيع الرؤية من خلال هذه المرأة مثل شاشة التلفزيون." عندما أجرى مراسل إزفستيا مقابلة معها، نظرت إلى معدته وأخبرته بشكل صحيح بما تناوله على الغداء. في غضون ثوانٍ من مقابلة الطبيب، تمكنت من إخباره أن إحدى أذنيه أضعف من الأخرى، وأن الأمر نفسه ينطبق على عينيه.

ومن الجدير بالذكر أن فوروبييفا صرحت أيضًا أنها تستطيع رؤية الأشعة فوق البنفسجية من الشمس. قد يوفر هذا دليلًا على "رؤيتها بالأشعة السينية". لا تستطيع العين البشرية رؤية ضوء الأطوال الموجية إلا بين 16 و32 مليونًا من البوصة (البنفسجي والأحمر على التوالي). ويبدو أن الطبيعة قد قررت أنه لن يكون من المفيد للعين اكتشاف طاقة الأطوال الموجية الأطول من 32 مليونًا (الحرارة والموجات الدقيقة)، أو الأقصر من 16 مليونًا (الأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية). ولكن قد نعتبر هذه الحدود تعسفية إلى حد ما. في عام 1828، دخل شاب يُدعى كاسبر هاوزر إلى نورمبرغ وقدماه تنزفان، وسرعان ما اتضح أنه كان محتجزًا في غرفة مظلمة منذ ولادته. اكتشف الأطباء الذين فحصوه أنه نتيجة لذلك كان قادرًا على القراءة بصوت عالٍ من الكتاب المقدس في غرفة مظلمة تمامًا ورؤية حرارة الموقد قبل أن يصبح أحمرًا ساخنًا بوقت طويل. * ويبدو أن فوروبييفا قد طورت القدرة على "رؤية" الطاقة من وراء الطرف الآخر من الطيف، بما في ذلك الأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية؛ إحدى النتائج - وفقًا لصحيفة إزفستيا - هي أنها تستطيع الرؤية من خلال السطح الإسفلتي للطريق إلى التربة الموجودة تحته.

ومن السهل أن نفهم لماذا لا يمتلك البشر عيونًا ذات أشعة سينية.

إنها ببساطة ستُعقّد حياتنا دون أن تُعزز قدرتنا على البقاء. لكي نعيش بأقصى قدر من الكفاءة، يجب أن تكون حياتنا بسيطة قدر الإمكان. لو استطاع إنسانٌ ما أن يتسلل إلى عقل ضفدع، لذهل من بساطة عالمه. أظهرت التجارب أن عيني الضفدع لا تنقلان إلا معلومات محدودة للغاية إلى دماغه - صورة مبسطة لما يحيط به، وظلال متحركة قد تكون أعداءً، وأشياء صالحة للأكل كالذباب. أما كل شيء آخر فيتم تجاهله. البشر أكثر تعقيدًا لأنهم بحاجة إلى ذلك للبقاء؛ لكن أي شيء لا قيمة له للبقاء تُستبعده الحواس.

هناك أدلة قوية على أننا "صفّينا" أيضًا قوىً مختلفةً امتلكها أسلافنا. يشرح صائد النمور جيم كوربيت، مؤلف كتاب "آكلو لحوم البشر في كومون"، كيف طوّر قدرةً يُطلق عليها

"حساسية الغابة"، التي أنقذت حياته في كثير من الأحيان عندما كان النمر يتربص. لكن من الواضح أن هذه القدرة لا طائل منها لسمسار البورصة. هناك أيضًا أدلة كثيرة - سنتناولها لاحقًا - على أن الحيوانات والشعوب البدائية تمتلك قدرات إدراك حسية فائقة التطور تفوق بكثير قدرات البشر المتحضرين. لسنا بحاجة إليها؛ لذلك تخلصنا منها - أو بالأحرى خزنناها في مكان بارد، لاستعادتها عند الحاجة (كما فعل جيم كوربيت، على سبيل المثال، عند مطاردة النمور). يبدو أن كاسبر هاوزر ويوليا فوروبييفا يشيران إلى أن أدمغتنا "مُبرمجة" لإدراك الأشعة السينية والأشعة تحت الحمراء، ولكن نادرًا ما نلجأ إلى تفعيل هذه القدرات.

لكن الآن نصل إلى الجزء الأكثر حيرة. من السهل جدًا إدراك سبب تخلي الإنسان عن "حساسية الغابة" وغيرها من أشكال الإدراك الحسي الفائق: فهي لم تعد ضرورية لبقائه. لكن "لحظات الرؤية" كتلك التي اختبرها موز موراي وديريك جيبسون مسألة مختلفة تمامًا. لا يمكن أن تكون قوى كهذه ضرورية لبقائنا في أي مرحلة من مراحل تطورنا. في الواقع، تبدو وكأنها تناقض نظرية التطور. إذا فكرت في تطور الكائنات الدقيقة إلى أميبا، ثم إلى أسماك، ثم إلى حيوانات برية، يمكنك أن ترى أنه لم يكن هناك جدوى من تطورنا عندما كنا بحاجة إلى القدرة على الرؤية في أعماق الأشجار أو الطفو بين النجوم والكواكب في الفضاء. وينطبق الأمر نفسه على العديد من القدرات الدنيوية الأخرى. يمكن للأطفال المعروفين باسم "المعجزات الحسابية" أن يحققوا إنجازات مذهلة بالأرقام. سأل صبي في الخامسة من عمره يُدعى بنيامين بلايث والده عن الوقت، فأجابه: "الرابعة والنصف". بعد دقائق قليلة، قال الطفل: "في هذه الحالة، كنتُ حيًا..." وحدد عدد الثواني منذ ولادته بالضبط: حوالي 158 مليون ثانية. سجّل والده ذلك على ورقة وقال: "لا، لقد أخطأتَ بـ 172,800 ثانية". قال الطفل: "لا، لم أكن كذلك، لقد نسيتَ السنتين الكبيستين".

التفسير الواضح لذلك هو أن أدمغتنا "مُبرمجة" لحساب الأرقام، وبعضها أفضل من غيرها في ذلك - ففي النهاية، يستطيع المعداد العادي حساب المليارات والتريليونات إذا لزم الأمر. لكن هذا التفسير ببساطة لا يتوافق مع الحقائق. على سبيل المثال، هناك أعداد معينة تُعرف بالأعداد الأولية - وهي أعداد لا يمكن قسمتها بدقة على أي عدد آخر، مثل 5، 7، 13، 17، وهكذا. ولكن لا توجد طريقة بسيطة لمعرفة ما إذا كان عدد ما أوليًا إلا بقسمة جميع الأعداد الأصغر عليه. لذا، إذا كان عدد ما كبيرًا جدًا، فلا توجد طريقة سريعة لمعرفة ما إذا كان عددًا أوليًا أم لا؛ حتى الحاسوب الحديث سيضطر إلى القيام بذلك "بالطريقة الصعبة". ومع ذلك، هناك بعض عباقرة الحساب الذين يستطيعون القيام بذلك على الفور تقريبًا. سُئل "الحاسبة السريعة" الكندية "زيرا كولبورن" عما إذا كان عدد معين من عشرة أرقام أوليًا أم لا؛ وبعد لحظة من التفكير، أجاب بأنه ليس كذلك.

لأنه يمكن قسمته على 641. ومع ذلك، كان ما فعله مستحيلاً منطقياً. وصف الطبيب النفسي أوليفر ساكس توأمين غير طبيعيين في مستشفى للأمراض العقلية في نيويورك، يستمتعان بتبادل الأعداد الأولية المكونة من أربعة وعشرين رقماً - وهو أمرٌ أشد استحالة. لا يمكن "برمجة" الدماغ لأداء مثل هذه الأعمال البطولية فوراً. لا بد أن التوأمين يصلان إلى نتائجهما من خلال عملية غير منطقية أشبه بالرؤية الغامضة. (شعر ديريك جيبسون بالشعور التالي: "لا يوجد شيء لا أستطيع الإجابة عليه...")

مرة أخرى، نواجه السؤال: كيف تطورت هذه القدرات في سياق تطورنا الطبيعي؟ بدأ الإنسان كأميبا، ثم تحول إلى سمكة، ثم أصبح برمائيًا، ثم تطور إلى نوع من القوارض، ثم إلى قرد، ثم إلى إنسان. لا مجال في هذه العملية لقدرة على تمييز الأعداد الأولية المكونة من أربعة وعشرين رقمًا. من السهل بالطبع شرح كيف قد نطور مثل هذه القدرة في وقت لاحق. ففي النهاية، تعني كلمة "التطور" في حد ذاتها امتدادًا لقدراتنا. الأمر المحير حقًا هو أننا نبدو وكأننا نمتلك هذه القدرة بشكل كامن. ربما يقول جي كي تشيسترتون إن هذا يثبت أن الإنسان ملاك ساقط وليس "قردًا صاعدًا". مهما كان التفسير، يبدو أنه يتعارض مع المنطق السليم.

ومع ذلك، إذا كنا على استعداد لاستخدام القليل من الخيال، يمكننا أن نبدأ في رؤية على الأقل الخطوط العريضة للإجابة. وأنت تقرأ هذه الكلمات، حاول أن تتذكر كيف كان الأمر عندما تعلمت القراءة لأول مرة - البؤس والغضب، في محاولة فهم صف تلو الآخر من الرموز الصغيرة المتعرجة؛ تذكر كيف شعرت أحيانًا كما لو كنت تختنق ورأسك ينفجر. ومع ذلك، فأنت الآن تقرأ بشكل طبيعي تقريبًا كما تتنفس. وذلك لأنك قمت بتأديب كل تلك الطاقات المتفجرة، ووضعتها في لجام وروّضتها كما يروّض الفارس مهرًا بريًا. الآن أصبح الانضباط لا شعوريًا تمامًا ولا تلاحظه حتى - إلا إذا كانت الطباعة صغيرة جدًا أو كنت تشعر بالتعب ونفاد الصبر. منذ آلاف السنين، يفرض الإنسان المتحضر انضباطًا مماثلاً على حواسه، بحيث لم يعد يلاحظ أنه يرتدي سرجًا ولجامًا.

في الواقع، لقد تعلم النظر إلى العالم من خلال مجهر يُظهر له الحاضر المباشر بوضوحٍ بالغ، ما يُمكّنه من التعامل معه بدقةٍ مُذهلة. ولكن بما أن انتباهه لا يتسع إلا لعددٍ قليلٍ من الأشياء في كل مرة، فهو مُضطرٌ إلى "نسيان" 99% من تجربته، أو على الأقل وضعها في مكانٍ بارد. (أخبر شرلوك هولمز واتسون أنه لا يُبالي إطلاقًا بدوران الأرض حول الشمس أو العكس؛ وقال إن عقله كعلويةٍ لا تتسع إلا لعددٍ مُحددٍ من الحقائق، لذا إذا اعترف بمعلومةٍ جديدة، فعليه التخلص من معلومةٍ قديمة). من المُؤكد أن للحيوانات شكلًا أوسع وأكثر إثارةً للاهتمام من الوعي - ربما أقرب إلى وعي رجلٍ ثملٍ قليلًا، يرى العالم كله دافئًا ومُشرقًا بشكلٍ رائع.

مكان.
أوضح سمة للتجربة الصوفية هي أنها تحدث للأشخاص المسترخين. كانت موز موراي تسترخي خارج مقهى قبرصي، وكان بومه يحدق في طبق من القصدير، وكان ديريك جيبسون يسلك طريقًا مألوفًا في الصباح الباكر. في هذه الحالة، يبدو أن اللجام غالبًا ما ينزلق، مما يسمح لنا بتجربة شيء أقرب إلى الوعي الحر غير المقيد للحيوان أو الطفل بـ"مجده ونضارته". لذا، بدلًا من أن ندرك شيئًا أو اثنين فقط، نلقي نظرة خاطفة على بانوراما الوجود بأكملها. لا بد أن التوأمين ذوي القدرات العقلية غير الطبيعية، القادرين على تبادل الأعداد الأولية المكونة من أربعة وعشرين رقمًا، يحلقان بطريقة ما فوق "حقل الأرقام" بأكمله، كطيور تنظر إلى المناظر الطبيعية وترى التلال والبحيرات والقرى في لمحة.
باختصار، يكمن قصورنا الرئيسي في افتراضنا أن وعينا الضيق والمُحكم بإحكام طبيعي، بينما هو في الواقع شاذٌّ وغير طبيعي إلى حدٍّ كبير. تكمن مشكلة البشر الأساسية ببساطة في عدم قدرتهم على "تجميع كل شيء". نملك كل أجزاء أحجية الصور المقطوعة، لكنها ضخمة لدرجة أننا لا نراها كاملةً أبدًا. في اللحظة التي نتعلم فيها استيعاب هذه الحقيقة، نبدأ أيضًا في تعلم كيفية تحقيق "لحظات الرؤية" بإرادتنا، وكيفية السيطرة على "قوانا الخفية".

عندما بدأتُ البحث المنهجي لكتابي "الغيبيات"، لا بد لي من الاعتراف بأن موقفي كان متشككًا في جوهره. في طفولتي، كنتُ مفتونًا بالروحانية والأشباح والسحر، وكنتُ ألتهم جميع كتب قسم "الغيبيات" في مكتبتنا المحلية، من كتب الأشباح إلى كتب الفودو. ولكن في حوالي سن الحادية عشرة، أهدتني والدتي مجموعة أدوات كيميائية، وأخرج عمي كتابًا في علم الفلك، فانبهرتُ بسحر العلم القوي. فجأةً، بدا لي "الغيبيات" سخيفًا ومثيرًا للاشمئزاز بعض الشيء. لاحقًا، عندما قررتُ أن أصبح كاتبًا لا عالمًا، أصبح موقفي أقل انتقادًا، وبدأتُ أشعر بحنينٍ ما إلى اهتمامات الطفولة - مثل القتل والخوارق. في الرابعة والعشرين من عمري، وبصفتي مؤلفًا لكتاب ناجح، بدأتُ مرة أخرى في تجميع مكتبة عن "الغيبيات". لكنني كنتُ أميل إلى اعتبارها قراءة صيفية خفيفة. لم يكن لدي أي شك على الإطلاق في أن معظم "المتخصصين في علوم السحر" يستسلمون لأحلامهم اليقظة.
عندما بدأتُ دراسة الموضوع بشكل منهجي، سرعان ما تغير هذا الموقف. لفت انتباهي أولاً الاتساق المذهل في تقارير التخاطر، و"الرؤية الثانية"، واستبصار المستقبل. لو كانت أكاذيب أو أوهامًا حقيقية، لكان تنوعها كتنوع رفّ مليء بالروايات: في الواقع، بدت جميعها متشابهة بشكل ملحوظ. وينطبق الأمر نفسه على تقارير السحر والاتصال بـ"الأرواح": فمن المتوقع ألا تجد الكثير من القواسم المشتركة بين معتقدات ساحر أفريقي، وشامان إسكيمو، وطبيب سيبيري. في

الحقيقة أنهما عمليًا قابلان للتبادل. قصص الأشباح المصطنعة - التي كتبها كتاب مثل ديكنز أو إم آر جيمس - مليئة بتنوع غريب للغاية من الأحداث؛ قصص الأشباح الحقيقية كلها تبدو متشابهة. سرعان ما اتضح لي أنني لم أكن أدرس موضوعًا مليئًا بالاختراعات أو الخدع الخيالية، ولكن نطاقًا ضيقًا إلى حد ما من الحقائق، تمامًا كما هو الحال في علم الفلك أو علم التحكم الآلي. ونتيجة لذلك، سرعان ما أصبحت مقتنعًا بأن الدليل على وجود الأرواح الشريرة والحدس والرؤية الثانية سليم مثل الدليل على وجود الذرات والإلكترونات. كتبت في كتاب "الغيبيات": "أتعاطف مع الفلاسفة والعلماء الذين يعتبرونها هراءً عاطفيًا، لأنني أقف إلى جانبهم بطبيعتي: لكنني أعتقد أنهم يغمضون أعينهم عن الأدلة التي من شأنها إقناعهم إذا كانت تتعلق بعادات التزاوج لدى الفئران البيضاء أو سلوك جسيمات ألفا".

بالنسبة لشخصٍ مُدرَّبٍ كعالم، كان مجال الخوارق أشبه بالسفر إلى بلدٍ أجنبي. وجدتُ نفسي في عالمٍ غريبٍ ومثيرٍ، ولكنه في الوقت نفسه متسقٌ بشكلٍ مُطمئن. يُمكن استكشافه تمامًا كأي بلدٍ أجنبي، بالتجول ودراسة ما يُمكن رؤيته. صحيحٌ أنه كان لا بدّ من التعامل مع أجزاءٍ منه بشكٍّ، كأي فخٍّ سياحيٍّ حديث. ولكن في تحديد ما أُصدِّق وما لا أُصدِّق، طبَّقتُ نفس المعايير التي أطبِّقها في العلم. إذا رُصد شيءٌ بشكلٍ مُستقلٍّ من قِبَل عددٍ من المُراقبين الموثوقين، كنتُ أميلُ إلى قبوله كحقيقة. لكن بعض هذه الحقائق تركتني حائرًا بالتأكيد. على سبيل المثال، أمضى طبيبٌ ألمانيٌ يُدعى جوستينوس كيرنر ثلاث سنواتٍ في دراسة سيدةٍ "روحانية" تُدعى فريدريك هاوف، ولم يكن لديه أدنى شكٍّ في أنها تستطيع قراءة كتابٍ وُضِع، ووجهه لأسفل، على بطنها العاري. يبدو هذا سخيفًا بأيِّ معيارٍ علميٍّ عادي؛ ومع ذلك فقد لُوحظَ مرارًا من قِبَل باحثين في القرن التاسع عشر. قام البروفيسور سيزار لومبروزو، وهو عالمٌ "مادي" راسخ، بدراسة فتاةٍ تستطيع الرؤية من خلال أذنها والشم من خلال ذقنها. تلاشت احتمالية غشها تمامًا عندما انتقلت حاسة الشم لديها إلى مؤخرة قدمها: فإذا قُرِّبَت الروائح الطيبة من كعبها، ابتسمت، بينما أثارت الروائح الكريهة اشمئزازها. كما صادف لومبروزو حالة فتاةٍ طورت رؤيةً بالأشعة السينية، وأكدت أنها تستطيع رؤية الديدان في أمعائها - فقد أحصت ثلاثةً وثلاثين دودة. وخلال العلاج، أخرجت ثلاثة وثلاثين دودةً بالضبط.

ظاهرة غريبة أخرى أصبحتُ أتقبلها كحقيقة تُسمى "مجتمع الإحساس". عندما كان ألفريد راسل والاس - أحد مؤسسي نظرية التطور - مُعلمًا شابًا، اهتم بالتنويم المغناطيسي وأجرى تجارب على عدد من تلاميذه. عندما كان أحد هؤلاء التلاميذ في حالة غيبوبة، كان بإمكانه مُشاركة والاس في حاستي التذوق والشم. عندما كان والاس يمص قطعة سكر، كان الصبي يُصدر حركات مص؛ عندما كان والاس يتذوق الملح، كان يُعبس؛ عندما كان والاس يُغرز دبوسًا في نفسه، كان الصبي يقفز و...

فرك الجزء المناسب من جسده. بعد سنوات، عندما كان والاس رئيسًا للجنة علمية، تلقى ورقة بحثية من أستاذ أيرلندي شاب يُدعى ويليام باريت والذي شارك في تجارب مماثلة وشاهد فتاة صغيرة تميز بين مواد مختلفة وضعها المنوم المغناطيسي في فمه. لذلك لم يكن لدى والاس شك في أن باريت كان يقول الحقيقة. افتقرت بقية اللجنة إلى خبرة والاس، ولم تُنشر الورقة أبدًا. لكن والاس كان مقتنعًا جدًا بأن مثل هذه الأمور تستحق التحقيق لدرجة أنه أصبح عضوًا مؤسسًا في جمعية الأبحاث النفسية. منذ ذلك الوقت، لوحظ "مجتمع الإحساس" مرارًا وتكرارًا من قبل محققين منفتحين. على سبيل المثال، بدأ الدكتور جوستاف باجنشيتشر، وهو طبيب ألماني يعمل في مدينة مكسيكو، في علاج مريضة تُدعى ماريا دي زيرولد بعد الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة واكتشف أنه يمكنه علاج الأرق لديها بالتنويم المغناطيسي. عندما كانت ماريا دي زيرولد في حالة غيبوبة، انتقلت حواسها، على ما يبدو، إلى المُنوِّم المغناطيسي لتتمكن من تذوق المواد التي يضعها في فمه، والشعور بحرارة عود ثقاب كان يمسكه تحت يده، وسماع دقات ساعته. ورغم أن عينيها كانتا مغمضتين، إلا أنها استطاعت رؤيته بوضوح تام ووصف ما كان يفعله، حتى في الغرفة المجاورة. إجمالاً، إذن، يتفق معظم الباحثين ذوي العقول المنفتحة على أن "مجتمع الإحساس" حقيقة علمية مثبتة. العلماء وحدهم من يعتبرونه خرافة.

ينطبق الأمر نفسه على علم النفس، أي القدرة التي يمتلكها بعض الناس على إمساك شيء ما بأيديهم و"قراءة" تاريخه. في عام ١٨٤٣، التقى طبيب أمريكي يُدعى جوزيف رودس بوكانان بالأسقف ليونيداس بولك، الذي أخبره أنه يستطيع دائمًا تمييز النحاس الأصفر، حتى في الظلام، لأنه عندما يلمسه يشعر بطعم "نحاسي" في فمه. قرر بوكانان تجربة ذلك على تلاميذه، وانبهر باكتشافه أن العديد منهم يستطيعون اكتشاف مواد مختلفة بأطراف أصابعهم، حتى عندما تكون المادة ملفوفة بورق بني سميك. لكن مفاجأته الكبرى جاءت عندما أظهر بعض أفضل "الحسّاسين" لديه قدرتهم على إمساك رسالة مختومة بأيديهم ووصف الشخص الذي كتبها بدقة متناهية. كما تمكنوا من "الشعور" بمزاج الكاتب. بدأ ويليام دينتون، أحد تلاميذ بوكانان، وهو أستاذ جيولوجيا في بوسطن، سلسلة اختباراته الخاصة على عينات جيولوجية - صخور، نيازك، شظايا عظام من عصور ما قبل التاريخ، وما إلى ذلك - ووجد أن أفضل "مُدركيه" لديهم "رؤى" دقيقة للغاية عن مكان نشأة هذه الأجسام. كتب كلٌّ من دينتون وبوكانان كتبًا مطولة تصف تجاربهما، مما أثار اهتمامًا واسعًا في ذلك الوقت. لكن سرعان ما فقد العلماء اهتمامهم بهذه العجائب، لا سيما مع تبني الروحانيين وعلماء الخفاء لعلم "القياس النفسي" (وهو مصطلح ابتكره بوكانان ويعني "قياس الروح"). مئات الحالات الموثقة جيدًا* لا تترك مجالا للشك في ذلك

يُعدّ علم النفس من أكثر "القدرات الخارقة للطبيعة" شيوعًا. لكن العلم لا يزال يتجاهل هذا الموضوع، ويبدو أن حتى الباحثين الجادّين في مجال الخوارق ينظرون إليه بنوع من الحرج. (على سبيل المثال، لم يُشر برايان إنجليس إليه حتى في كتابه الشامل عن تاريخ الخوارق، "الطبيعي" و"الخارق للطبيعة").

كل هذا يوضح لماذا، عندما انتهيت من كتابة كتاب "الغيبيات" عام ١٩٧١، لم يساورني أدنى شك في أنني أتعامل مع حقائق علمية، لا مع أوهام روحانيين مشوشي الذهن. حتى أكثر القدرات الخارقة للطبيعة حيرةً، وهي القدرة على استشراف المستقبل، كانت موثقةً بشكلٍ شامل لدرجة أنه لا مجال للشك في حدوثها مرارًا وتكرارًا. لذا، توصلتُ إلى استنتاج منطقي مفاده أن البشر يمتلكون طيفًا واسعًا من "القوى الخفية" التي عادةً ما يجهلونها، وتشمل التخاطر، و"الرؤية الثانية"، واستشراف المستقبل، وقياس القدرات النفسية. بدا واضحًا أن أسلافنا كانوا يمتلكون هذه القدرات بدرجة أعلى بكثير، وأننا فقدناها تدريجيًا لأننا لم نعد بحاجة إليها. يبدو أن هذا يتضح في حالة "العراف" الهولندي بيتر هوركوس، الذي أدرك قدراته نتيجة حادث خلال الحرب العالمية الثانية سقط فيه من سلم وكسر جمجمته. وبينما بدأ يتعافى في المستشفى، اكتشف أنه "يعرف" أشياء عن زملائه المرضى بمجرد النظر إليهم - على سبيل المثال، أن المريض في السرير المجاور قد باع ساعة ذهبية تركها له والده. لكن هذا لم يكن مجرد تخاطر، فعندما صافح هوركوس مريضًا على وشك المغادرة، "عرف" فجأة أنه عميل بريطاني وأنه سيُقتل قريبًا. كاد هذا البصيرة أن يكلفه حياته، إذ افترضت المقاومة الهولندية أن هوركوس يعمل لصالح المخابرات الألمانية، ولم يقنعهم بامتلاكه قدرات حقيقية على الاستبصار إلا بصعوبة بالغة.

لكن النقطة الأكثر إثارة للاهتمام في حالة هوركوس هي أنه بعد مغادرته المستشفى، لم يستطع العمل في أي وظيفة عادية لعجزه عن التركيز. ولم يتمكن من إعالة نفسه وأسرته إلا بعد أن خطرت له فكرة استخدام قدراته المكتشفة حديثًا كساحر مسرحي. وهذا يكشف بوضوح سبب قمع الإنسان لقدراته "النفسية"؛ فهي تنطوي على نوع من التقبل الذهني، و"الانفتاح"، مما يجعله أقل كفاءة بكثير في الحياة اليومية.

أثناء كتابتي لكتاب "الغيبيات"، شعرتُ بمتعة الإثارة التي يشعر بها من يرى الحقائق تتوالى في مكانها الصحيح - أتصور أن نيوتن شعر بشيء من هذا القبيل أثناء كتابته لكتاب "المبادئ". وكان هذا هو المثال الذي راودني أثناء كتابة "الغيبيات" وجزئه الثاني "الأسرار". كان من المذهل إدراك أن العديد من الأمور التي كنت أعتبرها...

كانت للسخافات الخرافية أساسٌ سليمٌ في الواقع. وإذا كانت واقعية، فيمكن دمجها في إطارٍ علميٍّ ما. وبما أنني بدأتُ حياتي كعالم - كان كتابي الأول، الذي كتبته في سن الثالثة عشرة، كتابًا من سبعة مجلدات بعنوان "دليل العلوم العامة" - فقد بدا لي افتراضًا منطقيًا أنني قد أكون الشخص المناسب للقيام بذلك.

وبالفعل، عندما أعدتُ قراءة الكتاب مُراجعًا، انتابني شعورٌ مُرضٍ بأنني وضعتُ نظريةً شاملةً تُفسّر وجود القدرات الخارقة للطبيعة من منظورٍ علمي. كانت النظرية دقيقةً ومنطقيةً قدر استطاعتي، وشعرتُ أنه لا يُمكن لأحدٍ أن يتهمني بالسذاجة أو الخداع. حقق الكتاب نجاحًا باهرًا، وكان من دواعي سروري أن أدخل متجرًا كبيرًا في مدينتي وأرى رفًا كاملًا مُخصّصًا لنسخ الغلاف الورقي. ولكن حتى في ذلك الوقت، بدأتُ أشعرُ بالقلق. فكلما ازدادت معرفتي بالخوارق، ازداد تفاؤلي المُبالغ فيه باعتقادي أنني قد غطيتُ جميع الحقائق الأساسية. صحيحٌ أن العقل الباطن يبدو أنه يُقدّم تفسيرًا مُقنعًا إلى حدٍّ ما للتخاطر والاستبصار وقياس النفس، ولكنه بالكاد بدا كافيًا لتفسير بعض الأدلة المُقنعة للغاية على الحياة بعد الموت، وحتى على التناسخ. وقد فشل هذا تمامًا في تفسير تجربة صديقي الموسيقي الذي كان يستقل سيارة أجرة على طول طريق بايزووتر عندما علم فجأة أن سيارة أجرة أخرى ستتجاوز إشارات المرور عند تقاطع طريق كوينز وتصطدم بها بشكل جانبي. إن حقيقة أنه كان في وقت متأخر من الليل وأنه كان مرهقًا بعد العزف في حفلة موسيقية يمكن أن تساعد في تفسير سبب كونه في الحالة المناسبة لتلقي الرسالة من عقله الباطن. ولكن كيف يمكن لعقله الباطن أن يعرف شيئًا سيحدث في غضون دقيقة أو نحو ذلك؟ حتى لو استطاع بطريقة ما "رؤية" سيارة الأجرة الأخرى التي تقترب من إشارة المرور وقراءة عقل السائق، فإنه لا يزال لا يستطيع أن يعرف أنه سيكون هناك تصادم. لا يمكن أن يكون هناك تفسير "علمي" للاستبصار لأنه من الواضح أنه من المستحيل معرفة حدث لم يحدث بعد. ومع ذلك كشفت قراءتي عن وجود مئات من الحالات الخطيرة والموثقة جيدًا.

في هذه المرحلة، وجدتُ دليلاً مهماً في كتابٍ أهداني إياه مؤلفه بعد نشر كتابه "الغيبيات" بفترة وجيزة. حمل الكتاب عنواناً مُثيراً للاهتمام، "نحو نظرية عامة للخوارق"، وقد قادني إلى العديد من الأدلة الجديدة والرؤى الجديدة التي ستتطلب فصلاً كاملاً.

* موز موراي، مشاركة السعي (1986).

* مقتبس من قبل نونا كوكسهيد في كتاب أهمية النعيم (1985).

† هانز إل. مارتنسن، جاكوب بوهمي، دراسات في حياته وتعاليمه (1949).

* انظر موسوعة الألغاز غير المحلولة ص 92-98.

*انظر كتابي "المحققون النفسيون". أُعيد نشر كتاب دينتون الرئيسي "روح الأشياء" بواسطة دار أكواريان برس.

1
الوسطاء والصوفيون

في عام 1964، أصبح عالم النفس التجريبي لورانس ليشان مهتمًا بشكل متزايد بالطريقة التي يمكن أن يؤثر بها العقل على الجسم وقرر

- مع بعض الشكوك - لدراسة أدلة الإدراك الحسي الفائق. كان هذا نابعًا من ضمير حيّ، إذ أقنعه تدريبه كعالم باستحالة وجوده. «كنت متأكدًا تمامًا من أنني سأحاول في النهاية فهم كيف خُدع رجالٌ جادّون مثل ويليام جيمس، وغاردنر مورفي، وستة من الحائزين على جائزة نوبل، ليصدقوا مثل هذا الهراء».

دراسة متأنية غيرت رأيه:

لدهشتي الشديدة، عندما بدأتُ بقراءة المجلات العلمية والكتب الرصينة في هذا المجال، اتضح لي جليًا أن المادة صحيحة. كانت معايير البحث عالية جدًا، والأدلة صحيحة علميًا. التفسير البديل الوحيد لمئات الحوادث "العفوية" المدروسة بعناية والمُبلّغ عنها، ومئات التجارب المعملية المُراقبة علميًا، هو أن أكبر مؤامرة في التاريخ كانت مستمرة لأكثر من ثمانين عامًا.

سمع ليشان أن وسيطة روحية تُدعى إيلين غاريت تحظى بتقدير كبير في الأوساط العلمية، فقرر العمل معها. أقنعه أول لقاء مهني لها بأنها ليست محتالة. كان باحثون سابقون يحاولون جعل السيدة غاريت "تخمّن" لون مربعات الكرتون. بدا ذلك مملاً، لذا قرر ليشان محاولة جعله أكثر تشويقاً. قصّ خصلة شعر من رأس ابنته ويندي البالغة من العمر اثني عشر عاماً، وأقنع جاره بإعطائه خصلة شعر من ذيل كلبهما، وقطف برعم ورد طازج من الحديقة. وُضعت هذه البرعمات في ثلاثة صناديق بلاستيكية شفافة، وبدأ ليشان التجربة بإخبار الوسيطة بما في كل منها. ثم تراجع خلف حاجز مع الصناديق، واضطرت السيدة غاريت إلى إدخال ذراعها من خلال فتحة ضيقة. أخذ ليشان صندوقاً عشوائياً ووضعه حيث

استطاعت لمسه. تعرّفت عليه فورًا على أنه الصندوق الذي يحتوي على خصلة شعر ابنته، ثم واصلت الإدلاء بتعليقات دقيقة للغاية عن الطفلة. كانت أول تعليقاتها: "أعتقد أنني سأسميها هيلاري - سيعجبها هذا". في الواقع، عندما كانت ويندي ليشان في الرابعة من عمرها، أُعجبت بفتاة تُدعى هيلاري، وتوسلت إلى والديها للسماح لها بتغيير اسمها إلى هيلاري. لكن الحادثة طواها النسيان - لم تُذكر حتى في العائلة لسنوات.

ثم واصلت السيدة جاريت الإدلاء بسلسلة من التعليقات الغريبة والدقيقة عن ويندي - على سبيل المثال، أنها تحب الخيول وأنها طورت مؤخرًا اهتمامًا غير متوقع بالتاريخ الأمريكي.

كانت رؤيتها للكلب مثيرة للإعجاب بنفس القدر، خاصةً وأن ليشان لم يكن يعرف شيئًا عن الكلاب وكان الجيران قد انتقلوا للعيش معه للتو. أعلنت السيدة غاريت أن الكلب كان يعاني من ألم شديد في مخلبه، ويبدو أن لديه رفيقًا من نوع سيليهام. أكد الجيران أن الكلب قد جرح مخلبه بشدة لدرجة أنه أصبح مصابًا بالتسمم واستلزم الإقامة في المستشفى لمدة ستة أسابيع، وأنه على الرغم من أنه كلب ويلش تيرير أصيل، إلا أن شيئًا ما في بنيته العظمية جعل محبي الكلاب يتساءلون عما إذا كان لديه لمسة من سيليهام. (لم يكن ليشان يعرف حتى ما هو سيليهام). أما بالنسبة للوردة، فقد علقت السيدة غاريت بأن التربة شديدة الحموضة بحيث لا يمكنها النمو جيدًا - وهو أمر أخبره به البستانيون الخبراء.

لكن لعلّ أبرز لقاءاته مع إيلين غاريت كان يتعلق باختفاء طبيب. كان الرجل قد ذهب إلى مؤتمر طبي في بلدة بعيدة ولم يعد إلى منزله. ولأنها علمت أنه يعمل مع السيدة غاريت، أرسلت زوجة الطبيب إلى ليشان قطعة مربعة طولها بوصتان من القميص الذي كان يرتديه الطبيب قبل اختفائه بيوم. عندما زار ليشان الوسيطة، لم يذكر شيئًا عن الطبيب المفقود. ولكن عندما دخلت في حالة غيبوبة، وضع قطعة القماش بين أصابعها وأخبرها أن صاحبها قد اختفى. أجابت السيدة غاريت: "إنه في لا جولا [كاليفورنيا]. ذهب إلى هناك بسبب جرح نفسي أصيب به عندما كان في الرابعة عشرة من عمره واختفى والده".

في ذلك المساء اتصل ليشان بزوجته - التي كانت تعيش على بعد ألف ميل
- وسألها إن كان قد حدث لزوجها مكروه بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. فأجابت أن والده هجر العائلة وهو في الرابعة عشرة من عمره، ثم عاد إلى المنزل بعد خمسة وعشرين عامًا. وفي الوقت المناسب، عاد الطبيب من تلقاء نفسه، وأكد أنه كان بالفعل في لا جولا.

كلما تعمق ليشان في دراسة الوسطاء الروحيين، ازداد اقتناعه بأنهم يرون العالم من منظور مختلف تمامًا عن منظور الشخص العادي. وكأنهم قادرون على وضع أنفسهم في حالات ذهنية لا يخضعون فيها لقيود المكان والزمان الاعتيادية. ليشان

يستشهد بحالة تتعلق بالسيدة مارغريت فيرال، زوجة أحد أساتذة كامبريدج، والذي كان من أبرز الوسطاء في العقود الأولى من القرن العشرين. أثناء ممارستها "الكتابة الآلية"، سجّلت السيدة فيرال المشهد التالي: "كان البرد شديدًا، وأعطت شمعة واحدة ضوءًا خافتًا. كان مستلقيًا على الأريكة أو على سرير، ويقرأ كتاب مارمونتيل على ضوء شمعة واحدة... أُعير الكتاب له، ولم يكن ملكًا له...". كتبت في نصٍّ بعد بضعة أيام: "مارمونتيل مُحقة. إنه كتاب فرنسي، مذكرات على ما أعتقد. قد يفيدك باسي، أو تذكارات دي باسي، أو فلوري. كان الكتاب مُجلّدًا ومُعارًا - مجلدان بتجليد وطباعة تقليدية".

بعد فترة، التقت بصديق، السيد مارش، الذي أخبرها أنها وصفت بدقة ما حدث له. استعار مجلدًا من مذكرات مارمونتيل من مكتبة لندن وأخذه إلى باريس، حيث قرأه في فراشه، في ليلة قارسة البرودة، على ضوء شمعة واحدة. كان الفصل الذي كان يقرأه يتحدث عن اكتشاف لوحة رُسمت في باسي، مرتبطة بشخص يُدعى السيد دي فلوري.

قد يظن المرء أنها قطعة استبصار مثيرة للاهتمام، لكنها ليست مميزة بشكل خاص... إلى أن علمنا أن السيدة فيرال كتبت وصفها في ١١ ديسمبر ١٩١١، ولم يقرأ السيد مارش الكتاب في باريس إلا في ٢١ فبراير من العام التالي. لقد تنبأت السيدة فيرال بدقة بشيء لن يحدث لأكثر من شهرين.

لكن يبدو أن حادثة اختفاء الطبيب تحمل نفس الدلالات. أرسلت زوجة الطبيب قميصًا كان يرتديه في اليوم السابق لذهابه إلى المؤتمر. وتشير جميع الأدلة إلى أن الطبيب اختفى فجأةً بعد عدة أيام. كيف يُمكن للقميص أن يُعطي السيدة غاريت دليلًا على شيء سيحدث في المستقبل؟ قرر ليشان أن أفضل طريقة لمعرفة ذلك هي سؤالها - بل سؤال جميع "الحساسين" الذين استطاع إيجادهم - عن شعور "معرفة" شيء يستحيل معرفته منطقيًا.

عندما سألتهم هذا السؤال، حدث أمرٌ مثيرٌ للاهتمام على الفور. قالوا: "أوه نعم، عندما نحصل على معلوماتٍ خارقةٍ للطبيعة، يبدو العالم مختلفًا عن الأوقات الأخرى". سألتهم: "مختلف؟"، إذ بدا هذا الأمر بالغ الأهمية. شرحت السيدة غاريت: "مختلف، كيف؟" أنها غيّرت مجال وعيها بالكامل بطريقةٍ ما، وأن هذا ينطوي على نوعٍ من الانطواء على الذات. وقالت إنها فعلت ذلك من خلال نوعٍ من التنويم الذاتي. وعندما سُئلت عما تعنيه بهذا، أوضحت: "إنه انسحابٌ من الذات الواعية إلى منطقةٍ من الذات اللاواعية. و... داخل هذا العقل الآخر، تُدار الحياة على مستوىً مختلف". ووصفت الإحساس بأنه "يشبه العيش في عالمين في آنٍ واحد". وأكدت أن "لمحاتها" لم تكن شيئًا حققته بجهدٍ واعي؛ إنها فقط

حدث. تفتح بابًا للحظة، فتجد نفسك أمامه. يُغلق الباب كما فُتح، وتختفي الصورة.

اندهش ليشان من التشابه الوثيق بين ما أخبرته به السيدة غاريت ووصف العديد من الصوفيين لـ"تنويراتهم" المفاجئة. إليكم، على سبيل المثال، وصفًا شهيرًا لـ"تنوير" اختبره كاتب معاصر، وارنر ألين:

ومض بسرعة البرق أثناء أداء السيمفونية السابعة لبيتهوفن في قاعة الملكة، في تلك الحركة السريعة المنتصرة عندما "غنت نجوم الصباح معًا وهتف جميع أبناء الله فرحًا". لم ينقطع استمرارية الموسيقى المتدفقة بسرعة، بحيث لا بد أن ما يسميه السيد تي إس إليوت "تقاطع اللحظة الخالدة" قد انزلق إلى الفاصل بين نصفين ونصف ثامنين. عندما قمت، بعد فترة طويلة، بتحليل الحدث في ضوء الاسترجاع البارد، بدا أنه ينقسم إلى ثلاثة أجزاء: أولاً، الحدث الغامض نفسه الذي حدث في جزء صغير للغاية من الثانية المنقسمة؛ وهذا ما تعلمته بعد ذلك من سانتا تيريزا أن أسميه الاتحاد مع الله؛ التنوير، وهو تيار بلا كلمات من المشاعر المعقدة التي تتحد فيها تجربة الاتحاد مع العاطفة الإيقاعية للموسيقى مثل شعاع الشمس الذي يضرب ببريق الرذاذ فوق شلال - وهو تيار كان منتفخًا باستمرار بواسطة روافد الخبرة المرتبطة؛ وأخيرًا التنوير، وهو التذكر بهدوء لكل مجال معقد من الخبرة كما لو كان محنطًا في أشكال فكرية وكلمات.*

هنا نرى بابًا يُفتح، ونظرة خاطفة مفاجئة. وأخيرًا، أقنعت مقارنة العديد من هذه "التجليات" بأوصاف "الوسطاء الروحانيين" أمثال إيلين غاريت وروزاليند هيوود وفيبي باين ليشان بأن كلاً من "الوسيط" والصوفي يمرّان بنفس التحوّل المفاجئ في وجهة النظر، فيجدان نفسيهما ينظران إلى عالم آخر. يمكن تشبيه ذلك برجل جالس في قارب ينظر إلى سطح المحيط، فيغوص فجأةً برأسه تحت السطح، فيرى عالمًا جديدًا تمامًا في الأسفل. ولسببٍ غريبٍ يتجاوز فهمنا، فإن هذا العالم الخارق للطبيعة الواقع تحت "البحر" خالد، بحيث يمكن دراسة أحداث المستقبل أو الماضي بسهولة دراسة الحاضر. هذه إحدى أبسط العبارات التي يطرحها الصوفيون: أن الزمن وهمٌ ما. ورأى ليشان أن هذا هو الحل النهائي - الحل الوحيد - لسر الاستبصار. بالطبع فإن القول بأن الزمن غير حقيقي قد يبدو هراءً بالنسبة لمعظمنا - فقد اعتقد الفيلسوف جي إي مور أنه دحض هذا القول من خلال سحب

ولكن إذا كان هناك حقا أشخاص قادرون على التنبؤ بالمستقبل، فإن وجهة نظرنا السليمة بشأن الزمن باعتباره طريقا ذا اتجاه واحد لابد وأن تكون خاطئة بطريقة أو بأخرى.

قدّم ليشان هذه الأفكار حول الصوفيين والوسطاء لأول مرة في كتاب صغير بعنوان "نحو نظرية عامة للظواهر الخارقة للطبيعة" (1969)، وعندما أهداني نسخة منه في أوائل سبعينيات القرن الماضي، أذهلني على الفور تشابه هذه الآراء مع نظرية طرحتها في كتابي "الغيبيات": وهي أن الشعراء يبدو أنهم "علماء نفس" بالفطرة. وقد ذكرتُ عددًا من الحالات - بعضها جمعتُه من تجربتي الشخصية - لشعراء مروا بتجارب "الرؤية الثانية" أو الاستبصار. وصف الشاعر والمؤرخ إيه إل روز كيف كان يميل من نافذة فيكتورية قديمة الطراز في كنيسة المسيح عندما خطرت في ذهنه فكرة: "لنفترض أن الشيء سقط؟" ولأنه كان في مزاج كئيب، قال لنفسه: "فليسقط هذا الشيء اللعين!". وبينما كان يسحب رأسه بعد لحظة، سقطت نافذة الإطار بقوة كادت أن تكسر رقبته لو كان لا يزال يميل إلى الخارج. افترضتُ أن الشاعر شخصٌ يمتلك القدرة على الانغماس في حالة من الهدوء التأملي، حيث ينسحب إلى ذاته، وفي هذه الحالة يُدرك صوت اللاوعي. أو، كما يقول ليشان، "يفتح الحساس قناة تواصل مع جزءٍ من ذاته اللاواعية، والذي يعمل عادةً بهذه الطريقة".

كان ليشان مستعدًا أيضًا لقبول فكرة طرحها الباحث النفسي فريدريك مايرز لأول مرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر: وهي أن الجزء من "الذات اللاواعية" الذي يمتلك قوى خارقة للطبيعة ليس العقل اللاواعي كما وصفه فرويد - وهو نوع من القبو المظلم، مليء بالذنب والكبت - بل هو نوع من العقل الفائق الوعي، نوع من "العلية"، يعلو "الوعي اليومي" بقدر ما يعلو القبو الباطني أسفله. وهذا أيضًا ما تبنته السيدة غاريت:

هناك تركيزات معينة للوعي ينسحب فيها الوعي قدر الإمكان من تأثير جميع الإدراكات الحسية... ومثل هذه الانسحابات للوعي من العالم الخارجي شائعة بيننا جميعًا إلى حد ما...

ما يحدث لنا في هذه الأوقات هو أنه عندما ننسحب من العالم المحيط بنا، فإننا ننقل أنشطة حواسنا الخمس إلى مجال العقل الباطن، ونسعى إلى تركيز الوعي (بأفضل ما في وسعنا) في مجال العقل الفائق - المجال الخالد الذي لا يعرف الزمان ولا المكان بعد.

معظمنا - كما لاحظت السيدة جاريت - لديه بعض الخبرة في هذا النوع من الأشياء: على سبيل المثال، يمكن أن نصبح أحيانًا منغمسين بعمق في كتاب

أن إغلاق أحدهم الباب بقوة يُسبب لنا نوبة قلبية. وننزلق أيضًا إلى عالم "الانغماس العميق" نفسه على حافة النوم (وهو موضوع سيتم استكشافه لاحقًا).الفصل الخامسلكن هذه التقلبات عادةً ما تكون قصيرة: إما أن ننام أو نعود سريعًا إلى العالم الطبيعي. يبدو أن السيدة غاريت تلمح إلى أن لدى الوسيطة القدرة على تغيير وجهة نظرها لتستقر في هذه الحالة بإرادتها. لكن بمجرد بلوغها، تفقد قدرتها على ذلك: فالإرادة تغفو. لا جدوى من محاولة الحصول على نتائج: لا يمكن الحصول عليها إلا بعدم المحاولة. علّقت إيلين غاريت قائلةً: "لقد عرفتُ من تجربتي أن الجهد الواعي هو الشيء الوحيد الذي لن يُسفر عن نتائج يمكن وصفها بأنها خارقة للطبيعة".

في مقال بعنوان "التصوف والمنطق"، يؤكد برتراند راسل أن جميع المتصوفين، على ما يبدو، يتفقون على أربع نقاط أساسية: (1) أن هناك طريقة أفضل للمعرفة من خلال الحواس، (2) أن هناك وحدة جوهرية أو وحدة في الكون، (3) أن الزمن وهم، (4) أن الشر مجرد مظهر. يدرس راسل هذه التصريحات وينتهي برفضها باعتبارها هراءً - ويخلص في النهاية إلى أن "الفلسفة العلمية أقرب إلى الموضوعية من أي مسعى بشري آخر". يميل معظم الناس العاديين إلى الموافقة عليه. ومع ذلك، بمجرد أن نبدأ في دراسة روايات التجربة الصوفية، يتضح أمر واحد تمامًا: أنها جميعًا تتحدث عن الشيء نفسه تمامًا. فيما يلي بعض الروايات النموذجية، مأخوذة من كتاب نونا كوكسهيد "أهمية النعيم". الأول هو وصف للصحفية الطبية ويندي روز-نيل:

لطالما وجدتُ البستنة نشاطًا مُريحًا، وفي ذلك اليوم تحديدًا، شعرتُ بتأملٍ عميق. أتذكر أنني تدريجيًا أصبحتُ مُدركًا تمامًا لما يحيط بي - زقزقة الطيور، وحفيف الأوراق، ونسيم عليل على بشرتي، ورائحة العشب والزهور.

شعرتُ برغبةٍ مفاجئةٍ في الاستلقاء على العشب، وبينما كنتُ أفعل ذلك، شعرتُ بطاقةٍ تتدفقُ فيّ كما لو أنني أصبحتُ جزءًا من الأرض تحتي. بدا أن الحدّ الفاصل بين ذاتي المادية ومحيطي قد اندثر، وتلاشى شعوري بالانفصال. شعرتُ، بطريقةٍ غريبة، وكأنني اندمجتُ في وحدةٍ تامةٍ مع الأرض، كما لو أنني خُلقتُ منها وهي منّي. شعرتُ بأوراق العشب بين أصابعي تلامس وجهي، وغمرتني قوةٌ بدت وكأنها تخترق كل ذرةٍ من كياني.

شعرتُ وكأنني عدتُ فجأةً إلى الحياة لأول مرة - وكأنني أستيقظ من نومٍ عميق طويل إلى العالم الحقيقي... أدركتُ أنني محاطٌ بطاقةٍ حبٍّ لا تُصدق، وأن كل شيء، حيّ وغير حيّ،

مرتبط بشكل لا ينفصم بنوع من الوعي الذي لا أستطيع وصفه بالكلمات.
فيما يلي رواية بقلم المؤلفة الأمريكية كلير مايرز أوين:

ذات صباح، كنت أكتب على مكتبي في غرفة الكتابة الهادئة بمنزلنا في كونيتيكت. فجأةً، اختفى كل ما كان في ناظري. لم أعد أرى جسدي، ولا أثاث الغرفة، ولا المطر الأبيض المتساقط عبر النوافذ. لم أعد أُدرك أين أنا، لا اليوم ولا الساعة. اختفى الزمان والمكان.

وفجأة امتلأت الغرفة بأكملها بنور ذهبي عظيم، وامتلأ العالم كله بالنور فقط...

تبادرت إلى ذهني أفكار بديهية مذهلة. بدا لي أنني أفهم طبيعة الأشياء. أدركت أن مخطط الكون هو الخير، وليس الشر كما علمني مجتمعنا الغربي في صغري؛ جميع الناس طيبون بطبيعتهم. لا زمان ولا مكان على هذا الكوكب...

هذا الطوفان من النور سمة شائعة في التجارب الصوفية. في أحد أشهر كتب التصوف، وصف ريتشارد موريس بوك تجربته الشخصية وهو يقود سيارته عائدًا إلى منزله في عربة هانسوم:

فجأة، ودون سابق إنذار، وجدت نفسي محاطًا بسحابة بلون اللهب. للحظة فكرت في النار، حريق هائل في مكان ما قريب... وفي اللحظة التالية، عرفت أن النار كانت بداخلي. بعد ذلك مباشرة، غمرني شعور بالابتهاج، بفرحة غامرة، مصحوبًا أو متبوعًا فورًا بتنوير فكري يستحيل وصفه. من بين أمور أخرى... رأيت أن الكون ليس مكونًا من مادة ميتة، بل هو، على العكس، وجود حي؛ أصبحت واعيًا في نفسي بالحياة الأبدية. لم يكن قناعة بأنني سأحظى بالحياة الأبدية، بل وعي بأنني أمتلك الحياة الأبدية حينها؛ رأيت أن جميع البشر خالدون... استمرت الرؤية لبضع ثوانٍ ثم اختفت.

أطلق باك على لمحته اسم "الوعي الكوني" وأعطى كتابه العنوان نفسه. يتألف الكتاب من خمسين دراسة للمتصوفين الذين اختبروا "الوعي الكوني"، بدءًا من بوذا وانتهاءً بإدوارد كاربنتر الفيكتوري. وقد خلص باك إلى أن هذه التجربة...

نادرًا - وبما أن هناك عددًا متزايدًا من الأمثلة الحديثة، فمن المرجح أن البشرية تتطور إلى مستوى أعلى من الوعي. في الواقع، تشير الدراسات الاستقصائية الحديثة - مثل تلك التي أجرتها وحدة الأبحاث الدينية التابعة للسير أليستر هاردي في أكسفورد* - تظهر أن 36 بالمائة من الناس لديهم نوع من الخبرة الدينية أو الصوفية.

من العناصر الأساسية في سرد التجارب الصوفية الشعور بأن النور - أو القوة - ينبع من الداخل. تتضمن رواية موز موراي عن "استنارته" في قبرص العبارة التالية: "... إحساسٌ لا يوصف وكأن الكون كله يُسكب في داخلي، أو بالأحرى، كما لو أن الكون كله يتدفق مني من مركز عميق". أخبر جيم هاريسون، أحد مراسلي نونا كوكسهيد، كيف كان يتساءل كيف سمح الله لزوجته بالبقاء مريضة عندما خطرت له فكرة: "ربما لم يكن ذلك خطأ الله في النهاية".

ثم فكرت، حسنًا، سأستعيد كل شيء، وملأت قلبي بالحب الرقيق الذي غالبًا ما أحتفظ به لابنتي الصغيرة، ووجهته نحوه، وفكرت، إذا كنت موجودًا فأنا أمنحك حبي.

شعرتُ بهذا الحب يتناقل، ثم عاد فجأةً، شعاعًا ساطعًا من نور السماء، أشد سطوعًا بكثير من شمس الصبح، يغمرني بفيضٍ من السعادة والحب، يوقفني في قفزة فرح، ويستمر لخمس أو عشر ثوانٍ قبل أن يتلاشى. عرفتُ حدسيًا أن هذا النور، الظاهر جليًا، ينبع بطريقةٍ ما، وبغموض، من الداخل.

استنتج جيم هاريسون، مثل كثيرين غيره ممن اختبروا ومضة من "الوعي الكوني"، ما يلي:

لذا عرفت على وجه اليقين أن الله موجود بالفعل، وأنه هو الحب، وأنه هو الفرح، وأنه هو النور، وأنه ينبع من الداخل بقدر ما ينبع من الخارج، وأننا وحدنا المسؤولون عن معاناتنا ومشاكلنا نتيجة لسوء استخدام إرادتنا الحرة.

كان لدى سي جي برايس، وهو مزارع كانت مزرعته على وشك الإفلاس، تجربة مماثلة مع الضوء:

مع أفكار الشفقة على الذات مثل هذه في ذهني، في صباح أحد من شهر فبراير عام 1968... شرعت في مهمة توفير فراش من القش لأبقاري... لا أتذكر حتى الشعور الذي تسلل إلي، ولكن فجأة...

بدا لي وكأنني مُغلَّفةٌ بشرنقةٍ من نورٍ ذهبيٍّ دافئٍ بحق، يُشعُّ شعورًا بالحبِّ شديدًا يكاد يكون ملموسًا. يشعر المرءُ أنه يستطيعُ أن يقبضَ منه حفناتٍ ويملأَ جيوبه.

في هذه الشرنقة الدافئة من النور الذهبي، شعرتُ بحضورٍ لم أرَه في الواقع، لكنني كنتُ أعلم بوجوده. أصبح ذهني صافيًا كالبلور، وفي لحظةٍ من الزمن، أيقنتُ فجأةً، دون أدنى شك، أنني جزءٌ من "كلٍّ". لستُ جزءًا معزولًا، بل جزءًا لا يتجزأ. شعرتُ بوحدةٍ تامة. أيقنتُ أنني أنتمي، وأن لا شيءَ سيُغيّر ذلك. لم يعد فقدانُ مزرعتي ومصدر رزقي يُهمّني.

في واقع الأمر، أُرغم على بيع المزرعة، لكن تجربته الصوفية جعلت هذا الأمر يبدو غير مهم.

مرّت مويرا كالديكوت، وهي تلميذة من جنوب أفريقيا، بتجربة مماثلة عندما ركعت عند درابزين المذبح لتناول القربان المقدس. وبينما وضع الأسقف يده على رأسها:

فجأةً، بدا لي أنني فقدت ذاتي (أي بمعنى "أنا" الذي ظننتُه - أعيش في منزلٍ مُحدد، في شارعٍ مُحدد، وأذهب إلى مدرسةٍ مُحددة). شعرتُ بتدفقٍ هائلٍ من الطاقة والقوة يسري في عروقي، وعشتُ ما أعتقد أنه تجربةٌ من الواقع الخالد... من وعيٍ يستوعب كل شيءٍ بلا حدود... لكنه لا يتفاعل مع أي شيءٍ إلا بمعنى "المعرفة"... و... "الحب".

في الواقع، من المغري جدًا أن نقول إن ما تشترك فيه كل التجارب الصوفية هو الشعور المفاجئ بالهوية الحقيقية للإنسان، وأن هذه "الذات الحقيقية" تشبه الإله إلى حد ما - بل يمكن وصفها بأنها الله.

لكن لعل أبرز ما ورد في كتاب "نموذج جديد للكون" للدكتور ب.د. أوسبنسكي، في فصل بعنوان "التصوف التجريبي"، هو ما ورد في كتابه. كان أوسبنسكي من أهم أتباع الفيلسوف والمتصوف الروسي جي. آي. غوردجييف، ولكنه كان أيضًا مفكرًا بارزًا في حد ذاته، كما تكشف كتبه. لا يخبرنا أوسبنسكي بتفاصيل كيفية بلوغه حالات وعيه الصوفي، لكن كاتب سيرته الذاتية جيمس ويب ربما يكون محقًا في افتراضه أنه استخدم أساليب اليوغا والسحر مع استخدام نوع من المخدرات، تقريبًا.

بالتأكيد أكسيد النيتروز - "غاز الضحك".* يذكر أوسبنسكي أن التغيير حدث أسرع وأسهل مما توقع. والرواية التالية تُعدّ من أهم الروايات وأكثرها تفصيلاً في أدبيات التصوف.

يُشير أوسبنسكي إلى أن "المجهول لا يُشبه أي شيء يُمكننا افتراضه عنه. إن المفاجأة التامة لكل ما نواجهه في هذه التجارب، من صغيرها إلى كبيرها، تُصعّب وصفها". ويُضيف مُلاحظة بالغة الأهمية:

أولًا، كل شيء موحد، كل شيء مترابط، كل شيء يُفسَّر بشيء آخر، وهذا بدوره يُفسِّر شيئًا آخر. لا يوجد شيء منفصل، أي لا شيء يُمكن تسميته أو وصفه على حدة. لوصف الانطباعات الأولى، والأحاسيس الأولى، لا بد من وصف كل شيء دفعةً واحدة. العالم الجديد الذي نلتقي به ليس له جوانب، لذا يستحيل وصف جانب أولاً ثم الآخر. كل شيء مرئي في كل نقطة...

هنا نجد أحد أبسط المزاعم التي تشترك فيها جميع أوصاف التجربة الصوفية. كل شيء يُرى مترابطًا. وكلمة "يُرى" تستحق التأكيد. هذا العالم من العلاقات اللانهائية، حيث كل شيء متصل بكل شيء آخر، يُرى دفعة واحدة - من منظور علوي، إن جاز التعبير. وتصبح اللغة في الحال عديمة الفائدة، لأنها لا تستطيع إلا أن تُحدد شيئًا واحدًا في كل مرة. «يضيع الإنسان وسط هذا العدد اللامتناهي من الانطباعات الجديدة كليًا، والتي لا يملك تعبيرًا عنها ولا أشكالًا».

وما يبدو غريباً بنفس القدر هو أن الإحساس الطبيعي بالتمييز بين الموضوعي والذاتي قد اختفى:

هنا رأيتُ أن الموضوعي والذاتي يمكن أن يتبادلا مكانيهما. يمكن أن يصبح أحدهما الآخر. من الصعب جدًا التعبير عن هذا. اختفى الريبة المعتادة تجاه الذاتي؛ كل فكرة، كل شعور، كل صورة، تحولت فورًا إلى تجسيد في أشكال جوهرية حقيقية لا تختلف إطلاقًا عن أشكال الظواهر الموضوعية؛ وفي الوقت نفسه، اختفت الظواهر الموضوعية بطريقة ما، وفقدت كل واقعيتها، وبدت ذاتية تمامًا، وهمية، مُخترعة، بلا وجود حقيقي...

ويستمر في القول بأن هذا العالم الغريب يشبه أكثر من أي شيء آخر

"عالم من العلاقات الرياضية المعقدة للغاية".

هذه الرؤية للمعنى اللامتناهي جعلت من الصعب جدًا إجراء محادثة، فبين كل كلمة من الجملة تواردت أفكار كثيرة، مما جعل من الصعب عليه تذكر ما ينوي قوله بعد ذلك. بدأ جملته بعبارة "قلتُ أمس..."، لكنه ببساطة لم يستطع المضي قدمًا. أثارت كلمة "أنا" مئات الأفكار حول معنى "أنا"، وأثارت كلمة "قال" أفكارًا مماثلة حول الكلام والتعبير عن الذات، كل منها أنتج "انفجارًا من الأفكار والتخمينات والمقارنات والارتباطات"، وأدت كلمة "أمس" إلى خواطر وخواطر لا نهاية لها حول طبيعة الزمن، مما تركه مع شعور بضيق في التنفس جعل من المستحيل عليه الاستمرار.

طرأ أمرٌ غريبٌ أيضًا على إحساسه بالزمن، فعندما كان رفيقه يتحدث، بدا وكأن هناك فجوةً هائلةً بين كل كلمة. «عندما كان يُنهي جملةً قصيرةً، لم أفهم معناها إطلاقًا، شعرتُ أنني عشتُ الكثير خلال تلك الفترة لدرجة أننا لن نتمكن أبدًا من فهم بعضنا البعض مجددًا، وأنني ابتعدتُ عنه كثيرًا». يقول أوسبنسكي إن كل هذا كان مصحوبًا بحالاتٍ عاطفيةٍ شديدة القوة. «استوعبتُ كل شيءٍ من خلال الشعور، واختبرتُ مشاعرَ لا وجود لها في الحياة أبدًا». أصبح عالمه الداخلي مشهدًا متعدد الألوان من «الفرح والدهشة والنشوة والرعب، يتحول باستمرار إلى بعضها البعض». بدت هذه الحالة وكأنها تتيح له الوصول إلى معرفةٍ لا حدود لها، ولكن عندما كان يبحث عن إجابةٍ لأي سؤالٍ مُحدد، «بدأت من بعيد، ثم اتسعت تدريجيًا، وشملت كل شيء، بحيث تضمنت إجابة السؤال في النهاية إجاباتٍ على جميع الأسئلة الممكنة». واجه نفس المشكلة عندما نظر إلى الأشياء المادية: بدا أن منفضة السجائر تثير سلسلة لا نهائية من المعاني والارتباطات، حتى أنه كتب على قصاصة من الورق: "قد يُجنّ رجل من منفضة سجائر واحدة". وبدا أن منفضة السجائر، مثل أي شيء آخر، تتواصل مع...

معه، كما لو كان له صوت.

ما تبقى من وصف أوسبنسكي طويلٌ ومُفصَّلٌ للغاية بحيث لا يُمكن اقتباسه هنا حتى كخلاصة (مع أنني سأضطر إلى ذكر بعض النقاط المُحددة في موضعٍ آخر من هذا الكتاب). كانت تجاربه تنتهي عادةً بالنوم، وكان استيقاظه في صباح اليوم التالي تجربةً كئيبةً ومُخيِّبةً للآمال. بدا العالم العادي مُملًّا بشكلٍ لا يُوصف:

... كان هذا العالم يحتوي على شيءٍ مُرهِقٍ بشكلٍ غير عادي: كان فارغًا بشكلٍ لا يُصدق، بلا لونٍ ولا حياة. كان كما لو أن كل شيءٍ فيه خشبي، كما لو أنه آلةٌ خشبيةٌ ضخمةٌ بعجلاتٍ خشبيةٍ صريرية، وأفكارٍ خشبيةٍ، ومزاجاتٍ خشبيةٍ، وأحاسيسٍ خشبيةٍ؛ كان كل شيءٍ بطيئًا بشكلٍ مُريع،

بالكاد تحرك، أو تحرك بصرير خشبي حزين. كان كل شيء ميتًا، بلا روح، بلا إحساس.

لقد كانت هذه اللحظات من الاستيقاظ في عالم غير حقيقي بعد عالم حقيقي، في عالم ميت بعد عالم حي، في عالم محدود، مقطوع إلى قطع صغيرة، بعد عالم لا نهائي وكامل.

بمعنى آخر، يبدو الأمر كما لو أن الإنسان وجد نفسه عالقًا على كوكبٍ جاذبيته هائلة لدرجة أنه لا يستطيع الوقوف منتصبًا - بل حتى الزحف على يديه وركبتيه دون جهدٍ هائل. (قال غوردجييف ذات مرة إن عالمنا هو المعادل الكوني لسيبيريا الخارجية). في هذا العالم الحديدي، حتى الفكر محاصرٌ بجاذبيةٍ هائلة، فيضطر إلى جر نفسه على الأرض كحيوانٍ جريح. في معظم الأحيان، الوعي ليس أكثر من مجرد انعكاسٍ للبيئة، والحياة في جوهرها مجرد سلسلة من الصور البصرية، من الوجود "هنا والآن". لهذا السبب يبدو عالمنا "مُقسّمًا إلى قطعٍ صغيرة"، ولهذا السبب سمته الأساسية هي "الانفصال". لو كنت منهكًا تمامًا وأنت تقرأ هذه الصفحة، لتفتت إلى كلماتٍ منفصلة، وحتى لو نجحت في فهم معنى جملةٍ واحدة، فسيظل المعنى الكامل للفقرة بعيد المنال. هكذا هو عالمنا. كل شيء منفصل ومنفصل، وقد اعتدنا على هذه الحالة لدرجة أننا نفترض أنها طبيعية وحتمية. لكنها ليست طبيعية، تمامًا كما أن عدم فهم معنى جملة أمرٌ طبيعي. وندرك ذلك كلما غمرنا صباح ربيعي بشعورٍ بجمال العالم. "الانفصال" غير طبيعي؛ أما الحالة الحقيقية والطبيعية للأمور فهي "اتصال" أساسي، تمامًا كما أدرك أوسبنسكي خلال تجاربه الصوفية.

باختصار، هذا العالم، الذي يبدو لنا واقعيًا بشكلٍ مُرهِق، قد سُلب منه بُعدٌ من أبعاده بسبب ضعف الوعي البشري وعجزه عن العمل بكفاءة في مجال الجاذبية الهائل لكوننا. هذا جزءٌ فقط من المشكلة. ما يُحوّل الموقف الصعب إلى موقفٍ خطير هو أن خدرنا الذهني يحرمنا من أي إحساسٍ بالاتجاه، لدرجة أن معظم البشر قد تخلّوا عن أي محاولةٍ لرؤية الأمور ككل. في الواقع، يُضيّع معظمنا حياتنا في مُواجهة صعوبات اللحظة الراهنة، وعندما تُتيح لنا الحياة فسحةً عابرةً للتنفس، نميل إلى إضاعتها في الملل أو البحث عن التسلية. لهذا السبب، فإن الإنسان، وهو في جوهره مخلوقٌ طيب القلب واجتماعي، قادرٌ على ارتكاب كل هذا الشرّ تجاه رفاقه؛ لقد جعلته بيئة سيبيريا القاسية وحشيًا وقصير النظر. ومع ذلك، فإن كل ومضةٍ من البصيرة الشعرية أو الصوفية تُدركنا فورًا أن هذه الرؤية، حرفيًا، عبثية.

يبدو أن هناك شيئًا واحدًا واضحًا: العالم الذي نراه في هذه اللحظات من البصيرة هو

أكثرأكثر واقعية من عالم الواقع اليومي. وبحلول هذا الوقت، يجب أن يكون من الواضح تمامًا أن كل من اختبر هذه اللمحات قد رأى الشيء نفسه. يتضمن الأمر دائمًا إدراك أن إحساسنا المعتاد بأننا تحت رحمة الظروف، وبأننا عبيد للواقع المادي وأجسادنا، هو وهم. نمتلك "قوى خفية"، واحتياطيات هائلة من القوة غير المتوقعة. إحدى النتائج البسيطة لهذه البصيرة هي القدرة على شفاء المرض، في أنفسنا وأحيانًا في الآخرين. وصفت تلميذة المدرسة مويرا كالديكوت كيف أصيبت بالذبحة الصدرية بعد زواجها، ثم مرت بتجربة صوفية أخرى تركتها معافاة. وقرر لورانس ليشان اختبار صحة التجربة الصوفية من خلال تدريب نفسه على الدخول في "حالات وعي متغيرة" من خلال التأمل، وطور القدرة على الشفاء. ويخصص أحد فصول كتابه "الوسيط، الصوفي والفيزيائي" لوصف بعض حالاته، بما في ذلك حالة صبي كسر ظهره على الترامبولين وتم تشخيصه بالشلل الدائم - حتى حاولت مجموعة بقيادة ليشان "الشفاء عن بعد" واستعادت الإحساس في ساقيه في حوالي ساعة واحدة فقط.

لكن البصيرة الأساسية لجميع التجارب الصوفية هي، بلا شك، الإحساس بالمعنى - شعور بأن الكون ليس مجرد تكتل عرضي للمادة، أو نتيجة صدفة لانفجار عظيم غير قابل للتفسير، بل له نفس النمط والغرض العام الذي ندركه في الكائنات الحية. لا أحد يشعر بأن الزهرة أو القطة الصغيرة صدفة، كزجاجة مكسورة؛ من الواضح أنهما ليسا كذلك. ويشعر الصوفي - أو بالأحرى "يرى" - أن الكون كله نمط عملاق، كزهرة هائلة. يبدو أن التجارب الصوفية تغرس الشجاعة والتفاؤل دائمًا.

كل هذا يُمكّننا من إدراك أنه على الرغم من إصرار الصوفي على أنها عصية على الوصف - يستحيل التعبير عنها بالكلمات - فإن هذه التجارب تشترك إلى حد كبير مع المشاعر والرؤى المشتركة بيننا جميعًا. تحدث نيتشه عن مشاعر مفاجئة من الحيوية المتدفقة، "تلذذٌ مُجيدٌ ينبعث في الإنسان من أعماق الطبيعة، عند تحطيم مبدأ الفردانية... نشوة ديونيسيوسية أقرب ما تكون إلى السُّكر". في رواية "ذئب السهوب" لهيرمان هيسه، يقضي البطل (وهو "غريب" نموذجي منقسم على ذاته) ليلةً مع فتاة جميلة، ويغمره شعورٌ غامرٌ بالثقة بحياته:

للحظاتٍ معاً، وقف قلبي ساكناً بين الفرح والحزن لأكتشف كم كان معرض حياتي غنياً، وكم كانت روح ذئب السهوب البائسة تعجّ بالنجوم والأبراج الخالدة العالية... لقد أصبحت حياتي

تعب. تاهت في متاهة من التعاسة... كانت مُرّة بمرارة كل ما هو بشري؛ ومع ذلك فقد اكتنزت ثروات، ثروات تُفتخر بها. لقد كانت، على الرغم من كل بؤسها، حياةً أميرية. مهما كان الطريق إلى الموت قصيرًا، فإن جوهر حياتي كان نبيلًا. جاءت من نسبٍ رفيع، ولم ترتكز على تفاهات، بل على النجوم.

هذه هي الرؤية الصوفية الأصيلة، ومع ذلك لم يكن ستيبنوولف ولا خالقه من الصوفيين - بل كانا مجرد رومانسيين.

قد يظهر التصوف في مستويات أدنى. حتى أن ويليام جيمس يُصرّ على أن الشعور الذي نشعر به من الكحول (في الظروف المناسبة) هو شكل ثانوي من التجربة الصوفية. ويعترف "والتر"، كاتب السيرة الذاتية المجهول لكتاب "حياتي السرية" الجنسي الكلاسيكي، بأنه يُعاني أحيانًا مما يُسميه "جنونًا جنسيًا"، حيث ينجرف في شهوة جسدية شديدة لدرجة أنه لا يُدرك ما يقوله أو يفعله. من الواضح أن كل هذه التجارب تشترك في شيء ما مع وعي باك الكوني. وهو ما يُثير حتمًا السؤال المحوري: هل يُمكن بناء جسر بين التجربة اليومية وتجربة التصوف، بحيث يُمكننا عبوره في أي وقت؟

في الواقع، كان الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون هو من أقام سقالة هذا الجسر. وُلد برغسون عام ١٨٥٩، في منتصف العصر الفيكتوري، وسرعان ما تبنى مادية مفكرين مثل أوغست كونت وهربرت سبنسر. أطلق عليه زملاؤه في المدرسة العليا لقب "الملحد" لإصراره على أن الكون نتاج قوى طبيعية بحتة، وأن الدين والأخلاق مجرد أوهام من خيال الإنسان. وعندما وبخه معلمه على عدم ترتيب رفوف كتبه وسأله: "كيف لروح أمين مكتبتك أن تتحمل كل هذه الفوضى؟"، صرخ الفصل بأكمله في جوقة: "برغسون بلا روح". وعندما أصبح معلمًا في أوفيرن وبدأ في المشي لمسافات طويلة، أدرك هدوء الريف الجانب الشعري من طبيعته. وبينما كان ينظر إلى الغابات والتلال، تلاشت ماديته الإلحادية. لكن هذا لم يكن تحولاً دينياً بقدر ما كان تحولاً فلسفياً. كانت بصيرة برغسون العظيمة هي أننا إذا حاولنا إدراك الواقع بالعقل، فسنبقى حتمًا خاليي الوفاض. يتسرب من بين أصابعنا كحفنة ماء. لكن هذا لا يُثبت أن الواقع - أو الماء - غير موجود، أو أن الأفكار التي تثيرها الطبيعة فينا يمكن تجاهلها باعتبارها "مجرد مشاعر".

يقول برغسون: عندما أرسم خطًا بمسطرة، يُخبرني عقلي أنه يتكون من مليارات النقاط في الفضاء. لكنني أعلم أن هذا غير صحيح، لأنه خط متصل. لو كان يتكون بالفعل من مليارات النقاط، لكان من الممكن تقسيمه إلى هذه النقاط - أو على الأقل تخيله مقسمًا إلى نقاط. ولكن مهما كان عدد النقاط التي أقسمه إليها، لا يزال بإمكاني تخيل مليارات أخرى.

نقاط - بل عدد لا نهائي - بينها. نظريًا، من المفترض أن يستغرق قلمي وقتًا لا نهائيًا لرسمه. من الواضح أن هناك خللًا كبيرًا في عقلي، الذي يخبرني أن الخط يتكون من نقاط. وينطبق الأمر نفسه على الزمن. كم من الوقت تستغرقه الساعة الثانية عشرة؟ إنها لا تدوم لأي فترة زمنية، إذ يمكنك دائمًا تخيل جزء من مليار من الثانية قبل الثانية عشرة، أو جزء من مليار مليار... لذا، ووفقًا للمنطق، يتكون الزمن من عدد لا نهائي من النقاط، كل منها ليس لها مدة. في الواقع، نحن نعلم أن الزمن يتدفق.

كأن عقلي العقلاني يعاني من عجز غريب، كعمى الألوان. إذا حاولتُ التفكير في غروب الشمس، لا يسعني إلا التفكير في أشعة الضوء المتذبذبة في الفضاء. إذا حاولتُ تحليل سيمفونية، لا يسعني إلا التحدث عن أطوال موجات الصوت. إذا نظرتُ إلى أسطوانة غراموفون من خلال مجهر، فلن أرى سوى نتوءات متموجة في البلاستيك - ومع ذلك، عندما يمر القلم عليها، فإنه يُنشئ سيمفونية لبيتهوفن، والتي بدورها يمكن أن تُثير ومضة من الرؤية الصوفية في رجل مثل وارنر ألين. العقل أداةٌ قويةٌ بشكلٍ مذهل، لكنه ليس أكثر قدرةً على استيعاب الواقع من قدرتي على تناول المرق بالشوكة. لم يُخلق لهذا الغرض.

يبدو من المدهش أن البشر فشلوا في إدراك أمرٍ بديهي: أننا عندما نحاول استيعاب الواقع، نُزيّفه. عندما أستجيب لضحكة طفل، أو لبيت شعر، أو لرائحة صباح ربيعي، فإنني أستجيب مباشرةً للواقع. لكن في اللحظة التي أحاول فيها التفكير في سبب استجابتي لهذه الأمور، يكون الأمر أشبه بمحاولة التقاط بيضة مسلوقة بملقط نار؛ ببساطة أسحقها وأُشوّهها.

هذا لا يعني أنه ينبغي علينا تجنب التفكير في الواقع: فالفكر أداة قوية وقيّمة، شريطة ألا نحاول استخدامه لالتقاط البيض المسلوق. ما أدركه برغسون وهو يتجول في ريف أوفيرن هو أن أثمن تجاربنا لا يمكن التفكير فيها. لكن هذا لا يعني أنه يجب تجاهلها أو اعتبارها "مجرد مشاعر". كل ما علينا تذكره هو ألا نحاول اختزالها في بساطة الفكر الخام. لقد أدرك برغسون أنه كان يغلق حواسه عن الشعر المحيط به (لأن للعقل قدرة مذهلة على تجاهل ما يعتبره غير مهم)، وأن روحه قد ذبلت وجفّت نتيجة لذلك.

في الواقع، إن حجب الحواس عن هذه المعاني الدقيقة قد يكون خطيرًا للغاية: فهو يُنتج شعورًا بالعبث والملل، وهو شعورٌ كشعور الجامعة بأن كل شيء باطل ولا جديد تحت الشمس. لتجنب هذه المشكلة، يكفي أن نفهم أن لدينا أداتين لفهم العالم من حولنا، وليس - كما نميل إلى افتراض - أداة واحدة فقط. يمتلك جزءٌ من العقل القدرة على مواجهة الواقع ببساطة ومباشرة كشرب كوب من الماء. أما الجزء الآخر فلا يمكنه استيعاب الواقع إلا من خلال...

ربطه في نوع من الإطار الحديدي الصلب وقياسه بالمساطر والساعات.

في الواقع، توصل العلم مؤخرًا إلى وجود مادي لهاتين الطريقتين لفهم الواقع، وأنهما تقعان في نصفي الدماغ الأيمن والأيسر. وقد كشف علم وظائف الأعضاء الدماغي المشطور عن وجود شخصين يعيشان داخل رؤوسنا: الشخص الذي نسميه "أنت"، وغريب تمامًا يعيش في النصف الآخر من الدماغ.

أدمغتنا منقسمة إلى نصفين، كحبة جوز. يتولى النصف الأيسر اللغة والمنطق، بينما يتولى الأيمن الحدس و"الإدراك" - يمكننا القول إن النصف الأيسر عالم والأيمن فنان. يتصل النصفان بكتلة من الألياف العصبية تُسمى "الجسم الثفني". إذا فُصل هذا الجسم - كما هو الحال أحيانًا في علاج الصرع - يبدأ المريض بالتصرف كشخصين منفصلين. حاول أحد مرضى انقسام الدماغ إغلاق سحابه بيد وفكه باليد الأخرى. وحاول آخر ضرب زوجته بيده اليسرى بينما أمسكها اليمنى. (لسببٍ غريب، يتحكم النصف الأيمن من الدماغ بالجانب الأيسر من الجسم، والعكس صحيح، لذا كان الجانب الحدسي هو الذي يحاول التأثير عليها، والجانب العقلاني هو الذي يعيقه). عندما عُرضت على مريضة صورةٌ غير لائقة، تسبب النصف الأيمن من دماغها في احمرار وجهها خجلاً: وعندما سُئلت عن سبب احمرار وجهها، أجابت: "لا أعرف". أما "الأنا" التي تكلّم، فكانت، بالطبع، ذاتها في الجانب الأيسر من دماغها.

ما يُظهره هذا بوضوح هو أن الشخص الذي تُناديه "أنت" يعيش في نصف الكرة المخية الأيسر - النصف "المنطقي" - بينما يعيش "الغريب" في النصف "الحدسي". في البداية، يبدو من الصعب تفسير أي شيء غريب كهذا، إلى أن نتذكر أن الإنسان أُجبر على تطوير جانبه "المنطقي" من أجل بناء الحضارة. وهذا - كما لاحظنا في حالة بيتر هوركوس - يتضمن قمع القدرات غير الضرورية للبقاء. في الواقع، يُطلق علماء وظائف الدماغ على نصف الكرة المخية الأيسر - "أنت" - نصف الكرة المخية المسيطر، ويُشيرون إلى النصف الأيمن بأنه نصف الكرة المخية غير المسيطر. يمكن تشبيههما بشريكين في زواج، حيث يكون الزوج مُسيطرًا للغاية والزوجة غير مُزعجة وخجولة.

من المؤسف أن برغسون لم يعش طويلًا ليرى فلسفته مُبرَّرة علميًا - فهذا ما أنجزته فسيولوجيا الدماغ المشقوق. يُعنى الدماغ الأيمن بالتعرف على الأنماط - مما يعني أن المريض المصاب بتلف في دماغه الأيمن قد يجد صعوبة في التعرف على والدته، إلا بإخبار نفسه أنها ذات شعر رمادي وعيون بنية. أما الدماغ الأيمن السليم فيتعرف على الوجوه بسرعة، دون الحاجة إلى تحليل. وتستجيب هذه القدرة نفسها للشعر والموسيقى والفتيات الجميلات ومناظر الجبال. واستجابتنا لهذه الأشياء هي إدراك صحيح، وليس...

مجرد "شعور". إذا أصرّ العلم على حصر نفسه في ما يُدركه الجانب الأيسر من الدماغ، فهو يتجاهل نصف الحقيقة.

لكن من الخطأ إلقاء اللوم على الدماغ الأيسر لكونه مُسيطرًا للغاية. فهو ليس في الحقيقة مُتنمرًا ذكوريًا مُتعصبًا. تكمن المشكلة في أنه في حضارتنا الحديثة المُعقدة، عليه أن يبذل جهدًا شاقًا للبقاء. يُمكن أن يُنهك ويُرهق نفسه بسهولة، وفي هذه الحالة نبدأ بتجربة "تأثير سفر الجامعة"، أي الشعور بأن كل شيء باطل. كان تي إس إليوت يشكو من دماغه الأيسر عندما كتب:

وأدعو الله أن أنسى
هذه الأمور التي أناقشها مع نفسي كثيرًا وأشرحها كثيرًا،

وكان ييتس يتحدث عن نفس الشيء عندما كتب عن:

... طاحونة العقل القديمة تستهلك
خرقها وعظامها ...

لكن هذا الشعور بالجفاف والعبث ناتج ببساطة عن نسياننا أن لدينا قدرة أخرى على إدراك الواقع. في الواقع، أصبح الزوج منهكًا ومنهكًا لدرجة أنه نسي أن لديه زوجة - بل وزوجةً تُقدم له دعمًا قويًا للغاية. لذلك عندما يشعر بالهجران والبؤس، غالبًا ما يكون من المفاجئات السارة للغاية إدراك أنه ليس وحيدًا في النهاية. ينهار من شدة الإرهاق ويندهش عندما يغمره فجأة شعورٌ رائعٌ بالاسترخاء والسكينة التامة: إدراك أن العالم مكانٌ رائعٌ في النهاية. أطلق عالم النفس أبراهام ماسلو على هذه اللحظات اسم "تجارب الذروة" - لحظات السعادة الغامرة التي ندرك فيها أننا نسينا روعة الحياة. قدم ماسلو مثالًا نموذجيًا على ذلك، حالة أم شابة كانت تشاهد زوجها وأطفالها يتناولون الإفطار عندما أدركت فجأة كم هي محظوظة، ودخلت في تجربة ذروة. كانت تعتبرها أمرًا مسلمًا به، ثم توقفت عن اعتبارها كذلك.

مثالٌ أفضل يتعلق بجندي مشاة بحرية قضى فترةً طويلةً في المحيط الهادئ دون أن يرى امرأةً. وعندما عاد إلى القاعدة

ورأى ممرضة، وعاش تجربة قمة - لأنه، كما قال، خطرت له فجأة فكرة أن النساء يختلفن عن الرجال - أنهن ناعمات ومنحنيات ولطيفات ومختلفات عن الرجال كما تختلف الخيول عن الأبقار. أي شخص يستمتع بعطلة لديه إحساس مماثل - الشعور المبهج بأن العالم مكان أكبر بكثير وأكثر إثارة للاهتمام مما كنا نظن. عندها ندرك أن وعينا اليومي العادي يكذب علينا. يخبرنا أن الواقع ممل ومتكرر إلى حد ما، وأننا لو كنا في مكان آخر لما كان مختلفًا حقًا عما نحن عليه الآن. والآن نرى أن هذا غير صحيح بشكل صارخ: العالم مليء بالتنوع والغرابة اللانهائية. والترابط.

تكمن المشكلة في أن الدماغ الأيسر الكفؤ هو "مدمن عمل". هذه الكلمة - التي دخلت قاموس المصطلحات الحديث منذ الستينيات - تعني الشخص الذي اعتاد على بذل الجهد لدرجة أنه لم يعد يستمتع بالاسترخاء. إنه متوتر للغاية لدرجة تمنعه من الاسترخاء لفترة طويلة. على مدار آلاف السنين الماضية من التطور البشري، تطور الدماغ الأيسر إلى مدمن عمل - وهذا ينطبق على جميع البشر، حتى أكثرهم كسلاً. لهذا السبب نسينا التنوع الهائل للكون وغرابته، ولهذا السبب تطلّب الأمر فيلسوفًا مثل بيرجسون ليلاحظ وجود خطب ما.

تجربة الذروة تجعلنا ندرك الشيء نفسه: ولهذا السبب هي بالغة الأهمية. إنها تنزل علينا كلمح البصر - نفس النوع من الإدراك الذي جعل أرخميدس يقفز من حمامه صارخًا: "وجدتها!". ما ندركه هو ما صاغه برغسون: أن لدينا نمطين من الإدراك، وأنهما متساويان في الصحة. كما قدم ماسلو ملاحظة مهمة أخرى: أن معظم الأصحاء يمرون بتجارب ذروة كل يوم. والسبب واضح. فنحن نمر بتجارب ذروة عندما نكون مليئين بالطاقة والتفاؤل. لكن تجربة الذروة ليست مجرد فيض من الطاقة والتفاؤل: إنها إدراك يأتي إلينا عندما يكون الدماغ في قمة نشاطه. وهذا يفسر ملاحظة مهمة أخرى لماسلو. فقد اكتشف أنه عندما بدأ طلابه يتحدثون ويفكرون في خوض تجارب ذروة، كانوا يمرون بتجارب ذروة طوال الوقت. وذلك لأن تجربة الذروة هي إدراك - شيء يُدرك فجأة، مثل إدراك أرخميدس لقانون الأجسام العائمة. ليس من السهل إدراكه، بسبب القيود "المنطقية" للفص الأيسر من الدماغ. ولكن بمجرد رؤيته، بمجرد أن يصبح بمثابة بصيرة، يمكن إعادة إنشائه من خلال نوع من الحركة العقلية للمعصم.

هذا اعترافٌ مثير، لأنه يعني أننا في طريقنا لفهم كيفية إعادة خلق تجربة الذروة - أو حتى التجربة الصوفية - كما يحلو لنا. نجد صعوبةً في التمسك بهذه التجارب لأن كلماتنا وأفكارنا بدائيةٌ وبسيطةٌ للغاية. (لقد رأينا، على سبيل المثال، كيف أن بيرجسون...

يمكن أن تمكننا البصيرة في الواقع من فهم ما يحدث في تجربة الذروة من خلال تزويدنا بمجموعة أكثر تعقيدًا من الأفكار.) يمكن مقارنة الشخص الذي تغمره التجربة الصوفية بشخص يُمنح لمحة عن مدينة من طائرة، ثم يُطلب منه رسمها من الذاكرة. هذا هو السبب في أن الرؤية الصوفية لا يمكن وصفها - ليس لأنه من المستحيل التعبير عنها باللغة، ولكن لأن لغتنا في الوقت الحالي بدائية للغاية. بمجرد أن نتعلم رسم نوع من الخريطة البسيطة للميزات الرئيسية للمدينة، نكون قد اتخذنا خطوة كبيرة نحو تعلم كيفية إعادة إنشاء تجربة الذروة - أو التجربة الصوفية - حسب الرغبة.

لا بد من الاعتراف بأن ماسلو أشار ذات مرة إلى أنه لا ينبغي الخلط بين تجارب الذروة والتجارب الصوفية. لكنه كان يشير فقط إلى اختلافهما في الدرجة، لا في النوع. في الواقع، من الواضح أن بينهما قواسم مشتركة كثيرة. لننظر، على سبيل المثال، إلى التجربة الصوفية التالية التي وصفتها آن بانكروفت، وهي محاضرة في مقارنة الأديان:

"عندما كنت صغيرًا... كنت متأكدًا من وجود عجائب وأسرار وأن العالم كله مليء بطريقة ما بمعنى لم أستطع فهمه حقًا ولم أستطع الوصول إليه... كنت متأكدًا من أنني أنتمي إليه حقًا وأن له علاقة كبيرة بالله، الذي أسميته الحضور لأنه بدا غالبًا حاضرًا لي عندما كنت وحدي في الحقول والغابات.

لكن عندما بلغت السادسة عشرة، شعرتُ بالخوف وتوقفتُ عن كل شيء. كنتُ أخشى أن أفقد نفسي تمامًا، ورغم أنني كنتُ أرغب في هذا في صغري، إلا أن العالم الخارجي، اليومي، أصبح الآن يجذبني أيضًا، وبدأتُ أرفض السعي الداخلي المنعزل.

وهذا يعني أنها قمعت عمداً أسلوب النصف الأيمن من المخ في استيعاب الواقع لصالح نهج أكثر عملية.

في صغري، تزوجتُ وأسستُ عائلة. مرّت السنوات سريعًا، لكن زواجنا لم يكن سعيدًا، كنا غير مُناسبين تمامًا، وانتهى بشعورٍ مريرٍ بالذنب والفشل. احتفظتُ بالأطفال وأخذتهم إلى أمريكا، حيث تزوجتُ مرةً أخرى. لكن هذا الزواج أيضًا كان قائمًا على رمال لا على صخر، وفي محاولةٍ أخيرةٍ للحفاظ عليه، أقنعتُ زوجي بالعودة معنا إلى إنجلترا، على أمل أن يُساعدنا مجتمعٌ أكثر هدوءًا وعقلانيةً. أعتقدُ أنه فعل، لكن فات الأوان لإنقاذ العلاقة. عندما بدا أن هذا الزواج أيضًا محكومٌ عليه بالنهاية في خرابٍ من الخلافات والغيرة والخوف والكراهية، استيقظتُ فجأةً على حقيقة أن شيئًا ما قد حدث خطأً فادحًا، ليس فقط في هذا الوضع، بل معي أيضًا.

عندما تأملتُ نفسي جيدًا، رأيتُ أنني أصبحتُ تافهًا للغاية، عبدًا لمشاعري، منغمسًا في مشاعري، مُركّزًا على ذاتي لدرجة أن حياتي ضاقت إلى سلوكٍ قهريٍّ كزومبي. أين الحقيقة؟ أدركتُ بوضوح أن شيئًا جوهريًا ينقصني. كان هناك بعيدًا عن متناولي، بل بعيدًا عن خيالي، لأني لم أستطع أن أرى ماهيته: كل ما عرفتُه هو أنني بدونه.

ثم مررتُ بفترة يأس شديد. في خضم حياتي العادية - رعاية أطفالي وإرسالهم إلى المدرسة واللعب معهم، محاولًا ألا أكون غير كافية لهم - رأيتُ نفسي شخصًا بلا نور، شخصًا غبيًا، غامضًا، كئيبًا، بلا فرح، لستُ شخصًا حقيقيًا على الإطلاق. غمرني شعورٌ هائلٌ بالندم على السنوات التي أفسدتُها بشدة، وأُغلقتُ على نفسي باب اكتئابٍ هائل...

في إحدى الليالي، لم أستطع النوم، فجلستُ ساكنًا طوال الليل، أشعر بتوبة عميقة وحزن عميق. عندما أشرق ضوء الصباح وبدأت الطيور بالتغريد، وجدتُ نفسي فجأةً أعي وجودها بشكلٍ غريب. نظرتُ إلى الحديقة فرأيتُ طائرًا أسود، وكأنني لم أرَ طائرًا أسود من قبل. كان له معنىً جديدٌ تمامًا بالنسبة لي، وشعرتُ فجأةً أن هذا الطائر هو أكثر شيءٍ حقيقي رأيته في حياتي، وأن مجرد رؤيته بهذه الطريقة يجعل الحياة تستحق أن تُعاش. كانت الأيام التي تلت مختلفةً عن أيِّ أيامٍ مضت. فجأةً، أصبحتُ أعي الصوت والضوء بشكلٍ مكثف، ووجدتُ نفسي أكثر عُرضةً لتأثير الآخرين. أشياءٌ أخرى - مجموعةٌ من الأشجار - ستأخذُ ولو لمرةٍ واحدةٍ معنى الطائر الأسود. أدركتُ أنني أقتربُ من شيءٍ ما، من صفةٍ جديدة.

في إحدى الأمسيات، كنتُ أنظر إلى غصنٍ من الرودودندرون وضعته في مزهرية. وبينما كنتُ أتأمله، مستمتعًا بجماله دون أي هدف في ذهني، شعرتُ فجأةً بتواصلٍ معه، كما لو أنني أصبحنا واحدًا. بدا لي أن هذا الشعور ينبعث من جبهتي، وكان شعورًا لا يُقاس بالسعادة والقوة... بدا لي أن هذا الشعور الغريب بالوحدة مع الرودودندرون قد نشأ لأنني كنتُ ساكنًا، لا أريد شيئًا، وبالتالي حرًا بطريقةٍ ما في رؤيته ومعرفته على حقيقته.

تمنيت لو أستطيع معرفة كل شيء بهذه الطريقة، ثم وجدت نفسي أفكر: لمَ لا؟ أنا فقط من يمنعني. لم يكن هناك حدٌّ لمقدار الحب الذي أستطيع منحه لكل ما أراه. ثم أدركتُ أنني لم أفعل هذا طوال معظم حياتي. فكرتُ في أشياء كثيرة لا تستحق اهتمامي لأنها لم تُعطني شيئًا في المقابل. لكنني الآن لا أستطيع أن أتخيل كيف قضيتُ كل هذا الوقت أتجاهل الأشياء أو أكون غير مبالٍ بها...

بعد بضعة أيام، جاءت تجربة جديدة ومُثمرة نوعًا ما. كان ذلك في الصباح، وشغّلتُ جهاز اللاسلكي للاستماع إلى حفلة موسيقية. مع أول نغمة من

دقت الموسيقى، وسمعتُ صوتًا يكاد يكون مسموعًا في ذهني، ووجدتُ أن كل شيء قد تحوّل. كنتُ في حالة وعي مختلفة تمامًا. كان الأمر كما لو أن الشعور المنفصل بـ"الأنا" الذي نشعر به جميعًا قد اختفى، وحلّ محله شعورٌ بالوضوح، بفراغٍ رائعٍ ونافعٍ تمامًا. وفي ذلك الفراغ لم تكن هناك حواجز. كانت الحجارة على الطريق في غاية الجمال، وتحمل أهميةً كشخص. كانت دراجةٌ من الطراز القديم واقفةٌ على جانب الطريق مضحكةً للغاية. كان الأمر كما لو أن ذهني يستطيع الآن أن يحتضن، دون تحفظ، كل ما يصادفه، سواءً كان بشرًا أو حيواناتٍ أو أشياءً، لأنه كان يعيش في صفاءٍ وفراغ. كنتُ في هذه الحالة من السعادة الأعظم والأكمل لمدة ثلاثة أيام...*

وتستمر في الحديث عن كيف قادتها هذه التجربة إلى اتخاذ قرار بالبحث في الدين، وكيف قادها قراءة كتاب "الفلسفة الدائمة" لألدوس هكسلي إلى اتخاذ قرار بأن تجربتها الخاصة تتناسب مع البوذية.

كان تعاليم بوذا مُركّزة كليًا على فكّ عقد عقول البشر حتى ينفتحوا على الواقع ويتحرروا من الجشع والجهل اللذين يُقيّدانهم كالسلاسل. اكتشفتُ، من خلال التأمل، أن رؤية الأشياء على طبيعتها - الكلمة التي يستخدمها بوذا للدلالة على جوهر كل شيء - تُمكّننا من...

كانت رؤيتهم كما رأيتهم ذات مرة، دون أي عائقٍ من "أنا" يعيقني، أحد أهم أهداف البوذية. كان هذا مصدر ارتياحٍ كبير لي، لأنني لم أرغب في الحديث المتدين أو الشعور بالذنب لحضوري كنيسةً ما. أردتُ، ووجدتُ، قبولًا صريحًا بأن أعمق حاجة للإنسان ليست العيش بالخبز وحده، بل تجاوز جميع أفكاره ومشاعره، ومعرفة معنى الحقيقة الخالدة، ومعنى الله.

في هذا الحساب، تؤكد جملة تلو الأخرى التحليل الذي اقترحته فسيولوجيا الدماغ المنقسم. عندما كانت طفلة، كانت ذاتها الحدسية واعية بـ "الحضور" في الطبيعة. لقد قمعت هذا لأن "العالم اليومي كان له جاذبية بالنسبة لي أيضًا" - وهي الذات المنطقية في الدماغ الأيسر التي يجب تنميتها للتعامل بكفاءة مع عالم التجارب اليومية. لكن جرعة زائدة من التجارب اليومية - ما قصده وردزورث عندما قال، "العالم معنا كثيرًا" - تركتها تشعر بأنها أصبحت "عبثية حقًا" - تأثير سفر الجامعة. لقد نسيت الذات المهيمنة وجود شريكها غير المسيطر. جعلتها ليلة من التأمل العميق تدرك مرة أخرى وجود هذه الذات الخفية. بدأت ترى العالم من خلال عيون

"الذات الأخرى"، وأصبحت التجربة مكثفة ومباشرة، ولم تعد متوترة بسبب ما أطلق عليه تي إي لورانس "الطبيعة المليئة بالفكر".

كانت "تجربتها المتوجة" تتمثل فيما أسماه دوغلاس هاردينغ "فقدان العقل". في كتابه "فقدان العقل" (1972)، وصف هاردينغ كيف فقد فجأةً كل إحساس بهويته وهو ينظر إلى جبال الهيمالايا:

ما حدث بالفعل كان شيئًا بسيطًا وغير مثير للدهشة: توقفت عن التفكير. سيطر عليّ هدوء غريب، نوع غريب من الضعف أو الخدر اليقظ. تلاشى العقل والخيال وكل الثرثرة العقلية. وللمرة الأولى، خذلتني الكلمات حقًا. سقط الماضي والمستقبل. نسيت من أنا وماذا كنت، اسمي، رجولتي، حيواني، كل ما يمكن أن يُسمى ملكي. كان الأمر كما لو أنني وُلدت في تلك اللحظة، جديدًا تمامًا، بريئًا من كل الذكريات. لم يكن هناك سوى الآن، تلك اللحظة الحاضرة وما هو مُعطى بوضوح فيها. كان النظر كافيًا. وما وجدته كان سروالًا كاكيًا ينتهي للأسفل في زوج من الأحذية البنية، وأكمامًا كاكيًا تنتهي جانبيًا في زوج من اليدين الورديتين، وقميصًا كاكيًا ينتهي لأعلى في - لا شيء على الإطلاق. بالتأكيد ليس في الرأس.

لم يستغرقني الأمر وقتًا طويلًا لأُدرك أن هذا العدم، هذا الفراغ الذي كان من المفترض أن يكون فيه رأس، لم يكن فراغًا عاديًا، ولا مجرد لا شيء. بل على العكس، كان مكتظًا للغاية. كان فراغًا شاسعًا مملوءًا، لا شيء يجد متسعًا لكل شيء - متسعًا للعشب والأشجار والتلال البعيدة المظلمة، وفوقها قمم ثلجية كصف من السحب الزاوية التي تركب السماء الزرقاء. لقد فقدت رأسًا واكتسبت عالمًا.

يصف هاردينغ هذا الإحساس بأنه "خالٍ تمامًا من ذاتي، غير ملوث بأي مراقب... أخف من الهواء، وأكثر صفاءً من الزجاج، متحرر تمامًا من ذاتي، لم أكن في أي مكان".

ومع ذلك، تشير فسيولوجيا الدماغ المنقسم إلى أنه لا ينبغي لنا اعتبار هذه الحالة "الخالية من الأنا" (أي "الخالية من الدماغ الأيسر") مرغوبة تمامًا. ففي النهاية، نمتلك أدمغة أيسر لسبب وجيه تمامًا - لتمكيننا من التعامل مع تعقيدات الحياة اليومية. قد نتذكر أن آن بانكروفت بدأت عمدًا في تطوير قدراتها الدماغية اليسرى في سن السادسة عشرة لأنها وجدت العالم الحقيقي مثيرًا للاهتمام للغاية. ويشير المنطق نفسه إلى أن البوذية قد لا تكون الحل الأمثل لمشاكل العالم. تروي المثل الأساسي للبوذية كيف نشأ الأمير غوتاما على يد والده في جهل تام بالألم والمعاناة؛ ولكن في ثلاث رحلات غير مصرح بها من القصر، رأى رجلاً عجوزًا ورجلًا مريضًا ورجلًا ميتًا. قاده هذا إلى إدراك أن الحياة البشرية...

في الأساس، معاناة، وأن الحل يكمن في التخلي عن كل رغبة والنظر إلى العالم بلا مبالاة تامة. هذا الموقف من الرفض الشامل للعالم سيبدو لمعظم الغربيين بمثابة اسم آخر للتشاؤم - أو الميل إلى رمي الطفل مع ماء الاستحمام. الدماغ الأيسر أشبه بمجهر يهدف إلى فحص العالم بتفصيل؛ أما الأيمن فهو تلسكوب يهدف إلى مسح آفاق واسعة من المعنى. صحيح أن "القرب" يحرمنا من المعنى، لكن هذا ليس خطأ المجهر، بل غبائنا في نسيان أننا نستطيع تصحيح حدوده باستخدام التلسكوب.

تحتوي رواية آن بانكروفت على عدة أدلة أكثر أهمية - على سبيل المثال ملاحظتها أنها تمنت لو عرفت كل شيء بنفس الطريقة التي عرفت بها الرودودندرون، وإدراكها المفاجئ: "لماذا لا؟ أنا فقط من يمنعني. لم يكن هناك حد لكمية الحب التي يمكنني منحها لكل ما أراه". وهنا أيضًا تُدلي بملاحظة يمكن تفسيرها بمصطلحات نفسية بسيطة. لأن الدماغ الأيسر دائمًا في عجلة من أمره، فإنه يُحوّل الأشياء إلى رموز، لأن الرموز أسهل في التعامل معها من الحقائق المعقدة: يمكنك القول إنه يُحوّل الرجال الحقيقيين إلى رجال أعواد ثقاب. وعليه أن يتخذ قرارات مستمرة بشأن مقدار الاهتمام الذي يُوليه لكل من هذه الرموز أو الأفكار - فكما لاحظ وايتهيد، تشبه حركات الفكر هجمات الفرسان في المعركة: لا يمكنك القيام إلا بالكثير منها. عندما يكون الدماغ الأيسر متعبًا أو قلقًا، يميل إلى ترشيد انتباهه إلى الحد الأدنى، ويبدأ العالم يبدو غير واقعي بشكل متزايد. إن تجربة الذروة تعيد على الفور الإحساس بالواقع وتجعلنا ندرك أنه كان خطأنا لفشلنا في إعطاء اهتمام كافٍ للعالم من حولنا. لقد أعادت آن بانكروفت اكتشاف الاعتراف المركزي للفيلسوف إدموند هوسرل: أن الإدراك مقصود. وهذا يعني أنه عندما ننظر إلى شيء ما، فإننا نوجه انتباهنا إليه مثل خطاف التصارع. عندما تدخل معرضًا للصور، فإنك "توجه" تلقائيًا المزيد من الاهتمام إلى كل صورة مما تمنحه لحافلة عابرة. نحن نتحكم في مقدار الطاقة التي نضعها في الإدراك، لذلك كانت آن بانكروفت محقة تمامًا عندما قالت، "لماذا لا؟ لقد كنت أنا فقط من أوقفني". تكمن الإجابة في تنشيط الإدراكات. تتمتع عقولنا بـ "ملكة تركيز"، وهي قوة معينة لتكثيف قدرتنا على "التركيز"، والتي يمكن مقارنتها بسحب مكبس محمل بنابض أو مسمار بندقية. تتمتع هذه الملكة بالقدرة على زيادة إحساسنا بالواقع فجأة؛ في الواقع، يُمكن تسميتها - بعبارة مُقتبسة من عالم النفس الفرنسي بيير جانيه - "دالة الواقع". ولا شك أن "دالة الواقع" تُعدّ أحد أهم مفاتيح إشكالية التجربة الصوفية.

لقد أثمر النهج "البرغسوني" للمشكلة نتائج غير متوقعة. فلنرَ إن كان من الممكن البناء على هذه الأفكار للوصول إلى فهم عام لـ"رؤى" الصوفيين.

تُشكّل اعتراضات برتراند راسل نقطة انطلاق مناسبة. يدّعي المتصوفون، دون استثناء تقريبًا، أنهم حققوا فهمًا ثاقبًا للكون. يُقرّ راسل الآن بأن هدف الفلسفة هو فهم الكون. لكنه يُشير إلى أنه قبل أن نفهم أي شيء، علينا جمع واحد وواحد لنحصل على اثنين. "الواحد والواحد" الذي يجمعه العالم هو حقائق. ويعترض راسل على أن المتصوفين لا يمكن أن يمتلكوا حقائق كافية لفهم الكون. لا أحد يمتلكها.

ويرد الصوفي على هذا الاعتراض بقوله:

جميع الأفكار تتضمن نوعًا من القفزة. عندما يضع عالم نفس موزة خارج قفص قرد بعيدًا عن متناوله، ويترك عصا في القفص، يتعين على القرد القيام بقفزة ثاقبة قبل أن يدرك أنه يستطيع استخدام العصا للوصول إلى الموزة. عندما تتعب عقولنا، يصعب علينا القيام بهذه القفزات. من ناحية أخرى، يبدو أن العقل أشبه بنوع غريب جدًا من الحواسيب. يستطيع بعض العباقرة في الرياضيات حل الأعداد الأولية المكونة من أربعة وعشرين رقمًا في ثوانٍ. فهل من المعقول إذن أن تقوم عقولنا في لحظات معينة بسلسلة من القفزات التي تكشف فجأة عن المعنى؟

يصف ويليام جيمس مثل هذه التجربة في مقال بعنوان "اقتراح حول التصوف":

في كلٍّ من الحالات الثلاث المشابهة، اقتحمت التجربة فجأةً موقفًا عاديًا تمامًا، ولم تدم سوى أقل من دقيقتين. في إحدى المرات، كنتُ منخرطًا في محادثة، لكنني أشك في أن محاوري لاحظ تشتت أفكاري. ما حدث في كل مرة هو أنني بدا لي فجأةً وكأنني أتذكر تجربةً ماضية؛ وهذا التذكير، قبل أن أتمكن من إدراكه أو تسميته بوضوح، تطور إلى شيءٍ آخر ينتمي إليه، وهذا بدوره إلى شيءٍ أبعد، وهكذا دواليك، حتى تلاشت العملية، تاركةً إياي مندهشةً من الرؤية المفاجئة لنطاقات متزايدة من الحقائق البعيدة التي لم أستطع شرحها بوضوح. كان أسلوب الوعي إدراكيًا، لا مفاهيميًا [يقصد جيمس أنه كان في النصف الأيمن من الدماغ وليس الأيسر] - كان المجال يتوسع بسرعةٍ هائلةٍ لدرجة أنه لم يعد هناك وقتٌ للتصور أو التماهي ليتدخل في عمله. كان هناك شعورٌ قويٌّ ومثيرٌ بأن معرفتي بالواقع الماضي (أو الحاضر؟) تتوسع نبضةً تلو الأخرى، ولكن بسرعةٍ هائلةٍ لدرجة أن عملياتي الفكرية لم تستطع مواكبة هذه الوتيرة. [خطي المائل.] كان المحتوى

وهكذا ضاعت تمامًا في تأمل الذات - غرقت في عالم النسيان الذي تختفي فيه الأحلام عند الاستيقاظ. كان الشعور - لن أسميه إيمانًا - بأنني انفتحت فجأة، ورأيت من خلال نافذة، إن جاز التعبير، حقائق بعيدة تنتمي إلى حياتي بشكل غامض، شعورًا حادًا لدرجة أنني لا أستطيع التخلص منه اليوم.

يمكننا أن نرى أن جيمس قد اختبر ببساطة نسخةً أقل قوةً من بصيرة أوسبنسكي الصوفية. بين كلمتين من المحادثة، انحرف حدسه فجأةً نحو الأفق كوميض برق، كاشفًا عن "الترابط" الأساسي بين كل شيء، وعاملًا بهذه السرعة.

- كاشفةً عن العديد من الروابط - تُركت اللغة وراءها، مُجرّدةً خطواتها. ومثل أوسبنسكي، رأى جيمس هذا التسلسل الهائل من "الحقائق" المترابطة - "أسلوب الوعي كان إدراكيًا، لا مفاهيميًا". ولو كان لديه الوقت الكافي لدراسة التجربة، لكان قد وجد بلا شك، مثل أوسبنسكي، أنه كان بإمكانه الإجابة على أي سؤال، لأن "إجابة [أي] سؤال تتضمن إجابة جميع الأسئلة الممكنة".

عندما كنتُ في مايوركا عام ١٩٦٩، سألتُ روبرت جريفز إن كان قد مرّ بتجربة روحية، فأرشدني إلى قراءة إحدى قصصه القصيرة بعنوان "السيد غان البغيض". وصف فيها كيف كان، وهو تلميذ في المدرسة، جالسًا على بكرة خلف جناح الكريكيت عندما غمرته فجأة "إضاءة سماوية".

خطر ببالي أنني أعرف كل شيء. أتذكر أنني تركت عقلي يجول بسرعة في جميع مجالات المعرفة المألوفة لديه، لأكتشف أن هذا لم يكن وهمًا أحمق. كنت أعرف كل شيء بالفعل. بصراحة: مع أنني كنت أدرك أنني قطعت أقل من ثلث الطريق في التعليم الرسمي، وأنني ضعيف في الرياضيات، ومتعثر في قواعد اللغة اليونانية، ومشوّش في التاريخ الإنجليزي، إلا أنني كنت أحمل مفتاح الحقيقة في يدي، وأستطيع استخدامه لفتح أي باب. لم تكن نظريتي نظرية دينية أو فلسفية، بل طريقة بسيطة للنظر من زاوية إلى الحقائق غير المنظمة لفهمها تمامًا.

يوضح جريفز أنه جرّب رؤيته على "أقفال عنيدة مختلفة: كانت جميعها تُغلق بسلاسة، والأبواب تُفتح بسلاسة". ظلت هذه الرؤية سليمة عندما استيقظ في اليوم التالي. ولكن عندما حاول، بعد دروس الصباح، تسجيلها في دفتر تمارين، "انشغل ذهني بسرعة فائقة، فبدأتُ أشطب - خطأً فادحًا - ثم جعّدتُ الصفحة على الفور". عندما

حاول لاحقًا تدوينها تحت أغطية السرير، لكن "السحر تبخر" واختفى البصيرة. وفي حديثه عن تجربته، قال إن ما أذهلني آنذاك كان "إدراكًا طفوليًا مفاجئًا لقوة الحدس، ذلك المنطق الفائق الذي يقطع كل عمليات التفكير الروتينية وينتقل مباشرةً من المشكلة إلى الحل".

ولتوضيح هذه القدرة الغريبة، يروي جريفز قصة زميله في الدراسة، ف. ف. سميلي، الذي يبدو أنه اكتسب مهارة حسابية فائقة. كلفهم الأستاذ، السيد غان، بمسألة رياضية معقدة. دوّن سميلي الحل ببساطة وجلس ينظر من النافذة. وعندما سُئل كيف حلها دون حسابات مكتوبة، أجاب سميلي: "خطرت لي الفكرة فجأة - نظرت إلى المسألة ورأيت الحل". اتهمه السيد غان بالبحث عن الحل في نهاية الكتاب؛ فأجاب سميلي أن الحل أخطأ في رقمين على أي حال. أرسله السيد غان إلى مدير المدرسة مع مذكرة يأمر بضربه بالعصا بتهمة الغش والوقاحة الصارخة.

وصف جريفز لتجربته الشخصية أقل وضوحًا مما قد يكون. فعندما يقول إنه "كان يعرف كل شيء"، نميل بطبيعتنا إلى الاعتقاد بأنه يتحدث عن معرفة عامة - مثل معرفة التواريخ في التاريخ. لكن من الواضح أن هذا ليس صحيحًا، إذ يُكمل حديثه قائلًا إنها كانت طريقة "للنظر جانبًا" إلى الحقائق غير المنظمة لترتيبها. وهذا يُذكرنا بملاحظة إيلين غاريت بأن استبصارها يعتمد على "تحول جذري في وعي المرء". وعندما يُقارن جريفز "بصيرته السماوية" بقدرة سميلي على حل المسائل الرياضية بنظرة واحدة، يتضح أنه يتحدث عن "رؤية أوسبنسكي الشاملة"، ولمحة جيمس عن "نطاقات متزايدة من الحقائق البعيدة". لكن جيمس يقول إنه لم يستطع تقديم وصف واضح لها، بينما كان جريفز مُسيطرًا بما يكفي على بصيرته لتطبيقها على مسائل مُختلفة ومحاولة تدوينها. يبدو جليًا أن تجربة جريفز كانت مشابهة لتجربة جيمس من نواحٍ عديدة، إلا أن ما رآه كان شيئًا يتعلق بالطبيعة البشرية أو آلية عمل العقل البشري. في مرحلة لاحقة من هذا الكتاب، قد يكون من المفيد محاولة تعريفها بدقة أكبر. في هذه الأثناء، ثمة أمر واحد واضح: إن استنارة جريفز كانت تتعلق بالدماغ الأيمن، أو آلية عمل الحدس. لكن يبدو أن بصيرته تتناقض مع افتراضنا المعتاد بأن الدماغ الأيمن هو ببساطة نظير طبيعي للدماغ الأيسر، مكملًا قدراته على التحليل المنطقي بقدرة على إدراك الأنماط. إن تعليق جريفز بأن البصيرة كانت "وعيًا طفوليًا مفاجئًا بقوة الحدس، ذلك المنطق الفائق الذي يقطع جميع عمليات التفكير الروتينية ويقفز مباشرة من المشكلة إلى الحل"، يعني أنه يدّعي أن قدراته تتجاوز مجرد "إدراك الأنماط" وتقترب كثيرًا مما نسميه "غامضًا" أو خارقًا للطبيعة.

*وارنر ألين، اللحظة الخالدة، 1946.
*انظر الطبيعة الروحية للإنسان، دراسة للتجربة الدينية المعاصرة، أكسفورد 1979.
*جيمس ويب، الدائرة المتناغمة، ص 112.
*مقتبس من محاضرة لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) بعنوان "الوضوح المتوج"، ضمن سلسلة "نور التجربة"، ونُشرت في كتاب يحمل نفس العنوان.

2
الذات الأخرى

قبل ساعات قليلة من بدء كتابة هذا الفصل، رأيت حلمًا غريبًا. أحلم كثيرًا، لكن معظم أحلامي تكون عادةً عبارة عن فوضى عارمة، وقصتها قليلة أو معدومة. في هذا الحلم، كنت في "بيت ترفيه"، ربما في مدينة ملاهي. كان هذا مكانًا ترفيهيًا جديدًا وعصريًا. انجرف الجميع بسرعة مذهلة، على حزام متحرك، عبر مشاهد غريبة ومحيرة، نسيت معظمها. لكنني أتذكر بوضوح أكثر التأثيرات غرابة. مر الحزام عبر مجال مغناطيسي قوي، وكان لهذا تأثيرٌ في تشويه الجزء العلوي من جسدي بطريقة ما كما لو كنت في مرآة مدينة ملاهي، مسببًا شعورًا غريبًا بالدوار. الآن، في معظم أحلامي، أستيقظ إذا حدث أي شيء غير عادي. في هذا الحلم، مررت بهذه التجربة الغريبة بأكملها بإحساس حي بالواقع. في لحظة ما، رفع "الحقل" قبعتي عن رأسي، وأتذكر أنني كنت في حيرة من أمري وتساءلت إن كان هناك معدن في قبعتي يفسر هذه الظاهرة. وبينما كان معظم الأشخاص الآخرين على الحزام يندفعون من الطرف الآخر مباشرةً، وجدتُ طريقةً للتسلل عبر درج أو نفق لأتمكن من مواصلة الشعور بآثار هذا "الحقل المشوه" الغريب، الذي أثار شعورًا رائعًا و"مُثيرًا للدهشة"، لم أعهده من قبل. استيقظتُ وأنا أشعر وكأنني مررتُ بتجربة استثنائية.

قبل أن أنام، كنت أفكر في بداية هذا الفصل، الذي كان سيتناول تومسون جاي هدسون والقدرات المذهلة للنصف الأيمن من دماغي، وخاصةً في الأحلام. كان الأمر كما لو أن "الغريب" في دماغي الأيمن قال: "هل تريد مثالاً على إبداعي الباهر؟ حسنًا، إليك مثال لن تنساه..."

والآن دعونا نعود إلى العمل الذي بين أيدينا.

في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبفضل أبحاث البروفيسور الشهير شاركو، استعاد موضوع التنويم المغناطيسي مكانته الأكاديمية المرموقة. في أمريكا، كان البروفيسور كاربنتر الشهير من بوسطن أحد رواد هذا المجال. في مستشفى سالبترير بباريس، كان شاركو يُحب أن يجعل مرضاه المُنومين مغناطيسيًا ينبحون كالكلاب أو يُرفرفون بأذرعهم كالطيور. أما البروفيسور كاربنتر، فقد فضّل أساليب أكثر تحضرًا: فقد كان يستمتع...

مُثبتًا أن التنويم المغناطيسي يُعزز قدرات العقل البشري. قدّم أحد أروع عروضه في واشنطن العاصمة بحضور جمهور من السيدات والسادة المثقفين، من بينهم خريج جامعي يُعرّف فقط باسم "س". وُضع "س" تحت التنويم المغناطيسي، ثم سأله كاربنتر إن كان يرغب بلقاء سقراط. أجاب بأنه سيُعتبره شرفًا عظيمًا لو كان سقراط لا يزال على قيد الحياة. أوضح كاربنتر أنه يمتلك القدرة على استحضار روح سقراط، وأشار إلى زاوية من الغرفة وهتف: "ها هو ذا". نظر "س" إلى المكان المُشار إليه، وارتسمت على وجهه ملامح الرهبة والإجلال. قدّم كاربنتر التعريفات، فبدا "س" عاجزًا عن الكلام من شدة الحرج، مع أنه ما زال يتمتع بذكاء كافٍ ليعرض على سقراط مقعدًا. ثم أوضح كاربنتر أن سقراط مستعد للإجابة على أي أسئلة، فبادر "س" بتردد إلى بدء محادثة. بما أن كاربنتر أوضح أنه لا يستطيع سماع إجابات الفيلسوف، تولى س. دور الوسيط وكرر كل ما قاله سقراط. استمر هذا "الحوار" المذهل لمدة ساعتين، وكانت الإجابات رائعة ومقنعة لدرجة أن بعض الحضور بدأوا يتساءلون عما إذا كان هناك حقًا روح خفية في الغرفة.

لاحقًا، عرض كاربنتر تعريف "سي" بأرواح فلاسفة أكثر حداثة، وشعر مع معظمهم براحة أكبر بكثير مما شعر به مع سقراط. وقد نتج عن هذه المحادثات "نظامٌ رائعٌ للفلسفة الروحية... واضحٌ للغاية، معقولٌ للغاية، ومتسقٌ تمامًا مع ذاته ومع قوانين الطبيعة المعروفة، مما جعل الحضور يذهلون". مع كل فيلسوف جديد، تغيرت طريقة "سي"، تمامًا كما لو كان يتحدث إلى مجموعة من الأشخاص الحقيقيين، وتغيرت أيضًا لغة وأسلوب الفلاسفة غير المرئيين: كان كل شيء حقيقيًا بشكل غريب لدرجة أن الجمهور شعر وكأنهم يشاهدون مسرحية.

كان من بين الحضور محرر صحيفة ديترويت يُدعى تومسون جاي هدسون، رجل في منتصف الخمسينيات من عمره آنذاك، وقد تابع العروض بدهشةٍ مُذهلة. كان هدسون يعلم أن سي. كان مُتشككًا تمامًا في مسألة "الأرواح" - كما كان هدسون نفسه. تحت تأثير التنويم المغناطيسي، تقبّل وجود أرواح الفلاسفة العظماء لأنه كان بإمكانه رؤيتها بوضوح. ما بدا أكثر إثارة للدهشة هو أن "الفلسفة الروحية" المُعبّر عنها لم تكن فلسفة سي. نفسه - فقد أعرب مرارًا عن دهشته من بعض تصريحات الفلاسفة الراحلين. ومع ذلك، كانت الفلسفة بأكملها نظامًا متماسكًا لدرجة أنه وفقًا لهودسون، كان من الممكن طباعتها في كتاب حرفيًا وكانت ستُشكل "أحد أعظم وأكثر أنظمة الفلسفة الروحية تماسكًا التي تصورها عقل الإنسان على الإطلاق".

وقد صادف وجود عدد من الروحانيين في الجمهور، و

كان الكثير منهم يميلون إلى فرضية وجود أرواح حقيقية، حتى خيب كاربنتر آمالهم باستحضار روح خنزير فلسفي كان يتحدث بعلم عن عقيدة التناسخ الهندوسية. في الوقت الذي كان يشهد فيه هدسون هذه الجلسات في واشنطن، كان طبيب شاب من فيينا يُدعى سيغموند فرويد في باريس، يدرس الطب على يد شاركو الشهير. لم يكن جان مارتن شاركو واحدًا من أعظم رجال الطب في أواخر القرن التاسع عشر فحسب؛ بل كان أيضًا أحد أعظم فناني الاستعراض فيه، وكما ذُكر سابقًا، كان يستمتع كثيرًا بإظهار قابلية التأثر المذهلة لأشخاصه المنوَّمين مغناطيسيًا، على سبيل المثال، من خلال جعل امرأة تصرخ من الرعب وترفع تنورتها عندما ألقى قفازًا عند قدميها وأخبرها أنه ثعبان. طمأن شاركو زملائه الأقل جرأة - الذين كانوا لا يزالون يميلون إلى الاعتقاد بأن التنويم المغناطيسي نوع من الاحتيال - بتأكيده لهم أنه في الحقيقة مجرد شكل من أشكال الهستيريا. لكن هذا التفسير ترك فرويد في حالة من الاضطراب أكثر من أي وقت مضى. فقد رأى ذراع رجل تتورم بعد أن لمسها بقطعة ثلج، صرّح المنوم المغناطيسي بأنها قضيب حديد ساخن؛ ورأى بطن امرأة منتفخًا يعاني من حمل هستيري. مثل هذه الحالات أوضحت تمامًا أنه لا بد من وجود جزء من العقل أقوى بكثير من الإرادة الواعية العادية. وعند عودته إلى فيينا، صاغ فرويد تدريجيًا مذهبه في...

العقل الباطن وبناء عليه نظرية التحليل النفسي.

كان هدسون في حيرة مماثلة مما رآه، لكنه اتبع مسارًا مختلفًا في التفكير. وتوصل أيضًا إلى استنتاج أن للإنسان "عقلين"، أحدهما يتمتع بقدرات أكبر بكثير من الآخر. ولكن ما هما تحديدًا؟ وفقًا لبعض الفلاسفة القدماء، يمتلك الإنسان نفسًا وروحًا؛ لكن يبدو أن ذلك لم يكن هنا ولا هناك. على حد علم هدسون، يمتلك الإنسان عقلًا "عمليًا" يتعامل مع مشاكل العالم الخارجي، ونوعًا من العقل "غير العملي" يتعامل مع مشاكله الداخلية. قرر هدسون تسمية هذين العقلين "الموضوعي" و"الذاتي". يتعامل العقل الموضوعي مع العالم الحقيقي من خلال الحواس الخمس، ووظيفته الأسمى هي العقل. أما العقل الذاتي فيفضل استخدام الحدس. "إنه مركز العواطف، ومخزن الذاكرة. ويؤدي وظائفه الأسمى عندما تكون الحواس الموضوعية معطلة". باختصار، هو ذلك الذكاء الذي يتجلى في الشخص المنوم مغناطيسيًا عندما يكون في حالة من المشي أثناء النوم.

كان هدسون مقتنعًا بأن العقل الذاتي مستقلٌّ بطريقةٍ ما عن الحواس. كان يعلم بتجاربٍ تمكّن فيها شخصٌ مُنوَّمٌ مغناطيسيًا، بعينين مغمضتين، من قراءة صحيفةٍ يحملها شخصٌ على الجانب الآخر من الغرفة. كما كان يعلم بأشخاصٍ مُنوَّمين مغناطيسيًا استطاعوا "السفر" إلى مكانٍ بعيدٍ ووصف ما يحدث بدقة. علاوةً على ذلك، يبدو أن العقل الذاتي...

القدرة على استخلاص قوة وطاقة أعظم بكثير مما يمكن للموضوع ممارسته بجهد واعي. اعتاد المنوم المغناطيسي الدنماركي كارل هانسن أن يخبر الناس أنهم أصبحوا جامدين كالألواح ثم يأمرهم بالاستلقاء على كرسيين - رؤوسهم على أحدهما وكعوبهم على الآخر - بينما يقف أفراد الجمهور على بطونهم أو يستخدمونه كمقعد. بدا واضحًا أن العقل الذاتي مسؤول بطريقة ما عن مصدر طاقتنا. العقل الموضوعي هو الشخص الذي تسميه "أنت". يبدو العقل الذاتي "كيانًا منفصلاً ومتميزًا"، غريبًا. وتحت التنويم المغناطيسي، يتم تخدير "أنت" ويصبح "الغريب" قادرًا على التحكم في الدماغ والجسم - بنتائج مذهلة.

في عام ١٨٩٣، طرح هدسون هذه الأفكار على الجمهور في كتاب بعنوان "قانون الظواهر النفسية". (وبـ"النفسية"، كان يقصد بالطبع الظواهر النفسية). لم يتبقَّ له من العمر سوى عشر سنوات؛ لكنه على الأقل حظي بشرف تحقيق شهرة مفاجئة ورؤية كتابه يُباع بأكثر من مائة ألف نسخة.

ما أثار حماس الجمهور الأمريكي هو النطاق الواسع والمبهرج لنظرية هدسون. بدا قادرًا على تفسير كل شيء، من العبقرية إلى الجنون، ومن التنويم المغناطيسي إلى معجزات المسيح. لكن ربما كانت الفكرة الأكثر إثارة هي أن العقل الذاتي يتمتع بقدرات خارقة - ذاكرة، اختراع، سيطرة على الجسد - وأننا جميعًا نمتلك عقلًا ذاتيًا. فلماذا لسنا جميعًا عباقرة إذن؟ لأن عقولنا الموضوعية تُقيد قدرات العقل الذاتي. سنكون عباقرة لو استطعنا إطلاق هذه القدرات. يمتلك العقل الذاتي ذاكرة لا حدود لها على ما يبدو. يروي هدسون قصصًا عن أشخاص تحدثوا، تحت تأثير التنويم المغناطيسي، بلغات أجنبية لم يتعلموها قط؛ لكن اتضح، بعد التحقيق، أنهم سمعوا هذه اللغات في طفولتهم و"استوعبوها" لا شعوريًا. العقل الموضوعي يُكبح العقل الذاتي، كما يشعر التلميذ بالكبح عندما ينظر المعلم من فوق كتفه. الشخص الذي يستطيع "تحرير" عقله الذاتي يُفترض أنه قادر على تعلم لغة أجنبية في أسبوع.

يقول هدسون إن هناك بعض الناس متحررين من القيود بطبيعتهم، ويعبر عقلهم الذاتي عن نفسه بحرية وطبيعية كالأطفال. هؤلاء رجال عباقرة، ويضرب بشكسبير مثالاً. كما يروي قصة رائعة عن الخطيب الأمريكي العظيم هنري كلاي، الذي طلب ذات مرة من صديق له أن يشد ذيل معطفه عندما كان يتحدث لمدة عشر دقائق في مجلس الشيوخ. قام الصديق بشد ذيل معطفه على النحو الواجب؛ تجاهله كلاي. حاول الصديق وخزه برفق بدبوس. ومع ذلك تجاهله كلاي. وخز الصديق الدبوس بقوة لدرجة أنه دخل عميقًا في ساق كلاي، لكن كلاي كان في حالة هستيرية ولم يلاحظ حتى. أخيرًا، في نهاية ساعتين من البلاغة الرائعة، انهار في مقعده، وقد غلبه الإرهاق، وسأل صديقه

مُعاتبًا على عدم إيقافه بعد مرور عشر دقائق. يُشير هدسون إلى أنه عندما ألقى هذا الخطاب، كان كلاي مريضًا جدًا لدرجة أنه كاد أن يعجز عن الوقوف، وأن هذا مثال على "التفاعل المتزامن للعقلين" وسلطة العقل الذاتي على الجسد.

هذا هو نوع القصة التي سرّت شهرة الكتاب - بما تحمله من دلالة على أننا قد نتعلم جميعًا كيف نستغل قوى العقل الذاتي بشكل أفضل. ففي النهاية، نعلم جميعًا مدى سهولة فقدان عفويتنا عندما نصبح واعين بذواتنا. (أشار هدسون إلى أن العقل الذاتي يُحبط تمامًا بسبب الشك، ولهذا السبب يجد أصحاب "القوى النفسية" صعوبة بالغة في إظهارها أمام العلماء). والدلالة هنا هي أنه إذا استطعنا أن نتعلم الاسترخاء والثقة بـ"الذات الخفية"، فسنتمكن جميعًا من استغلال عبقريتنا الكامنة بشكل أفضل. لماذا يمتلك بعض الناس، الذين يبدون مملين وعاديين تمامًا، موهبة خاصة تُمكّنهم من الكتابة أو التأليف أو الرسم ببراعة؟ وفقًا لهودسون، إنها ليست "موهبة خاصة"، بل هي حالة من التناغم العرضي بين "العقلين" تسمح بتدفق حر للتواصل بينهما. يمكن تشبيه ذلك بضبط جهاز الراديو عن طريق الخطأ للحصول على استقبال مثالي لمحطة معينة. يمكن أن يحدث هذا لأي شخص، ومن المؤكد أنه سيحدث لمعظم الناس إذا استطاعوا فقط أن يتعلموا عدم تقويض أنفسهم بالشك الذاتي.

الأمر الأكثر إثارة للاهتمام من وجهة نظرنا هو تأكيد هدسون أن الصوفيين وأصحاب الرؤى - وهو مثالٌ على ذلك ويليام بليك - هم رجالٌ يتمتعون بنفاذٍ طبيعي إلى العقل الذاتي. معظمنا مرتبطون بالعالم الخارجي بنوع من اليقظة العصبية؛ فنحن نخشى ما قد يحدث إذا "تركنا الأمر". كان بليك قادرًا على "ترك الأمر" بإرادته، ورؤية رؤى غريبة. ومن بين هذه القدرات الغريبة للعقل الذاتي "الرؤية التخيلية"، وهي القدرة على إعادة خلق صورة ذهنية بوضوحٍ شديد لدرجة أنها تبدو وكأنها تحوم أمام أعيننا. أصرّ العالم نيكولا تيسلا على أنه يستطيع تصور اختراعاته بوضوحٍ بالغ لدرجة أنه يستطيع "بناءها" في ذهنه ومشاهدتها تعمل. وقد عرف هدسون شخصًا كهذا أيضًا:

عرف الكاتب فنانًا يمتلك القدرة على دخول الحالة الذاتية بإرادته؛ وفي هذه الحالة، كان بإمكانه إسقاط رؤاه على اللوحة أمامه. صرّح بأن صوره الذهنية المتكونة بهذه الطريقة كانت مثالية من حيث التفاصيل والألوان، وأن كل ما كان عليه فعله لتثبيتها هو رسم الألوان المقابلة على الصورة الذاتية. هو أيضًا اعتقد أن خيالاته حقيقية؛ كان يعتقد أن الأرواح هي من تُسقط الصور على اللوحة.

كل هذا يبدو قريبًا بشكل ملحوظ من وصف إيلين غاريت لكيفية "تغيير وجهة نظرها". "ما يحدث لنا في هذه الأوقات هو أننا، مع انسحابنا من العالم المحيط بنا، نُحيل أنشطة حواسنا الخمس إلى مجال اللاوعي، ونسعى إلى تركيز الوعي... في مجال الوعي الفائق - المجال الخالد واللامحدود للمجهول حتى الآن". لكن هذا يوضح أننا نتجاوز بالفعل الملاحظات البسيطة - والعلمية في جوهرها - لتومسون جاي هدسون حول "العقلين" إلى شيء أكثر إثارة للجدل وتعقيدًا: مفهوم "الحقول الخالدة واللامحدودة" التي تتيح الوصول إلى "المعلومات الخارقة للطبيعة". وهذه، بالطبع، هي أيضًا النقطة التي يُصرّ عليها معظم العلماء. قد يقبلون مفهومًا برغسونيًا عن "عقلين" - عقلاني وحدسي - لكنهم يُصرّون على أن قوى العقل الحدسي هي القوى العادية التي نربطها بالحدس - ومضات مفاجئة من البصيرة، وما شابه. ولكن كيف يُمكن للحدس أن يُخبرنا بما يحدث على بُعد ألف ميل، أو - الأسوأ من ذلك - ما سيحدث غدًا؟

سرعان ما تجاوز هدسون نفسه الملاحظات النفسية إلى مجال الخوارق. أقنعته دراساته في التنويم المغناطيسي بأن التخاطر حقيقة. لا شك أنه سمع بأبحاث الماركيز دي بويسيغور، تلميذ مسمر الذي اكتشف التنويم المغناطيسي بالصدفة عام ١٧٨٠. كان مسمر يعتقد بوجود قوة حيوية غريبة - تُسمى "المغناطيسية الحيوانية" - يمكن استخدامها لعلاج الأمراض. بتوجيه من مسمر، قام بويسيغور بـ"مغناطيس" شجرة ليمون في حديقته وربط بها فلاحًا شابًا يُدعى فيكتور ريس. وبينما كان الماركيز يمرر مغناطيسًا فوق رأس المريض - لزيادة تدفق "السائل المغناطيسي" - دخل فيكتور ريس في غيبوبة. وعندما أُمر بفك قيده، فعل ذلك وعيناه لا تزالان مغمضتين. وسرعان ما اكتشف الماركيز، لدهشته، أن ريس يستطيع قراءة أفكاره عندما يكون الشاب في غيبوبة. كان بإمكان بويسيغور توجيه سؤال إليه ذهنيًا، وكان ريس يُجيب بصوت عالٍ. وإذا كانا في غرفة مع شخص ثالث، كان بإمكان الماركيز توجيه محادثة ريس بإعطائه أوامر ذهنية وإخباره بما يجب قوله. مرّ قرن آخر قبل أن يخترع فريدريك مايرز مصطلح التخاطر، ولكن بحلول عام ١٧٨٠، أثبت العلم أنه حقيقة واقعة.

أُعجب هدسون أيضًا بسلسلة من التجارب التي أجراها عام ١٨١٩ عضو مجلس مدينة دوسلدورف، إتش إم فيزرمان. بذل فيزرمان جهدًا ذهنيًا للتواصل عن بُعد مع صديق لم يره منذ ثلاثة عشر عامًا، واختار منتصف الليل لمحاولته. في اليوم التالي، ذهب لزيارة صديقه، الذي أخبره باندهاش أنه حلم به في الليلة السابقة. بعد هذا النجاح، جعل فيزرمان رجلًا عجوزًا يحلم بجنازة شخص يعرفانه، وامرأة تحلم بسرٍّ ما.

محادثةٌ بين فيزرمان وشخصين آخرين. عندما أبدى صديقٌ طبيبٌ شكوكه حيال كل هذا، أقنعه فيزرمان بجعله يحلم بمشاجرةٍ في الشارع.

يُخصّص هدسون عدة صفحات لواحدة من أشهر هذه القضايا على الإطلاق - قضية فيريتي. كان طالب شاب يُدعى بيرد مخطوبًا لفتاة، الآنسة إل إس فيريتي. "في مساء أحدٍ من نوفمبر عام ١٨٨١، وبعد أن قرأتُ عن القوة العظيمة التي تُمارسها الإرادة البشرية، عزمتُ بكل قوتي على أن أكون حاضرًا روحيًا في غرفة النوم الأمامية بالطابق الثاني من منزل يقع في ٢٢ شارع هوغارث، كينسينغتون." بذل جهده في الساعة الواحدة صباحًا. في تلك اللحظة، استيقظت الآنسة فيريتي، ورأت خطيبها واقفًا بجانب سريرها. صرخت وأيقظت أختها البالغة من العمر أحد عشر عامًا، والتي رأت بيرد أيضًا. عندها اختفى بيرد.

في العام التالي، خاض بيرد تجربةً أكثر غرابةً. ففي ديسمبر 1882، قرر أن يحاول "الظهور" في منزل كيو الذي انتقلت إليه الآنسة فيريتي وشقيقتها. جلس على كرسيٍّ بجانب المدفأة، محاولًا تركيز تفكيره على المنزل. وفجأةً، أدرك أنه لا يستطيع تحريك أطرافه - وكانت نظريته الخاصة أنه قد دخل في "نومٍ مُنوم". وعندما استعاد حالته الطبيعية بعد فترةٍ من الزمن بجهدٍ من إرادته، دوّن أنه كان في حالة "غيبوبة" من حوالي التاسعة والنصف حتى العاشرة. وفي منتصف الليل، حاول مرةً أخرى "البث". وفي مساء اليوم التالي، ذهب لزيارة منزل كيو، واكتشف أن شقيقة خطيبته الكبرى كانت تقيم معها أيضًا - يُناديها السيدة ل. أخبرته السيدة ل. أنها رأته في الليلة السابقة في التاسعة والنصف وهو ينتقل من غرفةٍ إلى أخرى. في منتصف الليل، رأته مجددًا وهو يدخل غرفة النوم، ويتجه نحو سريرها، ويمسك شعرها الطويل بيده. بعد ذلك، أمسك "الشبح" بيدها ونظر إلى راحة اليد، فقالت السيدة ل.: "لا داعي للنظر إلى الخطوط، فلم أواجه أي مشكلة قط". عندما اختفى بيرد مجددًا، أيقظت السيدة ل. أختها التي كانت في السرير نفسه، وأخبرتها بما حدث.

تطوعت السيدة ل. بهذه المعلومات دون أي استفسار من بيرد، وبعد أن أخبرته بقصتها، أخرج بيرد من جيبه ملاحظاته التي دونها في الليلة السابقة، والتي سجل فيها دخوله في حالة "غيبوبة" في التاسعة والنصف ومحاولة أخرى "للظهور" في غرفة النوم في كيو عند منتصف الليل. واللافت للنظر في هذه التجربة الثانية أن "الشبح" كان قويًا بما يكفي ليمسك بشعر السيدة ل. ويمسك بيدها - ربما ظنًا منه أنها الآنسة فيريتي. ولم يكن بيرد نفسه يتذكر أيًا من هذا.

كما أدلى بيرد بهذا التعليق المثير للاهتمام حول تجربته الأولى:

إلى جانب ممارسة قوتي الإرادية بقوة، بذلتُ جهدًا لا أجد كلماتٍ لوصفه. [التشديد من عندي]. كنتُ أشعر بتأثيرٍ غامضٍ من نوعٍ ما يتخلل جسدي، وكان لديّ انطباعٌ واضحٌ بأنني أمارس قوةً لم أكن أعرفها من قبل، ولكن يمكنني الآن تحريكها في أوقاتٍ معينةٍ بإرادتي.

يبدو أن هذا يُظهر أمرين: أن بيرد لم يستخدم إرادته الواعية فحسب، بل استخدم أيضًا نوعًا آخر من الإرادة - قوة العقل الذاتي - وأنه بمجرد أن يتعلم الحيلة، كان بإمكانه تكرارها أحيانًا. في الواقع، كررها مرة أخرى عام ١٨٨٤، عندما ظهر للآنسة فيريتي وداعب شعرها. (يبدو أن هذه كانت علاقة طويلة).

تم التحقيق في هذه الحالة وتسجيلها بشكل شامل من قبل جمعية الأبحاث النفسية التي تأسست حديثًا (تأسست عام 1882)، وربما ألهمت فريدريك مايرز للشروع في تجميعه الضخم "أشباح الأحياء" (شارك في تأليفه إدموند جورني وفرانك بودمور)، وهي الدراسة الأولى والأكثر إثارة للإعجاب لهذه القدرة الغريبة التي يتمتع بها بعض الناس على "إسقاط" "نظرائهم النجميين" (أو doppelgängers) إلى أماكن بعيدة.

اعتقد هدسون أن قضية فيريتي كانت مثالاً على التخاطر، وهو ما كان كذلك بلا شك إلى حد ما؛ ولكن من الواضح أن الأمر كان أكثر من ذلك. (في الواقع، فضّل هدسون تجاهل هذا الجانب الآخر - "الإسقاط النجمي").

- لأسباب سنتناولها لاحقًا.) لكن اهتمامه الرئيسي الآن كان محاولة إثبات، بما يرضيه، القوى الخفية للعقل الذاتي. ومثل لورانس ليشان بعد قرن تقريبًا، قرر هدسون أن أفضل طريقة لإثبات نظريته هي من خلال محاولة الشفاء. لماذا الشفاء، بدلًا من التخاطر، أو "الإسقاط النجمي"، أو تجارب الاستبصار؟ لأن نظرية هدسون الأساسية هي أن العقل الذاتي قوي جدًا لأنه في انسجام مع الطبيعة والكون، وأن المرض ناتج عن فقدان الاتصال بهذا الانسجام الأساسي. لذا، إذا كان بإمكان عقل ذاتي واحد التواصل مع آخر، فيجب أن يكون قادرًا على وضعه مرة أخرى على اتصال بالانسجام الأساسي. في الواقع، يتبع لورانس ليشان نفس الخط من التفكير، ويكتب، "من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن جميع الحساسين العظماء تقريبًا كان لديهم قدر غير عادي من بهجة الحياة والحيوية، وأن الشخص الذي يتبع المسار الصوفي والانضباطات يجد عادةً الفرح والسكينة وحياة غير مدمرة من السلام وتحقيق الهدف". *

مع الأخذ في الاعتبار أن المستشار فيسيرمان كان ناجحًا في

أثناء نقل الرسائل التخاطرية إلى الأشخاص الذين كانوا نائمين - وهي حالة تشبه التنويم المغناطيسي في النهاية - قرر هدسون أن أفضل وقت لمحاولة

كانت التجربة عندما كان المعالج نفسه على وشك النوم، أي عندما كان عقله الموضوعي مسترخيًا تمامًا. كانت تجربة هدسون الأولى مع قريب مسن كان يعاني من روماتيزم مؤلم كان شديدًا لدرجة أن إحدى ساقيه أصبحت أقصر من الأخرى بمقدار بوصتين وكان بالكاد قادرًا على المشي. بدأ هدسون العلاج "الشفائي" في 15 مايو 1890، وأخبر صديقين عن نيته حتى يكون لديه شهود. كانت الطريقة هي أن يفكر هدسون في القريب، الذي كان يعيش على بعد ألف ميل، تمامًا كما كان على وشك النوم، وأن يرسل اقتراحات الشفاء. بعد بضعة أشهر، قابلت إحدى "الشاهدتين" موضوع التجربة وفوجئت برؤية أنه يبدو الآن بصحة جيدة. سألت متى بدأ التحسن فأجاب الرجل: "في منتصف مايو".

ربما كان الأمر مصادفة بالطبع. لذا، استمر هدسون مع معارفه المرضى الآخرين. للأسف، لم يُقدّم أي تفاصيل إضافية عن التجارب المئة التي يدّعي إجراؤها؛ لكنه أفاد أنها جميعها كانت ناجحة باستثناء حالتين. في هاتين الحالتين، خالف هدسون قاعدته المعتادة عمدًا وأخبر "مرضاه" أنه ينوي محاولة علاجهم. وكانت النتيجة، كما اعتقد، أن عقولهم الموضوعية كبحت قدرات الشفاء الطبيعية للعقل الذاتي - كمعلم يراقب تلميذه من فوق كتفه.

قائمة علاجات هدسون مثيرة للإعجاب: ألم عصبي، عسر هضم، مشاكل معوية، صداع شديد، خمول الكبد، التهاب شعبي مزمن، شلل جزئي، شلل القلم (يُفترض أنه شكل حاد من تشنج الكاتب)، وحتى الحول. يُقرّ هدسون بأن الحالة الأخيرة لم تُعالجه هو، بل خالة الفتاة ذات العشر سنوات، التي كانت تعاني من الحول منذ ولادتها. يُشير هدسون إلى أنه ربما كان يفتقر إلى الثقة الكافية لمحاولة علاج ابنة أخته، لكن خالته شفيت ابنة أختها تمامًا في ثلاثة أشهر.

حالة حدثت بعد ستين عامًا تقدم تأكيدًا مثيرًا للاهتمام لملاحظات هدسون حول الثقة. في مايو 1950، تم إدخال صبي يبلغ من العمر ستة عشر عامًا إلى مستشفى الملكة فيكتوريا في إيست جرينستيد، يعاني من شكوى مزعجة للغاية تُعرف باسم مرض جلد السمكة: كان جسده بالكامل مغطى بثآليل سوداء، بينما كانت يداه مغطاة بجلد قرني كان قاسيًا مثل أظافره. كانت عملية زرع الجلد فاشلة. في هذه المرحلة، قرر طبيب التخدير، الدكتور ألبرت أ. ماسون، أنه سيجرب التنويم المغناطيسي. لقد عالج الثآليل كثيرًا بالتنويم المغناطيسي ولم ير أي سبب يجعل الثآليل المتعددة أكثر صعوبة من الثآليل المفردة. تم وضع الصبي في حالة غيبوبة وقيل له أن الثآليل الموجودة على ذراعه اليسرى ستختفي. بعد بضعة أيام، أصبح الجلد القرني ناعمًا وسقط، كاشفًا عن جلد طبيعي. أبلغ الدكتور ماسون الجراح بنجاحه، فنظر إليه بدهشة وأمره بالبحث عن مرض احمرار الجلد السمكي - وهو الاسم الطبي لمرض جلد السمك.

مرضٌ - في المكتبة. فعل ذلك، واكتشفَ اكتشافًا مُحزنًا أن جلدَ مريضه لا يحتوي على غددٍ مُنتجةٍ للزيت، وبالتالي فإنَّ المرضَ غيرُ قابلٍ للشفاء؛ وكان "العلاجُ بالتنويم المغناطيسي" مستحيلًا حرفيًا.

ومع ذلك، نجح التنويم المغناطيسي. فقام ماسون بتنويم المريض مغناطيسيًا واقترح عليه أن يشفى ذراعه اليمنى. كانت الثآليل في ذراعه اليمنى خالية بنسبة 95%. أما في ساقيه وقدميه، فقد اختفت حوالي 50% منها. والأهم من ذلك، تحسنت حالة الصبي النفسية بشكل كبير، وحصل على وظيفة مساعد كهربائي. ومع ذلك، بعد ثلاث سنوات، قرر ماسون محاولة تجديد العلاج: في هذه المرة، اتضح أن مريضه السابق لا يستجيب للتنويم المغناطيسي على الإطلاق.

بين عامي ١٩٥٣ و١٩٦١، حاول ماسون علاج ثماني حالات أخرى من مرض جلد السمك بالتنويم المغناطيسي، لكنها باءت جميعها بالفشل الذريع. توصل إلى استنتاج متردد مفاده أن الخلل يكمن في نفسه: إذ أدرك الآن استحالة علاج داء السمك بالتنويم المغناطيسي، فصار يُعبّر عن شكوكه للمرضى. في حالة الصبي ذي الستة عشر عامًا، لم يكن أيٌّ منهما يعلم أن المرض عضال عندما حاول هدسون التنويم المغناطيسي لأول مرة، وكانت النتيجة شفاءً تامًا للذراع اليسرى. وبحلول الوقت الذي انتقل فيه إلى الذراع اليمنى، اهتزت ثقة ماسون باكتشاف أن المرض "مستعصٍ"، لكن المريض كان لا يزال لديه كل الأسباب لتصديقه. النتيجة: شفاء جزئي. ولكن بحلول الوقت الذي قرر فيه ماسون المحاولة مرة أخرى، كان المريض نفسه قد أصبح قلقًا ومتوترًا، ولم يعد من الممكن تنويمه مغناطيسيًا. سيقول هدسون إن عقله الموضوعي أصبح الآن يعيق القدرة العلاجية للعقل الذاتي.

بحلول وقت تجارب الدكتور ماسون في التنويم المغناطيسي، كان العلم قد أثبت وجود العقل الذاتي والموضوعي - إذ من البديهي أن هدسون كان قد توقع ببساطة نتائج روجر سبيري ومايكل جازانيجا بشأن نصفي الكرة المخية الأيمن والأيسر. في عام ١٩٥٢، عمل سبيري مستشارًا في عمليات الدماغ للوقاية من نوبات الصرع، وكانت الفكرة هي منع "العاصفة الكهربائية" من الانتقال من أحد جانبي الدماغ إلى الآخر عن طريق شق الدماغ من المنتصف تمامًا. لاحظ سبيري وجازانيجا أن المريض الذي ارتطم جانبه الأيسر بالخطأ بطاولة لا يبدو أنه يعرف ما فعله، فأجريا سلسلة من الاختبارات المثيرة للاهتمام. إذا وُضع قلم رصاص في اليد اليسرى لمريض مصاب بانقسام الدماغ معصوب العينين، فلن يكون لدى المريض أي فكرة عما كان يحمله؛ ومع ذلك طُلب منه استخدام القلم، ففعل ذلك بطريقة طبيعية تمامًا. كان الدماغ الأيمن يعرف ما كان يحمله. في إحدى أكثر التجارب إثارة للاهتمام، وُضِعَت أضواء حمراء أو خضراء عشوائيًا في دماغ المريض الأيمن (أي في مجال الرؤية الأيسر، المتصل بنصف الكرة المخية الأيمن). عندما سُئل المريض عن اللون الذي "رآه" للتو، كان عليه أن يُخمن. وإذا أخطأ، ارتعشت عضلاته قليلًا. كان الدماغ الأيمن قد سمع التخمين الخاطئ، وكان يحاول معرفة...

لقد ركله تحت الطاولة، إن صح التعبير. لم يكن لديه أي وسيلة أخرى للتواصل.

لعلّ من أهمّ النقاط التي استخلصتها هذه الدراسات أننا جميعًا، ببساطة، مرضى بانفصال الدماغ. قال موزارت ذات مرّة إنّ الألحان تتجول في رأسه دائمًا، جاهزة للتدوين: ما كان يقصده، بالطبع، هو أنّ الألحان تتجول دائمًا في دماغه الأيسر. ومصدر الألحان - كما هو الحال مع جميع "الأنماط" - هو الدماغ الأيمن. لذا، اضطرّ موزارت نفسه (تذكروا أنّ "الأنا" تعيش في الدماغ الأيسر) إلى الانتظار حتى تُرسل له "الذات الأخرى" الموسيقى: لقد كان، في الواقع، مريضًا بانفصال الدماغ. وإذا كان موزارت مريضًا بانفصال الدماغ، فإنّنا نحن البشر الأقلّ موهبةً بالتأكيد كذلك. (بالطبع، لو خضع موزارت بالفعل لعملية انقسام الدماغ، لاختفت عبقريته - أو بالأحرى، لكانت انحصرت في نصفه الأيمن، الذي لم يكن قادرًا على نقلها إلى "كاتب الوحي" في اليسار).

أدرك هدسون آلية عمل العبقرية. مكّنته بصيرته، على سبيل المثال، من دحض الحجة القائلة بأن شكسبير هو فرانسيس بيكون. كان بيكون وشكسبير نموذجين متناقضين تمامًا: شكسبير النموذجي ذو العقل الأيمن البديهي الطفولي، وبيكون النموذجي ذو العقل الأيسر المثقف غير الطفولي. يجادل مؤيدو بيكون بأن مسرحيات شكسبير تكشف عن ثقافات تفوق بكثير ما يمتلكه ابن جزار ستراتفورد. لكن هدسون يجادل بأن شكسبير قضى معظم وقته مع ألمع وأعلم رجال عصره، وكان يتمتع بالقدرة الفطرية التي يتمتع بها ذو العقل الأيمن لاكتساب المعرفة بسرعة وسهولة.

أدرك هدسون أيضًا مشاكل صاحب الدماغ الأيمن الطبيعي. فبراءته الطفولية تُصعّب عليه التعامل مع تعقيدات الحياة العملية. والنتيجة هي أنه "دخيل" بطبيعته، إذ لا يشعر أبدًا بالراحة في هذا "العالم". وموزارت، مرة أخرى، مثال جيد. خصص دوستويفسكي رواية كاملة، "الأبله"، لشخص طفولي ذو دماغ أيمن، الأمير ميشكين؛ لكن براءة ميشكين تُسبب في النهاية فوضى وارتباكًا، وينتهي به الأمر إلى الجنون. نحن بحاجة إلى دماغ أيسر قوي للتعامل مع صعوبات الحياة. تكمن المشكلة في أننا قد نُبالغ بسهولة ونُطوّر دماغًا أيسرًا حذرًا ودفاعيًا لدرجة أن عبقريتنا الطبيعية لا تُتاح لها فرصة التعبير عن نفسها. في الواقع، قد نُصبح دفاعيين لدرجة أننا ننسى تمامًا وجود حليفنا في نصف الكرة الأيمن، ونُصبح مُفرطين في التوتر والعصابية. إن إدراك وجود "الحليف" ضرورة مُلحة للصحة العقلية والجسدية على حد سواء.

قبل بضع سنوات، مررتُ بتجربة مثيرة للاهتمام حول قوة الجانب الأيمن من الدماغ. طلب مني منتج أفلام الذهاب إلى لندن لإعادة التفكير في سيناريو فيلم سيئ للغاية وإعادة كتابته. كان أمامي عشرة أيام للقيام بذلك، ووُضعتُ في جناح في...

في أحد أغلى فنادق لندن، كان يُسمح لي بتناول ما يحلو لي من طعام وشراب. (كنت أتناول الشمبانيا والكركند على الغداء كل يوم). لكن كان لا بد من إنهاء النص في الوقت المحدد. جعلني إدراكي لضرورة إنجازه متوترًا، وزاد فخامة الفندق من قلقي؛ قضيت اليوم الأول أقرأ النص المروع بشعورٍ بالغرق. في تلك الليلة، وجدت صعوبة في النوم. ثم، وأنا مستيقظ، خطر ببالي أنني أُدخل نفسي في حالة توتر متزايدة في النصف الأيسر من دماغي، وأعزل نفسي عن أي إلهام محتمل. قال هدسون إنه من المهم إدراك أن العقل الذاتي كيانٌ مُستقل ومتميز، حتى أن باحثًا آخر مثيرًا للاهتمام، ماكس فريدوم لونغ (الذي سأتحدث عنه لاحقًا)، كان يُخاطب "ذاته الأخرى" باسم جورج. لذلك تحدثتُ إلى "ذاتي الأخرى" بنبرةٍ مُلِحّةٍ وودية. "انظر، عليّ إنهاء هذا النص اللعين في تسعة أيام. أعلم أنك قادر على ذلك. لذا هيا - أرني ما يمكنك فعله." مع ذلك، غرقتُ في نوم عميق وهادئ. عندما أعدتُ قراءة النص في صباح اليوم التالي، بدأتُ على الفور أرى طرقًا لتحسينه، وقمتُ بعمل جيد طوال اليوم. كلما شعرتُ بالتعب أو التوتر، كنتُ أستلقي على السرير وأُذكّر عقلي الأيمن بأنني أعتمد على تعاونه، وأن التقدم كان ممتازًا في الأسبوع التالي. بدا الأمر كما لو أنه لا توجد إمكانية لإنهائه في الوقت المحدد، ولكن في اليوم الأخير لم يكن لدي سوى اثنتي عشرة صفحة أو نحو ذلك لأكتبها. بدأتُ العمل في الساعة 7 صباحًا وكتبتُ بسرعة وسهولة طوال اليوم. كتبتُ الجمل الأخيرة قبل خمس دقائق بالضبط من طرق سكرتيرة المنتج على الباب لجمع عمل اليوم. وبعد ساعة، بينما كان سائق دايملر يقودني إلى قطاري، تذكرتُ أن أقول شكرًا جزيلًا لعقلي الأيمن.

من المهم أن ندرك أنه بما أن الفص الأيمن من الدماغ مسؤول عن تنظيمنا الداخلي (إن كان هدسون محقًا)، فهو أيضًا المسؤول عن إمدادنا بالطاقة. وهو أيضًا، كما يشير هدسون، قابل للتأثر بشكل كبير، فكلما غرقنا في حالات الاكتئاب والتشاؤم، ضعفت قوتنا، لأن "الذات الأخرى" تشعر بأنه من غير المجدي استنزاف الطاقة الجيدة بعد السيئة. من ناحية أخرى، فإن أقل تلميح إلى أننا "ننتصر" يكفي لإحداث تدفق مفاجئ من الطاقة والبهجة.

قادتني هذه الأفكار إلى صياغة ما أسميته نظرية لوريل وهاردي للوعي. يمكن مقارنة "الذات" بشخصيتي لوريل وهاردي في الأفلام القديمة: أولي، الشخصية المسيطرة والمتسلطة، وستان، الشخصية الغامضة والطفولية. تكمن المشكلة الحقيقية في أن ستان شديد التأثر. عندما تفتح عينيك في صباح يوم اثنين ماطر، يكون أولي هو من يُقيّم الموقف ويتمتم: "يا إلهي، إنه يوم الاثنين والجو ممطر...". يسمعه ستان - لكونه شديد التأثر - فيُصاب بحالة من الذعر. "الاثنين والجو ممطر". لذا، يفشل في بث أي طاقة. وإذا جرحت نفسك أثناء الحلاقة وسكبت القهوة على صدر قميصك وتعثرت في الحصيرة في الردهة،

كل كارثة صغيرة تجعل أولي يتأوه، "إنه أحد تلك الأيام ..."، بينما يصبح ستان في حالة هستيرية من الكآبة.

من ناحية أخرى، تخيل ما يحدث عندما يستيقظ طفل صباح عيد الميلاد. يقول أولي: "رائع، إنه عيد الميلاد"، فيكاد ستان أن يقفز فرحًا. وبالطبع، يبعث في نفسه دفقة من الطاقة، مما يُنتج شعورًا بالراحة. كل شيء يُعزز هذا الشعور بالبهجة: هدايا عيد الميلاد، وأضواء الشجرة، ورائحة فطائر اللحم المفروم... والنتيجة هي أنه قبل أن ينقضي نصف اليوم، يمكن للطفل أن يختبر شعورًا غامضًا تقريبًا بسعادة غامرة، شعورًا بأن الحياة رائعة بلا شك.

— ليس الآن فقط، بل على مدار العام. ففي هذا الجوّ، تُرى كلُّ المشاكلِ حباتٌ صغيرة، ولا تبدو أيُّ مشكلةٍ مستعصيةً على الحل.

يمكن ملاحظة أن آلية ستان وأولي هذه تفسر مجموعة واسعة من الحالات والآليات النفسية، من الاكتئاب السريري والعصاب إلى ذروة التجربة وحالات التأكيد الصوفي. العصاب ببساطة هو حالة من "التغذية الراجعة السلبية" حيث تُغرق وجهة نظر أولي المتشائمة ستان في كآبة هستيرية، مما يعجزه عن الحفاظ على إمداده بالطاقة، مما يجعل أولي يشعر بأسوأ حال. بمجرد أن يقع الشخص في هذه الحلقة المفرغة من الاكتئاب وانخفاض الطاقة، يصعب للغاية التحرر منها لأن الاكتئاب يُغير الإدراكات، كزوج من النظارات الشمسية؛ ولأننا نعتبر أن حواسنا تخبرنا بالحقيقة أمرًا مسلمًا به، فإننا نتفاعل مع ذلك بالتعب والتشاؤم. من ناحية أخرى، يشعر الشخص المحبوس في "الحلقة الفاضلة" من ذروة التجربة والتفاؤل بأنه من الواضح بنفس القدر أن العالم مكان ساحر، مليء بالتنوع والتعقيد المذهلين. كما يشعر بوجود "عجائب خفية" خلف واجهة الواقع الحالية. من الممكن القول إن هذه الرؤية الإيجابية، من الناحية الموضوعية، أكثر دقة من الرؤية السلبية، لأن حسنا السليم يخبرنا أن حواسنا لا تكشف إلا عن جزء بسيط من تنوع الكون وتعقيده.

بهذا الشكل، يبدو أولي كالشخص الشرير - الشخص المسؤول عن ضعف أداء ستان. لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. هناك طرف ثالث متورط - الكيان الذي أسميته "الروبوت". لكلٍّ منا روبوت في اللاوعي، وظيفته تولي جميع مهام الحياة المتكررة. على سبيل المثال، يكتب الروبوت الآن هذه الكلمات نيابةً عني، بينما يتولى ستان وأولي فيما بينهما فهم ما أريد قوله بدقة. يتنفس روبوتك نيابةً عنك ويحافظ على انتظام نبضات قلبك. كما أنه يقود سيارتك ويؤدي العديد من الوظائف "التلقائية" الأخرى. تجدر الإشارة إلى أن أولي هو من اضطر إلى تعلم قيادة السيارة، بجهد كبير؛ ثم، في مرحلة ما، تولى الروبوت القيادة، وبدأ في القيام بذلك بسرعة وكفاءة أكبر بكثير من أولي. يُقلل الروبوت من عملنا إلى النصف. لكن لديه أيضًا عيبًا كبيرًا. يميل إلى "التشغيل" كجهاز تنظيم الحرارة كلما شعرنا بالتعب، وحرفيًا

سيطر على حياتنا. إذا كنتُ متعبًا جدًا، فقد لا أتذكر عودتي إلى المنزل من العمل: لقد قام الروبوت بذلك نيابةً عني. تكمن المشكلة في أنه لا يتولى المهام التي أفضل تجنبها فحسب، بل يميل أيضًا إلى التدخل في المهام التي أفضل القيام بها بنفسي. اكتشفتُ مقطوعة موسيقية أثّرت بي بشدة: في المرة العاشرة التي استمعتُ إليها، كان الروبوت يستمع لي، ولم أتمكن من تجربتها. اكتشفتُ نزهة ريفية جديدة استمتعتُ بها تمامًا: في المرة العاشرة التي فعلتُها، اختفت كل نضارتها، لأن الروبوت قد سيطر عليها.

ولكن عندما يدخل ستان وأولي في حالة من "التغذية الراجعة السلبية"، يصبح الروبوت خطيرًا للغاية. وكما رأينا بالفعل، يكون ستان مسؤولاً عن مصدر الطاقة، وعندما يشعر أولي بالاكتئاب، يفشل ستان في إرسال أي طاقة إليه. وعندما يحدث ذلك، يتم تشغيل "منظم حرارة" الروبوت، ويتولى معظم مهامنا الروتينية. تفقد التجربة فجأة نضارتها؛ وتفقد الحياة نكهتها؛ ويصبح الواقع غير واقعي. ونتيجة لذلك، بالطبع، يشعر أولي بانخفاض أكثر من أي وقت مضى ويرسل ستان طاقة أقل من أي وقت مضى. في هذه الحالة، يعيش الإنسان في مستوى أدنى بكثير مما هو مقصود به، ولا يمكنه الهروب من الحلقة المفرغة لأنه لا يرى أي سبب للجهد. قد تكون النتيجة انهيارًا عصبيًا أو جنون العظمة أو حتى الانتحار.

كل هذا يُلقي ضوءًا جديدًا كليًا على مشكلة التصوف. نرى، على سبيل المثال، أنه عندما نظرت آن بانكروفت من النافذة إلى الشحرور وشعرت أنها لم ترَ شحرورًا من قبل، كانت ببساطة ترى الشحرور بعينيها لا بعيني الروبوت. وهذا يُفسر أيضًا إدراك أوسبنسكي أننا نعيش في "عالم خشبي"، مليء بالأفكار والحالات المزاجية والأحاسيس الخشبية، حيث يتحرك كل شيء بصوت صرير حزين. الروبوت هو الذي يُصدر الصرير. عندما أختبر شيئًا ما بشكل مباشر، حدسيًا، بما يُسميه غوتفريد بن "الإدراك البدائي"، أشعر ببهجة هائلة، شعور بأن عالمنا، بعيدًا عن كونه مملًا وعاديًا، جميلٌ بلا حدود. حتى جرعة من الماء البارد تنزل في حلق جاف يُمكن أن تُسبب لي هذه الصدمة المؤلمة تقريبًا من السعادة المُطلقة. عندها أُدرك أن المشكلة الحقيقية في هذا العالم هي أن مُعظم تجربتي "تلقائية". يُكثّف الروبوت حواسنا، كما لو كنا نرتدي درعًا مدرعًا مع قفازات معدنية. أستطيع رفع القناع للحظة، لكنه ينزلق للأسفل على الفور تقريبًا. علاوة على ذلك، فإن هذا الشعور المستمر بالجمود، وعدم الواقعية، والضعف، يُشعرني بالإحباط الشديد، بحيث يكون كل ما أفعله فاترًا. هناك "تأثير حلقة مفرغة" تُضعف فيه جميع إدراكاتنا. ومع ذلك، فإن أي أزمة مفاجئة قد تُنقذنا بدفعنا إلى بذل جهد إراديّ مُتشنج. كتب ويليام بليك:

كل رجل تحت سلطة شبحه حتى وصول
تلك الساعة، عندما تستيقظ إنسانيته
ويلقي شبحه في البحيرة.

استيقظت إنسانية آن بانكروفت وألقت شبحها في البحيرة.

صورة بليك تُدركنا أن الشبح - أو الروبوت - قد يتحول إلى أخطبوط يخنق حواسنا ويحد من رؤيتنا. بمعنى آخر، يُضعف الروبوت إدراكنا الطبيعي ويُحطّمه؛ فعندما نفتح أعيننا صباحًا، لا نرى حقيقة موضوعية، بل حقيقة ذاتية للغاية، مُلوّنة بشكوكنا وبؤسنا. قال إبكتيتوس: "ما يُقلق الإنسان ويُقلقه ليس الأشياء الحقيقية، بل آراؤه وتخيلاته عنها". ولأن حضارتنا تُغذّي هذه الآراء والتخيلات منذ آلاف السنين، فإن معظمنا يجد نفسه عالقًا في "واقع جماعي" زائف تمامًا.

بالطبع، من الظلم اعتبار الروبوت مجرد شبح. إنه ببساطة حاسوب - حاسوب أعقد بآلاف المرات من أي شيء طورته شركة IBM - وسنجد أن العيش بدونه مستحيل. لكن عندما ننزلق إلى حلقة مفرغة، فإنه يتحول إلى ما يشبه شيخ البحر، يجلس على أكتافنا ويخنقنا حتى الموت.

تُقدّم سيرة غراهام غرين الذاتية "نوع من الحياة" نظرةً ثاقبةً على آليات هذه الحلقة المفرغة. يصف كيف أنه في المدرسة الحكومية، سحقته "التكرارات التي لا تنتهي" لحياته. يتضح من روايته أنها لم تكن مدرسةً حكوميةً مزعجةً بشكلٍ خاص، ولم يكن لديه سببٌ حقيقيٌّ للتعاسة. لكن الملل ونظرته الكئيبة بطبيعته (ربما نابعة من الشفقة على الذات) دفعاه في النهاية إلى عددٍ من محاولات الانتحار. شرب زجاجةً من سائلٍ مُنبِّهٍ لنقص سكر الدم ظنًّا منه أنه سام، وأفرغ زجاجة قطرات حمى القش الزرقاء خاصته، وأكل نبات الباذنجان القاتل المُنتقى من الأرض، وسبح في حمامات المدرسة بعد تناول عشرين قرصًا من الأسبرين. (يقول إنه أحدث إحساسًا يشبه السباحة في قطعة من القطن). بعد محاولة هروب، أُرسل إلى طبيبٍ نفسيٍّ في لندن، واستمتعَ تمامًا باستراحةٍ من الروتين. لكن جهود الطبيب النفسي لتطبيعه لم تُفضِ إلا إلى زيادة ميوله الهوس الاكتئابي، ويُعلّق قائلاً: "السنوات، بعد تحليلي، لم أستطع أن أُبدي أي اهتمام جمالي بأي شيء بصري: فعندما كنتُ أُحدّق في مشهدٍ أكّد لي الآخرون أنه جميل، لم أكن أشعر بشيء. كنتُ مُركّباً، مثل سلبي في حمام كيميائي".

في هذه اللحظة، اكتشف مسدسًا تركه أخوه الأكبر في خزانة زاوية. كان قد قرأ في كتاب روسي عن الروليت الروسي،

أخذ المسدس إلى ساحة بيركهامستد العامة ليجربه بنفسه. أدخل رصاصة واحدة، ثم أدار حجرات المسدس خلف ظهره، ووضع المسدس على أذنه اليمنى وضغط الزناد. «سمعتُ صوت طقطقة دقيقة، وعندما نظرتُ إلى حجرة المسدس، رأيتُ أن الشحنة قد انتقلت إلى وضعية الإطلاق. كنتُ قد فارقتُ الحياة بفارق رصاصة واحدة. أتذكر شعورًا رائعًا بالابتهاج، كما لو أن أضواء الكرنفال قد أُضيئت في شارع مظلم كئيب. دق قلبي في قفصه، والحياة تحمل في طياتها احتمالات لا حصر لها.»

يمكننا أن نرى أن ما حدث ببساطة هو أن "الأزمة" المُستحثة ذاتيًا، والتي أعقبها شعور بالراحة، انتشلت غرين من حالة كسل مُستحث ذاتيًا، قائمة على شعور بالعبث وقرار بأن "لا شيء يستحق القيام به". لقد كان غارقًا تمامًا في تأثير ردود الفعل السلبية حتى اختنقه "الشبح" تقريبًا. عندما ضغط على الزناد، أطلق شيخ البحر صرخة إنذار وقفز من على كتفيه. ومع ذلك، عندما واصل غرين لعب الروليت الروسي - ست مرات إجمالًا - زال تأثير "المخدر" وتوقف عن الشعور بالتجدد.

استخدام غرين لكلمة "مخدر" يُظهر جليًا أنه لم يُدرك جوهر التجربة. فقد اعتبر الروليت الروسي وسيلةً لإطلاق الأدرينالين، مُغفلًا بذلك فكرة أن الحل يكمن في تنشيط إدراكاته، ساعيًا جاهدًا للتخلص من الملل والكسل. بعد عشرين عامًا، في رواية "القوة والمجد"، استخدم غرين التجربة مجددًا. عندما كان "كاهن الويسكي" الخاص به، وهو مصابٌ آخر بالاكتئاب الهوسي، على وشك أن يُقتل، أدرك فجأةً أنه "كان من السهل جدًا أن يكون قديسًا". لكن الملل الذي يُخيّم على الرواية كضباب خانق يُظهر جليًا أن غرين لم يُدرك مجددًا أهمية رؤيته الخاصة.

ما بدأ يتكشف هو ربما أهم بصيرة يمكن لأي إنسان أن يختبرها. فالتجارب الثاقبة والغامضة ليست لمحات عن حقيقة غامضة ومتناقضة، بل هي ببساطة توسيع لمجال إدراكنا العادي. وقد وصف ويليام جيمس هذه الآلية بدقة عندما قال إنه تذكر تجربة سابقة، "وتطورت هذه الذكرى، قبل أن أتمكن من إدراكها أو تسميتها بوضوح، إلى شيء آخر ينتمي إليها، وهذا بدوره إلى شيء أبعد، وهكذا دواليك، حتى تلاشت العملية، تاركةً إياي مندهشةً من الرؤية المفاجئة لنطاقات متزايدة من الحقائق البعيدة [التشديد مني] التي لم أستطع شرحها بوضوح". أي أن شيئًا ما ذكّره بشيء آخر، ثم بشيء آخر، ثم بشيء آخر، حتى - مثل وميض برق - استوعب نطاقًا أوسع بكثير من "الحقائق" من المعتاد. ما "رآه" لم يكن رؤية غامقة لله أو للكون - بل مجرد حقائق. لكنه رآهم جميعًا معًا، في علاقة بعضهم ببعض. يُذكرنا هذا بـ "راماكريشنا"

مثل الأعمى الذي لمس الفيل: من لمس ساقه ظنها عمودًا، ومن لمس أذنه ظنها مذراة، ومن لمس ذيله ظنها حبلًا، وهكذا. لكن أي شخص يمتلك قوة البصر، مهما بلغ غباؤه، كان سيرى على الفور كيف تتحد كل هذه الأجزاء لتكوين فيل. يبدو الأمر كما لو أن مشكلة إدراكنا الطبيعي هي أنه قد شُل أو "خُفِّض" بطريقة ما بحيث لا يعمل إلا بجزء ضئيل من كفاءته المناسبة. لذا، بدلاً من إدراك آفاق الحقيقة البعيدة التي تستطيع أدمغتنا استيعابها، فإننا نتلمس بقصر نظر سطح الواقع المباشر ونخطئ بين الآذان ومذراة التذرية والذيول والحبال.

الآن، على الرغم من أنه قد لا يكون واضحًا للوهلة الأولى، فإن كل هذا يشكل نظرية جديدة تمامًا لطبيعة الواقع. منذ وجود الفلسفة، أصدر الفلاسفة أحكامًا سلبية على الحياة البشرية. اعتقد سفر الجامعة أن كل حياة هي غرور وإزعاج للروح. شبّه أفلاطون الحياة البشرية برجال مقيدين في كهف، مجبرين على النظر إلى الظلال على الحائط. قال أرسطو أنه من الأفضل ألا تولد، وأن الموت أفضل من الحياة. يقول بوذا أن كل حياة بؤس ومرارة. يقول لوكريتيوس أن الحياة عبارة عن آلة مشي لا تؤدي إلى أي مكان، رغبة لا تجد إشباعًا أبدًا. وفي عام 1818، نشر آرثر شوبنهاور أطول وأشمل محاولة حتى الآن لإثبات أن الحياة البشرية لا معنى لها ولا جدوى منها وأن الإنسان - كما قال سارتر لاحقًا - شغف لا طائل منه. وفقًا لكتاب "العالم إرادة وفكرة"، فإن "العالم فكرتي" وليس له واقع موضوعي؛ إن تصوراتنا لا تُظهر لنا سوى الأوهام. الحقيقة الكامنة الوحيدة هي إرادة عمياء عنيدة بلا هدف حقيقي، وبالتالي تحكم علينا جميعًا بخيبة أمل دائمة. تقول إحدى فقرات الكتاب الرئيسية:

رأينا أن جوهر الطبيعة اللاواعية هو سعيٌّ دؤوبٌ بلا نهاية. ويبدو لنا هذا جليًا أكثر عندما نتأمل طبيعة الحيوانات والبشر. فالإرادة والسعي هما جوهرها، ويمكن تشبيههما بعطشٍ لا ينضب. لكن أساس كل إرادة هو الحاجة والنقص، وبالتالي الألم. وبالتالي، فإن طبيعة الحيوانات والبشر معرضة للألم من البداية ومن خلال وجودها ذاته. أما إذا افتقرت إلى ما ترغب فيه، لأنها حُرمت منه فجأةً بسبب إشباع سهلٍ للغاية، فإن فراغًا رهيبًا ومللًا يسيطر عليها، أي أن وجودها نفسه يُصبح عبئًا لا يُطاق عليها. وهكذا تتأرجح حياتها كالبندول، بين الألم والملل. *

الشكوى هي أننا جميعًا نتغير من لحظة لأخرى، وليس لدينا وجود أو غاية دائمة. حتى لذة الحب، وفقًا لبترونيوس، فظة وقصيرة، وتجلب الاشمئزاز بعدها، وهو شعور يتردد صداه في أبيات ديلان توماس:

أخيرًا، خرجت الروح من جحرها القذر وهي تتجهم عندما
جاء الوقت المتعثر†

لعلّ هذا الأخير يُلخّص بدقةٍ أكبر من أيّ من اتهامات الفيلسوف الأساسية للعالم. عندما يقع الرجل في الحبّ، يختبر نفس الإحساس الذي يختبره في صباحات الربيع والأعياد وفي ذروة لحظاته: الإحساس بالواقع، وبالقيمة الحقيقية لأشياء حماسه. وعندما ينهار هذا الإحساس في شعورٍ بالشبع والتعب، يبدو جليًا أن الأمر برمته كان خطأً، وأن الغريزة الجنسية، التي لا هدف لها سوى الإنجاب، هي التي أغوتنا إلى هذا الوضع لتحقيق أهدافها المشبوهة. أو كما قال تي إس إليوت:

الولادة، والجماع، والموت. الولادة، والجماع،
والموت.
هذه هي كل الحقائق عندما يتعلق الأمر بالأساسيات:
الولادة، والجماع، والموت.

أيهما "حقيقي" - الرغبة الأصلية، أم الشعور اللاحق بخيبة الأمل؟ يرى معظم الفلاسفة أن حتى هذا السؤال لا معنى له. ولا أي منهما "حقيقي". نشعر بشيء في يوم، وشيء آخر في يوم آخر: السؤال عن أيهما "حقيقي" أشبه بالسؤال عمّا إذا كان يوم ممطر "أصدق" من يوم مشمس. وينطبق الجواب نفسه على السؤال: لماذا نشعر بهذا القدر من الوضوح في المعنى والغاية عندما نكون في حالة حب - أو حتى في حالة من الإثارة الجنسية؟ لأن "الساحر" اختار أن يخدعنا لأغراضه الخاصة. ولهذا السبب "يشعر الإنسان بالحزن بعد الجماع" - لأنه يعلم أنه خُدع مرة أخرى.

وفقًا لنظرية الإدراك التي طورناها في الفصلين الأخيرين، كل هذا غير صحيح. تكمن المشكلة الأساسية في كسل حواسنا وأدمغتنا، التي تكشف لنا نطاقًا محدودًا للغاية من الواقع. وهذا "القرب" هو ما يحرمنا من المعنى. أو كما ذكرتُ...

وكما عبّر عن ذلك في موضع آخر، فإن الإنسان أشبه بساعة يد تُدار بنابض. أو كطاحونة مائية ضخمة جفت مياهها وتحولت إلى مجرى ضيق بطيء. وكما قال ويليام جيمس في مقال بعنوان "طاقات الإنسان":

يعلم الجميع أنه في كل يومٍ طاقاتٌ كامنةٌ فيه لا تُثيرها دوافع ذلك اليوم... يشعر معظمنا وكأن غيمةً تُثقلنا، تُبقينا دون أعلى درجات صفاءِ بصيرتنا، ويقينِنا في تفكيرنا، وحزمنا في اتخاذ القرارات. مقارنةً بما ينبغي أن نكون عليه، فنحن نصفُ مستيقظين فقط. خمدت نيرانُنا، وهدأت تياراتُنا. لا نستخدم إلا جزءًا ضئيلًا من مواردنا العقلية والجسدية.

ويلخص المشكلة بقوله إن مشكلتنا الأساسية هي "عادة متأصلة تتمثل في الشعور بالنقص تجاه ذاتنا الكاملة".

إذا استطعنا إدراك هذه الحقيقة - أن حواسنا باهتة لدرجة أننا لسنا أفضل من السائرين في النوم - فسنتمكن أيضًا من البدء في إدراك أنه عندما نختبر إحساسًا بالمعنى، فذلك لأن حواسنا قد انفتحت على نطاق أوسع من المعتاد، لتتقبل نطاقًا أوسع من الواقع. في حالته الطبيعية، يشبه الدماغ بيانوًا مُخمّدًا أوتاره بحيث تهتز كل نغمة لجزء من الثانية فقط. في هذه الحالات الذهنية "الأوسع" تستمر الأوتار في الاهتزاز وتتسبب في اهتزاز أوتار أخرى. شيء ما "يذكرنا" فجأة بآخر، وبالتالي يغلي العقل فجأة بالرؤى والانطباعات والأفكار. يصبح كل شيء "متصلًا". نرى أن العالم، بلا شك، مكان أكبر وأكثر إثارة للاهتمام مما نعتبره عادةً أمرًا مسلمًا به. لا مجال للوهم أو "السكر" بالطاقة بطريقة ما. نحن ببساطة في حالة من الإدراك الأوسع - الإدراك الخارجي والداخلي. يعمل الدماغ بشكل أقرب إلى الوضع الطبيعي بدلاً من هذه الحالة غير الطبيعية التي عادة ما تجعل الحياة عبئًا كبيرًا.

في الحالات "الأوسع"، نرى أيضًا أن استجابة الرجل لفتاة جميلة ليست خدعة سحرية من صنع الطبيعة لإغرائه بإنجاب أطفالها: بل هي إدراك أعمق لواقعها. وللإثارة الجنسية أيضًا هذا الأثر في توسيع وتعميق الإدراكات: فـ"نطاقات الحقائق البعيدة" في هذه الحالة ذات طبيعة جنسية. وإذا أعقب هذه الإثارة حزن أو خيبة أمل أو حتى اشمئزاز، فذلك ببساطة لأن الحواس عادت إلى حالتها الضيقة المعتادة؛ فنحن مرة أخرى "دون المستوى الطبيعي".

من الواضح الآن أن هذه النظرة للإدراك تتناقض مع الاتجاه "السلبي" في الفلسفة، من سفر الجامعة وأفلاطون إلى شوبنهاور وسارتر.

يُصرّ الفلاسفة على ضرورة عدم الثقة بحواسنا لأن أدلتها "نسبية"؛ لذا، فإن القول بأن الكون (والوجود البشري) بلا معنى صحيح - أو باطل - تمامًا مثل القول بأن له غايةً واتجاهًا نهائيين. ولكن إذا كانت رؤى الصوفيين صحيحة، فإن هذه "النسبية الكئيبة" (كما سماها توماس مان) هي ببساطة مغالطة. تكمن المشكلة في القيود الغريبة للوعي اليومي - قيود تبدو أكثر حيرةً عندما ندرك أنها يمكن أن تتلاشى في لمح البصر وتتركنا مذهولين ومُثقلين بشعورٍ لا متناهي من المعنى.

من الغريب أن توماس مان هو من عبّر عن هذه "النسبية الكئيبة" بأسلوب كلاسيكي في قصة مبكرة بعنوان "خيبة الأمل". يصف الكاتب محادثة دارت بينه وبين رجل مجهول في ساحة سان ماركو في البندقية. بعد أن سأله عما إذا كانت البندقية على قدر توقعاته، تابع الغريب: "هل تعرف ما هي خيبة الأمل؟ ليست إخفاقًا في أمور صغيرة غير مهمة، بل هي خيبة أمل كبيرة وعامة يخبئها كل شيء، كل الحياة؟". ثم يروي كيف توقع، في طفولته، أن تكون الحياة غريبة ومثيرة للغاية. جاءت خيبة أمله الكبيرة الأولى عندما اشتعلت النيران في منزل عائلته، واضطروا جميعًا إلى مشاهدته يحترق بملابس نومهم: وقف هناك يفكر: "إذن، هكذا يكون الشعور بالاحتراق من المنزل والبيت؟ هل هذا كل ما في الأمر؟" عندما وقع في الحب ورفضته الفتاة، فكر: "إذن، هكذا يكون الشعور بآلام الغيرة - هل هذا كل شيء؟" وكان الأمر سيئًا بنفس القدر عندما أُشبعت رغباته: نفس الشعور: "هل هذا كل شيء؟" حتى أول نظرة للبحر كانت مخيبة للآمال، إذ كان له آفاق، وكان يأمل أن يكون لانهائيًا. ويستنتج أن الأمر سيكون مشابهًا على الأرجح عندما يأتي الموت: سيواجهه بشعور: "هل هذا كل شيء؟"

من الواضح أن شخصية مان تعاني من نفس الشعور بالملل الذي دفع غراهام غرين للعب الروليت الروسي. "عندما كنت أحدق في مشهد أكد لي الآخرون أنه جميل، لم أشعر بشيء. كنت ثابتًا، مثل سلبي في حمام كيميائي." هذا التعليق الأخير يقدم لنا دليلًا مهمًا. لقد أصبح غرين "ثابتًا" في حالة من السلبية التامة. لكن السلبية حالة خطيرة للغاية على البشر، لأن كسلنا الفطري يستغلها فورًا حتى يبدو لنا جليًا أن لا شيء يستحق القيام به. هذه هي الحالة التي تجلس فيها شخصيات صموئيل بيكيت في صناديق القمامة أو تستلقي على وجوهها في الوحل. ومع ذلك، فإن كل هذا سوء فهم سخيف. لقد اكتسب الإنسان السلطة على العالم بتحويله إلى رموز - بتحويل الرجال الحقيقيين إلى صناع أعواد ثقاب، وما إلى ذلك. لكنه اكتسب هذه السيطرة على حساب فقدان الاتصال بالواقع الخارجي وقضاء الكثير من وقته في عالم غير واقعي من الرموز. في الواقع، يقضي الإنسان المعاصر معظم...

يقضي وقتًا داخل غرفة عازلة للصوت داخل رأسه، يحدق في شاشة الكمبيوتر. هذا يُمكّنه من التعامل مع الواقع بكفاءة أكبر بكثير من طفل أو شخص متوحش، ولكنه يعني أيضًا أنه يميل إلى نسيان وجود واقع "حقيقي" في العالم الخارجي. وعندما يمل من الكمبيوتر ويمل، يعتقد أنه قد ملّ من الحياة، ويقرر أن كل جهد عبث، وأن الحياة خيبة أمل لا نهاية لها.

بعد أن وقع في هذا الموقف "الخيالي"، اضطر غرين إلى "تحفيز" نفسه للخروج منه بلعب الروليت الروسي. يمكن مقارنة وضعه بحالة رجل أقنع نفسه بالمنطق بأن أطرافه مشلولة، لكنه اضطر للسباحة لإنقاذ حياته عندما سقط في نهر. كانت مشكلة غرين الحقيقية هي أنه لم يدرك الفكرة التي ولّدتها لعبة الروليت الروسية: أن نوعًا معينًا من الجهد الذهني يمكن أن يُنتج إدراكًا بأن "الحياة تحتوي على عدد لا نهائي من الاحتمالات". كان الأمر كما لو أن الرجل قد قفز من النهر وسقط على الفور ضحية وهم عدم قدرته على تحريك أطرافه.

تم التأكيد على هذه النقطة بشكل مثير للاهتمام في سلسلة من دراسات الحالة التي أجراها عالم النفس ج. سيلفرمان. أفاد سيلفرمان أن مرضى الفصام، بعد إقامتهم لأكثر من ثلاث سنوات في جناح المستشفى، توقفوا ببساطة عن رؤية الأشياء بوضوح كما كانوا (أو، كما وصفها سيلفرمان، عانوا من "تغيرات نحو ضعف في التعبير الميداني وضعف في المسح"). وُجد أن الأمر نفسه ينطبق على المدانين الذين قضوا فترات طويلة في السجن. أصبحت إدراكاتهم ضبابية، وميلوا إلى ملاحظة أقل بكثير. يقول سيلفرمان إن وعيهم قد تحول من "الوضع النشط" إلى "الوضع المتلقي" (أي الوضع السلبي).* بمعنى آخر، كان للملل أثرٌ في ضعف نظرهم، فرأوا العالم مكانًا أكثر كآبةً ومللًا. وهنا، يُمكننا القول إن العلم يُقدم لنا نوعًا من الدليل على مقولة الصوفي بأن حواسنا تُكذبنا، وأن عليها أن تُرينا عالمًا أغنى وأكثر سحرًا.

يجب الاعتراف بأن المشكلة الرئيسية هنا هي أنه من الصعب جدًا

انظروا ماذا كان بإمكان غرين فعله حيال حالة "ضعف الإدراك" لديه، دون اللجوء إلى لعبة الروليت الروسية. فهذا، بلا شك، هو السؤال الأهم على الإطلاق: ما الذي يمكننا فعله حقًا؟ للروائي الروسي آرتسيباشيف رواية بعنوان "نقطة الانهيار"، تدور أحداثها في بلدة روسية صغيرة يتزايد فيها عدد سكانها الذين يقتنعون بأن الحياة عبثية ولا معنى لها، وتنتهي الرواية بوباء انتحار. كيف لعالم نفس - أو متصوف - أن يُقنع هؤلاء الناس بأنهم يرتكبون في الواقع هراءً تافهًا حول طبيعة الوعي؟

إن ملاحظة سيلفرمان للمدانين والمرضى المصابين بالفصام تجعل من الواضح أن المشكلة تكمن في أنهم توقفوا عن ملاحظة الأشياء، وأخيرًا توقفوا عن

رؤيتهم. لم يكونوا منتبهين. تروي حكاية زِن كيف طلب رجلٌ عاديٌّ من مُعلّم الزن إيكيو أن يكتب له بعضًا من أسمى الحكمة. كتب المُعلّم كلمةً واحدةً: "انتبه". سأل الرجل: "ألا تُضيف شيئًا آخر؟"، فكتب إيكيو: "انتبه. انتبه". قال الرجل الساخط إنه لا يرى حكمةً تُذكر في هذا، فكتب المُعلّم: "انتبه. انتبه. انتبه". سأل الرجل: "ماذا يعني الانتبه؟"، فأجاب إيكيو: "الانتبه يعني الانتبه".

عثر هيرمان هيسه على هذه الفكرة نفسها في كتابه القصير "رحلة إلى الشرق"، وهو نوع من المجاز عن مجموعة من الناس يتجولون بحثًا عن "الخلاص". يروي الراوي: "أنا، الذي لم يكن تكليفي في الحقيقة سوى عازف كمان وراوي قصص، كنت مسؤولاً عن توفير الموسيقى لمجموعتنا، ثم اكتشفت كيف أن التركيز الطويل على التفاصيل الصغيرة يرفعنا ويزيد من قوتنا". لقد توصل كل شخص إلى اكتشاف مماثل في وقت ما: أن الإرهاق والتعب يمكن التخلص منهما بمجرد الاهتمام الشديد بشيء ما وإعطائه كامل الاهتمام. يبدو الأمر كما لو أن الطاقات الحيوية، التي تشتتت وتلاشى، قد حُوّلت بطريقة ما إلى موضوع الاهتمام. في اللحظة التي يتمتم فيها أولي: "يا له من أمر رائع!"، يتدفق ستان على الفور دفقة من القوة والحيوية. وما علينا سوى تجربة هذه الدفقة من الحيوية - ما يسميه جيه بي بريستلي "البهجة" أو "السحر". — أن ندرك حقيقة وضعنا، وأن ندرك أن الشعور بـ"الانفصال عن الواقع" ليس حالةً خطيرةً على الإطلاق. نحن "منعزلون عن الواقع" لأننا نقف أمام شاشة حاسوب في غرفةٍ عازلةٍ للصوت داخل رؤوسنا. لكن من السهل الخروج من الباب إلى الهواء الطلق. يكفي أن ندرك أن الباب موجود.

هذا ما حدث لطلاب ماسلو، الذين اكتشفوا أنه بمجرد أن بدأوا التفكير والتحدث عن تجارب الذروة، كانت لديهم تجارب ذروة طوال الوقت. لقد أدركوا حقيقة بسيطة مفادها أن "الواقع" حقيقي، ولا ينبغي الخلط بينه وبين عالم الرموز. يأتي هذا الإدراك بسهولة بالغة عندما نكون في عطلة أو مسافرين في مكان غريب، لأنه من البديهي حينها أن الواقع حقيقي. جالسين خارج حانة، نشرب بيرة باردة ونأكل الخبز والجبن على طاولة خشبية، أو نسير في كاتدرائية قديمة هادئة تبدو كما لو كانت لم تتغير منذ زمن ترولوب، يمكننا أن نرى أن العالم أكثر إثارة بعشر مرات مما كنا نعتقد، وأن الحياة تحمل وعودًا أكثر بكثير مما كنا ندرك. ثم نختبر رؤية آن بانكروفت بأن إدراكنا الطبيعي كسول وفتور، وأننا لا نبذل أي جهد حقيقي لأننا لا نعتقد أننا سنحصل على أي عائد كافٍ لطاقتنا. إن الشعور بـ"أخبار سارة سخيفة" الذي يأتي في مثل هذه اللحظات هو إدراك مفاجئ بأنه لا يوجد سبب وجيه للعودة إلى حالتنا السابقة.

تصورات "منحطة". إذا استطعنا التشبث بهذا الإدراك، فسنكون قد كسرنا الحلقة المفرغة لستان وأولي والروبوت. حينها، لن يتبقى سوى إيقاظ أنفسنا للعيش بعزيمة وجهد وتفاؤل أكبر بكثير - تفاؤلٌ نرى، في هذه الحالة من البصيرة، أنه مبرر تمامًا.

أهم بصيرة هي إدراك أن حالات "البهجة" يمكن أن تُنتج بجهد إرادي منسق إلى حد ما. أشار ويليام جيمس إلى أن الجهد المتواصل هو ما "يُمكّننا من تجاوز الصعاب". وقد أقنعتني جهودي الشخصية في حثّ هذه الحالات بصحة ملاحظة إيكيو بأن الانتباه هو الضرورة الأساسية. لقد نجحتُ في عدة مناسبات في توليد حالات من الوعي المُركّز استمرت لساعات، وفي كل مرة كانت الضرورة الأولى هي إقناع نفسي (أي ذاتي الأخرى) بأن الجهد المتواصل سيُثمر نتائج مُجدية، تمامًا كالجهد المبذول لقراءة كتاب - أو حتى تأليفه.

في إحدى المرات قبل بضع سنوات، كان أول جهد بذلته هو أن علقت في عاصفة ثلجية في مزرعة نائية. كنت قد ذهبت إلى هناك لإلقاء محاضرة على مجموعة من الطلاب غير المتفرغين ليلة رأس السنة، وقبل وصولي إلى المزرعة، بدأ الثلج يتساقط بغزارة. رتبت للمبيت، وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدت نافذة غرفتي في الطابق الأرضي مسدودة بكومة ثلج. كانت سيارتي، ونحو عشر سيارات أخرى، عالقة في فناء المزرعة، دون أي إمكانية لإخراجها. فاضطررت للمبيت هناك ليلة أخرى. في صباح اليوم التالي، أعلنت نشرة الأرصاد الجوية عن المزيد من الثلوج، وكان من الواضح أنه ما لم أرغب في قضاء أسبوع هناك، فعليّ بذل جهد جاد للخروج. شعر بعض "الهاربين" الآخرين بالمثل، فبدأ فريق منا العمل بالمجارف لفتح مدخل الفناء. ثم حاولت السيارة الأقرب إلى البوابة الدخول. لكن عجلاتها دارت في الثلج، واضطر السائق إلى الاعتراف بالهزيمة. كانت سيارتي التالية في الصف، ولحسن حظي، لم تواجه أي صعوبة في التشبث بالثلج المتراكم. لكن لا يزال هناك نصف ميل من الطريق المغطى بالثلوج - معظمه صاعد - بين المزرعة والطريق الرئيسي. في بعض الأماكن، أزالت الرياح الطريق، وفي أماكن أخرى بلغ عمق الثلج ثلاثة أقدام.

عملنا طوال الصباح بمجارفنا - في إحدى المرات، تجنبتُ الوقوع في حلقة في الطريق بالقيادة مباشرة عبر حقل - وبحلول منتصف النهار، كنتُ قد وصلتُ إلى البوابة المؤدية إلى الطريق الرئيسي. مشينا جميعًا إلى المزرعة لتناول الغداء، ثم حملتُ حقيبتي وعدتُ إلى السيارة. كان الثلج على الطريق الرئيسي قد سُويّ بفعل حركة المرور، لكن السطح كان خطيرًا. في الأماكن التي لم تُحرّك فيها أي سيارة الثلج الجديد، كان من المستحيل تحديد أين ينتهي الطريق وأين يبدأ الخندق. في أماكن أخرى، تراكم الثلج على جانب الطريق ليشكل ضفافًا بارتفاع ستة أقدام. كان لا بد من القيادة لمسافة ميل.

بعد ميل واحد، كنت أسير بحذر شديد، مع العلم أن أدنى خطأ قد يوقعني في الحفرة ويتركني عالقًا في الريف المفتوح لليلة أخرى.

بعد ساعات، عندما وصلتُ أخيرًا إلى طريق رئيسي عريض، حيث حوّلت حركة المرور الثلج إلى طين طينيّ، شعرتُ براحة هائلة. ثم بينما كنتُ أقود سيارتي نحو المنزل، أدركتُ أن هذا الوهج من الراحة والبهجة لم يتلاشى، بل ظلّ ثابتًا. إن "الانتباه" المكثف والمتواصل في الساعات القليلة الماضية، والشعور الدائم بالأزمة، قد "ثبّت" وعيي بطريقة ما في حالة أعلى من الوعي، بحيث بدا كل ما أراه أكثر واقعية. لم يكن الأمر مختلفًا عن الحالة التي كنتُ أشعر بها كثيرًا في طفولتي يوم عيد الميلاد - الشعور بأن العالم بديع ومثير، وأن لا مشكلة تُعيق إرادة الإنسان ومثابرته. كان هناك شعور بأنه لو استطعتُ الحفاظ على هذه الرؤية، لما واجهتُ أي مشاكل خطيرة لبقية حياتي. دامت هذه الحالة طوال فترة عودتي إلى المنزل، وكان من السهل استعادتها في صباح اليوم التالي. في الواقع، كل ما عليّ فعله هو قضاء دقيقة أو نحو ذلك في التفكير في التجربة حتى أشعر بتجديد البصيرة الأساسية - على الرغم من أنني، بالطبع، لا أفعل ذلك "الضغط المتزايد" للوعي.

في الواقع، أقنعتني تجاربٌ من هذا النوع بأنه من غير المعقول الشروع في رحلة طويلة بالقطار أو بالسيارة دون استغلال وقت الفراغ لبذل جهدٍ مدروس لرفع ضغط الوعي بجهدٍ مستمر. قد يكون الجهد الأولي صعبًا، إذ يتطلب إرهاق نفسي في حالةٍ من العزيمة الشديدة، حيث يصبح من البديهي أن المزيد من الجهد سيؤدي إلى نتائجَ أكبر. في وقتٍ سابق من هذا العام (1987)، بذلتُ جهدًا أكثر استمراريةً واستدامةً من أي وقتٍ مضى. كنتُ مسافرًا بالقطار من كورنوال إلى نورثامبتون، في رحلةٍ إجماليةٍ استغرقت ثماني أو تسع ساعات، مع تغييرٍ في المحطات في لندن. استغرق الأمر مني أكثر من ساعةٍ لأُركز انتباهي في حالةٍ من الوعي حيث بدأتُ فجأةً ألاحظ المزيد وأنا أُحدّق من النافذة. أي أن الجهد كان ينتقل إلى عقلي الباطن، الذي كان يُساعدني على الاستمرار فيه. في الواقع، أقنعتُ ستان أخيرًا بالاستيقاظ والبدء في تقديم المساعدة. قبل وصولي إلى لندن بوقت طويل، أجبرتُ نفسي على حالة من النشوة الخفيفة، كان الشعور الرئيسي فيها هو شعورٌ ما بالقوة الكامنة. في مثل هذه الحالات، أُدرك أن وعينا الطبيعي، في حالة الضغط النفسي المنخفض، ينظر إلى العالم بشعورٍ أساسي بالرفض - الشعور الذي قد ينتابنا لو صادفنا جثة فأرٍ متحللة في سقيفة الحديقة. أما في حالات الضغط النفسي المرتفع، فننظر إلى الأشياء بنوع من الود، كما لو كان لديها ما يُثير اهتمامنا.

بحلول الوقت الذي عبرتُ فيه لندن وركبتُ القطار إلى نورثامبتون، كنتُ أشعر بالتعب، وكنتُ مستعدًا للاسترخاء. لكن بدا لي من المؤسف أن أضيع ما تبقى من الوقت.

رحلة، خاصةً وأنني لم أسافر على هذا الخط تحديدًا من قبل، وبالتالي لم أكن على دراية بمناظره الطبيعية. لذا حدّقت من النافذة وواصلت بذل جهد متواصل وحازم. كان الأمر سهلاً، إلا أنني كنت مدركًا لإرهاق كامن في انتباهي. في كل مرة شعرت فيها بالتعب، كان الأمر كما لو أن نافذة - أو بابًا - قد بدأ في الإغلاق، قاطعًا رؤيتي للواقع. كان شعورًا مبهجًا أن أفتح النافذة مرة أخرى وأختبر إثارة حقيقية من الاهتمام وأنا أنظر إلى العربات واقفة في جانب الطريق أو في حديقة خلفية مُعتنى بها جيدًا. كان هذا الشعور بأنني أُخبر بشيء ما باستمرار قويًا جدًا.

وصلتُ إلى وجهتي حوالي الساعة الرابعة والنصف عصرًا، أشعر بتعبٍ خفيف، لكني ما زلتُ مفعمًا بالطاقة. كان مؤتمرًا للناشرين، وكان من المقرر أن ألقي فيه كلمةً بعد العشاء. لكنني ندمتُ على جهدي، إذ جلستُ على العشاء، وشعرتُ بإرهاقٍ شديدٍ لدرجة أنني ربما كنتُ سأنامُ في لحظةٍ واحدةٍ بمجرد إغلاق عينيّ. في لحظةٍ ما، أثارت حرارة الغرفة ورائحة الطعام شعورًا بالغثيان ورغبةً في الخروج لاستنشاق الهواء النقي. ثم تذكرتُ صورة رحلة القطار، وإدراكي أن إرادتي تسيطر على حواسي. جهدٌ غريبٌ من التأمل الداخلي، يصعب وصفه (لكنه مألوفٌ تمامًا لأي شخصٍ تغلب على شعورٍ بالمرض بالتفكير في شيءٍ آخر)، وفجأةً استيقظتُ تمامًا، مستعدًا للنهوض وتنظيم أفكاري.

من أهمّ ما استخلصته من تلك الرحلة هو أن عقولنا ببساطة لا تتدرب، كجسم رجل بدين يقرر المشاركة في ماراثون لندن. هذه التجارب، وغيرها، لم تُبقِ لديّ أدنى شك في إمكانية الارتقاء بعقولنا إلى مستوى أعلى من الإدراك والحفاظ عليها هناك لفترة طويلة. إنها، كما يُشير جيمس، مجرد مسألة عادة. فساكن المدينة الحديثة يتعامل باستمرار مع تجربة مُعقّدة من شأنها أن تُسبّب انهيارًا عصبيًا لساكن الغابة.

لكن يبدو لي أن أهم ما استخلصته تجربة نورثامبتون هو الإدراك الواضح بأن حواسنا عادةً ما تكون في حالة "رفض". ننظر إلى العالم كما ينظر مسؤول تنفيذي مُنهك إلى غريب ربما على وشك أن يطلب منه معروفًا. ومع ذلك، لا نُدرك هذا إلا في لحظات "القبول" تلك، عندما نجد أنفسنا ننظر إلى كل شيء باهتمام مُتعاطف. أدركتُ أن هذا ما قصده الشاعر الألماني ريلكه بعبارة "dennoch preisen" - أي المدح رغمًا عنه. أعجب ريلكه بقصيدة بودلير "كاريون"، التي تصف كيف عثر الشاعر وعشيقته على جثة كلب متعفنة بشعة في حديقة عامة، لأنها جعلت من شيء يُعتبر عادةً مقززًا للغاية بحيث لا يُذكر شعرًا. أدرك ريلكه، في لمحة بصر، أن هذه هي مهمة الشاعر الحقيقية: أن يرتقي بنفسه إلى مستوى من الشدة الذهنية حيث كل شيء في العالم،

حتى الجثة المتعفنة، تصبح رائعة.

*لورانس ليشان، الوسيط، الصوفي والفيزيائي، ص 100.

*العالم كإرادة وفكرة، الكتاب الرابع، ترجمة هالدين وكيمب، ص 402.

†ديلان توماس، رثاء.

*انظر آرثر ج. ديكمان، "الوعي ثنائي النمط" في كتاب "طبيعة الوعي البشري"، تحرير روبرت أورنشتاين، ص 72.

3
أسفل حفرة الأرنب

في 10 يناير 1912، كانت للمؤرخ أرنولد توينبي تجربة رائعة عندما جلس على إحدى القمتين التوأم لقلعة فارسالوس في اليونان يفكر في معركة دارت على تلك المنحدرات في عام 197 قبل الميلاد. وبينما كان ينظر إلى المناظر الطبيعية المضاءة بنور الشمس، انزلق فجأة إلى ما أسماه لاحقًا "جيبًا زمنيًا". فبدلاً من التل المضاء بنور الشمس كان هناك ضباب كثيف، وعرف أنه في ذلك الضباب، كان هناك جيشان يتلمسان طريقهما نحو بعضهما البعض: الرومان وجيش فيليب الخامس المقدوني. ثم انشق الضباب، كاشفًا عن الجناح الأيمن للكتيبة المقدونية وهو يندفع إلى أسفل التل ويحمل الرومان أمامهم. وبذلك فتحوا فجوة خطيرة بينهم وبين جناحهم الأيسر - وهي فجوة استغلها ضابط روماني على الفور، ودفع رجاله إلى الأمام لمهاجمة الجناح المكشوف في الخلف. هؤلاء الفلاحون اللاتينيون الشباب الفظّون لم يعرفوا الرحمة: حتى عندما ألقى اليونانيون أسلحتهم واستسلموا، قُطعوا أرضًا. بلغ هلوسة توينبي حدًا جعله يُشيح ببصره عن المذبحة، وبينما كان يفعل ذلك، لمح مجموعة من الفرسان الهاربين الذين كان يجهل هويتهم. بعد لحظة، وفجأةً، اختفى المشهد برمته، ووجد نفسه ينظر مجددًا إلى المشهد الرعوي المشمس.

قارن هذا بتجربة وصفها متسلق الجبال العظيم فرانك ل. سميث في كتابه "رؤية الجبل" (1941). أثناء عبوره التلال الاسكتلندية من مورفيتش إلى بحيرة دويتش في يوم مشمس مشرق، متمتعًا بإطلالة رائعة على تلال مرقطة بالغيوم والبحر البعيد، دخل سميث ممرًا عشبيًا قرب غلين غلوماش، وأدرك على الفور هالة من الشر تخيم على المكان. كان الأمر كما لو أن أمرًا فظيعًا قد حدث هناك. بدافع اندفاعي، قرر سميث التوقف لتناول الغداء ومحاولة استيعاب هذا الشعور المزعج. يبدو أنه كان يمتلك نوعًا من القدرة النفسية البدائية - على الأقل بما يكفي ليعرف أنه يجب عليه محاولة إفراغ ذهنه والانغماس في حالة من التقبل. فجأة:

... كان هناك عشرين أو أكثر من الناس الممزقين، رجال ونساء وأطفال، يتسكعون

عبروا الممر. بدوا منهكين للغاية، كما لو أنهم قطعوا مسافة طويلة. كان الموكب البائس وسط الممر، وفجأة قفز رجال مختبئون من كلا الجانبين، ولوحوا بالرماح والفؤوس والهراوات، واندفعوا بصراخ جنوني على البائسين في الأسفل. دار صراع قصير عنيف، ثم وقعت مذبحة مروعة. لم يبقَ رجل أو امرأة أو طفل على قيد الحياة؛ امتلأ الممر بالجثث. خرجت من المكان بأسرع ما استطعت. بدت الصرخات وكأنها تطن في أذني...

نُشر كتاب سميث في صحيفة "ذا سكوتسمان"، وبعد بضعة أيام، كتب سميث رسالة إلى المحرر ذكر فيها أن أبحاثه كشفت عن وقوع مجزرتين على الطريق قرب غلين غلوماش: إحداهما عام ١٧١٥، عندما نصب الجنرال ويد كمينًا وقتل عددًا من سكان المرتفعات، والأخرى عام ١٧٤٥، بعد معركة كولودن. ومع ذلك، أقرّ بأن أيًا من هاتين المجزرتين لا يتوافق مع "رؤيته"، لأن الأسلحة كانت من فترة سابقة. ما رآه سميث كان على ما يبدو "تسجيلًا صوتيًا" لحدث ماضٍ "انطبع" بطريقة ما على المشهد بفعل عنف المشاعر المصاحبة. (أطلق باحث لاحق، يُدعى تي سي ليثبريدج، على هذه التسجيلات اسم "الغيلان"، واعتقد أنها مطبوعة بطريقة ما على المجال الكهربائي للماء، ولذلك غالبًا ما توجد في الأماكن الرطبة).

ومع ذلك، يبدو جليًا أن "انزلاق توينبي الزمني" لم يكن من هذا النوع تمامًا. فقد كان مُلِمًّا بتاريخ المعركة، وهذا بلا شك لعب دورًا هامًا في "رؤيته". ومع ذلك، يبدو أن هذا يوحي بأن كل ما حدث هو أن توينبي اختبر طفرةً غير عادية من الخيال، وهو أمر غير مقبول أيضًا: فهناك تفاصيل غريبة عن الفرسان الهاربين الذين لم يستطع تحديد هويتهم. علاوة على ذلك، يواصل توينبي وصف العديد من التجارب المماثلة الأخرى، بعضها حدث في نفس الرحلة إلى اليونان، عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره. روايته (في المجلد العاشر من كتابه "دراسة التاريخ")* يوضح (ص 111) أنه كان غالبًا في حالة شبه صوفية غريبة خلال هذه الرحلة، وأن حالته العقلية أثارت لديه عددًا من الهلوسات. بعد شهرين، في 19 مارس، دار حول سفح جبل في جزيرة كريت، فوجد نفسه ينظر إلى أطلال فيلا باروكية، ربما بُنيت لأحد آخر حكام البندقية قبل حوالي ثلاثة قرون. وبينما كان يقف ينظر إلى هذا المنزل المهجور، "مر بتجربة تُضاهي، على المستوى النفسي، سقوط طائرة مفاجئ عميق عند سقوطها في جيب هوائي". لقد "حُمل في جيب زمني" إلى يوم قبل مائتين وخمسين عامًا عندما أُخلي المنزل فجأةً وهُجر. في هذه الحالة، لم يكن يعرف شيئًا عن المنزل الذي وجده فجأة أمامه. لذا، لا بد أن تجربة السقوط في "جيب زمني" كانت مشابهة من نواحٍ عديدة لتجربة فرانك سميث بالقرب من غلين غلوماش. وقد ساعده...

المعرفة التاريخية، ولكنها لم تكن في الواقع ناجمة عنها.

حدثت تجربة مماثلة أخرى في أنقاض المسرح المكشوف في أفسس عندما "امتلأ المسرح الخالي فجأة بحشد صاخب حيث دخل الروح إلى الموتى فعاشوا ووقفوا على أقدامهم". ما كان توينبي يشاهده، على ما يبدو، هو الحادثة التي وقع فيها القديس بولس ورفيقاه في مشكلة مع نقابة صُنّاع الفضة في أفسس، الذين كانوا يخشون أن تقوض المسيحية عملهم المزدهر في صنع تماثيل فضية للإلهة ديانا. ووفقًا لسفر أعمال الرسل، صاح الحشد الغاضب في المسرح وهدد لمدة ساعتين قبل أن ينجح كاتب المدينة في إقناعهم بالعودة إلى ديارهم. وبمراقبة هذا الحشد، اعتقد توينبي أنه يستطيع بالفعل تمييز رفيقي بولس، غايوس وأريستارخوس، ويهودي غير فعال يُدعى الإسكندر. وبينما كانت صيحات "العظيمة هي ديانا" تتلاشى، اختفت الحياة من المشهد، ورُفع توينبي "مرة أخرى على الفور إلى السطح الحالي لتيار الزمن من هاوية قبل تسعة عشر قرناً".

بعد شهر، في 23 أبريل 1912، مرّ توينبي بتجربةٍ أوضحت اعتقاده بأنه كان يرى "رؤى" وليس مجرد "خيال تاريخي". تسلّق قلعة مونيمفاسيا في لاكونيا، وشقّ طريقه عبر ثغرة في الأسوار. بين شجيرات الأشواك، عثر على عدد من المدافع البرونزية التي تآكلت عرباتها الخشبية، فسقط توينبي مرةً أخرى في "جيبٍ زمني"، يعود إلى مساء ذلك اليوم من عام 1715 عندما سقطت القلعة، التي كانت تحت سيطرة البنادقة، في أيدي الأتراك. ولكن عندما تحقق توينبي لاحقًا من هذا الانطباع الواضح، شعر بالحيرة عندما علم أن القلعة لم تُستَولَ على الفور، لا في عام 1715 ولا في عام 1821، عندما استسلم الأتراك لليونانيين المتمردين: ففي كلتا المرتين، تم التفاوض على الاستسلام سلميًا. لذا، كان على توينبي أن يستنتج أن ما "رآه" هو المنتصرون وهم يخترقون الأسوار وينزعون المدافع لتعطيل الحصن نهائيًا حتى لا يشكل تهديدًا في المستقبل. حيرته لا تدع مجالًا للشك في أنه شعر أنه رأى ذلك بالفعل، وليس مجرد خيال.

أشهر "زلات الزمن" التي عايشها توينبي حدثت في مايو 1912، بينما كان يتأمل قمة قلعة ميسترا، المطلة على سهل إسبرطة. كانت ميسترا خرابًا منذ أن اجتاحتها حرب الاستقلال اليونانية في عشرينيات القرن التاسع عشر. وبينما كان ينظر إلى الأنقاض ويتناول قطعة من الشوكولاتة، عاد توينبي فجأةً إلى ذلك اليوم الذي تدفق فيه الغزاة على ميسترا وذبحوا معظم سكانها؛ ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، ظلت خرابًا. ومرة أخرى، توقف الزمن وأصبح الماضي حقيقة واقعة. غمر توينبي "شعور مرعب بالخطيئة المتجلي في سلوك البشر" - وهي رؤية قادته إلى كتابة كتابه الضخم "دراسة في..."

تاريخ.

ما هي طبيعة "رؤى" توينبي الدقيقة؟ قد يرفضها المتشكك باعتبارها "مجرد خيال"، لكن رواية توينبي نفسه توضح أنه اعتقد أنها أكثر من ذلك. تفاصيل مثل الفرسان المجهولين الذين يبتعدون عن فرسالوس، ولمحة رفاق بولس في مسرح أفسس، وانطباع العنف في قلعة مونيمفاسيا، كلها تشير إلى أنها كانت أقرب إلى نوع من الحلم: في الواقع، يشير توينبي إلى نفسه باسم "الحالم" في حديثه عن فرسالوس. يعترف بأن هذه الرؤى لم تستمر سوى جزء من الثانية، لكنه يقول إن الشعور بالواقع كان مؤثرًا لدرجة أنه بدا وكأنه انزلق إلى الماضي؛ ويقارن نفسه بعالم حفريات يمكنه إعادة بناء ديناصور كامل من قطعة عظم. ومع ذلك، فهذا ليس "انزلاقًا زمنيًا" بمعنى تجربة فرانك سميث، لأن سميث لم يكن يعرف شيئًا عن المذبحة في الوادي. استندت خبرة توينبي إلى معرفته العميقة بالتاريخ. بطريقة غريبة، ساهم في إحياء التاريخ، ليس بمعنى حلم يقظة، بل كشيء أكثر حيوية وواقعية.

لقد اقترحت في مكان آخر * إن ما نتعامل معه هنا هو ملكة إنسانية كامنة لا ندرك وجودها إلا بشكل مبهم. إنها قدرة عجيبة على إدراك حقيقة زمان أو مكان آخر حدسيًا. في رواية الدكتور جونسون "راسيلاس"، يتأمل البطل المناظر الخلابة لوادي السعادة حيث وُلد، ويتساءل لماذا لا يستطيع أن يكون سعيدًا كالأبقار. فيتأمل بحزن: "لا أجد في داخلي قوة إدراك إلا وهي مُشبعة بمتعتها الخاصة، ومع ذلك لا أشعر بالسعادة. من المؤكد أن للإنسان حسًا كامنًا لا يُشبعه هذا المكان، أو أن لديه رغبات منفصلة عن الحس يجب إشباعها قبل أن ينعم بالسعادة".

مشكلته سهلة الفهم. وادي السعادة ممتع بما فيه الكفاية. لكنه عالق هناك، في اللحظة الراهنة، عاجزًا عن الفرار، كذبابة على ورقة ذبابة حلوة لكنها لزجة. وعندما يختبر الإنسان واقعًا واحدًا فقط في كل مرة، يشعر بالملل. يشعر الطفل بالسعادة عندما يجلس بجانب نار دافئة في ليلة شتوية والمطر ينهمر على النوافذ، أو عندما يستلقي على شاطئ في يوم صيفي والبحر البارد يمتد أمامه. فهو في الواقع في مكانين في آن واحد: في الغرفة الدافئة، وهناك تحت المطر المتجمد؛ أو على الشاطئ المشمس، وهناك على البحر البارد الذي لا يسبر غوره. لهذا السبب يحب الأطفال سماع قصص الأشباح عندما يشعرون بالراحة والأمان: إنها طريقة للتواجد في مكانين في آن واحد. الأمير راسيلاس للدكتور جونسون ليس عالقًا في اللحظة الراهنة فحسب، بل في حالة ذهنية يمكن تسميتها "الوعي الأحادي". الطفل الذي يستمع إلى قصة أشباح يكون في "وعي ثنائي".

ولكن هناك أوقات يصبح فيها الوعي الثنائي مكثفًا للغاية حتى أنه يتوقف عن كونه تمرينًا في الخيال ويتخذ جودة مقنعة من الواقع.

هذا هو "الحس الكامن" الذي يتحدث عنه جونسون. يبدو أنه ملكة غير معروفة أو غير معترف بها، ولذلك اقترحتُ تسميتها "الكلية س".

من المثير للاهتمام ملاحظة تشابه هذه القدرة - كما أوضحها توينبي - مع "الإدراكات الحسية الفائقة" لإيلين غاريت. عندما أمسكت بقطعة من قميص الطبيب المختفي، عرفت فورًا أنه في لا جولا: كانت في مكانين في آن واحد. في موضع آخر، تتحدث عن قدرة "الرؤية عبر الحواجز"، وتعطي مثالًا يُصنف بوضوح ضمن القدرة "س":

قد يتعرج الطريق بين التلال لأي مسافة. يرى المرء التلال، ومع ابتعاد الطريق، يتجلى المنظور وتتقلص أبعاده... ومع ذلك، في الوقت نفسه، يرى المرء الطريق بأكمله تمامًا، بغض النظر عن التلال الفاصلة، وتتضح أبعاده الأخرى بدقة متناهية، تمامًا كما يتضح من المناطق القريبة من النقطة التي يرى منها. كل أثر وحجر يُرى على حدة، ويمكن وصفه بدقة. أوراق الأشجار وشفرات العشب قابلة للعد في جميع أنحاء المشهد.*

هذا يذكرنا أيضًا بتجربة سائق الدراجة النارية ديريك جيبسون (ص 23-24) حيث كان قادرًا على النظر إلى الأشجار والعشب، وكان أيضًا واعيًا بكل شفرة عشب وكل شجرة "كما لو أن كل واحدة منها قد وُضعت أمامي واحدة تلو الأخرى". وهناك أوجه تشابه أخرى مثيرة للاهتمام. بدأت تجربة جيبسون عندما بدا أن صوت دراجته النارية يتلاشى إلى همهمة؛ وهذا يشير إلى نوع من الانسحاب اللاإرادي داخله، والذي بدوره يشير إلى وصف إيلين غاريت لكيفية تحقيقها لحالات "الوعي الفائق" الخاصة بها بالانسحاب من العالم الخارجي. عندما جلس توينبي على قمة ميسترا أو يطل على فارسالوس، كان أيضًا في حالة تأمل - أي انسحاب متعمد من العالم الخارجي. يمكن لمعظمنا الوصول إلى هذه الحالة بسهولة نسبية: علينا فقط التفكير مليًا في حدث ما في الماضي. لكن توينبي وجيبسون وإيلين غاريت ذهبوا أبعد من ذلك، إذ وقعوا في "جيب الوقت" الخاص بتوينبي. في الواقع، تعلموا الانسحاب إلى أعماق ذلك العالم الداخلي، كما لو أنهم وجدوا بابًا سريًا في الأرض بدرج يؤدي إلى مستوى آخر، أو، كما في قصة أليس في بلاد العجائب، تعثروا في جحر أرنب.

كل هذا مُحيرٌ نوعًا ما، إذ يبدو أنه يُناقض مفهومنا البديهي عن الخيال، وهو ببساطة اسمٌ آخر للخيال. في اللغة العادية، يعني الخيال تكوين صورةٍ لشيءٍ غير موجودٍ بالفعل، وهذه الصورة حتمًا ستكون نسخةً رديئةً من الأصل. ما فعله توينبي

من الواضح أن ما حدث في فارسالوس أو أفسس مختلف تمامًا. لم يكن هذا مجرد خيال قائم على معرفته التاريخية، بل كان أقرب إلى الهلوسة، كما لو كان يشاهد - أو بالأحرى يشارك - في الحدث الأصلي. الخيال العادي سلبي، كمشاهد جالس في دار سينما؛ أما خيال توينبي فقد اتخذ طابعًا فاعلًا، أشبه بمخرج سينمائي يحشد الممثلين في مشهد جماهيري. يبدو أن الفرق الجوهري هنا يكمن بين الخيال السلبي والخيال الفاعل.

يتضمن الخيال النشط حس المشاركة، كما نرى من مثال آخر ورد في كتاب "دراسة التاريخ". يصف توينبي كيف كان، عندما كان طالبًا، يقرأ رواية لليفي عن الحرب بين روما وحلفائها الإيطاليين. نجح موتيلوس، وهو روماني كان يقاتل إلى جانب الإيطاليين، في العودة إلى منزل زوجته متنكرًا: وعندما رفضت زوجته السماح له بالدخول، ووبخته على وجود مكافأة على رأسه، طعن موتيلوس سيفه في صدره وتناثر دمه على بابها. يقول توينبي إنه بينما كان يقرأ هذه الرواية، "انتقل، في لمح البصر، عبر خليج المكان والزمان ... ليجد نفسه في فناء خلفي في ليلة مظلمة يشهد مأساة شخصية كانت أشد مرارة من هزيمة أي قضية عامة". من الواضح أن هذا الوميض من "الخيال النشط"، الذي حدث في العام الذي سبق رحلته إلى اليونان، كان راجعاً إلى تعاطف شخصي مفاجئ مكثف مع موتيلوس، ولكنه ينبئ بتجارب "جيوب الوقت" في العام التالي.

يبدو أن العقل نفسه يرتقي فجأةً إلى مستوى أعلى من القوة - كما لو أن زنبرك الساعة في ساعة الجد أصبح فجأةً أقوى بكثير. لكن يبدو أن هذا الوصول إلى القوة يحدث مصادفةً، كما في حالة لمحة ويليام جيمس المفاجئة عن "نطاقات من الحقائق البعيدة". يبدو الأمر كما لو أن إحدى القدرات الطبيعية قد حُفِّزت بالصدفة. يتضح هذا أكثر في وصف توينبي لـ"تنوير" آخر يبدو أشبه بالتنويرات الصوفية الموصوفة في فصل سابق:

في كل مناسبة من المناسبات الست المسجلة، انغمس الكاتب في تواصل عابر مع ممثلي حدث تاريخي معين من خلال تأثير مشهد مفاجئ آسر للمشهد الذي وقع فيه هذا الحدث البعيد على مخيلته. ولكن كانت هناك مناسبة أخرى حظي فيها بتجربة أكبر وأغرب. في لندن، في الجزء الجنوبي من طريق قصر باكنغهام، وهو يسير جنوبًا على طول الرصيف المحيط بالجدار الغربي لمحطة فيكتوريا، وجد الكاتب، ذات مرة، في ظهيرة أحد الأيام بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة - لم يتمكن من تسجيل التاريخ الدقيق - نفسه في تواصل، ليس فقط مع هذا أو ذاك

حلقة في التاريخ، بل بكل ما كان، وكان، وسيأتي. في تلك اللحظة، أدرك مباشرةً مسار التاريخ يتدفق من خلاله كتيار هائج، وحياته تتدفق كموجة في تدفق هذا المد الهائل. دامت التجربة طويلاً بما يكفي ليلاحظ بصريًا سطح الطوب الأحمر الإدواردي وواجهات الحجر الأبيض لجدار المحطة وهي تنزلق بجانبه على يساره، وليتساءل - بين دهشة وتسلية - لماذا كان هذا المشهد المبتذل غير المتجانس هو الإطار المادي لإضاءة ذهنية. بعد لحظة، توقف التواصل، وعاد الحالم مرة أخرى إلى عالم لندن اليومي...

من الواضح جدًا أن عقل توينبي قد ارتقى لحظةً إلى مستوى أعلى من القوة، حتى أنه حلّقَ للحظةٍ فوق التاريخ البشري بأكمله كطائرٍ أسطوري، كما يحلو لعقل عبقري رياضياتٍ أن يحلّقَ فوق حقل الأعداد الصحيحة. وجد جيمس أن شيئًا ما يُذكّره بآخر، وهذا يُذكّره بشيءٍ آخر، وهذا يُذكّره بشيءٍ آخر - كل ذلك بسرعةٍ فائقةٍ لدرجة أن عقله العقلاني لم يتسنَّ له الوقت الكافي لمواكبة ذلك. في حالة توينبي، يبدو أن "عملية الربط" كانت آنية.

من الواضح أيضًا أن تجارب الكلية X هذه يمكن تفسيرها بعبارات بسيطة ومنطقية - على سبيل المثال، من حيث فسيولوجيا الدماغ. ربما كانت تجارب توينبي ناتجة عن زيادة مفاجئة في الحيوية تسببت في "توهج" الدماغ كما يتسبب ارتفاع التيار الكهربائي في توهج المصباح الكهربائي بشكل أكثر سطوعًا. يصاحب هذه الإضاءات بالتأكيد تحول من وعي الدماغ الأيسر إلى وعي الدماغ الأيمن. يكون الدماغ الأيسر دائمًا في عجلة من أمره، ويركز على الشيء التالي الذي يجب القيام به، لذلك ليس لديه وقت للتوقف عند الانطباعات أو الحدس. يبدأ وعي الدماغ الأيمن بشعور بالاسترخاء والراحة. بدلاً من الاندفاع إلى الأمام، ينتشر الوعي بلطف "جانبيًا"، مستوعبًا اللحظة الحالية، والنظر إلى الأشياء بدلاً من النظر من خلالها. والنتيجة هي الشعور بالواقع المتزايد الذي اختبرته آن بانكروفت عندما نظرت إلى الشحرور.

وبالمثل، تبدو ذاكرة النصف الأيمن من الدماغ مختلفة تمامًا في نوعها عن ذاكرة النصف الأيسر. فذاكرة النصف الأيسر تُعيد إلينا السمات البارزة لما نريد تذكره؛ بينما تُعيد ذاكرة النصف الأيمن إلى الأذهان رائحة الواقع. وقد كرّس بروست روايةً كاملةً وواسعةً للتمييز بين الاثنين: "البحث عن الزمن المفقود"، والتي يُمكن ترجمة عنوانها بدقة أكبر إلى "البحث عن الماضي" من "تذكر الماضي" (كما هو الحال بالإنجليزية). يقول بروست بكآبة: "وهكذا هو الحال مع ماضينا. إن محاولة استعادته جهدٌ عبثي: ستُثبت جميع جهود عقولنا أنها بلا جدوى. الماضي مُخبأ في مكان ما خارج نطاقنا، بعيدًا عن متناول العقل...". ومع ذلك، يستعيده بطله صدفةً، ويعود إلى المنزل باردًا ومُتعبًا ويتذوق كعكة صغيرة.

يُطلق عليه اسم مادلين، ويغمسه في شاي الأعشاب:

ما إن لامس السائل الدافئ الممزوج بالفتات حنكي حتى انتابتني رعشة فتوقفت، منشغلاً بالأمر العجيب الذي كان يحدث لي. غمرتني لذةٌ آسرة، شيءٌ معزول، منفصل، لا أثر له. وفجأةً، أصبحت تقلبات الحياة لا تُبالي بي، وكوارثها بريئة، وقصرها وهمي.
- هذا الإحساس الجديد كان له عليّ تأثير الحبّ الذي ملأني بجوهرٍ ثمين؛ أو بالأحرى، لم يكن هذا الجوهر فيّ، بل كان أنا. لم أعد أشعر الآن بأنني عادي، عرضي، فانٍ...

وأخيرًا، بعد عدة تذوقات أخرى للمادلين المغموسة في الشاي، كشفت له أن "المتعة الرائعة" كانت بسبب ذكريات الطفولة في بلدة صغيرة تسمى كومبراي، عندما كانت عمته ليوني تعطيه طعمًا من المادلين الخاصة بها المغموسة في شاي زهر الليمون.

لكن لماذا يشعر بطل سيرة بروست الذاتية بهذا الشعور شبه الصوفي بالسعادة المطلقة لمجرد أنه يتذكر طفولته؟ يُظهر بروست براعةً في تحليل السبب. في المجلد الثاني، يصف كيف رأى، في رحلة قطار إلى مدينة بالبيك الساحلية، في محطة ريفية صغيرة، فتاةً صغيرة تبيع الحليب والقهوة. "كان وجهها، مُشرقًا بنور الصباح، أكثر إشراقًا من السماء. شعرتُ عند رؤيتها بتلك الرغبة في الحياة التي تتجدد فينا كلما أدركنا الجمال والسعادة من جديد". لا شك أن بروست قد وضع إصبعه على جوهر المشكلة الإنسانية. فنحن نستمر في نسيان مدى لذة الحياة، ونسمح لأنفسنا بالانزلاق إلى حالة ذهنية لا تبدو فيها الحياة جديرة بالعناء. يقول بروست: "ونُصدر على الحياة حكمًا تشاؤميًا نفترض صحته، لأننا كنا نعتقد أننا نأخذ السعادة والجمال في الاعتبار، بينما في الواقع تجاهلناهما واستبدلناهما بتوليفات لم يكن فيها ذرة واحدة من أي منهما". قد نعتقد أننا احتفظنا بجوهر متعة ماضية في الذاكرة: لكنها في الواقع ليست أكثر من مجرد نسخة طبق الأصل رديئة - قطعة من المجوهرات المعجونة محل الماسة الأصلية.

يختبر بطل بروست نفس الإلهام في الجزء الأخير من "الزمن المُستعاد"، عندما يشعر بالاكتئاب والإحباط، وهو في طريقه إلى حفل استقبال. في الفناء، يتراجع لتجنب سيارة، ويكاد يفقد توازنه على حجر رصف غير مستوٍ. لكن مرة أخرى، "تبدد كل إحباطي، وحل محله نفس السعادة التي وُهبت لي".

في عصور مختلفة من حياتي... ومرة أخرى، يتذكر سبب سعادته: فقد ذكّرته الأعلام غير المستوية فجأةً بأحجار الرصف غير المستوية في معمودية القديس مرقس في البندقية. ومرتين أخريين في الربع ساعة التالية، يختبر ومضات مماثلة من "السحر"، مرة عندما يطرق خادم ملعقة على طبق عن طريق الخطأ، مما يذكره بعامل سكة حديد يختبر العجلات بمطرقة على خط بالبيك، ومرة أخرى عندما يمسح فمه بمنديل، مما يطلق ومضة من ذاكرة القيام بنفس الفعل في عطلة في بالبيك. وبالتفكير مرة أخرى في هذه المشكلة، يصل بروست إلى استنتاج مفاده أن سبب هذا الشعور الغريب بـ "الخلود" هو أن مثل هذه التجارب حدثت "خارج الزمن". يثير هذا التفسير شكوكًا مفهومة، لأن "الومضات" حدثت بالفعل في الوقت المناسب - ولو في جزء من الثانية.

في الواقع، عثر بروست على التفسير الحقيقي في جملة سابقة، حين قال إنه "اختبرها في اللحظة الراهنة، وفي الوقت نفسه، في سياق لحظة بعيدة، بحيث طغى الماضي على الحاضر..." (التشديد من عندي). وهذا يُجيب أيضًا على السؤال حول سبب إثارة ذكريات بالبيك والبندقية لمتعة شديدة، في حين أن التجارب الأصلية كانت غالبًا مملة. التفسير، كما نرى، ليس أن "الومضات" كانت خالدة، بل أنها تسببت في حالة من الوعي الثنائي. هذا ما يُنتج طوفانًا من البهجة، شعورًا بـ"التوقف عن الشعور بالرتابة، والصدفة، والموت". إنه إدراك أن الوعي لا يقتصر على الحاضر الممل والبسيط الذي نعلق فيه جميعًا معظم حياتنا. إنها قادرة على تحقيق تركيز مزدوج غريب يمكن أن يثير فينا فجأة "الرغبة في الحياة التي تولد من جديد كلما أصبحنا على وعي جديد بالجمال والسعادة" - إدراك غراهام غرين المفاجئ أن الحياة تحتوي على عدد لا نهائي من الاحتمالات.

مرة أخرى نواجه تلك المشكلة الأكثر حيرة على الإطلاق: كيف يمكن للبشر أن يتوقفوا عن الرغبة في العيش؟ كلما شعرنا بسعادة غامرة - أو خطر - نشعر فجأة أنه سيكون من السهل تمامًا الاستمرار في العيش إلى الأبد. إنه الشعور الذي عبر عنه دوستويفسكي في الجريمة والعقاب عندما يفكر راسكولينكوف في أنه إذا كان عليه أن يقف على حافة ضيقة إلى الأبد، في ظلام أبدي وعاصفة، فإنه سيظل يفضل القيام بذلك بدلاً من الموت في الحال. جاء نفس الإدراك إلى هانز كيلر، الرئيس السابق لقسم الموسيقى في هيئة الإذاعة البريطانية، عندما كان في ألمانيا في أواخر الثلاثينيات. كان كيلر على دراية بأن زملاءه اليهود كانوا يختفون في معسكرات الاعتقال، ووصف في بث إذاعي كيف خطر بباله فجأة أنه إذا تمكن من الفرار من ألمانيا فلن يكون تعيسًا مرة أخرى لبقية حياته. فكيف يمكننا إذن أن نفقد هذه الرؤية؟ تكمن الإجابة في اعتراف بيرجسون بأن العقل لم يُخلق لاستيعاب جودة الحياة في التجربة؛ إنه يستمر في اختزال العالم إلى رموز ومقاييس. وننسى كيف

يمكن أن تكون الحياة رائعة.

وبعيداً عن بروست، فإن الكاتب المعاصر الذي كان الأكثر انشغالاً بهذه المفارقة هو. ومن الغريب. جي. كي. تشيسترتون، على الرغم من أن الأسلوب الخفيف الذي يعبر به عن الأمر كان يميل إلى إخفاء أهمية ما يقوله:

يقول الناس أن المشنقة في حديقتي جديدة وأنيقة
وطويلة بما يكفي.
أربط المشنقة بطريقة واعية
كمن يربط ربطة عنقه من أجل الكرة؛
لكن بينما كان جميع الجيران - على الجدار - يلتقطون
أنفاسهم ليهتفوا "هورا!"، انتابني نزوة غريبة... ففي النهاية،
أعتقد أنني لن أشنق نفسي اليوم.

غدا هو الوقت الذي سأحصل فيه على راتبي
سيف عمي معلق في القاعة - أرى سحابة صغيرة باللون
الوردي والرمادي - ربما لن تتصل والدة القس - أتخيل
أنني سمعت من السيدة جال
يمكن طهي الفطر بطريقة أخرى - لم أقرأ أعمال جوفينال أبدًا
-
أعتقد أنني لن أشنق نفسي اليوم.

كان تشيسترتون هو من صاغ عبارة "أخبار سارة سخيفة" للتعبير عن ومضات "الخلود". وفي رواية "الرجل الذي كان يوم الخميس"، يُظهر بصيرته في الكلية إكس عندما يجعل البطل يسأل: "عندما تقول "شكرًا" على الملح، هل تقصد ما تقوله؟ لا. عندما تقول "العالم كروي"، هل تقصد ما تقوله؟ لا. هذا صحيح، لكنك لا تقصده". قبل لحظة من تذوق بطل بروست للمادلين المغموسة في الشاي، كان بإمكانه أن يقول: "كنت طفلاً في كومبراي"، لكنه لم يكن ليقصد ذلك. وبينما يتذوق المادلين، يمكنه أن يقول: "كنت طفلاً في كومبراي"، ويعني ذلك. ومع ذلك، بمعنى ما، لم يدرك إلا ما هو واضح: حقيقة الماضي. لكنه "يعلم" أن الماضي حقيقي على أي حال. تؤكد تجربة بروست حقيقة أن وعينا الطبيعي هو وعي باللاواقع. يفصل إدراكنا الأيسر للدماغ

يُعزلنا عن الواقع كما لو كنا مُحاطين بجدار زجاجي عازل للصوت. في الواقع، من السهل الوقوع في نظرة تشاؤمية للنصف الأيسر من الدماغ كسجان لنا. يكتب إليوت:

نحن نفكر في المفتاح، كلٌّ في سجنه، نفكر في المفتاح،
كلٌّ في سجنه،

ومع ذلك، وكما أشرنا سابقًا، يُعدّ اعتبار "أولي" الشرير خطأً فادحًا. بل على العكس، إنّ إدراك النصف الأيسر من الدماغ هو ما يجعل الحياة مثيرة للاهتمام. ويتجلى هذا بوضوحٍ يكاد يكون مؤلمًا في مقطعٍ من رسالةٍ كتبتها السيدة سوليفان عام ١٨٨٧، مُعلّمة طفلةٍ عمياءٍ أصمّةٍ أبكم تُدعى هيلين كيلر. تقول السيدة سوليفان لصديقتها:

في رسالة سابقة، أعتقد أنني كتبتُ لكَ أن كلمتي "قدح" و"حليب" سببتا لهيلين مشكلةً أكبر من أي كلمة أخرى. خلطت بين الاسمين وفعل "شرب". لم تكن تعرف معنى كلمة "شرب"، لكنها كررت تمثيلية الشرب كلما هجأت "قدح" أو "حليب". هذا الصباح، بينما كانت تغتسل، أرادت معرفة اسم كلمة "ماء". عندما تريد معرفة اسم أي شيء، أشارت إليه وربتت على يدي. هجأت "ماء-ر" ولم أفكر في الأمر إلا بعد الإفطار. ثم خطر ببالي أنه بمساعدة هذه الكلمة الجديدة قد أنجح في حل مشكلة "قدح/حليب". ذهبنا إلى محطة الضخ، وجعلت هيلين تمسك كوبها تحت المصب بينما أضخ. وبينما كان الماء البارد يتدفق، يملأ الكوب، هجأت "ماء-ر" بيد هيلين الحرة. بدا لها أن الكلمة التي اقتربت منها بشدة، عند شعورها بتدفق الماء البارد على يدها، قد أذهلتها. أسقطت الكوب ووقفت مذهولة. ارتسمت على وجهها ابتسامة جديدة. هجّت كلمة "ماء" عدة مرات. ثم سقطت على الأرض وسألت عن اسمها، وأشارت إلى المضخة والتعريشة، ثم استدارت فجأة وسألت عن اسمي. هجّأت "معلمة". في تلك اللحظة، أدخلت الممرضة أخت هيلين الصغيرة إلى غرفة المضخة، وهجّت هيلين كلمة "طفل" وأشارت إلى الممرضة. طوال طريق عودتها إلى المنزل، كانت في غاية الحماس، وتعلمت اسم كل شيء لمسته، بحيث أضافت في غضون ساعات ثلاثين كلمة جديدة إلى مفرداتها...

ملاحظة: استيقظت هيلين هذا الصباح كجنية متألقة. طافت من شيء لآخر، تسألني عن أسماء كل شيء، وتقبلني بسعادة غامرة. الليلة الماضية، عندما ذهبت إلى السرير، تسللت إلى ذراعي من تلقاء نفسها وقبلتني.

أنا للمرة الأولى، واعتقدت أن قلبي سينفجر، فقد كان مليئًا بالفرح.*

يكاد يكون من المستحيل علينا تخيّل عالم أعمى أصم أبكم. لكن بينما نقرأ هذه السطور، ندرك فجأةً السعادة الغامرة التي تغمر طفلةً تُدرك أن لكل شيء اسمًا. قبل ذلك، كانت في حيرةٍ من أمرها بين "كوب" و"حليب" - تظن أن الكلمات قابلة للتبادل. والآن، فجأةً، مُنحت هذه الطفلة ذات السبع سنوات مفتاح فهم الحياة كلها، وحماسها هائلٌ لدرجة أنها تعلمت ثلاثين كلمة جديدة في بضع ساعات. ومنذ ذلك الحين، تُريد معرفة اسم كل ما تلمسه؛ فتتخلى عن الإشارات والتمثيليات الصامتة وتُفضّل التعبير عن رغباتها بالكلمات. في غضون ساعاتٍ قليلة، أصبحت سيدة بيئتها. لم تعد تشعر بأنها عادية، عرضية، عاجزة، فانية... وكل هذا لأنها تعلمت الوظيفة الصحيحة للدماغ الأيسر: إتقان الحياة.

هذا الإدراك ذو أهمية محورية، إذ من السهل جدًا الوقوع في خطأ اعتبار النصف الأيسر من الدماغ مجرد سجان يمنعنا من خوض تجارب الذروة. على العكس من ذلك، يُعدّ النصف الأيسر مفتاح مصيرنا التطوري. "الرؤية" مهمة، لكن التحكم أهم بكثير. وقد أكدت الروائية جويس كولين سميث بقوة على هذه النقطة في سيرتها الذاتية "لا تدع أحدًا سيدًا". في ستينيات القرن الماضي، أصبحت من أتباع ماهاريشي ماهيش يوغي، الذي كان مقتنعًا بإمكانية تغيير العالم من خلال التأمل التجاوزي. "بادرها" المهاريشي يومًا ما بتعليمها ترديد تعويذتها الشخصية، ثم تركها لتتأمل. وصفت كيف انزلقت على الفور إلى حالة من الصفاء والسكينة استمرت لمعظم فترة ما بعد الظهر والمساء. بعد ذلك، وجدت أنه من السهل الوصول إلى حالات "الانطواء" التي مرت فيها الساعات كالدقائق. وفقًا للمهاريشي، يتجه العقل تلقائيًا نحو مصدر وجوده إذا عُرِض عليه أسلوبٌ سهل. هذا هو "مملكة الله في الداخل"، ومصدر الوجود كله. قال: "يمكن استغلال السعادة العظيمة، والطاقة، والإبداع، والحب، بهذه الوسيلة البسيطة، لأن العقل يتجاوز هذا العالم بسهولة ويدخل في عالم الوجود. وهكذا يجد المبتدئ أن جميع التوترات، وإرهاق العالم، وجميع المشاعر السلبية تتلاشى عنه. يتعمق في أعماقه ويخرج منه متجددًا ومنتعشًا".

يبدو هذا أمرًا طبيعيًا. لكن سرعان ما اتضح أن "الانغماس في الذات" له بعض العيوب. "بدا أن الرغبة في الانسحاب من الحياة، وعدم الالتزام بأحد أو بأي شيء، تنمو لديهم" [المبتدئون]. لم يكن من الممكن منع بعض المبتدئين من البقاء في حالة تأمل شبه دائمة. بدأ بعضهم يمر بتجارب مُقلقة - نوع من الغيبوبة المتصلبة حيث لم يتمكنوا من الحركة أو فتح أعينهم. كما سنرى في...

في فصل لاحق، غالبًا ما تسبق هذه الحالة "تجربة الخروج من الجسد". أخيرًا، بدأت جويس كولين سميث تشعر بالشكوك تجاه المهاريشي نفسه، إذ حوّل النجاح المعلم الروحي الطفولي إلى ما يشبه قطبًا عظيمًا، وبعد فترة من خيبة الأمل، تركت الحركة. ثم، فجأةً، سيطر عليها شعور بالملل واللا جدوى.

ثم بدأ كل شيء يتحول ببطء، ليس فقط كئيبًا وثقيلًا، بل شريرًا تمامًا. وجدتُ نفسي عاجزًا عن كبح جماح عقلي. أدركتُ ما كان العقل يدركه دائمًا، لكن التجربة لم تُدركه بعد: أن كل شيء في الحياة في حالة تغير دائم؛ وأن لا استقرار في أي مكان؛ وأن الثابت الوحيد هو التغير المستمر الذي لا يلين.

نظرتُ إلى يديّ، فرأيتهما تتلاشى من يدي امرأة في منتصف العمر، مُرصّعتين بالخواتم، إلى يدي فتاة نحيلتين ناعمتين، إلى قبضتي طفل صغير، إلى براعم جنين صغيرة مُجعّدة في رحم أمه. وفي الوقت نفسه، كانتا عجوزين مُعقّدتين بمفاصل عجوز، وأخيرًا إلى يدين هزيلتين مُتقاطعتين في القبر.

سرعان ما بدأت هذه التجربة تتكرر مع كل ما رأته: كوبٌ يتحول إلى كومة من طين الخزف وبعض الشظايا المكسورة، وطاولةٌ تتحول في آنٍ واحد إلى كومة من الخشب غير المشطوف وقطع مكسورة من حطبٍ أكلته الديدان؛ لا شيء يصمد. بعد ليلةٍ رأت فيها العالم كجحيم دانتي، مليئًا بالبؤس العاجز، قررت الانتحار. أخذت حبلًا وجلست تحت شجرة بلوط، تحاول أن تقرر كيف ستتصرف. وبينما كانت تفعل ذلك، لاحظت أن الحبل "ثابت".

في حالتي الأخيرة كان الحبل ليتحلل إلى خيوط، إلى قنب، إلى كتان ينمو في الحقل، يزهر وينبت البذور، ويجمع، ويُنقع ويُضفر، وفي نفس الوقت يتآكل ويتفكك...

أدركتُ حينها أن تركيزي العميق على اللحظة، على الحبل كما كان آنذاك - لا على ما كان عليه أو ما سيصبح عليه - جعله ثابتًا في لحظته الراهنة... كما ظلت الشجرة ثابتة، لا تموت ولا تتحول إلى شتلة أو بذرة. كان الأمر أشبه بتقنية التلفزيون في إيقاف الشخصيات والمواقف في منتصف الأحداث، تاركًا كل شيء ثابتًا وجامدًا...

إن سر استعادة "الحالة الطبيعية"، إذن، لابد وأن يكمن بطريقة أو بأخرى في الحفاظ على انتباهنا ثابتًا في اللحظة الحالية؛ وعدم السماح لأي انزلاق في العقل...

. التركيز الشديد وتضييق ذهني وأنا أفكر

يبدو أن نيتي بالحبل قد حفّزت آليةً تُمكّن المرء، في الحالة الطبيعية، من أداء وظائفه في العالم. كانت هذه وظيفةً آليةً، تُدار بطريقةٍ ما بالانتباه، أو ربما بالقصد، ولكنها عادةً ما تكون غير مُلاحظة.

هذا ما دفع جويس كولين-سميث إلى إدراك أن "الانتباه الموجه... لا بد أن يكون مفتاح استعادة صوابي". وسرعان ما استعادت مهارة التركيز على اللحظة الراهنة. "لشهور، كنت أنظر إلى الحياة من خلال مجهر غير مُركّز، أرى أكثر بكثير مما أستطيع استخدامه بشكل مفيد". بمجرد أن أدركت ذلك، عادت إلى طبيعتها.

كانت أعراضها تُشبه إلى حد كبير أعراض تجربة مخدرة. علّمها التأمل التجاوزي براعة التحرر من قيود الفص الأيسر من الدماغ، والاسترخاء في الفص الأيمن، بكل ما يرتبط به من روابط أوسع مع مناطق أخرى من الوجود. علّمتها تجربتها المروعة أن غاية التطور ليست التحرر من قيود الفص الأيسر من الدماغ، بل استغلالها على النحو الأمثل.

وبما أننا أصبحنا نملك هذه المشكلة من أيدينا، فسيكون من المؤسف أن نتركها تمر دون محاولة حازمة للوصول إلى جذورها.

يمكننا أن نرى أن لمحات توينبي عن الكلية س كانت نسخةً مُتحكّمًا بها من "لمحات" جويس كولين سميث المُقلقة. كان توينبي أيضًا يُلقي نظرةً خاطفةً على الواقع - ما مكّنه من قول شيءٍ ما وقصده. ولأنه كان في قلعة ميسترا يُطلّ على سهل إسبرطة، استطاع أن يقول: "قبل قرنٍ من الزمان، اجتاح الغزاة ذلك السور هناك"، وكاد أن يراهم يفعلون ذلك. سنناقش لاحقًا ما إذا كان هذا كل ما حدث. لكن "لمحة الواقع" كانت بلا شك نقطة انطلاق التجربة.

لماذا، في هذه الحالة، لا نستطيع استحضار التجربة متى شئنا؟ نرى، بدايةً، أن توينبي استحضار التجربة بإقناع نفسه بأنها حقيقية. ولأنه كان في ميسترا، ولأن المكان كان يحمل له ارتباطات آسرة، فقد استطاع بطريقة ما أن "يقنع" حواسه بأنها حدثت قبل خمس دقائق.

يبدو جليًا أنه عندما تقتنع الحواس، تكون مستعدة تمامًا للكشف عن بُعد آخر للواقع. وهذا بدوره يثير السؤال البديهي: لماذا لا تُظهر لنا حواسنا عادةً "الواقع"؟ جزء من الإجابة واضح بما فيه الكفاية. النصف الأيسر من الدماغ دائمًا في عجلة من أمره. وظيفته هي "التأقلم" مع الحياة اليومية وتعقيداتها التي لا تنتهي. لديه وقت قليل جدًا "للوقوف والتحديق". عندما أقود السيارة في زحام مروري خانق، لا أستطيع ملاحظة ماركة كل سيارة تقترب مني، أو حتى لونها؛ كل ما يهمني هو...

السرعة وما ينوي فعله تاليًا. لذا، ولأسباب وجيهة تمامًا، يُختزل الدماغ الأيسر العالم الحقيقي إلى مجموعة من الرموز. تكمن المشكلة في إقناع الدماغ بالذهاب وراء هذه الرموز - لتحفيزه إلى إحساس بالواقع، كما حفّزت لعبة الروليت الروسية لغراهام غرين حواسه المُعطّلة. قال ويليام جيمس إن ما نحتاجه هو "المعادل الأخلاقي للحرب"، أي تجربة خيالية تُحفّزنا كما يُحفّز البوق للمعركة.

لكن إذا دققنا النظر في هذه المشكلة، لوجدنا أنها ليست مسألة رموز فحسب. المشكلة الحقيقية تكمن في كيفية تفسيرنا لهذه الرموز. تكمن المشكلة في أننا أمام عالمٍ باهت (وهو باهت لأننا حولناه إلى رموز)، نسمح لأنفسنا بالتأوه من اليأس ونبتعد باشمئزاز. عندما يحدث هذا، نختبر ما يسميه سارتر "الغثيان"، ويسميه كامو "العبث". في رواية سارتر "الغثيان"، يصف البطل، روكونتان، كيف حدث له ذلك أول مرة. عندما كان في كمبوديا، حاول أحد معارفه إقناعه بمرافقته في مهمة أثرية. صادف أنه كان يحدق في تمثال كمبودي آنذاك. ثم فجأة، بدا وكأنه يستيقظ "من سبات دام ست سنوات":

بدا لي التمثال بغيضًا وغبيًا، وشعرتُ بمللٍ شديد. لم أستطع فهم سبب وجودي في الهند الصينية. ماذا كنت أفعل هناك؟ لماذا كنتُ أتحدث مع هؤلاء الناس؟ لماذا كنتُ أرتدي ملابس غريبة؟ لقد مات شغفي. لسنوات، غمرني؛ والآن أشعر بالفراغ. لكن هذا لم يكن الأسوأ: أمامي، واقفًا بنوع من الكسل، كانت فكرة ضخمة وباهتة. لم أكن أرى ما هي بوضوح، لكنها أزعجتني لدرجة أنني لم أستطع النظر إليها. كل ذلك كان ممزوجًا بعطر لحية ميرسييه.

ويرفض بطل سارتر فجأة الذهاب إلى المهمة.

يمكننا أن نرى أن ما حدث ببساطة هو أن روكونتان قد غمره شعور "يا إلهي!"، وانخدع به. لقد وقع في خطأ بدائي بإقناع نفسه أن هذه هي "الحقيقة"، وأن شعوره السابق بأن الحياة مثيرة للاهتمام كان وهمًا. لقد غلب عليه "تأثير سفر الجامعة". ويرتكب خطأً فادحًا باعتقاده أن هذا كشفٌ عن انعدام المعنى، بدلًا من إدراك أنه ببساطة سمح لنفسه "بالتخلي"، كرجلٍ منهكٍ متشبثٍ بحافة نافذة.

يقع كامو في نفس الخطأ. يكتب في "أسطورة سيزيف" عن مشكلة الملل: "الاستيقاظ، الترام، أربع ساعات في المكتب أو المصنع، وجبة، الترام، أربع ساعات عمل، وجبة، نوم، ويوم الاثنين، الثلاثاء،

الأربعاء، الخميس، الجمعة، والسبت على نفس الإيقاع... ولكن في يومٍ ما، يبرز "لماذا"، ويبدأ كل شيء في ذلك التعب المشوب بالدهشة. أي أن شعور "العبث" يبدأ بشعورٍ بالعبث، بسؤال: "لماذا أضيع حياتي هكذا؟" ويتابع:

البشر أيضًا يُخفون اللاإنسانية. في لحظات معينة من صفاء الذهن، يُسخّف الجانب الآلي لإيماءاتهم، ومسرحيتهم الصامتة التي لا معنى لها، كل ما يحيط بهم. رجل يتحدث على الهاتف من خلف حاجز زجاجي، لكنك ترى غبائه المُبهم؛ فتتساءل لماذا هو على قيد الحياة. هذا الانزعاج في مواجهة لاإنسانية الإنسان، هذا التعثر الذي لا يُحصى أمام صورة ما نحن عليه، هذا "الغثيان"، كما يُطلق عليه كاتب اليوم، هو أيضًا عبث. وبالمثل، فإن الغريب الذي يأتي في لحظات معينة ليقابلنا في المرآة، الأخ المألوف والمُقلق الذي نصادفه في صورنا، هو أيضًا عبث.

تكشف هذه الأمثلة عن ثغرة في حجة كامو. إذا خفضتَ صوت التلفاز في لحظة دراما عالية، ستبدو وجوه الشخصيات عبثية، بأفواههم التي تنفتح وتغلق كالأسماك. ولكن هذا لأنك حرمتهم عمدًا من بُعدٍ من أبعاد الواقع - بُعدٌ ضروريٌّ لفهم ما يجري تمامًا. وبالمثل، إذا دخلتَ إلى مسرحيةٍ في منتصفها، فستكون أقل أهميةً لك مما تعنيه لشخصٍ شاهدها من البداية. ولكنك لن تجادل بأن عدم فهمك "أصدق" من وجهة نظر الشخص الآخر. وتنطبق الحجة نفسها على الرجل الذي يُشير في كابينة الهاتف. لقد حُرمتَ من بعض الأدلة الأساسية التي ستُمكّنك من إكمال الصورة، ولكن من الواضح أن الادعاء بأن عدم فهمك يُثبت بطريقةٍ ما "عدم إنسانيته" هو هراء.

يجب أن يكون واضحًا الآن أن "غثيان" سارتر و"عبثية" كامو لا يختلفان كثيرًا عن إدراكنا الطبيعي للعالم. فكما يشير أوسبنسكي، جوهر الإدراك الطبيعي هو أن كل شيء منفصل؛ العالم "مُقطّع إلى قطع صغيرة". الغثيان هو ببساطة هذا الانفصال المُبالغ فيه: كل "ترابط" قد اختفى. باختصار، الوعي العادي هو شكل من أشكال الغثيان. لقد حرمنا النصف الأيسر من الدماغ من بُعد كامل من المعنى. إذا كنا نعني بـ "طبيعي" شيئًا يُخبرنا بالحقيقة، فإن الكلية "س" أكثر طبيعية بكثير من إدراكنا اليومي، والواقع الذي يراه الصوفيون هو الأكثر طبيعية على الإطلاق.

يمكننا أيضًا أن نفهم لماذا تصاحب ومضات الوعي الثنائي شعور "بشائر سارة سخيفة"، شعور "كل شيء على ما يرام". أظهر تحليلنا أن الوعي الضيق في النصف الأيسر من الدماغ ليس وعيًا "طبيعيًا"، بل هو شكل متخصص وغير طبيعي إلى حد ما، طُوّر كأداة للتحكم في العالم. (اللغة هي وسيلته الأولى والأهم لتحقيق هذه الغاية، كما رأينا في مثال هيلين كيلر). كان شكل الوعي الذي اختبره بروست في "ومضاته" طبيعيًا - حتى وإن كان البشر، للمفارقة، لا يختبرونه إلا في ومضات. كان من المفترض أن نمتلك هذا الشكل الأكثر ثراءً وتعقيدًا من الوعي، وكما أشار وردزورث، يمتلكه معظم الأطفال بالفعل. كان من المفترض أن يتمتع وعينا بالعالم بثراء ودفء يجعلان كل شيء يبدو "مُغطى بنور سماوي". هذا هو نوع الوعي الذي لا يختبره معظم البالغين إلا خلال العطلات، عندما يوقظ فيهم رؤية أماكن جديدة ومثيرة للاهتمام شعورًا بتعقيد العالم الخارجي وتنوعه. لكن الإحساس الأصلي بـ "المجد والانتعاش" يضيع عندما يضطرون إلى التعامل مع بيئة معقدة على نحو متزايد و"تبدأ ظلال بيت السجن في الانغلاق".

يبدو أن هذا يُشير إلى إجابة على أحد أكثر الأسئلة حيرةً حول الدماغ: لماذا يمتلك نصفين متطابقين ظاهريًا، ويبدو أنهما يُكرران وظائف بعضهما البعض؟ حتى الآن، لم ينجح أي عالم فسيولوجيا في تقديم إجابة مُقنعة لهذه المُشكلة، والاقتراح الأكثر ترجيحًا هو أن أحد النصفين مُخصص ليكون "احتياطيًا" في حالة تلف النصف الآخر. تُشير تجارب توينبي وبروست إلى إجابة أخرى: للدماغ نصفان، لذا يُمكننا أن نكون في مكانين في نفس الوقت. وهذا يُعيدنا، بالطبع، إلى سؤالنا السابق - والسؤال الذي كرّس له بروست اثني عشر مجلدًا من كتابه "البحث عن الزمن المفقود": هل هناك طريقة ما يُمكننا من خلالها استدعاء "الوعي الثنائي" متى شئنا؟

يقدم التحليل السابق دليلاً مهماً. تكمن المشكلة الحقيقية في ما يمنعنا من بلوغ هذه الحالات بإرادتنا؟ إحدى العقبات الأساسية هي أننا نقبل الوعي "اليومي" على أنه "طبيعي"، وهذا القبول هو ما يبقينا أسرى توقعاتنا الآلية. لننظر مرة أخرى إلى حالة توينبي في ميسترا. فبينما ينظر إلى المشهد، يُخبر نفسه أن هذا المكان قد دمره الغزاة في حرب الاستقلال اليونانية؛ إنه يفرض معرفته التاريخية بنشاط على أدلة حواسه. ويستجيب دماغه بنوع من "التدفق" الذي يحول التاريخ إلى واقع. سيفتقر السائح العادي، الذي ينظر إلى ميسترا من أعلى، إلى ميزتين من ميزات توينبي: معرفته بالتاريخ اليوناني والاقتناع الخيالي المفاجئ الذي تسبب في "التدفق". باختصار، موقف السائح سلبي نسبيًا؛ توينبي يستخدم خياله بنشاط.

لكن المشكلة ليست مجرد سلبية. يمكننا أن نرى في مثال

في رواية روكونتان لسارتر، ثمة عنصر سلبي فاعل يُفعّل "تأثير الحلقة المفرغة". ويتجلى هذا بوضوح أكبر في قصة شجرة الكستناء الشهيرة في رواية "الغثيان". يبدأ روكونتان تدوينة يومياته بالاعتراف بأنه يشعر بالانهيار، لكنه على الأقل يعرف الآن ما أراد معرفته. "لم يفارقني الغثيان، ولا أعتقد أنه سيفارقني... لكنني لم أعد أتحمله، لم يعد مرضًا أو نوبة عابرة: إنه أنا".

لقد كان جالسًا للتو في الحديقة، كما يوضح:

كانت جذور شجرة الكستناء غارقة في الأرض تحت مقعدي مباشرة. لم أعد أتذكر أنها كانت جذرًا. اختفت الكلمات، ومعها اختفت معاني الأشياء، وطرق استخدامها، والمرجعيات الواهية التي رسمها البشر على سطحها. كنت جالسًا، منحنيًا إلى الأمام، رأسي منحني، وحيدًا أمام هذه الكتلة السوداء المعقدة، الوحشية تمامًا، التي أخافتني... ثم فجأة، ها هي، واضحة كوضوح الشمس: انكشف الوجود فجأة. فقد مظهره البريء كتصنيف مجرد: كان عجينة الأشياء ذاتها، هذا الجذر الذي عُجن ليُوجد. أو بالأحرى الجذر، وبوابات الحديقة، والمقعد، والعشب المتناثر، كل ذلك اختفى: لم يكن تنوع الأشياء، وفرديتها، سوى مظهر، قشرة. ذابت هذه القشرة، تاركةً كتلًا هشة، وحشية، كلها في حالة من الفوضى - عارية، في عري مخيف وفاحش.

ما حدث مشابه لتجربته في الهند الصينية. الملل، ذلك الشعور بالعبث، يُسبب انهيارًا في إرادته، وشعورًا مفاجئًا بـ"ماذا أفعل هنا؟". يشبه الأمر إلى حد ما رهبة المسرح - رغبة مفاجئة في عدم الاستمرار. لكن هذه التجربة تتجاوز رهبة المسرح بمرحلة. لسنا بحاجة لمعرفة أن تجارب سارتر مع الغثيان كانت بسبب جرعة مسكالين سيئة لفهم ما يحدث بعد ذلك. يُنتج المظهر المتلوي الشبيه بالثعبان للجذور مزيجًا من الاشمئزاز والرعب. إنه يعلم أنها شجرة وغير ضارة تمامًا، لكن انهيار إرادته، إرادته في الحياة، يجعله يشعر بالضعف التام. إنها في الأساس نفس آلية الاشمئزاز وعدم الثقة التي تجعل ديلان توماس يعتبر الأعضاء التناسلية للفتاة "جحر فأر قذر".

جميعنا نعاني من انعدام الثقة، بشكل أو بآخر، على نحو دائم. إذا مددت يدك لفتح باب وكان مقبضه مبللاً ولزجاً، فستسحبه اشمئزازاً. إذا التقطت تفاحة ساقطة من تحت شجرة ووجدت بزاقة في أسفلها، فستسقطها اشمئزازاً. نحن دائماً على استعداد، ولو بشكل غامض، لأن تكون الأمور على غير ما تبدو عليه: هذا جزء من آلية الحفاظ على الذات لدينا. ولكن إذا سمحنا له بالتمادي، فإنه يتطور إلى حالة تُعرف باسم جنون العظمة.

أراد عالم العصر الفيكتوري السير فرانسيس غالتون اكتشاف مدى سهولة الانزلاق إلى حالة من جنون العظمة، فتعمد إحداث حالة من الاضطهاد في ذهنه بإقناع نفسه بأن كل من يمر به في الشارع جاسوس. وقد أصيب بالفزع عندما اكتشف مدى سهولة جعل نفسه يشعر بالاضطهاد: فعندما مر بموقف سيارات أجرة، شعر حتى أن جميع الخيول كانت تحدق به. وقد أثارت هذه التجربة اهتمام البروفيسور بيتر ماكيلار وحاول إقناع أصدقائه في أحد المطاعم بأن النادل لديه شيء ضدهم وكان مصممًا على عدم خدمتهم؛ وفي كتابه Mindsplit، سجل أنه كان من السهل بشكل مدهش إحداث حالة من جنون العظمة الخفيف. وعندما تناول ألدوس هكسلي الميسكالين، أدرك أيضًا مدى السهولة المخيفة التي سيكون عليها "الشروع في الطريق الهابط، الطريق الجهنمي...". إذا بدأت بالطريقة الخاطئة، فسيكون كل ما يحدث دليلاً على المؤامرة ضدك. وسيكون كل ذلك مصدقًا لذاته. لم يكن بإمكانك التقاط أنفاسك دون أن تعلم أنها جزء من المؤامرة.

يُفسَّر كل هذا، بالطبع، بآلية ستان وأولي. يُقنع أولي نفسه بأن الجميع ضده، لكنه لا يُصدِّق ذلك حقًا. لكن ستان يُصدِّق ذلك، وسرعان ما يُصاب أولي بالرعب عندما يُدرك أنه أصبح ضحيةً لردود فعل ستان السلبية. وهذا ما حدث لروكنتان سارتر. يعلم أن الجذر ليس ثعبانًا أو أخطبوطًا مُتلوِّيًا، ومع ذلك فإن شعوره بالارتياب قويٌّ لدرجة أن الجذر يبدو وكأنه يُشعِر بتهديدٍ غريب.

الأمر المهم الذي تجدر الإشارة إليه هو أن عقل روكونتان يُخبره أنه ينظر إلى جذر شجرة عادية، لكن مشاعره السلبية تُقنعه بأنه بغيض ومخيف. يُطمئنه جنونه بأنه لا ينبغي له اعتبار الجذر أمرًا مسلمًا به؛ بل ينبغي أن يكون موقفه عدم ثقة. ولكن يُمكننا أيضًا أن نرى أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن عقل سارتر يُصادق على الأمر برمته. فبدلًا من أن يُقنع نفسه: "هراء، هذا مجرد جذر كستناء"، يُقنع نفسه بأن العالم في الواقع مكان أشد بغيضًا وأكثر رعبًا مما ندركه نحن. يُقنع نفسه بأننا عندما ننظر إلى الأشياء، لا نُصدق وجودها حقًا؛ بل نُعاملها كما لو كانت ديكورًا مسرحيًا. والآن يُدرك فجأة أن الأشياء موجودة بذاتها، وأن واقعها المُطلق يبدو وكأنه يُسخر من محاولتنا لإبقائها في "مكانها الصحيح". هذا هو الجذر الحقيقي لمشكلة سارتر: لقد سمح لمشاعره بإقناع عقله بأن الوجود الإنساني قصير ووحشي وتافه، وأنه .كما يقول في "الوجود والعدم" . "لا معنى لحياتنا ولا معنى لموتنا".

وهنا، أخيرًا، وصلنا إلى جوهر المشكلة: ميل العقل إلى تأكيد أحكامنا السلبية على الحياة. قد يشعر الطفل بالاكتئاب والبؤس تمامًا كالبالغ، ومع ذلك نادرًا ما ينتحر الطفل. لماذا؟ لأنه يشعر بالاكتئاب فحسب. يعتقد البالغ أنه مكتئب، وإذا كان سارتر أو صموئيل بيكيت، يُخبر نفسه أن الحياة...

لا معنى لها ولا جدوى منها على أية حال.

في قصة طريفة بعنوان "المجهول"، يُقدم موباسان مثالاً على آلية عمل هذه "الآلية السلبية". يصف شابٌّ من سكان المدينة حرجه الشديد لإصابته بعجز جنسي. لطالما مرّ بفتاة فاتنة في الشارع وتساءل كيف يتعرّف عليها - حتى أنه حاول في إحدى المرات اللحاق بها إلى منزلها. في أحد الأيام، استجمع شجاعته ليتحدث معها، ولدهشته، اكتشف أنها لا تمانع في المجيء إلى شقته. (بدأ هذا يُقلقه بالفعل - فالأمر سهلٌ للغاية). بعد بضع مداعبات، بدأت تخلع ملابسها - طالبةً منه، وهي تفعل ذلك، ألا ينظر إليها. نظر إلى ظهرها العاري - ورأى بقعة سوداء غريبة بين كتفيها. خطرت في باله أفكارٌ عبثية - عن الساحرات الشريرات في ألف ليلة وليلة اللواتي يغرين الرجال بالوقوع في براثنهن. وعندما حان وقت "غناء أغنية حبه"، وجد نفسه بلا صوت. نظرت إليه الفتاة بازدراء طفيف، وقالت: "يبدو من المؤسف أن أسبب لي كل هذا العناء"، ثم انصرفت.

قصة موباسان تُبرز آليةً مألوفةً لنا جميعًا. الآلة التي أستخدمها لكتابة هذه الكلمات مزودةٌ بمفتاح مسح، وهو تطورٌ حديثٌ مُريحٌ للغاية. إذا ضغطتُ على المفتاح الخطأ أو كتبتُ "hte" بدلًا من "the"، فما عليّ سوى الضغط على مفتاح المسح، فيختفي الخطأ. أدمغتنا مُجهزةٌ بالفعل بمفتاح مسح، مما يُمكّننا من تصحيح حديثنا أثناء الكتابة. حتى أنه يُلغي شيئًا ما أوشكتُ على قوله أو فعله: إذا كنتُ على وشكِ الإدلاء بملاحظةٍ غير لبقة، يُمكنني أن أُدرك نفسي في الوقت المُناسب وأقول شيئًا آخر. إذا شعرتُ بتوترٍ شديدٍ أو إحراجٍ، يُعلق إصبعي باستمرارٍ فوق مفتاح المسح، مما يُؤثر سلبًا على عفويتي. رؤيةُ الوحمة السوداء تدفع بطلَ موباسان إلى الضغط على مفتاح المسح وتدمير رغبته الجنسية. وبطل سارتر في حالةٍ دائمةٍ من الغثيان لدرجة أنه يُبقي إصبعه على مفتاح المسح معظم الوقت.

دعونا ننظر عن كثب إلى الطريقة التي تعمل بها هذه الآلية، لأنها من الواضح مفتاح السؤال، ما الذي يمنعنا من تجربة "الوعي الثنائي" بإرادتنا؟

ماذا يحدث حقًا عندما يفقد بطل موباسان قوته فجأةً، أو عندما يشعر روكونتان بأن جذر الكستناء أصبح مخيفًا ومُهددًا؟ الإجابة واضحة: لقد سيطر شعور سلبي على العقل. هذه هي الآلية الأساسية للغثيان وعدم الثقة. أو بعبارة أخرى، تغلبت قيمه العاطفية على قيمه الفكرية. (القيمة، بالطبع، هي ببساطة شعور بأن شيئًا ما جيد أو سيئ).

لدينا في الواقع ثلاث مجموعات مميزة من القيم: الجسدية والعاطفية والفكرية. ومن بين هذه المجموعات الثلاث، تُعدّ القيم الفكرية الأكثر موثوقية. قيمي الجسدية تتغير باستمرار.

بعد ذلك، أشعر بالدهشة في التاسعة صباحًا، وبالشقاء الشديد بحلول العاشرة، لمجرد شعوري بالجوع أو التعب أو الصداع. هناك مثال رائع على القوة الهائلة لقيمنا الجسدية في رواية "رسائل سكروتاب" لسي. إس. لويس، عندما يشرح الشيطان سكروتاب لابن أخيه ورمووود إحدى أكثر تقنياته فعاليةً في منع البشر من التفكير بوضوح:

كان لديّ مريضٌ، ملحدٌ مُتزمّت، اعتاد القراءة في المتحف البريطاني. في أحد الأيام، بينما كان جالسًا يقرأ، رأيتُ سلسلةً من الأفكار في ذهنه بدأت تتجه نحو الاتجاه الخاطئ. كان العدو [أي يسوع]، بالطبع، قريبًا منه في لحظة. قبل أن أعرف أين أنا، رأيتُ عملي الذي دام عشرين عامًا يبدأ بالتعثر. لو فقدت صوابي وبدأتُ في محاولة إيجاد حُجةٍ عقلانية، لكنتُ قد انهارت. لكنني لم أكن أحمقًا إلى هذه الدرجة. لقد لامستُ على الفور الجزء الذي كان من الأفضل أن أسيطر عليه من الرجل، واقترحتُ عليه أن الوقت قد حان لتناول الغداء. يُفترض أن العدو قدّم اقتراحًا مُقابلًا... أن هذا أهم من الغداء... عندما قلتُ: "بلى، في الواقع، أهم بكثير من أن أتناوله في نهاية الصباح"، أشرق وجه المريض كثيرًا؛ وبحلول الوقت الذي أضفتُ فيه: "من الأفضل أن تعود بعد الغداء وتبدأ الأمر بذهنٍ مُنتعش"، كان قد وصل بالفعل إلى منتصف الطريق إلى الباب.

إن العائق الرئيسي الأول أمام قدراتنا على التبصر هو الجسم نفسه، مع مزاجه المتغير باستمرار.

أما المجموعة الثانية من العقبات، فقد أدركتها آن بانكروفت بوضوح. "رأيتُ أنني أصبحتُ تافهةً للغاية، عبدةً لمشاعري، منغمسةً فيها... حتى أن حياتي ضاقت إلى سلوكٍ قهريٍّ كسلوك الزومبي". يبدو هذا تناقضًا في المصطلحات - أليس من المفترض أن تُشعرك المشاعرُ بحيويةٍ أكبر، لا أقل؟ ومع ذلك، فنحن جميعًا نعرف تمامًا ما تعنيه. عندما نكون سعداء حقًا، نشعر بنشوةٍ غامرةٍ بالتحرر من مشاعرنا. المشاعر كالضباب الكثيف، بينما السعادة الحقيقية أشبه بالهواء النقيّ النقيّ المُحاط به.

لكن عقلي يعلو فوق هذه القيم الجسدية والعاطفية. على سبيل المثال، عندما أشعر بالغضب أو الغيرة أو الانزعاج، ينظر جزء آخر مني إلى كل ذلك ببرودٍ وبرود، ويحثني على ألا أكون أحمقًا. إجمالًا، عقلي يخبرني بالحقيقة - أو على الأقل يبذل قصارى جهده. تميل قيمي الجسدية والعاطفية إلى تشويه إدراكي للواقع، وكثيرًا ما تُطمئنني بأن الحياة بشعة أو عبثية أو بلا معنى. أما ذاتي العقلانية فتخبرني أنني محظوظٌ لوجودي على قيد الحياة.

المشكلة الجوهرية للوجود الإنساني هي أن حياتنا تُهيمن عليها هذه القيم "التافهة" للجسد والعواطف، مما يجعلنا في حالة حيرة دائمة - كمن عُصبت عيناه في بداية لعبة "باف" (لعبة رمي السهام)، ثم دار حول نفسه عشرات المرات حتى شعر بالدوار. هناك أوقات تتصارع فيها قيمنا "التافهة" وقيمنا العقلانية حتى الموت. يروي ويليام جيمس قصة رجل فقد حبه فجأة. لمدة عامين كان مفتونًا بشدة بفتاة لعوب. أخبره عقله أنها ببساطة لم تكن الشخص المناسب له، لكن عواطفه...

- ولا شك أن رغباته الجسدية - كانت مسيطرة عليه لدرجة أنه ظل عبدًا. ثم في أحد الأيام، وهو في طريقه إلى العمل، شعر وكأن "قوة خارجية تسيطر عليّ"، فهرع إلى المنزل وأحرق جميع رسائلها وصورها، وشعر وكأن "حملًا من المرض قد أُزيل فجأة عني" - وهو، بمعنى ما، قد أُزيل. من المهم أنه شعر وكأن "قوة خارجية" سيطرت عليه، في حين أن حسه السليم هو الذي تمرد. لقد أصبح يتماهى مع قيمه "التافهة" لدرجة أنه لم يستطع إدراك أن عقله هو الذي تدخل لتحريره من عبوديته. كل ما حدث هو أن عقله استعاد مكانه الصحيح كحاكم ومتحكم في عواطفه.

قال سارتر ذات مرة إنه لم يشعر قط بحرية كهذه التي شعر بها خلال الحرب عندما كان في صفوف المقاومة الفرنسية، وكان معرضًا لخطر الاعتقال الدائم. والسبب واضح. فمع تهديد الخطر الذي كان يحيط به، لم يكن بإمكانه أن يسمح لمشاعر تافهة بالسيطرة على حكمه. وينطبق الأمر نفسه على غراهام غرين عندما صوّب المسدس إلى رأسه وضغط على الزناد. في خضمّ موجة الذعر، تبددت جميع مشاعره السلبية، وتولّت "ذات" أكثر نضجًا زمام الأمور.

تُشير قصة ماسلو عن الأم الشابة إلى النقطة نفسها. فبينما كانت تشاهد زوجها وأطفالها يتناولون الإفطار، كانت منشغلة بمشاكل آنية - توصيل زوجها إلى العمل وأطفالها إلى المدرسة - وبالتالي بقيم "تافهة". ثم، في لمح البصر، تجاوز عقلها هذه التفاهات، وأدركت وضعها بموضوعية، كما لو كانت تُقيّم حياة شخص آخر ببرود. وكانت النتيجة شعورًا: "يا إلهي، أليس محظوظًا!"، وموجة من الفرح. هنا نرى أن ذروة التجربة هي ببساطة تجربة فهم العالم بوضوح وعقلانية. تكمن المشكلة الحقيقية في القيم المادية والعاطفية في قصر نظرها. وعندما نشعر بالتعب أو الاكتئاب أو الملل - أو ببساطة بالسلبية واللامبالاة - فذلك لأننا نسمح لقيمنا "التافهة" بالهيمنة على قيمنا الفكرية. في الواقع، نحن نُقلب قيمنا رأسًا على عقب.

هذا اعترافٌ بأهميةٍ بالغة. فعندما تُخيّمُ علينا فجأةً غيومٌ ثقيلةٌ من العاطفة، ونسمح لأنفسنا بأن نكون...

تم أخذهم من قبلهمكأن أقدامنا تحولت إلى بالونات مليئة بالغاز، وفجأة نطفو رأسًا على عقب. وعندما ندرك هذه الحالة، ندرك برعب أن معظم البشر يقضون حياتهم "رأسًا على عقب". وهذا ينطبق حتى على الفلاسفة، ولذلك يمتلئ تاريخ الفلسفة بالتشاؤم والحيرة.

يمكننا أن نحوّل هذه الرؤية إلى مثلٍ على طريقة كونفوشيوس، فنقول إنه عندما يكون العقل إمبراطورًا والعاطفة وزيرًا أعظم، تنعم المملكة بالانسجام والسعادة. أما عندما تستولي العاطفة على العرش وتُجبر العقل على أن يكون خادمًا لها، تغرق المملكة في الفوضى والبؤس.

تكمن المشكلة الرئيسية في "الانقلاب" في أن القيم "التافهة" قصيرة النظر، وتميل إلى إغراقنا في حالة تبدو فيها صعوبات الحياة لا تستحق العناء. تُحدث القيم "التافهة" ما يُعرف بـ"تأثير سفر الجامعة". عندما يحركني شعور قوي بالهدف، يُخبرني عقلي أن الأمر يستحق بذل جهود جبارة، فأُحشد طاقاتي الحيوية وفقًا لذلك.

— أو بالأحرى، ستان يستدعيهم لي. عندما تُسيطر القيم العاطفية، تتلاشى حيويتي — لأن أولي هو من يشعر فجأةً أن الحياة لا تستحق كل هذا الجهد، فيُصيب تشاؤمه ستان.

من المهم التأكيد على أننا لا نتحدث الآن عن حالة نادرة نسبيًا من الغضب أو الغيرة أو الشفقة على الذات. تحدث لنا هذه الحالة "المقلوبة" مئة مرة يوميًا، لدرجة أننا ننسى حرفيًا إن كنا على رؤوسنا أم أعقابنا. معظمنا يدرك المشكلة ويبذل قصارى جهده لمكافحتها. لكننا جميعًا نعرف أشخاصًا سمحوا لأنفسهم بأن يسيطر عليهم الحسد أو الشفقة على الذات أو الشعور بالهزيمة تمامًا، ويبدو أنهم مصممون على تدمير حياتهم وحياة كل من يتعاملون معهم. أصحاب "التقلبات المزاجية" الدائمة هم أخطر الناس في العالم.

ومع ذلك، فإن ميلنا إلى حالات "مقلوبة" هو نتيجة حتمية للتطور البشري. يمكن للبشر التعامل مع تعقيد أكثر من أي حيوان آخر. وللتعامل مع هذا التعقيد، طورنا رؤية "مجهرية"، أشبه بنظارة صانع الساعات. لكن النظارة تحكم علينا بـ"القرب"، والقرب (اسم آخر للغثيان) يحرمنا من المعنى. الغثيان هو نوع من "الوعي المنهار"، وعي بدون بُعد من المعنى. وبمجرد أن ندرك ذلك، يتعين علينا مواجهة البصيرة المحبطة بأن الوعي البشري "العادي" هو شكل من أشكال الغثيان. والبشر العالقون في هذا الوعي الضيق "المنهار" معرضون بشكل خاص للحالات "المقلوبة" - لأن "القرب" يجعلنا أيضًا نشعر بالإحباط بسهولة.

الآن وقد أدركنا الطبيعة الحقيقية لوعينا اليومي، ندرك أنه أبعد ما يكون عن "الطبيعي"، بل هو في الواقع دون الطبيعي. يفتقر إلى بُعدٍ كاملٍ من المعنى، كالتلفزيون عند خفض صوته.

من ناحية أخرى، نرى أيضًا أن لمحات توينبي عن الكلية س في ميسترا أو فارسالوس كانت بمثابة "وعي يومي" مضافًا إليه بُعدٌ من المعنى. بعبارة أخرى، كان توينبي يختبر ومضةً قصيرةً من وعيٍ طبيعيٍّ حقيقي.

هذا الإدراك هو الخطوة الأولى بالغة الأهمية للإجابة على السؤال: كيف يمكن للبشر أن يحققوا "الصفات X" بإرادتهم؟ يجب أن ندرك بدقة ما هو الخلل في وعينا اليومي غير الطبيعي. يجب أن ندرك أيضًا أن ميلنا إلى "الانقلاب" يُشكل عقبة رئيسية أمام تعلم بلوغ وعي طبيعي حقيقي. "الانقلاب" يُعمينا عن الواقع. الفيلسوف الذي يحاول فهم "معنى الحياة" دون استيعاب هذه الرؤية يكون كمصارع ثيران يحاول تقديم أداء جيد رغم أن قبعته تنزلق باستمرار فوق عينيه.

الخطوة الأولى نحو بلوغ الوعي الطبيعي هي فهم الآليات الدقيقة لـ"الانقلاب". عندما لمح بطل موباسان الوحمة السوداء بين كتفي الفتاة، انقلب فجأة، وكانت النتيجة عجزًا جنسيًا. قبل خمس دقائق، كان متأكدًا تمامًا من رغبته في الفتاة: الآن شعر فجأة أنه أخطأ. ولكن على الأقل، كان هذا مجرد انقلاب مؤقت. شخصية توماس مان في "خيبة الأمل" في حالة دائمة من "الانقلاب"، لأنه قرر أن الحياة خيبة أمل طويلة. لقد صدق على هذه الحالة بعقله. الأمر أشبه بأن الإمبراطور قرر أنه لم يكن له أي حق في العرش بعد كل شيء، وأن الصدر الأعظم وذريته يجب أن يكونوا أباطرة إلى الأبد. (هذا هو السبب في أن كتاباً مثل سارتر وجراهام جرين وصمويل بيكيت يشكلون خطراً كبيراً. فقد صادقوا على "الانقلاب" بالفكر، وانتقلت رؤيتهم السلبية إلى الطلاب المراهقين بكل سلطة الكلاسيكية الحديثة.)

مثال آخر على آلية "الانقلاب" نجده في سيرة آرثر كويستلر الذاتية "السهم في الأزرق". قضى كويستلر فترة ما بعد الظهيرة يلعب البوكر وخسر أكثر بكثير مما يستطيع تحمله. في حفلة ذلك المساء، ثمل، ثم اكتشف أن مبرد سيارته قد تجمد وانفجرت كتلة المحرك. عرضت عليه فتاة لم تكن تحبه ضيافة شقتها. عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وهو يعاني من صداع الكحول، مستلقيًا بجانب فتاة وجدها غير جذابة، وتذكر أنه لا يملك مالًا ولا سيارة، شعر بموجة غضب عنيفة من الحياة بشكل عام، أدت إلى قراره بالانضمام إلى الحزب الشيوعي. لم يكن هناك منطق في هذا القرار: ببساطة الرغبة التي نشعر بها جميعًا، عندما نُستثار بما يتجاوز قدرتنا على التحمل، للقيام بشيء مذهل. استغرق الأمر سبع سنوات أخرى من التجربة المريرة ليدرك أنه قد دخل في طريق مسدود فكريًا، وليتراجع عن عواقب...

"انقلاب اليوم".

الطريقة التي حدث بها هذا الانعكاس اللاحق مُفيدة بنفس القدر. في عام ١٩٣٧، كان كويستلر مراسلًا أجنبيًا في إسبانيا؛ عُرف بانتمائه للحزب الشيوعي، وزُجّ به في سجن فاشي. كانت عمليات الإعدام تُنفَّذ يوميًا، ولم يكن لدى كويستلر أدنى شك في أن دوره سيأتي قريبًا. تسببت الأزمة فيما وصفه بـ"تفكك الطبقات النفسية التي وصلت إلى أدنى مستوياتها". قضى وقته في نقش مسائل رياضية على جدار زنزانته بنوابض سرير مكسورة، وفي أحد الأيام حاول جاهدًا تذكر برهان إقليدس على عدم وجود أكبر عدد أولي - أي أن عدد الأعداد الأولية (الأعداد التي لا تقبل القسمة بدقة) لانهائي. وبينما كان ينقش البرهان على الجدار، شعر بسحر ساحر، وأدرك السبب:

... مثّلت الرموز المكتوبة على الجدار إحدى الحالات النادرة التي يُتوصل فيها إلى بيان ذي معنى ومفهوم عن اللانهائي بوسائل دقيقة ومحدودة... اجتاحني هذا المعنى كموجة. نشأت الموجة من بصيرة لفظية واضحة؛ لكنها تبخرت على الفور، ولم تترك وراءها سوى جوهر بلا كلمات، عطر الأبدية، ارتعاشة السهم في الزرقة. لا بد أنني وقفت هناك لبضع دقائق، مسحورًا، بوعي صامت بأن "هذا مثالي - مثالي"؛ حتى لاحظت بعض الانزعاج العقلي الطفيف يزعجني في الجزء الخلفي من ذهني - بعض الظروف التافهة التي شوهت كمال اللحظة. ثم تذكرت طبيعة هذا الانزعاج: كنت، بالطبع، في السجن وقد أُطلق النار عليّ. لكن هذا أُجيب على الفور بشعور ستكون ترجمته اللفظية: "وماذا في ذلك؟ هل هذا كل شيء؟ هل لديك ما هو أكثر خطورة للقلق بشأنه؟" - إجابة عفوية، طازجة، ومسلية، كما لو أن الإزعاج المُتطفل كان فقدان زرّ ياقة. ثم وجدتُ نفسي أطفو على ظهري في نهر من السلام، تحت جسور من الصمت. جاء من العدم ولم يتدفق. ثم لم يكن هناك نهر ولا أنا. لم تعد الأنا موجودة.

وكانت هذه التجربة بمثابة نقطة تحول في حياة كويستلر، وبداية رفضه للماركسية.

من المثير للاهتمام أن جوهر التجربة هو بصيرة عقلانية ومنطقية بحتة. إنه في السجن، ينتظر الإعدام - وهي تجربة كفيلة بتحويل أي شخص إلى "مُعْتَدٍ". لكن الأزمة تُثير في النفس مخزونًا عميقًا من الطاقة الحيوية. وعندما تُؤدي البصيرة الرياضية إلى إدراك مفاجئ لقوة العقل المطلقة، تكون النتيجة - كما في حالة والدة ماسلو الشابة -

إنه شعور سعيد تقريبًا بالموضوعية، وبقدرة العقل البشري على فهم العالم بوضوح وعقلانية.

مثال آخر من سيرة كويستلر الذاتية يوضح هذه النقطة بشكل أكثر فعالية. يروي كويستلر كيف كان جالسًا على مقعد في حديقة في فيينا وبجانبه كومة من الكتب؛ كان يقرأ كُتيّبًا عن الفظائع التي ارتُكبت ضد الرواد اليهود في فلسطين، فاستبد به غضبٌ لا يلين. ثم التقط كتابًا عن أينشتاين وقرأ التعليق الذي يفيد بأن النسبية قادت الخيال "عبر قمم أنهار جليدية لم يسبق لأي إنسان استكشافها". استوحى هذا التعبير صورةً لمعادلة أينشتاين النسبية وهي تحوم في ضبابٍ فوق قممٍ مغطاةٍ بالثلوج، فتلاشى شعور الغضب في "شعورٍ بالسكينة والطمأنينة اللامتناهيتين".

كان أينشتاين نفسه قد قال شيئًا مشابهًا للغاية. فقد أعلن أن هدفه الأسمى هو "إدراك هذا العالم بالفكر، متجاهلًا كل ما هو ذاتي". وكتب أيضًا أن "أحد أقوى الدوافع التي تدفع البشر إلى الفن والعلم هو الهروب من الحياة اليومية، بفظاظتها المؤلمة وكآبتها اليائسة، من قيود رغبات المرء المتغيرة باستمرار [التشديد من عندي]. فالطبيعة الرقيقة تتوق إلى الهروب من الحياة الشخصية إلى عالم الإدراك والفكر الموضوعيين؛ ويمكن مقارنة هذه الرغبة بشوق رجل المدينة الذي لا يُقاوم للهروب من محيطه الصاخب والضيق إلى صمت الجبال الشاهقة...". وهنا نرى بالضبط نفس الشعور الذي اجتاح كويستلر وهو يعمل على إثبات إقليدس على جدار زنزانته: شوق للهروب من عالم المشاعر والقلق الخانق إلى عالم التأمل الموضوعي.

ما يثير الاهتمام في تجارب توينبي هو أنه، على ما يبدو، حقق هذه الموضوعية دون أي جهد. ما السر؟ روايته لتجربته في ميسترا تُشير إلى الإجابة. فقد جلس "يتأمل ويُحدّق... طوال معظم يوم صيفي طويل"، فكان في حالة من الهدوء التأملي، نفس الهدوء الذي أعلنه وردزورث الشرط الأساسي للشعر. ورغم أنه كان يتأمل "لغز جرائم البشرية وحماقاتها القاسي"، إلا أنه لم يكن، مثل كويستلر، في حالة من الغضب الشديد. لقد كان هذا التحرر من المشاعر السلبية، وهذا التأمل الفكري الهادئ، هو ما وفر الشرط الأساسي لقفزة الخيال التي وضعته فوق التاريخ البشري. وقد مرّ نيتشه بتجربة مماثلة فوق بحيرة سيلفابلانا في سويسرا، عندما استولى عليه الإلهام لكتابة قصيدة "هكذا تكلم زرادشت". وكتب في يومياته: "ستة آلاف قدم فوق البشر والزمان..."

لقد استوفى كل من توينبي ونيتشه الشرط الأساسي: لقد كانا "على الطريق الصحيح".

*أرنولد توينبي، دراسة التاريخ، المجلد 10، ص 126-144.

*العلوم الخفية، ص 58.
*إيلين جاريت، مغامرات في ما وراء الطبيعة (1949)، ص 172، مقتبسة من ليشان، نحو نظرية عامة لما وراء الطبيعة، ص 34.
*هيلين كيلر، قصة حياتي.

4
عالم المعلومات

في أحد أيام عام ١٩٦٨، كان السيد بي جيه تشيس، من والينغتون، سري، ينتظر حافلة. ولأن الحافلة التالية لم تكن في موعدها بعد، سار مسافة قصيرة على طول الطريق. وسرعان ما وجد نفسه واقفًا أمام كوخين جميلين مسقوفين بالقش، بحدائق خلابة؛ كانت هذه الحدائق غنية بالأزهار، وقد لاحظ السيد تشيس بشكل خاص بعض زهور الخطمي. يشير تاريخ أعلى باب أحد الكوخين إلى أنه بُني عام ١٨٣٧.

في اليوم التالي، ذكر السيد تشيس أمر الأكواخ لأحد العاملين - لم يكن مكان عمله بعيدًا عن موقف الحافلات. فكّر الرجل الآخر في الأمر وهزّ رأسه. أصرّ على عدم وجود مثل هذه الأكواخ في الموقع - فقط منزلان من الطوب. في المساء التالي، عاد السيد تشيس إلى الموقع، واكتشف أن زميله في العمل كان محقًا؛ لم يكن هناك سوى منزلين من الطوب. لكن أحد سكان المنطقة القدامى أكّد وجود كوخين في الموقع؛ وقد هُدما قبل بضع سنوات.

روى السيد تشيس هذه القصة للمؤرخة جوان فورمان، ونشرتها في كتاب بعنوان "قناع الزمن". إن رد الفعل المعقول لمثل هذه الحكاية هو أنها مجرد اختراع - من النوع الذي يحدث في قصص الأشباح، ولكن ليس في الحياة الواقعية. ومع ذلك، فإن دليل "الانزلاقات الزمنية" قوي جدًا بالنسبة لذلك. مما لا شك فيه أن أشهر "انزلاق زمني" يتعلق بمديرتين في كلية أكسفورد، شارلوت موبرلي وإليانور جوردان، اللتين زارتا في 10 أغسطس 1901 حديقة تريانون في فرساي وفوجئتا برؤية الكثير من الناس يرتدون أزياء القرن الثامن عشر. شعر كلاهما باكتئاب غريب واختبرا إحساسًا "يشبه الحلم". كان ذلك عندما قارنا الملاحظات التي قررتا أن شيئًا غريبًا إلى حد ما قد حدث. بعد ثلاث سنوات عادا ووجدا أن كل شيء قد تغير: لقد تم "تحديث" المكان - ومع ذلك فإن التغييرات التي لاحظاها لم تحدث في السنوات الثلاث الماضية. أقنعتهم دراستهم المتأنية للكتب التي تتناول تلك الفترة بأنهم قد عادوا بطريقة ما إلى عصر ماري أنطوانيت - وربما رأوها شخصيًا. أثارت قصة تجربتهم الغريبة، "مغامرة"، ضجة كبيرة. ومع ذلك، عندما أصبحت السيدة جوان إيفانز الوصية الأدبية على السيدتين، قررت السماح بنفاذ الكتاب من الأسواق بحجة أن ما شاهدوه كان على الأرجح حفلًا تنكريًا نظمته سيدة أنيقة تُدعى مدام دي.

غريفوله، صديقة الروائي بروست. في الواقع، أظهرت تحقيقات لاحقة أن حفل التنكر أقيم قبل سبع سنوات من زيارة تريانون، وأن السيدة دي غريفوله غادرت فرساي إلى الريف خلال شهر أغسطس. لذا، لا يزال أشهر "زلة زمنية" على الإطلاق دون تفسير.

لقد مررت بنفسي بتجربة مماثلة من السيدة جين أونيل، وهي معلمة في كامبريدج.* عندما زارت هي وصديقتها كنيسة فوثرينغهاي

— حيث تم إعدام ماري ملكة اسكتلندا — في خريف عام 1973 تم إعدامها
أُعجبت جين أونيل بشدة بصورة صلب المسيح خلف المذبح. لاحقًا، عندما طُرح الموضوع في نقاش، أنكرت صديقتها رؤيتها للصورة. اتصلت جين أونيل بمديرة مكتب بريد فوثرينغهاي، التي كانت تُرتب الزهور في الكنيسة كل أحد، فأُبلغت بعدم وجود مثل هذه الصورة. عندما زارت المرأتان الكنيسة مجددًا بعد عام، وجدت جين أونيل داخلها مختلفًا تمامًا. كشفت بعض الأبحاث التاريخية أن الكنيسة التي رأتها عام ١٩٧٣ هي نفسها التي هُدمت عام ١٥٥٣.

لم يكن "انزلاق الزمن" لجين أونيل سوى واحدة من سلسلة تجارب مماثلة أعقبت صدمة شديدة في وقت سابق من ذلك الخريف: فقد كانت أول من وصل إلى موقع حادث طريق سريع مروع بالقرب من مطار هيثرو وساعدت في انتشال الركاب المصابين من الحطام. وفي طريق عودتها إلى المنزل في وقت لاحق من تلك الليلة، بدأت "ترى" ركابًا مصابين أمامها - وهي ظاهرة تُعرف باسم "الصور التصويرية". وفي إجازة في نورفولك بعد ذلك بوقت قصير، استمرت في "رؤية" الأشياء - ولكن هذه المرة، على ما يبدو، كانت رؤى من الماضي، وفي كل حالة شعرت بالإرهاق بعد ذلك. لذا فإن "رؤيتها" في كنيسة فوثرينغهاي كانت على الأرجح قطعة من الصور التصويرية التي أخطأت في اعتبارها واقعًا حاليًا. والغريب هو أن رؤيتها تتوافق بشكل وثيق مع الكنيسة كما كانت قبل هدمها.

في حالة جين أونيل، يمكننا على الأقل تكوين فكرة تقريبية عما حدث. الصدمة النفسية القوية تُضعف قوانا النفسية وتُخرجنا من أنماطنا المعتادة. إنها تجعلنا أكثر ضعفًا، لكنها في الوقت نفسه أكثر حيوية - أكثر حساسية للواقع المحيط بنا، بدلًا من اعتباره أمرًا مسلمًا به. في هذه الحالة من "الانفتاح التام"، يصبح المرء أشبه بكاميرا شديدة الحساسية تلتقط صورًا في شبه ظلام، تتفوق على أي كاميرا عادية. لذا، فإن تجربة جين أونيل في الكنيسة لا تختلف كثيرًا عن تجربة توينبي قبل فارسالوس - مع هذا الفارق الوحيد: لقد أخطأت في فهم "رؤيتها" على أنها واقع. ويبدو أن التفسير نفسه ينطبق على كوخَي السيد تشيس المسقوفَين بالقش وتجربة السيدتين في فرساي.

لكن إذا أردنا أن نقبل هذا التفسير، فعلينا أن نفترض افتراضًا أساسيًا واحدًا: أن "المعلومات" المتعلقة بالماضي تُخزَّن بطريقة ما تمامًا مثل التسجيل الصوتي، وأن عقولنا لديها طريقة طبيعية لاسترجاع هذه المعلومات. في أغلب الأحيان، يبدو أن هذا يحدث بالصدفة.

عندما يكون العقل "مُنفتحًا" وفي حالة استرخاء. ثم هناك التجربة التي يصفها توينبي بالوقوع في "جيب زمني"، والتي تُسميها إيلين غاريت "تحولًا جذريًا في وعي المرء". يسترخي العقل فجأةً إلى ما دون مستوى استرخاءه المعتاد ويسقط "في جحر الأرنب". ما يبدو أنه يواجهه حينها هو مستوى واقعي أكثر رسوخًا وديمومة من عالمنا المُتغير. هناك شعور بالخلود، كما لو أن ما "نُلمحه" يحدث الآن. في أحد كتبه الأخيرة، يتحدث ج. ب. بريستلي عن تجاربه الشخصية مع هذه "اللمحات":

... في هذه المناسبات، كنتُ أتذكر شخصًا أو مشهدًا بأقصى قدر ممكن من الوضوح والحدة، ثم كان هناك، إن صح التعبير، نقرة صغيرة، أو تغيير طفيف في التركيز، وللحظة وجيزة شعرتُ وكأن الشخص أو المشهد لم يعد يُذكر، بل كان موجودًا بالفعل، وكأن أحدًا، لا شيء، قد رحل. لا أستطيع أن أجعل هذا يحدث؛ إما أن يحدث أو لا يحدث... *

من الواضح أن هذه هي تجربة توينبي لواقع التاريخ، يا أيها الأستاذ س، ومرة أخرى، هناك "النقرة الصغيرة، تغيير طفيف في التركيز"، نوع من تحول الوعي كما لو كان المرء يغوص في أعماق نفسه. ويتبع ذلك شعورٌ بالتواصل مع واقع أكثر ديمومة. أحيانًا، يكون ما يُلمح منطقيًا وعقلانيًا، كمعركة فارسالوس أو داخل كنيسة فوثرينغهاي. وأحيانًا أخرى، لا معنى له على الإطلاق.

يوثّق عالم الأحياء إيفان ساندرسون هذه التجربة في الفصل الأخير من كتاب "المزيد من الأشياء"، وهو كتاب يُعنى بشكل رئيسي بالغرائب الحيوانية: عنوان الفصل "هلوسة؟". بعد أن صرّح بأنه لم يكن مهتمًا يومًا بعلم الغيب، روى كيف كان يعيش هو وزوجته في هايتي، منشغلين بمسح بيولوجي. في أحد الأيام، أثناء رحلة بالسيارة إلى بحيرة أزوي، ارتكبا خطأً بسلك طريق مختصر، مما أدى إلى غرقهما في الوحل حتى محاور عجلاتهما، واضطرا لقضاء معظم الليل في العودة سيرًا على الأقدام. كان ساندرسون وزوجته يسيران معًا، وكان مساعدهما فريدريك ج. ألسوب يسير أمامهما، عندما:

فجأة، رفعتُ بصري عن الأرض المُغبرة، ورأيتُ بوضوحٍ تامٍّ في ضوء القمر الساطع، مُلقيًا ظلالًا مُناسبة لمواقعها، منازل من ثلاثة طوابق بأشكال وأحجام مُختلفة مُصطفة على جانبي الطريق. كانت هذه المنازل مُطلة على الطريق، الذي بدا فجأةً مُوحِلًا ببقع من أحجار الرصف الكبيرة. كانت المنازل من (أُريد أن أقول)

عن العصر الإليزابيثي في إنجلترا، ولكن لسببٍ ما، عرفتُ أنهم في باريس! كانت أسقفهم مُنحنية، مع بعض النوافذ السقفية، وجملونات، وأروقة خشبية، ونوافذ صغيرة بألواح زجاجية صغيرة مُرصَّصة. هنا وهناك، كانت أضواء حمراء باهتة تُضيء خلفها، كما لو كانت من شموع. كانت هناك فوانيس ذات إطارات حديدية مُعلقة من أخشاب بارزة من بعض المنازل، وكانت جميعها تتأرجح معًا كما لو كانت في مهب الريح، ولكن لم تكن هناك أدنى حركة للهواء حولنا...

كنتُ مندهشًا من هذا، وأنظر حولي، عندما توقفت زوجتي تمامًا وشهقت. اصطدمتُ بها. ثم صمتت للحظة، بينما كنتُ أتوسل لمعرفة ما الخطب. أخيرًا أمسكت بيدي، وأشارت إليّ، ووصفت لي بالضبط ما أراه. عندها، صمتُ.

أخيرًا، استجمعتُ قواي، وقلتُ شيئًا مثل: "ما رأيكَ في ما حدث؟"، لكن ردّ زوجتي أذهلني أكثر. أتذكره جيدًا؛ قالت: "كيف وصلنا إلى باريس قبل خمسمائة عام؟"

وقفنا مندهشين مما رأيناه، ننتقي الأشياء ونشير إليها، ونسأل بعضنا بعضًا عن التفاصيل، وهكذا. ومن الغريب أننا وجدنا أنفسنا نتأرجح ذهابًا وإيابًا، وبدأنا نشعر بضعف شديد، فناديتُ فريد، الذي كان قميصه الأبيض يتلاشى بسرعة.

لا أتذكر تمامًا ما حدث حينها، لكننا حاولنا الركض نحوه، وشعرنا بالدوار، فجلسنا على ما كنا نعتقد أنه حجر رصيف طويل خشن. عاد فريد راكضًا يسألنا ما الخطب، لكننا في البداية لم نعرف ماذا نقول. كان "حارس" السجائر، التي بقي لدينا منها حوالي ست سيجارة، فجلس بجانبنا وأعطانا كل واحدة. عندما اختفت لهب ولاعته من عيني، اختفت معها باريس القرن الخامس عشر، ولم يكن أمامي سوى شجيرات الأشواك الملعونة التي لا نهاية لها والصبار والأرض الجرداء. عادت زوجتي أيضًا بعد أن نظرت إلى اللهب. لم يرَ فريد شيئًا...

علق أحد السكان المحليين الشباب لاحقًا على ساندرسون قائلًا: "لقد رأيتَ أشياءً، أليس كذلك؟ أنت لا تُصدّق ذلك، ولكنك تستطيع دائمًا رؤية الأشياء إن أردت". من المُفترض أنه كان يقصد أن ساندرسون "متنبئ". قد يُساعد هذا بالتأكيد في تفسير رؤية المنازل القديمة. ربما لعب وضعهم أيضًا دورًا في ذلك: كانوا مُتعبين، يسيرون ببطء على طول الطريق تحت ضوء القمر الساطع، يشعرون ببعض التوتر، لذا كانت حواسهم "متيقظة تمامًا". ربما رأت زوجة ساندرسون المنازل القديمة من خلال "التناغم" مع زوجها - فالأزواج والزوجات غالبًا ما يكونون مُتخاطرين. لكن كل هذا لا يزال يُخفي لغز ما كانت تفعله منازل القرن الخامس عشر في هايتي في القرن العشرين. صحيح أن هايتي كانت مُحتلة من قِبل الفرنسيين، ولكن هذا كان بعد قرنين من الزمان. هل من المُمكن أن تكون هناك منازل قديمة ذات يوم؟

منازل "إليزابيثية" على ذلك الطريق الريفي القاحل؟ يبدو هذا، في المجمل، التفسير الأكثر ترجيحًا. ومع ذلك، يبدو من غير المرجح أن تكون قد اختفت دون أن تترك أي أثر. وإذا كان لا بد من التخلي عن هذا التفسير، فإن رؤية باريس القرن الخامس عشر في هايتي القرن العشرين ستظل غامضة.

في كتابها "قناع الزمن"، تُقدم جوان فورمان محاولةً مُجديةً لتفسير "الانزلاقات الزمنية" علميًا. وتقترح أن الأحداث "تُسجل بواسطة وسيط مادي (يبدو أن الحجر مُسجل شائع)... في وقتٍ كانت فيه أنماط الطاقة تتكوّن في الجوار". وتعتقد أن السبب قد يكون "موجات شومان"، وهي طاقة فوق بنفسجية ذات طول موجي قصير جدًا، موجودة بين الأرض والغلاف الأيوني، وتعمل على نفس تردد "موجات أدمغتنا".

قُدِّم تفسيرٌ مماثلٌ للبيوت المسكونة في مطلع القرن العشرين من قِبَل السير أوليفر لودج، الذي اقترح أن المشاعر المأساوية القوية، كتلك المرتبطة بجرائم القتل أو الانتحار، قد تكون "مُسجَّلة" في جدران المنازل التي وقعت فيها مثل هذه الأحداث. بعد نصف قرن، توصَّل أستاذٌ متقاعدٌ من كامبريدج يُدعى تي سي ليثبريدج، بشكلٍ مستقل، إلى نفس النتيجة. كثيرًا ما كان ليثبريدج يُعاني من "أحاسيس مزعجة" في أماكن مُعينة، كما لو أن شيئًا "مُريبًا" قد حدث هناك وترك وراءه آثارًا. أطلق ليثبريدج على هذه الأحاسيس اسم "الغول"، واعتقد أنها في الأساس "تسجيلات". في إحدى الحالات، كان هو وزوجته مينا يزوران شاطئ لادرام لجمع الأعشاب البحرية، وشعرا كلاهما "بشعور مزعج" بالقرب من جدولٍ ينحدر من الجرف: عندما ذهبت مينا لرسم رسمٍ على قمة الجرف، شعرت أن أحدهم يحثها على القفز. اكتشف ليثبريدج لاحقًا أن رجلاً انتحر من ذلك المكان، وافترض أن مينا كانت تلتقط بطريقة ما تسجيلًا لمشاعره قبل قفزه مباشرةً. في مناسبة أخرى، كان ليثبريدج ووالدته يمشيان في الغابة الكبيرة قرب ووكينغهام عندما عانيا من اكتئاب حاد؛ واكتشفا لاحقًا أنهما كانا يمشيان بالقرب من جثة رجل انتحر.

لاحظ ليثبريدج أن موقع حدوث مثل هذه الظاهرة يكون عادةً رطبًا، وخلص إلى أن "وسيلة التسجيل" قد تكون ببساطة المجال الكهربائي للماء. واقترح أن الأشباح ليست سوى "تسجيلات صوتية" تُصبح فجأةً، لسببٍ ما، مرئيةً للبشر.

يبدو أن هذا التفسير يُفضّله جوان فورمان. زار أحد مراسليها المعرض الطويل في هامبتون كورت وشعر بـ"عذاب شديد" عند الباب المؤدي إلى غرفة الانتظار في المقعد الملكي، ثم في المقعد نفسه. أُلقي القبض على كاثرين هوارد، زوجة هنري الثامن، في هامبتون كورت عام ١٥٤١ ووُجهت إليها تهمة سوء السلوك: فقد هربت من الحراس واندفعت صارخة عبر المعرض محاولةً رؤية...

الملك، الذي كان في مقعده بالكنيسة؛ لكن الباب كان مغلقًا. تُشير جوان فورمان، التي شعرت بنفسها بـ"بؤس شديد وبرودة جسدية شديدة" في المعرض، إلى أن التسجيلين هما، على التوالي، تسجيلا كاثرين هوارد وهنري الثامن، الذي سمع صراخها. لكن كاثرين أُعدمت في العام التالي، وعاش هنري الثامن ست سنوات أخرى. لذا، يبدو من غير المرجح أن "أشباحهم" تطارد المكان. ووفقًا لجوان فورمان، فإن كل ما تبقى من الحدث هو شدة مأساوية مفاجئة من المشاعر: "تسجيل صوتي" دائم يمكن "التقاطه" من قِبل أولئك الذين يتمتعون بالحساسية الكافية.

كان أول من صادف مفهوم "التسجيلات" هذا هو الأستاذ الأمريكي جوزيف رودس بوكانان، الذي سبق تعريفه في الفصل الافتتاحي. عندما بدأ بوكانان تجاربه مع طلابه، مُسلّمًا إياهم مواد كيميائية مُختلفة مُغلّفة في عبوات ورقية بنية، طالبًا منهم محاولة "الشعور" بما بداخلها، كان يعتقد أن أجسامنا مُحاطة بـ"هالة عصبية" تُشبه حساسية ألسنتنا تمامًا. لذا، كان طلابه يُميّزون المواد الكيميائية كما يُميّزون طعم الملح أو السكر في أفواههم. وعندما تمكّن بعض "ذوي الحساسيات" لديه من حمل رسائل مُختومة ووصف كاتبيها، وسّع بوكانان نظريته ببساطة، مُستنتجًا أن شخصية الكاتب قد "انطبعت" بطريقة ما على الرسالة. كانت ذوو الحساسيات لديه في الواقع كلابًا بوليسية ذات قدرات نفسية، قادرة على التمييز بين "رائحة" وأخرى. إلا أن هذه النظرية البسيطة والمنطقية سرعان ما واجهت صعوبات. كان الحساسون قادرين على إنتاج أوصاف دقيقة بنفس القدر إذا سلمهم صورة فوتوغرافية مغلقة في ظرف (كان التصوير الفوتوغرافي اكتشافًا حديثًا في أربعينيات القرن التاسع عشر). في البداية، بدا ذلك معقولًا بما فيه الكفاية - فمعظم الصور الفوتوغرافية كانت على اتصال بموضوعاتها، ولا بد أنها التقطت شيئًا من "روائحها". ثم اكتشف بوكانان أن الأمر ينطبق أيضًا على صور الصحف. وكان ذلك سخيفًا. كان لا بد من التخلي عن نظرية "هالة الأعصاب" - أو على الأقل تعديلها. اضطر بوكانان إلى الاعتماد على مفهوم "الاستبصار"، وهذا بلا شك ساهم في تدمير سمعته بين زملائه العلميين. وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر، لم يكن الكثيرون قد أخذوه على محمل الجد.

لكن بحلول ذلك الوقت، كان تلميذه ويليام دينتون، أستاذ الجيولوجيا في بوسطن، يُنتج نتائج أكثر لفتًا للانتباه باستخدام عينات جيولوجية ملفوفة بورق سميك. كان من أهمّ مُهتميه زوجته، وشقيقة زوجته السيدة كريدج، ولاحقًا ابنه شيرمان. لا يزال كتاب دينتون "روح الأشياء" من أكثر الكتب إثارةً للاهتمام في مجال أبحاث الخوارق. لقد توصل إلى قناعة مفادها أن كل شيء في العالم يحمل تاريخه الخاص المُخبأ بداخله، وأن معظم الناس قادرون على تطوير...

القدرة على "قراءة" هذا التاريخ بمجرد إمساكه بأيديهم. أنتجت قطعة من صخرة بركانية رؤى لبركان متفجر مع نهر من الحمم البركانية يتدفق في المحيط. حتى أن السيدة كريدج "رأت" سفنًا في المحيط. في الواقع كانت الحمم البركانية من ثوران بركان كيلاويا في هاواي عام 1840، عندما كان أسطول الولايات المتحدة يزور الجزيرة. جلب نيزك رؤى للفضاء الفارغ، حيث بدت النجوم كبيرة ومشرقة بشكل غير طبيعي. استدعت قطعة من عظم ديناصور رؤية لديناصورات مائية على شاطئ ما قبل التاريخ. وعندما جرب دينتون نفس القطعة على السيدة كريدج بعد شهر (دون أن يخبرها بما كان في الطرد)، رأت أيضًا الماء ومخلوقات تشبه الطيور بأجنحة غشائية - ربما كانت زاحفة مجنحة. أنتجت قطعة من سن ماستودون صورة لمخلوق وحشي بأرجل ثقيلة ورأس غير عملي وجسم كبير جدًا. أعطتها حصاة من نهر جليدي شعورًا بالدفن طويلًا في عمق الجليد. وأعطتها حصاة من نياجرا انطباعًا بصوت سيل جارف وحفرة عميقة مليئة بما يشبه البخار (ظنت أنه قد يكون ينبوعًا ساخنًا). وأعطتها قطعة من حجر القرن من جبل الزيتون صورة دقيقة للغاية لدرجة أن زوجة دينتون استنتجت أنها تنظر إلى القدس.

كانت نظرية دينتون مذهلة بما فيه الكفاية، ومع ذلك، منطقية تمامًا من ناحية أخرى. فكل جسم يحمل تاريخه مطبوعًا فيه. بدايةً، يجب أن يُدمر الضوء الساقط على سطح حجر بعض جزيئاته الخارجية، مُنتجًا صورةً ضبابية. (استندت رواية الخيال العلمي "قبل الفجر" لإي تي بيل إلى فكرة وجود آلة قادرة على فك رموز هذه الصور، وبالتالي قراءة تاريخ الصخور القديمة). إذا كان من الممكن "نقش" المشاعر الإنسانية القوية على المناظر الطبيعية، فمن المفترض أن أنواعًا أخرى من الطاقة قادرة على ذلك أيضًا. كان دينتون يُشير ببساطة إلى أن العقل البشري يمتلك قدراته الخاصة على "فك شيفرة" هذه التسجيلات القديمة.

مع ذلك، عندما كتب تومسون جاي هدسون كتاب "قانون الظواهر النفسية" في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، رفض ادعاء دينتون بأننا جميعًا نمتلك "منظارًا طبيعيًا للماضي". فقد رأى أن نتائج دينتون يمكن تفسيرها جميعًا بالقدرات الخارقة للعقل الذاتي. وكمثال على ذلك، استشهد بقطعة من بلاط الفسيفساء الروماني، التي كان دينتون يعلم أنها من فيلا الخطيب شيشرون. وصفت زوجة دينتون فيلا رومانية، وفرقة من الجنود الرومان، ورجلًا ممتلئ الجسم يرتدي ثوبًا عسكريًا ذا حضور مهيب. وللحماية من أي غش - حتى الغش اللاواعي

— خضع دينتون لعملية تعمية مزدوجة معقدة قبل تسليم القطعة الرومانية. لفّها أولًا بورق بني، ثم خلطها مع عينات أخرى عديدة في أغلفة متطابقة، حتى لم يكن لديه أدنى فكرة عن أي منها. كان ذلك تحسبًا لإعطائه زوجته تلميحًا لا شعوريًا، أو حتى نقل معلومات إليها عن طريق التخاطر. (كلمة التخاطر كانت...

(اخترعها فريدريك مايرز في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولكن فكرة "نقل الفكر" كانت مألوفة قبل ذلك بوقت طويل.)

بدا ذلك مقنعًا بما فيه الكفاية، لكن هدسون لم يُعجبه. أشار إلى أن ذاكرة العقل الذاتي تبدو بلا حدود تقريبًا. لذا، ستعرف بدقة ما تحتويه كل طرد حتى لو خلطها دينتون بعينيه المغمضتين. ستوفر معرفة دينتون التاريخية "صورًا" من الماضي، ولن تجد زوجته صعوبة في التقاطها منه عن طريق التخاطر.. وبهذا بددت فكرة دينتون بأن كل حدث "مُسجل" في محيطه.

كما اتضح، لم يكن هدسون ليختار مثالاً أسوأ. كان دينتون نفسه في حيرة من أمره لأن زوجته لم ترَ شيشرون: الرجل الذي رأته كان ممتلئ الجسم، بينما كان شيشرون طويل القامة ونحيفًا. وعندما أعاد دينتون نشر الكتاب بعد خمسة عشر عامًا، في عام ١٨٨٨، كشف عن اكتشافٍ توصل إليه في تلك الأثناء. كانت فيلا شيشرون مملوكةً سابقًا للديكتاتور سولا، وكان سولا مطابقًا تمامًا لصورة السيدة دينتون لرجلٍ عريضٍ ممتلئ الجسم، ذو مظهرٍ مهيبٍ ومنعزل، ومع ذلك كان وجهه يكشف أيضًا عن "قدرٍ كبيرٍ من الود". قد يعترض هدسون، بالطبع، قائلاً إن دينتون كان يعلم بالفعل أن سولا كان يمتلك الفيلا قبل شيشرون، ولكنه نسي الأمر ببساطة. ولكن إذا قبلنا كلام دنتون بأنه علم بذلك للمرة الأولى بعد طبعة عام 1873 من كتاب "روح الأشياء"، فإن اعتراضات هدسون تنهار وتظل نظرية "التسجيل" ثابتة.

منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، تجاهل العلم علم القياس النفسي - كما أطلق عليه بوكانان اسم "نظرية التسجيل". حتى أن "الباحثين النفسيين" يبدو أنهم يجدونه محرجًا ويفضلون عدم ذكره. ومع ذلك، فهو ربما يكون الأكثر توثيقًا بين جميع "القدرات النفسية"، وهناك مئات الأمثلة المثيرة للإعجاب في تاريخ البحث النفسي. في عام 1921، اكتشف روائي فرنسي متشكك يُدعى باسكال فورتوني - لدهشته وإحراجه - أنه كان عالم قياس نفسي ممتازًا. كان حاضرًا في معهد ما وراء النفس في باريس عندما كان الدكتور غوستاف جيلي، وهو باحث فرنسي رائد، على وشك اختبار عراف. طلب أحدهم تمرير رسالة عبر الغرفة إلى العراف: أمسك فورتوني بها في الطريق، وصفق بها على جبهته، وبدأ ارتجالًا ساخرًا: "أرى جريمة ... جريمة قتل ...". عندما انتهى، أُخبر أن الرسالة من القاتل الفرنسي ذي اللحية الزرقاء لاندرو. كان فورتوني دقيقًا بنفس القدر في وصفه لعنصرين آخرين، مروحة وعصا ضابط، واصفًا تاريخهما بتفاصيل مذهلة. خضع لاحقًا لسلسلة من الاختبارات العلمية أجراها مساعد جيلي، الدكتور يوجين أوستي، الذي لا يدع كتابه عن هذا الموضوع مجالًا للشك في صحة قدرات فورتوني الخارقة.

يبدو أن فورتوني يثبت أن الأشياء يمكنها "تسجيل" التاريخ العاطفي

أصحابها - الأمراض والمآسي الشخصية، وما إلى ذلك. ولكن ماذا عن اعتقاد دينتون بأن كل شيء يُسجل تاريخ حياته الخاص، بما في ذلك الصخور والنيازك؟ يبدو هذا اعتقادًا لا يمكن الدفاع عنه علميًا، إلا أن سلسلة أخرى من الاختبارات التي أُجريت قبل بضع سنوات تُشير إلى أن دينتون ربما كان مُحقًا في النهاية.

قبل الحرب العالمية الأولى بقليل، كان الدكتور غوستاف باجنشيتشر، وهو طبيب ألماني استقر في مدينة مكسيكو، يعالج مريضة تعاني من الأرق تُدعى ماريا رييس دي زيرولد. كانت الأدوية عديمة الفائدة ولكن يبدو أن التنويم المغناطيسي فعال. وفي أحد الأيام، وهي تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أخبرته أن ابنتها تستمع من خارج الباب. فتح الباب ووجد أن هذا صحيح. بالطبع قد يكون التفسير ببساطة أن حواس ماريا كانت حادة بشكل استثنائي تحت تأثير التنويم المغناطيسي. لكن باجنشيتشر لاحظ أيضًا تلك الظاهرة المحيرة التي لاحظها لأول مرة ألفريد راسل والاس في القرن التاسع عشر، وهي "مجتمع الإحساس". استطاعت ماريا أن ترى وتسمع وتتذوق من خلال حواس باجنشيتشر. استطاعت رؤيته ووصف ما كان يفعله حتى عندما كان خلفها أو في الغرفة المجاورة. اكتشف أيضًا أن لديها قدرات رائعة في القياس النفسي: فقد أنتج نيزك وصفًا مفصلاً للسقوط في الفضاء؛ وقادتها صدفة بحرية إلى وصف مشهد تحت الماء. كان أحد أكثر عروضها إقناعًا يتعلق بحبة فاصولياء بحرية التقطها الدكتور والتر فرانكلين برينس من الشاطئ، الذي أُرسل للتحقيق من قِبل الجمعية الأمريكية للأبحاث النفسية. وصفت ماريا غابة استوائية بالقرب منها نهر. اقتنع برينس بخطئها، لكن باجنشتشر قال إنه يُفضّل تصديق ماريا. عندما أخذوا حبة الفاصولياء البحرية إلى خبير، علموا أنها في الواقع ثمرة جوز من شجرة تنمو في الغابات الاستوائية، وأن نهرًا حملها إلى الشاطئ...

تُقدّم لنا ماريا دي زيرولد لمحةً شيّقةً عن أسلوبها. فبينما كانت تُمسك بالشيء، كانت تُعرّف نفسها به، تمامًا كما عرّفت سابقًا بباغنشتيشر: إذا كان مُرطّبًا بالكحول، كانت تتذوقه؛ وإذا وُضع عود ثقاب مُشعَل تحته، كانت تشعر بحرقة. وبمجرد أن "تلمسه"، أصبحت تُدرك تاريخ حياته.

لهذا الأمر دلالاتٌ مثيرة. فقد قال برغسون إن لدينا طريقتين لمعرفة الأشياء: التحليل، أي إدراكها من الخارج، والحدس، أي الدخول فيها. ويبدو هذا القول الأخير غير منطقي، إذ لا يمكننا حقًا "الدخول" في شيء. ومع ذلك، إذا قُبلت شهادة ماريا، فهذا غير صحيح. فعندما "شاركت" باجنشتشر وعيه، شعرت أنها متصلة به بنوع من "الحبل المضيء" ذي الخاصية "الكهربائية". وعندما "دخلت" في شيء، أصبح متصلًا بها بنفس النوع من الحبل. وإذا أُخذت أوصاف ماريا دي زيرولد على محمل الجد، فسيبدو أن برغسون كان مصيبًا، ويمكننا "الدخول" في الأشياء.

ولكن ماذا عن قراءة تاريخ حياة الشيء؟ يبدو هذا أيضًا

عبثية، لأن الشيء ليس حيًا. قد يكمن تفسير محتمل في اقتراح ألفريد نورث وايتهيد، الفيلسوف المعاصر لبرغسون. فقد جادل بأن كل شيء في الكون، بمعنى ما، حيّ وقادر على "الشعور". ينبغي اعتبار الكون كائنًا حيًا واحدًا. (تُعرف فلسفة وايتهيد بفلسفة الكائن الحي). أصر كلٌّ من وايتهيد وبرغسون على أن الحقيقة الكامنة وراء الكون هي شبكة أساسية من الروابط. ولكن من أجل البقاء، يتعين على البشر التركيز على شيء واحد في كل مرة، ولذلك تعلمنا "حجب" الروابط. علاوة على ذلك، يعتمد بقاءنا على إحساسنا بالفردية - الشعور بأننا منفصلون تمامًا عن بقية الكون - وهكذا، مرة أخرى، تعلم الإنسان "حجب" الشعور بالوحدة مع الطبيعة وأن يُصبح واعيًا تمامًا بذاته في عزلة. يدعم كلٌّ من التصوف وأبحاث ما وراء الطبيعة بقوة وجهة نظر برغسون ووايتهيد القائلة بأن هذه العزلة مجرد وهم.

كل هذا مدعومٌ بالتأكيد بما نعرفه عن نصفي الدماغ الأيمن والأيسر. إدراك النصف الأيسر ضيقٌ ومركّزٌ في جوهره، كجدولٍ سريع الجريان. أما إدراك النصف الأيمن فهو واسعٌ ومسترخي، كنهرٍ عريضٍ بطيء. ويمكن تشبيه إدراك النصف الأيسر أيضًا بمصابيح السيارة الأمامية، التي تخترق الظلام وتُمكّنك من القيادة بسرعة تسعين ميلًا في الساعة؛ ومع ذلك، عند القيادة بهذه السرعة، لا تدرك سوى الأشياء التي تُضيئها المصابيح الأمامية. إذا أردتَ أن تُدرك المشهد من حولك، فمن الأفضل أن تُطفئ المصابيح الأمامية، وتفتح النافذة، وتُبطئ سرعتك إلى سرعة المشي: ثم، مع تكيف عينيك مع الظلام، ستُدرك الأسوار والأشجار. بلغ بيرجسون هذه الحالة أثناء تجواله في ريف أوفيرن، وكل ما تعلمناه عن الوسطاء الروحانيين والمتصوفين يُشير إلى أنهم يستخدمون نفس التقنية، "يبطئون" حتى تتكيف أعينهم مع الظلام.

لكن إذا كان الاسترخاء يُفضي إلى "وعي نفسي"، فلماذا لا نكون جميعًا نفسانيين؟ لقد برزت الإجابة في الفصل السابق. عندما جلس توينبي على قمة فرسالوس أو ميسترا، كان في حالة استرخاء تام. ثم مضى خطوة أبعد فسقط في "جيب الوقت" أو في "جحر الأرنب" الخاص بأليس. عندما يحدث هذا، فكأن سائق السيارة - بالعودة إلى التشبيه السابق - قد قرر التوقف وإطفاء المحرك. والآن، في صمت تام، يسمع صوت الريح في الأشجار، وخرير الماء في الخندق، وصياح طيور الليل. مرّ الشاعر ريلكه بمثل هذه الحالة ذات مرة وهو يتكئ على شوكة شجرة في حديقة قلعة دوينو. وقد وصف التجربة لاحقًا (بضمير الغائب):

... في هذا الوضع، شعر على الفور بدعمٍ مُريحٍ وراحةٍ وافرة، لدرجة أنه بقي على حاله، دون قراءة، مُنغمسًا تمامًا في الطبيعة، في تأملٍ يكاد يكون لا شعوريًا. شيئًا فشيئًا، استيقظ انتباهه على شعورٍ لم يعرفه قط: كان الأمر كما لو أن اهتزازاتٍ تكاد تكون غير محسوسةٍ تنتقل إليه من داخل الشجرة... بدا له أنه لم يمتلئ قط بحركاتٍ ألطف، وأن جسده يُعامل بطريقةٍ ما كروح، ووُضع في حالةٍ تسمح له بتلقي درجةٍ من التأثير، والتي، بالنظر إلى المظهر الطبيعي للحالة الجسدية، لا يمكن الشعور بها على الإطلاق... ومع ذلك، ولأنه كان دائمًا مهتمًا بتفسير أدق الانطباعات لنفسه، فقد سأل نفسه بإصرارٍ عما كان يحدث له حينها، ووجد على الفور تقريبًا تعبيرًا يُرضيه، قائلاً لنفسه إنه قد وصل إلى الجانب الآخر من الطبيعة.

يواصل ريلكه وصف حالة انفصاله الغريبة، موضحًا أن "جميع الأشياء استسلمت له على نحوٍ أبعد، وفي الوقت نفسه، بطريقةٍ ما أكثر صدقًا". لقد ترك وراءه بطريقةٍ ما "القرب" الذي يحرمنا من المعنى. وعندما شعر، في مناسبةٍ أخرى، بسلامٍ عميق وهو جالسٌ يقرأ في غرفة البلياردو في الصباح الباكر، وصف شعورًا بـ"الفضاء الداخلي"، "مساحةٌ هادئةٌ كداخل وردة".

يبدو أن ما يحدث في لحظات "الصمت الداخلي" هذه هو تباطؤ الزمن. يُسجل معظم المتصوفين هذه التجربة الغريبة - الشعور بتوقف الزمن، أو أن ساعات من التجارب قد حُشرت في جزء من الثانية. ما يحدث في الواقع، على الأرجح، هو أن عملية الأيض الداخلية لدينا تتباطأ لاستيعاب بعض الأفكار المهمة، والنتيجة هي "إطالة الزمن". في كتابه الصغير المُثير "مطاردة البندول الجامح"، اقترح إسحاق بنتوف أن هذه القدرة على "إيقاف الزمن" في متناول الشخص العادي، وعرض تجربة لاختبار ذلك. الجهاز الوحيد المطلوب هو ساعة أو ساعة يد بعقرب ثوانٍ. الخطوة الأولى هي الجلوس على طاولة مع توجيه الساعة لأعلى والانغماس في حالة من الاسترخاء. الخطوة التالية هي إغماض العينين والانسحاب من العالم الخارجي، والانغماس في نوع من أحلام اليقظة لأي نشاط مفضل - مثل الاستلقاء على الشاطئ. ولكن من المهم محاولة تخيل هذا النشاط بوضوح قدر الإمكان.

حاول أن تشعر بدفء الشمس وتسمع صوت الأمواج. ثم افتح عينيك ودع نظرك يقع على الساعة بعفوية، كما لو كنت مراقبًا غير مهتم بالأمر برمته. إذا اتبعت التعليمات بشكل صحيح، فقد ترى عقرب الثواني عالقًا في بعض الأماكن، أبطئ وحلق قليلًا. إذا نجحت في ذلك، ستتمكن من إيقاف عقرب الثواني.

"يد لفترة طويلة."

لاحظتُ مؤخرًا حدوث هذه الظاهرة تلقائيًا. قبل فترة وجيزة، رُكبت بطارية جديدة في ساعة معصمي، وبعد بضعة أيام، أصبحت تتوقف عن العمل بشكل مزعج حتى أزيل الغطاء الخلفي وأعد ضبط البطارية. في مناسبات عديدة، كنتُ أنظر إلى الساعة وأفكر: "يا إلهي، لقد توقفت مجددًا!"، ثم أدركتُ أن عقرب الثواني كان يتحرك بالفعل. يتحرك عقرب الثواني في ساعتي بحركات خاطفة، ثانيةً تلو الأخرى، لذا من الواضح أنني كنتُ أنظر إليه في جزء من الثانية عندما كان العقرب ثابتًا. ومع ذلك، بدا أنه ظل ثابتًا لفترة أطول بكثير من المعتاد. لقد تباطأ إحساسي بالوقت بطريقة ما.

كذلك، غالبًا ما يبدو ضباب عوارض السكك الحديدية، التي تُرى من نافذة قطار متحرك، وكأنه يتوقف للحظة. لفت انتباهي لأول مرة الكاتب الأمريكي جيسي لاسكي عندما كنا نسافر معًا، وفي البداية لم أفهم ما كان يتحدث عنه. ومنذ ذلك الحين، أصبحت ألاحظها باستمرار. تمر العوارض بسرعة هائلة لدرجة أنها لا تبدو سوى ضبابية. ثم فجأة، يظهر أحدها بوضوح كما لو أن القطار قد توقف. لا بد أن التفسير هو أن زمننا الداخلي قد تباطأ للحظة.

تجدر الإشارة إلى أمرين حول وصف بينتوف لكيفية "إيقاف" الزمن. أولًا، أن الانسحاب إلى عالم داخلي يشبه وصف إيلين غاريت لكيفية إحداثها حالات من الاستبصار. ثانيًا، أن إصراره على التصور الدقيق يشبه الإجراء الذي وصفه بريستلي: "... في هذه المناسبات، كنت أتذكر شخصًا أو مشهدًا بأقصى قدر ممكن من الوضوح والحدة، ثم كان هناك، إن جاز التعبير، نقرة صغيرة، وتغيير طفيف في التركيز، وشعرت للحظة وجيزة كما لو أن الشخص أو المشهد لم يكن يُذكر ولكنه كان موجودًا بالفعل...". يبدو أن جهد التصور الدقيق يسبب تجربة "السقوط في جحر الأرنب". يُفترض أن هذه هي آلية تجارب "جيب الوقت" لأرنولد توينبي.

من الواضح أن كل هذا بالغ الأهمية. إذا كان بنتوف وبريستلي محقين، فإننا نملك سيطرة أكبر على عالمنا الداخلي مما ندرك. إن جهد "الانسحاب" إلى عالم داخلي يُبطئ "الزمن النفسي" ويُعزز فجأة الشعور بالواقع. وهذا منطقيٌّ تمامًا بالطبع. إن الشعور بعدم الواقعية ينشأ عن العجلة؛ فكلما زادت عجلة حياتنا، قلّت واقعية العالم الخارجي. لذا، يترتب على ذلك أن جهد الاسترخاء المتعمد - ربما يكون "النقرة الصغيرة" التي ذكرها بريستلي هي التحول الفعلي من وعي النصف الأيسر إلى الأيمن من الدماغ - ينبغي أن يكون له أثرٌ في تعزيز الشعور بالواقع، ويُنتج ما يُشبه تجربة "الانزلاق الزمني".

من المفترض أن يكون واضحًا الآن أن معظم التجارب التي ناقشناها حتى الآن في هذا الكتاب - تجارب الوسطاء الروحانيين والمتصوفين، وتجارب "الانزلاق الزمني" والاستبصار والقياس النفسي - تشير جميعها إلى نفس النتيجة الأساسية: أننا نعيش في عالم معلوماتي. يحصل الوسطاء الروحانيون والوسطاء الروحانيون دائمًا على معلومات "ليس من شأنهم معرفتها". هذا لا يترك مجالًا للشك في أن هذه المعلومات "متاحة للسؤال"، كما لو كانت مخزنة على ميكروفيلم في مكتبة، لكن معظمنا لا يعرف كيفية السؤال. يعتقد دينتون أن هذه المعلومات تشمل كل حدث وقع في تاريخ الكون، وأن بإمكان أي شخص الوصول إليها إذا اتبع الطريقة الصحيحة.

يبدو أن أبسط وأسهل طريقة للوصول إلى هذه المكتبة المعلوماتية هي "الوقوع في جحر الأرنب". ولكن هناك طرق أخرى. أحيانًا تُسجَّل المعلومات بقوة لدرجة أننا في ظروف معينة نستطيع التقاطها دون حواسنا الطبيعية. يبدو أن هذا ما حدث للسيد تشيس، الذي رأى الكوخين القشيين بوضوح تام لدرجة أنه لم يشك في حقيقتهما. ويبدو أن التفسير نفسه ينطبق على رؤية باريس في القرن الخامس عشر التي رآها إيفان ساندرسون وزوجته (والتي، كما نعلم، ربما كانت رؤية لمجموعة من المنازل القديمة التي كانت قائمة في ذلك المكان). يصف ستيفن جينكينز في كتابه "البلد غير المكتشف" كيف رأى فجأةً، وهو على درب قرب خليج ماونتس في كورنوال، حشدًا من الرجال المسلحين بين الشجيرات. وبينما كان يحاول الركض نحوهم، انتابه شعورٌ أشبه بستارة من الهواء الساخن، فاختفوا. وفي رواية "قناع الزمن"، تصف جوان فورمان كيف رأت في فناء قاعة هادون في ديربيشاير مجموعة من أربعة أطفال يلعبون قرب مدخل القاعة، يصرخون فرحًا عاجزًا، يكاد يكونون في حالة هستيرية من البهجة. وقد لفت انتباهها بشكل خاص فتاة في التاسعة من عمرها ترتدي قبعة من الدانتيل وفستانًا حريريًا رماديًا مخضرًا. ما إن تقدمت جوان فورمان حتى اختفت الرؤية (التي شبّهتها بالحلم). لكنها رأت داخل القاعة صورة الفتاة ذات التسع سنوات - التي حُددت باسم السيدة غريس مانرز. ويبدو أن قوة فرحهم الهائلة قد "سجّلت" المشهد بطريقة ما، كما لو أن أحدهم التقط صورة لها.

من أبرز الأمثلة على هذا النوع من "التسجيلات" ما حدث في إيدج هيل في نورثهامبتونشاير، حيث دارت إحدى أعظم معارك الحرب الأهلية. بعد المعركة، انزعج سكان المنطقة من أصوات المدافع والصراخ واشتباك الأسلحة. في عام ١٦٤٢، نُشر كُتيّبٌ عن ذلك: "عجائب السماء العظيمة"، يُظهر الظهورات الأخيرة والضجيج الهائل للحرب والمعارك، التي شوهدت في إيدج هيل، بالقرب من كينتون، في نورثهامبتونشاير. وصف الكُتيّب كيف شهد زوار ساحة المعركة، في أربع ليالٍ متتالية من أيام السبت والأحد، مشاهد وأصوات المعركة؛ هذه...

ضمّ الوفد قاضي صلح وعددًا من ضباط الجيش، الذين تعرّفوا على رفاق قدامى من بين المقاتلين. أثار الأمر اهتمام الملك تشارلز الأول لدرجة أنه أرسل لجنة بقيادة الكولونيل لويس كريك للتحقيق، حيث شهدوا الظاهرة وأدلوا بشهاداتهم أمام الملك، مُقسمين على ما رأوه. استمرت الأصوات على فترات متقطعة لثلاثة قرون، حتى أن رجل دين من القرن العشرين، القس جون ديرينج، تمكّن من جمع روايات من العديد من الشهود الأحياء الذين سمعوا أصوات المعركة.

من الواضح أن نظرية ليثبريدج حول المجال المغناطيسي للماء غير كافية لتفسير هذه الظواهر: فمن المفترض أن يكون التل في البداية أقل رطوبة من الأراضي المنخفضة المحيطة به. لكن حادثة أخرى وصفها ستيفن جينكينز تبدو وكأنها تُقدم دليلاً. في أبريل 1973، بالقرب من أكريس في كينت، توقف جينكينز لقراءة الخريطة، فوجد، لدهشته، أنه غير قادر على ذلك. بدا أن إحساسه بالاتجاه قد تأثر، وشعر بدوار غريب. سار بضعة أمتار، واختفت المشكلة على الفور. وعندما عاد إلى المكان السابق، عادت إليه. بعد عام، على جبل يس تور في دارتمور، مر بتجربة مماثلة للغاية. وقف بجانب صخرة سماها "الوتد"، وانطلق سيرًا إلى صخرة ميرلين القريبة. ناداه رفيقه ليعود - كان يسير في الاتجاه الخاطئ، جنوب شرق بدلًا من جنوب. حدد اتجاهه وحاول مرة أخرى؛ هذه المرة اتجه غربًا. حتى عندما انقشع الضباب، ظل عاجزًا عن تحديد اتجاهه. حيرته هذه التجربة، وفي العام التالي، اصطحب مجموعة من ثلاثة تلاميذ إلى الموقع القريب من أكريس وطلب منهم أن يأخذوا خريطة - دون أن يذكر تجربته السابقة. واجهوا جميعًا نفس الارتباك، ولم يتمكنوا من فعل ذلك.

استنتج جينكينز أن حل اللغز يكمن في أن البقعة كانت نقطة تقاطع لخطي طاقة لي - خطوط مغناطيسية الأرض. الأرض، بطبيعة الحال، مغناطيس ضعيف، وهناك أدلة على أن الطيور والحيوانات تستخدم هذه القوى المغناطيسية للعودة إلى الوطن. (على سبيل المثال، لدى الحمام الزاجل قطعة من الأنسجة بين عينيه تحتوي على معدن المغنتيت: إذا تم ربط قضيب مغناطيسي على ظهر الحمامة، فلن تتمكن من إيجاد طريقها إلى المنزل.) هناك مناطق معينة على سطح الأرض تُعرف باسم الدوامات المغناطيسية، والطيور التي تطير فيها تفقد إحساسها بالاتجاه وتطير بلا حول ولا قوة. لذا قد يكون ستيفن جينكينز محقًا في الاعتقاد بأنه عند النقطة العقدية لخطي طاقة لي، تأثرت بوصلته الداخلية بنوع من الدوامة المغناطيسية.

أثبت الدكتور روبن بيكر، عالم الحيوان بجامعة مانشستر، بشكل قاطع في أواخر سبعينيات القرن الماضي أن البشر يمتلكون بوصلة داخلية. كان بيكر يعصب أعين رعاياه، ثم يأخذهم من منازلهم ويقودهم عبر ممرات ضيقة ومتعرجة. في وجهة سرية، كان يُطلب منهم النزول من السيارة والإشارة إلى منازلهم. كان معظمهم يفعل ذلك مع...

دقة مذهلة. بعد ذلك، ثُبّت مغناطيس قضيبي على رؤوس بعض المشاركين، بينما زُوّد آخرون بقضيب نحاسي يبدو أنه لا يمتلك أي خصائص مغناطيسية (الفكرة هي ألا يعرف المشارك أيها يمتلك). ثم أُخذوا في جولة أخرى دائرية، وطُلب منهم مرة أخرى الإشارة نحو منازلهم. كان أولئك الذين يحملون القضيب النحاسي دقيقين للغاية، بينما كان أولئك الذين يحملون المغناطيس القضيبي مشوشين تمامًا.

بعد سنوات عديدة من تجربته مع "جيش الأشباح"، عاد ستيفن جنكينز إلى المكان الذي رآه فيه في خليج ماونتس. وبينما كان يسير فيه، انتابته هلوسة عابرة برجال مسلحين. وكما في السابق، أدرك أنه يقف على نقطة محورية لخطوط الطاقة. وعندما تقدم خطوة للأمام، اختفى "الجيش".

نظرية جينكينز - التي تقبّلها منذ ذلك الحين العديد من "صائدي الطاقة" - هي أن النقاط العقدية تُشكّل نوعًا من الدوامة المغناطيسية التي يُمكنها بطريقة ما "تسجيل" الأحداث - وخاصةً المشاعر القوية كتلك المرتبطة بالمعارك. ظلّ العلم التقليدي متشككًا في فكرة خطوط الطاقة، حتى أن بعض المتشككين بذلوا جهدًا كبيرًا لإثبات استحالة وجودها. يكمن جزء من سبب هذا الشك في أن الاهتمام بخطوط الطاقة عادةً ما يقترن بنشاط آخر مثير للريبة: الكشف عن المياه الجوفية. يحمل الباحث عن المياه الجوفية، أو العراف، في يده غصنًا متشعبًا (شريطان بلاستيكيان مربوطان معًا من أحد طرفيه يُؤديان نفس الغرض)، مُمسكًا بطرفي الشوكتين بكلتا يديه. وبينما يمشي فوق المياه الجوفية، يلتفّ قضيب الكشف عن المياه الجوفية بين يديه. يُعدّ الكشف عن المياه الجوفية مقبولًا على نطاق واسع تقريبًا لدى سكان الريف الذين شاهدوه عمليًا؛ أما المتشككون فهم عادةً علماء أو هيئات رسمية (مثل هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية) أقنعوا أنفسهم مُسبقًا بأن هذه الظواهر خرافات. ولكن في ستينيات القرن العشرين، أدت سلسلة من التجارب المصممة بشكل لا تشوبه شائبة والتي أجراها الدكتور زابوج ف. هارفاليك، وهو فيزيائي محترف ومستشار للجيش الأميركي، إلى وضع تقنية الكشف عن المعادن على أساس علمي لا يتزعزع.

انبهر هارفاليك بالكشافات في موطنه تشيكوسلوفاكيا، فواصل أبحاثه عندما أصبح مدرسًا للفيزياء في جامعة ميسوري. من أوائل ما لاحظه أن عصا الكشف خاصته تتفاعل دائمًا مع سلك كهربائي على الأرض: وهذا يوحي بأن الكشف كان كهربائيًا في الأساس. بعد ذلك، دفع أنبوبين طويلين من الماء عموديًا في الأرض، مفصولين بمسافة ستين قدمًا، ووصل طرفيهما المكشوفين ببطارية قوية. عندما شغّل التيار، استجابت عصا الكشف الخاصة به على الفور. ثم بدأ بالتدرب على أصدقائه واكتشف أن جميعهم قادرون على الكشف بشرط أن يكون التيار عاليًا بما يكفي - فوق 20 ملي أمبير. أما الـ 20% المتبقية، فقد أثبتوا أنهم أفضل في الكشف، حيث استطاعوا اكتشاف تيار منخفض يصل إلى 2 ملي أمبير - حتى أن بعضهم استجاب لنصف ملي أمبير. وقد تحسن معظم الناس بشكل مطرد مع الممارسة. كما وجد أن القدرة على الكشف كانت

وقد تحسنت هذه الممارسة إذا شرب الشخص الذي يستخدم العرافة بضعة أكواب من الماء قبل أن يبدأ، وتوصل إلى اكتشاف مذهل مفاده أن الأشخاص الذين يبدو أنهم لا يمتلكون أي قدرة على استخدام العرافة بدأوا فجأة في استخدامها بعد نصف كوب من الويسكي: حيث يعمل الكحول على إرخائهم وبالتالي تمكينهم من "الانسجام".

استنتج هارفاليك أن جسم الإنسان بحد ذاته كاشف مغناطيسي - فبالنسبة للإنسان البدائي، لا بد أن تحديد موقع الينابيع الجوفية كان مسألة حياة أو موت، ولا يزال السكان الأصليون الأستراليون قادرين على "الشعور" بالمياه حتى بدون مساعدة قضيب الكشف - وأن جزءًا من الجسم يلتقط التغير في التدرج المغناطيسي وينقل المعلومات إلى الدماغ، مما يؤدي بدوره إلى تشنج العضلات، والتواء القضيب. وقد أجرى البروفيسور إيف روكارد من جامعة السوربون تجارب بالفعل في عام 1962 أظهرت أن التغيرات الضعيفة في المجال المغناطيسي للأرض تنتج تغيرات في عضلات الكاشف. والآن أجرى هارفاليك تجارب مماثلة مع خبير ألماني في الكشف، وهو فيلهلم دي بوير - والتي أقنعته بأن "العضو" الذي يكتشف الماء هو مجموعة الغدد المعروفة باسم الغدد الكظرية، فوق الكلى مباشرة. (هذه هي الغدد التي تغمرنا بالأدرينالين عندما نتعرض لصدمة). ولكن شريطًا من رقائق الألومنيوم ملفوفًا حول الرأس فوق الأذنين مباشرة حجب أيضًا جميع إشارات الاستدلال؛ كما فعلت قطعة مربعة واحدة من رقائق الألومنيوم الملصقة في وسط الجبهة.

استطاع دي بور اكتشاف إشارات بالغة الصغر - مجرد جزء من ألف من الملي أمبير. وأكد العمل مع دي بور ما كان هارفاليك يشتبه به دائمًا - وهو أن الكاشفين يستطيعون اختيار الإشارات التي يريدون "ضبطها". حتى أن دي بور استطاع اكتشاف محطات إذاعية مختلفة تبث على ترددات مختلفة. كان هارفاليك يُرشده إلى التردد الذي يبحث عنه، فيستدير دي بور ببطء حتى يواجه اتجاه محطة الراديو. ثم يتأكد هارفاليك من دقته بإدارة جهاز راديو محمول في ذلك الاتجاه.

إن قدرة الكاشفين على اختيار ما يريدون "التقاطه" كانت بلا شك من أهم الملاحظات على الإطلاق. فإذا كان الكاشف يبحث عن معادن تحت الأرض، فإنه يستطيع أن يجعل عصاه تتجاهل الماء. بل إنه يستطيع اكتشاف أشياء مختلفة موضوعة تحت السجادة - كالعملات المعدنية وأعواد الثقاب وما إلى ذلك - بمجرد تحديد ما يبحث عنه. قد يبدو هذا مذهلاً، ولكنه ليس أكثر روعة من قدرتنا على الاستماع إلى محادثة في حانة مزدحمة. في هذا الصدد، يتفوق الكاشف الكهرومغناطيسي المدمج في الكاشف بشكل كبير على أفضل أجهزة قياس المغناطيسية المُصنعة في المختبرات، إذ إنها تلتقط كل إشارة من المياه الجوفية وخطوط الكهرباء إلى موجات الدماغ البشري. يستطيع الكاشف تحديد الإشارة التي يريد رصدها.

أدى اختراع مقياس مغناطيسي حساس بدرجة كافية لاكتشاف الموجات الدماغية - بين 0.5 و 50 هرتز - إلى اقتراح هارفاليك أن يكون الكاشف الجيد

قادر على رصد إيقاعات الدماغ. كان يقف وظهره إلى شاشة في حديقته، واضعًا سدادات أذن في أذنيه، ويطلب من الناس السير نحوه من الجانب الآخر للشاشة. يكشف قضيبه الكاشف عن وجودهم عندما يكونون على بُعد ثلاثة أمتار. وعندما يطلب منهم التفكير في أفكار "مثيرة" - مثلاً، عن الجنس - كان يستطيع رصدها على بُعد ثلاثة أمتار. تُقدم تجربة هارفاليك تفسيرًا محتملًا لكيفية عمل التخاطر. ويبدو أنها تُفسر بالتأكيد سبب شعور الكثير منا بعدم الارتياح عندما يُحدق أحدهم في مؤخرة رؤوسنا، ولماذا تستطيع النساء في كثير من الأحيان رصد نظرة رجل مهتم جنسيًا حتى عندما يمشي خلفهن.

لعلّ أكثر ما أثار إعجابنا في أبحاث هارفاليك هو الدقة المذهلة التي يتمتع بها جهاز الكشف عن المياه. لم يقتصر هارفاليك على تحديد اتجاه خزان من على بُعد أميال، بل استطاع أيضًا تحديد عمق المياه فيه. كريستوفر بيرد* يروي كيف تمكّن هارفاليك من تحديد اتجاه خزان في سيدني، أستراليا، وتقدير بُعده بدقة، إذ بلغ ١٢,٦ ميلًا. سأله مهندس قياس المياه إن كان بإمكانه تحديد عمقه، فأجاب هارفاليك بأنه ثمانية وستين قدمًا. راجع المهندس كُتيّبه وأخبر هارفاليك أنه قريب جدًا: العمق الفعلي كان خمسة وسبعين قدمًا. ولكن عندما زارا الخزان في اليوم التالي، تبيّن أن هارفاليك كان مُحقًا: انخفض منسوب المياه بمقدار سبعة أقدام.

من الواضح أن قدرتنا على "قراءة" المعلومات المحيطة بنا أكبر بكثير مما نفترض عادةً (على الرغم من أنها بالتأكيد لم تكن لتفاجئ تومسون جاي هدسون). كان تي سي ليثبريدج قد توصل إلى نفس الاكتشاف عندما انتقل إلى ديفون عام 1957 وبدأ سلسلة من التجارب باستخدام البندول (الذي يفضله العديد من الكاشفين على الغصن المتشعب المعتاد). يستخدم معظم الكاشفين البندوليين وزنًا ثقيلًا إلى حد ما على قطعة قصيرة من الخيط (حتى لا يتأثر بشكل كبير بالرياح). قرر ليثبريدج أنه قد يكون من المثير للاهتمام استخدام قطعة طويلة من الخيط - ملفوفة حول قلم رصاص، بحيث يمكن تغيير طولها - ومعرفة ما إذا كانت المواد المختلفة ستتسبب في تفاعلها بأطوال مختلفة. بدأ بوضع طبق فضي على الأرض وتعليق البندول فوقه. عندما وصل طول الخيط إلى اثنين وعشرين بوصة، توقف البندول عن التأرجح ذهابًا وإيابًا ودخل في حركة دائرية. افترض ليثبريدج أن هذا يعني أن "سعر" الفضة هو اثنان وعشرون بوصة - ثم اكتشف قطعة صغيرة من الفضة مدفونة في فناء منزله. لم يكن من الضروري حتى الوقوف فوق الفضة. كان بإمكانه الوقوف والبندول في يده وذراعه الأخرى ممدودة أمامه، يتحرك ببطء في قوس. عندما بدأ البندول يتأرجح في دائرة، لاحظ اتجاه الإصبع المشير، ثم ذهب ووقف في مكان آخر وكرر الإجراء. حيث تقاطع الخطان الناتجان، كان يحفر، وعادةً ما يجد ما يبحث عنه. لاحظ أن كل مادة تبدو...

سجل بمعدل دقيق: الكربون عند اثنتي عشرة بوصة، والقصدير عند ثمانية وعشرين بوصة، والنحاس عند ثلاثين ونصف بوصة، والعشب عند ستة عشر بوصة، والتفاح عند ثمانية عشر بوصة، والدردار عند ثلاثة وعشرين بوصة. حتى أنه استجاب لمفاهيم مجردة مثل الجنس، والغضب، والتطور، والذكر والأنثى. (كان لا بد من تصور هذه المفاهيم بوضوح). حاول هو وزوجته مينا التقاط الحجارة ورميها على الحائط، ثم اختبراها بالبندول: كان قادرًا على تحديد أي الحجارة رُميَت من قِبل كلٍّ منهما من خلال استجابته الذكرية أو الأنثوية.

كان ليثبريدج مقتنعًا بأنه اكتشف سرًا جوهريًا في الطبيعة - أن لكل شيء "معدله" الخاص. لا شك أن هارفاليك سيتعامل مع هذا الادعاء بتشكك. فقد اكتشف أن الكاشفين يستطيعون تحديد كيفية استجابة البندول مسبقًا: يمكنهم "برمجته" ليتأرجح ذهابًا وإيابًا لـ "لا" وفي دائرة لـ "نعم"، أو العكس: يمكنهم "برمجة" الغصن المتشعب للالتفاف لأعلى أو لأسفل حسب الرغبة. لذا، ربما كانت "معدلات" ليثبريدج عشوائية، "مبرمجة" من قبل عقله الباطن. ومع ذلك، فمن الواضح أن هذه نقطة ثانوية. المهم هو أن البندول قادر على اكتشاف نطاق مذهل من المعلومات التي عادةً ما تكون غير قابلة للاكتشاف بواسطة حواسنا. وإذا كان هارفاليك محقًا، فإنه يفعل ذلك من خلال استجابة الجسم لتدرجات مغناطيسية ضئيلة للغاية.

ومع ذلك، اضطر هارفاليك نفسه إلى الاعتراف بأن "نظريته المغناطيسية" محدودة. وسرعان ما تعرّف على خبراء كشف المياه الذين زعموا قدرتهم على كشف المياه بنفس الكفاءة من خلال تعليق بندولهم فوق خريطة: لم يكتفِ هارفاليك بإثبات صحة ادعاءاتهم، بل اكتشف أيضًا أنه يستطيع القيام بذلك بنفسه. يستطيع خبير كشف المياه في الخرائط الكشف ليس فقط عن المياه، بل أيضًا عن النفط والفحم ومواد أخرى - فمعظم شركات تجميع المعادن الكبرى لديها خبراء في هذا المجال. وقد أصبح العراف أوري جيلر مليونيرًا بفضل عمله في الكشف عن المياه لشركات النفط والمعادن، وحقيقة أنه يتقاضى أجره بناءً على نتائجه تُثبت بوضوح أن نتائجه حقيقية. علاوة على ذلك، يستطيع خبير كشف المياه الماهر استخدام بندوله للحصول على معلومات أخرى. في عام ١٩٦٠، طُلب من خبير كشف مياه سويسري يُدعى إدغار ديفو المساعدة في البحث عن ربة منزل مفقودة. رفع بندوله فوق صورة للمرأة وأعلن أنها ماتت - فقد تأرجح بندوله من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. ثم، باستخدام خريطة لمدينة بازل، رسم خطًا على طول النهر ورسم علامة تقاطع. "إنها هناك". نزل الغواصون في المكان المحدد، ولمس أحدهم الجثة: وبينما كان يحركها، طفت بعيدًا. سار ديفو على طول مسار القارب، يتتبع مساره وهو يطفو في النهر، لكنه اضطر إلى التخلي عن المطاردة عندما حالت المنازل دون مواصلة البحث. بعد بضعة أيام، عُثر على الجثة عند السد حيث نُخل الماء قبل تشغيل توربينات محطة توليد الكهرباء.*

لكن على الرغم من أن الكشف عن الخرائط يتحدى كل المحاولات لتفسيره من حيث المجالات المغناطيسية، فإنه ليس أكثر إثارة للدهشة من قدرة إيلين جاريت على اكتشاف

رجل مفقود من قطعة قميصه. يكمن الاختلاف الرئيسي في أن إيلين غاريت حصلت بطريقة ما على "وصول مباشر" إلى المعلومات باستخدام قدرتها على "الانسحاب" إلى حالة من الاستبصار، بينما حصل ديفو على معلوماته من خلال التعامل مع صورة (ونعل قدمته أخت المرأة) ثم "استجواب" بندوله. تشير كلتا الحالتين إلى أننا نعيش في "عالم معلوماتي"؛ يكمن الاختلاف في طريقة الوصول إلى المعلومات.

دعونا نتوقف قليلاً لاستعراض هذا الكم الهائل من البيانات.

إن فكرة أننا نعيش في "عالم معلومات" - عالم يُسجل فيه كل ما حدث على الإطلاق - فكرة غريبة بلا شك، ولكن لا يمكن تجاهلها باعتبارها غير علمية. نعلم الآن أنه يمكن تكثيف صفحات كاملة من المعلومات على نقطة مجهرية، وأن رسالة طويلة يمكن ضغطها وإرسالها في "صفارة" تفوق سرعة الصوت. علاوة على ذلك، نعلم أنه يمكن التقاط الصوت الغني للأوركسترا بطريقة ما بخط متموج على قرص بلاستيكي. وهذا في حد ذاته يبدو عبثًا. نعلم أن إديسون سجل الصوت لأول مرة بالتحدث في بوق متصل بإبرة في طرفه الضيق، وترك الإبرة تترك أثرًا على أسطوانة دوارة مغطاة بورق قصدير. ثم أعاد الإبرة إلى بداية الخدش وأدار المقبض: خرج صوته من البوق وهو يردد "كان لدى ماري حمل صغير". يبدو هذا واضحًا بما فيه الكفاية، فالصوت صوت بسيط إلى حد ما. ولكن كيف يمكن لنفس "الخدش" تسجيل جميع آلات الأوركسترا؟ - بالتأكيد ستحتاج إلى خدش مختلف لكل واحدة منها؟

لكن على الأقل، هذا التشبيه يُدركنا أنه لا يوجد أي شيء غير منطقي في فكرة "تسجيل" الأحداث على المادة. إذا كان بإمكان ورق القصدير تسجيل صوت إديسون بمساعدة بعض الاهتزازات، فقد تتمكن جدران منزل من تسجيل مأساة وقعت هناك بواسطة "اهتزازات" عاطفية. وإذا كانت جوان فورمان مُحقة في اعتقادها بأن هذه الاهتزازات لها نفس تردد موجات أدمغتنا، فإن كل واحد منا لديه "غرامافون" لتشغيل "تسجيلات الوقت".

تُثبت تجارب هارفاليك كل هذا على أسس منطقية. فهي تُثبت أن جسم الإنسان، من بين أمور أخرى، جهاز إلكتروني مُعقّد لقياس الطاقة. بالطبع، نعلم بالفعل أن آذاننا تستشعر الموجات الصوتية، وأعيننا تستشعر الموجات الضوئية. لكن هارفاليك أثبت أن أجسامنا قادرة أيضًا على رصد الموجات الراديوية التي تقع أسفل الطرف الأحمر من الطيف، والنشاط الإشعاعي الذي يقع أعلى الطرف البنفسجي بكثير. صحيح أن كاسبار هاوزر كان قادرًا على رؤية الموجات الحرارية، وأن يوليا فوروبييفا تستطيع، على ما يبدو، رؤية الأشعة السينية. حتى خبير الكهانة فيلهلم دي بور لا يستطيع رؤية الموجات الراديوية وأشعة غاما. لكن عصاه الكهانة قادرة على رصدها، وهي...

أفضل شيء تالي.

بنفس القدر من الأهمية، برهان هارفاليك على قدرة الكاشف على "برمجة" نفسه لاختيار الإشارات التي يهتم بها - بحيث تمكن دي بور من تتبع محطة إذاعة واشنطن على تردد 570 كيلو هرتز، ثم تحويل انتباهه إلى محطة إذاعية أو تلفزيونية أخرى تبث على طول موجي مختلف. بالطبع، لم يستطع دي بور سوى تحديد اتجاه البث. ولكن بما أننا نعلم أن الكاشفين يتحسنون مع الممارسة، فمن البديهي أنه لا يوجد سبب يمنعه في النهاية من الاستماع إلى البرامج. وينطبق الأمر نفسه على اكتشاف هارفاليك أنه يستطيع رصد موجات أدمغة الأشخاص الذين يسيرون نحوه عبر حديقة. ومع مزيد من الممارسة، يبدو أنه لا يوجد سبب منطقي يمنعه من رصد ما يفكرون فيه.

لقد شاركتُ بنفسي في عرضٍ تضمن نوعًا من التخاطر. في عام ١٩٧٢، كنتُ أبحث في قدرات "الخبير الروحاني" روبرت ليفتويتش في الكشف عن المياه الجوفية. في إحدى التجارب، أمسكتُ بقضيب الكشف بينما كان ليفتويتش واقفًا وظهره إليّ؛ ثم أُمرتُ بالسير قدمًا في ممري. كان الهدف هو اكتشاف أنبوب مياه جوفي: كنتُ أعرف موقعه، لكن ليفتويتش لم يكن يعرفه. وبينما كنتُ أسير فوق الأنبوب، التفت قضيب الكشف بين يدي، وصاح ليفتويتش: "قف، أنت تتعقبه". لقد التقط الإشارة من دماغي بطريقةٍ ما. تُثبت تجارب هارفاليك هذه الملاحظات على أساسٍ علمي. نعلم الآن أنه لم يكن هناك شيءٌ "غامض" على وجه الخصوص يحدث - مجرد اكتشاف التدرجات المغناطيسية بواسطة جهاز إلكتروني يُعرف باسم جسم الإنسان. ألا ينطبق هذا إذن أيضًا على "علم النفس" لبوكانان؟

بينما كنتُ منهمكًا في كتابة هذا الفصل، اصطحبت زوجتي ضيفين ليُلقيا نظرة على سجن بودمين القديم، المفتوح للجمهور. زوجتي بارعة في الكشف عن الماء، أما الاثنان الآخران فكانا مبتدئين. كان هناك مكانان في السجن حيث حصل حتى المبتدئون على استجابة قوية من القضبان: زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام وحظيرة الإعدام. شعر الثلاثة جميعًا بجو غير سار في هذين المكانين أثناء الكشف عن الماء. من الممكن بالطبع أن تكون القضبان قد استجابت للمياه الجوفية، وأن الجو غير السار كان محض خيال. ولكن إذا استطعنا قبول الفرضية النفسية، فمن الواضح أن هناك تفسيرًا بديلًا: لقد "سجلت" جدران زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام وحظيرة الإعدام قدرًا كبيرًا من المعاناة الإنسانية على مر القرون. يمنعنا النطاق الضيق لوعينا اليومي في الجزء الأيسر من دماغنا من إدراك هذه "التسجيلات". ولكن الدماغ الأيمن ـ العقل الذاتي لهودسون ـ هو "مشغل أسطوانات" قادر على "إعادة تشغيل" هذه "التسجيلات"، ورغم أنه غير قادر على توصيل معرفته إلى العقل الموضوعي فإنه يستطيع تسجيل المعلومات من خلال وسيط قضيب الكشف، مما يتسبب في تشنج العضلات.

خطوة أخرى للأمام، والحجة نفسها تُقدم تفسيرًا منطقيًا للتخاطر. في كتاب "المحققون الروحانيون"، استشهدتُ بقضية تتعلق بـ"المتخاطر" الدكتور ماكسيميليان لانغسنر. في يوليو 1929، قُتل أربعة أشخاص بالرصاص على يد قاتل مجهول في مزرعة في إدمونتون، ألبرتا. تم استدعاء الشرطة من قِبل ابن أحد المزارعين، فيرنون بوهر، الذي كانت والدته وشقيقه من بين الضحايا (والاثنان الآخران كانا مأجورين). حضر لانغسنر، الذي صادف وجوده في المنطقة في ذلك الوقت، التحقيق وأخبر قائد الشرطة لاحقًا أن القاتل هو فيرنون بوهر وأنه أخفى أداة القتل في كومة من عشب البراري خلف المنزل. ثم رافق لانغسنر الشرطة إلى المنزل وتجول في الخلف - وعلق قائد الشرطة بأن لانغسنر ذكّره بأداة الكشف عن المياه بغصن بندق. وتبين أن البندقية التي عُثر عليها من كومة من العشب هي أداة القتل. وُضع فيرنون بوهر بعد ذلك رهن الحبس الاحتياطي كشاهد رئيسي، بينما جلس لانغسنر خارج زنزانته. بعد برهة، نهض لانغسنر وغادر. ثم تمكن من إخبار الشرطة بالسبب الدقيق وراء ارتكاب فيرنون لجريمتي القتل. كان فيرنون قد كره والدته، وبعد شجار، أطلق النار على رأسها ببندقيته. ثم اضطر إلى قتل شقيقه، الذي كان في الغرفة المجاورة، وعاملين في المزرعة سمعا الطلقات وعلما بوجوده في المنزل. بمواجهة هذه القصة، اعترف فيرنون بوهر بأنه قتل والدته بعد شجار حول فتاة: أراد الزواج من ابنة عامل مزرعة، وأغضبته والدته، وهي امرأة شديدة التسلط، بإخباره برأيها في الفتاة بدقة. أُعدم بوهر شنقًا عام ١٩٢٩.

يمكننا أن نرى أنه بعد قتله والدته في نوبة غضب، كان بوهر في حالة عاطفية مشحونة للغاية. إذا كانت المشاعر العنيفة تُسجل نفسها على جدران مستودع الإعدام، فمن المنطقي افتراض إمكانية اكتشافها أيضًا بواسطة باحث ماهر، أو "وسيط روحي"، مثل ماكسيميليان لانغسنر. في الواقع، يُفترض أن تكون أقوى وأكثر وضوحًا، لأنه يلتقطها مباشرةً وليس من خلال "تسجيل".

إذا أخذنا في الاعتبار أيضًا قدرة الكاشف على "اختيار" مجموعة الانطباعات التي يهتم بها - بحيث يتمكن دي بور من التمييز بين محطات الراديو المختلفة - فمن الممكن أن نرى كيف يمكن لشخص "حساس" أن يلتقط مشهدًا معينًا دون آخر. لاحظ ويليام دينتون بالفعل أن زوجته وشقيقة زوجته قد "تريان" مشاهد مختلفة تمامًا عن تاريخ الشيء الذي يحملانه. ويمكننا أيضًا أن نرى أنه إذا كان المراقب في حالة ذهنية مسترخية، فقد يلتقط "صدفة" بعض "التسجيلات" دون أن يدرك أنه كان يلقي نظرة خاطفة على الماضي. عندما "رأت" جوان فورمان الأطفال يلعبون أمام قاعة هادون، كانت تدرك أنها كانت ترى "صورة ذهنية، كما يفعل المرء في الأحلام". ولكن على الرغم من أن السيدتين الإنجليزيتين في فرساي شهدتا

شعورٌ أشبه بالحلم، لم يدركوا أنهم يرون صورةً ذهنية. عندما رأى السيد تشيس الكوخين الجميلين من القرن التاسع عشر، كان متعبًا - بعد أن أنهى يوم عمل - ومرتاحًا أيضًا، إذ كان ينتظر حافلةً في أمسيةٍ جميلة. لو حاول دخول إحدى الحدائق، لربما أصيب بصدمةٍ إذ اختفت الكوخان وحل محلهما منزلان. لو حاولت جين أونيل لمس لوحة الصلب، لربما اختفت، ولوجدت نفسها واقفةً في كنيسة فوثرينغهاي الحديثة بدلًا من الكنيسة كما كانت قبل أربعة قرون.

الآن، لا شك أن هذا الأمر صعب الفهم بعض الشيء. بالتأكيد يمكننا جميعًا التمييز بين واقع "خارجي" وفكرة داخل رؤوسنا؟ لكن قد لا يكون الأمر بهذه البساطة. لأكثر من قرنين ونصف، اقترح الفلاسفة أن حواسنا ربما تلعب دورًا في خلق العالم "الخارجي". الحجة - كما طرحها مفكرون مثل لوك وبيركلي وهيوم وكانط - تسير على هذا النحو. تخيل قطعة شوكولاتة. ستقول إنها حلوة، بنية اللون، لزجة، ولها رائحة "شوكولاتة". لكن إذا أمسكت أنفك أثناء تناولها، فستفقد فجأة رائحة وطعمًا ضئيلًا جدًا - لذا فإن هذه الأشياء تعتمد على حواسك. يعتمد اللون البني على حاسة البصر لديك؛ بالنسبة لرجل أعمى الألوان قد يبدو رماديًا. تعتمد اللزوجة على درجة حرارة أصابعك؛ لو كانت باردة كالثلج، لما كانت الشوكولاتة لزجة. كل هذا دفع الأسقف بيركلي إلى القول إنه قد لا يوجد عالم "حقيقي" في الخارج: ربما تكون حواسنا هي التي تُنشئه. وذهب كانط إلى أبعد من ذلك، مُشيرًا إلى أن حواسنا ربما تُنشئ أيضًا المكان والزمان والمنطق.

ظنّ معاصرو بيركلي أن الأمر برمته مجرد مزحة، وظنّ الدكتور جونسون أنه دحضه بركل حجر. ومع ذلك، نعلم الآن أن هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا بعيدين كل البعد عن الحقيقة. يُخبرنا العلم أن "حقيقة" الشوكولاتة هي سرب من الإلكترونات مُرتّبة في ذرات وجزيئات بفعل قوى دون ذرية. بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس لها رائحة ولا طعم ولا لون. هذه الأشياء "تُضاف" بواسطة حواسنا - أو أدمغتنا. وكما ذكرنا سابقًا، تُميّز أعيننا بين أطوال موجات الضوء التي تتراوح بين 16 و32 جزءًا من مليون من البوصة عن طريق "ترميز لوني" أحدهما أحمر والآخر بنفسجي. وكما علق وايتهيد ذات مرة، ينبغي للشعراء أن يُثنوا على العقل البشري، لا على الطبيعة.

في السنوات الأخيرة، طرح عالمان نظرية ثورية تُعدّ في الواقع نسخة مُحدّثة من فلسفة بيركلي وكانط. اسماهما كارل بريبرام وديفيد بوم، وقد عُرفت هذه النظرية باسم "الكون الهولوغرامي". لفهمها، علينا أن نعرف ما هو الهولوغرام. الهولوغرام هو نوع من الصور ثلاثية الأبعاد تُعلّق في الفضاء.

يبدو تمامًا كجسم صلب. لا يمكن التقاط مثل هذه الصورة بالضوء العادي: إنها تتطلب شعاع ليزر - ضوء تم فيه جعل جميع الموجات "تسير بخطوات" مثل فرقة من الجنود. إذا تقاطع شعاعا الليزر مع بعضهما البعض، فإنهما يشكلان نمط تداخل - تمامًا كما لو كنت ترمي حجرين في بركة، ستتفاعل مجموعتان من التموجات الدائرية مع بعضهما البعض. تخيل الآن أن شعاعي الليزر يتفاعلان على لوحة فوتوغرافية زجاجية وأن أحد الشعاعين قد "ارتد" للتو عن وجه إنسان. لا يشبه نمط التداخل على اللوحة الفوتوغرافية وجهًا بشريًا على الإطلاق - بل يشبه نمطًا من التموجات. ولكن إذا سلطت شعاع ليزر من خلاله، فسيظهر الوجه فجأة معلقًا في الفضاء، ويبدو صلبًا وثلاثي الأبعاد. لقد "فسر" الضوء نمط التداخل إلى وجه. والأغرب من ذلك أنه إذا كسرتَ ركنًا صغيرًا من اللوحة الفوتوغرافية وسلّطتَ شعاعًا من ضوء الليزر من خلاله، فسيظل الوجه كاملًا ظاهرًا في الفضاء، وإن بدا أكثر ضبابيةً مقارنةً باستخدام اللوحة بأكملها. بمعنى آخر، كل جزء من نمط التداخل يحتوي على الوجه كاملًا.

بريبرام، المتخصص في الدماغ ووظائفه، خطرت له فجأة فكرةٌ مُلهمة: لنفترض أن العالم من حولنا هو في الواقع صورةٌ ثلاثية الأبعاد، وأن الواقع "وراءه" ليس سوى نمطٍ من التداخل؟ قال كانط إن العالم يتكون من "الظواهر" - الأشياء التي نراها ونسمعها - و"النومينا"، أي الواقع الكامن وراءها. كان بريبرام يقترح أن النومينا هي نمطٌ من التداخل.

في هذه المرحلة، علم بريبرام أن فيزيائيًا بريطانيًا قد اقترح فكرةً مماثلةً تقريبًا. كان ديفيد بوم يحاول تفسير بعض مفارقات نظرية الكم، وخاصةً الحقيقة الغريبة المتمثلة في أن جسيمين، ينطلقان بعيدًا بسرعة الضوء، يمكنهما ظاهريًا التأثير على بعضهما البعض. كان ذلك مستحيلًا تمامًا - إلا إذا كان "انفصالهما" وهمًا. لذا اقترح بوم نظريةً لخصها في كتابه "الكمال والنظام الضمني" لتفسير هذه المفارقة. ببساطة، يقول بوم إن الحقيقة الكامنة وراء الكون - "النومينا" - تشبه إلى حد كبير تلك الكريات الصغيرة التي تنفتح عند إسقاطها في الماء، فنرى زهرةً فجأة. العيب الوحيد في هذا التشبيه هو أن الكريات، في نظرية بوم، تبقى موجودة حتى بعد أن تنفتح الزهرة في الماء. وبما أن بوم دعم نظريته بحجج علمية، فيمكن اعتبار نظريته "النظام الضمني" تبريرًا علميًا لوهلة إلهام بريبرام السخيفة. (قد يطمئن القراء الذين يجدون كل هذا صعباً في المتابعة إلى اعتراف بريبرام بأنه لا يفهم نظريته الخاصة.)

من الواضح أن بوم وبريبرام مُحقّان تمامًا. تُفسّر عينيّ ودماغي طاقةً بطول موجيّ قدره ١٦ جزءًا من مليون من البوصة، فتظهر باللون الأحمر. وعندما أشغل أسطوانة غراموفون، يُدرك دماغي...

يُعيد بناء كل تلك الموجات الصوتية الناتجة عن الخطوط المتموجة، ويحوّلها إلى سيمفونية بيتهوفن. (يجد الطفل الصغير هذا الأمر أصعب بكثير: فالموسيقى الكلاسيكية تبدو كمزيج فوضوي من النوتات الموسيقية). أدمغتنا تُفسّر الواقع، تمامًا كما لو كانت تُترجم اليابانية إلى الإنجليزية.

لنفترض الآن، للحظة، أن ما التقطته زوجتي في سجن بودمين كان تسجيلاً صوتياً لمعاناة رجال كانوا يعلمون أنهم سيُشنقون قريباً. لا نعرف آلية هذا التسجيل، لكنه لا يمكن أن يكون أكثر تعقيداً من قرص مدمج. عقل زوجتي الموضوعي ليس حساساً بما يكفي لالتقاط هذا التسجيل، لكن عقلها الذاتي يملك القدرة على إعادة تشغيله، وينقل شيئاً من شدته إلى عضلاتها، مما يُحدث استجابة في قضيب الكشف. ينتقل جزء من هذا السيل من المعلومات إلى عقلها الموضوعي، مُنتجاً "جواً كريهاً".

تستطيع أدمغتنا بالتأكيد التمييز بين أفكارنا - أو تخيلاتنا - والعالم الخارجي. لكن الانطباعات القوية التي عاشتها زوجتي في السجن لم تكن أفكارها أو تخيلاتها. بل كانت حقيقية، على طريقتها، كالضوء الذي ينعكس على عينيها والأصوات التي تُهتز طبلة أذنها. لو كانت حساسة بما يكفي لرؤية ترددات الطاقة هذه، أليس من الممكن أن تخطئها وتظنها حقيقة، كما يُمكن أن يُخطئ الهولوغرام في اعتباره حقيقيًا؟

يبدو كل هذا منطقيًا للغاية. بل قد نشعر بالتبرير في ادعائنا أننا وضعنا "الظواهر الخارقة للطبيعة" على أسس علمية حقيقية. فبمساعدة نظرية "التسجيل الصوتي"، يُمكننا تفسير جميع أنواع الظواهر المُحيّرة، من الأشباح و"الرؤى" إلى التخاطر وقياس النفس والاستبصار. ومع ذلك، لا تزال هناك مشكلة واحدة تُعيق جميع محاولات التفسير المنطقي: لمحات من المستقبل. تأمل القصة التالية:

في عام 1935 قرر قائد الجناح فيكتور جودارد - الذي أصبح فيما بعد المارشال الجوي السير فيكتور جودارد - زيارة مطار مهجور من الحرب العالمية الأولى في دريم، بالقرب من إدنبرة. ثبت أنه في حالة خراب، مع حظائر متحللة وأرضية متصدعة. ترعى الماشية في المطار القديم. في وقت لاحق من ذلك اليوم، أقلع جودارد بطائرته ذات السطحين من طراز هوكر هارت من تيرنهاوس، إدنبرة، متوجهاً إلى منزله. لكنه سرعان ما واجه سحابة كثيفة وأمطارًا غزيرة، وبينما كان يحاول النزول أسفل سقف السحب، دارت الطائرة لبضع لحظات خارجة عن السيطرة. تمكن من الاستقامة بالقرب من الأرض - قريبًا جدًا لدرجة أنه كاد يصطدم بامرأة كانت تركض بعربة أطفال. كان أمامه خليج فورث، وقرر جودارد التوجه إلى مطار دريم لمعرفة اتجاهاته.

كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة وهو يعبر حدود المطار. ثم حدث أمر غريب: وجد نفسه فجأة تحت أشعة الشمس الساطعة. ومطار دريم...

لم يعد حقلًا مُغطىً بالأعشاب، بل أصبح مكانًا أنيقًا ومنظمًا، بأربع طائرات صفراء متوقفة أمام أبواب الحظيرة المفتوحة، وميكانيكيين بملابسهم الزرقاء يتجولون في المكان. فاجأ هذان الأمران غودارد، ففي تلك الأيام كانت جميع طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني مطلية بالألمنيوم، وكان الميكانيكيون يرتدون ملابسهم الكاكي. علاوة على ذلك، لم يُلقِ الميكانيكيون نظرةً حتى عندما حلقت الطائرة على ارتفاع أقدام قليلة: شعر غودارد أنهم لم يروه. كما شعر بـ"شيءٍ أثيري في ضوء الشمس".

عندما هبط، أخبر رئيسه المباشر بهلوساته، ونُصح بالامتناع عن شرب الويسكي. لذلك، لم يذكر غودارد شيئًا عن رؤياه في تقريره الرسمي. لم يُصَب بصدمة أشد إلا بعد أربع سنوات، عندما اندلعت الحرب. في المرة التالية التي رأى فيها دريم، كان قد تحول إلى مطار رؤياه. طُليت طائرات التدريب باللون الأصفر، وارتدى الميكانيكيون بذلات زرقاء. طائرة أحادية السطح لم يتعرف عليها قبل أربع سنوات، فحددها الآن على أنها مايلز ماجيستر.

التسجيلات من الماضي حقيقة، كما يُثبت كل فيلم وتسجيل غرامافون. لكن التسجيل من المستقبل يبدو سخيفًا. حتى لو افترضنا أنه هلوسة، وليس "انزلاقًا زمنيًا" إلى المستقبل، يبقى الأمر مستحيلًا.

لم يُوافق ديفيد بوم على هذا الرأي، فقد صرّح قائلاً: "النظام الضمني موجودٌ دفعةً واحدة، لا علاقة له بالزمن". وكذلك إيلين غاريت، فقد قالت عن تجاربها في الاستبصار: "تبقى التجربة "حقيقية" كأي تجربة أخرى، وتُشير إلى ضرورة وجود تواصلٍ أزليٍّ لا زمان فيه ولا مكان بين ذواتنا الحدسية وقوانين الطبيعة الأبدية". وهو تعليقٌ يُصبح أشدّ أهميةً إذا استُبدلنا "الذات الحدسية" بـ"الدماغ الأيمن". كما قالت: "على المستويات الاستبصارية، يوجد تزامنٌ زمني". كل هذا، بالطبع، يُبقينا في حيرةٍ من أمرنا. ومع ذلك، يبدو أن أحد تصريحاتها حول الاستبصار يُلقي بعض الضوء على هذه العملية المُحيّرة. في الرؤية الاستبصارية، لا أنظر إلى الأشياء... كما في الرؤية العادية، بل يبدو أنني أجذب الشيء المُدرَك نحوي، بحيث يصبح جوهر حياته وجوهري، للحظة، شيئًا واحدًا. هذا يشبه إلى حد كبير تعليق ماريا دي زيرولد بأنها بدت وكأنها أصبحت الأشياء التي قيستها نفسيًا، وهو ما يُذكرنا بدوره بأن برغسون قال إننا نستطيع معرفة الأشياء من خلال "الولوج إلى داخلها" بطريقة ما. وهذا يُذكرنا بدوره بأن برغسون قال أيضًا إننا لا نستطيع معرفة الزمن إلا "حدسيًا". بمجرد أن نفكر فيه، نُحطّمه إلى شظايا غير واقعية. هل من الممكن أننا، في محاولتنا شرح تجربة غودارد بمصطلحات "منطقية"، نُقيم بالفعل حاجزًا منيعًا بيننا وبين الواقع؟ لكن إيلين غاريت لم تُنهِ بعد ملاحظاتها على الاستبصار. تُتابع قائلةً: "وهكذا، في رأيي، يحدث الاستبصار في حالات وعي...

العلاقات موجودة كحقيقة في الطبيعة، على مستويات من الوجود تتجاوز القدرات الإدراكية الحالية لحواسنا [التشديد من عندي]. وبعبارة بسيطة، يعني هذا أن الاستبصار لمحة من واقع موجود على مستوى آخر من الوجود. نعود إلى "النومينا" عند كانط و"النظام الضمني" عند ديفيد بوم. حتى أن إيلين غاريت تستخدم تشبيهًا يبدو وكأنه "نمط تداخل".

في تجربة الاستبصار، يتبع المرء عمليةً مُحددة. يتحرك الضوء في خيوطٍ وأشرطةٍ منسوجة، ومن خلالها، تظهر وتختفي خطوطٌ مُتموجةٌ مُتقطعة، تتحرك في اتجاهاتٍ مُختلفة. يتكون الإدراك من مجموعةٍ سريعة الحركة من هذه الخطوط المُتقطعة والمُتغيرة، وفي البداية، يستخلص المرء المعنى من هذا التدفق، حيث تُشكل هذه الخطوط أنماطًا ذات دلالةٍ يستشعرها الإدراك الاستبصاري المُنتبه بدقة.*

يبدو هذا وكأن إيلين غاريت تلمح "نمط التداخل" الكامن في الواقع. وإذا تذكرنا أن كل جزء من "نمط التداخل" يحتوي على صورة كاملة للكل، فسنتمكن فجأة من إدراك كيف عرفت إيلين غاريت أن طبيبًا مفقودًا كان في لا جولا، كاليفورنيا.

تبرز حقيقة أخرى بوضوح تام. مهما حدث لغودارد، فلم تكن رؤيته للمستقبل سلبية، بل تضمنت تفعيلًا مفاجئًا لقوة مجهولة في عقله. وهذا أمر لا يمكن المبالغة في أهميته. في هذا الفصل، حاولنا فهم "الانزلاقات الزمنية"، والرؤى السيكومترية، والاستدلال بالعين المجردة من منظور "عالم المعلومات"، و"التسجيلات" التي يمكن "التقاطها" من قِبل ملكة بشرية خاملة. يبدو أن كل هذا يؤكد فكرة أننا مجرد مراقبين سلبيين. لكن الفكرة التي برزت من الصفحة الأولى من هذا الكتاب هي أن الإنسان يمتلك "قوى خفية". إنه ليس كائنًا سلبيًا. "المغالطة السلبية" هي واحدة من أكبر الأخطاء التي يمكن أن يرتكبها البشر؛ إنها تحكم علينا بإغفال معنى الحياة برمته. قال باكمنستر فولر ذات مرة: "أبدو وكأنني فعل"، وهذا الإدراك هو الخطوة الأولى في فهم ما وراء الطبيعة. وتؤكد إيلين جاريت على نفس النقطة عندما تكتب:

لقد أشرتُ إلى حالةٍ داخليةٍ من "اليقظة" تُعدّ العاملَ الأساسيَّ في العديدِ من هذه الأنشطة. إنها إدراكٌ لحياةٍ حيويةٍ أسمى. أدخلُ في

أنا في عالم من الإشعاع النابض بالحياة بشكل مكثف؛ أنا كفء بشكل إضافي، وأشارك بشكل كامل وحميم في الأحداث التي تتحرك بمعدل حركة متزايد، وعلى الرغم من أن الأحداث التي ألاحظها موضوعية بالنسبة لي، فإنني أفعل أكثر من مجرد مراقبتها - أنا أعيشها.

النتيجة واضحة. الاستبصار له علاقة بكوننا أكثر حيوية.

*وقد تم سرد القصة بالتفصيل في كتاب "الأسرار"، ص 361-363.

*ج. ب. بريستلي، فوق السور الطويل العالي، ص 60.

*كريستوفر بيرد، اليد العرافة، ص 273. أنا مدين لهذا الكتاب بالوصف المذكور أعلاه لهارفاليك.

*لمعرفة المزيد عن هذه القصة، انظر كتاب "الأسرار"، ص 151-152.

*كل هذه الاقتباسات مأخوذة من كتاب إيلين جاريت "مغامرات في العالم الخارق، مذكرات شخصية" (1949)، الفصول الخامس عشر والسادس عشر.

5
الاختراقات؟

في كتابه السيرة الذاتية Rain Upon Godshill، يصف جيه بي بريستلي حلمًا مزعجًا:

في إحدى ليالي العام الماضي، حلمتُ بنفسي في مدينة غريبة، ورغم أنني لم أكن أعرف اسمي ولم أكن أعرف شكلي، إلا أنني شعرتُ أنني رجل أصغر وأصغر، شخص آخر في الحقيقة، طالب أو شيء من هذا القبيل؛ تسللتُ إلى غرفةٍ بها عددٌ من النماذج الصغيرة لاختراعات عسكرية أو بحرية؛ وما إن أخذتُ أحدها من على الطاولة حتى اندفع ضابطان يرتديان الزي الرسمي، وبينما كنتُ أركض خارجًا من المدخل المقابل، أطلق أحدهما النار عليّ عدة مرات، فأصابني بجروح بالغة، وبينما كنتُ أترنح إلى الشارع، شعرتُ أن حياتي تتلاشى. لقد جُرحتُ بالفعل خلال الحرب، ولكن ليس بهذه الطريقة، ولم أشعر قط في حياتي بأن حياتي تتلاشى بسرعة، ولا أعتقد أنني أستطيع اختلاق ذلك الشعور النابض بالضعف. لا شك أن معظم الحلم كان من اختراعي الخاص، رغم أنني لست من محبي هذا النوع من الدراما، ولكنني أقسم أن ذلك التقدم المتمايل من المكتب إلى الشارع والضعف الأعمى الذي اجتاحني هناك كانا اللحظات الأخيرة لشخص ما وأن وعيي قد أعاد إحياءها.

لا يهم إن كان الحلم يتعلق فعلاً باللحظات الأخيرة من حياة رجل قُتل: المثير للاهتمام هنا هو شعور بريستلي بأن كل ذلك كان حقيقياً تماماً، وليس الخيال المنفصل المعتاد الذي نراه في الأحلام. كلنا مررنا بتجربة مشابهة: حلم يبدو حقيقياً وغريباً لدرجة أنه يبدو وكأنه تسلل إلى عقولنا من مكان آخر.

أجد شخصيًا أن معظم هذه "التدخلات" تحدث عندما أكون على وشك النوم، أو عند استيقاظي صباحًا. تطفو صور غريبة في ذهني، وتُصدر أصواتٌ عباراتٍ غريبةً لكنها بلا معنى، ويُعرّف عني أشخاصٌ لم أرهم من قبل ثم يختفون. تُعرف هذه الأصوات والرؤى تقنيًا باسم "الظواهر التنويمية". * (أو ما يسمى بالهيبنوبومبي إذا حدثت عند الاستيقاظ)، وغالبًا ما تترك وراءها شعورًا قويًا بـ

الواقع المستقل.

توصل الطبيب النفسي الأمريكي ويلسون فان دوسن إلى الاعتقاد بأن حالات التنويم المغناطيسي يمكن أن تكون مفتاحًا حيويًا لمعرفة الذات. ولاحظ أنه "حتى الأشخاص العاديين جدًا الذين يستكشفون هذه المنطقة قد يصادفون أشخاصًا غرباء ومحادثات رمزية غريبة تبدو وكأنها زيارات من عالم آخر". لقد علم نفسه الوقوع في هذه الغيبوبة شبه اليقظة، وكثيرًا ما كان يندهش ويستمتع بالتعليقات التي يسمعها. في إحدى المرات علق صوت قائلًا: "لم أكن أريد أن يحدث أي شيء لمجالي، لذلك قرأت تشيخوف. سيكون لمجالك رسالة إصلاح عليه". وهذا أمر نموذجي لتلك التصريحات الحازمة التي تبدو بلا معنى والتي تدلي بها أصوات التنويم المغناطيسي. ومع ذلك، يمكن للغريب المنوم أيضًا تقديم إجابات معقولة. في مناسبة أخرى، سأله فان دوسن (أو سألها) عما إذا كان ينبغي عليه تغيير وظيفته وظروفه. تلقى صورة لنهر قد تآكل وادٍ عميق على مر القرون، والكلمات: "انهار مثل النهر". اعتبر هذا إشارة واضحة إلى أنه يجب أن يبقى حيث كان - وأن الانتقال من مكان إلى آخر لن يؤدي إلا إلى تقليل فعاليته على المدى الطويل. وفي مناسبة أخرى، وهو على وشك "إيقاظ" نفسه من حالة التنويم المغناطيسي، سمع صوتًا يسأل، "ألا تحب أختي؟" سأل، "من هي أختك؟"، وتلقى الرد، "الجنة. تحدث معي الآن". سأل، "أخبرني عن طبيعتك"، وقيل له، "نفس وسيم". بدا هذا بلا معنى، ولكن عند التأمل رأى فان دوسن أن "النفس الوسيم" يمكن أن تعني الروح النبيلة، وأن فكرة الروح النبيلة، التي أختها الجنة، لها معنى جيد - ربما معنى عميق. ازداد شعوره بأن حالات التنويم المغناطيسي قادرة على الكشف عن شيء ذي أهمية عندما استيقظ من الغيبوبة، ورأى صورة عملاقة لماندالا، منحوتة بدقة من الخشب، بتصميم رباعي يمثل الطبيعة الرباعية للذات الحقيقية. كان مركز التصميم "ثقبًا فارغًا تنطلق منه صفير قوة الكون المرعبة". اعتقد يونغ أن الماندالا من أعظم الصور "النموذجية" للنفس.

بصفته طبيبًا نفسيًا يعمل في مستشفى حكومي للأمراض العقلية (ميندوسينو)، توصل فان دوسن إلى الاعتقاد بأن الهلوسة التنويمية يمكن أن تساعده على فهم أوهام المجانين. وهنا مرة أخرى اختبر ذلك الشعور المحير بغموض هذه المنطقة المجهولة - الشعور بأنها قد تمتلك في النهاية واقعها المستقل. كانت إحدى مريضاته امرأة قتلت "زوجًا عديم الفائدة إلى حد ما". كانت تعاني من هلوسة مريم العذراء التي أخبرتها بالقيادة إلى جنوب كاليفورنيا والمثول للمحاكمة بتهمة القتل. على سبيل المصادقة، كشفت العذراء أنه سيكون هناك زلزال في ميندوسينو يوم مغادرتها وآخر في وجهتها عند وصولها. في المساء الذي غادرت فيه، كان فان دوسن يتحدث إلى القسيس عندما تسببت هزة أرضية في اهتزاز المبنى المبني من الطوب. قرأ لاحقًا في الصحيفة أن هناك

وكان هناك زلزال في الجنوب في الوقت الذي كان من المقرر أن تصل فيه المرأة.

كان فان دوسن مفتونًا أيضًا بهلوسة عامل تركيب أنابيب غاز مصاب بالفصام. رأى، بوضوح تام، امرأة صغيرة نشيطة تصف نفسها بأنها "تجسيد للجانب الأنثوي للإلهي"، ومن خلاله، استطاع فان دوسن إجراء محادثات مع السيدة. كانت إحدى عاداتها الأكثر جاذبية هي تسليم ملابسها الداخلية عندما يقول فان دوسن أو العامل شيئًا توافق عليه. ولكن إذا بدا هذا دليلاً على عدم جوهريتها الحالمة، فإن حدة فكرها تشير إلى عكس ذلك. لم يكن العامل ذكيًا على الإطلاق، لكن معرفة السيدة بالدين والأساطير بدت واسعة. وصف العامل ماندالا عجلة بوذية مصنوعة من أجساد بشرية منسوجة بدقة تتدحرج في المكتب. أمضى فان دوسن أمسية في دراسة الأساطير اليونانية، مع إيلاء اهتمام خاص لأجزائها الأكثر غموضًا، وسألها عنها في اليوم التالي. سجل قائلاً: "لم تفهم الأسطورة فحسب، بل رأت دلالاتها الإنسانية أفضل مني". طلب منها فان دوسن كتابة رسائل يونانية، فوافقت السيدة. لم يكن فان دوسن يراها بالطبع، لكن الفني - الذي لم يكن تعليمه المحدود يشمل اليونانية - استطاع نسخها، وكانت هي الحروف الأصلية. عندما دخل فان دوسن في نقاش ديني معها، أدرك أن فهمها يفوق فهمه، وأنها بدت على دراية واسعة بالتاريخ. بعد محادثتهما، استدار فني أنابيب الغاز وهو يغادر الغرفة، وسأل عن دليل واحد فقط على ما كانا يتحدثان عنه.

يبدو أن تجارب كهذه تؤكد الشعور المضطرب بأن ما يدور في رؤوسنا قد لا يكون شخصيًا كما نعتقد. سجّلت عالمة نفس أمريكية أخرى، الدكتورة جين هيوستن، تجربة مماثلة. استلقى أحد رعاياها على أريكة مرتديًا قناع عين، وسجّل ما "رآه" نتيجة جرعة من عقار إل إس دي. قال إنه كان على شاطئ أثينا يُجري محادثة مع سقراط. سألت الدكتورة هيوستن: "ماذا سيقول؟". "لا أعرف. إنه يتحدث باليونانية وأنا لا أفهمها". أجابت الدكتورة هيوستن، التي درست اليونانية لست سنوات: "أفهمها. كرّر الكلمات". عندها شرع المريض في تكرار اليونانية الكلاسيكية.

لن يجد تومسون جاي هدسون صعوبة في شرح هذا: في الواقع، يفعل ذلك في الفصل الرابع من كتاب "قانون الظواهر النفسية"، مستشهدًا بحالة غريبة وصفها الشاعر كولريدج في كتابه "سيرة أدبية". بدأت خادمة أمية تعاني من "حمى عصبية" تتحدث بوضوح تام باليونانية واللاتينية والعبرية. سُجِّلت جمل كاملة، وكانت منطقية. بعض العبرية جاءت من الكتاب المقدس؛ بينما بدا أن بعضها الآخر من نصوص حاخامية. انبهر طبيب شاب بالغموض لدرجة أنه شرع في كشف ماضي الفتاة. في مسقط رأسها، تتبع عمًا استطاع أن يخبره أنها قد تبناها قس بروتستانتي عجوز. ثم

تتبعتُ ابنة أخت القس، التي كانت أيضًا مدبرة منزله، وعلمتُ أن الرجل العجوز كان يمشي جيئةً وذهابًا في ممر خارج المطبخ يقرأ بصوت عالٍ باليونانية واللاتينية والعبرية. سجّل "عقل الفتاة الذاتي" ما سمعته، مع أنها لم تكن تملك ذاكرةً واعيةً لهذه اللغات، وعادت الكلمات إليها في هذيانها.

في حالة مريض جين هيوستن، يبدو هذا التفسير معقولاً بما فيه الكفاية - ربما أمضى بعض الوقت في طفولته في منزل قس كان يقرأ حوارات أفلاطون بصوت عالٍ باللغة اليونانية. ولكن فيما يتعلق بكتاب فان دوسن "فيض الجانب الأنثوي للإلهي"، يبدو التفسير مشكوكًا فيه. ربما تعلم عامل تركيب أنابيب الغاز الأبجدية اليونانية دون وعي. وربما "استوعب" أيضًا مجلدات عن الأساطير والرمزية الدينية دون أن يُدرك ذلك. ولكن بما أنه كان واعيًا تمامًا بينما كان فان دوسن "يتحدث" مع السيدة المثقفة، فمن الصعب فهم سبب جهله بأن كل هذه المعرفة نابعة من عقله...

أجرى الدكتور أندرياس مافروماتيس البحث الأكثر شمولاً حتى الآن في حالات التنويم في جامعة برونيل. تمكن من تعليم نفسه - وطلابه - الاسترخاء بعمق، ثم الانجراف في حالة بين النوم والاستيقاظ دون الاسترخاء في النوم. يبدو أن هذا هو الجزء الأصعب من التقنية ولكن يمكن تحقيقه بالممارسة. لقد حققته بنفسي بالصدفة بعد قراءة كتاب مافروماتيس "التنويم". نحو الفجر، استيقظت نصف نوم، ولا أزال أتجول في حالة نعاس ممتعة، ووجدت نفسي أنظر إلى منظر جبلي داخل رأسي. كنت أدرك أنني مستيقظ ومستلقي في السرير، ولكن أيضًا أنظر إلى الجبال والمناظر الطبيعية ذات اللون الأبيض، تمامًا كما لو كنت أشاهد شيئًا على شاشة التلفزيون. بعد ذلك بوقت قصير غفوت مرة أخرى. كان الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في التجربة هو الشعور بالنظر إلى المنظر، والقدرة على تركيزه وتحويل انتباهي، تمامًا كما لو كنت مستيقظًا.

حدثت أكثر تجارب مافروماتيس إثارةً للاهتمام عندما كان نائمًا بين مجموعة من الطلاب، وكان أحدهم يُجري قياسًا نفسيًا لشيء كان يحمله بيده، محاولًا وصف تاريخه. وبينما بدأ الطالب يصف انطباعاته، بدأ مافروماتيس أيضًا برؤية مشاهد مختلفة. وسرعان ما أدرك أنه يرى المشاهد التي وصفها الطالب. عندها بدأ مافروماتيس يُغير رؤيته التنويمية.

- وهي القدرة التي اكتسبها من خلال الممارسة - واكتشف أن الطالب بدأ في وصف هذه الرؤى المتغيرة.

بالنسبة لمافروماتيس، فقد أثبت هذا بما لا يدع مجالًا للشك أن حالات التنويم المغناطيسي تشجع التخاطر. وقد تأكد من هذا الاستنتاج في دروس مسائية مع الطلاب، حيث طلب منهم "استرجاع" مشاهد مختلفة تخيلها. ورغم أن النتائج كانت متباينة، إلا أن بعضها كان دقيقًا للغاية بحيث لا يمكن اعتباره...

محض صدفة. كل هذا قاده في النهاية إلى استنتاج مذهل (يخفيه بتواضع في الجملة الأخيرة من الملحق) وهو أن "بعض الصور التنويمية التي تبدو "غير ذات صلة" قد تكون ظواهر ذات معنى تنتمي إلى عقل آخر".

هذا استنتاجٌ مثيرٌ للغاية، إذ يُشير إلى أن التنويم المغناطيسي المُستحثّ عمدًا قد يكون الحل الأمثل لمجال الخوارق بأكمله. تكمن المشكلة الحقيقية في البحث النفسي في استحالة "إجرائه" في المختبر تقريبًا. في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، حقّق البروفيسور جيه بي راين إنجازًا هامًا عندما أخبره مقامرٌ أنه يستطيع التحكم في النرد ليفوز. اختبره راين ووجد أن نتيجته أعلى بكثير من المتوسط، وأن العديد من الأشخاص الآخرين يمكنهم تحقيق نفس الدرجات العالية من خلال التركيز على النرد وإظهار الرقمين 6 و6. ولكن بمجرد أن أثبت راين أن النرد يمكن أن يتأثر بالعقل، أصبح من الصعب التفكير في الخطوة التالية. ومثل عروض أوري جيلر لقدرته على ثني المفاتيح عن طريق لمسها، كانت تجربة راين مثيرة للاهتمام، لكنها أثارت رد الفعل "وماذا في ذلك؟" إذا كانت التجربة التنويمية، كما يعتقد مافروماتيس، بمثابة بوابة إلى عالم القوى الخارقة للطبيعة، فقد تكون بمثابة الاختراق الذي كان البحث النفسي يأمل في تحقيقه منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر.

في الواقع، سبق أن استُبق اقتراح مافروماتيس مرات عديدة في هذا الكتاب - على سبيل المثال، من قِبل تومسون جاي هدسون، الذي اعتقد أن أفضل وقت لتجارب "الشفاء" هو عند النوم أو عند الاستيقاظ صباحًا. أدرك هدسون أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن "العقل الموضوعي"، بشكوكه الفطرية، يبدو أنه يعيق قدرات "العقل الذاتي". وتُقدم لنا نتائج أبحاث الدماغ المنقسم رؤية أوضح للمشكلة. ومن أهم اكتشافاتها أن الدماغ الأيسر (الأنت) يعمل أسرع بكثير من شريكه غير المسيطر. فالدماغ الأيسر دائمًا في عجلة من أمره؛ بينما يأخذ الأيمن وقته. وفي المجتمع المتحضر، تتفاقم المشكلة بسبب الوتيرة السريعة لسباق الفئران.

ومع ذلك، من الواضح تمامًا أنه عندما نكون في عجلة من أمرنا، تتحول التجربة إلى نوع من "عدم التجربة". إذا ابتلعت طعامي بسرعة كبيرة، يصعب عليّ تذوقه. إذا شاهدت التلفاز أو قرأت كتابًا في حالة من نفاد الصبر، لا أستوعب نصفه. ومع ذلك، على مدار الخمسة آلاف عام الماضية، تقبّل الإنسان هذا الوعي المفرط التوتر على أنه حقيقة. ونتيجة هذا التوتر المستمر هي شعور بروست بأنه "عادي، عرضي، فانٍ". لماذا تُشعر كعكة مغموسة في الشاي بسعادة غامرة؟ ففي النهاية، لم يكن لها سوى أثر إحياء طفولة بروست، وهو يعلم بالفعل أنه كان طفلًا في كومبراي. تكمن الأهمية الحقيقية للتجربة في أن طعم المادلين أبطأه وجعله يدرك فجأة متعة العيش بوتيرة أبطأ بكثير. و"ذئب السهوب" لهيرمان هيسه، الذي يصف...

تجربة مماثلة، تستخدم العبارة المهمة، "فجأة تمكنت من التنفس مرة أخرى"
... ." أهم ما يمكن للإنسان المعاصر أن يتعلمه هو كيفية الاسترخاء الحقيقي. فهذا يُنْشِئ نمطًا جديدًا كليًا من الوعي، وعيًا "يتمدد جانبًا" بدلًا من الاندفاع للأمام بسرعة جنونية. وهذا النمط من الوعي هو ما يُتيح الوصول إلى تجربة ما وراء الطبيعة.

في أوائل عشرينيات القرن العشرين، بدأت زوجة الروائي الأمريكي أبتون سنكلير تمر بـ"أزمة منتصف العمر"، بدأت خلالها بتطوير قدراتها التخاطرية. في الواقع، كانت تتمتع بهذه القدرة في طفولتها، حيث كانت تشعر غريزيًا برغبة والدتها فيها، وتعود إلى منزلها قبل أن يتمكن الخادم الأسود من البحث عنها. شعر أبتون سنكلير ببعض الانزعاج من معرفة زوجته بما يفعله بالضبط وهو بعيد عنها. في كتاب بعنوان "الراديو العقلي"، وصف سلسلة من التجارب في نقل الرسومات، والتي أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك قدرة زوجته على قراءة أفكار الآخرين. في الفصل الثامن عشر من ذلك الكتاب، وصفت ماي سنكلير كيف وصلت إلى هذه الحالة التي أصبحت فيها قادرة على التخاطر. قالت إنها تحتاج أولًا إلى حالة من التركيز - ليس التركيز على شيء محدد، بل ببساطة إلى حالة عالية من اليقظة الذهنية. وفي الوقت نفسه، كان عليها الدخول في حالة من الاسترخاء التام. الاسترخاء سيُدخلها في حالة من السكون التام على وشك النوم. وما إن تصل إلى هذه الحالة حتى تصبح مستعدة لبدء التخاطر.

من الواضح أن ماي سنكلير ومافروماتيس يتحدثان عن الشيء نفسه تمامًا. ويمكن التوصل إلى نفس النتيجة: عندما نسترخي في هذا النوع الواسع من الوعي الهادئ، يمكننا البدء في ممارسة "قوانا الخفية".

مرّ المحقق النفسي المتميز جاي بلاي فير بالتجربة نفسها. ففي ريو دي جانيرو أوائل سبعينيات القرن الماضي، عثر بالصدفة على خدعة الانغماس في حالة من اليقظة. كانت الليالي حارة لدرجة أنه كان من الصعب جدًا النوم، وكثيرًا ما كان يلازم حالة "حدّية". في هذه الحالات، كانت تراوده رؤى، "كما لو أن شريحة ألوان عُرضت على شاشة غير مرئية في الظلام أمام عينيّ المغمضتين". أصبحت "عروض الشرائح" حدثًا ليليًا تقريبًا، ومثل غيره من "الحالمين اليقظة"، كان مفتونًا بالواقعية الظاهرة للمشاهد التي تطفو أمام عينيه. اكتشف لاحقًا أن إحدى الطرق الجيدة لتحفيز هذه الحالات هي "التفكير باللون الأزرق"، حتى أصبح مجال رؤيته بأكمله مجرد طبقة من الزرقة. (بدأت ماي سنكلير أيضًا بتحفيز "حالة وعي فارغة"). علمت بلاي فير لاحقًا أن مُجرِّبي الخوارق كانوا يستخدمون هذه الطريقة نفسها لتحفيز التخاطر. كانوا يقطعون كرات البلياردو إلى نصفين ويضعون النصفين على عيني الشخص بحيث لا يرى شيئًا سوى مجال من البياض الفارغ. (أ

(إن استخدام زوج من النظارات الواقية ذات العدسات الورقية البيضاء يكون بنفس الفعالية.)

بدأ بلاي فير بالمشاركة في تجارب مع باحث من كامبريدج، الدكتور كارل سارجنت. في أحد الأيام، أثناء عودته إلى لندن، اتفق هو وسارجنت على تجربة تخاطرية حوالي منتصف الليل. استلقى في سريره وتسبب في حالة "فارغة"، ثم انتظر. وفجأة "رأى" صورة. كانت رجلاً يقف على قاعدة محاطًا بهالة من الضوء - ظن بلاي فير أنها قد تكون تمثالًا لماو تسي تونغ. في اليوم التالي، استفسر من سارجنت عن نوع الصورة التي كان سارجنت يحاول "إرسالها". كانت صورة لويليام بليك بعنوان "يوم سعيد"، حيث يقف رجل بذراعين ممدودتين على قمة صخرة، وخلفه هالة من الضوء. كانت رؤية بلاي فير التنويمية "موفقة" بلا شك.

في مناسبة لاحقة، قرر بلاي فير تجربة التخاطر مع جمهور كامل. بدأ بملء الغرفة بضوضاء بيضاء بتشغيل راديو على طول موجي غير مستخدم والتقاط صوت الهسهسة المعتاد، وطلب من جمهوره الاسترخاء - أو حتى النوم إذا أرادوا. ثم اختار واحدة من أربع بطاقات بريدية عشوائيًا - كانت لمنزل تشاتسوورث - ووضعها خلف شاشة، وحاول "بث" الصورة لجمهوره. فعل ذلك بالتحديق في الصورة باهتمام وتكرار الكلمات في ذهنه، "قلعة، جسر، نهر، أشجار". أخيرًا، أطفأ الراديو وسأل الجمهور عما "التقطوه". من بين الإجابات الأولى كانت "أشجار، نهر، جسر". ثم مرر البطاقات الأربع على الجمهور وطلب منهم التصويت على أي منها حاول "إرسالها". حصلت منزل تشاتسوورث على أكبر عدد من الأصوات - 35 بالمائة. حصلت لوحة فلمنكية لقلعة بأشجار على ثاني أعلى نسبة تصويت (٢٥٪). أما الصورتان المتبقيتان، فحصلتا على ١٠٪ و١٢٪ فقط على التوالي. وبدا هذا، مرة أخرى، دليلاً قاطعاً على أن التخاطر فطريٌّ لنا عندما نكون في حالة استرخاء.*

في كتابه "الظواهر الخارقة للطبيعة"، يذكر عالم النفس ستان جوتش مثالاً أكثر إثارة للاهتمام. مثالٌ بارز. يتعلق الأمر بكيميائي يُدعى مارسيل فوغل، وكان أيضًا وسيطًا روحانيًا. في عام ١٩٧٤، حضر غوتش محاضرةً ألقاها فوغل، وعندما أخبر فوغل جمهوره أنه ينوي إسقاط صورةٍ في أذهانهم، كان رد فعل غوتش: "لا، لا تحاولوا ذلك". شعر غوتش أن فوغل يُصيبه بالذهول. طُلب منهم إغلاق أعينهم، وأعلن فوغل أنه بدأ بنقل صورة. عند هذه النقطة، "رأى" غوتش في مخيلته "مثلثًا يبدو أنه مُركب عليه دائرةٌ أقل وضوحًا". ثم قال فوغل إنه يُعطي الصورة لونًا: أصبحت الصورة الذهنية لغوتش زرقاء، ثم حمراء. طلب فوغل منهم الآن فتح أعينهم وسألهم كم منهم رأى صورةً. عندما قال أول شخص رفع يده إنه رأى مثلثًا، كاد غوتش أن يسقط من على كرسيه. ثم أخبرهم فوغل أنه أسقط صورة مثلثٍ مُحاطٍ ب...

دائرة، وأنه لوّنها أولاً باللون الأصفر، ثم بالأحمر. (الأزرق هو اللون "المُكمّل" للأصفر: إذا حدّقتَ بثبات في جسم أصفر فاقع، ثم نظرتَ إلى جدار فارغ، ستظهر صورة زرقاء لاحقة). علق غوتش قائلاً: "قضيتُ بقية تلك المحاضرة في حالة من الفرح لا أستطيع وصفها إلا بالفرح. عند ختام المحاضرة، صفق الجمهور بحماس. لكن لماذا صفقوا فقط؟ كان علينا أن ندوس الأرض ونصرخ ونحطم الكراسي تكريمًا لهذا البطل العالمي".

لقد أثبت فوجل، مثل بلاي فير، أن عرض صورة تليفونية ليس مسألة عشوائية، وتشير تجارب مافروماتيس مع التنويم المغناطيسي بشكل لا لبس فيه إلى نفس النتيجة.

تشير حالةٌ ذكرها برايان إنجليس في كتابه "قوة الأحلام" إلى أن التنويم الإيحائي يُساعد على استبصار الأحلام. في رسالةٍ إلى مؤسسة كويستلر، وصفت مراسلته كيف استيقظت ذات صباح،

... لأجد نفسي لستُ في سريري، في شقتي، بل في سرير زميل لي. مع أنني لم أكن في شقته من قبل، إلا أنني عرفتُ مكاني فورًا؛ لكنني لم أشعر بأيّ من مشاعر المفاجأة أو الرعب أو النشوة التي قد تصاحب حدثًا كهذا. ولعلّي أؤكد أنني أدركتُ الموقف من خلال اللمس لا من خلال الرؤية، لأنني لم أكن قد فتحتُ عينيّ بعد.

عندما فتحت عينيها أدركت أنها كانت في سريرها.

لم تُعر زميلتها المذكورة اهتمامًا يُذكر، لأنها كانت مغرمة بشخص آخر، وكانت تعلم أن لديه صديقة. ومع ذلك، في ذلك المساء، وفي مناسبة جامعية رسمية، دعاها للخروج خلسةً إلى حانة، وانتهى الأمر بـ"مغازلة" كان من المرجح أن تنتهي في فراشه. استذكرت "حلمها" في ذلك الصباح، ورفضت أن تدعه يمضي قدمًا. بالتفكير في الأمر لاحقًا، خطر ببالها أنه في تلك الأيام التي كانت فيها وسائل منع الحمل غير كافية...

— كان ذلك في عام 1956 — ربما كانت لتجد نفسها حاملاً، وتواجه خيار الزواج القسري أو الأمومة المنفردة، وأن الوهم التنويمي الذي كانت تعاني منه كان في الواقع تحذيراً لها من الاستسلام لدافع لطيف.

كيفية عمل الاستبصار - في حالة التنويم المغناطيسي أو أي حالة أخرى - موضوعٌ يجب تناوله في الفصل التالي. يكفي الآن أن نلاحظ أن هذه الحالة تُعزز فكرة الصلة بين التنويم المغناطيسي والظواهر الخارقة للطبيعة.

صرح طالب بارز آخر في علم السحر، رودولف شتاينر، بأن أفضل

الوقت المناسب للتواصل مع الموتى هو قبل النوم أو بعد الاستيقاظ مباشرة. لم تترك تجربة شتاينر الشخصية أي شك لديه في إمكانية التواصل مع الموتى. نشأ شتاينر في قرية صغيرة في النمسا بين الجبال والغابات، وكان لديه دائمًا القدرة على الغرق في حالات عميقة من التأمل. ادعى أن هدوء الطبيعة جعله واعيًا "ليس فقط بالأشجار والجبال ... ولكن أيضًا بالكائنات التي تعيش خلفها، أرواح الطبيعة التي يمكن ملاحظتها في مثل هذه المنطقة". يروي في سيرته الذاتية كيف كان جالسًا، وهو صبي صغير، في غرفة انتظار في محطة عندما دخلت امرأة غريبة. لاحظ شتاينر أنها تحمل تشابهًا كبيرًا مع أفراد آخرين من عائلته. قالت المرأة للصبي: "حاول أن تساعدني بقدر ما تستطيع"، ثم دخلت الموقد واختفت. لم يمض وقت طويل حتى علم شتاينر أن إحدى قريباته قد توفيت في نفس الوقت الذي رأى فيه "الشبح".

ونتيجة لهذه التجارب، صاغ شتاينر عقيدته الأساسية:

قلتُ في نفسي: الأشياء والأحداث التي تُرى بالحواس موجودة في الفضاء. هذا الفضاء خارج الإنسان؛ لكن بداخله يوجد نوع من فضاء الروح، وهو مسرح الكائنات والأحداث الروحية. كان من المستحيل بالنسبة لي أن أعتبر الأفكار مجرد صور نكوّنها للأشياء. بالنسبة لي، كانت بمثابة تجليات لعالم روحي يُرى على مسرح الروح... شعرتُ أن معرفة العالم الروحي لا بد أن توجد بالفعل في الروح كواقع موضوعي، تمامًا مثل الهندسة.

هذه عقيدة مُحيّرة، إذ تبدو مُتناقضة مع تجاربنا اليومية. إذا غرقتُ في حالة من التأمل، فلن أرى "رؤى العالم الروحي"، وبالتأكيد لن أرى أشباحًا. مع ذلك، أصرّ شتاينر طوال حياته على أن العالم الذي بداخلنا هو عالم الأرواح. لكن بحلول هذا الوقت، ينبغي أن نكون قادرين على الأقل على إدراك ما يعنيه. إن "دخول العالم الداخلي" لم يكن مجرد انغماس في حالة من التأمل، بل كان سقوطًا في جحر الأرنب.

مثل أرنولد توينبي، امتلك شتاينر قدرةً على التواصل الخيالي مع الماضي. وقد لخّصتُ ذلك في كتابي عن شتاينر كما يلي:

في الرحلة نفسها [إلى فايمار] زار غرفة مارتن لوثر في فارتبورغ، كما أمضى بعض الوقت في برلين وميونيخ. لا شك أن هذه الرحلة الأولى إلى العالم الخارجي كانت ذات أهمية بالغة لشتاينر. فقدرته الفطرية على الانغماس في العوالم العقلية كانت تعني أن كل تاريخ...

كان الموقع والمعرض الفني تجربةً خياليةً حيوية. يجد معظمنا المواقع التاريخية تجربةً سطحيةً إلى حدٍ ما؛ يُؤكد لنا الدليل السياحي وقوع حدثٍ ما هناك، ونصدقه؛ لكننا أكثر وعيًا بالسياح الآخرين ومحلات الهدايا التذكارية وعربات الآيس كريم. طوال حياته، امتلك شتاينر القدرة على الانغماس في روح المكان، واستحضار مشاهد من الماضي. لذلك، أمام تمثال غوته في فايمار، شعر بأن "هواءً مُنعشًا يغمر كل شيء"، بينما أثارت زيارته لفارتبورغ إعجابه لدرجة أنه شعر أنها كانت من أكثر أيام حياته التي لا تُنسى.*

كان لدى صوفي آخر، ويليام بليك، نفس النظرة للعالم الباطن. كتب في فهرسه الوصفي: "عالم الخيال هذا هو عالم الأبدية؛ إنه الحضن الإلهي الذي سنذهب إليه جميعًا بعد موت الجسد النباتي [التشديد مني]. عالم الخيال هذا لانهائي وأبدي... توجد في هذا العالم الأبدي الحقائق الدائمة لكل ما نراه منعكسًا في هذه الكوب النباتي للطبيعة". تبدو هذه الجملة الأخيرة مشابهة جدًا للخلاصة التي توصلنا إليها في الفصل السابق: أننا نعيش في "عالم معلومات" حيث كل شيء "مسجل" بطريقة ما، ويذكرنا هذا بأن شتاينر كان يعتقد أيضًا أن تاريخ الكون متاح للتفتيش من قبل الصوفيين. استعار شتاينر مصطلحًا من كتاب السيدة بلافاتسكي الثيوصوفي وأطلق على هذه "المكتبة" اسم السجلات الأكاشية. ادعى العديد من الثيوصوفيين قدرتهم على "قراءة" السجلات الأكاشية. الباحث ج.
كتب آر إس ميد كتابًا بعنوان "هل عاش يسوع قبل 100 عام؟"، مستندًا إلى وثيقة يهودية تُسمى "تولدوث جيشو" عن حاخام معين يُدعى جيشو عاش حوالي عام 100 قبل الميلاد، مما يُشير إلى أن يسوع وجيسشو هما الشخص نفسه. في المقدمة، أقر بأن أحد أسباب تبنيه لهذه الفرضية هو أن العديد من الأصدقاء ذوي "القدرات الاستبصارية" أجمعوا على أن يسوع التاريخي عاش قبل قرن من التاريخ التقليدي. "إنهم، جميعًا، يدّعون أنه إذا ركزوا انتباههم على الأمر، يمكنهم رؤية أحداث تلك الأيام البعيدة تمر أمام أعينهم، أو بالأحرى، يبدو أنهم في خضمها في الوقت الحالي، تمامًا كما نلاحظ عادةً الأحداث في الحياة الواقعية". تم تحديد هوية هذين الصديقين، في كتاب صغير بعنوان "التحقيقات الخفية" بقلم سي. جيناراجاداسا، باسم آني بيسانت وسي. دبليو. ليدبيتر من الجمعية الثيوصوفية. كتب عضو آخر في الجمعية الثيوصوفية، وهو دبليو. سكوت إليوت، تاريخًا لأطلانطس وليموريا، مستندًا إلى أبحاثه الخاصة في السجلات الأكاشية. وأنتج شتاينر نفسه نوعًا من تاريخ الكون، يُسمى "الذاكرة الكونية"، يتضمن روايات عن أطلانطس وليموريا.

سيجد القارئ المتشكك عادة صعوبة في استيعاب هذه الروايات.

"تاريخ الأرض" لشتاينر، سكوت إليوت، و"الأسقف" ليدبيتر. ومع ذلك، هذا ليس في حد ذاته سببًا لرفض فكرة "الذاكرة الكونية". خصص ويليام دينتون المجلد الثالث من كتاب "روح الأشياء" لـ"الفحوص الفلكية" التي تتألف في معظمها من "رؤى" ابنه شيرمان لكواكب المريخ والزهرة والمشتري. بعد المجلدين الأولين، بما يتضمنانه من أدلة دامغة عن اليونان القديمة وروما، يُمثل هذا الكتاب خيبة أمل كبيرة. للزهرة أشجار ضخمة كفطر الفطر، مليئة بالهلام الحلو. للمريخ رجال بأربعة أصابع وشعر أشقر، بينما يسكن المشتري شقراوات زرقاء العينين قادرات على الطيران. من الواضح أن عقل شيرمان اللاواعي كان يماطل. ومع ذلك، فإن الأدلة المستندة إلى الفحص النفسي للأشياء في المجلدين الأولين لا تزال مثيرة للإعجاب حقًا. الدرس المستفاد هو أنه في هذه المناطق "الحدودية" من العقل، يمكن للإدراكات "الاستبصارية" أن تمتزج بسهولة مع الأحلام التي تمتلك كل الواقع المذهل للصور التنويمية.

إن تفسير شتاينر لـ "الذاكرة الكونية" هو أن:

... بالمعنى الروحي، ما هو "ماضٍ" لم يختفِ تمامًا، بل لا يزال موجودًا. في الحياة المادية، لدى البشر هذا المفهوم فيما يتعلق بالمكان فقط. إذا وقفتَ أمام شجرة، ثم ابتعدتَ ونظرتَ إلى الوراء... فالشجرة لم تختفِ. وفي العالم الروحي، ينطبق الأمر نفسه على الزمن. إذا اختبرتَ شيئًا في لحظة، فقد انقضى في اللحظة التالية من حيث الوعي المادي؛ أما إذا تصوّرتَه روحيًا، فهو لم يزل. يمكنكَ النظر إليه كما يمكنكَ النظر إلى الشجرة.

لا يُثير تعليقٌ كهذا الحيرةَ إذا تذكرنا تجارب توينبي في اليونان عام ١٩١٢: فقد كان قادرًا بطريقةٍ ما على استحضار أحداث الماضي كما لو كانت تحدث بالفعل في اللحظة الراهنة. في حياتنا اليومية، تُعجّلنا حواسنا الجسدية، فتتلاشى التجارب وتختفي بسرعة. ومع ذلك، نعلم أنها جميعًا مُخزّنة في الذاكرة، وأن حدثًا عابرًا - مثل كعكة بروست المغموسة في الشاي - يُمكن أن يُحييها بواقعيتها. يُعلن شتاينر أنه إذا استطعنا أن نتعلم الغوص في أعماق أنفسنا - "في جحر الأرنب" - يُمكننا التواصل ليس فقط مع ذكرياتنا الماضية، بل أيضًا مع ذكريات الجنس البشري. كما يُعلن أنه من خلال هذه القدرة على دخول "عالمه الداخلي" الخاص، يُمكنه مُحادثة الموتى. في محاضرة بعنوان "الموتى معنا"، يُوضح:

إلى جانب اليقظة والنوم، هناك حالة ثالثة، أكثر أهمية للتواصل مع العالم الروحي... أعني الحالة المرتبطة باليقظة والنوم، والتي لا تدوم إلا لثوانٍ معدودة... في لحظة النوم، يقترب منا العالم الروحي بقوة، لكننا ننام فورًا، فاقدين الوعي بما مرّ في الروح.

إذا أردنا أن نسأل سؤالاً عن الموتى، فعلينا أن "نحمله في الروح" حتى لحظة النوم، ثم نطرح السؤال. يجب أن يكون مشبعًا بمشاعر عميقة وإرادة، حتى يُحفظ في العقل الباطن. ثم تأتي الإجابة من داخلنا. يصف شتاينر في سيرته الذاتية مناسبتين أصبح فيهما "مُلِمًّا عن كثب" بأرواح الموتى. في المرة الأولى، تم تقديمه إلى عائلة زميل دراسة ولكنه لم يلتقِ بالأب، الذي كان مريضًا ومنعزلاً. ومع ذلك، عندما توفي الأب، كان شتاينر يعرف الكثير عن حياته وشخصيته لدرجة أنه طُلب منه إلقاء خطبة الجنازة. بعد ثماني سنوات، في فايمار، أقام شتاينر في منزل أرملة تُدعى آنا إيونيكي، التي توفي زوجها مؤخرًا: ومرة أخرى، ادعى شتاينر أنه تمكن من التعرف على الرجل الميت عن كثب.

للأسف، لا يوجد دليل قاطع على ادعاءات شتاينر. لكن الأمر ليس كذلك في حالة متصوف آخر، إيمانويل سويدنبورغ، الذي ادعى أيضًا قدرته على دخول "عالم الأرواح" بإرادته، والذي توضح مذكراته الروحية أنه استخدم حالات التنويم المغناطيسي للوصول إلى ذلك العالم. في عام ١٧٦١، أخبرت أرملة السفير الهولندي سويدنبورغ أن صائغ فضة يطالبها بدفع ثمن خدمة شاي، كانت مقتنعة أن زوجها الراحل قد دفع ثمنها بالفعل. بعد بضعة أيام، أخبرها سويدنبورغ أنه تحدث إلى زوجها في عالم الأرواح، وأن لديه رسالة منه: سيُعثر على إيصال خدمة الشاي في درج سري بمكتبه مع بعض المراسلات السرية. عُثر على كل من الإيصال والمراسلات في المكان الذي قال سويدنبورغ إنه سيكونان فيه. في مناسبة أخرى، طلبت ملكة السويد من سويدنبورغ تقديم تحياتها لأخيها الراحل. عندما رآها لاحقًا، أخبرها أن شقيقها اعتذر عن عدم رده على رسالتها الأخيرة، وسيفعل ذلك الآن عبر سويدنبورغ. وبينما كان سويدنبورغ يُسلم الرسالة، شحب وجه الملكة وقالت: "لا أحد يعلم هذا السر إلا الله".

يمكننا بطبيعة الحال أن نفضل رفض فكرة أن سويدنبورج استمد معلوماته من الموتى: ما هو واضح هو أنه كان قادرًا على الحصول على المعلومات "بشكل خارق للطبيعة"، وأنه استخدم حالات التنويم المغناطيسي للدخول إلى هذا "العالم الداخلي". * كلماته الخاصة تعكس كلمات شتاينر: "بل هناك نوع آخر من

الرؤية التي تأتي في حالة بين النوم واليقظة. فيفترض الإنسان حينها أنه في حالة يقظة تامة، إذ إن جميع حواسه نشطة.

... . أطلق سويدنبورج على هذه الحالة اسم "القوة السلبية"، مؤكدًا بذلك وجهة نظر إيلين جاريت بأن العقل يحتاج إلى أن يكون في حالة غريبة تكون سلبية ونشطة في نفس الوقت.

يبدو إذن أن هناك إجماعًا ملحوظًا على أن الدخول في "حالات الوعي الباطني" ينطوي على انسحاب من العالم الخارجي واسترخاء في "عالم داخلي" أعمق بكثير من الاسترخاء العادي. ما لا يزال يصعب استيعابه هو فكرة أن دخول عالمنا "الداخلي" يمكن أن يمنحنا بطريقة ما إمكانية الوصول إلى واقع أوسع - ففي النهاية، العالم "الخارجي" موجود "خارجيًا" وليس بداخلنا. ولكن إذا كان مافروماتيس محقًّا عندما اقترح أن "الصور التنويمية قد تكون ظواهر ذات معنى تنتمي إلى عقل آخر" - أي أنها تبدو "غريبة" لأنها غريبة - فقد يكون "داخل" عقولنا نقطة اتصالنا بواقع أوسع. قدمت السيدة أبتون سنكلير الاقتراح نفسه عندما كتبت أنه "إذا كان الاستبصار حقيقيًا، فقد نتمكن من الوصول إلى جميع المعارف. قد نكون في الواقع ينابيع، أو منافذ لعقل واحد واسع". إذا كان التخاطر حقيقيًا، "فإن عقلي ليس ملكي...". "أنا وعالم الرجال واحد." أضاف أبتون سنكلير مزيدًا من التعليقات:

ما يعنيه التخاطر لزوجتي هو هذا: يبدو أنه يشير إلى أساس عقلي مشترك، يكمن وراء عقولنا الفردية، والذي يمكننا تعلم استغلاله. تخيل العقل الواعي كشجرة، والعقل الباطن كجذور تلك الشجرة: فماذا عن الأرض التي تنمو فيها الشجرة، والتي تستمد منها قوتها؟ ما هي التيارات التي تجري في تلك الأرض، وتؤثر على جميع أشجار الغابة؟ إذا سقطت شجرة، تهتز الأرض، فهل يمكن للأشجار الأخرى أن تشعر بالنبض؟

بمعنى آخر، يبدو أننا نستشعر لمحاتٍ من وعي كوني، أو لاوعي كوني؛ نوعٌ من العقلانية المشتركة بيننا جميعًا، والتي يُمكننا إدخالها في وعينا الفردي. لماذا لا يُعقل الاعتقاد بوجود عقلٍ كوني، كما يوجد جسدٌ كوني، خُلِقنا منه، وإليه نعود؟

تعليقات كهذه تدفع القارئ المعاصر فورًا إلى التفكير في كارل يونغ و"اللاوعي الجمعي". لكن سنكلير كان يكتب "الإذاعة العقلية" في أواخر عشرينيات القرن الماضي، عندما كان اسم يونغ نادرًا ما يُعرف خارج سويسرا. في الواقع، كان يونغ قد طوّر بالفعل أسلوبه الخاص للسقوط في "جحر الأرنب"، مع أنه لم يكن معروفًا آنذاك إلا لقلة من مرضاه.

زملاؤه. لم يُكشف الأمر للعامة إلا عام ١٩٦٠، مع نشر سيرته الذاتية "ذكريات، أحلام، تأملات". يروي فيها كيف أنه بعد انفصاله عن فرويد عام ١٩١٣ - والذي هزّ أركانه -
بدأ يعاني من حالات حادة من الشك الذاتي والاكتئاب. في رحلة بالقطار في أكتوبر 1913 - عندما لم يكن لدى أحد أي سبب لتوقع الحرب - عانى من هلوسة بأن أوروبا بأكملها مغمورة بفيضان ومغطاة بالركام العائم والجثث الغارقة؛ وفي النهاية تحول الماء إلى دم. ولأن "الرؤية" استمرت ساعة، فقد شك في أنه على وشك الجنون. "كنت أعيش في حالة من التوتر المستمر؛ وكثيرًا ما شعرت وكأن كتلًا حجرية ضخمة تتساقط عليّ". ومع استمرار الهلوسة، حاول يونغ السيطرة على توتراته بتمارين اليوغا، لكنه غالبًا ما وجد نفسه يهمس بصوت عالٍ: كانت قوى اللاوعي تحاول التحرر. أثارت فكرة الاستسلام لهذه القوى المقاومة والخوف. ثم في يوم من الأيام قرر المخاطرة:

كنت جالسًا على مكتبي مجددًا، أفكر في مخاوفي. ثم تركت نفسي أسقط. فجأةً، شعرتُ وكأن الأرض قد انهارت تحت قدميّ، وسقطتُ في أعماقٍ مظلمة. لم أستطع كبح جماح شعورٍ بالذعر. لكن فجأةً، وعلى عمقٍ ليس بالكبير، هبطتُ على قدميّ ككتلةٍ ناعمةٍ لزجة. شعرتُ بارتياحٍ كبير، مع أنني كنتُ في ظلامٍ دامسٍ على ما يبدو. بعد برهة، اعتادت عيناي على العتمة، التي كانت أشبه بشفقٍ عميق. أمامي مدخل كهف، يقف فيه قزمٌ ذو جلدٍ جلديّ، كما لو كان مومياءً. تجاوزته من خلال المدخل الضيق، وخضتُ في الماء المتجمد حتى ركبتيّ إلى الطرف الآخر من الكهف، حيث رأيتُ، على صخرةٍ بارزة، بلورةً حمراءَ متوهجة. أمسكت بالحجر، ورفعته، فاكتشفتُ تجويفًا تحته. في البداية لم أستطع تمييز شيء، لكنني رأيتُ بعد ذلك ماءً جاريًا. فيها طفت جثة، شاب أشقر الشعر مصاب بجرح في رأسه. تبعه جعران أسود ضخم، ثم شمس حمراء حديثة الولادة تشرق من أعماق الماء. أبهرني الضوء، فأردتُ أن أُعيد الحجر إلى الفتحة، لكن سائلًا انسكب. كان دمًا. بدا لي أن الدم استمر في التدفق لفترة طويلة لا تُطاق. أخيرًا توقف، وانتهت الرؤية.

اعتقد يونغ أن الشاب هو سيغفريد، وأنه يرمز إلى ألمانيا القيصرية، المُصرة على تحقيق مشيئتها. لكنه كان يرمز أيضًا إلى يونغ نفسه، مُحاولًا فرض إرادته على قوى اللاوعي. كان لا بد من قتل سيغفريد وترك اللاوعي يتدفق كالدم.

منذ ذلك الحين، اكتشف يونغ سر "السقوط في جحر الأرنب". تضمنت هذه الطريقة تخيّل هبوط حاد. "في المرة الأولى، وصلتُ إلى عمق يقارب ألف قدم؛ وفي المرة التالية وجدتُ نفسي على حافة هاوية كونية. كان الأمر أشبه برحلة إلى القمر، أو هبوط في الفضاء الفارغ". وجد نفسه في فوهة بركان، وشعر أنه في أرض الموتى. ثم رأى شخصين: رجل عجوز ذو لحية بيضاء وفتاة صغيرة. عرّفا نفسيهما بأنهما إيليا وسالومي، ودار بين يونغ وإيليا حديث طويل "لم أفهمه".

يُذكرنا هذا حتمًا بحوار ويلسون فان دوسن مع إشعاع الأنوثة الأبدية، وطلب فني أنابيب الغاز أن يُعطى دليلًا واحدًا فقط على ما كانوا يتحدثون عنه. كما يُذكرنا بملاحظة فان دوسن حول حالات التنويم المغناطيسي: "حتى الأشخاص العاديون الذين يستكشفون هذه المنطقة قد يصادفون أشخاصًا غرباء ومحادثات رمزية غريبة تبدو وكأنها زيارات من عالم آخر". من الواضح أن يونغ قد عثر على طريقته الخاصة لدخول هذه "الحالة الثالثة من الوعي". في الواقع، التقى يونغ بشخصية تُدعى فليمون، وهو رجل عجوز آخر، بدا له وكأنه يتمتع بوجود مستقل:

لقد أوصلني فليمون وغيره من شخصيات خيالاتي إلى هذه الفكرة الجوهرية، وهي أن هناك أشياءً في النفس لا أنتجها، بل تُنتج نفسها ولها حياتها الخاصة. مثّل فليمون قوةً لم تكن أنا. في خيالاتي، تحاورتُ معه، فقال لي أشياءً لم أفكر فيها بوعي. فقد لاحظتُ بوضوح أنه هو من تكلم، لا أنا. قال إنني أتعامل مع الأفكار كما لو أنني أنا من أوجدها، لكن في نظره، كانت الأفكار أشبه بحيوانات في غابة، أو بشر في غرفة، أو طيور في الهواء... هو من علّمني الموضوعية النفسية، وحقيقة النفس.

يُشير يونغ هنا إلى نقطة بالغة الأهمية. يُشير إلى أنه بعد رؤاه لأوروبا المُغطاة بالدماء، أخبره صوتٌ داخلي: "انظر إليها جيدًا: إنها حقيقية تمامًا وستكون كذلك. لا يُمكنك الشك في ذلك". وفي أغسطس 1914، أصبحت حقيقية. تُشير ماي سنكلير إلى النقطة نفسها. أحيانًا كانت "رؤاها" التخاطرية أشبه بالخيالات، ولكن في أحيان أخرى كانت تتمتع بنوعية غريبة من "الحقيقة" لا تدع مجالًا للشك. "أعتقد أن دراستها تُظهر أن الرؤية الحقيقية تأتي إلى اللاوعي، ليس مباشرةً من الرسم [الذي تُحاول تخمينه]، ولكن من عقل آخر لديه بعض وسائل المعرفة، وإرسالها إلى الوعي عبر اللاوعي...". أثارت الرؤى الحقيقية حدسًا، وإذا سألت: "هل هذا صحيح أم لا؟"، "بدا أن هذا السؤال يتلقى إجابة "نعم"، كما لو أن كيانًا ذكيًا يُخبرني مباشرةً".

وهذه في الواقع خطوة بالغة الأهمية في نقاش هذا الكتاب.

بدأنا بدراسة "رؤى" مثل رؤى إيلين غاريت، ومحاولة تفسيرها من منظور قدرة بشرية غامضة، وهي قدرة السقوط في "جحر الأرنب". تبع ذلك اقتراح مفاده أن كل ما حدث على الإطلاق "مسجل" بطريقة ما، وأن العقل البشري قادر على استخلاص المعلومات من السجل عن طريق "العقل الذاتي". لكن في حالة الطبيب المفقود، من الصعب تصور كيفية عمل هذه القدرة، لأن قطعة القميص التي أُعطيت لإيلين غاريت كان الطبيب يرتديها في اليوم السابق لمغادرته المنزل. أحد التفسيرات المحتملة، بالطبع، هو أن الطبيب كان قد قرر بالفعل الاختفاء إلى لا جولا قبل مغادرته المنزل، وأن القرار كان "مطبوعًا" بطريقة ما على قميصه. في هذه الحالة تحديدًا، يكون هذا التفسير معقولًا. لكن من الممكن الاستشهاد بعشرات الحالات الأخرى التي لا ينطبق عليها هذا. في عام ١٩٥٦، اختفت كاتبة جميلة تُدعى جوي أكين بعد مغادرتها مكتبها في ديربان، جنوب أفريقيا. توجهت عائلتها إلى وسيط روحي يُدعى نيلسون بالمر وسألته إن كان بإمكانه المساعدة. طلب منهم بالمر إحضار بعض قطع ملابس الفتاة الداخلية إلى منزله. وبينما كان يضع يديه على الملابس، أخبر بالمر والدة جوي أن الفتاة ماتت وأن جثتها ملقاة في قناة تصريف. ثم أرشد مجموعة من الباحثين إلى قناة تصريف على بُعد ستين ميلاً، حيث عُثر على جثة الفتاة - مصابة بطلقات نارية في الرأس. لاحقًا، أُعدم رجل يُدعى كلارنس فان بورين بتهمة قتلها.*

من المستحيل تمامًا أن يكون ملابس هذه الفتاة قد "سجلت" معلومات عن جريمة قتلها، لأنها لم تكن ترتديها آنذاك. لكن ماي سنكلير تُقدم تفسيرًا محتملًا بقولها: "كأن كيانًا ذكيًا يُبلغني مباشرةً". قد يكون هذا الكيان الذكي، بالطبع، هو "العقل الذاتي" لهودسون. لكن هذا لا يزال يتركنا أمام إشكالية كيف يمكن لـ"العقل الذاتي" لأخصائي القياس النفسي الحصول على معلومات من ثوب لا علاقة له بجريمة.

لقد واجهنا هذه المشكلة نفسها في مجال الكشف عن المياه الجوفية. تُقدم تدرجات هارفاليك المغناطيسية تفسيرًا مُرضيًا تمامًا لقدرة الباحث عن المياه الجوفية على العثور على المياه أو المعادن، لكنها تفشل تمامًا في تفسير كيف يمكن لباحث الخرائط اكتشاف الأشياء نفسها من خلال تعليق بندوله فوق الخريطة. (ليس بالضرورة أن تكون خريطة مطبوعة؛ فقد وصفتُ في كتاب "أسرار" كيف تتبع الباحث الويلزي بيل لويس مسار جدول بدقة على خريطة رسمتها بقلم رصاص، حتى أنه أشار إلى النقطة التي انحرف فيها أنبوب بزاوية قائمة ليحمل الماء إلى كوخنا). تُفضل معظم الكتب عن الكشف عن المياه تجنب هذا الموضوع، لتجنب الإحراج. ومع ذلك، يبدو أن معظم الباحثين عن المياه يعتبرون هذه القدرة الغريبة "طبيعية" مثل قدرتهم على تحديد موقع الماء بعصا الكهانة. أحد أشهر خبراء الكشف عن الخرائط الفرنسيين، الأب ميرميت، شرح عملية الكشف عن الخرائط من خلال التعليق على أن موجات الفكر يمكنها السفر حول العالم بسرعة الضوء، وبالتالي فمن السهل أيضًا الكشف عن شيء ما على الخريطة.

الجانب الآخر من العالم، كما في حديقتك الخلفية؛ لكنه لم يُكلف نفسه عناء شرح كيف يُمكن للفكر تحديد موقع - على سبيل المثال - حطام سفينة غارقة في وسط المحيط الهادئ. هنا أيضًا، يبدو أن فرضية الكيان الذكي تُقدم تفسيرًا أكثر وضوحًا.

تتشابه محاولة يونغ لحل اللغز مع نظرية "النظام الضمني" لديفيد بوم - فكرة أن "الواقع الكامن" للعالم يحتوي على معلومات عن الكون بأسره - وكذلك مع سجلات رودولف شتاينر الأكاشية. ووفقًا ليونغ، فإن "اللاوعي الجماعي" للبشرية يحتوي أيضًا على معرفة بكل ما حدث. ويواصل استخدام هذه النظرية لشرح تجربة "نفسية" غريبة. فقد انتكس أحد مرضاه إلى حالة من الاكتئاب:

حوالي الساعة الثانية - لا بد أنني كنت قد غفوت للتو - استيقظت مفزوعًا، وشعرت أن أحدهم دخل الغرفة؛ حتى أنني شعرت أن الباب قد فُتح على عجل. أشعلت النور على الفور، لكن لم يكن هناك شيء. ربما أخطأ أحدهم الباب، فكرت، ونظرت إلى الممر. لكنه كان لا يزال كالموت. "غريب"، فكرت، "لقد دخل أحدهم الغرفة!" ثم حاولت أن أتذكر ما حدث بالضبط، وخطر لي أنني استيقظت على شعور بألم خفيف، كما لو أن شيئًا ما ضرب جبهتي ثم مؤخرة جمجمتي. في اليوم التالي، تلقيت برقية تفيد بأن مريضي قد انتحر. لقد أطلق النار على نفسه. علمت لاحقًا أن الرصاصة استقرت في الجدار الخلفي للجمجمة.*

يبدو أن التفسير المباشر لهذه التجربة هو التخاطر

ربما كان المريض يفكر في يونغ وهو يستعد لتفجير دماغه. فضّل يونغ شيئًا أكثر تعقيدًا:

كانت التجربة ظاهرةً تزامنيةً حقيقيةً، كتلك التي تُلاحظ غالبًا في سياقٍ نموذجيٍّ - في هذه الحالة، الموت. بفضل نسبية الزمان والمكان في اللاوعي، من الممكن أنني أدركتُ شيئًا يحدث في الواقع في مكانٍ آخر. اللاوعي الجمعي مشتركٌ بين الجميع: إنه أساس ما أسماه القدماء "تعاطف الأشياء". في هذه الحالة، كان اللاوعي على درايةٍ بحالة مريضي. في الواقع، طوال ذلك المساء، شعرتُ باضطرابٍ غريب.

وعصبية للغاية، على النقيض تمامًا من مزاجي المعتاد.

لفهم هذه الفقرة، علينا أن نتذكر أن يونغ كان يعتقد أن فليمون وإيليا وسالومي "كيانات عاقلة" لها وجودها المستقل خارج عقله. في الواقع، كان يعتقد أنه خرج من "لاوعيه" الشخصي والتقى بهم في فضاء اللاوعي الجمعي المشترك. لذا، إذا تجاهلنا التجريدات حول "نسبية الزمان والمكان في اللاوعي"، فإنه في الواقع يُشير إلى أن معرفته بانتحار مريضته جاءت من "كيانات عاقلة" - تمامًا كما تفعل ماي سنكلير.

عندما تعلم يونغ تقنيات الانغماس في "جحر الأرنب"، بدأ يدخل في علاقة غريبة مع هذه الكيانات الذكية. ظهر كيان آخر يُدعى كا - أكثر شيطانية من فليمون - وبدأ يونغ في كتابة حكايات لقاءاته في دفتر ملاحظات أطلق عليه اسم "كتابه الأسود". في أحد الأيام بينما كان يكتب، سأل نفسه السؤال: "ماذا أفعل حقًا؟"، وأجاب صوت أنثوي بداخله بوضوح: "إنه فن". كان صوت مريضة كانت تحب يونغ. عندما سأل السؤال نفسه لاحقًا، أجاب الصوت نفسه بوضوح: "إنه فن". عندها دعا يونغ "إحداها" لشرح ما تعنيه بالضبط: ونتيجة لذلك، خرجت ببيان طويل. ثم قرر يونغ أن هذه "المرأة الداخلية" كانت جزءًا أساسيًا من روحه وأطلق عليها اسم "الأنيما" - المكون الأنثوي في الرجال. وبدأ يشك في أن قولها "إنه فن" كان محاولةً لإقناعه برؤية نفسه فنانًا عظيمًا يُساء فهمه، وبالتالي التسبب في هلاكه. (للأسف، لم يُفسّر بدقة لماذا ترغب روحه في تدميره).

في عام ١٩١٦، بدا وكأن "الكيانات" قد هربت من لاوعيه (أو اللاوعي الجماعي) إلى العالم الحقيقي. بدا الهواء مليئًا بالأشباح. رأت ابنته الكبرى هيئة بيضاء تمر عبر الغرفة، بينما سُحبت البطانية مرتين من سرير ابنته الصغرى. في وقت لاحق من عصر اليوم التالي، بدأ جرس الباب يرن بجنون، ولكن عندما أجابوا عليه، لم يكن هناك أحد.

حينها أدركتُ أن شيئًا ما لا بد أن يحدث. امتلأ المنزل بأكمله كما لو كان هناك حشدٌ حاضر، مكتظٌّ بالأرواح. كانوا مكتظين حتى الباب، وكان الهواء كثيفًا لدرجة أنه بالكاد كان من الممكن التنفس. أما أنا، فقد كنتُ أرتجف من السؤال: "يا إلهي، ما هذا بحق السماء؟" ثم صرخوا بصوتٍ جماعي: "لقد عدنا من..."

"أورشليم حيث لم نجد ما طلبناه."

أخذ يونج قلمه وبدأ في الكتابة: في ثلاث أمسيات كان قد كتب عملاً غريباً بعنوان "سبع خطب إلى الموتى"، مكتوباً بأسلوب متكلف إلى حد ما، وهو الأسلوب الذي يقول يونج إنه نموذجي لـ "الأنماط الأصلية".

هل يعني هذا أن يونغ شعر بأنه كان يتعامل مع "أرواح" حقيقية؟ يبدو أن الإجابة نعم. يقول: "العقل، بالطبع، يود أن يعتبر الأمر برمته انتهاكًا للقواعد. لكن يا له من عالم كئيب لو لم تُكسر القواعد أحيانًا!"

يجب التأكيد على أن يونغ في ذلك الوقت كان يُخفي هذه التجارب عن نفسه. كان لديه حياته المهنية ليفكر فيها. لم يكن هناك ما يُسعد فرويد أكثر من أن يُعلن يونغ إيمانه بـ"الغيبيات" ليقول: "أخبرتك أن هذه الأفكار الغريبة ستُجنِّنه...". وكانت النتيجة أن يونغ لعب أوراقه بصمت شديد. في عام ١٩٢٠، استأجر كوخًا بالقرب من لندن، وانزعج من أصوات الطرق والروائح الكريهة والأصوات كما لو أن حيوانًا كبيرًا يندفع في غرفة النوم - وهي ظواهر "بولترجيست" نموذجية. في إحدى الليالي، وبينما كانت الجدران تُردد صدى عاصفة من الضربات، فتح يونغ عينيه ليجد نفسه ينظر إلى نصف رأس - رأس امرأة عجوز.

على وسادته. غادر على عجل، وهُدم الكوخ. ومع ذلك، حتى عام ١٩٤٨، كتب ملحقًا لمقال عن "الأرواح" ادعى فيه أنها "إسقاطات من اللاوعي"، مُشيرًا إلى أنه لم يستطع الجزم بوجود الأرواح حقًا "لأنني لستُ قادرًا على تقديم تجارب تُثبت ذلك بأي شكل من الأشكال". يبدو هذا - على أقل تقدير - مُخادعًا بعض الشيء. ولم يجرؤ إلا بعد عامين على سرد تجربته في الكوخ المسكون في مقدمة كتاب بعنوان "الأشباح: حقيقة أم وهم؟"

فضّل يونغ أيضًا الصمت بشأن موضوع "غامض" آخر، وهو كتاب التنجيم الصيني المعروف باسم "إي تشينغ". يحتوي هذا النص القديم على أربعة وستين "تنجيمًا"، ويُستعان به بطريقة عشوائية تتضمن استخدام العملات المعدنية أو سيقان اليارو. أبسط طريقة هي رمي ثلاثة بنسات. يُشكّل غلبة الصور خطًا مستقيمًا؛ وغلبة الكتابة خطًا متقطعًا. عند وضع هذه الخطوط فوق بعضها البعض، تُشكّل نجمةً سداسيةً تُشير إلى أيّ من التنجيمات الأربعة والستين يحتوي على إجابة السؤال. (يجب صياغة السؤال بوضوح في الذهن قبل استشارة التنجيم).

من الواضح أنه لا يوجد مبرر علمي محتمل لهذا الإجراء؛ ومع ذلك، كان يونغ يدرس كتاب التغييرات (I Ching) ويستشيره منذ عام ١٩٢٠ فصاعدًا. لم يُقرّ بذلك حتى عام ١٩٥٠، عندما شعر، بعد حادثٍ أودى بحياته، أن الوقت قد حان للتحدث بصراحة. ثم برر اهتمامه بكتاب التغييرات بمناقشة ما أسماه "التزامنات" - تلك...

مصادفاتٌ مُحيّرة، ذات مغزى ظاهري، تُشعرنا بأن القدر يُحاول إخبارنا بشيء. يُقدّم يونغ مثالاً من تجربته الشخصية: بعد أن دوّن ملاحظةً عن مخلوقٍ أسطوري نصفه إنسان ونصفه سمكة، تناول سمكًا على الغداء، فذكر أحدهم عادة صنع "سمكة أبريل" (كذبة أبريل) لشخصٍ ما، وأراه مريضٌ صورة سمكة، ورأى تطريزًا لأسماك ووحوش بحرية، وأخيرًا، أخبره مريضٌ عن حلمٍ عن سمكةٍ في تلك الليلة. في اليوم الذي دوّن فيه كل هذا، وجد سمكةً كبيرةً على جدار البحيرة.

واجهت كتابة مقدمة لترجمة ريتشارد فيلهلم لكتاب التغييرات يونغ مشكلة كيفية تبرير هذه المفاهيم "الغامضة" علميًا. وقد توصل إلى حل وسط بوصف التزامن بأنه "مبدأ ربط لا سببي" - وهو مصطلح فارغ تمامًا يعني سببًا ليس سببًا. لكن هذا الوصف بدا علميًا إلى حد ما، وحاول يونغ لاحقًا تبريره بنشر مقاله عن التزامن في كتاب تضمن أيضًا مقالًا للفيزيائي فولفغانغ باولي، جادل فيه بأن عالم الفلك كيبلر هو من ابتكر فكرة "الأنماط البدائية".

من الغريب أن باولي كان مثالًا طريفًا على ما قصده يونغ بالتزامن. بدا وكأنه يمتلك قدرة غريبة على إحداث خلل. في أحد الأيام في غوتنغن، انهار جهاز معقد فجأةً دون سبب واضح، فعلق البروفيسور ج. فرانك مازحًا: "لا بد أن باولي موجود في مكان ما". كتب إلى باولي يسأله عن مكانه آنذاك، فاكتشف أنه كان في الواقع على رصيف السكة الحديدية في غوتنغن، يُغيّر القطارات.

بعد أن أقنع يونغ نفسه - وكثيرًا من علماء النفس المرموقين - بأن التزامن فكرة مبررة علميًا، استمر في استخدامه لتفسير أي شيء شعر أنه قد يبدو غامضًا ومريبًا. رأينا، على سبيل المثال، كيف فسّر تجربته التخاطرية لانتحار مريضه بوصفها "ظاهرة تزامنية حقيقية، كتلك التي تُلاحظ غالبًا في سياق المواقف النمطية" - وهو تفسيرٌ لا علاقة له بما حدث بالفعل، ولكنه يبدو علميًا بشكلٍ مُريح.

في الواقع، معظم الأمثلة التي ذكرها يونغ في محاضرته "حول التزامن" لا تتعلق بالتزامن إطلاقًا. يذكر صديقًا له من الطلاب حلم بمدينة إسبانية: عندما ذهب إلى إسبانيا في عطلة، تعرف على مشهد حلمه، حتى أنه رأى عربةً يجرها حصانان كريميان اللون. هذا، بلا شك، استبصار. ثم يذكر يونغ بعض تجارب راين في تخمين البطاقات.

—— لكن هذا، مرة أخرى، ليس تزامنًا، بل إدراك خارج الحواس. عندها فقط، توصل إلى حالة تتوافق مع تعريفه للتزامن كمصادفة ذات معنى. كان يواجه صعوبة بالغة مع مريضة شابة "كانت دائمًا..."

كانت تعرف كل شيء أفضل، وبدت عقلانيتها منيعة. في أحد الأيام، بينما كانت تروي ليونغ حلمًا واضحًا عن خنفساء ذهبية، سُمع نقر على النافذة: فتحها يونغ، فظهر خنفساء ذهبية خضراء - خنفساء وردية.

— طارت إلى الغرفة. أمسكها يونغ وناولها للمريضة. "ها هي خنفساءك". هذا "ثقب الثغرة المطلوبة في عقلانيتها" وكسر جليد مقاومتها.

يُذكر مثالٌ أكثر إثارةً للإعجاب في كتاب يونغ الموجز عن التزامن. في عام ١٩١٤، التقطت أمٌّ صورةً لابنها في الغابة السوداء وتركتها لتحميضها في متجرٍ في ستراسبورغ، لكن اندلاع الحرب حال دون جمعها. في عام ١٩١٦، اشترت فيلمًا في فرانكفورت والتقطت صورةً لابنتها الرضيعة. عند تحميض الفيلم، تبيّن أنه تعريضٌ مزدوج، حيث وُضعت صورة ابنها أسفل صورة ابنتها - بطريقةٍ ما، عاد فيلمها الأصلي إلى التداول ضمن الأفلام الجديدة. استقى يونغ القصة من كتابٍ بعنوان "الصدفة" لويلهلم فون شولتز، الذي يُشير إلى أن هذه المصادفات مُرتّبة "كما لو كانت حلمًا بوعيٍ أكبر وأشمل لا يُدرَك". وقد لخّص طبيبٌ نفسيٌّ آخر، وهو هربرت سيلبرير، مشاعره في عنوان كتابٍ بعنوان "الصدفة: خدع الكوبولد في اللاوعي" (الكوبولد هو عفريتٌ شقي).

لا شك أن المصادفات الغريبة تُولّد فينا شعورًا "مُخيفًا" بأن القدر يدفعنا بقوة، محاولًا أن يُدركنا أن الحياة أكثر معنى مما كنا نعتقد. في الجملة الافتتاحية لرواية "لغز ماري روجيه"، كتب بو: "هناك قلة من الناس، حتى بين أهدأ المفكرين، لم يُفاجأوا أحيانًا بنصف إيمان غامض ولكنه مُثير بالخوارق، بسبب مصادفات ذات طابع عجيب ظاهريًا، لدرجة أن العقل، كمجرد مصادفات، عجز عن استيعابها". كانت هذه الجملة نفسها واحدة من سلسلة من المصادفات التي حدثت عندما بدأتُ كتابة مقال عن موضوع المصادفة. نشأ قرار كتابة المقال، في موسوعة للألغاز التي لم تُحل، عندما كنتُ على وشك كتابة مقال عما إذا كانت جان دارك قد أُحرقت حقًا على الخازوق. بينما كنت أبحث عن شيء ما على رف مكتبة، لاحظتُ سلسلة مجلدات من مجلة التاريخ الدولي، وقررتُ أنه قد يكون من المفيد قضاء بعض الوقت في تصفحها بحثًا عن ألغاز لم تُحل. فتحتُ المجلد الأول عشوائيًا، فوجدتُ نفسي أتصفح مقالًا عن جان دارك، أثار تساؤلًا حول نجاتها من الإعدام. بعد ذلك بقليل، لاحظتُ قصاصة صحيفة تركتها زوجتي خارج مكتبي - أخبرتني أنها قصّتها لأنها تحتوي على إشارة مثيرة للاهتمام إلى إرنست همنغواي. في الواقع، تبيّن أنها مقالة عن مصادفات غريبة تتعلق بالمخطوطات المفقودة. دفعتني هذه "المصادفات" إلى إضافة مقال عن التزامن إلى الموسوعة. لكن كان عليّ أولًا كتابة مقال.

حول قضية اختفاء "فتاة السيجار" النيويوركية ماري روجرز، التي استند إليها بو في روايته "ماري روجيه". وقد أكدت الجملة الافتتاحية، المذكورة أعلاه، قرار كتابة مقال التزامن.

من الواضح أهمية التمييز بين المصادفة العادية والتزامن، الذي قد يُعرّف بأنه مصادفةٌ فاحشةٌ لدرجةٍ لا يُمكن تجاهلها. إليكم مثالان شخصيان أستبعدهما تمامًا باعتبارهما مصادفة. في عام ١٩٦٧، كنتُ أنا وزوجتي مسافرين إلى فينيكس، أريزونا، عندما علّقتُ فجأةً: "يجب أن تكون فوهة النيزك الشهيرة موجودةً في مكانٍ ما هنا". نظرت زوجتي من النافذة وقالت: "ها هي". في الواقع، كنا نُحلّق فوقها. في عام ١٩٧٤، كنا مسافرين إلى بيروت عبر البحر الأبيض المتوسط، وقلتُ: "يجب أن نكون في مكانٍ ما بالقرب من سانتوريني في وقتٍ ما". نظرنا من النافذة واكتشفنا أننا نُحلّق فوقها في تلك اللحظة.

إليكم مثالاً - حدث خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية - يبدو لي أنه يوسع تعريف كلمة "صدفة" دون كسرها. في الصباح، أثناء ترتيب كومة من الكتب والمجلات في زاوية غرفة النوم، وجدت نسخة من مجلة جمعية الأبحاث النفسية تحتوي على مراجعة لكتاب - قرأته مؤخرًا - يفضح مجال الخوارق بأكمله. في سياق القطعة، يذكر المراجع الباحث SG Soal، الذي تعرض للهجوم في الكتاب، ويذكر أنه لا يوجد دليل إيجابي على أنه غش. لاحقًا، في منشوري الصباحي، وجدت مراجعة لكتابي terlifeAf بقلم cott D. S Rogo حيث لامني لاستشهادي بهذا الاحتيال المعروف، SG Soal. كتبت رسالة إلى السيد Rogo مستشهدًا بمراجعة مجلة SPR. وبعد ساعة، وبينما كنت أبحث عن كتاب في مكتبي غير المنظم، عثرت على مجلد مفتوح تحت كومة من الكتب: كان عن علم النفس الخارق للطبيعة في جنوب أفريقيا وكان مفتوحا على مقال كتبه باسل شاكلتون - "العراف" الذي عمل معه سوال - حيث أعطى أسبابا لعدم الاعتقاد بأن سوال كان غشاشا.

يبدو لي هذا أقرب إلى التزامن. لكن المثال التالي يحمل لمسةً فاحشةً بحق.

أثناء كتابة مقالي عن التزامن في موسوعة الألغاز غير المحلولة، وصفتُ مثالاً رواهُ خبير الحاسوب جاك فالي. كان فالي مهتمًا بطائفةٍ كاليفورنية تُدعى جماعة ملكي صادق - التي سُميت تيمنًا بالنبي التوراتي - وكان يبذل قصارى جهده للعثور على معلوماتٍ عن ملكي صادق الأصلي. لكن تبيّن أن المعلومات المتوفرة عنه قليلةٌ جدًا. في أحد الأيام، استقل فالي سيارة أجرة إلى مطار لوس أنجلوس وسأل السائقة - وهي امرأة - إن كان بإمكانه الحصول على إيصال. سلّمته إيصالًا موقعًا عليه "السيد ملكي صادق". دهش فالي من هذه المصادفة، فتساءل عن عدد أتباع ملكي صادق الآخرين المسجلين في دليل هاتف لوس أنجلوس.

كان الجواب واحدًا فقط - سائق التاكسي. قال فالي إنه شعر كما لو أنه علق ملاحظة على لوحة إعلانات عامة: "مطلوب يا ملكي صادق"، وسأله القدر: "هل هذا الشخص جيد؟" "لا، بحق السماء! إنه سائق تاكسي..."

عندما انتهيت من سرد هذه القصة، توقفت عن كتابة مقالي لأخذ كلابي في نزهة بعد الظهر. وبينما كنت على وشك مغادرة مكتبي، لاحظت كتابًا ملقى على سريري المتهالك؛ لم يكن لدي أي ذكرى لرؤيته من قبل، مع أنني اشتريته بالطبع لأنني قمت بتجليده بواسطة ريمبلوي. كان الكتاب بعنوان "أنت محكوم عليك بالسجن مدى الحياة" للدكتور دبليو دي تشيسني، وكان يتناول أدلة الحياة بعد الموت. ألقيت الكتاب على كرسيي وألقيت نظرة خاطفة عليه عندما عدتُ من نزهتي. في أعلى الصفحة كان هناك عنوان "رتبة ملكي صادق"، متبوعًا برسالة من غريس هوبر بيتيفر، وهي مُعلمة من نفس رتبة ملكي صادق التي كان فالي يبحث عنها. لدي حوالي ثلاثين ألف كتاب في هذا المنزل، وأشك في أن أيًا منها يحتوي على إشارة إلى رتبة ملكي صادق. ولكنني عثرت عليه بالصدفة بعد أن كتبت عن مصادفة فالي اللافتة للنظر. كان الأمر كما لو أن القدر يقول: "حسنًا، إذا كنت تريد حقًا أن أريك ما يمكنني فعله، فماذا عن هذا؟"

في أوائل سبعينيات القرن الماضي، انبهر آرثر كويستلر بالتزامن، فكتب مقالًا في صحيفة صنداي تايمز يدعو فيه إلى أمثلة، نُشر أبرزها في كتاب "تحدي الصدفة". على سبيل المثال، أشار طبيب إلى أنه كان يُصادف مرضًا نادرًا أثناء الجراحة، ثم يُصادف عدة حالات أخرى خلال اليوم. وذكر أخصائي آلات كاتبة أنه بعد استلامه نموذجًا غير عادي للإصلاح، كانت تظهر نماذج أخرى من نفس الماركة فورًا.

أشار كويستلر إلى أن التزامن يبدو أحيانًا أشبه بإدراك حسي خارق. ويروي كيف كانت السيدة ريبيكا ويست في مكتبة لندن تبحث في محاكمات نورمبرغ الحربية عندما اكتشفت، مما أثار انزعاجها، أن المحاكمات منشورة بترتيب غير صحيح. وبعد ساعة من البحث غير المثمر، اقتربت من أمينة مكتبة وقالت: "لا أستطيع العثور عليه..."، ومدت يدها بشكل عرضي أثناء قيامها بذلك، وأخذت مجلدًا عشوائيًا. فُتح المجلد عند المحاكمة التي كانت تبحث عنها. ستقول هدسون إن عقلها الذاتي كان يعرف بالفعل مكان المحاكمة - ربما عن طريق نوع من "الاستكشاف" - وقد أرشدها إليه. ولكن في حالة أخرى تتعلق بريبيكا ويست، كان ذلك مستحيلاً. تروي كيف كانت في مكتبة لندن تنتظر وصول نسخة من مذكرات غونو. اقترب منها أمريكي وسألها إن كان صحيحًا أنها تمتلك بعض المطبوعات الحجرية للفنانة ديلبيش. كانا لا يزالان يتحدثان عن ديلبيش عندما أحضرت لها المساعدة الكتاب. فتحته بعفوية فوجدت نفسها تنظر إلى فقرة يذكر فيها غونو لطف ديلبيش بأمه...

كان يونغ نفسه يؤمن بتفسير العقل الذاتي. ويوضح أن "النموذج الأصلي يميل إلى جمع أشكال تعبير مناسبة حوله"، ويضيف: "إن العامل الذي يُسهّل حدوث الأحداث الخارقة للطبيعة هو وجود نموذج أصلي نشط، أي حالة تُستدعى فيها الطبقات الغريزية الأعمق في النفس إلى العمل".* النماذج الأصلية هي شخصيات رمزية، مثل الأم، والمُغوية، والشيخ الحكيم - سالومي وإيليا مثالان على الأخيرين. وبما أن يونغ كان يعتقد أن للنماذج الأصلية وجودًا منفصلًا عن العقل الفردي، يبدو أننا نعود إلى ما يشبه نظرية الكيان الذكي.

ولكن إذا كانت النماذج الأصلية مسؤولة عن التزامن، فيبدو أنها تختار بعض الأمثلة التافهة بشكل فريد. يستشهد يونغ بأحد أشهر الأمثلة في كتابه، وهي حالة رواها في الأصل كاميل فلاماريون في كتابه "المجهول". وصف الشاعر إميل ديشامب كيف أنه عندما كان طفلاً، أهداه شخص يُدعى السيد فورتجيبو قطعة من بودنغ البرقوق، والذي تعرّف على هذا الطبق النادر في رحلة إلى إنجلترا. وبعد سنوات، رأى ديشامب بودنغ البرقوق في نافذة مطعم في باريس ودخل ليسأل عما إذا كان بإمكانه شراء واحدة. قيل له، للأسف، إن البودنغ قد طلبه شخص آخر: وتبين أن هذا الشخص هو السيد فورتجيبو، الذي عرض مشاركته. يمكننا أن نرى أن ديشامب سيعتبر هذه المصادفة أمرًا مذهلاً. ولكن كان هناك المزيد في المستقبل. بعد سنوات، حضر حفلة كان من المقرر أن يُقدم فيها بودنغ البرقوق - وحتمًا - أخبر قصته عن السيد فورتجيبو. في تلك اللحظة انفتح الباب وخرج السيد فورتجيبو - وهو الآن رجل عجوز
- دخل. لقد تمت دعوته إلى شقة أخرى في نفس المبنى وأخطأ في الباب.

يروي كاميل فلاماريون قصة أخرى مؤثرة بنفس القدر عن مصادفة حدثت له. في أحد الأيام، بينما كان يكتب كتابًا، هبت ريح عاتية حملت بعض الصفحات من النافذة. ولأن المطر كان يهطل، قرر أنها لا تستحق الاستعادة. بعد بضعة أيام، وصل الفصل من مطبعته. بدا أن عامل المطبعة قد مرّ، ورأى الصفحات على الأرض، فظن أنه أسقطها: فرتبها وسلمها إلى المطبعة. موضوع الفصل؟ الريح...

ما يتضح جليًا من كتاب يونغ هو أنه على الرغم من كل حديثه عن النماذج الأصلية ومبادئ الربط اللاسببية، فإن شعوره الحقيقي تجاه التزامنيات هو إثارة معينة، كما لو كانت "رسائل من الله" - أو على الأقل من ذكاء خيري. صحيح أن قضية فورتغيبو تبدو أقرب إلى مثال على "خدع الكوبولد اللاواعية" - أو ما أسماه تشارلز فورت "المهرج الكوني"، إلا أن هذا ليس هو المقصود. المهم هو أن التزامنيات تُنتج شعورًا بالمعنى الكامن للكون، الشعور بأنه على الرغم من كل المظاهر، فإننا...

ليسوا صدفة طبيعية تقطعت بهم السبل في عالمٍ قائم على الصدفة. فوفقًا لسارتر، تكمن الحقيقة الكامنة وراء الوجود البشري في "الصدفة"، أي الشعور بأن "الوجود ليس ضروريًا"، وأننا في نهاية المطاف ضحايا الصدفة. جميعنا نشعر بهذا الشعور عندما تسوء الحياة، بل ونشعر أحيانًا بأن القدر شريرٌ للغاية. تبدو التزامنيات كدفعةٍ في الضلوع من كيانٍ خير، تُنذرنا بألا نأخذ مشاكلنا على محمل الجد. سيرفض معظم علماء النفس الخارق هذه الفكرة بازدراء، ثم يختبرون الشعور نفسه تمامًا في المرة القادمة التي يواجهون فيها تزامنًا مثيرًا للاهتمام.

لقد قمت بتلخيص مشاعري حول التزامن على النحو التالي:

من تجربتي الشخصية، يبدو أن مثل هذه المصادفات تحدث عندما أكون في حالة جيدة - عندما أشعر باليقظة والبهجة والتفاؤل، وليس عندما أشعر بالتعب أو الملل أو الكآبة. هذا يقودني إلى صياغة فرضيتي الخاصة حول التزامن على النحو التالي. ككاتب، أكون في أفضل حالاتي عندما أشعر باليقظة والهدف: في هذه الأوقات أشعر بإحساس "بمعاني خفية" كامنة وراء الوجه الظاهر للواقع اليومي. لكن هذا لا ينطبق على الكُتّاب فقط: إنه ينطبق على جميع البشر. نحن جميعًا في أفضل حالاتنا عندما يكون الخيال مستيقظًا، ويمكننا الشعور بوجود ذلك "الذات الأخرى"، الجزء الحدسي منا. عندما نشعر بالتعب أو الإحباط، نشعر بأننا "تقطعت بنا السبل" في وعي الدماغ الأيسر... يمكن أن نخرج من هذه الحالة بسبب أزمة مفاجئة، أو أي حافز لطيف، ولكن في أغلب الأحيان لا تظهر هذه الأشياء. لا بد أن يكون مُزعجًا للذات الأخرى أن تجد شريكها خاملًا وبطيئًا، مما يُتيح وقتًا وفرصًا ثمينة تضيع هباءً. قد تُدخلنا "التزامنية" فجأةً في حالة من اليقظة والوعي. وإذا استطاعت "الذات الأخرى"، باستخدام قواها الخاصة، تحقيق تزامنية، فسيظل هناك وقتٌ يمنعنا من إضاعة يومٍ آخر من حياتنا القصيرة.

كل هذا مُضمَرٌ في كتابٍ يونغ عن التزامن، مع أنه فضّل عدم التصريح به. وتداعياته بالغة الأهمية. حتى لو افترضنا فقط أن "الذات الأخرى" قادرة على "توجيهنا" نحو التزامن - كما يبدو أنها وجّهت ريبيكا ويست إلى الكتاب الصحيح عن محاكمات نورمبرغ الحربية - فسيبدو الأمر كما لو أنها تعرف أكثر بكثير مما نعرفه بوعي. لكن استخدام يونغ المستمر لكتاب التغييرات يوحي بأنه اعتقد أن الأمر يتجاوز ذلك. إذا سقطت العملات المعدنية بترتيب معين استجابةً لسؤال ذهني، فإن هذا يعني ضمناً أن "الذات الأخرى" قادرة على جعلها تسقط بهذا الترتيب، بل ويمكنها بالفعل التأثير على الأحداث المادية.

إن تداعيات تجربة ريبيكا ويست مع ديلبيش أغرب من ذلك. فعندما عرّفها الأمريكي بنفسه، كانت أمينة المكتبة قد ذهبت بالفعل لجمع مذكرات غونو، مع إشارتها إلى ديلبيش، مما أدى إلى حدوث المصادفة. أحد التفسيرات - إلى جانب كونها مصادفة مباشرة - هو أن عقلها الذاتي وجّه انتباهها إلى إشارة ديلبيش نتيجةً لمحادثتها مع الأمريكي. ويبدو أن البديل الوحيد هو أن عقلها الذاتي كان قادرًا على التنبؤ بالمستقبل...

على الرغم من أن الأمر يبدو لا يُصدق، فقد جُرِّبت واختبرت تفسيرات التزامن في المختبر. صحيح أن هذا لم يكن جزءًا من النية، إلا أنه كان بمثابة الشيء نفسه. كان عالم الفيزياء، الدكتور هيلموت شميدت، يحاول ابتكار اختبارات مضمونة للإدراك الحسي الفائق في مختبره في دورهام، بولاية نورث كارولينا. تم توصيل قطعة من مادة مشعة - كان معدل تحللها غير متوقع تمامًا - بأربعة مصابيح، مما تسبب في إضاءة واحد في كل مرة بترتيب عشوائي. طُلب من ثلاثة أشخاص "نفسيين" تخمين أي مصباح سيضيء بعد ذلك. نظرًا لوجود أربعة مصابيح، كانت فرصهم في التخمين الصحيح 25 في المائة، وبما أنه سُمح لهم بعدد كبير من التخمينات - 63000 - كان ينبغي أن تكون نتيجة الاحتمال 25 في المائة بالضبط. في الواقع كانت 27 في المائة - وهو ما يعادل سبعمائة تخمين صحيح أكثر مما كان ينبغي.

بعد ذلك، طلب شميدت من المشاركين محاولة التأثير على طريقة إضاءة صف من المصابيح - إما مع عقارب الساعة أو عكسها. في عدد كبير من المحاولات، كان من المفترض أن تكون النتيجة "الصدفة" 50% مع عقارب الساعة و50% عكسها. في الواقع، تراوحت نسبة نجاحهم بين 52% و53% - وهو تفاوت كبير أيضًا.

الآن يأتي الجزء المذهل من التجربة. قرر شميدت تسجيل بعض الأرقام العشوائية مسبقًا وتجربة الأشرطة المسجلة مسبقًا على المشاركين. من البديهي أنه كان من المستحيل تمامًا التأثير على اتجاه إضاءة المصابيح، لأنه كان "مقدّرًا". والمثير للدهشة أن "الوسطاء الروحانيين" ما زالوا قادرين على التأثير على المصابيح.

لا يمكن أن يكون هناك سوى تفسيرين. الأول هو أن عقول المشاركين استطاعت بطريقة ما تغيير طريقة إضاءة المصابيح، مما يثبت "سيطرة العقل على المادة"، وهو أساس أي نظرية حول كيفية عمل التزامن. أما التفسير الآخر، فيبدو أكثر غرابة: وهو أن الأشرطة نفسها تأثرت
— في وقت تسجيلها — من خلال الجهود المستقبلية للمشاركين. يبدو هذا سخيفًا إلى أن نتذكر سلسلة من التجارب، أجراها إس جي سوال عام ١٩٣٩، حيث طُلب من ربة منزل تُدعى غلوريا ستيوارت قراءة أفكار شخص ما ورسم سلسلة من الصور التي اختيرت عشوائيًا. كانت نتيجتها ضعيفة حتى أدرك سوال أنها ترسم كثيرًا.

الصورة التالية، التي لم تُختر بعد. كان حسها الحسي الخارجي (ESP) يعمل على المستقبل. لذا، قد يكون اقتراح شميدت بأن الأشرطة كانت متأثرة بالجهود المستقبلية لأشخاصه أقل عبثية مما يبدو. يجب دراسة هذا الموضوع برمته بمزيد من التفصيل في الفصل التالي.

حرص يونغ دائمًا على عدم الإشارة إلى أن التزامن قد يكون ناتجًا عن "سيطرة العقل على المادة" - أي أن الأحداث قد تتأثر بطريقة ما بالعقل البشري. ومع ذلك، فمن الواضح أن هذا هو المعنى الحقيقي لفكرة التزامن. على أقل تقدير، اعتبرها نوعًا من "التوافق" غير المعترف به بين العقل والعالم المادي.

استقى يونغ مفهوم "التوافق" هذا من الخيمياء، التي بدأ دراستها في نفس تاريخ كتاب التغييرات تقريبًا. المبدأ الأساسي للخيمياء هو القول المنسوب إلى مؤسسها الأسطوري، هرمس ترسميغستوس، "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل"، والذي يُفهم عمومًا على أنه يعني أن نمط الكون الأكبر (العالم الأكبر) يتكرر في الكون الأصغر للنفس البشرية (العالم الأصغر). لكن هذه التكهنات حول التزامن تُشير إلى تفسير آخر.

من البديهي أن الأحداث الخارجية تؤثر على حالتنا النفسية (أو النفسية). ولكن كما رأينا في هذا الكتاب، فإن المبدأ الأساسي لعلم الباطنية هو أن العقل البشري يمتلك قوى خفية قادرة على التأثير على العالم الخارجي، ربما من خلال عملية "تحريض" لا تختلف عن عملية "التحريض" بالملف. معظمنا على دراية بهذه الأخيرة في شكل محولات بسيطة: على سبيل المثال، إذا أردتُ استخدام ماكينة حلاقة كهربائية أمريكية في إنجلترا، فعليّ شراء محول صغير يخفض التيار الإنجليزي البالغ 240 فولت إلى المستوى الأمريكي القياسي البالغ 120 فولت. يتكون المحول من ملفين من الأسلاك، أحدهما ملفوف حول الآخر. إذا مر تيار عبر أحد الملفين، فإن مجاله الكهربائي يحفز تيارًا في الملف الآخر. وإذا كان عدد لفات الملف الثاني ضعف عدد لفات الملف الأول، فسيكون التيار المستحث ضعف قوته.

يمكن فهم عبارة "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل" على أنها تعني أنه في ظل الظروف المناسبة، يمكن للعقل البشري أن يُحدث "اهتزازاته" الخاصة في العالم المادي، مما يُسبب حدوث أشياء. قد تكون إحدى النتائج هي التحريك الذهني (PK)، كما حدث عندما أثّرت مواضيع شميدت على الأضواء الكهربائية. وقد تكون نتيجة أخرى هي التزامن.

في الفصل السابق، واجهنا اقتراحًا مفاده أن بعض الأماكن يمكنها "تسجيل" الاهتزازات العاطفية للأحداث التي وقعت فيها، وأن القوة المعنية قد تكون مرتبطة بمغناطيسية الأرض. في حالة وقوع حدث مأساوي - مثل اعتقال كاثرين هوارد في هامبتون كورت - قد تكون "الاهتزازات" السلبية قوية جدًا بحيث يمكن "التقاطها" من قِبل زوار الموقع لاحقًا. وقد اقترح ذلك - من بين آخرين - تي سي ليثبريدج.

- أن الدوائر الحجرية القديمة مثل ستونهنج ربما كانت نوعًا من

"محوّل" يُنصَب في مكان ذي مغناطيسية أرضية قوية، بحيث تتفاعل اهتزازاته بشكل وثيق مع اهتزازات الكهنة الذين كانوا يُقيمون طقوس الخصوبة هناك. قد يُفسر هذا أيضًا سبب بناء الكنائس المسيحية في كثير من الأحيان على مواقع المعابد الوثنية: فالأرض، إن جاز التعبير، تُوفّر "محوّلًا" جاهزًا يُمكنه "رفع" اهتزازات المصلين. بفضل قدرتها على "تضخيم" التيارات العاطفية، من الواضح أن هذه المواقع تتمتع بإمكانات هائلة للخير والشر.

إذا كان بإمكان البشر إحداث ذبذبات إيجابية في العالم الخارجي، فيجب أن يكون واضحًا أيضًا أنهم قادرون على إحداث ذبذبات سلبية. إذا كان الأمر كذلك، فإن عبارة "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل" تُصبح تحذيرًا من أن الشعور بالتشاؤم أو الإحباط، واليقين الكئيب بأننا مقدرون على سوء الحظ، يمكن أن يُسبب "استحثاثًا سلبيًا"، بحيث يُصبح سوء الحظ نبوءة متحققة بذاتها.

لذا يبدو أن المعنى النهائي لنظرية يونغ - مع أنها نظرية حرص هو نفسه على عدم التصريح بها - هو أنه من الممكن لنا التأثير على الأحداث من خلال مواقفنا العقلية: فالأشخاص ذوو المواقف السلبية "يجذبون" الحظ السيئ، بينما الأشخاص ذوو المواقف الإيجابية يجذبون "الصدفة". وهذا بدوره يوحي بأنه إذا تعلمنا تحفيز مزاج التفاؤل، فسنتمكن بطريقة ما من تحسين الأمور. ومع أن هذا الموقف قد لا يُبرر علميًا، إلا أن معظمنا لديه شعور داخلي بأنه يحتوي على أكثر من ذرة من الحقيقة.

*التهجئة التقليدية هي التنويم المغناطيسي.

*موصوف في كتاب "إذا كان هذا سحرًا" لجاي بلاي فير، ص 117.

*رودولف شتاينر، الرجل ورؤيته(1985)،الفصل الثالث، ص 84.

*انظر ويلسون فان دوسن، حضور عوالم أخرى والعمق الطبيعي في الإنسان.

*تم سرد القصة بشكل أكثر تفصيلاً في كتابي "المحققون النفسيون".

*كارل يونج، الذكريات، الأحلام، التأملات، ص 136.

*كارل يونج، الأعمال الكاملة، المجلد 18، ص 509-511.

6
ذكريات المستقبل

خلال الحرب العالمية الثانية، كان ويلبر رايت -الذي أصبح لاحقًا روائيًا من أكثر الروائيين مبيعًا- طيارًا مقاتلًا في سلاح الجو الملكي البريطاني. في مارس 1945، جاءه أقرب أصدقائه، دوغ وورلي، في الصباح الباكر وسلمه حزمة مغلفة من ممتلكاته. "انظر إلى عائلتي وهي تحصل على هذه الأشياء - لن أعود من الرحلة القادمة". لقد تنبأ بوفاته في المنام، ولاحظ رايت أنه لم يبدُ قلقًا ولا خائفًا. أخبره رايت أنه يتحدث هراءً: كرر قائد السرب هذا الرأي واقترح أن يتنحى دوغ وورلي عن منصبه لهذا اليوم. رفض وورلي: قال إنه إذا لم يحدث ذلك أثناء الطيران فقد يحدث تحت عجلات شاحنة. في وقت لاحق من ذلك اليوم، دخلت ثماني طائرات تمبست لقصف المطار الألماني في شفيرين. رأى ويلبر رايت، وهو يغوص بجوار دوغ وورلي، خزان وقود صديقه ينفجر في النيران وشاهد وورلي وهو يطير بطائرته المشتعلة عمدًا مباشرة إلى أبواب حظيرة الطائرات.

كان ويلبر رايت مسكونًا بموت دوغ وورلي - ليس بسبب مأساة الحادثة التي وقعت قبل أسابيع قليلة من نهاية الحرب، بل بسبب السؤال الذي انطوت عليه. هل كان موت دوغ وورلي مقدرًا له أن يموت في ذلك اليوم، كما كان يعتقد بوضوح؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل كل ما يحدث مُقدّر أيضًا؟ هل الإيمان بالإرادة الحرة وهم؟

لم يشك رايت في أن هذه كانت حالة حقيقية من التنبؤ المسبق - فقد عرف طيارين آخرين توقعوا موتهم بدقة. بعد سنوات، في ألمانيا، التقى بمدفعي مضاد للطائرات يُدعى شواب، كان من بين المدافعين عن مطار شفيرين ذلك اليوم. أخبر رايت أن الألمان كانوا يتوقعون الهجوم - فقد أيقظوا جميعًا في الرابعة صباحًا وأُمروا بالبقاء على أهبة الاستعداد. (ظن رايت أن عميلًا مزدوجًا قد خانهم). لذا، ربما كان حلم دوغ وورلي مجرد نوع من التخاطر. ولكن في هذه الحالة، كيف علم أنه سيموت وأن ويلبر رايت سينجو ليسلم ممتلكاته لعائلته؟

بعد الحرب، بدأ ويلبر رايت يخوض تجاربه الخاصة في التخاطر. في أعوام ١٩٤٦ و١٩٤٨ و١٩٥٤، حلم بالفائزين في ثلاثة سباقات خيول رئيسية. وكان الحلم دائمًا يتخذ الشكل نفسه. كان في مضمار سباق - مع أنه في الواقع لم يزر مكانًا كهذا من قبل - وكان رفيق يقف بجانبه. في كل حلم، كان يسأل رفيقه: "ما الذي فاز بالسباق الكبير؟" فيُقال له:

اسم الحصان. في عام ١٩٤٦، على سبيل المثال، كان اسمه "أيربورن". كان رايت يُعلق قائلاً: "لا وجود لحصان كهذا يركض"، وكان رفيقه يُجيب: "حسنًا، لقد فاز على أي حال".

بعد ذلك الحلم الأول، علم ويلبر رايت أن حصانًا يُدعى إيربورن سيشارك في سباق سانت ليجر، لكن احتمالات فوزه كانت 66 إلى 1 ولم يتوقع أحد فوزه. ذكر حلمه لبعض أصدقائه في القاعدة، لكن لم يأخذه أحد على محمل الجد. ولأنه لم يكن مهتمًا بسباق الخيل، لم يكلف رايت نفسه عناء المراهنة. ولكن عندما فاز إيربورن، ارتسمت على وجوه أصدقائه علامات الحزن. بعد عامين، عندما أخبره رفيقه في الحلم أن حصانًا يُدعى أركتيك برينس سيفوز بالديربي، سارعوا إلى وضع رهاناتهم: ومرة أخرى، لم يكلف ويلبر رايت نفسه عناء المراهنة. ربح أصدقاؤه مبلغًا كبيرًا من المال - لدرجة أن وكيل المراهنات المحلي جاء إلى رايت ليسأله من أين حصل على الإكرامية.

حدث الحلم التالي عام ١٩٥٤ عندما كان ويلبر وزوجته يقيمان مع السيدة تشيزرايت في نيوارك. تكررت نفس العملية، ولكن مع اختلاف طفيف. عندما وجد نفسه واقفًا على مضمار السباق بجانب رفيقه، أدرك رايت فجأة أنه يحلم. التفت إلى صديقه المجهول وقال: "يا إلهي! ليس أنت مجددًا!" ثم اتبع الإجراء المعتاد: "ما الذي فاز في السباق الكبير؟" "رادار". "لا يوجد حصان يركض كهذا". "حسنًا، لقد فاز على أي حال". ثم استيقظ رايت. استطاع أن يتذكر بوضوح نظرة الانزعاج على وجه الرجل، كما لو كان يقول إنه "في الخدمة"، يؤدي وظيفته فقط، وأنه لم يكن هناك ليُهان.

اتضح أنه لا يوجد حصان اسمه رادار، بل كان هناك حصان نهار يركض في كامبريدجشاير ذلك اليوم. كانت السيدة تشيزرايت من هواة سباقات الخيل، فاتصلت على الفور بمكتب المراهنات. أما ويلبر، كالعادة، فلم يُكلف نفسه عناء المراهنة. لكن نهار فاز، وكانت السيدة تشيزرايت راضية تمامًا عن فوزها.

كانت هذه آخر مرة ظهر فيها مُرشِّح الأحلام: ربما استاء من عبارة رايت "لن أكررها"، وما تضمنته من تعليق ضمني بأنه لا يستطيع فهم سبب إضاعة المُرشِّح لوقته. وكثيرًا ما تساءل ويلبر رايت عن سبب عناء المُرشِّح في المقام الأول - إعلان الفائزين لشخص لم يُكلِّف نفسه عناء وضع شلن واحد في كلِّ حالة.

الفائزون في سباق الأحلام ليسوا نادرين. وصف إيرل أتلي الحالي حلمًا واضحًا بأنه كان في اجتماع للكلاب، وفجأة علم أنه يحمل في يده الفائز بالسباق الوطني الكبير، والثاني. احتوت التذكرة على رقمين. ومثل ويلبر رايت، لم يكن أتلي من هواة سباقات الخيل، ولم يُعر الحلم أي أهمية. في يوم سباق الوطني الكبير، كان جالسًا في المكتب عندما سمع أحدهم ينادي ليسأل إن كان أي شخص آخر يرغب في المراهنة. ذكر الرقمين، فقيل له إن الاسمين...

مطلوب. أحضر أحدهم ورقةً وبحث عن الخيول التي كانت تركض تحت الرقمين. راهن أتلي رهانًا متواضعًا على كلٍّ منهما، وكما تنبأ حلمه، فقد جاءا في المركزين الأول والثاني. في الواقع، كان قد حلم بأرقام الفائزين قبل توزيع الأرقام.*

في عام ١٩٤٦، استيقظ طالب من أكسفورد يُدعى جون جودلي، والذي أصبح فيما بعد اللورد كيلبراكن، وفي ذهنه اسما حصانين يركضان: بيندل وجولادين. وكشفت مراجعة للصحف أن كلا الحصانين كانا يركضان.

— في سباقات مختلفة — في ذلك اليوم، وربح جودلي أكثر من 100 جنيه إسترليني. وبعد بضعة أسابيع حلم بفائز يُدعى توبرمور. وكان الحصان الوحيد الذي يحمل اسمًا مشابهًا هو توبروز، ويجري في أينتري: ومرة أخرى فاز جودلي بمبلغ محترم. وبعد فترة وجيزة حلم أنه كان يتصل بمراهنه ليسأل عن الفائز في السباق الأخير: فقيل له إنه مونومينتور. واكتشف أن حصانًا يُدعى مينتوريس كان يجري بعد ظهر ذلك اليوم في ووستر، وراهن عليه: وفاز مرة أخرى. وتبع ذلك المزيد من الفائزين في عام 1947: ثم بدأ يحلم بالخاسرين، وتوقف عن راهنيتهم. ولكن بعد عشر سنوات حلم أن سباق جراند ناشيونال قد فاز به حصان يُدعى وات مان؟ في الواقع فاز السيد وات، وكان جودلي أفضل حالًا بمبلغ 450 جنيهًا إسترلينيًا. وأصبح مراسل سباقات صحيفة ديلي ميرور بفضل شهرته كـ "مقامر نفسي".*

ولعلّ أبرز حالة من نوعها كانت حالة بيتر فيرلي، المراسل العلمي لقناة إندبندنت تيليفيجن. في حديث إذاعي بعنوان "نصف الطريق إلى القمر"، وصف فيرلي كيف أصابه فيروس عام ١٩٦٥ بعمى مؤقت. في أحد الأيام، وهو في حالة اكتئاب، تذكر تجاربه في مشاهدة عمليات الإطلاق الفضائية من كيب كينيدي، وفكّر فجأة - بصدق يائس - "ليتني أستطيع مساعدة المكفوفين الآخرين على فهم معنى ذلك". في تلك اللحظة، رنّ الهاتف. كان هناك من يتصل نيابةً عن المكفوفين يسأله إن كان يرغب في إلقاء محاضرة عن مسابر الفضاء.

بعد هذه المزامنة الغريبة، بدأت المصادفات غير العادية تحدث طوال الوقت. في أحد الأيام، أثناء قيادته إلى لندن عبر مكان يُدعى بلاكيني، سمع طلبًا على راديو السيارة للسيدة بلاكيني؛ وبعد بضع دقائق سمع إشارة إلى بلاكيني آخر - غير مرتبط على الإطلاق -. في المكتب سمع الاسم مرة أخرى؛ هذه المرة كان اسم حصان يركض في الديربي. راهن عليه وفاز. ومنذ ذلك الحين، أوضح أنه يمكنه اختيار الفائزين بمجرد النظر إلى قائمة الخيول: سيقفز الفائز من الصفحة أمامه. وعندما سُئل عما إذا كان قد ربح قدرًا كبيرًا من المال بهذه الطريقة، اعترف معتذرًا: "نعم". ولكن بمجرد أن بدأ يفكر في الأمر ويتساءل كيف يحدث، اختفت هيئة التدريس.

في هذه الحالة يبدو أن فيرلي قام بطريقة ما بتنشيط القدرة العقلية من خلال شعوره باليأس الشديد وتمنيه من أعماق قلبه أن يتمكن من المساعدة

المكفوفين. لكن في المرة الأولى التي تمكن فيها من اختيار الفائز لم يكن ذلك من خلال حدس أو حلم، ولكن من خلال التزامن. وهذا أمر بالغ الأهمية لأنه يشير إلى أن أي "فاعل" يمكن أن يسبب حدسًا يمكن أن يسبب أيضًا تزامنًا؛ في الواقع، في هذه الحالة، كان المقصود من التزامن أن يكون شكلاً من أشكال الاستبصار. لا يمكن رفض تجربة بلاكيني على أنها مصادفة لأنها أعقبتها استبصارات كاملة للفائزين. في نفس البرنامج، وصف فيرلي عددًا من التزامنات الغريبة - طويلة جدًا بحيث لا يمكن سردها هنا - والتي يبدو أنها تؤكد أنه في حالته على أي حال، أصبح التزامن طريقة حاول من خلالها "كيان" ما - أو جزء غير معروف من عقله - التواصل معه.

مرّ ويلبر رايت بتجربتين أخريين في استبصار الأحلام. في عام ١٩٧٢، رأى حلمًا واضحًا عن طائرة ركاب تتحطم في مطار مزدحم: الغريب أن الطائرة كانت مطلية باللون الأحمر الفاقع. بعد بضعة أشهر، شاهد الحادث على التلفزيون: كانت طائرة كونكوردسكي الروسية التي تحطمت في معرض باريس الجوي. مع أن رايت تعرّف على الطائرة والمشهد، إلا أنه دهش من أن لونها لم يكن أحمر فاقعًا، بل كان فضيًا عاديًا. ثم خطرت له فكرة: كان الاحمرار رمزيًا؛ كان "مُولِّد الأحلام" المجهول في عقله الباطن يحاول إخباره أن الطائرة روسية.

هنا أيضًا، يتضح المعنى. كان "منتج الأحلام" يحاول إخباره أن الطائرة روسية، تمامًا كما كان رفيقه في السباق يحاول إخباره بأسماء الفائزين. مرة أخرى، يبدو الأمر كما لو أننا نتعامل مع "الكيان الذكي" لماي سنكلير، وليس مجرد قدرة استبصارية عرضية.

كانت تجربة ويلبر رايت الاستشرافية الأخرى تافهة بشكل غريب. حلم بأنه يقف وسط شجيرات الأدغال، يحدق في ثعبان كبير ذي نقش ماسي يتدفق عبر فجوة في الشجيرات: كان الحلم واضحًا لدرجة أنه أخبر زوجته عنه. في ذلك المساء، بينما كان يشاهد برنامجًا عن الطبيعة لديفيد أتينبورو على التلفزيون، رأى الثعبان ذي النقش الماسي يتدفق عبر الشاشة. تبادل هو وزوجته النظرات وقالا: "سناب".

يُذكرنا كلا الحلمين بسلسلة الأحلام الاستباقية التي وصفها جيه دبليو دان في كتابه الشهير "تجربة مع الزمن"، الذي جعله نشره عام ١٩٢٧ مشهورًا عالميًا. كان دان مهندس طيران، وكان لديه منذ طفولته قناعة بأنه سيحمل رسالة مهمة للبشرية. وقد ثبتت صحته. كان كتاب دان أول من لفت الانتباه على نطاق واسع إلى "الأحلام الاستباقية". في العشرينيات من عمره، حلم أن ساعته توقفت عند الرابعة والنصف وأن حشدًا كان يصيح: "انظروا، انظروا!". استيقظ واكتشف أن ساعته توقفت عند الرابعة والنصف. في صباح اليوم التالي، أدرك أن الساعة لا تزال تُظهر...

في الوقت المناسب، فاستيقظ في اللحظة التي توقفت فيها. أقنعته التجربة بأن الأمر يستحق الاهتمام بأحلامه، وسرعان ما لاحظ أن جميع أنواع الأحداث الصغيرة - عناوين الصحف وما شابهها - - كانت واضحة في نفوسهم.

أثار دان ضجةً واسعةً باقتراحه أن كل شخص لديه أحلام استباقية، لكن معظمنا لا يلاحظها لمجرد أننا ننساها لحظة فتح أعيننا. اعتاد الاحتفاظ بقلم وورقة بجانب سريره وتدوين أحلامه لحظة استيقاظه. كانت معظم الاستبصارات تافهة للغاية: على سبيل المثال، كان يقرأ كتابًا يصف نوعًا من الأقفال المركبة عندما تذكر أنه حلم به في الليلة السابقة. حلم "أهم" يتعلق بالثوران البركاني الكبير في مارتينيك عام ١٩٠٢: حلم دان أن أربعة آلاف شخص قد قُتلوا. عندما رأى عنوانًا رئيسيًا في إحدى الصحف عن الثوران بعد ذلك بوقت قصير، ذكر أن أربعين ألف شخص قد قُتلوا، لكن دان أخطأ في قراءته على أنه أربعة آلاف ولم يكتشف خطأه لمدة خمسة عشر عامًا. يشير هذا بوضوح إلى أن حلمه بالثوران كان، في الواقع، استبصارًا بتجربته الخاصة في قراءة تقرير عنه في إحدى الصحف، وليس الحدث نفسه. (في الواقع كان العدد النهائي للقتلى يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفًا.)

في عام ١٩٦٩، قرر توم ليثبريدج (الذي التقينا به سابقًا في مجال الكشف عن المعادن) تجربة "تجربة دان مع الزمن"، وبدأ بتسجيل هذه الأحلام. وقد تزايد اهتمامه بالموضوع قبل خمس سنوات عندما رافق مصور شاب يُدعى غراهام تيدمان فريقًا تلفزيونيًا إلى منزل ليثبريدج في ديفون. دفعه شيء ما في أسلوب تيدمان إلى سؤاله إن كان قد زار المكان من قبل. كان تيدمان قد زاره بالفعل - في أحلامه. في الحديقة، استطاع أن يقول: "كانت هناك مبانٍ على الجدار". كانت هناك - ولكن قبل سنوات عديدة. كان تيدمان يحلم بالمكان كما كان قبل ولادته. ومن خلال مخططات عمرها أكثر من نصف قرن، تمكن ليثبريدج من تأكيد دقة تيدمان.

سرعان ما أقنعت تجارب ليثبريدج نفسه بأن دان كان على صواب، وأن الأحلام الاستباقية أكثر شيوعًا مما نعتقد. (توصل جيه بي بريستلي إلى النتيجة نفسها عندما دعا علنًا إلى الأحلام الاستباقية وتلقى آلاف الردود). ومرة أخرى، كانت في الغالب "لمحات" بسيطة للغاية: وجه رجل مجهول شوهد بعد بضع ساعات؛ وأشياء نُشرت في الصحف في اليوم التالي. وقد رأى بعض مراسليه أحلامًا عن كوارث وقعت لاحقًا: حريق فندق؛ انهيار مبنى سكني في انفجار غاز. ولكن بدا واضحًا مرة أخرى أن الأحلام كانت تتعلق بتقارير صحفية أو تلفزيونية لاحقة، وليست بالأحداث الفعلية.

توصل ليثبريدج إلى استنتاج مفاده أن هناك "مستويات أخرى من الواقع" تتجاوز مستوانا المادي، وأنها موجودة على "معدلات اهتزازية" أعلى.

اقترح وجود "منطقة خالدة" تتجاوز المستوى المادي مباشرةً، حيث يكون المستقبل حقيقيًا كالحاضر أو الماضي. ورأى أنه من الممكن أن تمر "الروح" (أو "الجسد النجمي") عبر هذه المنطقة الخالدة مباشرةً بعد النوم أو قبل الاستيقاظ، وهذا ما يُفسر الأحلام الاستباقية.

نظرية دان أكثر طموحًا. بدأ بالإشارة إلى أنه عندما نقول إن الزمن يمر بسرعة أو ببطء، فلا بد أننا نقيسه بمعيار آخر، وأن هذا المعيار لا بد أن يكون نوعًا آخر من الزمن - سماه الزمن 2. ومن المفترض أنه لا بد من وجود نوع آخر من الزمن نقيس به الزمن 2، وهكذا إلى ما لا نهاية. وربما يوجد أيضًا عدد لا نهائي من "الأنا" التي تتوافق مع كل مستوى من مستويات الزمن.

في الواقع، نسقط في هذا النوع من التكهنات لحظة إقرارنا بأن الزمن شيء أكثر تعقيدًا من مجرد تدفق أحادي الاتجاه. إذا كان أي نوع من الاستبصار ممكنًا، فلا بد أننا قادرون على نوع من "السفر عبر الزمن". ويعني السفر عبر الزمن أيضًا وجود عدد لا نهائي من "الأنا". على سبيل المثال، إذا استطعتُ السفر إلى الغد، فمن المفترض أن أقابل "الأنا" كما سأكون بعد أربع وعشرين ساعة. ويمكنني الاستمرار في ذلك إلى ما لا نهاية، ملتقيًا بالعشرات - أو المليارات - من "الأنا". كان هذا النوع من التفكير هو ما دفع دان إلى استنتاج أن وقتنا البشري هو إلى حد ما وهم. في كتاب بعنوان "الخلود الجديد"، يُشبّه دان الحياة البشرية بشريط طويل من الفيلم يحتوي على كل ما يحدث لنا بين الولادة والموت. يقف "أنت الحقيقي" مقابل هذا الفيلم، قادرًا على توجيه انتباهه إلى أي جزء منه. لكن على طول ذلك الشريط من الفيلم، يسافر كيان يُطلق عليه "المراقب ١"، الذي عادةً ما ينشغل انتباهه بانطباعاته اللحظية. ومع ذلك، إذا لم يكن هناك الكثير من الأحداث، وكان بإمكانه الاسترخاء، فإن المراقب ١ يلتقط أحيانًا لمحات من أجزاء أخرى من الفيلم. هذه لمحات من الماضي واستبصارات.

لدى دان قسمٌ شعريٌّ خاصٌّ يبدو أنه جوهر الكتاب، وقد أُلقيَ كمحاضرةٍ تلفزيونيةٍ عام ١٩٣٦. طُلِبَ من عازف بيانو أن يعزف على لوحة المفاتيح بأكملها، من الأسفل إلى الأعلى. يقول دان إن هذه هي طبيعة الحياة اليومية - مجرد "شيءٍ لعينٍ تلو الآخر". في النوم، يستطيع "عازف البيانو" القفز ذهابًا وإيابًا، يضغط على المفاتيح عشوائيًا - مُحدثًا ضوضاءً مُريعة. لكن بعد الموت، يستطيع "المراقب" اختيار المفاتيح التي يُفضّلها وضربها لتحويلها إلى لحنٍ صغيرٍ لطيفٍ أو حتى سوناتا بيانو. (في هذه المرحلة، طُلِبَ من عازف البيانو عزف أغنية الربيع لمندلسون ومسيرة جنازة بيتهوفن). إنه مثالٌ ساحر، لكنه لا يزال يتركنا في حيرةٍ من أمرنا بشأن معتقدات دان الأساسية حول الزمن. ومع ذلك، تبرز نقطةٌ واحدةٌ بوضوحٍ تام. يقول إن البشر يُخطئون في اعتبار شكلٍ "هجينٍ" من الزمن زمنًا حقيقيًا. النتيجة هي أننا نشعر أن الحياة عبارة عن عمل مخيب للآمال،

يبدأ بآمال عريضة وأبواق مدوية، ثم يمرّ بإحباط تلو الآخر، وينتهي بزحفٍ مُحبطٍ نحو القبر. لو استطعنا إدراك "الزمن الحقيقي" و"الأنا الحقيقية"، لَأدركنا أن كل ما هو موجود يبقى موجودًا. "الوردة التي أزهرت مرةً تزهر للأبد".

في التحليل النهائي، يبدو أن دان يقصد وجود "أنت حقيقي" موجود فوق الزمن - وهو ما قصده الفيلسوف هوسرل تقريبًا بـ"الأنا المتسامية". إنه يحتل نوعًا من الكون الدائم رباعي الأبعاد، ويتمتع بنوع من الحرية لا تعرفه الذات المادية.

يبدو أن هذا الرأي يُعيد صدى بعض الأفكار الصوفية التي درسناها في الفصل الثاني. على سبيل المثال، تقول بهاجافاد جيتا: "لم يكن هناك وقت لم أكن فيه موجودًا، ولا أنت، ولا أي من هؤلاء الملوك. ولا يوجد أي مستقبل سنتوقف فيه عن الوجود... ما هو غير موجود لا يمكن أن يأتي إلى الوجود أبدًا، وما هو موجود لا يمكن أن يتوقف عن الوجود أبدًا". يبدو مُشجعًا أن دان اعتقد أنه توصل إلى هذه الأفكار من خلال التفكير العلمي البحت، على الرغم من أن أحدًا لم أقابله قد نجح في اتباع تفكيره. ولكن يبدو أنه لا يزال يتركنا مع المشكلة التي أقلقت ويلبر رايت. إذا كانت حياتي بالفعل "على الفيلم"، إذا جاز التعبير، فمن المفترض أن كل ما يحدث لي مُقدّر مسبقًا وأن شعوري بامتلاك إرادة حرة هو وهم؟

كان هذا جانبًا من نظرية دان أثار قلق روائي شاب ناجح يُدعى جون بوينتون بريستلي الذي حقق شهرة بين عشية وضحاها برواية الرفاق الطيبين عام 1929. وعندما بدأ في كتابة المسرحيات في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، حاول إضفاء طابع درامي على نظرية دان في مسرحية صغيرة متوترة تسمى "الزاوية الخطرة"، حيث قسم الزمن إلى قسمين وحاول إظهار ما كان يمكن أن يحدث وكذلك ما حدث بالفعل. بدا أن هذه المسرحية، و"مسرحية زمنية" ثانية تسمى "الزمن والكونوايز"، تعكس النظرة الجبرية القائلة بأن حياتنا مقدرة مسبقًا. ولكن بحلول عام 1937، اكتشف بريستلي نظرية أخرى للزمن في عمل بي دي أوسبنسكي، الذي تمت مناقشة "تصوفه التجريبي" في فصل سابق (ص 47). جادل أوسبنسكي بأن الزمن، مثل المكان، له ثلاثة أبعاد: المدة والسرعة والاتجاه. لذا فإن الزمن، إذا جاز التعبير، مكعب وليس خطًا مستقيمًا. لا نرى إلا الخط المستقيم، لأننا عالقون في الزمن، لذا يبدو لنا حتميًا أن يتوالى حدثٌ ما، كما تتوالى نغمات البيانو. لكن إذا كان الزمن "مكعبًا" لا خطًا مستقيمًا، فإن تدفقه الأمامي قد يتجه صعودًا أو هبوطًا أو جانبيًا ضمن فضاء ثلاثي الأبعاد. وهذا يعني بوضوح أن النقطة التالية على الخط ليست محددة مسبقًا بدقة، فقد تكون صعودًا أو هبوطًا أو جانبيًا. يقول أوسبنسكي في فصل "التكرار الأبدي" من كتابه "نموذج جديد للكون": "الحياة مليئة بإمكانيات غير محققة، وعندما تصل إلى نهايتها، تبدأ من جديد، فنستمر في العيش".

الحياة نفسها إلى الأبد. (استخدم هذه الفكرة في رواية رائعة بعنوان "حياة إيفان أوسوكين الغريبة"). لكن ليس بالضرورة أن تكون متطابقة تمامًا: فالأشخاص البليدين والكسالى وحدهم من يعيشون الحياة نفسها مرارًا وتكرارًا. يسعى الأشخاص الأكثر تصميمًا إلى تحقيق إمكاناتهم، ورغم أن الأحداث مُقدّرة مسبقًا، إلا أنهم يستطيعون اختيار بذل المزيد من الطاقة والعزيمة فيها. وهكذا تتغير حياتهم بشكل لا يُصدق في كل مرة.

في فصله "التصوف التجريبي"، يُقدّم أوسبنسكي بعض الدلائل على كيفية تطور هذه الأفكار. يتحدث عن الشعور الغريب بـ"إطالة الزمن"، بحيث تبدو الثواني وكأنها سنوات أو عقود. ويؤكد أن الشعور الطبيعي بالزمن ظلّ بمثابة خلفية لهذا "الزمن المُتسارع"، بحيث كان - إن صحّ التعبير - يعيش في "زمنين" في آنٍ واحد. زمننا العادي له "مدة" فحسب، أما الزمن الثاني فله "سرعة". وبما أن الزمن يتدفق من الماضي إلى المستقبل، فيبدو أنه يمتلك بُعدًا ثالثًا - "الاتجاه".

يبدو أن هذه التجارب أقنعت أوسبنسكي أيضًا بأن المستقبل، بمعنى ما، مُقدّر مسبقًا. في إحدى المرات، سأل نفسه عما إذا كان التواصل مع الموتى ممكنًا، و"رأى" على الفور شخصًا أراد التواصل معه بشدة. لكن ما "رآه" لم يكن الشخص نفسه، بل حياته بأكملها، في نوع من الاستمرارية رباعية الأبعاد. في تلك اللحظة، أدرك أوسبنسكي أنه من غير المجدي الشعور بالذنب لفشله في تقديم المزيد من المساعدة لهذا الشخص تحديدًا، لأن أحداث حياته كانت ثابتة كملامح وجهه. "لم يكن بإمكان أحد تغيير أي شيء فيها، تمامًا كما لم يكن بإمكان أحد تغيير لون شعره أو عينيه أو شكل أنفه...". بعبارة أخرى، ما حدث للرجل كان "قدره".

خلال هذه التجارب أيضًا، انتاب أوسبنسكي شعورٌ واضح بأنه لن يذهب إلى موسكو في عيد الفصح، كما كان ينوي تمامًا. استطاع التنبؤ بسلسلة من الأحداث التي ستجعل زيارته مستحيلة. وفي الوقت المناسب، حدث هذا التسلسل تمامًا كما تنبأ به في حالته الروحانية. لذلك، لم يكن لدى أوسبنسكي أدنى شك في أن الاستبصار حقيقة.

استعار بريستلي فكرة أوسبنسكي لمسرحيته الثالثة "لقد كنت هنا من قبل"، والتي تظهر فيها شخصية غير مرضية تمامًا انتحرت بسبب الشفقة على الذات، لكنها تبذل جهدًا حاسمًا في "المرة الثانية"، وتجعل حياتها أفضل بشكل عام.

في كتابه "في الوقت المحدد"، يروي الدكتور مايكل شاليس، أستاذ جامعة أكسفورد، قصتين شخصيتين يبدو أنهما تدعمان نظرية أوسبنسكي. يتذكر الدكتور شاليس كيف دخل، وهو في الثانية عشرة من عمره، من الباب الخلفي لمنزله ونادى على والدته، التي كانت في الطابق العلوي، ليخبرها أنه عاد. وبينما كان يفعل ذلك، غمره شعورٌ بأن هذا قد حدث من قبل.

وأن والدته كانت تتصل به لتخبره أنهم سيتناولون سلطة على العشاء - وهو ما فعلته. يمكن وصف هذه الحالة بـ"المشكوك فيها"، فمن واقع خبرتي الشخصية، قد تكون هذه المشاعر إعادة تنشيط لذكرى شبه منسية، أو ربما خلل في جهاز الكمبيوتر المعروف باسم الدماغ، والذي يخبرنا أن التجربة "مألوفة" بينما هي في الواقع ليست كذلك. (ربما كانت معلومات والدته عن السلطة محض صدفة - أو ربما كانوا يتناولونها دائمًا في ذلك اليوم من الأسبوع). لكن حالة الدكتور شاليس الثانية تبدو أغرب من ذلك بكثير.

كان شاليس يُلقي درسًا تعليميًا عن النشاط الإشعاعي عندما غمره شعورٌ بالديجا فو. شعر أن ما يجب أن يحدث لاحقًا هو أن يقترح عليه كتابًا معينًا من مكتبه، ثم يذهب لإحضاره. قرر كسر هذا النمط بمقاومة الرغبة في الذهاب وإحضار الكتاب. ومع ذلك، حتى وهو يتخذ هذا القرار، سمع صوته يقول: "أعتقد أنه من الأفضل أن أعرض عليك بعض الأمثلة على هذا. سأذهب إلى مكتبي وأحضر كتابًا". يبدو هذا، للوهلة الأولى، مثالًا على "القدر المُسبق" الذي يتحدث عنه أوسبنسكي.

في الواقع، تقبّل ج. ب. بريستلي نظرية أوسبنسكي باعتبارها أكثر واقعية من "الزمن التسلسلي" لدون. لكن كانت لديه بعض التحفظات الأساسية. في كتابه "الإنسان والزمن" (1964)، وضّح هذه التحفظات بحالة استعارها من الدكتورة لويزا راين. وصفت أمٌّ حلمًا رأت فيه تخييمًا مع بعض أصدقائها على ضفاف جدول. أخذت طفلها إلى الجدول، قاصدةً غسل بعض الملابس. ثم تذكرت أنها نسيت الصابون فعادت إلى الخيمة، تاركةً الطفل يرمي الحجارة في الماء. عندما عادت، كان الطفل مُستلقيًا على وجهه في الجدول: سحبته من هناك ووجدته ميتًا.

في ذلك الصيف، ذهبت للتخييم مع بعض الأصدقاء، واختاروا مكانًا على ضفاف جدول. قررت غسل ملابسها، فأخذت طفلها إلى الماء. ثم تذكرت أنها نسيت الصابون، فعادت إليه. وبينما كانت تفعل ذلك، بدأ الطفل يرمي الحجارة في الماء، وخطر لها حلمها فجأة. أدركت أن كل شيء كان كما كان في الحلم، حتى ملابس الطفل. فحملت الطفل وأعادته إلى الخيمة معها...

هنا، بوضوح، حالةٌ مكّنتها فيها "الاستبصار" من تجنّب كارثة، ويبدو أنها تُبيّن بوضوح أن المستقبل ليس مُحدّدًا بشكل جامد. ويمكن دعم هذا الرأي بحالات أخرى عديدة، اثنتان منها في دراسة كلاسيكية للاستبصار، بعنوان "المستقبل هو الآن" لآرثر دبليو أوزبورن. كان الابن الأكبر يزور عائلته التي كانت تقضي عطلةً في كوخٍ في هوبارت، تسمانيا. قبل أن يغادر بالسيارة عائدًا إلى كينغستون، حذّرته والدته من أنها شعرت بحدسٍ بأنه سيُصاب بـ...

حادثٌ في طريق العودة إلى المنزل، وأن يقود بحذر. في منتصف الطريق، تذكر الشاب تحذير والدته، فخفّض سرعته إلى خمسة وعشرين ميلاً في الساعة. بعد ثوانٍ قليلة، انزلقت السيارة على بقعة جليدية - الوحيدة في الرحلة بأكملها - وسقطت في الخندق بعد اصطدامها بالجسر. تضررت السيارة بشدة، لكنه لم يُصَب بأذى: لو كان لا يزال يسير بضعف هذه السرعة، لكان قد قُتل أو أُصيب بجروح خطيرة.

في الحادثة الثانية، كان صديق لأوزبورن - أستاذ موسيقى في مدرسة حكومية - يقف خلف تلميذ يعزف على البيانو عندما اختفت صحيفة الموسيقى فجأة، فرأى جزءًا من الطريق الذي كان سيسلكه عصر ذلك اليوم. وبينما كان يراقب سيارةً تجتاز منعطفًا على الجانب الآخر من الطريق، بسرعة فائقة. ثم تلاشى المشهد وعادت صحيفة الموسيقى إلى وضعها الطبيعي. في عصر ذلك اليوم، وهو يقترب من المنعطف، تذكر فجأةً ما رآه. ودون تفكير، أوقف سيارته على الجانب الآخر من الطريق. وبينما كان يفعل ذلك، جتازت سيارةٌ منعطفًا على الجانب الآخر، بسرعة فائقة، تمامًا كما رآها.

هذه الحالات مُحيّرة، إذ يبدو أنها تُشير إلى أن المستقبل، بعيدًا عن كونه مُقدّرًا مُسبقًا، قابل للتغيير. وبما أن الحدس كان السبب المباشر للتغيير، فيبدو أن التحذير وُجّه عمدًا لتغيير المستقبل - وهو ما يُشبه إلى حد كبير "الكيان الذكي" لماي سنكلير. يبدو أن هذا يُشير إلى نظريتين بديلتين: (1) أن المستقبل ليس مُقدّرًا مُسبقًا، ولكن يُمكننا مع ذلك أن نُلمّح إلى ما يُخبئه. يبدو هذا مُتناقضًا لدرجة أنه يُشير إلى النظرية البديلة (2) أن المستقبل، إلى حد ما، مُقدّر مُسبقًا، ولكن يُمكن تغييره بجهد بشري مُتعمّد.

هناك، مع ذلك، احتمال ثالث، يُمكن توضيحه على أفضل وجه بقصة شهيرة. يتعلق هذا أيضًا بالمارشال الجوي جودارد، الذي رأى لمحة غريبة لمطار دريم في المستقبل. في عام ١٩٤٦، كان السير فيكتور جودارد يحضر حفلًا أُقيم على شرفه في شنغهاي. كان يتحدث مع بعض الأصدقاء عندما سمع شخصًا خلفه يُعلن وفاته - جودارد. استدار فوجد نفسه ينظر إلى وجه قائد بحري بريطاني، الكابتن جيرالد غلادستون. تعرف عليه غلادستون على الفور، وبدا عليه الفزع. "أنا آسف للغاية! أنا أعتذر!" "لكن ما الذي جعلك تعتقد أنني ميت؟" "لقد حلمت بذلك."

استطرد غلادستون واصفًا حلمه. رأى تحطم طائرة نقل ركاب، ربما من طراز داكوتا، على ساحل صخري: هبطت بفعل عاصفة ثلجية شديدة. بالإضافة إلى طاقم سلاح الجو الملكي البريطاني، كانت الطائرة تحمل أيضًا ثلاثة مدنيين، رجلين وامرأة: خرجوا من الطائرة، لكن المارشال الجوي غودارد لم يخرج. استيقظ غلادستون وهو مقتنع تمامًا بوفاة غودارد، وطوال ذلك اليوم كان يتوقع سماع الخبر.

لم يكن غودارد قلقًا للغاية: كان من المقرر أن يسافر إلى طوكيو على متن طائرة داكوتا، لكن لن يكون هناك مدنيون على متنها. قضى هو وغلادستون نصف ساعة ممتعة تقريبًا في مناقشة نظرية دان للزمن. لكن خلال العشاء، حدثت تطورات مثيرة للقلق. سأله صحفي من صحيفة ديلي تلغراف إن كان بإمكانه التوسل لتوصيله إلى اليابان. ثم أخبر القنصل العام غودارد أنه تلقى أوامر بالعودة إلى طوكيو فورًا، وسأل إن كان بإمكانه السفر أيضًا؛ وسأل أيضًا إن كان بإمكانهم إيجاد مكان لسكرتيرة. وافق غودارد بتردد شديد. وعندما أقلعت الطائرة من شنغهاي، لم يكن لديه أدنى شك في أنه على وشك الموت.

علقت طائرة داكوتا وسط سحابة كثيفة فوق الجبال - وهي تفاصيل أخرى "شاهدها" الكابتن غلادستون - ثم واجهت عاصفة ثلجية عاتية. في النهاية، اضطر الطيار إلى الهبوط اضطراريًا على الساحل الصخري لجزيرة قبالة سواحل اليابان. لكن غلادستون أثبت خطأه بشأن وفاة جودارد: فقد نجا جميع من كانوا على متنها.

يمكننا أن نرى أنه في هذه الحالة، لم يُحدث حدس غلادستون أي فرق عملي بالنسبة لغودارد: لم يكن بوسعه فعل شيء سوى رفض الذهاب إلى طوكيو. لذا، على عكس "الحالمين" في الحكايات السابقة، لم يكن قادرًا على التهرب. ومع ذلك، لم يتحقق حدس غلادستون بوفاته. يبدو أن الاستنتاج المنطقي هو أن المستقبل مُحدد مسبقًا إلى حد ما، ولكن ليس بشكل صارم. ولعل حقيقة أن غودارد كان يعلم - أو ظن أنه يعلم - بالحادث قد غيّرت مسار الأحداث بطريقة ما، بحيث لم يقع الحادث المميت.

هذا، بالطبع، استنتاجٌ يجده البشر مُقلقًا للغاية. فمجرد التفكير في القدر يكفي لإثارة الشك، الذي ينتابنا في أسوأ لحظاتنا، بأن الحياة ليست سوى حلم. ومع ذلك، فهذا، إلى حدٍّ ما، ضربٌ من العبث. فنحن نقبل "القدر" المكاني كل يوم دون أن نشعر بالقلق منه. على العكس، سأشعر بقلق بالغ إذا لم أكن أعرف إن كانت الحافلة التالية ستأخذني إلى بيكاديللي أم بونتفراكت. علاوةً على ذلك، أُدرك أن القدر المكاني لا يُؤثر على إرادتي الحرة: فأنا أستطيع اختيار الذهاب شمالًا، جنوبًا، شرقًا، أو غربًا.

لكن، ألسنا نتحدث عن شيء مختلف تمامًا؟ الزمن مختلف تمامًا عن المكان، بمعنى أن ما لم يحدث بعد ليس مُقدّرًا مسبقًا - قد يحدث شيء مختلف تمامًا. لكن لحظة تفكير تُبيّن لنا أن هذا أيضًا غير صحيح. يستطيع علماء الفلك التنبؤ بحركات النجوم لقرون قادمة، ولو كانت لديهم معرفة كافية لفعلوا ذلك لملايين السنين. بينما أنظر الآن من النافذة، أستطيع أن أرى الرياح تهب الغسيل على الحبل، كما تُهزّ شجيرة السيرينغا. بالنسبة لي، تبدو الحركة التالية للشجيرة أو الملابس مسألة صدفة بحتة: في الواقع، إنها مُقدّرة مسبقًا تمامًا مثل حركات النجوم - مثل...

قد يُخبرك خبير الأرصاد الجوية. الصحيح هو أن الكائنات الحية تُدخل عنصر الصدفة الحقيقية في الصورة: قد تُقرر زوجتي سقي الحديقة بدلاً من نشر الغسيل. لكن الشجيرات، على الرغم من كونها حية، لا تُدخل سوى القليل جدًا من الصدفة في الصورة. علاوة على ذلك، يمكن وصف الإرادة الحرة من حيث الإحصاءات. فوجئ عالم الاجتماع دوركهايم باكتشافه أنه من الممكن التنبؤ بمعدل الانتحار بدقة كبيرة. يبدو أن هذا يعني أنه بمعرفة مُفصلة كافية، يُمكننا التنبؤ بدقة بمن سيُقتل نفسه العام المقبل. هذا ليس صحيحًا تمامًا، بالطبع، لأن البشر يمتلكون درجة ما من الإرادة الحرة: ومع ذلك، فهو يُذكرنا بأن الوقت، بمعنى أساسي، "مُحدد مسبقًا" تمامًا مثل المكان.

قد تبدو هذه الصورة قاتمة للغاية لبعض القراء. لكن إذا فهمنا معناها الحقيقي، فسنرى أن العكس هو الصحيح. في قصيدة "الرجل الذي كان يوم الخميس"، يتحدث الشاعر الأناركي غريغوري عن مباهج الفوضى:

لماذا يبدو جميع الموظفين وعمال السكك الحديدية في قطارات السكة الحديدية حزينين ومتعبين؟ لأنهم يعلمون أنهم سيصلون إلى أي مكان اشتروا تذكرة له. لأنهم بعد عبورهم ساحة سلون يدركون أن المحطة التالية لا بد أن تكون فيكتوريا، ولا شيء سوى فيكتوريا. يا لفرحتهم العارمة! يا لعيونهم التي تلمع كالنجوم، وأرواحهم التي تسكن عدن، لو كانت المحطة التالية، بلا ريب، شارع بيكر!

لكن خصم جريجوري يرفض هذا.

الشيء النادر والغريب هو إصابة الهدف؛ أما الشيء الواضح والفادح فهو إخفاقه. نشعر بمدى عظمة أن يصيب رجل بسهم واحد جامح طائرًا بعيدًا. أليس كذلك بمدى عظمة أن يصيب رجل بقطار واحد جامح محطة بعيدة؟ الفوضى مملة؛ لأنه في الفوضى قد يذهب القطار إلى أي مكان، إلى شارع بيكر أو بغداد. لكن الإنسان ساحر، وسحره كله يكمن في أنه يقول "فيكتوريا"، ويا لها من فيكتوريا.

هذا صحيحٌ بلا شك: فوجود قوانين الطبيعة - وجداول مواعيد السكك الحديدية - يعني أننا نستطيع أن نصبح سادة الفوضى المحيطة بنا. عندما نشعر بالتعب والإحباط، قد تبدو القوانين عائقًا؛ وعندما نشعر بالحماس والتفاؤل، نرى أن ما يهم ليس القانون، بل سعادتنا.

الحرية في الاستفادة منها.

فيما يتعلق بالقدر، تكمن المشكلة الحقيقية في عدم وجود جداول زمنية تُخبرني بما سيحدث الأسبوع المقبل، مما يُجنّبني التواجد في مكان يُتوقع فيه زلزال أو إعصار. ومع ذلك، حتى هذا ليس قانونًا صارمًا، فكما رأينا، يتنبأ الناس دائمًا بالمستقبل بدقة لا تدع مجالًا للشك في أن البشر، بالإضافة إلى قدراتهم في التنبؤ بالمستقبل، والتخاطر، وقياس النفس، والاستبصار، يمتلكون أيضًا قدراتٍ مذهلة في الاستبصار.

في أبريل/نيسان 1912، حلم رجل يُدعى ج. كونون ميدلتون ليلتين بسفينة تطفو على سطح الماء، والركاب يسبحون بجنون حولها. انتابه قلق بالغ، إذ كان من المقرر أن يبحر بعد عشرة أيام إلى نيويورك على متن سفينة تيتانيك لحضور مؤتمر أعمال. لكنه شعر بأنه لا يستطيع إلغاء رحلته لمجرد حلم، وشعر بارتياح كبير عندما أُلغي المؤتمر قبل أسبوع من موعد إبحاره. كما كانت لدى مهندس بحري يُدعى كولين ماكدونالد هواجس قوية بكارثة محتملة على متن تيتانيك، فرفض ثلاثة عروض مغرية بشكل متزايد للانضمام إلى طاقمها كمهندس ثانٍ. غرق المهندس الذي تولى المهمة عندما غرقت تيتانيك في 14 أبريل/نيسان 1912.

كان محرر الصحيفة دبليو. تي. ستيد أقل عقلانية. كان مهتمًا بعلم الغيب، وقد حذّرته عرّافتان من أنه سيلقى حتفه على متن سفينة متجهة إلى أمريكا. حتى أنه كتب قصة عن سفينة عابرة للمحيطات غرقت لعدم وجود قوارب كافية فيها، واختتمها بعبارة: "هذا بالضبط ما قد يحدث، وما سيحدث، إذا أُرسلت السفن إلى البحر بسبب نقص القوارب". لكن ستيد كان من بين من غرقوا لأن تيتانيك لم تكن بها قوارب نجاة كافية.

لكن أبرز مثال على التنبؤ الواضح بغرق تيتانيك حدث قبل أربعة عشر عامًا. في عام 1898، كتب كاتب أمريكي يُدعى مورغان روبرتسون رواية بعنوان "حطام تيتان" عن سفينة عملاقة "غير قابلة للغرق" اصطدمت بجبل جليدي وغرقت - تمامًا كما حدث مع تيتانيك. كانت تيتان الخاصة به تزن 70,000 طن؛ وكانت تيتانيك 66,000 طن. كانت كلتا السفينتين عبارة عن سفن ثلاثية اللولب قادرة على 25 عقدة. كان لدى تيتان 24 قارب نجاة؛ وكان لدى تيتانيك 20. كانت كلتا السفينتين في رحلاتهما الأولى من ساوثهامبتون إلى نيويورك. كان مورغان روبرتسون كاتبًا غريبًا من حيث أن أنشطته الإبداعية كانت شبه آلية. كان يشعر بأنه أداة لكاتب آخر "يتولى الأمر" عندما يشعر بالميل: في أوقات أخرى كان غير قادر على كتابة سطر واحد. خلال هذه "الفترات الجافة"، لم يكن بإمكانه سوى الانتظار حتى يختار رفيقه غير المرئي أن يظهر نفسه. يبدو أن الاستنتاج المنطقي هو أن حطام السفينة تيتان كان قطعة حقيقية من التنبؤ وليس مجرد "صدفة".

يفضل يونج، بطبيعة الحال، أن يسميها تزامنًا، وفي الممارسة العملية

من الواضح أنه لا فرق في التسمية التي نختارها. فمن الواضح الآن أننا نتحدث عن الشيء نفسه. يمكننا القول إنه عندما تواصلت ريبيكا ويست ووجدت محاكمة نورمبرغ التي أرادتها، كانت تمارس نوعًا من الاستبصار فيما يتعلق بالمكان؛ وعندما فتحت مذكرات غونو ورأت إشارة إلى ديليبش - التي كانت تتحدث عنها قبل أن تطلب الكتاب - كانت تمارس نوعًا من الاستبصار فيما يتعلق بالزمان. وإذا كان هذا صحيحًا، فيمكننا اعتبار التزامن، بعيدًا عن كونه دليلاً على التحديد المسبق، دليلاً على الإرادة البشرية الحرة. يبدو الأمر كما لو أن "ذاتنا الأخرى" (أو "الضيف المجهول" كما فضل ميترلينك تسميته) لديها جدول زمني للسكك الحديدية للأحداث المستقبلية، وبالتالي يمكنها هندسة "مصادفات مهمة".

يبدو أن بعض الاكتشافات الحديثة حول التوائم المتطابقة تعزز هذه الحجة. فقد اكتشفها أخصائي اجتماعي إنجليزي يُدعى جون ستراود في أواخر سبعينيات القرن الماضي. ففي عام ١٩٧٩، تواصلت معه فتاة تبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا من دوفر، تُدعى باربرا هربرت، كانت تبحث عن أختها التوأم. كانت والدتهما، وهي طالبة فنلندية في لندن، قد تخلت عنهما في بداية الحرب العالمية الثانية، وتم تبنيهما بشكل منفصل. اكتشفت باربرا هويتها الحقيقية عندما تقدمت بطلب للحصول على نسخة من شهادة ميلادها للانضمام إلى برنامج معاشات تقاعدية. كتبت إلى صحيفة فنلندية، وعلمت في النهاية أن والدتها انتحرت عام ١٩٤٣. بمساعدة جون ستراود، تتبعت القابلة التي قامت بتوليدها، بل وقاضت المسجل العام في محاولة لمعرفة من تبنى أختها. في النهاية، علمت أن توأمها يُدعى دافني جودشيب، وأنها تعيش في ويكفيلد، يوركشاير. وافقت دافني على الحضور إلى محطة كينغز كروس لمقابلة توأمها. عندما التقيا أخيرًا، كانتا ترتديان فستانًا بيج وسترة مخملية بنية. وتبين أن هذه كانت الأولى فقط من سلسلة مصادفات مذهلة. كلاهما كانتا موظفتين حكوميتين محليتين، وكذلك زوجيهما؛ كلاهما التقتا بزوجيهما في حفلة راقصة في سن السادسة عشرة وتزوجتا في أوائل العشرينات من عمرهما في الخريف - حفلات زفاف فخمة مع جوقات؛ كلاهما عانت من الإجهاض مع طفلهما الأول، ثم أنجبت ولدين ثم فتاة؛ كلاهما سقطتا من الطابق السفلي في سن الخامسة عشرة، ونتيجة لذلك عانت كلتاهما من ضعف في الكاحلين؛ كلاهما كانتا مرشدتين للفتيات؛ كلاهما تلقتا دروسًا في رقص الصالات؛ كلاهما عاشتا في سيلشيستر؛ كلاهما قرأتا مجلة نسائية معينة وكان لديهما نفس المؤلف المفضل ... في المجمل، أدرج جون ستراود ثلاثين مصادفة. يمكن تفسير بعضها بحقيقة أنهما توأم متطابق - الخوف من المرتفعات، وسلوكيات الجسم، وكره رؤية الدم، وتفضيلات الطعام. لكن حوادث مثل السقوط من الطابق السفلي أو الإجهاض يصعب تفسيرها من حيث الجينات.

وبمحض مصادفة تبدو نموذجية في مثل هذه الأمور، أصبح موضوع التوائم المتطابقة موضوع اهتمام وطني في أمريكا في نفس الوقت،

عندما ظهر توأمان متطابقان من الذكور في برنامج جوني كارسون الحواري ورويا قصصهما المذهلة. عندما كان جيم لويس، من ليما، أوهايو، في التاسعة من عمره، علم أن لديه توأمًا متطابقًا تم تبنيه عند الولادة. وبعد ثلاثين عامًا - في نفس عمر باربرا هربرت تمامًا - قرر أن يرى ما إذا كان يمكنه العثور عليه. وعلى عكس المحاكم البريطانية، تميل المحاكم الأمريكية إلى أن تكون مفيدة في مثل هذه الحالات، وسرعان ما علم جيم لويس أن توأمه يُدعى جيم سبرينغر ويعيش في دايتون، أوهايو. وبمجرد أن التقيا اكتشفا سلسلة من نفس النوع من المصادفات السخيفة التي أذهلت باربرا ودافني. فقد تزوج كلاهما من فتاة تُدعى ليندا، ثم انفصلا وتزوجا من فتاة تُدعى بيتي؛ وأطلق كلاهما على ابنيهما اسم جيمس ألان، على الرغم من أن جيم لويس كان يهجأ آلان بحرف 1 واحد فقط؛ وكان كلاهما يمتلك كلابًا تُدعى توي؛ وعمل كلاهما بدوام جزئي كنائب عمدة؛ وعمل كلاهما في سلسلة مطاعم ماكدونالدز للهمبرغر؛ وكان كلاهما يعمل في محطات الوقود؛ كان كلاهما يقضيان عطلاتهما في نفس المنتجع الساحلي في فلوريدا واستخدما نفس الشاطئ - بطول 300 ياردة فقط؛ وكلاهما كان يقود سيارتهما في شيفروليه؛ وكلاهما كان لديه شجرة في الحديقة مع مقعد أبيض حولها؛ وكلاهما كان لديه ورش عمل في الطابق السفلي حيث كانا يصنعان الإطارات والأثاث؛ وكلاهما خضع لعملية قطع القناة الدافقة؛ وكلاهما كان يشرب نفس البيرة ويدخن نفس السجائر؛ وكلاهما اكتسب عشرة أرطال في نفس المرحلة من المراهقة، وفقدها مرة أخرى؛ وكلاهما كان يستمتع بسباقات السيارات ويكره لعبة البيسبول.

نُشرت قضيتهم في مجلة "ساينس"، وهي مجلة الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم. وكان تيم بوشارد، عالم النفس الذي كان يدرس التوائم في جامعة مينيسوتا، مهتمًا جدًا لدرجة أنه جمع منحة لدراسة التوائم المتطابقة الذين انفصلوا عند الولادة. سرعان ما سمع جون ستراود بأبحاثه، وكان بعض توأمه المتطابق في طريقهم إلى أمريكا بسرعة. (عادةً ما كان جون ستراود وتيم بوشارد يحصلان على نفس العدد من التوائم المتطابقة للدراسة - ستة عشر زوجًا). أدرك البروفيسور بوشارد بسرعة أن المصادفات في حياة "توأم جيم" لم تكن، إن جاز التعبير، مصادفة. عندما يتعلق الأمر بالتوائم، كانت المصادفات هي القاعدة وليست الاستثناء. تزوج تيري كونولي ومارجريت ريتشاردسون في نفس اليوم من نفس العام بفارق ساعة واحدة؛ وكلاهما أنجبا أربعة أطفال حملوا ووُلدوا في نفس الوقت تقريبًا؛ وكلاهما كان ينوي تسمية ابنتيهما البكر روث لكنهما غيرا رأيهما. كان توأمان آخران، دوروثي لو وبريدجيت هاميلتون، قد دوّنتا مذكراتهما لمدة عام، وكتبتا نفس الأيام بالضبط. أما التوأمان أوسكار ستور وجاك يوفي، فقد رُحِّلا في اتجاهين متعاكسين من قِبل والديهما، وبينما نشأ جاك يهوديًا أرثوذكسيًا في أمريكا، ذهب أوسكار إلى ألمانيا وانضم إلى شباب هتلر. عندما التقيا في المطار عام ١٩٧٩، كان كلاهما يرتدي نظارات مربعة ذات إطار سلكي، وقميصين أزرقين بكتفين، وشاربين متطابقين؛ وكلاهما شطف المرحاض قبل...

بعد استخدامه، وضعا أشرطة مطاطية على معصميهما، وكان لديهما إيقاعات كلام متطابقة، مع أن أحدهما كان يتحدث الإنجليزية والآخر بالألمانية. في إنجلترا، جمع جون ستراود إريك بوكوك وتومي ماريوت، اللذين كانا يرتديان نظارات مربعة ذات إطار سلكي ولحيتين قصيرتين، وكانا يعملان كعمال في مصانع يوركشاير. كما لاحظ أن الصدف استمرت في ملاحقة باربرا هربرت ودافني جودشيب، اللتين، على الرغم من أنهما كانتا تعيشان في طرفين متقابلين من البلاد، غالبًا ما كانتا تشتريان الكتاب نفسه في نفس الوقت وتغيران لون شعرهما في نفس الوقت دون استشارة إحداهما الأخرى.

ماذا عسانا أن نفعل بمثل هذه المصادفات السخيفة؟ من البديهي أنه لا عجب في اكتشاف أن التوأمين المتطابقين يعانيان من نفس المشاكل الصحية، ونفس الأذواق في الملابس، ونفس إيقاعات الكلام. ففي النهاية، تتكون التوائم المتطابقة (أو أحادية الزيجوت - اختصارًا MZ) من انقسام البويضة نفسها، وبالتالي تحملان نفس الجينات. لذا، لا نتردد في قبول أن جانيت هاميلتون وإيرين ريد اكتشفتا أنهما تعانيان من رهاب الأماكن المغلقة وكره الماء، وكلاهما تجلسان وظهرهما للبحر على الشواطئ، وكلاهما تشعران بألم في نفس مكان ساقيهما اليمنى في الطقس الممطر، وكلاهما تُمارسان الحسابات القهرية. لكن المصادفات التي تنطوي على نفس الوظائف، ونفس التواريخ، ونفس المدن، من المستحيل تفسيرها وراثيًا. حتى افتراض بقاء التوأمين المتطابقين على اتصال توارد خواطر لا يُفسر كيف يمكن أن يسقطا من الطابق السفلي في نفس الوقت أو أن يُصابا بالإجهاض. كل هذا يبدو أشبه بـ"المهرج الكوني" لتشارلز فورت.

لكن إذا استطعنا تقبّل النتائج المنطقية للاستبصار، فسيصبح فهمه أسهل بكثير. وكما رأينا، يبدو الاستبصار للوهلة الأولى وكأنه يوحي بأن حياتنا مُقدّرة سلفًا بشكل صارم، كفيلم سينمائي. لكن بعض الاستبصارات تُمكّن أصحابها من تغيير المستقبل، مثل مُعلّم الموسيقى الذي تجنّب اصطدامًا وجهًا لوجه، أو الشاب الذي أبطأ سرعته قبيل رقعة جليدية. (في هذه الحالة، قد نفترض أن دوغ وورلي، صديق ويلبر رايت، ارتكب خطأً فادحًا برفضه اقتراح قائد السرب بالانسحاب ليوم واحد). لذا، لا يُمكن أن يكون المستقبل مُقدّرًا سلفًا بهذا القدر من الصرامة.

لكن ما إن نبدأ بالتفكير في هذا الأمر، حتى ندرك أن الحياة مُقدّرة سلفًا أكثر مما ندرك. لا شك أن البشر يمتلكون إرادة حرة، فكما أشار ويليام جيمس، يمكننا أن نقرر التفكير في شيء بدلًا من آخر. ومع ذلك، فإننا نبالغ عادةً في تقدير مقدار الإرادة الحرة التي نمارسها عادةً. إذا راقبنا أنفسنا بدقة، ندرك أن الكثير من أفعالنا ما هي إلا استجابات لما يدور حولنا. أصر الفيلسوف الروسي غوردجييف على أن البشر "آلات" وحالتهم الذهنية العادية هي شكل من أشكال النوم. وقد صُدم تلميذه أوسبنسكي فجأةً بحقيقة هذا الأمر عندما رأى، في بداية الحرب العالمية الأولى،

شاحنات عسكرية محملة بالعكازات - عكازات للأطراف التي لم تنفجر بعد.

باختصار، عالم المادة مُقدّر سلفًا بدقة؛ فكل زلزال، وكل انهيار جليدي، وكل إعصار، مُخطط له مسبقًا في "جدول زمني" مُستقبلي. بالطبع، بعض الكوارث الطبيعية "من صنع الإنسان"، ولكن إذا تأملناها بعقل منفتح، فسيتعين علينا الاعتراف بأن الإرادة الحرة للإنسان لا تلعب دورًا يُذكر فيها: ففي الغالب، نحن مجرد ردود أفعال للظروف. وبمجرد أن نُدرك أن الإرادة الحرة للإنسان تعمل على نطاق ضيق للغاية، داخل عقولنا، نُدرك أيضًا أن حياتنا "مُقدّرة سلفًا" أكثر بكثير مما نُريد الاعتراف به. يُؤكد لغز التوأمين المُتطابقين الغريب هذه النقطة. لا بد أن التوأمين جيم شعرا أن زواجهما من فتاتين تُدعى ليندا، ثم فتاتين تُدعى بيتي، وأنهما أطلقا على ابنيهما اسم جيمس ألان وجيمس ألان، وعلى كلابهما اسم توي، كان قرارًا شخصيًا تمامًا. لا بد أن باربرا هربرت ودافني جودشيب شعرتا بالشيء نفسه تجاه الوقوع في الحب في السادسة عشرة، والزواج، والتخطيط لتكوين أسرة، وما إلى ذلك. لكن مسألة المصادفات غير العادية في حالة التوأمين MZ تشير إلى أن ما يحدث لهما "حتمي" تمامًا مثل مشاكلهما الصحية الوراثية.

من المؤكد أن شوبنهاور سيقبل هذا الاعتراف كدليل على أن الحياة البشرية هي مسرحية خيال من الوهم. لكنه سيغفل النقطة الأساسية: ما يهم ليس مدى كون حياتنا محددة مسبقًا، بل مدى قدرتنا على ممارسة حرية الاختيار. عندما أسير في شارعٍ مزدحم في مدينة ما، تكون حريتي محدودة بألف طريقة. عليّ أن أتجنب الاصطدام بالناس، وتجنب حركة المرور عند عبور الشارع، وتجنب التواء كاحلي على الأرصفة غير المستوية، وتجنب ضرب رأسي بالسقالات... إذا كنت أيضًا متعبًا وجائعًا، فقد أشعر أنني "لعبة في يد الآلهة"، مخلوق من الظروف. ولكن في الغالب، أتعامل مع كل هذه القيود بشكل جيد وأمارس عملي بقناعة راسخة بأنني أمتلك حرية الاختيار. وفي الغالب، أنا محق. تعتمد الحرية على مقدار ما أختار "أن أضعه" في الحياة.

يتضح هذا جليًا إذا نظرنا إلى التنبؤات "الإيجابية" - التنبؤ بحدث مرغوب. تروي زوجة آرثر دبليو أوزبورن، مؤلف كتاب "المستقبل هو الآن"، عن أول نظرة لها على زوجها المستقبلي:

كنت قد كتبتُ بحثًا عن روبرت براوننج، ولكن بما أنني كنتُ أتعافى من مرض، رتّبتُ أن يقرأه شخصٌ آخر. قُرئ البحث في قاعةٍ واسعةٍ نسبيًا أمام جمهورٍ بلغ حوالي 300 شخص. جلستُ في آخر القاعة.

بعد انتهاء المحاضرة، طُلبت أسئلة، وطرحها عدة أشخاص. لكن كان هناك رجل يجلس في المقدمة، سأل سؤالًا ناقدًا نوعًا ما، وميل إلى تحدي سلطتي على تصريح معين أدليت به. لم أستطع رؤية سوى ظهر الرجل، لكنني شعرت بأهمية شخصية بيني وبينه، مع أنه كان غريبًا تمامًا عني. كان شعورًا مبهجًا رغم الإحراج الشديد الذي سببه لي سؤاله. لطالما اعتبرت هذه التجربة بمثابة اعتراف. كنت أعرفه فحسب. لم يكن مهمًا من هو أو ما هو - فالعلاقة كانت قائمة. علمت لاحقًا أن هذا الرجل وصل في ذلك اليوم فقط من إنجلترا في أول زيارة له إلى أستراليا.

قد نعترض بأن هذه لم تكن حالة استبصار حقيقي. فرغم أنها لم تستطع رؤية وجه زوجها المستقبلي، إلا أن السيدة أوزبورن ربما وجدت صوته جذابًا وأدركت غريزيًا أنه من "نوعها المفضل". لكن لا يمكن الاعتراض على هذا المثال الذي ذكره ج. ب. بريستلي:

بدأ الدكتور أ. بتلقي تقارير رسمية من السيدة ب، المسؤولة عن فرع من قسم كبير. لم تكن هذه رسائل شخصية موقعة من السيدة ب، بل كانت وثائق رسمية منسوخة كالمعتاد. لم يكن الدكتور أ. يعرف السيدة ب، ولم يرها قط، ولم يكن يعرف عنها شيئًا سوى أنها تشغل هذه الوظيفة تحديدًا. ومع ذلك، شعر بحماس متزايد مع تزايد هذه المراسلات من السيدة ب. كان هذا واضحًا لدرجة أن سكرتيرته علّقت عليه.

بعد عام، التقى بالسيدة ب. ووقع في حبها. وهما الآن في غاية السعادة الزوجية. يعتقد - وأنا أيضًا بعد سماع قصته - أنه شعر بهذه الإثارة الغريبة لأن العلاقة المستقبلية نقلتها إليه؛ يمكننا القول إن جزءًا من عقله، لا يدركه إلا شعور غريب، كان يعلم مسبقًا أن السيدة ب. ستكون ذات أهمية بالغة بالنسبة له.

يستشهد بريستلي بهذه الحالة في كتابه "الإنسان والزمان". وفي كتاب لاحق، اعترف بأنه هو نفسه الدكتور أ. أما السيدة ب، فهي زوجته المستقبلية جاكيتا هوكس، التي كانت مستشارة آثار لمهرجان بريطانيا، الذي شارك فيه بريستلي أيضًا (حتى أنه كتب عنه رواية). إذا كان بريستلي دقيقًا تمامًا، فلم يكن لديه أي سبب للشعور بالإثارة عند استلامه رسائل مكررة من جاكيتا هوكس، ويبدو الأمر وكأنه حالة حقيقية من "الاستبصار الإيجابي". ومن الواضح جدًا أن أي شعور بـ"القدر"...

لقد كان ما اختبره بريستلي هو شعور بالترقب الممتع وليس بالحتمية المحاصرة.

ينطبق الأمر نفسه على حالة أخرى ذكرها بريستلي، عن رجل انتابه شعور غريب بالترقب كلما مرّ بكوخ في الحافلة؛ لم يكن لديه أدنى فكرة عن ساكنه، لكنه شعر بوجود صلة ما بينه وبين الكوخ. لاحقًا، التقى وتزوج المرأة التي كانت تسكن هناك، وكانت هي من أنقذته من الانهيارات العصبية المتكررة.

يُطلق بريستلي على هذه الحالات من التهاب الصفاق المعدي (FIP) اسم "المستقبل يؤثر على الحاضر"، وفي البداية لم يتضح ما يعنيه بهذا، أو لماذا يُكلف نفسه عناء التمييز بينه وبين الاستبصار العادي. لكن قصده يتضح جليًا عندما يذكر حالة رجل عانى من نوبات دورية من الغثيان والقيء. خلال هذه النوبات، كان يرقد في غرفة مظلمة ويعاني من صداع شديد. وفي نهاية كل نوبة، كان يرى سلسلة من الألوان الزاهية.

- ألوان حمراء وزرقاء وخضراء وأرجوانية. ثم تبدو جميعها وكأنها تتطاير، فيتقيأ. ثم يتعافى. بعد سنوات، في الحرب العالمية الثانية، كان الرجل في الملايو، وبينما كان المقاتلون اليابانيون يطلقون نيران رشاشاتهم على قافلتهم، غاص في وادٍ صغير. انفجرت قنبلة، وانفجر العالم إلى شظايا مسننة من الأحمر والأزرق والأخضر والبنفسجي: ثم أصيب بوعكة صحية شديدة. توقفت نوبات الغثيان والقيء منذ تلك اللحظة.

بريستلي مقتنع بأن "الانفجار، إن صح التعبير، اتجه في اتجاهين زمنيين مختلفين"، المستقبل والماضي. وكان تأثيره قويًا لدرجة أنه أثّر على ماضي الرجل.

يبدو كل هذا مقنعًا للغاية، ولكنه غامضٌ تمامًا. في كوننا، لا يمكن للضوء أن يعود إلى الماضي. علاوةً على ذلك، إذا كان بإمكان المستقبل التأثير على الماضي بهذه الطريقة، فإننا نجد أنفسنا أمام جميع المفارقات التي تناولناها سابقًا - وهي "الكون المتعدد" الذي توجد فيه ملايين "الأزمنة المتوازية". لأنه إذا كان الحدث قد وقع بالفعل وهو لا يزال بعد عدة سنوات في المستقبل، فلا بد أنه وقع في كون موازٍ...

البديل المعقول هنا هو بالتأكيد ما درسناه بالفعل: أن الانفجار كان، إن جاز التعبير، مُدرجًا في الجدول الزمني للمستقبل، ولكنه، كقطار، قد لا ينطلق في موعده. وفي هذه الحالة، فإن الاستبصار هو ببساطة شكل آخر من أشكال القدرة التي نسميها الإدراك فوق الحسي أو الاستبصار - القدرة التي حذّرت صائد النمور جيم كوربيت من وجود آكل لحوم بشر يتربص له. بل قد تكون هي نفسها القدرة التي تُمكّن عباقرة الحساب من تحديد أن عددًا هائلًا من عشرين رقمًا هو عدد أولي، في حين أن حتى الحاسوب لا يستطيع فعل ذلك في الوقت نفسه؛ نفس القدرة التي مكّنت صديق روبرت جريفز في المدرسة من "رؤية" إجابة مسألة رياضية صعبة بنظرة واحدة. إذا كان هذا صحيحًا، فعلينا أن نفترض أن المستقبل أكثر "ثباتًا" بكثير مما نود تصديقه. ولكن على الأقل...

يقدم لنا تفسيرًا معقولًا ومنطقيًا للإدراك المسبق.

تُعزز حالة أخرى من أرشيف بريستلي هذه الحجة. فقد أخبرته مراسلة كيف أنها، خلال صلاة الفجر في سانت مارتنز إن ذا فيلدز، بدأت تبكي بشدة، دون أن تدرك ما يُزعجها. وبعد يومين، وبينما كانت عائدة إلى منزلها بالقطار، تكرر الأمر. وعندما نزلت من القطار واستقبلها زوجها وابنها، أدركت فجأة أن شعورها بالريبة كان مرتبطًا بابنها. وبعد ثلاثة أسابيع، مرض، وتوفي في غضون بضعة أشهر.

تروي الأم نفسها كيف قال ابنها فجأةً، أثناء مرضه: "سيُنبح كلبٌ من بعيد". وبعد ثوانٍ قليلة، سمعت نباح كلبٍ خافت. ثم قال: "سيسقط شيءٌ ما في المطبخ، وسيُغلق الباب الأوسط بقوة". وفي غضون ثوانٍ، حدث كلا الأمرين. وعندما أخبرت الطبيب بالأمر، قال إنه كان يعلم بهذا من قبل، وأن عقل ابنها كان يعمل "مسبقًا".

في حالة "تنبؤات" هذه المرأة بوفاة ابنها مرتين، من المهم أنها كانت جالسة بهدوء - في المرة الأولى في كنيسة، وفي الثانية في قطار. أتيحت لحاسوبها الباطن فرصة مسح المستقبل، فأدرك المأساة التي تنتظرها. لم تكن المأساة قد وقعت بالفعل في عالم موازٍ أو بُعد زمني آخر. وحالة الكلب النابح والباب المنغلق تُعزز هذا التفسير. وباعتبارها "تنبؤات" لا طائل منها: فلا فرق بين معرفة أن الكلب سينبح في لحظة أو أن الباب سينغلق بقوة. من ناحية أخرى، نرى أيضًا أن هناك تفسيرًا "علميًا" أكثر. عندما نبح الكلب في مكان بعيد - لنقل على بُعد ميلين - استغرقت موجاته الصوتية حوالي عشر ثوانٍ للوصول إلى غرفة النوم. (ينتقل الصوت بسرعة حوالي اثني عشر ميلًا في الدقيقة). إذن، كان الكلب قد نبح بالفعل عندما تنبأ الصبي. لا يمكن أن ينطبق هذا على إغلاق الباب بالأسفل بقوة - فالصوت كان سيصل إليه فورًا تقريبًا. ومع ذلك، يمكننا بسهولة أن نتصور أن نفس "الحاسوب فائق الوعي" الذي مكّنه من "سماع" الكلب قبل وصول صوته إلى غرفة نومه، توقع أيضًا إغلاق الباب بقوة.

لنظرية "الحاسوب العملاق" عيوبها، إلا أنها البديل الواقعي الوحيد لنظرية "الكون المتسلسل". هذه النظرية، كما رأينا، هي فكرة أن جميع الأحداث المستقبلية، بمعنى ما، قد وقعت بالفعل. وبما أنها لم تقع في كوننا، فمن الواضح، علينا افتراض وجود "أكوان متوازية" أو أزمنة متوازية. وقع دان في هذا المأزق الفكري، مع عدد لا نهائي من الأزمنة - الزمن 1، الزمن 2، وهكذا - وعدد لا نهائي من الذات. أشار جيه بي بريستلي، بحكمة، إلى أننا لسنا بحاجة إلى عدد لا نهائي من الذات لتفسير تجربتنا مع الزمن: ثلاثة كافية. أولاً، هناك "الأنا" التي تكتفي بمراقبة العالم -

الذي يحدق من النافذة بنظرة فارغة. إذا اهتممتُ فجأةً بشيءٍ ما، تظهر "أنا" ثانية، "أنا" الواعية بذاتها. وبما أنني أستطيع أيضًا ملاحظة هذا التحول من "أنا-النظر-بنظرة-فارغة" إلى "أنا-النظر-باهتمام"، فلا بد من وجود "أنا" ثالثة، نوع من المراقب الأبدي الذي ينظر إلى العالم ببرودة.

لقد واجهنا بالفعل فكرة مشابهة جدًا في نهايةالفصل الرابععند مناقشة "أنظمة القيم الثلاثة": الجسدية والعاطفية والفكرية. ويمكننا أن نرى على الفور أن هذه "الأنظمة" الثلاثة تتوافق بشكل وثيق مع ذوات بريستلي الثلاث. إن "الأنا التي تحدق في الفراغ" هي "الأنا" التي تواجه العالم عندما أستيقظ من نوم عميق أو عندما أكون متعبًا لدرجة أنني غير قادر على التفكير: "الأنا المادية". "الأنا" التي تشرع في الاهتمام النشط بالعالم من حولي هي "الأنا" التي تختبر الرغبات، الذات العاطفية. (على سبيل المثال، قد يكون الحافز الذي يثير قطة في حالة من الانتباه حركة تشير إلى فأر أو طائر: في حالة الرجل، قد يكون رؤية فتاة جميلة.) "الأنا" التي تراقب العالم بانفصال هي الذات الفكرية. (قد يكون من الجدير بالذكر، بالمناسبة، أن رودولف شتاينر طرح تمييزًا ثلاثيًا مشابهًا. فوعي النباتات مادي بحت، ويعتبره البشر شكلًا من أشكال النوم. أما وعي الحيوان فيتضمن الرغبات والآمال والمخاوف - باختصار، العواطف. ووفقًا لشتاينر، فإن الإنسان وحده هو من يمتلك الوعي الذاتي، والقدرة على النظر إلى جسده وعواطفه بانفصال.)

لذا، برفضنا نظرية "الذات اللانهائية" لدان، لصالح نظرية "الذات الثلاث" الأكثر منطقية لبريستلي، رفضنا أيضًا فكرة أن الأحداث المستقبلية قد وقعت بالفعل - وأن حياتنا أشبه بفيلم سينمائي صُنع بالفعل. بدلًا من ذلك، نُقرّ بأن المستقبل مُقدّر مسبقًا بشكل صارم، ولكن ليس بشكل مطلق، وأن للبشر قدرة محدودة على تغييره. ولكن بما أن معظم البشر يتبعون عادةً طريق المقاومة الأقل، فإن معظم الأرواح، في الواقع، مُقدّرة مسبقًا.

ما يلي هو امتداد بسيط لنظرية "عالم المعلومات"الفصل الخامسيبدو أن علم القياس النفسي يشير إلى أن كل ما حدث على الإطلاق مُسجل بطريقة ما، ويمكن الوصول إليه من خلال قدرة خارقة يمتلكها البشر: "القوة الخفية". يمكننا أن نرى أن هذا في حد ذاته يوحي بوجود نوع من الحاسوب العملاق. يكفي أن يسجل الفيلم مجموعة واحدة من الأحداث. يُشبه نيزك أو حجر من فيلا شيشرون مليار صورة متراكبة، ومع ذلك، يبدو أن "الحاسوب العملاق" الخاص بالعالم الروحي قادر على فك تشابكها. تتطلب نظريتنا في الاستبصار ببساطة أن يكون الحاسوب العملاق نفسه قادرًا على تقديم مجموعة من التنبؤات المتطورة للغاية. الشيء الرئيسي الذي يحتاجه الحاسوب لتقديم تنبؤات هو معلومات كافية عن الوضع الراهن.

يبدو أن علم القياس النفسي يشير إلى أن الكمبيوتر العملاق للذات الخفية قد - من المحتمل - أن يكون كل ماضي الكون تحت تصرفه.

تكمن مشكلتها إذن في كيفية إيصال "تنبؤاتها" إلى "الذات اليومية". وهنا تتجلى المشكلة الرئيسية: نحن ببساطة منشغلون جدًا بشؤوننا المباشرة. تتطلب الحياة اليومية حالة يقظة دائمة، وهذا يمنعنا من الانتباه إلى الصوت الهادئ الخافت للذات الأخرى. وهذا ما يفسر حدوث الكثير من "التطفلات" عندما يكون الناس في حالة استرخاء، أو في حالة نعاس، أو حتى في حالة أحلام.

كان ويلبر رايت، الذي التقينا به في بداية هذا الفصل، مهووسًا، بطبيعة الحال، بمشكلة استبصار الأحلام، وفي أوائل ثمانينيات القرن العشرين، قرر إجراء دراسة شاملة لعلم النفس الخارق والفيزياء الحديثة، قد تُمكّنه من إيجاد الحل. تُشكّل نتائج دراسته تحديًا لمقارنته بنتائج دون وأوسبنسكي، وتُرسّخ مكانته كأحد أبرز مُنظّري الزمن في القرن العشرين.* يكتب:

لقد اضطررت إلى الاعتراف بأن الأحداث التي لم تقع بعد، والتي نكتسب المعرفة عنها بوسائل خارقة للطبيعة، لابد وأن يكون لها وجود في مجال ما خارج كوننا الثلاثي الأبعاد.

تساءلتُ: أيُّ كونٍ هذا الذي يُمكنه استيعاب آلية زمنية تكون فيها الأحداث موجودةً بشكلٍ دائمٍ في الإمكان، ولكنها لا تُفعَّل إلا عندما تتطابق المادة المتحركة، المتكاملة مع اللحظة الحاضرة المُتقدمة، مع موقعها المكاني؟ وفي ظلِّ أحداثٍ زمنيةٍ ثابتةٍ كهذه، كيف يُمكن لجانبٍ من عقلنا الباطن أن يراها؟

يؤكد رايت وجهة نظره مستشهدًا بقضية روبرت موريس الأب، وهو وكيل أمريكي لشركة شحن في ليفربول، وكان ابنه روبرت موريس الابن أحد واضعي الدستور الأمريكي. وترد قصة وفاة والده الغريبة في سيرة موريس الابن. ففي الليلة التي سبقت وصول سفينة إلى ميناء أكسفورد بولاية ماريلاند، رأى موريس الأب في حلمه أنه أصيب بجرح مميت جراء وابل من الرصاص أُطلق تكريمًا له. ولكن عندما أخبر الكابتن ماثيوز من ليفربول أنه قرر عدم الصعود على متن السفينة، اتهمه القبطان بالخرافات. فأجاب موريس بأن عائلته تُعرف بامتلاكها موهبة الاستبصار. فطمأنه القبطان بأنه لن يُطلق التحية. ومع ذلك، وبينما كان موريس يستمتع بالحفلة على متن السفينة، أخبره القبطان أن الطاقم شعر بالانزعاج لعدم إطلاق التحية المعتادة. فأجاب موريس: "حسنًا، ولكن لا تطلقوا النار حتى أعطي أنا أو شخص آخر الإشارة". وفي الوقت المناسب، رافق ماثيوز موريس في القارب الذي كان سيُقله إلى الشاطئ. ذبابة

استقر على أنفه، فتجاهله. ظنّ المدفعي أن هذه هي الإشارة التي ينتظرها، فأطلق التحية. أصابت حشوة إحدى البنادق مرفق موريس، فكسرت العظم: وبعد بضعة أيام، توفي متأثرًا بالعدوى.*

يبدو أن القصة تُعزز قضية دوغ وورلي، الذي كان، كما تتذكرون، مقتنعًا بأنه محكوم عليه بالموت مهما فعل. ومع ذلك، وكما يُشير ويلبر رايت، فإن هذا الرأي يُدخلنا في تناقضات. بذل موريس قصارى جهده لتجنب موته: فهل كانت هذه المحاولات أيضًا جزءًا من مصيره؟ وهل كان حلمه الاستشرافي مُقدّرًا مسبقًا أيضًا؟

حل ويلبر رايت هو أنه يجب أن تكون هناك "سلسلة من النسخ لكل حدث فردي، تختلف فقط في التفاصيل مع الحفاظ على التدفق المحيط الرئيسي للأحداث...". يمكننا أن نفترض أن جميع الأحداث البشرية المستقبلية موجودة كاحتمالات.

...' على عكس مستقبل الأجرام السماوية، والذي يمكن التنبؤ به بشكل روتيني. وبما أن أي احتمال مستقبلي سيكون إما مفيدًا لنا أو معاديًا لنا، فيمكننا القول إن مشكلتنا هي تحديد أيهما نختار. يشير رايت إلى أنه يمكن اعتبار كتاب التغييرات بمثابة حاسوب ثنائي الغرض منه تحديد أي من الاحتمالين يجب أن نختار: بعبارة أخرى نوع من "الجدول الزمني للمستقبل" الذي يمكنك صنعه بنفسك. ثم يواصل رايت اقتراحه، مثل أوسبنسكي، بأن للوقت ثلاثة أبعاد، لا ندرك منها سوى بُعد واحد: المدة. تشكل هذه الأبعاد الثلاثة ما يسميه "حقل الوقت الثابت". وهو يعتقد أن الجانب "المهاجر" من عقولنا يمكن أن يلتقط لمحات من "حقل الوقت الثابت" هذا بنفس الطريقة التي يمكن بها لرائد الفضاء أن ينظر إلى جانبي الأرض في وقت واحد.

في الواقع، حاول معظم كُتّاب الزمن، منذ دان فصاعدًا، حل اللغز باستحضار مفهوم "الأبعاد" الأخرى، التي عادةً ما يربطون بها اسم أينشتاين، مع "استمرارية الزمكان" رباعية الأبعاد. يشير ويلبر رايت إلى أنه لو استطعنا رؤية الشمس من هذه الزاوية رباعية الأبعاد، لكانت أشبه بأسطوانة ذهبية تمتد عبر الفضاء، تمامًا مثل صور الحصان المتحرك التي تُظهر سلسلة كاملة من الخيول المتداخلة.

هناك الكثير مما يُقال عن نظرية الأبعاد الأخرى. على الأقل، إنها تساعدنا على التخلص من بعض عاداتنا القديمة السيئة في التفكير. هناك تجربة مذهلة في الفيزياء الحديثة تُؤكد هذه النقطة. اعتاد البشر على حقيقة أنهم إذا استداروا بزاوية 360 درجة (عبر دائرة كاملة)، فإنهم يجدون أنفسهم في الاتجاه الذي انطلقوا منه. ليس الأمر كذلك بالنسبة للإلكترون. فبتمريره عبر نوع معين من المجال المغناطيسي، يمكن إمالة "محور دورانه" بزاوية 360 درجة، مما يُفترض أن يُعيده إلى موضعه الأصلي. لكن هذا لا يحدث. يجب أن يدور الإلكترون عبر دائرة كاملة أخرى قبل أن يتصرف كما كان من قبل. لا يمكننا التمييز بين...

الفرق بين الدائرتين: الإلكترون قادر على ذلك. وهذا يوحي بأنه في العالم دون الذري، لا تُمثل الدائرة الكاملة 360 درجة، بل 720 درجة. في عالمنا، فقدنا بطريقة ما نصف الدرجات التي كان ينبغي أن تكون لدينا. أو بعبارة أخرى، قد يكون هناك بُعد آخر في العالم دون الذري.

وبينما نتحدث عن الفيزياء، قد يكون هذا هو المكان المناسب لذكر مفارقة أخرى: حقيقة أن الإلكترونات تتصرف كالمهرجين العمليين ذوي حس فكاهة مشوه. وهذا قد يوفر مفتاحًا مهمًا لمجال الخوارق بأكمله. إذا سلطتُ شعاعًا من الضوء عبر ثقب صغير، فسيشكل دائرة على شاشة (أو صفيحة فوتوغرافية). إذا فُتح ثقبان صغيران جنبًا إلى جنب، فستكون النتيجة - كما قد تتوقع - دائرتين متداخلتين من الضوء. ولكن على الأجزاء المتداخلة يوجد عدد من الخطوط الداكنة. ويرجع ذلك إلى "تداخل" الشعاعين - وهو نفس التأثير الذي ستحصل عليه إذا انطلق تياران سريعان من حركة المرور إلى نفس الدوار. الآن افترض أن الشعاع قد خفت بحيث يمكن لفوتون واحد فقط في كل مرة المرور عبر أي من الثقبين. عندما تتراكم الصورة أخيرًا على الصفيحة الفوتوغرافية، تتوقع اختفاء نطاقات التداخل. بدلاً من ذلك، فهي موجودة كالمعتاد. ولكن كيف يمكن لفوتون واحد في كل مرة أن يتداخل مع نفسه؟ وكيف لفوتون يطير عبر ثقب واحد أن يعرف أن الثقب الآخر مفتوح؟ هل يمتلك القدرة على التخاطر، كما اقترح أينشتاين مازحًا...؟ ربما ينقسم الفوتون ويمر عبر كلا الثقبين؟ لكن كاشف الفوتونات يكشف أن الأمر ليس كذلك؛ فوتون واحد فقط يمر عبر ثقب واحد في كل مرة. ومع ذلك، من الغريب أنه بمجرد أن نبدأ بمراقبة الفوتونات، تتوقف عن التداخل وتختفي الأشرطة الداكنة. التفسير الأكثر ترجيحًا هو أن الفوتون يتصرف كموجة عندما يكون غير مرصود، وبالتالي يمر عبر كلا الثقبين ويتداخل. في اللحظة التي نحاول فيها مراقبته، يتحول إلى كرة صلبة. بالطبع نعلم أن هذا لأن كاشف الفوتونات يؤثر على الفوتون نفسه: لا يمكنك حرفيًا "رؤية" شيء صغير كالفوتون، بل عليك اكتشاف وجوده عن طريق جعله يصطدم بشيء آخر ويسبب وميضًا. والغريب في الأمر أن هذا يجعله، على ما يبدو، يلتف على شكل كرة مثل القنفذ. حتى أن ويلبر رايت اقترح أن الفوتون يتصرف كما لو كان حيًا. أما الفيزيائي نيلز بور، فلم يذهب إلى هذا الحد: بل قال ببساطة إنه ينبغي اعتبار الفوتونات والإلكترونات "موجات احتمالية".

قد يبدو أن السلوك الغريب للجسيمات ناتج ببساطة عن خرق أساليبنا التجريبية، والتي يمكن تشبيهها بمحاولة تنظيف أسنانك بمقبض مكنسة. لكن وفقًا لبور، الأمر ليس كذلك: ف"عدم اليقين" متأصل في طبيعة هذه المستويات دون الذرية. ومن المؤكد أن الإلكترونات تتصرف بطريقة لا يمكن التنبؤ بها على الإطلاق. في مرحلة ما، اعتقد الفيزيائيون أنهم قد يتمكنون من تحديد الإلكترون بدقة أكبر قليلاً عن طريق قياس اتجاه دورانه - لأن الإلكترونات، مثل الأرض،

يبدو أنها تدور حول محور. كان على المُجرِّب أن يبدأ بتحديد "اتجاه مرجعي" لقياسه - تمامًا كما لو كنتَ على وشك وضع لافتة عند مفترق طرق، فستحتاج إلى معرفة اتجاه أحد الأماكن التي تشير إليها على الأقل. اختار مجالًا كهربائيًا. واكتشف أن الدوران يبدو أنه يشير تمامًا على طول خط المجال. مهما تغير الاتجاه، يتغير الإلكترون أيضًا.

تُظهر الإلكترونات نفس عدم القدرة على التنبؤ إذا أُطلقت نحو حاجز - مجال كهربائي أو مصفوفة ذرات. أحيانًا ترتد الإلكترونات ذات القوة الكافية لاختراق الحاجز؛ وأحيانًا تمر الإلكترونات التي لا تملك قوة كافية عبره مباشرةً. يبدو أنها تتصرف وفقًا لشعورها في تلك اللحظة. يبدأ الأمر كما لو أن الطبيعة تُمارس ضغطًا على ساقها. يبدو أنها تقول: "أرفض الخضوع لرؤيتك المغرورة بأن العقل قادر على تفسير كل شيء. عندما تنظر إلى سماء الليل، تواجه لغزًا حول أين ينتهي الفضاء. وعندما تنظر داخل الذرة، تواجه لغزًا آخر مستعصيًا على الحل، أرفض رفضًا قاطعًا تقديم إجابة له".

انزعج أينشتاين بشدة من هذا السلوك العفوي للإلكترون - وخاصةً ما أسماه هايزنبرغ "مبدأ عدم اليقين"، والذي يعني ببساطة أنه لا يمكنك قياس سرعة الإلكترون وموقعه في الوقت نفسه. قال أينشتاين ساخطًا: "الله لا يلعب النرد". وابتكر هو وزميلان له يُدعيان روزن وبودولسكي تجربةً لدحض مبدأ عدم اليقين بشكل قاطع. قالوا: دعونا نُطلق إلكترونين على بعضهما البعض بحيث ينطلقان بعيدًا عن بعضهما بسرعة الضوء في اتجاهين متعاكسين. ما الذي يمنعنا من قياس سرعة أحدهما وموقع الآخر؟ وبما أنهما يتصرفان كصورتين متطابقتين لبعضهما البعض، فيجب أن نكون قادرين على تحديد سرعة وموقع الإلكترون نفسه.

سبق أن ذكرنا - في الصفحة ٢٣٩ - التجارب المذهلة التي كشفت خطأ أينشتاين. أُجريت هذه التجارب في بيركلي عام ١٩٧٤ على يد ستيوارت فريدوم وجون كلاوزر، وفي أوائل ثمانينيات القرن العشرين، بدقة أكبر، على يد آلان أسبكت في جامعة باريس. أظهرت هذه التجارب، في الواقع، أن الجسيمات كانت "تخاطرية"، وأنه مهما ابتعدت المسافة بينها، فإن أي تغيير في اتجاه أحدهما سيؤدي إلى تغيير مماثل في اتجاه الآخر، مما يؤكد نظرية تُعرف باسم متباينة بيل.

نتيجة كل هذا، في التجارب التي تتضمن كميات من الطاقة، لا يستطيع العالم تحديد الجسيم الذي يهتم به. فهو يعرف مكانه عندما يغادر مدفع الإلكترونات الخاص به، ومكانه عندما يصطدم بشاشة في الطرف الآخر من الجهاز، ولكن بينهما ضبابية احتمالية لا يمكن، بحكم طبيعة الأشياء، تحليلها إلى شيء أكثر تحديدًا. شبّهه نيلز بور بتنين ضخم مدخن ذيله في...

فم الجهاز، ورأسه في الطرف الآخر من المختبر، أما جسمه فهو مجرد نوع من السحابة المتلألئة.

بل إن بعض الفيزيائيين المعاصرين ذهبوا إلى حد القول بأننا نساهم في خلق الجسيم بمراقبته. بل إن أحدهم، جون ويلر، ذهب إلى أبعد من ذلك، واقترح أن لنا دورًا في خلق الكون نفسه. (يُطلق عليه "مبدأ المشاركة الإنسانية"، وسنتناوله في الفصل الأخير من هذا الكتاب). ومن الغريب أن جون ويلر نفسه هو من أثار ضجة في اجتماع للجمعية الأمريكية لتقدم العلوم عام ١٩٧٩ بمطالبته بطرد الباحثين في الخوارق - الذين وصفهم بـ"الزائفين" - من ورشة العلم. ومع ذلك، يمكن ملاحظة أن اقتراحه بأن العقل يُساهم في "خلق" الكون يتوافق مع مفهوم التزامن عند يونغ - أي فكرة أن عقولنا تتفاعل بطريقة ما مع الكون لتُسبب مصادفاتٍ تبدو سخيفة وشذوذًا آخر.

يمكننا التأكيد على هذه النقطة بمثال للدكتورة دانا زوهار في كتابها عن الاستبصار، "عبر حاجز الزمن". لشرح نظرية بيل في عدم المساواة، تطلب منا أن نتخيل توأمين متطابقين لم يلتقيا منذ ولادتهما، أحدهما يعيش في لندن والآخر في نيويورك. لو قيل لأينشتاين إن كلاً منهما أصيب أثناء لعب كرة القدم في سن السادسة عشرة وحطم سيارته في سن الخامسة والعشرين، لظن أن هناك صلة مجهولة بينهما. اقترحت بيل، في الواقع، دفع أحد التوأمين إلى الطابق السفلي في لندن لمعرفة ما إذا كان توأم نيويورك سيسقط أيضًا. في الواقع، تُظهر تجارب أسبكت على الجسيمات وجود مثل هذه الصلة بين إلكترونات التوأم المتطابق. وقد رأينا بالفعل وجود دليل على وجود صلة غريبة بنفس القدر بين البشر التوأم المتطابق. لذا، فإن المصادفات الغريبة التي يبدو أنها تصيب التوائم المتطابقة قد لا تكون، في النهاية، انتهاكًا لقوانين المنطق السليم، بل هي ببساطة تعبير عن قانون أساسي من قوانين الطبيعة.

انتهى هذا الاستطراد في الفيزياء، مؤقتًا على الأقل، ويمكننا أن نتساءل: "إلى أي مدى تُساعدنا في فهم الأحداث الخارقة للطبيعة؟" من حيث تقديم تفسير دقيق ومنطقي، فهي لا تُقدم أي تفسير يُذكر. ومع ذلك، فإنها تُظهر لنا بصيص نور في الظلام. لننظر، على سبيل المثال، إلى الحالة الغريبة التالية، وهي "التعرف على الزمن بأثر رجعي".

في صيف عام ١٩٥٤، انطلق زوجان يُفضّلان أن يُعرَفا بالسيد والسيدة آلان لقضاء يوم في الريف. كان كلاهما منهكًا في العمل مؤخرًا، وكانا بحاجة ماسة إلى استراحة. استيقظا وهما يشعران باكتئاب غريب، مع أن أيًا منهما لم يُخبر الآخر بذلك. استقلّا حافلة في دوركينغ، لكنهما تجاوزا محطتهما ونزلا في ووتون هاتش، بالقرب من قرية ووتون، مسقط رأس كاتب اليوميات جون إيفلين. بدلًا من العودة سيرًا على الأقدام، قررا الذهاب وإلقاء نظرة على إيفلين.

كنيسة العائلة. وعندما خرجوا أخيرًا من فناء الكنيسة، انعطفوا يمينًا ووجدوا أنفسهم أمام طريقٍ مُغطّى بالأشجار، على جانبيه شجيراتٌ عالية. قادهم الطريق صعودًا إلى فسحةٍ خشبية. هناك، أطلّوا على الوادي، فقرروا الجلوس وتناول شطائرهم. سمعوا صوت نباح كلب، وشخصًا يقطع الخشب. لكن السيدة آلان شعرت بقلقٍ غريب.

فجأةً، خيّم صمتٌ وتوقف زقزقة الطيور. غمر السيدة آلان شعورٌ بالريبة، فشعرت ببردٍ قارس. في تلك اللحظة، أدركت أن ثلاثة رجال دخلوا الفسحة خلفها: ورغم أنها كانت تدير ظهرها لهم، إلاّ أنها استطاعت "رؤيتهم" بوضوح تام. كان الثلاثة يرتدون ما يشبه زيّ رجال الدين. كان للرجل الذي في المنتصف وجهٌ مستديرٌ ودود، أما الآخران فبدا عليهما "يشعّان كراهيةً وعدوانية". عندما حاولت السيدة آلان الالتفاف، وجدت نفسها مشلولة وغير قادرة على الحركة. ثم مرّت التجربة. سألت زوجها إن كان البرد قد خفّ، فلمس ذراعها وقال إنها تشعر وكأنها جثة. نهضا وغادرا على عجل. لم يكن أيٌّ منهما واضحًا بشأن ما حدث بعد ذلك، باستثناء أنهما في لحظةٍ ما، ناموا على العشب. ثم وجدا نفسيهما في دوركينغ، في حالةٍ من الارتباك، وغير قادرين على تذكر كيف وصلا إلى هناك بوضوح. استقلّا القطار عائدين إلى باترسي.

بعد عامين، قررت السيدة آلان العودة. دخلت الكنيسة دون أن تنظر حولها. وعندما خرجت، انعطفت يمينًا، متوقعةً أن تجد الطريق الصاعد. ثم فوجئت باكتشافها أنه لا يوجد طريق صاعد: فالريف منبسط تمامًا. عادت إلى منزلها وأخبرت زوجها، الذي ظن أنها "تتصرف بحماقة". في الأحد التالي، قام بالرحلة نفسها، ليكتشف أن زوجته كانت صادقة. لم يكن هناك طريق مغطى بالأعشاب، ولا فسحة، ولا مقعد خشبي. أخبره أحد حطّاب المنطقة أنه لا يوجد مقعد خشبي في العقار بأكمله.

في هذه المرحلة، قرر الزوجان إبلاغ جمعية الأبحاث النفسية بتجربتهما. ورويا قصتهما لأمينها الفخري، السير جورج جوي، ولعضو مجلسها البارز، جي. دبليو. لامبرت. لكن الجمعية كانت بصدد تغيير مقرها، ويبدو أن روايتهما قد فُقدت. في عام ١٩٧٣، رويا قصتهما مرة أخرى، هذه المرة لمحامية، ماري روز بارينغتون، التي كانت أيضًا عضوًا في جمعية الأبحاث النفسية، وقدمت ورقة بحثية عنها للجمعية عام ١٩٧٤. بحلول ذلك الوقت، كانت هي وعضو في مجلس جمعية الأبحاث النفسية قد أمضوا بعض الوقت في استكشاف المنطقة المحيطة بالكنيسة، وتأكدا من عدم وجود تل أو مقعد. لكن في مذكرات جون إيفلين بتاريخ ١٥ مارس ١٦٩٦، اكتشفا مدخلًا يذكر فيه إيفلين موافقته على الخطبة التي أُلقيت في ذلك الصباح، ثم يتحدث عن إعدام "ثلاثة أشرار" مؤخرًا، أحدهم كاهن، كانوا متورطين في مؤامرة لاغتيال الملك ويليام. لكن،

بالطبع، لا يزال من غير الممكن تفسير كيف استطاعت السيدة آلان رؤية الرجال الثلاثة على تلة غير موجودة.*

نظرية "عالم المعلومات" والتي تنص على أن كل ما كان موجودًا على الإطلاق
ما حدث "مسجل"، يشير إلى أن آل آلان شهدوا "انزلاقًا زمنيًا" مشابهًا جدًا لما شهدته جين أونيل والسيدتان الإنجليزيتان في فرساي. لكن نظرية "عالم المعلومات" تتضمن أيضًا افتراضًا بأن هذه "التسجيلات" أشبه بصور على فيلم - مجرد "صورة" من الماضي. لا شك أن السيد والسيدة آلان تسلقا تلًا حقيقيًا وجلسا على مقعد حقيقي قبل أن تشهد السيدة آلان رؤيتها المزعجة للرجال الثلاثة. لكن
— وهذا يُذكر القراء بالسيدتين في فرساي — فقد تحدثتا بالفعل إلى بعض الأشخاص الذين قابلتهما وتلقتا ردودًا، وعبرتا جسرًا صغيرًا تبيّن لاحقًا أنه غير موجود. تجدر الإشارة أيضًا إلى أن جين أونيل سلّمت بأن الكنيسة التي دخلتها حقيقية. يبدو أن حالات "الانزلاق الزمني" غالبًا ما تنطوي على إحساس بالواقع الملموس. وهذا أمرٌ لا يمكن تفسيره إطلاقًا من منظور نظرية "الانزلاق الزمني" القائمة على "التسجيلات الصوتية".

لكن في العالم دون الذري، لا فرق بين حاسة البصر وحاسة اللمس: فكلاهما يتضمن تصادم جسيمات أساسية مع نهاياتنا العصبية. وقد لاحظنا في هذا الكتاب أن "الوسطاء الروحانيين" والعرافين يبدو أن لديهم طريقة أكثر مباشرة لفهم الواقع من خلال النهايات العصبية. إذا لم تخدم دراسة فيزياء الكم أي غرض آخر، فإنها تذكرنا بأنه لا ينبغي لنا قبول الحس السليم المادي كمعيار للواقع. يشير اعتقاد ويلر بأننا نلعب دورًا في خلق الواقع إلى وجود حقائق أخرى محتملة قد "تتناغم" معها عقولنا. ولكن حتى لو رفض المرء نظرية ويلر باعتبارها متطرفة للغاية (كما أفعل)، فإن فيزياء الكم لا تزال تقدم رؤية بالغة الأهمية. لا يمكننا أن نعرف بالضبط ما يحدث على المستوى دون الذري لأن ملاحظاتنا تتداخل مع ما نلاحظه. وهذا بالطبع لا ينطبق على الحياة اليومية: فالصخرة كبيرة جدًا بحيث لا تتأثر بالضوء الذي ينعكس عنها. النتيجة هي أننا نعتبر أنفسنا مجرد مراقبين للعالم من حولنا. علاوة على ذلك، فإن تطور وعي النصف الأيسر من الدماغ، بطابعه المنفصل والمُعقّم، يُشجّع على الشعور بالعجز والسلبية. ونصبح مسلّمين بأن العالم لا يُراعينا.

تشير التزامنيات إلى أن هذا غير صحيح. فهي تشير إلى أنه حتى في العالم العادي تمامًا المحيط بنا، هناك شعور ما نتفاعل فيه مع الواقع ونؤثر فيه بنفس الطريقة التي يؤثر بها "المراقب" على الأحداث دون الذرية. من الواضح أن المستوى الذي يحدث فيه هذا ليس مستوى الذات اليومية، ولكنه، على الأرجح، المستوى القادر على "قراءة" المعلومات المشفرة في الواقع المحيط بنا. وهذا بدوره يذكرنا بأنه ليس صحيحًا تمامًا القول بأن صخرة كبيرة جدًا بحيث لا تتأثر بالضوء الذي...

ترتد عنه. إذا لم تكن القياسات النفسية وهمًا، فإن الصخرة قادرة على تسجيل المعلومات تمامًا مثل اللوحة الفوتوغرافية. وهناك مستوى من العقل البشري قادر على فك شفرتها.

كل هذا يُعطينا لمحة عما حدث لعائلة آلان، وكذلك لجين أونيل، والسيدتين في فرساي، وإيفان ساندرسون وزوجته في هايتي. حقيقة أن آلان كانوا منهكين، ومُرهقين بالعمل، ومُكتئبين

إن هؤلاء الناس الذين كانوا في حالة ذهنية سلبية بدلاً من حالة ذهنية نشطة قد يفسر فشل عقولهم في "التكيف" مع الواقع اليومي لعام 1954، واختاروا بطريقة غير منتظمة واقع وقت ومكان آخرين.

كل هذا يشير إلى أن ويلبر رايت قد يكون قريبًا من الحقيقة برؤيته لـ "حقل الوقت الثابت"، حيث يتحرك البشر للأمام مثل رجل في عربة سكة حديد، معتبرين المناظر الطبيعية المارة "الواقع الحاضر". أو ربما تكون الصورة الأفضل هي إحدى تلك الجداول الاصطناعية في مدينة الملاهي، حيث يصعد الركاب إلى قارب - يحتجزه أحد المرافقين مؤقتًا في حالة راحة - ثم ينجرفون بواسطة تدفق المياه، عبر أنفاق شبحية ومناظر طبيعية غريبة، حيث تنزل الهياكل العظمية من السماء وترتفع التماسيح على جانب القارب. بمجرد دخول الراكب إلى القارب، لا توجد طريقة للهروب من التدفق الأمامي؛ ومع ذلك يمكن للمرافقين المشي على طول الضفاف في أي من الاتجاهين. إذا كانت هذه الرؤية تحتوي على بعض عناصر الحقيقة، فإن الوقت ليس نوعًا من الوهم، كما يقترح معظم منظري الزمن. إن الجدول والقارب والمناظر الطبيعية حقيقية تمامًا؛ لكن الراكب في القارب أصبح خاضعًا لنوع من القيود التي لا تنطبق على المرافقين - والتي لن تنطبق عليه عندما يخرج من القارب في الطرف الآخر.

إذا نظرنا إلى الصورة الكلية التي تبدو ناشئة عن أدلة "الانزلاقات الزمنية" والاستبصارات، يتضح جليًا أن الماضي لا يزال قائمًا بواقعه الثابت الخاص. (وإلا لما جلس آلان على مقعد غير موجود، ولما عبرت السيدتان الإنجليزيتان في فرساي جسرًا غير موجود). ويبدو أيضًا أن المستقبل موجود بالفعل كواقع - كان المارشال الجوي جودارد مقتنعًا تمامًا بأنه كان يحلق فوق مطار حقيقي. وهناك بالتأكيد أدلة دامغة على أن البشر يمتلكون قدرة على إدراك هذه الحقائق الأخرى. في هذه الحالة، يمكن القول إن الماضي والحاضر والمستقبل يشكلان "مجالًا" كليًا، ينبغي - في ظل الظروف المناسبة - أن يكون في متناولنا جميعًا، تمامًا كما أن رؤية لندن من منظور كامل متاحة لأي شخص يحلق فوقها في طائرة.

لكن ينبغي أيضًا التعامل مع منظور "حقل الزمن الثابت" بحذر. فهو يوحي بأننا نعيش في متحف رباعي الأبعاد (أو ربما سداسي الأبعاد) حيث كل شيء ثابت وثابت. لكن جوهر الوجود الإنساني يكمن في شعورنا بأن الماضي قد حدث ولا يمكن "إلغاؤه".

وأن المستقبل لم يحدث بعد، وبالتالي لا يمكن معرفته بدقة. الزمن ليس "غير واقعي". الرأي البديل، المقترح في هذا الفصل، هو أن الماضي في متناول مستوى معين من العقل البشري لأننا نعيش في عالم معلوماتي حيث كل شيء "مسجل". المستقبل في متناول اليد أيضًا لأننا نعيش في عالم محدد مسبقًا إلى حد كبير، حيث يمكن للبشر (ولكن ليس بالضرورة) إدخال عنصر من الحرية فيه. لكن المستقبل - مثل الكون الكمي - هو عالم من الاحتمالات. جوهر هذه النظرية هو الاعتراف بأن البشر يمتلكون حرية الاختيار بين هذه الاحتمالات.

فكيف إذن يمارس البشر حريتهم؟ يبدو أن الجواب الأساسي هو: في مدى قبولهم أو رفضهم لتجربتهم. عندما أستقل قطارًا، أعرف مسبقًا إلى أين سيأخذني، وحتى متى سيصل. لكنني أقرر ما إذا كنت سأجلس محدقًا من النافذة، أو أحاول إجبار عقلي على حالة من الإدراك الأوسع. تكمن مشكلتنا الإنسانية الأساسية في فشلنا في إدراك حريتنا. وهذه هي المفارقة الحقيقية في الوضع الإنساني. الحرية موجودة. ما يمنعنا من إدراكها إلا كسل حواسنا الجسدية وضيق عقولنا الكئيب. والأهم من ذلك، إدراك ما يمكن فعله بها.

*في كتاب رأيت شبحًا، تحرير بن نوكس (1986).

*وقد تم سرد هذه القصة بالتفصيل في كتاب "الأسرار"، ص 144-9.

*أنا مدين بعمق لويلبر رايت للسماح لي بالاقتباس من عمله غير المنشور حتى الآن
الخلود والي تشينغ.

*انظر هربرت ب. جرينهاوس، التنبؤات: قفزة نحو المستقبل.

*إنني مدين لسرد القضية التي قدمها أندرو ماكنزي في كتاب المرئي وغير المرئي (1987)، الفصل 30.

7
عقول بلا أجساد؟

تُقدم قصة آلان دليلاً مهماً آخر على لغز التجارب الخارقة للطبيعة. عندما ظهرت "الأشباح" الثلاثة خلف السيدة آلان، شعرت بالشلل، عاجزة عن تحريك رأسها. يتكرر هذا الشعور بالشلل مراراً وتكراراً في روايات التجارب الخارقة للطبيعة. وقد شعر الطالب إس إتش بيرد بنفس الشعور عندما حاول "الظهور" لخطيبته الآنسة فيريتي، كما وُصف في الفصل الثاني: "لا بد أنني دخلت في غيبوبة تنويم مغناطيسي، فرغم أنني كنت واعياً، لم أستطع تحريك أطرافي". يبدو الأمر كما لو أن العقل والجسد قد انحرفا قليلاً عن التناغم.

ذكرت السيدة إديث ليتلتون، الرئيسة السابقة لجمعية الأبحاث النفسية، حالةً أخرى في كتابها "عقلنا الفائق". في يونيو/حزيران ١٨٨٩، ذهبت السيدة إف سي ماك ألباين للقاء أختها في كاسلبلاني، وعندما لم تصل، قررت التنزه على ضفاف البحيرة.

بعد أن غلبني التعب، جلستُ لأستريح على صخرة عند حافة الماء. انشغلتُ تمامًا بجمال المنظر الخلاب أمامي. لم أسمع أي صوت حركة، سوى خرير الماء الخفيف على الرمال عند قدميّ. شعرتُ برعشة باردة تسري في جسدي، وتصلب غريب في أطرافي، كما لو أنني لا أستطيع الحركة، مع أنني كنتُ أرغب في ذلك. شعرتُ بالخوف، لكنني مقيدٌ بمكاني، كما لو أنني مُجبرٌ على التحديق في الماء أمامي مباشرةً. تصاعدت سحابة سوداء تدريجيًا، وفي وسطها رأيتُ رجلًا طويل القامة يرتدي بذلة من التويد، يقفز في الماء ويغرق.
في لحظة، انقشع الظلام، وأحسستُ بالحر وأشعة الشمس، لكنني شعرتُ بالرهبة والخوف... عند وصول أختي، أخبرتها بالحادثة، فدهشت لكنها ما زالت تضحك. عندما عدنا إلى المنزل، أخبرتُ أخي: لقد تعامل مع الموضوع بنفس الطريقة تقريبًا. ومع ذلك، بعد حوالي أسبوع، انتحر السيد إسباي، وهو موظف بنك (لا أعرفه)، غرقًا في ذلك المكان تحديدًا. ترك رسالة لزوجته، موضحًا أنه كان يفكر في موته لبعض الوقت...

يبدو جليًا أن حالة الاسترخاء التام التي عاشتها السيدة ماك ألبين هيأت الظروف المناسبة لتجربتها. يمكننا الافتراض إما أن "عقلها الذاتي" قد تلقى إدراكًا مسبقًا للانتحار - وهو على الأرجح الحدث الأكثر إثارةً في المستقبل القريب للبحيرة - أو أنها دخلت ببساطة في اتصال توارد خواطر مع موظف البنك الذي كان يفكر في انتحاره في ذلك المكان. تكمن المشكلة إذًا في أن "العقل الذاتي" ينقل المعلومات إلى الوعي اليومي. لو كانت السيدة ماك ألبين نائمة أو في شبه غفوة، لكان الحلم أو الصورة التنويمية كافية. لكنها على الأقل كانت في حالة استرخاء تام. كانت "دفعة" خفيفة كافية لإرسالها "إلى جحر الأرنب"، حيث يمكن نقل المعلومات في شكل انطباع بصري. لكن حالة "جحر الأرنب" قريبة من الغيبوبة، لذا فهي تنطوي على شعور بالشلل.

يقدم أدب الخوارق أمثلةً أخرى كثيرة تربط مشاعر الشلل بحالات "الاستبصار". وصف العراف روبرت كراكنيل تجربةً مرّ بها في سلاح الجو الملكي البريطاني، عندما كان قائد حرس. كان من المفترض أن يبقى مستيقظًا طوال الليل، لكنه قرر أخذ قيلولة في إحدى الزنازين:

كنتُ مستلقيًا على السرير بكامل ملابسي، غارقًا في النوم، وكأنني استيقظتُ فجأة. استطعتُ سماع صوت ضابط الحراسة بوضوح في غرفة الحراسة الرئيسية يسأل عن قائد الحرس... حاولتُ النهوض، لكني فوجئتُ، ولشدة رعبي، أنني كنتُ مشلولًا تمامًا.

عرفتُ، بطريقة غريبة، أنني لستُ نائمًا. لم يكن هذا حلمًا. ومع ذلك، لم أستطع تحريك عضلة، وحاولتُ طلب المساعدة لما بدا وكأنه ثلاث دقائق على الأقل. تبلورت الكلمات في ذهني، لكنني لم أستطع إيصالها. في هذه اللحظة، انتابني الذعر. كنتُ أكافح باستمرار للنهوض من وضعية الانبطاح، لكنني لم أستطع، ومن مكان ما في أعماق ذهني، تسلل إليّ شعورٌ بضرورة الاسترخاء. لكن الذعر كان شديدًا جدًا، وواصلتُ صراعي مع حالة الشلل. سمعتُ شخصًا يسير في الممر، وصوتًا يقول: "بسرعة، أيها الجندي، استيقظ".

تمكنت من السيطرة على شللي، ووقفت بجانب السرير في حيرة من أمري، غارقًا في العرق، عاجزًا عن استيعاب ما يحدث. ثم سمعت صوت ضابط الحراسة ينادي: "أين قائد الحرس؟"*

في الواقع، كان ضابط النظام قد وصل للتو في تلك اللحظة، وكان كراكنيل هناك لاستقباله. الحلم - أو بالأحرى التجربة التنويمية، لـ

يشير إلى أن ذلك حدث أثناء نومه - كان بمثابة استبصار. بالنسبة لكراكنيل، كانت هذه أولى تجاربه العديدة. لم يعلم إلا لاحقًا - من كتاب بعنوان "إسقاط الجسد النجمي" لسيلفان مولدون وهيريوارد كارينجتون - أن حالات "الشلل" هذه غالبًا ما تسبق ما يُسمى "تجارب الخروج من الجسد".

ربما يكون مولدون أشهر "مُسلِّطي الأجرام السماوية" - على الأقل حتى السنوات الأخيرة، عندما طعن أمريكي آخر، روبرت مونرو، في هذا الرأي. خاض مولدون أول تجربة خروج من الجسد (تُختصر عادةً إلى OBE) في سن الثانية عشرة، عندما كان هو ووالدته يزوران جمعية وادي المسيسيبي الروحانية في كلينتون، أيوا. استيقظ في منتصف الليل في حالة من الحيرة، وعندما حاول التحرك، وجد نفسه مشلولًا. شعر وكأنه يطير في الهواء، ثم نظر إلى أسفل، ولدهشته، رأى جسده مستلقيًا على السرير. بدا وكأنه متصل بجسده بواسطة نوع من الكابل يمتد بين رأسيهما - نوع "الكابل"، كما نتذكر، بدا أنه يربط بين عالمة النفس ماريا دي زيرولد والدكتور باجينستيشر (انظر الصفحة 148). ظن أنه ميت، فحاول إيقاظ النائمين الآخرين، دون جدوى. تشبثتُ بهم، وناديتُ عليهم، وحاولتُ مصافحتهم، لكن يدي مرت من خلالهم كما لو كانوا بخارًا. بدأتُ بالبكاء... ثم، بينما كان يتجول في المكان، شعر بمقاومة متزايدة من "الكابل". سحبه إلى جسده المادي، وشعر مجددًا بالشلل، عاجزًا عن الحركة. وعندما عاد إلى جسده، ارتعشت جميع عضلاته وشعر بألم شديد، "كما لو أنني شُققت من الرأس إلى القدمين". ثم استعاد وعيه.

وردت آلاف الأمثلة على تجارب الخروج من الجسد في أدبيات ما وراء الطبيعة: خصص باحث بارز، روبرت كروكال، تسعة مجلدات لهذه الحالات. وجمع باحث جنوب أفريقي آخر، جيه سي بوينتون، 122 حالة نتيجة استبيان واحد نُشر في إحدى الصحف. وجمعت نداءات مماثلة أطلقتها الباحثة الإنجليزية سيليا غرين 326 حالة. حتى أن أحد الاستطلاعات أظهر إحصائية مذهلة مفادها أن واحدًا من كل عشرة أشخاص قد مر بتجربة الخروج من الجسد.

أعرب بعض الباحثين، ومن أبرزهم الدكتورة سوزان بلاكمور، عن شكوكهم في كون هذه التجارب أكثر من مجرد أحلام. أرسل لي أحد مراسليّ، السيد الدكتور ميتشل، بحثًا يجادل فيه بأن تجارب الخروج من الجسد يمكن تفسيرها من خلال آلية في الدماغ تُسمى "نظام التنشيط الشبكي"، تعمل كصمام بين الحواس والدماغ، وتغلق القناة بين الدماغ والعضلات (مما يُنتج، بطبيعة الحال، شعورًا بالشلل). كما يُشير إلى أنه بمجرد أن نبدأ في النوم، يتم تنشيط آلية تُسمى "نظام إزالة الطمي" ل

التخلص من أيونات الكالسيوم الزائدة في تشابكات الأعصاب. تُطلق الخلايا العصبية إشاراتها، مما يُسبب ظهور الذكريات في الجهاز العصبي. (قد يُفسر هذا أيضًا الصور المُنومة، وكذلك الأحلام). ولكن إذا هزّ شيءٌ ما النائم وهو مستيقظ جزئيًا، فسيجد نفسه في حالةٍ من الغيبوبة الحسية، عاجزًا عن الحركة - لأن صمام نظام التنشيط الشبكي لا يزال نصف مغلق - ومدركًا لمدخلات الذكريات التي "يتخلص منها" نظام إزالة الطمي. يعتقد السيد ميتشل أن هذا يُفسر تجربة الخروج من الجسد، وهي مجرد حلم يقظة.

إنه تفسير مقنع، لكن سيرفضه معظم من لديهم أي خبرة في "الإسقاط النجمي". من الواضح أن مسألة الإثبات بالغة الأهمية. كان زميل مولدون في الكتابة، هيريوورد كارينجتون، عضوًا بارزًا في الجمعية الأمريكية للأبحاث النفسية وتخصص إلى حد ما في كشف الوسطاء الاحتياليين، لكنه اقتنع في النهاية بقدرة مولدون على الحصول على معلومات صحيحة عن الأحداث البعيدة من خلال "السفر" إلى هناك في جسده النجمي. في الواقع، أجرى كارينجتون نفسه ذات مرة سلسلة من التجارب حاول فيها "إسقاط" نفسه في غرفة شابة عندما كان على وشك النوم. لم يكن لديه أي فكرة عما إذا كان قد نجح. لكن الشابة أخبرته أنه لم "يظهر" لها فحسب، بل إنها استحوذت عليها دافع لممارسة "الكتابة الآلية" وكتبت قصيدة. اتضح أن "القصيدة" كانت الأسطر الافتتاحية لأغنية بعنوان "عندما يبني العصافير" والتي لم تكن تعرفها، ولكنها كانت من الأغاني المفضلة لدى كارينجتون.

في ستينيات القرن الماضي، درس عالم النفس تشارلز تارت فتاة مصابة بمتلازمة انفصام الشخصية الحدية، أطلق عليها اسم الآنسة زد، والتي أخبرته أنها كانت تترك جسدها منذ الطفولة. لاختبار ما إذا كانت هذه التجارب أحلامًا، طلب منها تارت تجربة: كان عليها أن تكتب الأرقام من واحد إلى عشرة على عدة قصاصات ورق، وترتبها، ثم تختار واحدًا عشوائيًا عندما يكون ضوءها مطفأً وتضعه على طاولة السرير. إذا مرت بتجربة الخروج من الجسد في الليل، كان عليها أن تحاول قراءة الرقم (زعمت أنها تستطيع الرؤية في الظلام أثناء تجارب الخروج من الجسد). حاولت ذلك عدة مرات ووجدت أنها دائمًا ما تحصل على الرقم الصحيح. لذلك قرر تارت اختبارها بنفسه. تم توصيل الفتاة بأجهزة في مختبره وطُلب منها محاولة قراءة رقم مكون من خمسة أرقام وضعه تارت على رف مرتفع في الغرفة المجاورة. أجابت الآنسة زد بشكل صحيح أن الرقم هو 25132.

في عام ١٩٧٢، أثار كتاب "رحلات خارج الجسد" لرجل الأعمال الأمريكي روبرت مونرو اهتمامًا واسع النطاق. بدأ مونرو يشعر بما أسماه "اهتزازات" عند اقترابه من النوم، عندما كان يُجري تجارب على تعلم البيانات أثناء النوم. عندما حدث ذلك، أصبح عاجزًا عن الحركة. ثم في أحد الأيام، عندما جاءته "الاهتزازات"، كان مستلقيًا ويده...

على جانب السرير. حاول حكّ السجادة فوجد أصابعه تخترقها، ثم عبر الأرضية إلى سقف الغرفة التي تحته. بعد بضعة أسابيع، وجد نفسه يطفو في الهواء ناظرًا إلى جسده على السرير. منذ ذلك الحين، أصبح قادرًا على ترك جسده كما يشاء تقريبًا. سرعان ما تأكد، على نحوٍ يرضيه، أن هذا لم يكن حلمًا: فقد لاحظ ما كان يفعله أصدقاؤه خلال "رحلاته"، وأكد لاحقًا أنه كان محقًا. حتى أنه قرص صديقة له، فقفزت وأظهرت له لاحقًا كدمة في نفس المكان. (يبدو أن الأشخاص في حالات الخروج من الجسد لديهم قدرة طفيفة على التأثير في العالم المادي).

أجرى تشارلز تارت تحقيقًا عن مونرو في مختبره، ووجد أنه، مثل الآنسة زد، كان قادرًا على الإبلاغ بدقة عن الأحداث التي تحدث في أماكن أخرى. كان علماء نفس آخرون متشككين، وهو أمر مفهوم. أنتج جلين أو. غابارد وستيوارت دبليو. تريملو دراسةً كلاسيكيةً عن "تجارب الخروج من الجسد" استنادًا إلى 339 دراسة حالة. وأشارا إلى أن مونرو كان مفتونًا بالطيران في طفولته، وتحدثا عن "خيالات ديدالوس" (ديدالوس هو الشخصية الأسطورية اليونانية التي اخترعت الأجنحة، التي حلق بها ابنه إيكاروس بالقرب من الشمس وسقط). ويقولان إن "هذا الانبهار بـ"السفر" خارج الجسد الذي نراه لدى مونرو هو على الأرجح مشتقٌّ من خيال ديدالوس هذا عندما كان بالغًا". ولكن عندما درس تريملو حالة مونرو في مختبره عام ١٩٧٧، اندهش هو وزميله من ملاحظة "تشوّه يشبه موجة الحرّ يبدأ عند خصر مونرو، مما صعّب الحصول على صورة واضحة للجزء العلوي من جسمه، مع أن الجزء السفلي كان في تركيز واضح". كان ذلك قبل لحظات قليلة من بدء مونرو بالحركة مجددًا في نهاية نومه الشبيه بالغيبوبة. كما لاحظا تباطؤًا في موجات دماغه أثناء وجوده في حالة الغيبوبة. يبدو، إجمالًا، أن مونرو كان صاحب الكلمة الفصل في هذا الجدل.

عنوان كتاب غابارد وتريملو، "بعيون العقل"، مأخوذ من سيرة غوته الذاتية "الشعر والحقيقة، الجزء الثالث، الكتاب الحادي عشر"، التي تصف حادثة غريبة واجه فيها غوته شبيهه. كان غوته قد ودع لتوه فريدريكا، الفتاة التي كان يُغرى بالزواج منها، وكان في حالة من الكآبة.

كنتُ أسير على طول الطريق المؤدي إلى دروسنهايم، وهناك سيطر عليّ أحد أكثر الهواجس غرابة. رأيتُ، لا بعيني الجسد، بل بعيني العقل، شخصيتي آتية نحوي، على صهوة جواد وعلى نفس الطريق، مرتديةً ثوبًا لم ألبسه قط: كان رماديًا كالرمح، وفيه شيء من الذهب. ما إن انتفضتُ من هذا الحلم حتى اختفى. لكن الغريب أن ثماني سنوات...

وفي وقت لاحق، وجدت نفسي على الطريق ذاته، لزيارة أخرى إلى فريدريكا، مرتديًا الفستان الذي حلمت به، والذي لم أرتديه باختياري بل بالصدفة...

يبدو الأمر كما لو أن "العقل الفائق الواعي" لدى جوته كان يحاول التخفيف من اكتئابه من خلال إظهار صورة له وهو يعود لرؤية فريدريكا بعد ثماني سنوات - وفي الواقع كان له هذا التأثير: "لقد هدأني الوهم الغريب في تلك اللحظات من الفراق".

الكلمة الألمانية المقابلة لـ "مزدوج" هي doppelgänger، لكن هذه الحالة تُعدّ مثالاً على حدسٍ مُسبق لا على "إسقاط" لشخصية مُماثلة. في مناسبة أخرى، رأى غوته شبيهاً حقيقياً. كان صديقه فريدريش، الذي كان يتجول في الشارع أمام غوته بعد هطول أمطار غزيرة. الغريب أن فريدريش كان يرتدي رداء غوته. وصل غوته إلى المنزل ليجد فريدريش - مرتدياً رداء غوته نفسه - واقفاً أمام المدفأة. كان قد علق تحت المطر فاستعار رداء غوته بينما كان معطفه يجف.

الآن هنا - كما هو الحال في العديد من الحالات الأخرى - من الواضح أن doppelgänger هو "إسقاط فكري"، وهو نوع من الصور التخاطرية التي تنتقل عن طريق الخطأ أو عن عمد (ولكن عادةً عن طريق الخطأ) من قبل شخص ما يحدث أنه يفكر في شخص آخر أو مكان آخر. يصف شاعر آخر، دبليو بي ييتس، في سيرته الذاتية كيف، "في أحد الأيام ... كنت أفكر بشدة في زميل طالب معين تلقيت منه رسالة ... بعد يومين تلقيت رسالة من مكان يبعد مئات الأميال حيث كان الطالب. في فترة ما بعد الظهر عندما كنت أفكر بشدة، ظهرت فجأة هناك وسط حشد من الناس في فندق وبدوت صلبًا كما لو كنت في الجسد ... " طلب الطالب منه أن يأتي مرة أخرى عندما يكون بمفرده، ويبدو أن ييتس عاد للظهور في منتصف الليل وأعطاه رسالة. يضيف ييتس، "أنا نفسي لم يكن لدي أي علم بأي من الظهورين".

عندما تأسست جمعية الأبحاث النفسية عام ١٨٨٢، أدرك أحد أعضائها البارزين، فريدريك مايرز، أن حالات من هذا النوع كثيرة لدرجة أنها تستحق جمعها وتصنيفها. يُعد كتاب "أشباح الأحياء"، وهو عمل ضخم من ١٣٠٠ صفحة، من تأليف مايرز وصديقيه إدموند جورني وفرانك بودمور، أول محاولة لتقييم علمي دقيق للشبهاء، ولا شك أن الكم الهائل من مواده لا يترك مجالاً للشك في حقيقة هذه الظاهرة. إن التنوع الهائل في "الأشباح" أمرٌ محير، لكن سرعان ما يتضح أمر واحد: الغالبية العظمى منها مرتبطة بأزمات خطيرة - كالمرض أو الموت المفاجئ. وهذه حالة نموذجية:

في عام ١٨٧٧، كنت أعيش في دبلن، وكنت قلقًا للغاية على والدي، الذي كان يعاني من مرض خطير في الرئتين، في ويلز. استيقظتُ فجأةً في إحدى الليالي، فرأيته بوضوح جالسًا على كرسي بالقرب مني، ووجهه مغطى بيديه. عندما قفزتُ من السرير، اختفى. فزعتُ للغاية لدرجة أنني، في اليوم التالي، عبرتُ إلى ويلز، ووجدتُ أنه كان في حالة هذيان لمدة يومين. عندما دخلتُ الغرفة، أخبرني على الفور أنه ذهب في اليوم السابق ليخبرني أين ترك معطفه [في دبلن] ... [القضية ٤٩٩].

في حالة أخرى (634)، أخبرت طفلة والديها بالتبني فجأةً أن هناك شابة تنظر إليها وتتحدث معها. أوضح وصفها أنها ترى أمها الحقيقية (التي لم تستطع تذكرها). أخذها الوالدان المذعوران إلى منزل أحد الجيران، آملين أن يختفي هذا "الهلوسة"، لكنها رافقتهما وظلت معهم معظم فترة ما بعد الظهر قبل أن تختفي فجأةً كما لو كانت "في ومضة نار". علم الوالدان بالتبني لاحقًا أن والدة الطفلة توفيت في حريق في نفس الوقت الذي ظهرت فيه لابنتها.

لقد قدم ويلبر رايت اقتراحًا مثيرًا للاهتمام مفاده أن جميع البشر يمتلكون هذه القوى الخاصة بـ "الإسقاط" ولكن معظمنا لا تتاح له الفرصة أبدًا

- أو الرغبة - في استخدامها. ومع ذلك، يمكن إطلاقها بدافع الخطر المفاجئ أو احتمال الموت - ومن هنا جاء العدد الهائل من "أشباح الأزمة" في أدبيات الخوارق. ويبدو جليًا أيضًا أن بعض هذه القوى الغريبة يمكن إطلاقها إذا كانت الرغبة قوية بما يكفي. يروي أحد رجال الدين (القضية 641) كيف وقعت شابة في حبه بعنف، وكيف سرعان ما بدأ يشعر بشعور غريب بأنها معه عندما يكون بمفرده. ثم بدأت الفتاة تخبره بمكانه وما كان يفعله. في البداية ظن أن أحدهم أخبرها، لكنها بدأت تصف الظروف والمحيط بدقة بالغة بحيث بدا جليًا أنها كانت هناك بالفعل. ثم اعترفت بأنها لم تكن بحاجة إلا إلى التفكير فيه باهتمام لتبدأ برؤيته. عندما حدث ذلك لأول مرة، ظنت أنه خيالها - إلى أن اعترف رجل الدين لاحقًا بدقة "رؤاها" الكاملة. بمجرد أن أدرك أن الفتاة تمتلك القدرة على "إسقاط" نفسها في حياته، حرص على تجنبها. لكن الرابط الروحي بقي. بعد عشر سنوات، بينما كان يمشي مع زوجته على منحدرات رامسجيت، شعر فجأةً بضيق شديد لدرجة أنه اضطر للجلوس. وفجأةً، كانت الفتاة تقف أمامه، تُعرّفه على زوجها وتطلب منه أن يُعرّفها على زوجته. فعاد لينهي علاقتهما بأسرع ما استطاع.

في زيارة إلى ميلووكي في خريف عام ١٩٨٧، حصلتُ على الحالة المميزة التالية من جيمس بيز، مدير فرقة باور للباليه المعاصر. في عام ١٩٧٢، ذهبت زوجته سوزي باور إلى نيويورك لمواصلة مسيرتها الفنية.

دراسات الرقص. يقول بيز:

انتقل أخي ميتشل معي إلى شقة ميلووكي لتقاسم النفقات. كنا أنا وسوزي بائسين للغاية.
في إحدى الليالي، بعد حوالي أسبوع من مغادرتها ميلووكي، دخلت غرفتها ومعها زجاجة نبيذ، وشغّلت أسطوانة على جهاز التسجيل، وجلست على الأرض متكئة على سريرها. كانت تعيسة، وشعرت بأنها محاصرة بسبب القرار الذي اتخذته: وفي محاولة لتهدئة أفكارها، انغمست في الموسيقى.
في هذه الأثناء، انتهيتُ أنا وميتشل من عشاءنا الفاخر أمام التلفاز. كان ميتش جالسًا على الأريكة، بينما كنتُ جالسًا على كرسي مريح وظهري إلى المدخل المؤدي إلى غرفة الطعام.
فجأةً، لمحتُ بطرف عينيّ ما ظننتُه سوزي واقفةً على حافة الممرّ فوق كتفي الأيسر، وكأنها تدخل الغرفة. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ قليلة لأتذكر أن سوزي في نيويورك ولا يُمكنها دخول غرفة المعيشة. كان دهشتي من هذا الشبح قويةً بما يكفي لجعل ميتش يُدير رأسه عن التلفزيون ويسأل عما يحدث. أجبتُ بشيءٍ من قبيل: "أكاد أقسم أنني رأيتُ سوزي تدخل الغرفة للتو"، تجاهلتُ الأمر، وواصلنا مشاهدة التلفزيون.
بعد دقيقة أو دقيقتين، رنّ الهاتف. كانت سوزي تتصل من نيويورك، وبدت منزعجة للغاية. قالت بالضبط: "كنت هناك للتو"، فأجبتها: "أعلم". ثم أخبرتني كيف رتّبنا الأثاث.
- بدقة متناهية - أين كنا نجلس، وأين كانت علب البيرة، وأواني الطعام التي استخدمناها، وأين كانت الأطباق المتسخة، وأن ميتش استخدم طاولة جانبية كطاولة تلفزيون. وصفت ميتش بأنه كان جالسًا على الأريكة واضعًا قدميه على الطاولة الجانبية (كل هذا صحيح)، وأنني كنت قد مددت يدي لأخذ جعة عندما شعرت بالخوف لأنها ظنت أنني رأيتها. فكرت في الأمر للحظة ثم أدركت أنه صحيح.
وصفت سوزي التجربة بأنها دخلت في حالة من الغيبوبة، وشعرت وكأنها تُرفع من ذاتها، وكأنها تحوم فوق جسدها كما لو كانت من السقف. نظرت إلى نفسها، وفكرت في مدى سخافة شعورها بالبؤس الشديد حيال ظرفٍ من صنعها، وأنه إن لم ترغب في التواجد هناك، فعليها أن تفعل شيئًا حياله. وفجأة، وجدت نفسها تمر بغرفة نوم شقتنا في ميلووكي، عابرةً غرفة المدخل... وبينما دخلت غرفة الطعام، استدارت واقتربت من المدخل المقوس المؤدي إلى غرفة المعيشة، أدركت "حقيقة" أنها لا تستطيع التواجد هناك. عندما ظنت أنني لاحظت...

فأصبحت خائفة مما سيحدث، وفتحت عينيها وهي جالسة على أرضية غرفة نومها في نيويورك...

ويضيف بيز أن سوزي شعرت بعد هذه التجربة "بعدم الارتياح التام، وكأنها في جسد لا تعرفه"، وأن الأمر استغرق حوالي يوم للتغلب على هذا الشعور بأنها "جسد خاطئ".

يبدو أن تجربة سوزي باور تُشير إلى أن معظمنا قادر، إن أردنا، على تجربة "التواجد في مكانين" بإرادتنا. الحالة الغريبة التالية من رواية "أشباح الأحياء" (رقم 642) تُؤكد النقطة نفسها، وتُشير أيضًا إلى إمكانية استخدام هذه القدرة لأغراض شريرة. تتعلق الحالة بفتاة في التاسعة عشرة من عمرها بدأت تحلم برجل ذي شامة على الجانب الأيسر من فمه، مما سبب لها شعورًا بالاشمئزاز. كانت الأحلام تبدأ دائمًا بإحساس بـ"تأثير" ما يغمرها، مصحوبًا بشعور "ها هو ذا مرة أخرى". قالت إن الأحلام لم تكن مزعجة في حد ذاتها، لكنها كانت دائمًا مُرعبة بالنسبة لها لأن "نوعًا من الصراع بين طبيعتين بداخلي بدا وكأنه يُجرّ قواي العقلية والجسدية في اتجاهين". (من الواضح أن هذه الشابة الفيكتورية المتواضعة تقول إن الرجل كان يُثير مشاعرها الجنسية). كانت تستيقظ وهي ترتجف، وأسنانها تصطك.

بعد عامين، في حفل رقص في منزل خاص في ليفربول، بدأت الفتاة تشعر بـ"التأثير" مرة أخرى - شعرت "بالبرودة والحجر" بينما بدأ رأسها يحترق. نهضت، "وكانت تعلم ما سأراه"، ووجدت نفسها تنظر إلى وجه رجل أحلامها. كان يعرف رفيقتها بالفعل، لذلك تم تقديمه لها وذهب معهما إلى غرفة المرطبات. سألها أين التقيا، فأصرت على أنها لم تره من قبل. بدا منزعجًا ومتحيرًا. في وقت لاحق من ذلك المساء، سألت الفتاة أختها عما إذا كانت تتذكر وصفها للرجل الذي رأته في أحلامها، وسألتها عما إذا كانت تعتقد أن هناك شخصًا مثله في الحفلة. لم تجد الأخت صعوبة في التعرف على الرجل.

منذ ذلك الحين، بدأ هذا الرجل يلاحق الفتاة: فوجدت أنه يبدو حاضرًا في كل حفلة تحضرها. بدأ يتحدث عن الأحلام، ثم سألها إن كانت قد سافرت إلى أماكن مختلفة. في الواقع، حلمت أنها كانت في هذه الأماكن مع الرجل، بل وصفتها في ذلك الوقت في دفتر أحلام احتفظت به. كثيرًا ما راودتها فكرة الاعتراف بأنها حلمت به، لكنها شعرت غريزيًا أنها إن فعلت ذلك، "فسأكون عبدةً له وأداةً له تمامًا كما كنت في أحلامي". لذلك استمرت في إنكار كل شيء، وفي النهاية كتبت تطلب من والديها أن يتذكراها.

يبدو أن مفتاح هذه القصة الغريبة يكمن في اعتراف الرجل. فقد رآها قبل أن تبدأ الأحلام، في مهرجان موسيقي في برمنغهام، وفي تلك المناسبة أغمي عليها. ظنت حينها أن ذلك بسبب...

"حرارة الموسيقى وحماسها". لاحقًا، وبعد تفكير عميق، أدركت أن الإغماء سبقه نفس الشعور بـ"التأثير" الذي تسلل إليها. يبدو أن الاستنتاج هو أن الرجل تعرف عليها فورًا كشخصية يستطيع أن يمارس عليها سلطة معينة، ونجح بطريقة ما في إقامة نوع من التواصل التخاطري في أحلامها، حيث "استعبدها" جنسيًا. (يُنسب إلى غوردجييف نفس القوة: في رواية "الله هو مغامرتي"، وصف روم لانداو كيف، وهو جالس على الطاولة المجاورة لروائية جذابة، بدأ غوردجييف يستنشق ويزفّر بطريقة غريبة. فجأة شحبت الروائية، وصرحت لاحقًا: "شعرت فجأة وكأنني تلقيت ضربة مباشرة في مركزي الجنسي - كان الأمر وحشيًا".) ومن الجدير بالذكر أيضًا أن الفتاة كانت، إلى حد ما، "ذات قدرات نفسية". في موضع آخر من كتاب "أشباح الأحياء"، تصف كيف حلمت بموت أخيها في هجمة فرسان خلال تمرد الهنود. أشارت عمتها إلى أن أخيها كان في سلاح المشاة، ولكن في الوقت المناسب، تأكد خبر وفاته في هجمة فرسان.

رأى الباحثون الأوائل، مثل مايرز وعالم الفلك الفرنسي كاميل فلاماريون (الذي التقينا به بالفعل فيما يتعلق بصفحات المخطوطة التي طارت من نافذته)، أن جمع أعداد هائلة من هذه الحالات - مدعومة بشهادات موقعة من شهود عيان إن أمكن - كافٍ لإقناع أي قارئ ذكي بحقيقة هذه "القوى الغريبة". يُعد كتاب فلاماريون "الموت ولغزه"، المؤلف من ألف صفحة، كنزًا مذهلاً آخر من الحوادث الخارقة للطبيعة. ما لم يدركه مايرز ولا فلاماريون هو أنه لا يمكن لأي متشكك أن يقرأ هذا العدد الكبير من الصفحات ويدرك اتساقها التام. ما هو ضروري أساسًا هو نظرية ما لربط الحالات، وهذا ما ينقص كتبهما.

فهل نحن إذًا في وضع أفضل؟ الإجابة، في المجمل، هي نعم. لقد جمع الفيكتوريون كمًا هائلاً من المواد - عن الاستبصار، وعن التنويم المغناطيسي، وعن القياس النفسي، وأشباح الأزمات - لكن معظمها كان قصصيًا وتجاهله ببساطة علماء وفلاسفة الفيكتوريين. يروي فلاماريون، على سبيل المثال، قصة موثقة جيدًا عن عملية جراحية أجريت على مدام بلانتين، التي كانت تحت تأثير التنويم المغناطيسي، على يد الدكتور كلوكيه، بينما كانت ابنة مدام بلانتين، وهي أيضًا تحت تأثير التنويم المغناطيسي، تشاهد العملية. تمكنت المرأة المنومة مغناطيسيًا من وصف الأعضاء الداخلية لوالدتها بتفاصيل دقيقة ("تقلصت الرئة اليمنى... الكبد أبيض ومتغير اللون") وأضافت معلومات تفيد بأنها ستموت مبكرًا في اليوم التالي. توفيت مدام بلانتين كما كان متوقعًا، وكشف تشريح الجثة عن دقة أوصاف ابنتها لأعضائها. ويضيف فلاماريون بمرارة مفهومة: "ومع ذلك، فقد رأيت "علماء" جادين ينفجرون ضاحكين أثناء استماعهم إلى "قصص الديك والثور" هذه". في الوقت الحاضر، يستطيع علماء النفس الخارقون

يشير المشككون إلى أدلة مختبرية لدعم ادعاءاتهم بشأن التخاطر، والقياس النفسي، والاستبصار، ويضطرون إلى البحث عن ثغرات في الأدلة بدلاً من الانفجار في صيحات الضحك.

هل يعني هذا أن الأدلة المخبرية أفضل من الأدلة القصصية؟ بالطبع لا. من الصعب للغاية إقناع الأحداث الخارقة للطبيعة بالظهور في المختبر، على الرغم من نجاح بعض الوسطاء الروحانيين الموهوبين بشكل استثنائي. إن ثراء الأدلة القصصية التي جمعها فلاماريون ومايرز الهائل يُقنع بفضل تماسكها الداخلي. لقد رأى الكثير من الناس، من الدوقات إلى عمال النظافة، أقاربهم المحتضرين لحظة الموت، لدرجة أن أكثر العقلانيين تشددًا فقط هو من يستطيع رفضها باعتبارها محض خيال. بالمقارنة، تبدو الأدلة المخبرية غير مثيرة للاهتمام وهشة نوعًا ما. تكمن أهميتها الحقيقية في أنها تُشكل دعمًا قويًا للأدلة القصصية، التي تُشير بوضوح تام إلى استنتاجات أساسية مُعينة، أهمها أن جميع البشر يمتلكون قوى خارقة للطبيعة يُمكن تطويرها بالجهد والممارسة. عادةً ما تكون قوانا محدودة بحقيقة أننا نبدو مقيدين بالجسد المادي وعاداته. يبدو أن القوى الخارقة للطبيعة تُشير إلى خطأ هذا الافتراض. إن ميلنا إلى تعريف أنفسنا بأجسادنا هو في الغالب مسألة كسل وتقليد. ويمكن كسر هذه العادة.

فيما يتعلق بتجربة "الخروج من الجسد"، اختبر هذه النظرية باحثٌ نفسيٌّ بارز، البروفيسور آرثر إليسون. استلهم إليسون من كتاب "إسقاط الجسد النجمي" ليحاول تنفيذ تعليمات مولدون:

كان المبدأ هو تخفيف قبضة الجسم المادي على الجسم النجمي من خلال
... تخيل نفسك في الجسم النجمي تدور بوعي حول محور من الرأس إلى القدمين، وتلاحظ أولاً السقف، ثم الحائط، ثم الأرضية والجدار الآخر... .

لمدة ساعة واحدة من كل ليلة لمدة شهر، جربت هذه الطرق عند الذهاب إلى السرير. وفي النهاية نجحت. كانت أول علامة على ذلك أنه وفقًا للكتاب، وجدت نفسي في حالة من الجمود - غير قادر على تحريك عضلة واحدة ... استخدمت إرادتي - أم كان خيالي؟ - لأجعل نفسي أطفو إلى أعلى، وكانت التجربة رائعة للغاية. شعرت كما لو كنت مغروسًا في الوحل في قاع نهر، وكان الماء يتسرب ببطء إلى الوحل ويقلل من لزوجته، بحيث حملتني المياه في النهاية إلى أعلى. ببطء، طفت إلى أعلى، لا أزال في حالة جمود، مثل سفينة هوائية تم إطلاقها من مراسيها. وصلت إلى السقف وطفت من خلاله إلى ظلام مساحة السطح. ثم مررت عبر بلاط السقف، وأصبحت السماء والغيوم والقمر مرئية. لقد زادت

زادت رغبتي (أو تخيّلتي)، وزادت سرعة صعودي نحو السماء. ما زلت أذكر صفير الريح في شعري بوضوح حتى اليوم.

يواصل إليسون مؤكدًا: "منذ لحظة دخولي الفراش وحتى هذه اللحظة في السماء، لم أفقد وعيي". لذا، ورغم أنه يُقرّ بأن الأمر برمته ربما كان حلمًا، إلا أنه لم تكن هناك لحظة غفوت فيها بالتأكيد.

في المرة الثانية والأخيرة التي حاول فيها ذلك، قرر أنه سيحاول أن يطفو خارج ما يسميه مولودون "نطاق نشاط الحبل" - بعيدًا بما يكفي لكسر "الحبل" الذي يبدو أنه يربط معظم "العارضين النجميين" بأجسادهم المادية.

هذه المرة استغرق الأمر ثلاث أو أربع ليالٍ فقط لتكرار العرض. ومع ذلك، في هذه المناسبة أوقفت الحركة الرأسية عند ارتفاع السقف وغيرت الاتجاه. لا أزال في حالة تصلب، طفت أفقيًا، قدمي أولاً، نحو نافذة الطابق الأول من الغرفة. طفت بسلاسة عبر الجزء العلوي من إطار النافذة، كنت أهدف إلى وصف قطع مكافئ سلس لأسفل على العشب حيث، كما آمل، يجب أن أكون خارج "نطاق نشاط الحبل" ويمكن أن يبدأ العمل الحقيقي للحصول على الأدلة. لم يحدث الأمر على هذا النحو. عندما قمت بتنظيف النافذة وبدأت النزول إلى العشب، مررت بواحدة من أكثر التجارب إثارة للاهتمام حتى الآن. شعرت بيديين تأخذان رأسي، يد على كل أذن، وتحركاني (لا أزال في حالة تصلب) مرة أخرى إلى غرفة النوم وإلى أسفل الجسم. لم أسمع أي صوت ولم أرَ شيئًا.

بحلول هذا الوقت، يعترف إليسون، أنه كان متعبًا للغاية خلال النهار من قلة النوم لدرجة أنه توقف عن التجارب. لكن فضوله ظل قائمًا، وقرر مواصلة التحقيقات في المختبر. كان الهدف الأساسي من التجربة هو نفس تجربة تشارلز تارت مع الآنسة زد: جعل "جهاز الإسقاط النجمي" يقرأ رقمًا أثناء حالة "الخروج من الجسد". ومع ذلك، كان هناك عيب واضح في تجارب تارت: بما أن تارت نفسه كان يعرف الرقم، فقد تكون الآنسة زد قد التقطته منه عن طريق التخاطر. قرر إليسون أنه يمكن القضاء على هذا العيب في تجربته إذا تأكد من أنه لا يعرف الرقم بنفسه. لذلك قام ببناء صندوق إلكتروني يولد أرقامًا عشوائية. عندما يضغط على زر، سيظهر رقم عشوائي مكون من ثلاثة أرقام على الجانب الآخر من الصندوق، مخفيًا عن كل من إليسون و"جهاز الإسقاط النجمي". سيُطلب من "جهاز العرض النجمي" قراءة هذا الرقم وتكراره: ثم يُدخل إليسون الرقم على قرص، وسيُخبره الصندوق نفسه ما إذا كان يُطابق الرقم الموجود على ظهر الصندوق. بدا الأمر مضمونًا.

في التجربة التجريبية، بدا الأمر كما لو أن إليسون قد اتخذ احتياطًا حكيمًا. موضوعه

كانت فتاة تدّعي قدرتها على تحقيق "الإسقاط النجمي". لتوفير الوقت، نظر إليسون إلى الأرقام بينما حاولت الفتاة إخباره بها (يُفترض أنها "أسقطت" الأرقام، ثم نظرت إليها، ثم عادت إلى جسدها). كان نجاحًا باهرًا: في عدة مرات، حصلت الفتاة على الرقم الصحيح تمامًا. ثم جرّب إليسون الإجراء "الأعمى"، وبدأت الفتاة تواجه صعوبات على الفور، قائلةً إن الأرقام صغيرة جدًا بحيث لا يمكن قراءتها. بدا هذا وكأنه دليل على أنها كانت تقرأ أفكاره.

كان الموضوع التالي عرافًا أمريكيًا مشهورًا، قال إنه لا يحتاج إلى "إسقاط" جسده النجمي - فالأرقام ستظهر في ذهنه. حصل على درجة رائعة ثمانية من عشرين. ولكن عندما جرب إليسون ذلك في اليوم التالي، سجل الصندوق أنه حصل أيضًا على ثمانية من عشرين، وأدرك أن الصفر الإلكتروني على الصندوق يتحول إلى رقم ثمانية بسبب عطل في الدائرة المصغرة: عندما نظفه إليسون، انخفضت درجته إلى الصفر المعتاد.

كان الموضوع التالي وسيطًا روحيًا بريطانيًا مشهورًا. هذه المرة، أجرى إليسون ومساعده اختبارات تجريبية قبل التجربة، ولم يحصلا على أي نقاط، كالعادة. ثم حاول الوسيط الروحي، وحصل على ثماني نقاط. حاول إليسون ومساعده مجددًا، وحصلا أيضًا على ثماني نقاط. نظفا الجهاز مرة أخرى، وحصل هو ومساعده على نتيجتهما الصفرية المعتادة. حاول الوسيط الروحي مجددًا، وحصل على ثماني نقاط. نظف إليسون الجهاز وحاول مجددًا، وحصل على صفر. بدا الأمر كما لو أن "المهرج الكوني" كان يمزح على حساب إليسون - إما ذلك، أو، كما اشتبه هو نفسه، ربما كان الوسيط الروحي يتصرف بطريقة ما على الدائرة عن طريق التحريك النفسي (العقل على المادة) للحصول على درجة عالية.

أدت محاولة مماثلة أجراها الباحث الأمريكي الدكتور كارليس أوسيس إلى نتيجة أكثر إيجابية. فقد صنع صندوقًا مبتكرًا تراكبت فيه الدوائر الكهربائية صورًا مختلفة لتكوين صورة تبدو طبيعية. ولكن كان على الشخص الوقوف في وضعية محددة أمام الصندوق لرؤية الصورة. طُلب من خبير روحي يُدعى أليكس تانوس أن "يسقط" نفسه وينظر إلى الصندوق من الوضع الصحيح. تمكن تانوس من رؤية الصورة بشكل صحيح، مما يشير إلى أن جزءًا منه قد غادر جسده وكان ينظر من خلال النافذة الزجاجية إلى الصندوق.

يتضح فورًا أن هذه التجارب، وإن كانت مثيرة للاهتمام، إلا أنها ليست مقنعة بقدر تجربة إليسون في "الإسقاط النجمي". لكي نكون مقتنعين تمامًا، علينا أن نكون قادرين على تجربة بعض الإحساس بـ"المعادلة الإنسانية".

- أو الأفضل من ذلك، أن يكون لديك تجربة مباشرة. عندما قُتل إرنست همنغواي بقذيفة في الحرب العالمية الأولى، شعر بإحساس وصفه كالتالي: "... روحي أو شيء ما يخرج من جسدي، كما لو كنت تسحب منديلًا حريريًا من جيبك من إحدى زواياه. طار ثم عاد ودخل مجددًا، ولم أعد ميتًا." ولكن بينما قد يكون هذا...

لقد أقنعت هذه النظرية همنغواي بأن وفاته كانت قصيرة الأمد، ومن الواضح أن هناك اعتراضًا على أن الوفاة ربما كانت مجرد "شعور" ناجم عن أزمة جسدية.

ومع ذلك، توجد حالات يبدو فيها وجود قدر معين من الأدلة القاطعة على أن الوعي الجسدي يمكن أن ينجو من "موت" الجسد. وقد حدثت إحدى أكثر هذه الحالات لفتًا للانتباه في حديقة هارتبيسبورت للثعابين والحيوانات بالقرب من بريتوريا في جنوب إفريقيا. كان مالكها، جاك سيل، يطلق سراح مامبا سوداء طولها اثني عشر قدمًا في قفصها عندما سأله مساعد بحث متطفل عما إذا كان قد فحصها بحثًا عن طفيليات. تشتت انتباه سيل للحظة واستدارت الثعبان وغرزت أنيابها في كاحله. عرف سيل أن فرصه في البقاء على قيد الحياة ضئيلة: لم يُعرف عن أي شخص أنه نجا من لدغة مامبا سوداء ناضجة. عندما رأى السم يتدفق من كاحله، عرف أن المامبا يجب أن تكون قد حقنت جرعة هائلة.

كان لدى سيل حوالي ١٠ سم مكعب من المصل في المنشأة، لكنه احتاج إلى أربعة أضعاف هذه الكمية على الأقل. لذلك، بعد حقن نفسه بكل ما لديه، نُقل إلى مستشفى بريتوريا العام.

كان الحظ حليفه. كان الجراح المناوب صديقًا له، لطالما شرح له نظريته المفضلة حول علاج لدغات الثعابين. سم المامبا سم عصبي يُشل الجهاز العصبي المركزي. لطالما اعتقد جاك سيل أنه إذا تم توصيل ضحية لدغة الثعبان بجهاز القلب والرئة، فسيكون لديه فرصة جيدة للبقاء على قيد الحياة. استندت هذه الفكرة إلى ملاحظة قام بها قبل بضع سنوات. كان باحث من بريتوريا، جيرت ويليمس، يحاول تحديد كمية السم اللازمة لقتل أرنب بالضبط عندما وصل جاك سيل. قرر ويليمس أخذ استراحة شاي بعد حقن الأرنب بجرعة كبيرة من السم. تركه متصلاً بجهاز القلب والرئة، وعندما عادا بعد ساعة اندهشا لرؤية أن الأرنب لا يزال على قيد الحياة.

بينما كان الجراح يفتح فمه بقوة ويدخل أنبوب هواء في حلقه، فكّر جاك سيل: "الحمد لله، الحمد لله...". ثم مات. (اكتُشف لاحقًا أن الثعبان قد حقن سمًا يكفي لقتل خمسين رجلًا). بعد بضع ساعات، استعاد وعيه ليسمع صوتًا حادًا وصوت "بيب، بيب، بيب": أدرك تدريجيًا أنه كان يستمع إلى تنفسه ونبضات قلبه. عندما حاول الحركة، اكتشف أنه مشلول تمامًا. أظهرت أجهزة المراقبة أن دماغه قد مات؛ لكنها لم تسجل عودة وعيه.

ظل جاك سيل مشلولاً تمامًا طوال الأيام الثمانية التالية، ومع ذلك كان قادرًا على سماع كل ما يجري. عندما أدخلت ممرضتان شابتان قسطرة، سمع إحداهما تُعلق بأن لديه أصغر عضو ذكري رأته في حياتها: شعرت بإحراج شديد عندما ذكّرها بذلك لاحقًا. سلط طبيب كشافًا على عينه وأعرب عن رأيه بأنه مصاب بتلف دماغي: سيل

سمع ذلك أيضًا. لاحقًا، سمعهم يخبرون زوجته أنه حتى لو تعافى، فسيعاني من تلف دماغي مدى الحياة. وفي اليوم الثالث، سمع طبيبًا يقول: "ستظل هذه المسكينة تتناول خضارًا طوال حياتها. أفضل ما يمكننا فعله هو إيقافه...". بعد نقاش مطول، قرروا تركه على الجهاز لأن حالته كانت مثيرة للاهتمام سريريًا.

في اليوم الثامن، نجح في تحريك إصبعه. أخبر طبيب الممرضة أنها تشنج عصبي لا إرادي. حرك سيل الإصبع مرة أخرى. قال الطبيب: "سيد سيل، إن كنت تسمعني، فحرك إصبعك مرتين". ركز سيل كل إرادته وحرك الإصبع مرتين. ساد جو من الفوضى فورًا حيث امتلأت الغرفة بالأطباء والممرضات والمتدربين. بعد تسع ساعات، ارتجفت جفونه. ووفقًا لرواية جاك سيل، عاد وعيه الطبيعي "طبقة تلو الأخرى". وبعد ثمانية أيام، سُمح له بمغادرة المستشفى. كان من أوائل الأشياء التي فعلها هو الإمساك بالثعبان الذي عضه واستخراج سمه منه. لعدة أشهر، وجد أنه من المستحيل النوم بدون إضاءة، لأن الاستيقاظ في الظلام أعاد على الفور إحساس الموت الحقيقي - كما في قصيدة "الدفن المبكر" لإدغار آلان بو. كان تعليقه على هذه المحنة: "أعرف شعور الموت. إنه ليس أمرًا مرعبًا إلى هذه الدرجة..."

من الناحية الطبية، تُثبت هذه الحالة فقط أن الوعي يمكن أن يبقى سليمًا حتى مع موت الجسد تقنيًا. ومع ذلك، بالنسبة لمن يُصرّون على أن الحياة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالجسد، يبقى لغز كيفية بقاء جاك سيل واعيًا عندما أشارت أجهزة المراقبة إلى موت دماغي. لا يتطلب الأمر سوى القليل جدًا لحرماننا من الوعي - نفحة مخدر، ضربة على الرأس، اندفاع دم من الدماغ إذا نهضنا بسرعة كبيرة. ومع ذلك، نجا وعي جاك سيل من الموت الجسدي الكامل. يبدو أن الوعي أقل هشاشة مما نفترض عادةً.

المشكلة الرئيسية واضحة تمامًا. عندما نغمض أعيننا وننام، نختفي ببساطة: العلامة التالية للوعي التي نختبرها هي عندما نبدأ بالحلم. لذا، يبدو أنه لا يوجد دليل واقعي على وجود جزء منا "ينتقل" أثناء النوم. من المنطقي تمامًا الاعتقاد بأن الموت مجرد "اختفاء" دائم. إلى حد ما، دُحض هذا الاعتراض من قِبل فريدريك فان إيدن، أحد أوائل وأبرز "باحثي الأحلام"، الذي بدأ دراسة تجاربه الخاصة في الأحلام في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر. بعد فترة، بدأ يمر بـ"أحلام صافية" - أي أحلام كان يُدرك فيها أنه يحلم.

في يناير ١٨٩٨... حلمت أنني مستلقي في الحديقة أمام نوافذ مكتبي، ورأيت عيني كلبي من خلال الزجاج. كنت مستلقيًا على

صدري وأراقب الكلب باهتمام بالغ. في الوقت نفسه، كنت أعرف يقينًا أنني كنت أحلم وأنا مستلقي على ظهري في سريري. ثم قررت أن أستيقظ ببطء وحذر لأراقب كيف سيتغير إحساسي بالاستلقاء على صدري إلى إحساس بالاستلقاء على ظهري. وهكذا فعلت، ببطء وعمد، وكان الانتقال - الذي مررت به مرات عديدة منذ ذلك الحين - رائعًا للغاية. إنه مثل الشعور بالانزلاق من جسد إلى آخر، وهناك بوضوح تذكر مزدوج للجسدين. تذكرت ما شعرت به في حلمي، وأنا مستلقٍ على صدري؛ ولكن بالعودة إلى الحياة اليومية، تذكرت أيضًا أن جسدي المادي كان مستلقيًا بهدوء على ظهره طوال الوقت. هذه الملاحظة للذكرى المزدوجة راودتني مرات عديدة منذ ذلك الحين. إنها لا شك فيها لدرجة أنها تؤدي بشكل لا مفر منه إلى تصور جسد الحلم.

(قد يفسر هذا أيضًا تجربة سوزي باور مع "الجسد الخطأ" عندما عادت إلى جسدها المادي.)

لقد اعتدنا على تعريف الأنا بالوعي لدرجة يصعب معها استيعاب مفهوم الوعي المزدوج - أي جزء منا له وعيه الخاص الذي يمكنه الانتقال إلى مكان آخر. ومع ذلك، فهذا مفهوم نصادفه مرارًا وتكرارًا في روايات "تجارب الخروج من الجسد". كان السير أوكلاند (اللورد لاحقًا) جيديس، أستاذ التشريح في جامعة دبلن، من أبرز العلماء الذين وصفوا هذه التجربة. في ورقة بحثية قُدِّمت أمام الجمعية الطبية الملكية عام ١٩٣٧، وصف جيديس كيف كان يعاني من تسمم غذائي وكيف أصيب بالشلل وهو جالس على كرسيه. عند هذه النقطة، أدرك أن "وعيه ينفصل عن وعي آخر كان أنا أيضًا". كان أحد الوعيين مرتبطًا بجسده، الذي ظل جالسًا على الكرسي، بينما كان الآخر مرتبطًا بأناه. (لاحظ أنه يقول "مرتبطًا" وليس متطابقًا مع أناه). بدا هذا الوعي الثاني وكأنه خارج جسده. في هذه الحالة، كما يقول، كان بإمكانه رؤية المنزل والحديقة بالكامل، ثم أشياء أخرى في لندن واسكتلندا. شعر بأنه "حر في بُعد زمني من الفضاء، حيث يُعادل "الآن" إلى حد ما "هنا" في الفضاء ثلاثي الأبعاد المعتاد للحياة اليومية"، وهي ملاحظة يبدو أنها تُؤكد فكرة أن جزءًا من الوعي البشري يمكن أن يسمو "فوق" الزمن. اكتُشف جيديس بعد توقف قلبه عن النبض بفترة وجيزة، وأُعطي حقنة كافور أعادته - على مضض - إلى وعيه اليومي.

من الغريب أن يبدو التردد سمةً متكررةً في مثل هذه التجارب التي تُشبه الموت. ففي عام ١٨٧١، سقط أستاذ جيولوجيا من زيورخ، ألبرت هايم، من ارتفاع سبعين قدمًا من حافة ثلجية، فشعر بتباطؤ في الزمن مصحوبًا بشعورٍ رائعٍ بالسلام والسكينة.

ازداد النشاط الذهني ضخامة، وتضاعفت سرعته مئات المرات... رأيتُ حياتي الماضية بأكملها تتكشف في صور متعددة، كما لو كنتُ على مسرح بعيد عني... تحوّل كل شيء كما لو كان بنور سماوي، بلا قلق ولا ألم... سيطرت أفكار راقية ومتناغمة على الصور الفردية ووحّدتها، وغمرني هدوء إلهي، كموسيقى رائعة...

كل هذا حدث في سقوط لمدة ثلاث ثواني.

في سيرتها الذاتية "سنوات الشغف"، تصف كاريس كروسبي، سيدة المجتمع الأمريكية، تجربة مماثلة عندما كادت، في طفولتها، أن تغرق. تشبث شقيقاها بكاحليها بينما سقطت في النهر المزبد.

عندما غاص رأسي تحت سطح الماء، أخذتُ نفسًا طويلًا خائفًا ولم أتنفس هواءً آخر، نفثتُ رئتيّ مرةً وامتلأتا بماء المد. اندفع الدم من أصابع قدميّ إلى أنفي، وفجأةً بدا رأسي وكأنه يتمدد وينفجر، ولكن بهدوءٍ كما لو كان كرةً قطنيةً تنفث للخارج وللخارج. تدفقت إلى أذنيّ تهويدات بحرية غريبة، وشيئًا فشيئًا، هناك تحت الفيضان، أضاء بريقٌ منشوريٌّ مبهرٌ بصري - لم أرَ وأسمع الانسجام فحسب، بل فهمتُ كل شيء. وببطء، بينما تطفو فقاعةٌ على السطح، صعدتُ إلى السطح، صعدتُ عبر المنصة الخشبية، صعدتُ إلى حيث أستطيع السيطرة على المشهد بأكمله الممتد تحتي. شاهدتُ والدي في العمل على قاربه، وإخوتي خائفون للغاية متمسكون بكعبيّ النحيلين، وأنا، وشعري كأعشاب بحرية مسحوبٌ على قاع الطفو المغمور. وهكذا، بينما كنت أغرق، رأيت والدي يتحول ويتصرف، ورأيت أخي الخائف يركض نحو المنزل، ورأيت الجهود المبذولة لإعادتي إلى الحياة، وحاولت ألا أعود.

كانت تلك أروع حالة من البهجة الهانئة التي عشتها في حياتي، آنذاك أو منذ ذلك الحين. لم يكن هناك حزن أو مرض تمنيتُ الفرار منه، كنتُ في السابعة من عمري فقط، طفلًا راضيًا، ومع ذلك لم تُضاهَ تلك اللحظة من حياتي سعادةً خالصة. هل كان بإمكاني أن ألمح، وأنا غارق (لأنني غرقتُ)، حرية الحياة الأبدية؟ شيء واحد أعرفه، أن النيرفانا موجودة بين الدنيا والآخرة - فضاء من البهجة، لأني كنتُ هناك.

لقد قادته تجربة ألبرت هايم الشخصية في "النشوة" على وشك الموت إلى

بدأ في جمع تجارب مماثلة من متسلقي الجبال الآخرين الذين تعرضوا لحوادث تسلق: واكتشف أن 95 في المائة منهم كانت لديهم تجارب مماثلة لتجاربه.

انبهر ليال واتسون بهذه التجارب لدرجة أنه خصص لها كتابًا بعنوان "خطأ روميو" (الخطأ المقصود هو افتراض روميو أن جولييت ميتة وهي حية). كما سجل العديد من التجارب التي تشير إلى أن من هم على وشك الموت غالبًا ما يشعرون بـ"النشوة". وقد مر واتسون نفسه بتجربة "الخروج من الجسد" عندما انقلبت حافلته الصغيرة في رحلة سفاري في كينيا واستقرت على حافة وادٍ.

وجدت نفسي واقفًا خارج الحافلة الصغيرة، أُحدّق في رأس وكتفيّ صبيّ صغير في المجموعة، دُفع إلى منتصف سقف القماش في اللفة الأخيرة، وكان سيُسحق إذا تحركت المركبة أكثر من ذلك - وهو ما بدا محتومًا. ثم، ودون تردد، استعدتُ وعيي في المقعد الأمامي للحافلة، ومسحتُ الغبار الأحمر عن عينيّ، وتسلّقتُ النافذة، ودُفعتُ لمساعدة الصبيّ على تحرير نفسه قبل أن تستقرّ المركبة المُتهالكة في موضعها الأخير. ما زالت ذاكرتي للتفاصيل التي "رأيتها" وأنا لا أزال فاقدًا للوعي واضحة، ولا شكّ لديّ في أن موقع مراقبتي في تلك اللحظة كان منفصلًا عن جسدي...

في هذه الحالة، نلاحظ أن واتسون لم يشعر بأي شعور بالتحرر من جسده والنظر من الأعلى. بل وجد نفسه واقفًا بجانب الحافلة، كما لو أن عقله قد تحرر من قيوده الطبيعية. وهذا يثير سؤالًا مثيرًا للاهتمام حول ما إذا كان مفهوم "الجسد النجمي" ضروريًا حقًا. ربما يكون السبب ببساطة أنه في حالات "الانفصال" هذه، يستمر العقل في رؤية نفسه في هيئته المعتادة، كإنسان. لم يكن لدى كاميل فلاماريون، أكثر علماء "الغيبيات" الفرنسيين شموليةً، أي شك في أن القدرات الاستبصارية ليست "حاسة" إضافية، بل هي ببساطة قدرة العقل الطبيعية على الهروب من قيود الجسد. كتب عن فريدريك هاوف، "عرافة بريفورست" التي استطاعت قراءة كتاب مفتوح على بطنها، أو عن الفتاة الصغيرة التي وصفها لومبروزو التي كانت تقرأ بأذنها، وكتب: "نتيجة هذا البحث هي التأكيد على أن الإنسان يستطيع الرؤية بدون عيون، بروحه". ولدعم هذا الادعاء، يُقدّم ما يقارب ستين صفحة من الأمثلة المُلفتة، بدءًا من وثيقة لرئيس أساقفة بوردو تصف كاهنًا شابًا ذا ميولٍ مشيٍ أثناء النوم، كان يستيقظ في منتصف الليل ويكتب عظته - وعيناه مغمضتان - ثم يُعيد قراءتها ويُجري عليها تصحيحات. كان تومسون جاي هدسون...

اعترضوا فورًا بأن هذا مجرد مثال على قوة العقل الذاتي: ففي حالة "المشي أثناء النوم"، كان الكاهن قادرًا على تصور الصفحة التي كان يكتب عليها، وتذكرها بدقة متناهية، حتى أنه كان قادرًا على الرجوع إليها وإجراء التصحيحات اللازمة. فلا حاجة إلى "رؤية بلا عيون".

لكن الحالات الأخرى التي ذكرها فلاماريون لا يمكن تفسيرها بنفس الطريقة. كان أليكسيس ديدييه أحد أشهر الأشخاص الذين تم تنويمه مغناطيسيًا في القرن التاسع عشر، وتشغل مآثره صفحات عديدة من كتاب إريك جيه. دينجوول "الظواهر التنويمية غير الطبيعية". أصبح يمشي أثناء النوم بالصدفة. في أحد الأيام في المسرح، تطوع للصعود على خشبة المسرح ليتم تنويمه مغناطيسيًا، وترك انطباعًا كبيرًا لدرجة أن صاحب العمل قرر التخلي عن التجارة وأن يصبح مديره. كانت مآثره الأكثر إثارة على الإطلاق هي لعب الورق وهو معصوب العينين. يبدو هذا، بالطبع، كخدعة ساحر مسرح عادية - وهو استنتاج توصل إليه أيضًا ساحر المسرح الشهير روبرت هودين (الذي سمى هوديني نفسه باسمه). لكن جلسة مع ديدييه تركت هودين محطمًا ومقتنعًا. أحضر الأخير معه مجموعة من البطاقات المميزة للحماية من الخداع، لكن ثبت أن ذلك غير ضروري على الإطلاق. خلط هودين الأوراق، وعندما وضع البطاقة الأولى على الطاولة، حددها ديدييه على أنها ملك. مع تقدم اللعبة، أثبت صحة توقعاته. فرغم أن هودين لعب بيده تحت الطاولة، إلا أن ديدييه كان ينصحه بالورقة التي سيلعبها. يبدو هذا، بالطبع، تخاطرًا. لكن ديدييه لعب بأوراقه دون أن يقلبها، وكانت دائمًا متوافقة تمامًا مع تلك التي لعبها هودين للتو.

أظهر ديدييه أيضًا قدراتٍ نفسيةً تحت التنويم المغناطيسي. قدّم له ألكسندر دوماس خاتمًا: وصف ديدييه تاريخه وتاريخ الرجل الذي أهداه لدوماس، ثم وصف تونس، موطن الخاتم، مع أن ديدييه لم يكن يعرفه إلا بالاسم.

من مواهب ديدييه الأخرى القدرة على إسقاط نفسه ذهنيًا على أماكن ذكرها من اختبروه، وهي قدرة تُعرف باسم "الاستبصار المتنقل". يبدو هذا أيضًا مسألة تخاطر عادية، لكن ديدييه غالبًا ما أثبت عكس ذلك بوصف أشياء لم يكن رفيقه على دراية بها. طلب الكابتن دانييل من ديدييه "السفر" إلى منزل والده. بعد أن وصف ديدييه الزخارف والأثاث وتفاصيل أخرى بشكل صحيح، أخبره دانييل أنه أخطأ في شيء واحد فقط، وهو لون الستائر. ولكن عندما تحقق لاحقًا، وجد دانييل أن ديدييه كان محقًا.

في مناسبة أخرى، ذهب قاضٍ متشكك يُدعى سيجوير لرؤية ديدييه وسأله أين كان - سيجوير - في الساعة الثانية من ذلك اليوم. قال ديدييه: "في مكتبك. إنه مليء بالأوراق - لفائف التبغ - الرسومات - والآلات الصغيرة. هناك جرس صغير جميل على مكتبك." نفى سيجوير الملاحظة الأخيرة بشدة. ولكن عندما عاد إلى المنزل،

وجد الجرس الذي وضعته زوجته هناك بعد ظهر ذلك اليوم. يبدو أن هذا يُظهر أن ديدييه استخدم التخاطر والاستبصار المتنقل. أخبره التخاطر بمكان سيغييه عند الساعة الثانية ظهر ذلك اليوم، لكن الاستبصار المتنقل هو الذي أراه الجرس الذي وُضع على المكتب منذ مغادرة سيغييه المنزل.

تجلّت "الاستبصار المتنقل" بوضوح في قضية سرقة. ففي عام ١٨٤٩، اختفى كاتب يُدعى دوبوا من مكان عمله، مون دو بيتيه، وبحوزته مائتا ألف فرنك. فقرر محامٍ، صديق المدير، الذهاب لاستشارة ديدييه. ودون أن يُلحّ عليه، أخبر ديدييه زائره بالمبلغ المسروق واسم اللص: دوبوا. وأضاف أن دوبوا موجود حاليًا في بروكسل، في فندق الأمراء. أسرع المحامي إلى هناك، ليجد أن الكاتب قد غادر قبل ساعات قليلة. ثم ذكر ديدييه أنه رأى الكاتب في كازينو في سبا، وأنه لن يتبقى لديه مال عند إلقاء القبض عليه. اندفع المحامي إلى سبا (في بلجيكا)، وتأخر عن الكاتب بساعات. وعند عودته إلى باريس، أخبره ديدييه أن الكاتب كان في إيكس لا شابيل، ولكنه عاد الآن إلى سبا يقامر بالمال المتبقي. هذه المرة تم القبض على الكاتب، ولكن - كما تنبأ ديدييه - كان بلا مال.

يوضح هذا التقرير أن ديدييه كان يمتلك نفس القوى التي مكّنت إيلين غاريت من تحديد مكان الطبيب المفقود. لكن هذه القوى كانت نتيجة التنويم المغناطيسي، وليست "قدرة نفسية" فطرية. ما يوضحه فصل فلاماريون هو أن القوى التي يمكن إطلاقها من خلال التنويم المغناطيسي أعظم بكثير مما يعترف به العلم الطبي الحديث. (وقد تم توضيح النقطة نفسها مرارًا وتكرارًا في كتاب دينغوول "الظواهر التنويمية غير الطبيعية"). في القرن العشرين، أصبحنا نعتبر أن القوى التي يُظهرها الأشخاص المُنومون مغناطيسيًا هي مجرد نتيجة "للإيحائي". في وقت كتابة هذا التقرير، أعلن الدكتور غراهام واغستاف، أستاذ ليفربول، للتو أن جميع آثار التنويم المغناطيسي يمكن تفسيرها من حيث لعب الأدوار (أي التمثيل)، وهو عودة إلى نوع الشك الكامل الذي ساد في بداية القرن التاسع عشر. ولكن ما لم يكن روبرت هودين والعديد من العلماء الفيكتوريين البارزين كاذبين تماماً، فإن مثل هذه الرؤية غير كافية على الإطلاق لتفسير الحقائق التي تم رصدها.

لم يكن لدى فلاماريون أدنى شك في أن كلاً من التخاطر وقوة الإرادة يلعبان دورًا في التنويم المغناطيسي - أو يمكنهما القيام بذلك. "إن فعل الإرادة عن بُعد لا يقبل الشك، كما يعلم من درس هذا الموضوع جيدًا". أوضح مسمر، مكتشف أحد أشكال التنويم المغناطيسي، ذلك للعالم سيفرت، الذي اعتبر التنويم المغناطيسي "محض هراء". عندما طلب سيفرت دليلاً، عرض مسمر إثبات قدراته من خلال جدار من الطوب. وُضع المريض - أحد مرضى مسمر - على أحد جانبي الجدار ومسمر على الجانب الآخر، بينما وقف سيفرت حيث يمكنه مشاهدتهما. عندما صنع مسمر

بعض الحركات الزاوية من اليمين إلى اليسار اشتكى الشخص من أنه شعر "كما لو أن كل شيء بداخله يتأرجح من اليمين إلى اليسار". عندما بدأ مسمر في عمل حركات بيضاوية بأصابعه اشتكى الرجل قائلاً: "الآن يدور كل شيء في دائرة". حدث كل هذا في عام 1775، قبل بضع سنوات من اكتشاف تلميذ مسمر بويسيجور للتنويم المغناطيسي، لذا كان موضوع مسمر واعيًا تمامًا. ولكن بعد قرن من الزمان، تعاون اثنان من علماء النفس البارزين، بيير جانيت وجوليان أوكوروفيتش، في سلسلة من التجارب التي أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أنه يمكن أيضًا تنويم الناس مغناطيسيًا عن بُعد ومن ثم الاستجابة للأوامر التخاطرية. شعرت جانيت بالحيرة من نتائج طبيب في لوهافر، جيه إتش إيه جيبرت، الذي كان قادرًا على تنويم امرأة فلاحية مغناطيسيًا عن طريق "التحفيز العضلي الطرفي" - الضغط على يدها. لكن جيبرت وجد أن الأمر لا ينجح إلا بالتركيز: فإذا حاول القيام بذلك دون تركيز كافٍ، لم تستجب المرأة. وهذا يشير بوضوح إلى أن "ضغط أفكار" جيبرت لعب دورًا في التنويم المغناطيسي. لذا حاول جيبرت تنويم المرأة مغناطيسيًا بالفكر وحده، ونجح. بدأت جانيت العمل مع المرأة القروية نفسها، ووجدت أنه يستطيع إحداث غيبوبة تنويم مغناطيسي من الجانب الآخر من لوهافر بمجرد التفكير فيها، ويمكنه استدعاؤها إليه.

بدأ أوكوروفيتش، وهو طبيب عنيد، في تجاوز افتراضاته المادية عندما اكتشف أن الأشخاص الذين خضعوا للتنويم المغناطيسي حصلوا على درجات عالية بشكل غير عادي في ألعاب تخمين البطاقات. بدأ أوكوروفيتش وجانيت التعاون مع الدكتور جيبرت، مستخدمين امرأته الفلاحية، السيدة ب، كموضوع. أثبتوا أنه حتى عندما تكون السيدة ب على بعد نصف ميل من المنوم المغناطيسي (سواء جانيت أو جيبرت) يمكن وضعها في حالة غيبوبة ثم إعطائها أوامر ذهنية ستطيعها. علاوة على ذلك، إذا قرص المنوم المغناطيسي نفسه، ستتفاعل السيدة ب كما لو كانت تُقرص في نفس المكان. كان هذا هو "مجتمع الإحساس" القديم الذي لاحظه ألفريد راسل والاس وويليام باريت (والذي لاحظه لاحقًا الدكتور باجينستيشر). لكن السيدة ب (المعروفة لاحقًا باسم ليوني) أظهرت أيضًا قوى "الاستبصار المتنقل". عندما طُلب منها زيارة الباحث الشهير في علم الخوارق، تشارلز ريشيه، في باريس، أعلنت أن مختبره يحترق، وثبتت صحة ذلك. وقد أحدثت نتائج كل هذه الأبحاث، التي نُشرت في كتاب "الاقتراح العقلي" لأوخوروفيتش (1887)، ضجة كبيرة، وسارع العديد من الأطباء إلى تأكيد هذه النتائج. أجرى الدكتور دوفاي من بلوا تجارب على امرأة تُدعى ماريا، أظهرت فيها قدرات نفسية قياسية ملحوظة. وفي مجلة "ريفو فلسفيك"، وصف دوفاي كيف تم تنويم ماريا مغناطيسيًا، ثم سلمت طردًا يحتوي على جزء صغير من ربطة عنق رجل استخدمها للانتحار في السجن. ولم تتمكن فقط من وصف جريمة الرجل - وهي قتل شخص ما بفأس - لقاضي التحقيق، بل تمكنت أيضًا من إخبارهم بمكان العثور على سلاح الجريمة. وتابعت:

أثبتت أنه بمجرد التعامل مع أشياء تخص سجناء مختلفين، يمكنها معرفة الجريمة التي سُجنوا بسببها.

تشير نتائج كل هذه التجارب إلى استنتاج لا لبس فيه: أن الإيحاء يمكن أن ينتقل مباشرةً من عقل إلى آخر، وأن الإرادة يمكن أن تلعب دورًا فعالًا في التنويم المغناطيسي. كان بإمكان فلاماريون أن يعزز حجته بالإشارة إلى محاكمة جنائية عام ١٨٦٥ حُكم فيها على متسول مشوه القدمين يُدعى تيموثاوس كاستيلان بالسجن اثني عشر عامًا بتهمة اغتصاب فتاة فلاحية تبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا تُدعى جوزفين. كان كاستيلان قد توسل إلى والدها، وهو فلاح فقير، ليؤجره ليلة واحدة، مدعيًا أنه معالج. في صباح اليوم التالي، ذهب والد الفتاة وشقيقها إلى الحقول وتركاها وحدها مع كاستيلان. ادعت جارة اتصلت به أنها رأت كاستيلان يُشير في الهواء خلف ظهر الفتاة. أثناء وجبة الغداء، أشار كاستيلان بأصابعه، كما لو كان يُسقط شيئًا على طبق الفتاة، فشعرت الفتاة بفقدان وعيها. حملها إلى الغرفة المجاورة واغتصبها؛ قالت إنها كانت واعية لكنها غير قادرة على الحركة. لاحقًا، غادر كاستيلان، آخذًا إياها معه. في إحدى المزارع التي مكث فيها ليلته، أظهر سلطته عليها بجعلها تزحف على أربع كالحيوان، ثم تنفجر ضاحكةً. أُلقي القبض عليه في النهاية.

قضية هايدلبرغ الشهيرة عام ١٩٣٤ تحمل العديد من السمات نفسها. أُلقي القبض على امرأة لمحاولتها قتل زوجها. اكتشف الطبيب النفسي للشرطة، الدكتور لودفيغ ماير، في النهاية أنها قامت بست محاولات اغتيال بأمر من مجرم يُدعى فرانز والتر. التقى والتر بالمرأة في قطار وأخبرها أنه معالج. وبينما كانت ترافقه لشرب فنجان من القهوة، لمس يدها، فشعرت فجأة وكأن إرادتها قد هجرتها. رافقته إلى غرفة في هايدلبرغ حيث وضعها في حالة غيبوبة بلمس جبينها واغتصبها. ثم جعلها تكسب المال له من خلال ممارسة الدعارة، ثم أمرها بقتل زوجها. حُكم على والتر بالسجن عشر سنوات.*

تُلقي هذه الحالات ضوءًا مثيرًا للاهتمام على تجربة الفتاة المذكورة في "أشباح الأحياء" التي أصبحت عبدة جنسية لرجل في أحلامها (انظر الصفحة 258). الفرضية البديهية حول النساء اللواتي وقعن ضحايا كاستيلان ووالتر هي أنهن كنّ عرضة للهستيريا وسمحن لأنفسهن "بالإصابة بالشلل" بالإيحاء. لكن في الحالة المذكورة في "أشباح الأحياء"، من الواضح أن هذا مستحيل، لأن الفتاة لم ترَ رجل أحلامها حتى بعد أشهر. في هذه الحالة، التفسير الأكثر ترجيحًا هو أن الرجل تعرف عليها فورًا كنوع من الأشخاص الذين يمكنه إخضاعهم لإرادته عن طريق الإيحاء التخاطري، وانطلق عمدًا في مسار إغواء طويل المدى عبر الأحلام. وإذا أمكن قبول هذا الاحتمال، فمن المرجح أن كاستيلان وفرانز والتر استخدما أسلوبًا مشابهًا. يدعم هذا الرأي...

ملاحظات الباحث المعاصر الدكتور فيرينك أندراس فولجيسي، الذي أصبح كتابه "التنويم المغناطيسي للإنسان والحيوان" مرجعًا تاريخيًا. وقد أقرّ فولجيسي بدور قوة الإرادة في تنويم الحيوانات والطيور بواسطة الثعابين، وكثيرًا ما شهد "معارك إرادة". يحتوي كتابه على صور لهذه الصراعات العقلية التي تدور بين ضفدع عملاق وكوبرا، وبين أفعى جرسية وطائر جارح.

قد تبدو تداعيات هذه الأفكار أكثر ثورية مما هي عليه في الواقع. فإذا استطعنا قبول أدلة التخاطر - والأدلة التي تدعمها الآن دامغة - فإننا نكون قد قبلنا بالفعل فكرة أن عقلًا واحدًا يمكن أن يؤثر على عقل آخر. الأمر الوحيد المفاجئ الذي يظهر من فلاماريون وأوخوروفيتش والآخرين هو أن الأمر يبدو أسهل بكثير مما قد نتصور. في رواية "فوق السور الطويل العالي"، يروي ج. ب. بريستلي كيف قرر، في عشاء أدبي ممل في نيويورك، تجربة الإيحاء التخاطري: أن يجعل إحدى الشاعرات تغمز له. اختار امرأة عابسة، "بالطبع لا تغمز"، وركز عليها: فجأة التفتت إليه وغمزت. لاحقًا جاءت لتعتذر. "لقد كان مجرد اندفاعة سخيفة مفاجئة".

ويبدو أن إلسي، ليدي أبركرومبي، التي ورد وصفها في السيرة الذاتية لجوي كولين سميث بعنوان "لا أحد سيد"، كانت تتمتع بنفس القدرة.

في سن مبكرة، اكتشفت إمكانية التأثير على أقوال وأفعال الآخرين. ذات مرة، في الهند، بعد أن طردتها والدتها من تجمع رسمي، عادت إلى فصلها الدراسي وشرعت في تصرفات حمقاء للتأثير على الأحداث في الطابق السفلي. قررت أنهم سيبدأون جميعًا بالحديث بشكل قهري عن أشياء تافهة وغير مهمة، ولن يتمكنوا من التوقف.

بعد نصف ساعة، وبعد أن عرفت والدتها موهبتها، جاءت بصرامة وهزتها قائلة: "توقفي فورًا أيتها الفتاة المشاغبة! إنهم جميعًا يتحدثون ويتحدثون عن...". قالت إلسي بنظرة بريئة: "جمال؟" وهذا ما حدث.

عندما طلبت مني جويس كولين سميث المزيد من المعلومات عن السيدة أبركرومبي، أرسلت لي القصص التالية:

... أعلم أنها لم تكن لديها فكرة واضحة عن كيفية فعلها ذلك... ذات مرة، في اجتماع في استوديو خلف منزل مايكل ماكووين، رئيس جمعية لامدا، تمتمت إليّ إلسي قائلةً: "بارد. من الأفضل أن أنهيه". كانت كبيرة في السن آنذاك، وشعرت...

كان الجو باردًا جدًا. بعد لحظة، قال مايكل: "يبدو أن الجو أصبح باردًا هنا. سنتوقف مبكرًا ونتناول القهوة." ربما كان الأمر مصادفة، لولا الوميض والضحكة الخافتة اللتين جعلتاني متأكدًا من أنها تلاعبت بالأمر بطريقة ما.

من المواقف الطريفة الأخرى عندما أحضرتُ لها زهرة هدرانجيا كبيرة في أصيص، وجدتُها جميلة. وضعتُها قرب كرسيها. بعد ساعة، دهشتُ لرؤيتها وقد ذبلت تمامًا كما لو كانت ميتة تمامًا، مع أنها صمدت في رحلتي الطويلة في سيارتي دون أن تُصاب بأذى. عندما ذكرتُها، نظرت إليها وقالت بحزن: "أكره زهور الهدرانج". وبينما كنتُ أعتذر لها عن إحضار هدية غير مقبولة، حدقت بها طويلًا، ثم تابعت حديثها. بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، دهشتُ تمامًا لرؤيتها وقد انتعشت، ورفعت بتلاتها بشكل واضح تقريبًا، كما لو أنها دُفعت للعيش في النهاية، بدلًا من جرح مشاعري.

أشار أحد مراسليّ، جون جاكوبس، إلى أن "البراعة" المتضمنة هي سمة يُطلق عليها "الوسطية". وهي حالة تجمع بين الاسترخاء ودرجة معينة من العزم المتعمد. يصف كيف اندهش في طفولته لرؤية شقيقه الأصغر يفتح قفلًا عالي الجودة بمشبك ورق. "سألته كيف فعل ذلك، فأجاب: "إنه سهل"، وكرر ذلك من أجلي. بعد أن أعربتُ أخيرًا عن دهشتي الشديدة، كان من الغريب أنه لم يعد قادرًا على فتح القفل. أعتقد أنه لم يُدرك أن الناس لا يُفترض أن يكونوا قادرين على فعل مثل هذه الأشياء. بعد أن أعربتُ عن دهشتي، نجحتُ في غرس فكرة استحالة فعل مثل هذه الأشياء في ذهنه."

ووصف جاكوبس حادثة أخرى وقعت عندما كان شقيقه في الخامسة من عمره.

كنا ننظف حظيرة الذرة، و... تحررت بعض الفئران والجرذان أثناء ذلك. كنت أقف بجانب أخي عندما ركض جرذ على بُعد حوالي خمسة أو عشرة أقدام. كان أخي يتظاهر بأنه هندي، وانغمس تمامًا في التمثيل الخيالي. عندما رأى الجرذ، رمى عليه سكينه الثقيلة، والمثير للدهشة أنها اخترقت الحيوان وقتلته. في الظروف العادية، لكانت تلك السكين قد ارتدت عن بالون، فما بالك بقتل حيوان. أعتقد أن أخي، ببراءة طفولته، ساهم في تجسيد حقيقة أخرى - حقيقة كونه صيادًا هنديًا ماهرًا.

تُذكرنا هذه القصة على الفور بشفاء الدكتور ألبرت ماسون "المعجز" للصبي المصاب بمرض جلد السمك بالتنويم المغناطيسي (ص 81). لم يكن ماسون يعلم أن جلد السمك...

كان المرض عضالاً، وكانت النتيجة أنه شفى منه: بمجرد أن علم أنه عضال، بدأ يفشل. وكل هذا بدوره يشير إلى أن القوى "السحرية" قد لا تكون أكثر من القوى التي يمكننا ممارستها بشكل طبيعي عندما نكون في حالة استرخاء وثقة. لاحظ كل من شارك بنشاط في الرياضة الظاهرة نفسها: هناك حالات معينة عندما "يسير كل شيء على ما يرام" وعندما تسجل الركلة الأقل احتمالاً هدفًا. لقد لاحظت الشيء نفسه أحيانًا عند لعب السهام: أنا عادةً لاعب غير مبالٍ، ولكن في بعض المناسبات النادرة بدأت ألعب بدقة أذهلتني. في مثل هذه المناسبات، لاحظت أنني وصلت إلى درجة عالية من التوتر الداخلي مقترنة باسترخاء عميق: والنتيجة هي "الوسطية" لجون جاكوبس.

نظرًا لأن استخدام هذه القوى ينطوي على الاسترخاء، فيبدو أن الخطوة الأولى نحو تعلم استخدامها هي تعلم الاسترخاء - لذلك، على سبيل المثال، يجب تعزيزها بالتأمل التجاوزي. تروي جويس كولين سميث عددًا من القصص عن المهاريشي التي تشير إلى أن هذا هو الحال. عندما كان يعقد محكمة في فندق أكسفورد، اشتكت سيدة عجوز أرستقراطية في نفس الطابق إلى الإدارة من الضوضاء، وسُئل المهاريشي عما إذا كان يمانع في الانتقال إلى طابق آخر. تم إيفاد جويس كولين سميث لتوصيل الرسالة. أجاب المهاريشي أنه لا ينوي الانتقال، ثم أضاف عرضًا، "لا تقلق - لن تزعجنا مرة أخرى". ولدهشة جويس كولين سميث، لم تفعل ذلك. يبدو أن المهاريشي يمكن أن يمارس نفس القوة الغريبة التي تمارسها الليدي أبركرومبي. تشير رواية جويس كولين سميث عن "مبادرة" لها، والاسترخاء العميق الذي شعرت به بعد ذلك مباشرة، إلى أن المهاريشي ربما استخدم نفس القوة لتحقيق تأثير إيجابي على أتباعه.

يبدو جليًا أن هذه القوى تنطوي بطريقة ما على الاستخدام الإيجابي للخيال. كانت هذه ملاحظة لاحظتها قبل بضع سنوات عندما جربت تجربة في التحريك الذهني أوصى بها لي خبير الكشف عن الغازات روبرت ليفتويتش. الأدوات المطلوبة بسيطة للغاية: إبرة، وفلين، وقطعة ورق مربعة طولها بوصتان. تُطوى الورقة أولًا قطريًا من زاوية إلى أخرى مرتين، مما يُشكل علامة X، ثم تُطوى إلى نصفين مرة أخرى، رأسيًا وأفقيًا - فيبدو النمط الناتج أشبه بعلم المملكة المتحدة. يمكن بعد ذلك ضغطها على شكل سهم ورقي بأربع "زعانف". تُغرز الإبرة في الفلين، ويُوضع السهم الورقي فوقه بشكل مظلة، فيبدو المنتج النهائي كدوار صغير. بعد أن لفّ ليفتويتش منديلًا حول وجهه (لمنعه من التنفس عليه)، وضع يديه حول "الدوار" وركز للحظة: بدأ الدوار يدور - أولًا باتجاه عقارب الساعة، ثم عكس اتجاه عقارب الساعة. ولكن عندما جربته، فشلت كل جهود التركيز في تحريكه. حاولت الاحتفاظ به بجانب الآلة الكاتبة الخاصة بي ومحاولة

كنتُ أجعله يتحرك كلما شعرتُ بالاسترخاء. وفي أحد الأيام، بينما كنتُ أحدق به وأتخيله يتحرك، بدأ يتحرك. لم يكن الأمر صدفة؛ اكتشفتُ أنني أستطيع إيقافه، ثم الدوران في الاتجاه الآخر. الحيلة، بالطبع، كانت استخدام الخيال إلى جانب قوة الإرادة.

في كتابي "الأسرار"، وصفتُ تجربةً مشابهةً اقترحها مؤرخ المسرح جون كينيدي ميلينغ. طُلب مني الوقوف في منتصف الغرفة مغمض العينين. وقف أربعة أشخاص حولي، ورفعوا أيديهم إلى مستوى كتفي دون أن يلمسوني، محاولين إجباري على التأرجح في اتجاهٍ مختارٍ مسبقًا. بعد بضع دقائق، بدأت أشعر بالدوار، ثم وجدت نفسي أتأرجح إلى الأمام - في الاتجاه الذي اختاروه - كما لو أن قوةً خفيةً تدفعني. نجحت هذه "الحيلة" مع جميع أفراد المجموعة. ومع ذلك، عندما حاولتُ إظهار الشيء نفسه أمام كاميرات التلفزيون في الساعة الحادية عشرة صباحًا، فشلت فشلًا ذريعًا. في تلك الساعة وفي ذلك المكان، لم نكن في مزاجٍ مناسبٍ للتأرجح بين أمرين.

إذا كانت هذه القدرات سهلة الإثبات، فلماذا لا نهتم بتطويرها؟ يبدو أن الجواب هو أنها غير ذات صلة. فالأفعى تحتاج إلى قوتها لتنويم أرنب مغناطيسيًا. ولكن ما الفائدة الدنيوية من جعل الغرباء يغمزون لك؟ يبدو أن قصة مايرز عن الرجل الذي حاول إغواء فتاة عن طريق "التخاطر في الأحلام" تؤكد هذه النقطة: لقد بذل الرجل جهدًا هائلاً، ولكن دون جدوى. لكن في الواقع، هذه الاعتراضات هي في الواقع مثال على ميلنا البشري إلى الكسل والخمول. إذا وُجدت هذه القدرات، فهي بالغة الأهمية وتستحق البحث والفهم: فآثارها قد تكون بالغة الأهمية كآثار انشطار الذرة.

يبدو أن التنوع المُحيّر للأدلة المُقدّمة في هذا الفصل يُشير جميعها إلى نفس الاتجاه: الإنسان ليس مجرد جسد ماديّ يُصادف أنه "حيّ". الصورة الأكثر تمثيلاً هي أن الإنسان كيانٌ مُسيطر - لنسمّه عقلاً أو روحاً - وظيفته الأساسية هي التحكم في الجسد المادي والعواطف. يبدو أن هذا بدوره يُعادل تأكيداً على أن العقل مُستقلّ بطريقة ما عن الجسد، وبالتالي يُمكن توقع بقائه على قيد الحياة بعد الموت الجسدي. ولكن عند هذه النقطة، يُطرح اعتراض أساسي. عندما أنام، "أختفي" ولا أملك أي ذكريات حتى أبدأ باستعادة وعيي. بعبارة أخرى، عندما ينام الجسد، أنام. يبدو أن هذا يُشير إلى أن "أنا" جسدي.

ما يبدو محيرًا بنفس القدر هو أنه في أغلب حالات "أشباح الأحياء"، لا يملك "المُسلِّط" أدنى فكرة عما إذا كان قد نجح أم لا. لم يكن لدى س.هـ. بيرد أدنى فكرة عما إذا كان قد "ظهر" للآنسة فيريتي وأختها، ومع ذلك داعب "شبحه" شعر الأخت وأمسك بيدها. أما ييتس، فقد "ظهر" لـ

صديقه الطالب، ثم عاد ليظهر له في منتصف الليل وأعطاه رسالة، بينما كان نائمًا غافلًا في فراشه. نجح هيرويرد كارينغتون في "الظهور" لصديقته، ولكنه اضطر لسؤالها إن كانت التجربة ناجحة.

ومن الغرابة أيضًا حكايةٌ في كتاب "رحلات خارج الجسد" لروبرت مونرو، وصف فيها "إسقاطه" نفسه على دراسة المحققة في الخوارق أندريا بوهاريش، التي كان يتراسل معها. تحدث إلى بوهاريش، وقال إنه ردّ عليه واعتذر عن إهماله مشروعهما. لاحقًا، اكتشف مونرو أن ذكرياته عن دراسة بوهاريش كانت دقيقة، إلا أن بوهاريش لم يتذكر التحدث إليه. هذا يعني إما أن "الزيارة" كانت في الأساس حلمًا، أو أن "الجسد النجمي" لمونرو كان قادرًا على التواصل مباشرةً مع "الجسد النجمي" لبوهاريش دون أن يكون بوهاريش واعيًا بذلك.

تشير حالات أخرى إلى أن الوعي البشري قد يكون "منقسمًا" بطريقة ما. استشهد د. سكوت روغو بحالة امرأة كانت مستلقية على سريرها، مستيقظة تمامًا، عندما رأت "لفافة ضباب" قرب السقف.

شعرتُ بوجوده وحركته كما لو كنتُ، هيلين، الضباب، وجاءتني المعرفة مع الكلمات: "أوه، أنا فوق السقف". لم أكن نائمة. لم أكن أحلم. كنتُ أراها هناك، وإن لم تكن بعينيّ الجسديتين... لم يكن هناك خوف، ولا تساؤل - مجرد قبول هادئ لحقيقة أنني خارج جسدي، أحوم فوقه. كان هناك شعورٌ بالدفع نحو السقف، بخفة، وبأنه يوقفني، كما لو أن بالونًا لعبةً قد هرب سيتوقف... انتهى الأمر عندما أدركتُ عودتي إلى جسدي.*

يبدو أن مركز وعي هذه المرأة بقي في جسدها، مع أنها كانت تُدرك أيضًا أن "الضباب" هو نفسها. تجدر الإشارة أيضًا إلى أنها رأت نفسها "بعين العقل" - كما فعل غوته - وهو دليل آخر يدعم وجهة نظر فلاماريون القائلة بأن العقل هو الذي يُدرك "الظواهر الخارقة للطبيعة"، وليس الحواس المادية.

في هذه الحالة، قد نفترض أن صديق ييتس كان يراه "بعيون العقل"، وأن عقله عندما تحدث إلى ييتس كان يتواصل مباشرة مع مستوى اللاوعي في عقل ييتس. أو كما يقول هدسون، مع عقل ييتس الذاتي وليس الموضوعي.

بدأ ضوء النهار يلوح في الأفق. في فصل سابق، حددنا مبدئيًا "العقلين" عند هدسون بنصفي الدماغ المنقسمين.

علم وظائف الأعضاء. (يجب التأكيد على أن التماهي بحد ذاته ليس مهمًا: ما يهم هو الحقيقة الثابتة بأن لدينا "ذاتين"، وليس ما إذا كانتا تقعان حقًا في نصفي الكرة المخية الأيمن والأيسر). كما خلصنا إلى أن جميع البشر، بمعنى ما، "مرضى انقسام الدماغ"، حيث تكون الأنا العقلانية منفصلة عن اللاأنا الحدسية. على هذا المستوى على الأقل، من الحقائق الثابتة أن البشر يختبرون "وعيًا منقسمًا". الوعي العقلاني ضيق، وكما ندرك في حالات الاسترخاء العميق، فهو مجرد جزء من وعينا الكلي المحتمل. لاحظ بيير جانيت أن وعي مرضى الهستيريا يزداد ضيقًا حتى أنهم في بعض الحالات يعانون بالفعل من "رؤية النفق". واكتشف أيضًا أنه يستطيع الجلوس بجانب أحد هؤلاء المرضى الهستيريين والتحدث مع كلا جانبي عقل المريض. إذا قال بصوت منخفض: "ارفع يدك اليسرى"، فإن المريض سيطيع. إذا قال بصوته الطبيعي: "لماذا ترفع يدك اليسرى؟"، سيرفع المريض رأسه مندهشًا. هذه الظاهرة ليست أكثر غموضًا من حقيقة أننا قد نؤذي أنفسنا عندما نكون في عجلة من أمرنا دون أن نلاحظ ذلك إلا لاحقًا. "الوعي المنقسم" مسألة تجربة يومية. وإذا اعتبرنا أن الأنا العقلانية نتاج ملايين السنين من التطور، يمكننا أن نبدأ في فهم سبب فقدانها الاتصال بالذات الغريزية، ولماذا وعينا البشري "العادي" ليس أكثر من رؤية ضيقة الأفق.

كانت رؤية غوته لنظيره وهو يركب لمقابلته مثالاً على انقسام الوعي: إذ يبدو أن "ذاته الأخرى" أرسلت الصورة لتعزيته في بؤسه. ورؤية هيلين لنفسها وهي تطفو قرب السقف كدحرجة من الضباب مثال آخر. ومن أكثر الأمثلة طرافةً السيرة الذاتية لـ"العرافة" الإنجليزية البارزة، روزاليند هيوود. تصف كيف أنها في ليلةٍ بلا نوم استلقت بجانب زوجها وقررت إيقاظه لممارسة الحب معها:

قبل أن أتمكن من تنفيذ هذه الفكرة الأنانية، فعلتُ شيئًا غريبًا للغاية - انقسمتُ إلى نصفين. كان أحدهما يرتدي قميص نومه الوردي، ويستمر في التقلب بأنانية على الوسائد المطرزة، بينما كان الآخر، يرتدي ثوبًا طويلًا أبيض اللون بقلنسوة، يقف الآن، هادئًا، ثابتًا، ونظرًا إلى الخارج بنظرة محايدة، عند قدم السرير. بدا هذا "الأبيض" حقيقيًا تمامًا مثل "الوردي"، وكنتُ واعيًا بنفس القدر في كلا المكانين في نفس الوقت [الخط المائل من عندي]. أتذكر نفسي بوضوح كـ"الأبيض" وأنا أنظر إلى أسفل وأراقب الطرف المنحوت من السرير أمامي، وأفكر أيضًا في مدى سخافة "الوردي" وهو يتقلب بتلك الطريقة المتعجرفة على الوسائد. "أنت تتصرف بشكل مشين،"

قال وايت مي لبينك مي بازدراء بارد: "لا تكن أنانيًا هكذا، فأنت تعلم أنه متعب للغاية."

كانت "بينك مي" حيوانًا صغيرًا مُتغطرسًا، مُكوّنًا بالكامل من "شهيات"، ولم تُبالِ إطلاقًا إن كان زوجها التعيس مُتعبًا أم لا. ردّت بغضب: "سأفعل ما يحلو لي، ولن تستطيع إيقافي، أيها المُتزمّت الأبيض المُتديّن!". كان غضبها مُتزايدًا لأنها كانت تعلم جيدًا أن "وايت مي" هي الأقوى، وهي القادرة على إيقافها.

وبعد لحظة أو اثنتين - لم أشعر بأي انتقال - سُجنت أنا البيضاء مرة أخرى مع أنا الوردي في جسد واحد، وهناك عاشا كالزيت والماء منذ ذلك الحين.

يُظهر التفكير للحظة أن هذه التجربة منطقية تمامًا. نتغير جميعًا عبر عدد من مستويات النضج من المهد إلى اللحد. "أنا" الآن لست الشخص الذي كنت عليه في السادسة أو الثانية عشرة أو الثامنة عشرة، ومع ذلك أشعر بمعنى ما أنني أكثر "أنا" الآن مما كنت عليه في الثامنة عشرة. لقد تم التخلص من "الذوات" الماضية: ومع ذلك في السادسة والثانية عشرة والثامنة عشرة كنت مقتنعًا تمامًا بأن الذات التي كنت أدركها هي "أنا الحقيقي". يبدو من المنطقي افتراض أنه حتى في السادسة والخمسين، فإن الذات التي أدركها ليست "أنا الحقيقي". أميل إلى الشعور بأنه إذا تمكنت من العيش حتى سن المائتين مع الحفاظ على الاستخدام الكامل لقدراتي، فقد أتطور إلى شيء أشبه بـ "أنا الحقيقي"، لكن "أنا" الحالية بالتأكيد ليست هي.

يبدو أن ما حدث لروزاليند هيوود، بصفتها وسيطة روحية، هو أنها استطاعت، ولو للحظة، أن تفصل بين "أنا الحاضر" و"أنا الحقيقية". دون الاستفادة من هذه التجربة، يفترض معظمنا أن "أنا الحاضر" هي "أنا الحقيقية". تجدر الإشارة إلى أن "أنا الوردي" لروزاليند هيوود كانت "حيوانًا صغيرًا مُهتمًا بذاته تمامًا، مُكوّنًا بالكامل من الشهوات" - أي من العواطف. إنها تُطابق تقريبًا ما أسميناه في فصل سابق "الجسد العاطفي"، بينما كانت "أنا البيضاء" هي العقل أو الفكر.

هناك تجارب أخرى مشابهة لـ"الانفصال" في أدبيات أبحاث الخوارق. في كتابه "شخصية الإنسان"، يستشهد جي إن إم تيريل بعدد من الحالات، منها حالة جندي في الحرب العالمية الأولى انفصل عن جسده المادي، في حالة من الإجهاد البدني الشديد. ثم شاهد جسده يواصل الحديث مع رفيق له، قال لاحقًا إنه تحدث معه بروح دعابة وفكاهة. ويبدو هذا مثالًا واضحًا على "الذات المزدوجة".

يستشهد تيريل أيضًا بحالة السير أوكلاند جيديس، الموصوفة سابقًا (ص ٢٦٨). وفي هذه الحالة، نواجه دليلًا آخر مثيرًا للاهتمام حول طبيعة الوعي المزدوج. فمع شلل جسده، شعر جيديس بأن "وعيه ينفصل عن وعي آخر، وهو أنا أيضًا". كان أحد الوعيين مرتبطًا بجسده، بينما كان الآخر مرتبطًا بـ...

الأنا. كما لاحظ أن وعيه الجسدي أظهر "علامات على أنه مركب، أي أنه مبني من "وعي" من الرأس والقلب والأحشاء". ثم أصبحت هذه "الوعيات العضوية" المختلفة أكثر فردية مع بدء تفكك وعي الجسد ووجد وعي الأنا نفسه خارج الجسم. أدلى أوسبنسكي بالملاحظة نفسها خلال حالات "التصوف التجريبي" عندما لاحظ أن كل عضو في جسده يبدو أن له وعيه الفردي الخاص به، والذي يمكنه التواصل معه. قد نتذكر أيضًا تعليق جاك سيل عندما بدأت آثار لدغة الثعبان تتلاشى: "عاد الوعي الطبيعي في طبقات" [التشديد من عندي]. كان جسده مشلولًا تمامًا: في الواقع كان "ميتًا". يبدو من المحتمل أن "الطبقات" تتوافق مع "وعيات الأعضاء" المختلفة التي وصفها جيديس وأوسبنسكي.

يبدو إذًا أن هناك أدلة دامغة على "الوعي المنقسم" أو وجود "ذاتَيْن". وهذا يُقوّض إلى حد كبير الاعتراض القائل بأن ذاتي اليومية لا تملك خبرة الاستقلال عن الجسد. إذا كان وعي "الأنا الحقيقية" متداخلًا بشكل وثيق مع مختلف "الوعي" الجسدي والعاطفي، فهذا بالضبط ما نتوقعه. من الصعب عليّ، وأنا أجلس على كرسيي، أن أُدرك أن "الأنا" التي تنظر من عينيّ ليست "الأنا الحقيقية". لكن قليلًا من التأمل يُظهر لي أنني مُخطئ. أشعر بقدر من إجهاد العين، نتيجة ساعات من الكتابة، وبعض التعب الجسدي، وأتطلع إلى اصطحاب كلابي في نزهة في الغابة وقطف التوت الأسود: وعيي الحالي ضيق ومُرهق، وأُدرك أن تعبي يُحوّلني إلى نوع من الروبوت. هذا ليس وعيًا حقيقيًا، و"الأنا" التي أدركها ليست "الأنا" الحقيقية.

من ناحية أخرى، تشير الأدلة المقدمة في هذا الفصل إلى بعض الاستنتاجات الغريبة. نتحدث عن "وعيي" كما لو كان وحدة، ولكن إذا كان جيديس محقًا، فقد يكون في الواقع مجموعة كاملة من "الوعي" تشمل تلك القادمة من الرأس والقلب والأحشاء. وقد يكون "وعيي" قادرًا على التواجد في أكثر من مكان في آن واحد - كما اكتشفت روزاليند هيوود. وماذا عن تلك التجارب الغريبة لـ"النظير" الذي وصفه ييتس وبيرد وكارينغتون؟ كان نظير ييتس يتحدث إلى صديقه الطالب بينما كان ييتس، على بُعد مئات الأميال، غافلًا عما كان يحدث. ولكن ما لم يكن النظير نوعًا من المحتالين النفسيين، فيجب أن نفترض أن جزءًا من عقل ييتس كان يعلم ما كان يحدث، وأن "ييتس العادي" فقط، مثل مريض جانيت الهستيري، هو من كان غافلًا.

في قصيدته الأخيرة "تحت قيادة بن بولبن"، كتب ييتس عن كيف أن "عندما يقاتل رجل مجنونًا ..."

شيء يسقط من عيون عمياء طويلة، يكمل عقله الجزئي...

جميعنا نعرف ذلك الإحساس - "شعور العطلة" - عندما يبدو أن "الوعي الطبيعي" يتسع إلى شيء أوسع وأغنى بكثير، ويقوض إدراكنا المضطرب أنه يجب علينا أن نكون قادرين على استيعابه نهائيًا، وألا نسمح لأنفسنا مرة أخرى بالوقوع في فخ الوعي البائس للحياة اليومية. من الصعب أن نعرف بالضبط ما يمكننا فعله حيال ذلك - إلا المثابرة ومواصلة المحاولة. لكن هذه الأفكار على الأقل تجعلنا ندرك أن الوعي اليومي ليس "وعيًا حقيقيًا". قال عازف الجاز ميز ميزرو عن أول مرة دخن فيها الأفيون: "أضاءت الأضواء في جميع أنحاء جسدي حيث لم أكن أعلم حتى أن لديّ مآخذ". ويحدث الشيء نفسه للوعي في حالات التفاؤل والكثافة، عندما تضاء "الأضواء" في أماكن بعيدة لم نكن حتى نشك في وجودها. لو كان ييتس في هذه الحالة عندما "ظهر" لزميله الطالب، لكان على دراية بالمحادثة. وهذا بدوره يشير إلى أن الجزء منا الذي يمكنه الوصول إلى "عالم المعلومات" في علم النفس أو الاستبصار هو جانب منا مخفي عن الوعي اليومي.

ينبغي أن يكون من الممكن رؤية أن هذه النظرية تغطي كل موضوع تمت مناقشته حتى الآن في هذا الكتاب: التجربة الصوفية، الكلية X، القياس النفسي، "الانزلاقات الزمنية"، الكشف عن الأشياء، التنبؤات (وهو أصعب موضوع تم النظر فيه)، التزامن، الإسقاط النجمي، الشبيهون، وما إلى ذلك. في الواقع، يبدو أنها النظرية الشاملة للظواهر الخارقة للطبيعة التي كانت غائبة بشكل واضح لدى الباحثين السابقين مثل مايرز وفلاماريون (على الرغم من أن مايرز قام بمحاولة محترمة للغاية في الشخصية البشرية وبقائها بعد الموت الجسدي). كانت هذه وجهة نظري الخاصة، كما رأيتها تبدأ في الظهور في كتب مثل الألغاز وقلعة فرانكشتاين والدخول إلى العوالم الداخلية: أن الإجابة البسيطة والمباشرة لجميع ألغاز الظواهر الخارقة للطبيعة كانت "القوة الخفية" بداخلنا جميعًا. لقد حولتنا الحضارة في الواقع إلى "مرضى هستيريين" لا تدرك يدهم اليسرى ما تفعله اليمنى وأدمغتهم منقسمة بالتساوي. إن الاعتراف بأننا نمتلك هذه القوى بالفعل هو الخطوة الأولى نحو تطويرها.

مع بعض التحفظات، ما زلت أعتقد أن هذا صحيح. لكن هذه التحفظات - كما سنرى - تبيّن أنها أهم بكثير مما توقعت في البداية.

*روبرت كراكنيل، أدلة على المجهول.
*وقد تم وصف كلتا الحالتين بمزيد من التفصيل في كتاب "الأسرار"، ص 486-488.
*مقتبس من كتاب العقل غير المدروس: دليل الظواهر العقلية غير العادية الذي جمعه ويليام د. كورليس، ص 571.

الجزء الثاني
قوى الخير والشر

1
البحث عن الأدلة

لقد تمكّنتُ حتى الآن من عرض هذه المادة بأسلوب موضوعي ومنطقي إلى حدٍّ ما. والآن، أصبح من الضروريّ أن أتحدث مجددًا عن مشاركتي في "البحث عن الأدلة".

في الفصل الافتتاحي، شرحتُ كيف أن اهتمامي بعلم "الغيب" كان تطورًا طبيعيًا لاهتمامي بالتجربة الصوفية. وكان هذا الاهتمام بالتجربة الصوفية بدوره تطورًا لاهتمامي بتلك الحالات الغريبة من السعادة والتأكيد التي أسماها تشيسترتون "بشارة سخيفة". في هذه الحالة، يتضح أمرٌ جوهري: أن وعينا العادي مبتلى ببعض الأخطاء أو المغالطات التي تجعل الحياة تبدو مملة وعادية. قال الشيطان سكروتاب لابن أخيه ورموود: "بفضل العمليات التي بدأناها في البشر منذ قرون، يجدون من المستحيل تقريبًا تصديق ما هو غير مألوف بينما المألوف أمام أعينهم. استمروا في إلحاحه على بساطة الأمور..".

إن هذا العجز عن تصديق المجهول بينما المألوف بين أيدينا هو، بكل بساطة، شكل من أشكال التنويم المغناطيسي. يمرّ "الألفة" بلحظات غامضة أمام أعيننا: فتُصبح عقولنا فارغة، ويصبح العالم فجأة "عاديًا" ومملًا نوعًا ما. ويكون رد فعلنا على العادي هو الغرق في حالة من السلبية: إذ يبدو بديهيًا أن الأمر لا يستحق بذل أي جهد. يقضي معظم الناس حياتهم في حالة "تنويم مغناطيسي"، ويموتون وهم يتساءلون عن سبب ولادتهم أصلًا.

وهذا يُفسر سعيَ رومانسيي القرن التاسع عشر المُستميت للهروب من "الحياة العادية"، حتى لو أدى ذلك إلى إدمان الكحول أو المخدرات أو الانتحار. كتب رامبو: "أقول إنه يجب على المرء أن يكون صاحب رؤية - أن يجعل نفسه صاحب رؤية". وتحدث عن "اضطراب مُبرر للحواس": "لقد اعتدتُ على الهلوسة البسيطة: رأيتُ مسجدًا مكان مصنع، وملائكة تتدرب على الطبول، وعربات على طرق السماء، وقاعة استقبال في قاع بحيرة...".

لكن الهدف الحقيقي لجميع الرومانسيين كان بلوغ تلك اللحظات التي يبدو فيها الوعي وكأنه يتنفس الصعداء ويتسع إلى شعور رائع بثراء الأشياء الخالص: عندما يدرك - كما يقول ذئب السهوب لهيسه - "موزارت والنجوم". بهذا المعنى، نحن جميعًا

الرومانسيون: الدافع الرومانسي من أهم الدوافع الأساسية للبشرية. نخطئ حين نظن أننا نستمتع بالعطلات لأنها تسمح لنا بالتعافي وتجديد طاقاتنا. هذا غير صحيح. نستمتع بالعطلات لأنها تملؤنا بالشجاعة. تُذكرنا بأن العالم مكان أغنى وأكثر إثارة للاهتمام مما كنا نعتقد، وأن المخاطر التي نخوضها كبيرة بشكل لا يُصدق. يميل الوعي العادي إلى الاكتئاب، وهو اسم آخر للإحباط. بتذكيرنا من جديد بتنوع العالم الهائل، تملؤنا العطلات بشجاعة وعزيمة جديدتين. كلما شعرنا بهذا الشعور، بدا لنا فجأة أنه من السهل للغاية استخدامه لتغيير حياتنا. يبدو الأمر واضحًا جدًا لدرجة يصعب معها تحديد أين تكمن المشكلة. كل ما علينا فعله هو تذكر هذه الحقيقة، ورفض الانجراف وراء المألوف الذي نعرف الآن أنه خدعة. ومع ذلك، فإن تطبيق هذا الدرس البسيط صعب للغاية. نقرة واحدة من أصابع المنوم المغناطيسي ونعود إلى حالة من السلبية المفرطة.

كانت هذه هي المشكلة التي شكّلت جوهر كتابي الأول "الغريب". فالناس الذين لمحوا هذه الحرية لم يعودوا يكتفون بقبول "الأمور العادية" كأمرٍ حتمي. إنهم يكافحون ويقلقون ويشعرون بالضيق، ويبدون غير راضين عن إنجازاتهم على الدوام. ويجد أصدقاؤهم وأقاربهم صعوبةً في فهم ما يزعجهم؛ ويبدون مصممين على جعل أنفسهم تعساء وغير مرتاحين. وقد أشرتُ إلى أنه في القرون السابقة، كان يُنظر إلى هؤلاء الناس على أنهم "غريبون" متدينون. وتصف اعترافات القديس أوغسطين ومذكرات جورج فوكس نفس الاستياء العميق من الذات الذي نجده في وثائق "الغريب" الأحدث مثل مذكرات أميل وروايات دوستويفسكي. كما بدا واضحًا أنه لو أن بعض "الغريبين" الرومانسيين أمضوا وقتًا أقل في الانغماس في الشفقة على الذات ووقتًا أطول في محاولة تحقيق نوع من الانضباط الذاتي، لكانت فرصهم في البقاء أفضل.

بحلول الوقت الذي كتبتُ فيه كتاب "الدين والمتمرد"، كنتُ قد اكتشفتُ أعمال أرنولد توينبي، وقد عززت قناعتي. أطلق توينبي على "الخارجين عن المألوف" اسم "الأقلية المبدعة"، وتحدث عن آلية "الانسحاب والعودة". اعتاد "الخارج" المتدين الانسحاب إلى البرية ليخرج أخيرًا بـ"رسالته من الله". لم يقتصر تأثير هؤلاء الرجال على مجتمعهم فحسب، بل غالبًا ما غيّروا مساره بالكامل. إن التآكل التدريجي للإيمان الديني - بسبب صعود العلم - يعني أن "الخارجين" المعاصرين أصبحوا أكثر من أي وقت مضى فريسة "للعادية" وما يترتب عليها من انعدام الثقة بالنفس. كان توينبي، المتدين بشدة، يأمل في نوع من النهضة العظيمة للمسيحية؛ مع أنه كان واقعيًا بما يكفي ليدرك أن ذلك غير محتمل. وخلص إلى أن كل ما يمكنه فعله هو "التشبث والانتظار".

بالنسبة لي، بدا لي من الواضح أن الإحياء الديني ليس هو الحل.

للأفضل أو للأسوأ (وربما للأفضل) تجاوز الناس المسيحية، وتشير حركة التاريخ إلى أن الأمر نفسه سيحدث للأديان الرئيسية الأخرى. لكن هذا ليس مدعاة للتشاؤم. لطالما كان جوهر الدين هو الشعور بـ"بشارة عبثية"، وليس عقائد اللاهوتيين، لذا يبقى جوهر الدين سليمًا. تكمن المشكلة في كيفية استيعاب هذا الجوهر. علاوة على ذلك، لم يكن تراجع الدين بسبب مؤامرة شيطانية، بل بسبب تعلم البشر التفكير بأنفسهم. من البديهي أن محاولة إعادة عقارب الساعة إلى الوراء لن تكون حلاً. في هذه الحالة، البديل الواضح الوحيد هو المضي قدمًا في الاتجاه نفسه. علينا أن نتعلم التفكير أكثر، لا أقل.

جاء الدليل الرئيسي التالي عام ١٩٥٩ عندما تلقيتُ رسالة من عالم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو. شعر ماسلو أن فرويد وأتباعه "استخفّوا بالطبيعة البشرية"، وقد قادته تحقيقاته الخاصة إلى استنتاج وجود "حدود أعلى للطبيعة البشرية". كان مفتاحه الرئيسي هو مفهوم "تجربة الذروة"، والذي قصد به بالضبط ما قصده تشيسترتون بالشعور بـ"أخبار سارة سخيفة". أصرّ على أن تجارب الذروة ليست "غامضة"؛ بل هي ببساطة نوع من فقاعات من الطاقة الحيوية الخالصة والتفاؤل وإدراك أن العالم ليس "عاديًا" بل مثيرًا وغريبًا. أعجبتُ كثيرًا بمثاله - المذكور سابقًا - للجندي البحري الذي عاد من سنوات قضاها في المحيط الهادئ، والذي مرّ بتجربة ذروة عندما رأى ممرضة في القاعدة. قال إنه أدرك فجأةً وبقوة هائلة أن النساء يختلفن عن الرجال. وقال إن الرجال يعتبرون النساء أمراً مسلماً به، باعتبارهن كائنات بشرية مثلهم، في حين أن الحقيقة هي أنهم مختلفون إلى حد كبير.

أشار ماسلو إلى ملاحظة مهمة مفادها أن جميع الأصحاء يمرون بتجارب ذروة بوتيرة معتدلة. وقد عزز هذا لديّ فكرة أن المشكلة الرئيسية لدى "الغرباء" تكمن في ميلهم إلى التهرب من تجاربهم الخاصة وقبولها بفتور. لو استطعنا استيعاب درس "تجربة العطلة"، لواصلنا ما علينا فعله بعزيمة متفائلة، مما سيعزز درس "تجربة العطلة" ويجعل تطبيقها أسهل. وقد أشار ماسلو إلى ملاحظة مهمة أكدت ذلك: فبينما كان طلابه يتحدثون فيما بينهم عن تجارب الذروة، بدأوا يمرون بالمزيد منها. وقد لاحظتُ الدرس: إن أفضل طريقة لاستحضار تجارب الذروة هي تذكر تجارب الذروة السابقة ومحاولة إعادة خلق جوهرها، أي الشعور بالبهجة والشجاعة.

ومن الواضح أن ييتس كان يتحدث عن تجربة ذروة عندما كتب:

شيء يسقط من عيون عمياء منذ زمن طويل، يكمل
عقله الجزئي،
في لحظة يقف مرتاحًا، يضحك بصوت عالٍ،
ويشعر قلبه بالسلام...

إن تجربة الذروة هي في الأساس تجربة "إكمال العقل الجزئي".

وصفتُ في الفصل الافتتاحي كيف ازداد اقتناعي بحقيقة "ما وراء الطبيعة" مع بحثي في علم الغيب. أتحدى أي شخص أن يدرس الموضوع بجدية دون أن يصل إلى قناعة تامة. فالشك ليس إلا اسمًا آخر لنوع من التعصب الجامد. ومع تأليفي للكتاب، اتضح لي تمامًا أن "الغيبيات" هي ببساطة اعتراف بـ"القوى الخفية" للإنسان - أي اعتراف بأن الوعي اليومي ليس سوى "عقل جزئي". في الوقت نفسه، أدركتُ ما كان يُثير اشمئزازي دائمًا في الروحانية و"الغيبيات". يعاملها "المؤمنون" كدين، كشيء يوجهون إليه إيمانهم - وهو عمومًا اسم آخر للسذاجة. موقفهم سلبي في جوهره. والنتيجة هي أن سذاجتهم تتعزز، ويصبحون أبعد من أي وقت مضى عن التفكير بأنفسهم. ما جذبني في "العلوم الخفية" هو نفس العنصر الصحي الذي يكمن في قلب الدين - ذلك الهوس بغموض الوجود البشري الذي خلق القديسين والصوفيين بدلاً من "المؤمنين الحقيقيين".

جاء الدليل الرئيسي التالي من ذلك المسار الغريب في علم النفس، دراسة تعدد الشخصيات. لقد أذهلني هذا منذ أن صادفت قضية كريستين بوشامب في كتاب شعبي لدينجوال. في عام ١٨٩٨، بدأ الدكتور مورتون برينس من بوسطن علاج فتاة تُدعى كلارا فاولر من الإرهاق العصبي. في أحد الأيام قرر تنويمها مغناطيسيًا، ولدهشته، ظهرت شخصية مختلفة تمامًا تحت التنويم المغناطيسي، طفلة ذكية ومشاكسة أطلقت على نفسها اسم سالي. أصرت على أنها ليست كلارا (أو كريستين، كما فضل برينس تسميتها في كتابه عن القضية) على الرغم من أنهما تشتركان في نفس الجسم. كانت سالي قوية وصحية، ووجدت صعوبة في فهم سبب ضعف كلارا. في النهاية ظهرت شخصية ثالثة تحت التنويم المغناطيسي، فتاة متماسكة ومعلمة أطلق عليها برينس اسم 4-B. اتضح تدريجيًا أن 4-B ظهرت لأول مرة عندما تعرضت كلارا لصدمة شديدة.

كانت ممرضة آنذاك، وجاء صديق والدها، ويليام جونز، لزيارتها في المستشفى. وجد سلمًا في الخارج، فوضعه على نافذة كلارا وصعد. أصابت رؤية وجه جونز من نافذة الطابق الأول كلارا بصدمة شديدة، فدخلت في حالة تدهور عصبي، وفجأة ظهر بي-4 وسيطر عليها.

كانت سالي وبي-4 تكرهان بعضهما البعض، ولم تكن كلارا تشك في وجود أي منهما. للأسف، أطلق الأمير جنيًا من القمقم عندما "حرر" سالي. ولأنها أقوى من كلارا، استطاعت سالي دفعها خارج الجسد.
- إن صح التعبير - وتفعل ما يحلو لها. كانت تحبّ تقليد كلارا الخجولة، كأن تمشي في الريف مسافة طويلة ثم تترك الجثة وتترك كلارا المسكينة لتعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام. في إحدى المرات، سافرت سالي إلى مدينة أخرى وحصلت على وظيفة نادلة. خلال هذه المقالب، كانت كلارا تُصاب بفقدان ذاكرة تام، وتستيقظ لتجد نفسها مضطرة للتعامل مع موقف محرج.

حقق الأمير نجاحًا ما بدمج كلارا وبي-4 أخيرًا تحت التنويم المغناطيسي. ومع ذلك، كما اعترف بعد سنوات، لم ينجح تمامًا في التخلص من سالي.

تبدو حالة كهذه وكأنها تتحدى كل المنطق السليم: بل إنها بالتأكيد تتحدى كل مفاهيمنا المريحة والمنطقية حول معنى أن تكون "فردًا". ليس من الصعب بالطبع فهم الخطوط العريضة المبهمة لمرض كلارا. لطالما كانت شخصًا خجولًا. عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، توفيت والدتها ميتة بشعة، وكان والدها، مدمن الكحول غير المسؤول، هو المسؤول الأكبر عن ذلك. تجربة كهذه كافية لجعل أي شخص يقرر عدم مواجهة الحياة. من الممكن أن تكون كلارا قد غادرت المنزل لأن والدها كان مهتمًا بها جنسيًا: لم تكن تتحدث عن ذلك قط، لكننا نعلم أن غالبية حالات تعدد الشخصية المعاصرة ناجمة عن اعتداء جنسي في مرحلة الطفولة. (خلصت دراسة حديثة أجراها معهد العلوم العقلية في كاليفورنيا، بإشراف بريندان أوريغان، إلى أن جميع هذه الحالات ناجمة عن اعتداء جنسي في مرحلة الطفولة).

وضعت كلارا فاولر كل عاطفتها وثقتها في صديق العائلة ويليام جونز، الذي بدا وكأنه كل ما لم يكن عليه والدها. ولكن يبدو أيضًا أنه قد خطط لها، وعندما ظهر من نافذتها - وهو أسوأ حالًا بسبب الخمر - وأدلى لاحقًا بتعليقات موحية، انهارت شجاعتها تمامًا وظهر B-4 فجأة وسيطر. ولكن لماذا يجب أن يتولى "شخص" آخر زمام الأمور؟ معظم الناس الذين يسمحون لأنفسهم بالهزيمة بسبب تجربة مؤلمة ما يعانون ببساطة من انهيار عصبي. هل تكمن الإجابة في ملاحظة أننا نبدو وكأننا نصبح أشخاصًا مختلفين في مراحل مختلفة من حياتنا؟ هل من الممكن أن تكون كلارا هي سالي عندما كانت في السادسة من عمرها، لكنها أصبحت بعد ذلك متوترة وخجولة بحيث ظلت سالي مكبوتة؟

تُوضّح عشرات الحالات الأخرى المُسجّلة لاضطراب الشخصية المتعددة أنه لا توجد إجابة بسيطة. يبدو أن اللغز يتحدى جميع معاييرنا الطبيعية للفردية. ولعلّ أشهر هذه الحالات هي تلك التي سجّلها ثيجبين وكليكلي في كتابهما "وجوه حواء الثلاثة". إيف وايت (اسمها الحقيقي

كانت كريستين سايزمور) امرأة شابة متزوجة باهتة جاءت لرؤية الأطباء لأنها كانت تعاني من الصداع وفقدان الوعي. عادت في أحد الأيام وأخبرتهم أن زوجها كان غاضبًا لأنها كانت في جولة تسوق باهظة الثمن واشترت الكثير من الملابس المثيرة، ومع ذلك لم تكن لديها أي ذكرى على الإطلاق عن فعل ذلك. وفي يوم من الأيام بينما كانت تتحدث إلى الدكتور ثيجبين، ظهرت إيف أخرى: امرأة شابة راقية وواثقة من نفسها ووقحة تدخن وتشرب وتحب الرجال ذوي الرجولة. (كانت إيف الأصلية امرأة شابة متزمتة إلى حد ما ومسيحية ولدت من جديد.) يبدو أن إيف بلاك ظهرت لأول مرة عندما كانت كريستين في السادسة من عمرها: بعد فقدان الوعي، أفاقت ووجدت نفسها تتعرض للضرب لمهاجمتها شقيقتيها التوأم أثناء استلقائهما في سريرهما. لقد كانت "ذاتها الأخرى" هي التي فعلت ذلك.

تتشابه حالة كريستين سايزمور مع حالة كلارا فاولر في كثير من جوانبها، وصولاً إلى ظهور شخصية ثالثة، جين، أكثر عقلانية وتكاملاً من الشخصيتين الأخريين. حتى أن نتيجة الحالة كانت متشابهة. ظنّ ثيجبين أنه عالج كريستين بدمج الشخصيات الثلاث، لكن في كتابها اللاحق "حواء"، كشفت كريستين سايزمور أن المشكلة عادت بشكل أكثر حدة، وظهرت مجموعة كاملة من الشخصيات الجديدة - حوالي ثلاثين شخصية.

من أغرب سمات هذه القضية اختلاف خصائص إيفين الجسدية. كانت إيف بلاك تعاني من حساسية تجاه النايلون، ما أدى إلى ظهور طفح جلدي عليها: وبمجرد تولي إيف وايت المسؤولية، اختفى الطفح. وعندما كانت إحدى الشخصيتين تحت التخدير، تولت أخرى المسؤولية، فاستيقظت هي على الفور.

من السمات الغريبة الأخرى في هذه القضية أن إيف وايت كانت "متنبئة". عندما كانت طفلة، مرضت أختها، ويبدو أنها كانت مصابة بالتهاب رئوي. رأت كريستين في المنام يسوع، الذي أخبرها أن أختها مصابة بالدفتيريا، وليس بالتهاب رئوي. أخبرت والديها في اليوم التالي، فأرسلا في طلب الطبيب، الذي أكد التشخيص وحصل على الدواء اللازم من على بُعد خمسين ميلاً. كان من شأن تأخير بضع ساعات أن يُودي بحياة الطفلة. عندما كبرت، رأت كريستين في رؤيا أن زوجها يُصعق بالكهرباء في العمل، فأقنعته بالبقاء في المنزل. صعق الرجل الذي تولى عمله بالكهرباء. عندما كان من المقرر تطعيم ابنتها ضد شلل الأطفال، دفعها شعورٌ ما إلى محاولة منع ذلك. لكن تم رفض طلبها، وكادت ابنتها أن تموت بسبب جرعة لقاح فاسدة. في رحلة بالسيارة عبر الجبال، توسلت إلى زوجها أن يوقف السيارة ويفحص العجلات: كانت إحدى عجلات المقطورة الخلفية مرتخية لدرجة أنها على وشك السقوط في أي لحظة.

السؤال الواضح الذي تطرحه هذه الحالة هو ما إذا كانت ظاهرة "ازدواجية الشخصية" مرتبطة بظاهرة "الدوبلغنجر" التي ناقشناها في الفصل السابق. مثال يوضح هذه النقطة. في حالة شهيرة، حلمت السيدة بتلر، التي كانت تعيش في أيرلندا، مرارًا وتكرارًا بـ "أجمل منزل رأيته في حياتي".

"لم أرَ مثله قط". قررت هي وزوجها الانتقال إلى إنجلترا وتفقدا العديد من العقارات في أنحاء لندن. في أحد الأيام، ذهبا لمعاينة منزل في هامبشاير، وتعرفت عليه السيدة بتلر على أنه منزل أحلامها. كانت على دراية به لدرجة أنها استطاعت أن تأخذ مدبرة المنزل في جولة حوله وتصف كل غرفة قبل دخولهما. كان سعر المنزل منخفضًا بشكل لا يُصدق، وعندما ذهبا لمقابلة الوكيل، أخبرهما بالسبب. "المنزل مسكون". لكنه أضاف: "لا داعي للقلق، أنتِ الشبح". لقد تعرف عليها من وصف المالك الدقيق. عثر روديارد كبلينج على حالة مماثلة، لمنزل "مسكون" من قِبل ساكن سابق كان يفكر فيه بهوس، وجسده في قصة بعنوان "جراح المنزل". ولكن إذا كان بإمكان الشبيه الظهور في مكان آخر دون أن يدرك مالكه، ألا يُمكنه أيضًا أن "يسيطر" على الجسد إذا كان المالك في حالة من الاكتئاب العصبي وانخفاض الحيوية؟ بدت لي تكهنات كهذه خطوة مهمة نحو إرساء نظرية "نيوتنية" شاملة عن "الغيبيات". ولكن ما إن بدأت أشعر بأنني أحرز بعض التقدم حتى عثرت على قضية دوريس فيشر الاستثنائية، والتي أدخلت تعقيدًا جديدًا. عاشت دوريس (اسمها الحقيقي بريتا ل. فريتشل) طفولة لا تختلف عن طفولة كلارا فاولر، مع أب سكير وأم هادئة لا تشكو. حدث أول "انشقاق" لها عندما انتزعها والدها من بين ذراعي أمها وألقاها على الأرض. لم تعد الفتاة التي جلست دوريس، بل شخصية ادّعت أنها روح. وللتبسيط، سأسميها أربيل. خلفت أربيل على الفور طفلة شقية تشبه سالي التي ابتكرتها كلارا فاولر. ومنذ ذلك الحين، أصبحت حياة دوريس بائسة بسبب نكاتها العملية التي لا تنتهي لمارجريت. كانت دوريس تعد بعدم السباحة في النهر، ثم تستيقظ لتجد نفسها عائدة إلى المنزل بشعر مبلل. وعندما تمد دوريس يدها لأخذ قطعة كعكة، كانت مارغريت تتولى الأمر وتلتهمها. لكن مارغريت سمحت لدوريس بمشاركة الجثة. أحيانًا كانتا تتحدثان بنفس الفم: ولكن مع أن مارغريت بدت قادرة على قراءة أفكار دوريس، إلا أن دوريس لم تكن تعلم ما ستقوله إلا بعد أن تخرج الكلمات من فمها. كان هذا تعقيدًا مثيرًا للاهتمام. يمكن للثنائيات... يتصرفون ككيانات مستقلة، لكن هذا يبدو سخيفًا.

دوريس، مثل كريستين سايزمور، كانت لديها لمحات من البصيرة. في أحد الأيام أثناء عملها، رأت والدتها في رؤيا: هرعت إلى المنزل فوجدت نفسها تعاني من التهاب رئوي. بعد اثنتي عشرة ساعة، كانت قد فارقت الحياة. وبينما كانت دوريس تجلس بجانب الجثة، دخل والدها الثمل مترنحًا، ودون أن يلاحظ حتى وفاة زوجته، انهار في فراشه ونام. في تلك اللحظة، "انفصلت" دوريس مجددًا. الوافدة الجديدة فقدت ذاكرةً وشخصيةً: كانت أشبه بمولود جديد. ومع "نموها"، تحولت إلى شابة باهتة بلا حياة. بعد عام، سقطت دوريس على مؤخرة رأسها، وظهر شخص آخر.

هذه المرة، بدت شخصية أكثر كآبة، وكأنها مجرد دائرة ذاكرة، أشبه بجهاز تسجيل. أصبحت دوريس الآن عائلة واحدة داخل جسد واحد.

المثير للاهتمام هو أنهم شكلوا نوعًا من التسلسل الهرمي. كانت أربيل - "الروح" - قادرة على قراءة أفكار الأربعة الآخرين وتعرف كل شيء عنهم. مارغريت، التي تليها في "السلم"، كانت تعرف الثلاثة الذين تحتها، لكنها لم تكن تعرف أربيل، الذي كان أعلى منها. دوريس كانت تعرف الاثنتين اللتين تحتها، لكنها لم تكن تعرف شيئًا عن مارغريت وأربيل (إلا عندما قرروا التواصل). كانت أربيل تغضب من الطريقة التي كانت مارغريت غالبًا ما "تدفع" بها دوريس عن مقعد القيادة وتتولى زمام الأمور. وفي أحد الأيام، عندما حدث ذلك للتو، دفعت أربيل مارغريت عن مقعد القيادة. وهكذا أدركت مارغريت أن هناك شخصًا آخر في الجسد إلى جانب "الأشخاص" الذين تعرفهم.

في نهاية المطاف، تعرفت دوريس على طبيب لطيف من بيتسبرغ، والتر فرانكلين برينس (وهو نفس الرجل الذي اختبر ماريا دي زيرولد لاحقًا بحبوب البحر). سمح لها بالانتقال إلى منزله كابنة بالتبني، وتحسنت حالتها تدريجيًا. لاحظ بدهشة العلاقات المعقدة بين هذه "العائلة" الغريبة. أحيانًا كان اثنان منهم يتشاركان الجسد ويجيبان على أسئلة برينس بالتناوب. ومع ازدياد ثقة دوريس وصحتها، تلاشت شخصياتها المتدنية تدريجيًا. بدأت الفتاة التي بدأت كطفلة حديثة الولادة تعود إلى الطفولة حتى لم تعد قادرة على سوى الثرثرة. مشت هي والأمير معًا في نزهة أخيرة ثم "ماتت". تلاشت أيضًا شخصية "المسجلة الصوتية". ومع نمو ثقة دوريس وقوتها، بدأت مارغريت أيضًا في العودة إلى مرحلة الطفولة. في النهاية فقدت بصرها و"اختفت". لم يبقَ الآن سوى أربيل. لكنها حرصت دائمًا على عدم التدخل في حياة دوريس - بل كان برنس يميل إلى قبول ادعائها بأنها روح. لاحقًا، تولت مارغريت رعاية دوريس ورافقتها إلى نيويورك، حيث حضرت دوريس بعض الجلسات مع وسيطة روحية شهيرة. حضرت مارغريت إحدى هذه الجلسات، وعندما سُئلت عن حياتها الآخرة، أجابت ببرود: "لم أعش حياة من قبل: كيف لي أن أعيش حياة أخرى؟" (للأسف، تحطمت دوريس بوفاة برنس عام ١٩٣٤، وتوفيت في مصحة عقلية).

جعلتني قضية دوريس أدرك أنه يجب التخلي عن نظرية الشبيه البسيطة لتعدد الشخصيات؛ ولكن لصالح ماذا؟ إذا كانت مارغريت دوريس "بديلة"، فكيف استطاعت أن تشغل نفس الجسد في نفس الوقت، وتُجري محادثات؟ بمعنى ما، على الأقل، كانت مارغريت شخصًا منفصلًا. وحتى برنس كان يعتقد أن أربيل شخص منفصل. ولكن في عام ١٩٧٣، عندما كنت أستعد لبدء سلسلة "الأسرار"، وهي تكملة لسلسلة "الغيبيات"، أتيحت لي رؤية جديدة ومثيرة للاهتمام حول المشكلة. جاءت هذه الرؤية من خلال تجربة بدت مُحطمة للغاية في ذلك الوقت: موجة مفاجئة من نوبات الهلع كادت أن تُودي بي إلى الانهيار العصبي. كنت مُرهقًا للغاية في...

الوقت، كتابة سلسلة من المقالات عن الجريمة لعمل موسوعي يسمى الجرائم والعقاب، والتي كنت محررًا مشاركًا فيها. أراد الناشرون المقالات بمعدل سبع مقالات في الأسبوع - كل منها حوالي 3000 كلمة - وسرعان ما زادوا طلبهم إلى عشر مقالات في الأسبوع: وهذا يستلزم كتابة ما يعادل كتابًا كاملاً كل ثلاثة أسابيع. واصلت العمل، رافضًا الإحباط، لكن الضغط كان هائلاً. وصل الأمر إلى ذروته بعد أن جاء صحفيان شابان لإجراء مقابلة معي وأبقياني مستيقظًا حتى الساعات الأولى من الصباح. استيقظت بعد ساعتين أشعر بالحر والرطوبة وصداع الكحول وبدأت أشعر بالقلق بشأن مقدار العمل الهائل الذي كان علي القيام به. عندما بدأت أشعر بالتوتر والقلق الشديدين، شعرت بالإغراء بالنزول إلى آلة الكتابة الخاصة بي والبدء في العمل على الفور - لكنني أدركت أن هذا سيكون أسوأ شيء يمكنني فعله. حاولتُ كبت القلق بقوة إرادتي، وفجأةً شعرتُ بموجة ذعر، فيضان من الأدرينالين يتدفق في مجرى الدم. بدأ قلبي ينبض بضعف سرعته الطبيعية، وخشيت أن أُصاب بنوبة قلبية. استيقظتُ وقضيتُ ساعةً في غرفة الجلوس أحاول تبرير الأمر. أخيرًا، صعدتُ إلى السرير، وظللتُ مستيقظًا أصارع الذعر وأتساءل إن كنتُ على وشك الجنون. في الصباح، شعرتُ بالإرهاق والانهيار. لكنني بذلتُ جهدًا دؤوبًا لطرد روح التجربة بكتابة سردٍ لها، وهو ما أصبح الصفحات الأولى من سلسلة "الأسرار".

بالنظر إلى الماضي، أستطيع أن أرى بدقة ما حدث. يُطلب من البشر باستمرار مواجهة المشاكل والصعوبات والتغلب عليها. عندما ينجحون، يشعرون بفيض من التفاؤل يُضاعف قوتهم. وعندما يفشلون، يشعرون بالإحباط الذي يُضعف قوتهم إلى النصف. ثم يبدو أننا ننفر من الحياة ونفقد كل رغبة في استجماع الشجاعة والحيوية. في كل مرة نحاول فيها تصور المستقبل، نتوقع كارثةً وهزيمةً أخرى. فجأةً، تبدو الحياة كلها صراعًا يائسًا؛ نفهم تمامًا ما قصدته إميلي برونتي عندما سألت:

هل الطريق متعرج صعودا على طول الطريق؟

بمجرد أن نغرق في حالة التشاؤم هذه، تتعقد المشكلة فجأةً بالشك الذاتي. يكفي أن نواجه ما يبدو سلسلة لا نهاية لها من الصعوبات. والأسوأ من ذلك بكثير أن نشعر بأن البدء بها لا يستحق حتى أن نواجهها، لأن الحياة كلها عبث. يخبرك المنطق أنه لا يمكنك الاستلقاء ورفض الانتقال: لديك منزل وعائلة تُعيلها. ومع ذلك، فإن هذا الاعتقاد يُقوّض باستمرار من قِبل شيطان بداخلك يهمس: "سيكون كل هذا جهدًا ضائعًا على أي حال...". وعندما تمسك بنفسك وتقول: "عليك أن تستمر، شئت أم أبيت"، ينتابك شعورٌ رهيب بالغرق، كما لو كنت حصانًا مُنهكًا ومُحفّزًا إلى ما هو أبعد من ذلك.

القدرة على التحمل. شيء بداخلك يريد أن ينفجر بالبكاء ويتخلى عن الحياة.

كل هذا مكّنني من فهم نوع البؤس والإحباط الذي حوّل كلارا فاولر ودوريس فيشر إلى شخصيات متعددة. ولكن كيف يُفسّر ذلك وجود تلك "الذوات الأخرى"؟ كان الجواب واضحًا نوعًا ما، فها أنا ذا، منقسمة ذاتيًا، ذات عقلانية تحاول الحفاظ على النظام ودفع نفسها إلى العمل، وذات غير عقلانية أو عاطفية - ربما أكثر من واحدة - تبذل قصارى جهدها لإثارة التمرد. كان من السهل جدًا تخيّل ذاتي العقلانية وهي تُقلب رأسًا على عقب إلى الأبد. هل هذا ما حدث لكلارا فاولر عندما رأت وجه جونز من النافذة، وما حدث لدوريس فيشر عندما رماها والدها المخمور أرضًا؟

كانت أسوأ الأوقات في الليل. إذا فكرتُ في خفقان قلبي المزعج، بدأ على الفور - كما لو أننا نحكّ إذا فكّرنا في الحكّة. هذا بدوره كان يُثير ومضة خوف مفاجئة، كما لو أن الأرض الصلبة قد تحوّلت إلى رمال متحركة. ثم كان لا بد من تشتيت انتباهي - أن أتقلب، أخدش أنفي، أو أي شيء. كان الخوف يتصاعد في داخلي كغليان الحليب، ويتزايد بفعل ردود فعل سلبية. وفجأة، بدا الأمان الطبيعي الذي كنتُ أعتبره أمرًا مسلمًا به وهمًا. ومع ذلك، حتى في الليلة الثانية، اكتشفتُ طريقةً للتغلب على الذعر. كان عليّ ببساطة أن أوقظ نفسي تمامًا - إذا لزم الأمر، أن أنهض من السرير وأذهب إلى الحمام. بمجرد أن أستيقظ تمامًا، بدا الأمر كما لو أن مستوىً أكثر عقلانيةً من كياني قد أدرك ما كان يحدث. كمعلمة تدخل غرفةً مليئةً بالأطفال المتخاصمين، صفّقت بيديها وساد الصمت على الفور.

لكن ما هو بالضبط "تأثير المعلمة"؟ كان الأمر كما لو أن مستوىً أعلى من شخصيتي قد نشط - ما يعادل شخصية كلارا بي-4 وشخصية كريستين جين. وهكذا، بدا أن تجربتي مع نوبات الهلع قد وفّرت لي فهمًا أعمق لآلية تعدد الشخصيات.

كانت مشكلة هذه النوبات أنها أهدرت الكثير من حيويتي؛ شعرت بتعب دائم. مع ذلك، واصلت عملي في مجلة "الجرائم والعقاب"، مدركًا أن العمل هو أفضل أشكال العلاج. وفي أحد الأيام، وفجأةً، أدركتُ المشكلة الأساسية. بدت التجربة تافهة للغاية، لكنها مكنتني من البدء في كسب معركة ضد الهلع. كانت الساعة الخامسة عصر أحد الأيام، وكان عليّ أن أحمل بعض الرسائل إلى صندوق البريد في نهاية مسارنا. بدا الأمر نشاطًا مملًا لا طائل منه، لكنني كنت أعلم أنه لا بد من القيام به، فركبتُ سيارة اللاند روفر وقادتُها في المسار. في نهاية المسار، أوقفتُ سيارة اللاند روفر قبل أن أغامر بالخروج إلى الطريق الأوسع، وبينما كنتُ أفعل ذلك، مرت سيارة مسرعة قريبة جدًا لدرجة أنها كادت أن تخلع مصد سيارتي. جعلني هذا أدرك أنه لو كنتُ أكثر مللًا ولامبالاة، لكنتُ ضغطتُ على المكابح بعد ثانية واحدة وتسببتُ في حادث تصادم.

الحقيقة هي أنه لم يكن أمرًا قريبًا جدًا. ومع ذلك كان كافيًا لإحداث ومضة من البصيرة. مشكلتي ببساطة أنني أصبحت منقسمًا على ذاتي. كان ذاتي العقلانية الواعية ترى أن عليّ القيام بالعديد من المهام الضرورية - مثل توصيل الرسائل إلى البريد. أطلقت ذاتي العاطفية أنينًا من الملل وتمسكت بعقبيها. لذلك كان على ذاتي العقلانية أن تجرها خلفي كمرساة، وكل مهمة تكلف ضعف الجهد. ومما زاد الأمر سوءًا أنني تعاطفت مع ترددها، لأنني وافقت على أن الذهاب إلى صندوق البريد مجرد مهمة كئيبة. وهذه، بالطبع، كانت المشكلة. جعلني الحادث الوشيك أدرك ذاتي العقلانية أن هذا الملل قد يكون انغماسًا في الذات باهظ الثمن. لو كان هناك تصادم، لكان قد كلفني مئة ضعف الجهد الذي بذلته للذهاب إلى البريد. وبمجرد أن تخيلتُ مشقّة تبادل العناوين وشركات التأمين وإصلاح سيارة اللاند روفر، شعرتُ على الفور براحةٍ غامرةٍ لأن ذلك لم يحدث. وانقلب عقلي على عقلي العاطفي وقال بانفعال: "أترى أيها الأحمق، المشاكل التي تُسببها بتباطؤك طوال الوقت؟" فأغمضت عقلي العاطفي عينيها ونظرت إليّ بخجل. وطوال ذلك اليوم، تصرفت بشكلٍ رائع.

منذ ذلك الحين، بدأت النوبات تتلاشى - مع أنها استغرقت عدة أشهر قبل أن تختفي تمامًا. وبالنظر إلى الماضي، أدركت أن ما بدا لي حلقةً مريعةً لا طائل منها، كان في الواقع إحدى أثمن تجارب حياتي. بدايةً، كان الصراع الطويل للسيطرة على القلق يعني تحكمًا أكبر بكثير في ردود أفعالي العفوية. إذا أسقط أحدهم طبقًا على الأرض، لم أبدأ حتى؛ وإذا أزعجني أحدهم، لم تعد عيناي تفضح مشاعري. لكن الأهم من ذلك بكثير هو فهم السلوك الغبي للذات العاطفية. لا يقتصر هذا على نوبات الهلع وحالات الاكتئاب العصبي. بما أننا جميعًا نقضي وقتنا في القيام بأشياء كثيرة لا نرغب حقًا في القيام بها، فإننا جميعًا نهدر قدرًا هائلًا من الطاقة في التغلب على "تردد" الذات العاطفية. في كل مرة تغيب فيها الشمس خلف سحابة، تُصدر الذات العاطفية أنينًا من الإحباط وينقبض القلب. ولهذا السبب، كما قال ويليام جيمس، «يشعر معظمنا وكأن غيمةً ما تثقلنا، تُبقينا دون أعلى درجات صفاء الذهن، ويقين التفكير، وحزم القرار». فنحن نسمح لأنفسنا بالانجراف كلما تنهدت الذات العاطفية من الملل وقالت: «هل يستحق الأمر حقًا كل هذا الجهد؟»

وهذا يُفسر أيضًا، بالطبع، ملاحظة ماسلو بأن الأشخاص الأصحاء يمرون دائمًا بتجارب قمة. ولأنهم يتمتعون بدافعية عالية، فإنهم يبذلون جهدًا أكبر بكثير في الحياة ويحصلون على عائد أغنى بكثير من أولئك الذين يضطرون إلى جرّ الجسد العاطفي خلفهم كطفل سيئ السلوك. إنهم يدركون خطأ الشعور بأن الأمور "لا تستحق الجهد". يذهبون

نعيش الحياة في حالة من التفاؤل والتوقع. عندما تشرق الشمس، فإنها تؤكد شعورهم بأن الحياة تقصد الخير لنا؛ ولكن عندما تشرق، يقبلونها كجزء من تنوع الحياة المثير للاهتمام.

من الواضح أن هذا هو جوهر الخلل في الجنس البشري. من الناحية النفسية، جميعنا مصابون بالعصاب، إذا كنا نعني بالعصاب أننا "نعيش ضمن حدودنا" - أي أننا جميعًا نمتلك قوىً نفشل عادةً في استخدامها. فهل من المستغرب أن معظمنا لا يدرك "قوانا الخفية" بينما لا نستطيع حتى استخدام طاقاتنا الحيوية العادية كما ينبغي؟

بدا لي جليًا أن الخطوة الأولى نحو إعادة تنشيط هذه "القوى الخفية" هي بذل جهد دؤوب للتغلب على "تردد" الذات العاطفية المعتاد والحفاظ على مستوى أعلى من التفاؤل. وفي الواقع، أكدت التجربة هذه الفكرة مرارًا وتكرارًا. لطالما لاحظت أنني أصبحت أكثر عرضة للحوادث عندما سمحت لنفسي بالتعب والإحباط، وأن غريزة تجنب الحوادث بدت وكأنها تنشط عندما كنت أشعر بحيوية تامة. أتذكر صباح يوم اثنين عندما كنت قدت سيارتي إلى قرية الصيد المحلية، ميفاجيسي، لأخذ عاملة النظافة من الحافلة. كان عقلي يغلي بأفكار كنت أنوي تدوينها فور وصولي إلى المنزل. يلتقي نهاية طريقنا الخاص الضيق بالطريق العام بزاوية حادة، ومن الضروري التباطؤ وتغيير السرعة إلى ترس أقل لتجاوزه، ثم التسارع صعودًا على منحدر. وبينما كنت على وشك القيام بذلك، خطرت لي فكرة: "ماذا لو كانت شاحنة البريد قادمة من الطريق؟" طوال سنوات إقامتنا في المنزل، لم أرَ قطّ شاحنة نقل في الممر. مع ذلك، أبطأت سرعتي عند المنعطف. وتوقفت الشاحنة على بُعد بوصة واحدة من مصد سيارتي.

في كاليفورنيا، سنحت لي فرصة لاختبار هذه الفرضية مجددًا. قضيتُ الصباح أُلقي محاضرة في جامعة بلوس أنجلوس، ووافقتُ على لقاء زوجتي وأولادي في ديزني لاند. نسيتُ مدى اتساع المكان. عندما وصلتُ حوالي الظهر، كانت الحشود هائلة، فانتابني شعورٌ بالحزن. لكنني كنتُ قد ألقيتُ للتو محاضرة جيدة، وكنتُ أشعر بالثقة والتفاؤل. لذا استرخيتُ عمدًا وأمرتُ قدميّ بالذهاب والبحث عنهما. أخذاني مئة ياردة على الطريق ثم انعطفا يسارًا. كانت عائلتي تتناول الطعام في مطعم مكسيكي على بُعد أمتار قليلة. شعرتُ مجددًا أن النجاح يعود إلى حالتي النفسية - تفاؤلٌ هادئ.

في كتابي "الأسرار"، حاولتُ تطبيق هذه الدروس في نظريتي عن "سلم الذات". من الناحية الجسدية، نتطور جميعًا عبر مراحل عديدة بين الولادة والموت - "أعمار الإنسان السبعة" لشكسبير. ولكن يبدو جليًا أيضًا أننا نتطور عبر سلسلة من الشخصيات. كم مرة قابلنا طفلًا بعد عدة سنوات ودهشنا من أنه لم يعد كما كان؟

هل نحن بشر؟ لكن تطورنا الشخصي ليس حتميًا كنمونا الجسدي: إنه نتيجة جهد. إذا أصبحت الحياة صعبة للغاية، فإننا نتوقف عن بذل الجهود ونتوقف عن التطور. هذا، كما بدا لي، ما حدث لكلارا فاولر ودوريس فيشر وكريستين سايزمور. لقد ظلوا عالقين في مستوى متدنٍ نسبيًا من "سلم الذات"، بينما ثار "الجانب الآخر" وحاول السيطرة.

كانت نظرية جيدة، وما زلت أعتقد أنها صحيحة جوهريًا - أن تطورنا الشخصي هو مسألة جهد وتفاؤل. لكنها تركت عددًا من المشاكل الأساسية دون تفسير. لماذا غالبًا ما تكون الشخصيات مختلفة تمامًا؟ تدور رواية "سيبيل" لفلورا ريتا شرايبر حول طفل آخر تعرض لاعتداء جنسي، ثم انقسم لاحقًا إلى أربع عشرة شخصية مختلفة، بما في ذلك كاتب، ورسام، وموسيقي، وبنّاء، ونجار. أحب بعضهم بعضًا، وكره بعضهم بعضًا: تصرفوا تمامًا كعائلة حقيقية. والأغرب من ذلك كله أن الاختبارات الطبية أظهرت أن لديهم جميعًا أنماطًا دماغية مختلفة. ومع ذلك، فإن أنماط الدماغ فردية كبصمات الأصابع.

في عام ١٩٧٧، كُشف النقاب عن قضية أغرب. أُلقي القبض على شاب يُدعى بيلي ميليغان بتهمة الاغتصاب. كشف الفحص النفسي أن بيلي كان يعاني من تعدد الشخصيات - نتيجةً لتعرضه للإساءة في طفولته - وكان مزيجًا من ثلاثة وعشرين شخصًا مختلفًا. كان أحدهم يوغوسلافيًا يتحدث الصربية الكرواتية، وهي لغة لم يتعلمها ميليغان قط. أما الشخصية التي ارتكبت عمليات الاغتصاب فكانت في الواقع مثلية. وقد أوضح كتاب دانيال كيز "عقول بيلي ميليغان" أخيرًا أن نظريتي عن "سلم الذات" لم تُغطِّ الحقائق المعقدة للغاية.

لكن ما هو البديل؟ لم أعثر على أغرب نظرية -وعلى ما يبدو الأكثر عبثية- التي صادفتها حتى الآن إلا بعد أن انتهيت من قراءة "الأسرار". كانت في كتاب يحمل عنوانًا غير واعد "العلم السري وراء المعجزات" لماكس فريدوم لونغ. ولكن سرعان ما اتضح أن لونغ كان باحثًا دقيقًا وأن الكتاب كان مبنيًا على خبرة طويلة في موضوعه - الكاهوناس، أو الكهنة السحرة، في هاواي. جاء لونغ إلى هاواي كمعلم شاب في عام 1917 وسرعان ما أصبح مفتونًا بالإشارات إلى ديانة هونا القديمة، التي حلت محلها المسيحية وحظرتها. كان مفتونًا بشكل خاص بممارسة شريرة تُعرف باسم صلاة الموت. عندما يُلعن رجل بصلاة الموت، يبدأ في الشعور بإحساس وخز في قدميه، والتي تصبح مخدرة تدريجيًا: ثم ينتشر الخدر إلى أعلى حتى يموت. بدا الأمر سخيفًا، ولكن عندما فحص لونغ مستشفى الملكة في هونولولو، وجد أن هناك عادةً ضحية واحدة أو أكثر سنويًا، وأنهم جميعًا يموتون رغم المساعدة الطبية. كما سمع قصة تبدو سخيفة عن قس مسيحي تعلم صلاة الموت واستخدمها لقتل ساحر كاهونا. بذل لونغ جهدًا كبيرًا.

وبعد التحقيق في القصة، تمكنت من قراءة مذكرات الوزير، التي وصف فيها كيف قرر في النهاية اتخاذ إجراء حاسم عندما مات أفراد قطيعه واحدًا تلو الآخر.

نجح لونغ تدريجيًا في جمع قاموس لكلمات الهونا، واستنبط منها شيئًا من فلسفة الكاهونا. كان اعتقادهم الأساسي، على ما يبدو، أن الإنسان ليس له روح واحدة، بل ثلاث. إحداها تُسمى الذات الدنيا، وتقع في الضفيرة الشمسية، وتتوافق تقريبًا مع ما أسماه فرويد اللاوعي. ثم تأتي الذات الوسطى، وهي وعينا البشري الطبيعي. وأخيرًا، هناك الذات العليا، وهي أعلى من الوعي اليومي بقدر ما تكون الذات الدنيا أدنى منه. هذه هي الذات القادرة على الاستبصار والتنبؤ.

أدركتُ فورًا أنه على الرغم من أن هذا قد يبدو معقدًا بشكلٍ سخيف، إلا أنه يتوافق تمامًا مع بعض استنتاجاتي الشخصية حول القوى الخارقة للطبيعة. يبدو التمييز بين الذات الدنيا والذات الوسطى مشابهًا جدًا للتمييز بين العقل الذاتي والموضوعي لهودسون أو بين نصفي الكرة المخية الأيمن والأيسر - فالذات الوسطى تتوافق تمامًا مع شخصيتنا في النصف الأيسر من الدماغ. أما الذات العليا، فقد بدا أنها تتوافق مع فرضيتي حول جزء منا يتمتع بوصول مباشر إلى "عالم المعلومات". أطلق عليه فريدريك مايرز اسم "العقل الباطن"، وفي مقدمته لكتاب مايرز الكلاسيكي "الشخصية البشرية وبقائها بعد الموت الجسدي"، شرحها ألدوس هكسلي واصفًا إياها بأنها نوع من "علية" الوعي البشري، أعلى من أماكن المعيشة اليومية للشخصية بقدر ما يقع القبو الفرويدي أسفلها. بدا لي تقسيم سو لونغ الثلاثي للعقل البشري معقولًا تمامًا. كنت على استعداد للاستماع باحترام لأي شيء آخر كان لديه. تمكن لونغ أخيرًا من الحصول على معرفة أكثر تفصيلاً بمبادئ الكاهونا من طبيب يُدعى ويليام تافتس بريغهام، الذي كان يدرسها لسنوات. ووفقًا لبريغهام، قد تنفصل النفوس المنخفضة أو الأرواح المنخفضة عن النفوس المتوسطة والعليا بعد الموت. ويمكن أن يستخدمها سحرة الكاهونا لأغراض شريرة - مثل التسبب في الموت. كان لبريغهام خبرة مباشرة في هذا. في رحلة استكشافية إلى أعلى الجبل، مرض صبي من هاواي وأظهر أعراض المعاناة من صلاة الموت. وعندما سُئل الصبي، كشف أنه قبل مغادرته قريته الأصلية، حذره الكاهونا المحلي من أنه إذا عمل يومًا ما مع الرجال البيض المكروهين فسوف يموت. لقد نسي التهديد حتى الآن. اعتبر السكان الأصليون بريغهام ساحرًا في حد ذاته، وشعر أنه يجب عليه بذل بعض الجهد لإنقاذ الصبي. وقف فوقه، وخاطب "الأرواح" التي كانت تشلّ جسده ببطء، مشيدًا بها ومدحًا إياها، معلنًا أن الصبي ضحية بريئة، وأن الرجل الذي يستحق اللوم هو الكاهونا الذي أرسلهم. ظلّ ذهنه مركّزًا على هذه الفكرة لساعة كاملة. ثم، فجأة، اختفى التوتر.

قال الصبي إنه شعر بساقيه مجددًا. وسرعان ما اختفى الشلل تمامًا. ولكن عندما استفسر بريغهام في قرية الصبي الأصلية، علم أن الكاهونا قد مات. كان قد خرج من كوخه في ساعات الصباح الباكر وأخبر القرويين أن الساحر الأبيض قد حوّل الأرواح، وأنه بما أنه لم يتخذ أي احتياطات طقسية، فعليه أن يتحمل العواقب. وبعد ساعات قليلة، مات.

لذا، ووفقًا لبريغهام، كان الكهنة يؤدون سحرهم باستخدام الأرواح. ويبدو أن لونغ كان يعتقد أن نظام الكهنة في علم النفس يقدم تفسيرًا مرضيًا للغز الشخصية المتعددة. ويبدأ بوصف إحدى أقدم الحالات المعروفة للشخصية المزدوجة، وهي فتاة تدعى ماري رينولدز استيقظت ذات صباح في عام 1811 لتجد أنها فقدت كل أثر للذاكرة - كانت تمامًا مثل طفل حديث الولادة وكان لا بد من تعليمها التحدث من جديد. وبعد خمسة أسابيع، استيقظت ماري الأصلية دون أن تتذكر ما حدث. وبقية حياتها، تناوبت الماريتان في نفس الجسد، بحيث لم يعرف أقاربها أبدًا أيهما ستفتح عينيها في الصباح. علاوة على ذلك، كانت الماريتان متعارضتين في الشخصية. كانت ماري الأصلية فتاة مملة، وعرضة للاكتئاب العصبي؛ وكانت ماري الثانية، مثل سالي بوشامب، مرحة ومشاكسة. كانت ماري الأولى تكره الطبيعة؛ بينما أحبتها ماري الثانية...

بعد وصف قضية كريستين بيوتشامب (كلارا فاولر)، ينتقل لونج إلى الحديث عن قضية سمع وصفها من قبل دكتور ليبسلي، الذي عاش في هونولولو.* يتعلق الأمر بابنة محامي كاليفورنيا البالغة من العمر ثمانية وعشرين عامًا. منذ سن الرابعة كانت عرضة لتغيرات في الشخصية مماثلة لتلك التي مرت بها ماري رينولدز. حدث هذا بانتظام كل أربع سنوات. كانت الشخصية الثانوية "طفلة" عندما وصلت لأول مرة، مثل ماري الثانية. لم يكن لدى أي من الشخصيتين أي معرفة بالأخرى أو بما حدث عندما كانت الأخرى "في الجسم". لذلك عندما استيقظت الساكنة الأصلية للجسد في سن الثامنة لم يكن لديها أي ذاكرة لأي شيء حدث منذ أن كانت في الرابعة. في سن الثانية عشرة "نامت" مرة أخرى، واستيقظت لتجد نفسها في السادسة عشرة ... كانت الشخصية الأساسية هادئة ومجتهدة وخجولة؛ كانت الشخصية الثانوية فتاة مسترجلة عدوانية.

تم استدعاء الدكتورة ليبسلي واثنين من زملائها وتمكنوا من كسب ثقتها
ووضعوها تحت التنويم المغناطيسي. أُمرت الشخصية الثانوية بمغادرة الجسد، لكن هذا (كما هو متوقع) لم يُجدِ نفعًا. حاول الأطباء دمج الشخصيتين، لكن دون جدوى. ثم في أحد الأيام، بينما كانت الفتاة تحت التنويم المغناطيسي، دخلت في غيبوبة عميقة لم تستطع إيقاظها. فجأةً، خرج صوت ثالث من فمها. كان ذا طابع ذكوري واضح - بدا وكأنه صوت رجل عجوز. بدا أن هذه الشخصية تعرف كل تفاصيل حياة الفتاتين. وفي...

ردًا على أسئلة الأطباء، أوضحت أنها كانت "وصيتهم" وأنهم، حرفيًا، فتاتان مختلفتان كانتا تستخدمان الجثة.

جادل الأطباء بأن حياة الفتاة تُدمر بسبب هذا التباين في الشخصيات: فهي عاجزة عن الزواج أو عيش حياة طبيعية. خالفهم الوصي الرأي، قائلاً إن غاية الحياة هي التطور الشخصي، وأن الفتاة تتعلم وتنضج، حتى مع اضطرارها لمشاركة جسدها مع شخص غريب.

أخيرًا، وفي حالة من اليأس، أخبر أحد الأطباء الوصي أنه ما لم توافق الشخصية الثانوية على الرحيل، فسيُبقيان الفتاة مُنوَّمة مغناطيسيًا إلى أجل غير مسمى. ردّ الوصي على ذلك بأنه ما لم يتقبلوا الوضع الراهن، فسيُسحب الفتاتان ويتركهما جثة هامدة. كان الأطباء يعلمون أنهما تعرضتا للضرب، واستمرت الفتاة في العيش بشخصية مزدوجة.

بالنسبة للونغ، كانت القضية دليلاً على إيمان هونا بالذات العليا، أي العقل الفائق الوعي: يقول إن الحارس هو العقل الفائق للفتاة. أما الشخصية الثانوية، وفقًا للونغ، فكانت "غازية"، روحًا مستقلة.

سيرفض معظم الناس هذا الرأي رفضًا قاطعًا. يبدو أن العلم والمنطق السليم يتفقان على أن الشخصية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالجسم. يقول البروفيسور جون تايلور: "نعتبر الشخصية مجموعًا للمساهمات المختلفة في السلوك من وحدات التحكم المختلفة في الدماغ". وصحيح أن الشخص المصاب بورم دماغي قد يبدأ بالتصرف بطريقة غير معتادة تمامًا: فإذا ضغط الورم، على سبيل المثال، على النواة اللوزية، فقد يصبح الشخص الأكثر لطفًا عدوانيًا وعنيفًا. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف بأنه حتى في هذه الحالات، تبقى الشخصية الأساسية دون تغيير: لا يوجد شيء يُضاهي التغيير الكامل في الشخصية الذي حدث مع كلارا فاولر أو بيلي ميليغان. الصور المتنوعة لشخصيات دوريس فيشر في مقال والتر فرانكلين برينس. * جعلهم يبدون وكأنهم أشخاص مختلفون.

ومع ذلك، فإن فكرة أن العقل والدماغ كيانان مختلفان تمامًا قد تغيرت.

بدأ يكتسب موطئ قدم في العلوم الحديثة. الدكتور وايلدر بنفيلد هو أحد علماء وظائف الدماغ البارزين الذين توصلوا إلى هذا الاستنتاج على مضض. كان بنفيلد هو من اكتشف، في عام 1933، أنه يمكن جعل الشخص يعيد عيش ذكريات الماضي بتفاصيلها الكاملة عن طريق تحفيز جزء من الدماغ - القشرة الصدغية - بتيار كهربائي. كانت وجهة نظر بنفيلد اختزالية في الأساس: كان يعتقد أن الوعي هو نتاج الدماغ كما أن الحرارة نتاج النار. لكن تجربة أجريت في عام 1959 غيرت رأيه. كان المريض مستيقظًا تمامًا وكان دماغه يُحفز بتيار كهربائي حتى اختبر نوعًا من الفيلم الذهني لطفولته: ومع ذلك أثناء حدوث ذلك، كان أيضًا واعيًا تمامًا بالغرفة المحيطة به. لذلك كان هناك "تياران من الوعي"

يتدفقان في آنٍ واحد دون اختلاط. أقنع هذا بنفيلد بأن "عقل المريض... لا يمكن أن يكون إلا شيئًا منفصلًا تمامًا عن الفعل المنعكس العصبي". يتبنى السير كارل بوبر والسير جون إكليس وجهة النظر نفسها في عملهما الكلاسيكي "الذات ودماغها"، كما يوحي العنوان. ولكن إذا كان العقل
إذا كانت الذات - أو الذات - موجودة بمعزل عن الدماغ (والجسد)، فما هي خصائصها إذن؟ هل هي مجرد "قوة حياة" مجهولة الهوية لا تتجاوز فرديتها حرارةً أو نورًا؟ هذا ممكن، فعندما يخلو ذهني من أي شيء، تختفي شخصيتي. ومع ذلك، تعلم كل أم أن أطفالها يُظهرون علامات الشخصية قبل أن يتمكنوا من فعل أي شيء سوى شرب الحليب والنوم بوقت طويل. لذا، ربما تكون شخصيتي خاملة فحسب عندما يخلو ذهني من أي شيء. وإذا كان العقل - أو الشخصية - قادرًا على الوجود بمعزل عن الجسد، فهذا عودة إلى المفهوم الديني للروح والحياة بعد الموت.

يجب أن أعترف أن هذه كانت خطوةً وجدتُ نفسي مترددًا جدًا في اتخاذها. ليس لأنني ميالٌ إلى الاختزالية - الاعتقاد بإمكانية تفسير الحياة كليًا من منظور مادي - ولكن لأنه لطالما بدا لي من غير المنطقي الإيمان بشيء لا نستطيع إثباته. في كتاب "الغريب" والكتب اللاحقة، لم أُعر أي اهتمامٍ لمشكلة الحياة بعد الموت: بدت لي غير مهمة. بل بدت لي غير ذات صلةٍ بالموضوع تمامًا. الأسئلة الأساسية في الفلسفة الوجودية هي: "لماذا نحن على قيد الحياة؟ ماذا يُفترض بنا أن نفعل الآن وقد أصبحنا هنا؟". إن الرد بـ "لا تقلق - هناك حياة أخرى بعد هذه" هو بمثابة استجداءٍ للسؤال. حتى في كتاب "الغيبيات"، كنتُ أميل إلى تجنب الأسئلة. استشرتُ صديقًا لي، البروفيسور ج. ويلسون نايت، الروحاني، وزودني ببعض المواد الشيقة التي بدت وكأنها تُشير إلى أن والدته كانت قادرةً على التواصل معه بعد الموت. لكنني بقيتُ غير مقتنعٍ في جوهر الأمر - أو ربما تكون الكلمة الأنسب هي "غير مهتم".

ومع ذلك، لا بد لي من الاعتراف بأن أدلة التناسخ قد لفتت انتباهي بقوة. فقد درس البروفيسور هيمندرا بانيرجي، عالم النفس بجامعة راجستان، القضية الشهيرة لشانتي ديفي، الفتاة الهندية التي ادعت أنها عاشت حياة سابقة في بلدة موترا، وكان مقتنعًا بصحتها. بدأت شانتي ديفي، المولودة في دلهي في أكتوبر 1926، في وصف هذه الحياة السابقة بالتفصيل عندما كانت في الرابعة من عمرها. وقالت إن زوجها كان تاجر أقمشة يُدعى كيدار ناث تشوبي. فوجئ مدير مدرسة حاول الكتابة إلى العنوان الذي أعطته في موترا بتلقي ردٍ من كيدار ناث. تعرفت شانتي ديفي على الفور على ابن عم كيدار ناث الذي أسرع إلى دلهي. وعندما أُخذت الفتاة ذات التسع سنوات أخيرًا إلى موترا، تعرفت على أقاربها وتمكنت من توجيه العربة في أنحاء البلدة. في منزل كيدار ناث، قادتهم إلى مكان قالت إنها دفنت فيه نقودًا في علبة معدنية؛ وتبين أن العلبة فارغة، لكن كيدار...

واعترف ناث بأنه أخذ المال ....

الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو حالة جاسبير لال جات، التي سجلها البروفيسور إيان ستيفنسون، مؤلف كتاب "عشرون حالة توحي بالتناسخ". في عام 1954، توفي جاسبير البالغ من العمر ثلاث سنوات بسبب الجدري، ولكن قبل أن يتم دفنه، تحرك وعاد إلى الحياة. لكن الشخصية الجديدة كانت مختلفة تمامًا عن الشخصية القديمة: ادعى جاسبير الجديد أنه شخص يُدعى سوبها رام الذي توفي في وهيدي في نفس الوقت الذي توفي فيه جاسبير نتيجة سقوطه من عربة. وقال إنه من طبقة البراهمة وكان يسبب صعوبات بشأن طعامه. رفضت الأسرة ادعاءاته باعتبارها خيالًا طفوليًا. عندما كان جاسبير في السادسة من عمره، جاءت سيدة براهمية من وهيدي إلى قرية جاسبير وأعلن أنها عمته. تم نقل جاسبير إلى وهيدي، وأظهرت نفس النوع من المعرفة الحميمة التي أظهرتها شانتي ديفي عن موترا. اقتنع أقاربه أخيرًا بأن جاسبير وسوبها رام هما الشخص نفسه، ويميل قارئ رواية البروفيسور ستيفنسون الموثقة جيدًا إلى الموافقة على هذا الرأي. في هذه الحالة، يبدو أن سوبها رام "انتقل" إلى جسد جاسبير تقريبًا لحظة وفاته، أو بعدها بفترة وجيزة.

المشكلة في مثل هذه الحالات هي بالطبع أن المحققين يصلون إلى هناك بعد فترة طويلة من وقوعها وبالتالي يتعين عليهم الاعتماد على شهود قد يكذبون أو لا. ولكن في واحدة على الأقل من قضاياه استبعد ستيفنسون هذا الاحتمال من خلال تقديم العائلتين المعنيتين بالفعل. في لبنان عام 1964 سمع ستيفنسون عن رجل يُدعى محمد العور، وهو درزي عاش في قرية قرنايل على بعد عشرة أميال شرق بيروت. وُلد ابنه عماد عام 1958، وكانت أول كلمة نطق بها عماد عندما تعلم التحدث هي اسم امرأة، "جميلة". ثم بدأ عماد يتحدث عن حياته الماضية كرجل يُدعى بوحمزة وأصر على أنه تعرف على أحد أقارب بوحمزة في الشارع. قال عماد إن بوحمزة عاش في بلدة خريبى على بعد عشرين ميلاً، وأعطى تفاصيل عن المنزل وأقاربه.

على الرغم من كل هذا، كان والد عماد كسولاً للغاية للتحقق من قصة ابنه. لذلك قرر ستيفنسون القيام بذلك نيابة عنه. أجرى مقابلة مع عماد أولاً وجمع تفاصيل حياته كبوحزي، ثم ذهب إلى خريبي وتحدث إلى عائلة بوحمزي. عند تقديمه لعائلة بوحمزي، أظهر الصبي البالغ من العمر ست سنوات ليس فقط معرفة وثيقة بـ "أقاربه" بل أذهلهم أيضًا بتصرفه وصوته مثل بوحمزي. ثبت أن 51 من أصل 57 تصريحًا أدلى بها عماد عن بوحمزي صحيحة. (يبدو أن التصريحات غير الصحيحة أحيانًا ترجع إلى عدم وضوح الذاكرة: على سبيل المثال قال إنه لديه خمسة أبناء بينما في الواقع كان شقيق بوحمزي هو الذي لديه خمسة أبناء). ثبت أن "جميلة" كانت عشيقة بوحمزي. وكما أشار ستيفنسون، فإن احتمال الاحتيال كان بعيدًا: فقد كان سيتضمن تواطؤًا متعمدًا من سبعة عشر شخصًا لم يكن لديهم سبب للكذب.

ولعل أغرب حالة على الإطلاق هي حالة لورانسي فينوم، وهي فتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا

فتاة عجوز من واتسيكا، إلينوي، أصيبت بنوبة في يوليو 1877. بعد ذلك أصبحت عرضة للوقوع في غيبوبة حيث يبدو أنها "استحوذت" عليها عدد من الشخصيات البغيضة. ذهب طبيب، دبليو دبليو ستيفنز، لرؤيتها وتحدث إلى اثنتين من هذه الشخصيات، كاترينا هوجان وويلي كانينج. عندما وضع لورانسي تحت التنويم المغناطيسي، أعلنت الفتاة أنها كانت ممسوسة بأرواح شريرة وأنه في الوقت الحالي توجد روح تسمى ماري روف في الغرفة. قالت السيدة روف، التي كانت حاضرة أيضًا، "هذه ابنتي". ثم أعلنت لورانسي أنها ستسمح لماري "بامتلاكها" لفترة من الوقت. وفي اليوم التالي كانت تدعي أنها ماري روف. عندما تم اصطحابها إلى منزل روف، كشفت عن معرفة وثيقة بسكانها لم يكن من الممكن أن يكتسبها لورانسي، الذي ولد قبل عام واحد فقط من وفاة ماري في عام 1865. في طريقهم إلى هناك، مرّوا بالمنزل الذي كانت تسكنه ماري سابقًا - وقد انتقلت العائلة إليه منذ ذلك الحين - واضطرت ماري إلى إقناعها بأنه لم يعد منزلها. لاحقًا، رحبت بأقاربها بأسمائهم وتعرّفت على معلمة مدرسة الأحد القديمة. وواصلت ماري وصف مئات الحوادث في طفولتها، بتفصيلٍ دقيقٍ لدرجة أن أي شكوك سرعان ما طُمست. قدّم ريتشارد هودجسون، عضو جمعية الأبحاث الروحانية الذي "كشف" أمر السيدة بلافاتسكي، الأدلة بالتفصيل، ولكنه كان مقتنعًا تمامًا بصحة هذه القضية.

أوضحت ماري روف أن "الملائكة" لن تسمح لها بالبقاء إلا لثلاثة أشهر. في نهاية تلك الفترة، ودعت عائلتها وعادت سيرًا على الأقدام إلى منزل لورانسي فينوم. في الطريق، اختفت ماري، وتولى لورانسي زمام الأمور مجددًا. تزوجت لورانسي لاحقًا من مزارع، لكن ماري استمرت في التردد على والديها والتحدث إليهما. عندما أنجبت لورانسي طفلًا، أدخلتها ماري في حالة غيبوبة حتى لا تعاني من آلام الولادة.

يخلص ريتشارد هودجسون في روايته إلى القول: "لا أشك في أن الأحداث وقعت جوهريًا كما وصفها الدكتور ستيفنز في روايته، وفي رأيي، التفسير الآخر الوحيد للحالة - إلى جانب التفسير الروحاني... هو... شخصية ثانوية ذات قوى خارقة للطبيعة". هذا، في الواقع، هو الرأي الذي يفضله معظم العقلاء: أن لورانسي كانت حالة من تعدد الشخصيات، وأن قوى التخاطر الخارقة مكّنتها من قراءة أفكار عائلة ماري روف وإقناعهم تمامًا بأنهم كانوا يتحدثون إلى ابنتهم. ولكن هل هذا معقول كـ"الفرضية الروحانية" القائلة بأن روح ماري نجت بعد الموت واستطاعت "الاستيلاء" على جسد لورانسي فينوم؟ يعتمد ذلك، بالطبع، على ما إذا كنت تميل إلى قبول الرأي القائل بأن العقل يمكن أن ينجو من الموت. وفي حالة لورانسي فينوم، فإن التفسيرين منطقيان بنفس القدر. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أيضًا حالات مثل شانتي ديفي، وجاسبير لال جات، وعماد إلاور، فإن تفسير تعدد الشخصية يبدو غير كافٍ. إجمالًا، يبدأ الأمر

يبدو الأمر كما لو أن العقل ينجو من الموت.

قبل أن نقتنع، يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار وجهة نظر بديلة طرحها تومسون جاي هدسون ووليام جيمس. خصص هدسون عددًا من الصفحات في كتابه "قانون الظواهر النفسية" لما يُفضل تسميته "الشخصية المزدوجة"، وخلص إلى أنها ببساطة دليل على نظريته عن "العقلين". يستشهد بقضية أثارت ضجة مؤخرًا في أمريكا، وهي قضية القس أنسيل بورن، قس معمداني من رود آيلاند، الذي سحب خمسمائة دولار من بنكه في يناير 1887 واختفى. بعد شهرين، "استيقظ" بورن ليجد نفسه يدير متجرًا في نورستاون، بنسلفانيا. يبدو أنه استأجر المتجر وملأه بالحلويات والفواكه، وكان يعيش بهدوء تحت اسم إيه جيه براون. يبدو الأمر كما لو أن بورن قرر ببساطة أخذ إجازة من زوجته، لكن كل من فحصه، بمن فيهم ويليام جيمس، كان مقتنعًا تمامًا بصدقه. بعد أن سيطر عليه جيمس، ظهرت شخصية بورن الثانوية على الفور، ووصفت بدقة ما كان يفعله خلال الشهرين الماضيين. أوضح، من بين أمور أخرى، أنه غادر المنزل بسبب "مشاكل في الخلف" وأنه يريد الراحة. بدا إيه جيه براون شخصية ضعيفة نوعًا ما، حيث قال لجيمس: "أنا محاصر تمامًا".

— لا أستطيع الخروج من أيٍّ من الطرفين. استنتج جيمس أن أنسيل بورن قد دخل في حالة غيبوبة تنويمية عفوية للهروب من مشاكله، ومنح نفسه نوعًا من هوية الحلم. وافق هدسون، مضيفًا أن هذه حالة قرر فيها العقل الذاتي السيطرة، كما هو الحال في التنويم المغناطيسي العادي.

إلى أي مدى تتوافق هذه النظرية مع الحقائق؟ الإجابة هي أنها، في المجمل، تتوافق معها تمامًا. لنأخذ مثال هدسون عن الشاب الذي أجرى محادثة مطولة مع سقراط تحت التنويم المغناطيسي. لو أن المنوم المغناطيسي اقترح أن سقراط كان داخل رأسه، أو أنه كان سقراط، لكان قد أصبح في الواقع شخصية مزدوجة. لو أن المنوم المغناطيسي ذهب بعد ذلك ليقترح أنه كان أيضًا كانط وهيجل وماركس، لكان قد أصبح - مؤقتًا

— شخصية متعددة. تُفسر نظرية التنويم الذاتي أيضًا شخصيات كلارا فاولر، ودوريس فيشر، وكريستين سايزمور، وحتى بيلي ميليغان. ربما تكون شخصية ميليغان الفرعية، التي تتحدث الصربية الكرواتية، قد تعلمتها لا شعوريًا من خلال سماعها، مثل الفتاة التي ذكرها كولريدج والتي كانت تتحدث اللاتينية واليونانية والعبرية. من الأصعب قليلًا تفسير كيف يمكن لسيبيل أن تمتلك مجموعات مختلفة من أنماط الموجات الدماغية، لكن هدسون سيرد بلا شك بأن قدرات العقل الذاتي أعظم بكثير مما ندرك. الخلاصة هي أنه من الممكن تفسير معظم حالات تعدد الشخصية من خلال نظرية هدسون "العقلين". (سنحتفظ ببعض الحالات التي لا تتوافق مع النظرية لفصل لاحق).

ذهب هدسون إلى أبعد من ذلك. في وقت كتابته، كان مئات الآلاف من الأمريكيين يرتادون الكنائس الروحانية. وقد حدث هذا نتيجة سلسلة من الأحداث الغريبة التي وقعت في هايدزفيل، نيويورك عام ١٨٤٨، عندما اجتاح شبحٌ منزل عائلة فوكس. كان صوته القوي غير مفهوم حتى طلب منه أحد الجيران استخدام شفرة واحدة للرفض، واثنين للموافقة، وعندها أوضح أنه روح بائع متجول قُتل على يد المستأجر السابق ودُفن في القبو. (عندما تم التنقيب في القبو بعد نصف قرن، عُثر على عظام بشرية وصندوق معدني لبائع متجول).

عندما انتقلت ابنتا عائلة فوكس المراهقتان إلى منازل أقاربهما، تبعتهما الاضطرابات: بدأت "الروح" تتصرف كروح شريرة تقليدية، ترمي الأشياء وتهاجم الناس بالدبابيس. وفي أحد الأيام، باستخدام رمز أبجدي، هجأت الروح الكلمات: "يجب أن تعلنوا هذه الحقيقة للعالم". وكانت النتيجة إنشاء أول كنيسة روحانية في روتشستر، نيويورك. وسرعان ما حذت بقية البلاد حذوها. وفجأة اكتشف مئات الأشخاص أنهم "وسطاء". في غرف جلسات الروحانية المظلمة في جميع أنحاء أمريكا، كانت أيادٍ شبحية تداعب رؤوس الجمهور، وحلقت آلات الأكورديون والأبواق في الهواء وعزفت ألحانًا حزينة. لسبب غريب، أشعلت الأختان فوكس انفجارًا روحانيًا، وفي غضون عشرين عامًا انتشر إلى كل دولة متحضرة في العالم.

من المفهوم أن العلماء وجدوا الأمر كله مثيرًا للغضب، عودةً إلى خرافات العصور الوسطى. ومع ذلك، ورغم وجود العشرات من "الوسطاء" الاحتياليين (والكلمة تعني وسيطًا بين هذا العالم والآخرة)، فلا شك أن نسبة كبيرة جدًا من هذه المظاهر كانت حقيقية. ولهذا السبب، قرر فريدريك مايرز ومجموعة صغيرة من مثقفي أكسفورد عام ١٨٨٢ إنشاء جمعية للأبحاث النفسية لمحاولة اكتشاف ما إذا كان البشر ينجوون من موتهم بشكل نهائي.

كانت مساهمة هدسون في هذا الجدل، في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، هي الاعتراف بأن الظواهر مذهلة، ثم الإصرار على إمكانية تفسيرها جميعًا من منظور العقل الذاتي. بالنسبة لهودسون، كانت "الأرواح" ببساطة من صنع العقل الذاتي - مثل "روح" سقراط التي كانت تتحدث ببراعة لدرجة أن الكثيرين اعتقدوا أنها قد تكون حقيقية. "إن من ينكر ظواهر الروحانية اليوم لا يستحق أن يُوصف بالمتشكك: إنه ببساطة جاهل... مع ذلك، سأنغمس في الأمل بأنه من خلال تفسير أصل الظواهر على أسس عقلانية، وبالتالي إخراجها من نطاق ما وراء الطبيعة، قد يُحث أولئك الذين يفترضون الآن أنهم متشككون على التحقيق بأنفسهم". يعترف بأنه كمسيحي، يعتقد أن الروح تبقى بعد الموت، لكنه يقول إن هذا لا علاقة له على الإطلاق ب...

يتعلق الأمر بالروحانية، وهي مسألة تتعلق كليًا بالقدرات الغريبة للعقل الذاتي. لا يشرح ما هي القدرة الغريبة التي يُمكّن العقل الذاتي من خلالها من جعل بوقًا يحلق في الهواء ويعزف الألحان، ولكنه لا يشك في إمكانية ذلك.

من المفارقات أن تفسير هدسون للبولترجيست أصبح مقبولاً على نطاق واسع بعد عقود من نسيان عمله. منذ مرحلة مبكرة نسبيًا، لاحظ الباحثون وجود طفل أو مراهق عادةً في المنزل الذي تحدث فيه ظواهر البولترجيست. في عام ١٩٠٠، ذهب البروفيسور سيزار لومبروزو - وهو متشكك مُصرّ على الإيمان الروحاني، اعتنق الروحانية بفضل الأدلة الدامغة - للتحقيق في وجود بولترجيست في مطعم في تورينو. وبينما كان يقف في القبو، بدأت الزجاجات الفارغة تدور على الأرض وتحطمت على الطاولة، وارتفعت ست زجاجات أخرى برفق من الرفوف وتحطمت على الأرض. وبينما كان لومبروزو وصاحب المطعم يعودان إلى الطابق العلوي، سمعا زجاجة أخرى تتحطم خلفهما.* لاحظ لومبروزو وجود نادل شاب، شاب طويل القامة بشكل غير عادي في الثالثة عشرة من عمره. دل طوله على أن جسده كان مُشبعًا بهرمونات النمو، بما في ذلك تلك التي تُعزز وعيه الجنسي... بناءً على اقتراح لومبروزو، طُرد الصبي، وتوقفت الاضطرابات على الفور.

لم يكن مفهوم ارتباط الأشباح بالأرواح الشريرة حتى ثلاثينيات القرن العشرين
بدأ المراهقون المضطربون جنسيًا يكتسبون رواجًا واسعًا. كان هذا إلى حد كبير من عمل المحلل النفسي المجري ناندور فودور، الذي وصل إلى أمريكا في أواخر العشرينيات من عمره وأصبح مفتونًا بالبحث النفسي والتحليل النفسي في وقت واحد. في أول جلسة استحضار أرواح له، في منزل الوسيط الروحاني الشهير آرثر فورد، كان فودور مقتنعًا بأن الموتى يمكنهم التواصل مع الأحياء. بعد أن بدأ صوت "التحكم" الخاص بالوسيط في الكلام - وهو التحكم هو روح تعمل بمثابة مدير المراسم - قدم فودور طلبًا غير معقول إلى حد ما بأنه يرغب في التحدث إلى شخص يتحدث المجرية. كانت النتيجة المذهلة أن صوتًا ادعى أنه والد فودور شرع في مخاطبته باللغة المجرية السليمة، ونطق كلمة "صحفي" بلكنة ألمانية تمامًا كما فعل والد فودور. أعلنت الروح أنه توفي في 16 يناير. (ولكن هذا لم يثبت صحته تماما: فقد تم دفن والد فودور - قبل عدة سنوات - في 16 يناير.) وتنبأ - بشكل صحيح كما اتضح فيما بعد - بأن عم فودور، فيلموس، سوف يصاب بالعمى.

كان فودور، بصفته محللًا نفسيًا وباحثًا في علم النفس، أول من روّج لفكرة أن الروح الشريرة هي مظهر آخر من مظاهر الطاقات الجنسية المكبوتة. ومما لا شك فيه أن بعضًا من أشهر حالات الروح الشريرة شملت مراهقين بلغوا سن البلوغ للتو. وقعت قضية إستر كوكس، التي اشتهرت باسم "لغز أمهرست"، في نوفا سكوشا عام ١٨٧٨. بدأت عندما هربت إستر، البالغة من العمر اثنين وعشرين عامًا، من...

حاول صديقها اغتصابها، ثم هرب من المنطقة. أصيبت إستر بالاكتئاب والاضطراب. في إحدى الليالي، بدأت أغطية فراشها تتطاير في أرجاء الغرفة، وانتفخت وسادتها، ثم بدأت هي نفسها تنتفخ كالبالون. دوى انفجار هائل و"انكمشت". وبينما كانت مستلقية هناك، خدشت يد خفية جدار سريرها قائلة: "إستر، أنتِ ملكي لأقتلكِ". استمرت الضربات لساعات. استمر هذا الشبح في ملاحقة إستر لعدة أشهر: تحرك الأثاث، وأُشعلت النيران تلقائيًا، والتصقت بها أشياء معدنية كما لو كانت مغناطيسًا. عندما اشتعلت النيران في حظيرة وسُجنت إستر بتهمة الحرق العمد، توقفت هذه المظاهر فجأة.

يبدو أن هذه الحالة، وغيرها الكثير من الحالات المشابهة، تدعم الرأي القائل بأن الروح الشريرة هي ببساطة تجلٍّ للطاقات الجنسية لمراهق مضطرب أو نوع من الأحداث الجانحين في العقل اللاواعي - أو الجانب الأيمن من الدماغ. ويبدو أن توقف تجليات إستر بعد سجنها لأربعة أشهر يشير إلى أن عقلها اللاواعي قرر أخيرًا التوقف عن المزاح. كانت هذه وجهة نظري بشأن القضية عندما عرضتها في "أسرار"، وقد أكدتها قضية أحدث عرضتها على تلفزيون بي بي سي عام ١٩٧٦.

في عام ١٩٦٧، شهد مكتب محامٍ في روزنهايم، بافاريا، عددًا من اضطرابات "البولترجيست" العنيفة. تحطمت أنابيب الإضاءة، وعُلقت الصور على الجدران، وتحركت خزانة ملفات ثقيلة كأنها لا تزن سوى بضعة أرطال. علاوة على ذلك، كانت فاتورة الهاتف ضخمة لأن مئات المكالمات أُجريت على ما يبدو على الساعة الناطقة - مكالمات أكثر مما كان ممكنًا في الوقت المتاح. يبدو أن "البولترجيست" كان يمر عبر المرحلات مباشرةً. ذهب أستاذ بارز في علم النفس الخارق من فرايبورغ، هانز بيندر، للتحقيق في القضية، وسرعان ما لاحظ أن الاضطرابات لم تحدث إلا عندما كانت فتاة صغيرة تُدعى آن ماري شابيرل في المكتب. كانت آن ماري فتاة ريفية تعيسة في عملها في المدينة؛ كانت حياتها الأسرية صعبة - كان والدها صارمًا في الانضباط.

- وكانت متشككة ومتوترة. أعادها بيندر إلى مختبره لإجراء اختبارات مختلفة للإدراك الحسي الفائق، وأظهرت قدرات توارد خواطر ملحوظة. وبينما كانت آن ماري في فرايبورغ، توقفت الاضطرابات. فُصلت من عملها وتوقفت الاضطرابات في المكتب. لكنها استمرت في المصنع الذي وجدت فيه عملاً: عندما قُتل شخص في حادث، أُلقي اللوم على آن ماري، فغادرت. فسخ خطيبها خطوبته عليها لتأثيرها الاستثنائي على أجهزة التسجيل الإلكترونية في صالة البولينغ المفضلة لديه. في النهاية، تزوجت وأنجبت طفلاً، وتوقفت هذه المظاهر.

لم يكن لدى آن ماري أي شك في أنها كانت سبب الاضطرابات في مكتب المحامي: في الواقع عندما التقيت به أثناء البرنامج

أخبرني البروفيسور بيندر أن إحدى القواعد الأولى للتحقيق في البولترجيست هي عدم إخبار "المراهق المضطرب" بأنه - أو أنها - هو السبب الحقيقي للاضطرابات، لأن هذا الأمر عادة ما يثير رعبهم.

في عام ١٩٨٠، سمعتُ عن شبحٍ مسكونٍ كان أكثر إثارةً للدهشة من قضية روزنهايم. وقع الحادث في بونتفراكت في يوركشاير، وسمعتُ عنه من صديقٍ للعائلة المعنية، الذي بدا أنه يعتقد أنه قد يُكتب عنه كتابٌ يُشبه رواية "رعب أميتيفيل" الأكثر مبيعًا. يبدو أن الشبح قد حطم كل شيءٍ قابلٍ للكسر في المنزل تقريبًا، وأصدر أصوات طبولٍ عاليةً ليلًا لدرجة أن الجيران تجمعوا في حشودٍ للاستماع. ولكن في هذه الحالة، يبدو أن عددًا من الأشخاص المعنيين قد رأوا أيضًا الشبح، الذي اتخذ شكل راهبٍ يرتدي ملابس سوداء. كان صديق العائلة الذي اتصل بي مهتمًا أيضًا بالتاريخ المحلي، وأخبرني أن أبحاثه كشفت عن وجود مشنقةٍ في موقع المنزل، وأن راهبًا كلونياك قد شُنق هناك بتهمة الاغتصاب في عهد هنري الثامن.

بدت القصة أشبه بخيالٍ يصعب تصديقه. لكن قبل أن أقرر الكتابة عنها، طلبت من صديقٍ يسكن المنطقة، يُدعى برايان مارينر، أن يذهب ويتحرى الأمر. كتب لي رسالةً مطولةً شرح فيها قصة المسكون، ولم يبق لديّ شكٌّ في أن هذه حالةٌ حقيقية، وليست خدعة. سُحبت ابنة العائلة، ديان بريتشارد، من حلقها إلى الطابق العلوي على يد "الراهب الأسود" وأُلقيت من فراشها مرارًا وتكرارًا. لكن الشبح بدا أيضًا يتمتع بحس فكاهة. عندما جاءت العمة مود، وهي متشككةٌ مُصممة، لتتأكد بنفسها، طفا إبريق حليب من الثلاجة وسكب نفسه على رأسها. لاحقًا، ظهر ما بدا وكأنه يدان ضخمتان حول الباب: وتبين أنهما قفازات العمة مود المصنوعة من الفرو. وبينما طفت القفازات إلى غرفة النوم، سألت السيدة بريتشارد بسخط: "هل ما زلتِ تعتقدين أن الأطفال هم من يفعلون ذلك؟" بدأت العمة مودي بغناء أغنية "أيها الجنود المسيحيون إلى الأمام" وبدأت القفازات في قيادتها بالغناء والضرب في الوقت المناسب.

بعد دراسة تقرير بريان مارينر عن القضية، استنتجت أنه لا توجد مادة كافية هناك لكتاب كامل، ولكنها ستكون بمثابة قطعة مركزية رائعة لكتاب عن البولترجيست، حيث توجد كمية هائلة من المواد الموثقة جيدًا. يبدو أن حالات البولترجيست من بين أكثر الأحداث الخارقة للطبيعة شيوعًا - في أي لحظة معينة، ربما يكون هناك الآلاف منها تحدث في جميع أنحاء العالم، ومن المرجح أن يكون هناك واحد يحدث في غضون اثني عشر ميلاً من المكان الذي تقرأ فيه هذا الكتاب الآن. هذا، كما استنتجت، لأن العالم مليء بالمراهقين المضطربين جنسياً. رسمت مخططًا لتاريخ ظاهرة البولترجيست وقدمته إلى ناشري، الذي كتب ليقول إنه أعجب بالفكرة. ثم، برفقة زوجتي، انطلقت إلى يوركشاير للتحقيق بنفسي.

في طريقنا إلى بونتفراكت، توقفنا ليلةً في مركز هايز للمؤتمرات في سوانويك، ديربيشاير، حيث كنتُ سأُلقي محاضرةً في مؤتمرٍ حول الخوارق. في عصر اليوم التالي، وقبل مغادرتنا بقليل، ذكر أحدهم أن جاي بلاي فير سيصل خلال نصف ساعة. كنا نتبادل الرسائل، لكننا لم نلتقِ قط. لذا، ورغم حرصي على الوصول إلى يوركشاير، قررتُ البقاء نصف ساعة أخرى لأُعرّف بنفسي. كان هذا القرار من القرارات المصيرية التي تُؤثر تأثيرًا بالغًا على المستقبل.

عرفتُ أن جاي قضى بعض الوقت في ريو دي جانيرو، حيث انضم إلى الجمعية البرازيلية للأبحاث النفسية، ودرس النسخة المحلية من السحر الأسود، أومباندا. كنتُ أعرف كتابه "الحدود غير المحددة"، وهو دراسة علمية للظواهر الخارقة للطبيعة، وأُعجبتُ بمنطقيته وموضوعيته. أُعجبتُ أيضًا ببلايفير نفسه، رجل هادئ الطباع، ومع ذلك، حملت أقواله المتواضعة قناعةً تامة. لمدة نصف ساعة تقريبًا، تحدثنا عن خطوط الطاقة، وتوجيه الحيوانات، والتخاطر. ثم، عندما حان وقت المغادرة، أخبرته أنني أكتب كتابًا عن الروح الشريرة، وسألته عن رأيه. عبس، وتردد، ثم قال: "أعتقد أنها نوع من كرة القدم". "كرة القدم!" تساءلتُ إن كنتُ قد أسأت فهمه: "كرة قدم من الطاقة. عندما يدخل الناس في حالات من التوتر، فإنهم ينضحون بنوع من الطاقة - وهو النوع من الأشياء التي تحدث للمراهقين في سن البلوغ". يأتي بعض الأرواح، ويفعلون ما تفعله أي مجموعة من تلاميذ المدارس - يركلونها ويحطمون النوافذ ويحدثون الفوضى. ثم يتعبون ويتركونها. في الواقع، غالبًا ما تنفجر كرة القدم وتتحول إلى بركة ماء.

'هل تقصد أن البولترجيست هو في الواقع روح؟'

صحيح. لا أقول إنه لا وجود للتحريك النفسي التلقائي. لكن معظم الأشباح هي أرواح. ونصحني بقراءة أعمال الروحاني الفرنسي آلان كارديك.

يجب أن أعترف أنني وجدت هذه الفكرة صعبة التصديق. منذ إعدادي لبرنامج قضية روزنهايم، كنتُ أفترض أن الأرواح الشريرة هي نوع من التجليات الغريبة للعقل الباطن. لم أكن متأكدًا من مصدر الطاقة، لكنني شككت في أنها من الأرض نفسها. رأيتُ كاشفًا يقف فوق نبع تحت الأرض، أصابعه متشابكة ويداه تضخّان بقوة حتى تساقط العرق على وجهه: من الواضح أنه لم يستطع التوقف ويداه متشابكتان. وفي مؤتمر للكشف عن الأرواح الشريرة، تعرفتُ على سيدة عجوز كانت أحيانًا تلتقط غصنًا كبيرًا ساقطًا وتستخدمه كقضيب للكشف. معلقًا في إحدى يديه، كان يتأرجح من جانب إلى آخر كإبرة فولتميتر ضخمة. بدا لي من المرجح جدًا أن الطاقة التي يستخدمها الشرير تتدفق من الأرض عبر الجانب الأيمن من الدماغ للمراهق المضطرب. والآن

كان جاي بلاي فير ينصحني بالتخلي عن هذه النظريات المبنية بعناية والعودة إلى وجهة نظر تبدو مثل الخرافات الخام التي تعود إلى العصور الوسطى.

في عصر اليوم التالي، وصلنا إلى منزل جو وجين بريتشارد في بونتفراكت. كان منزلًا أنيقًا كعادته لعائلة من الطبقة العاملة الراقية. كان ابنهما فيليب، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، في المنزل، وخلال فترة ما بعد الظهر، جاءت ابنتهما ديان برفقة زوجها للانضمام إلينا. كان هذان الاثنان السبب اللاواعي للأحداث التي أحدثت ضجة محلية عام ١٩٦٦. سألتُ كيف بدأت الاضطرابات. "مع هذه البرك المائية على أرضية المطبخ." تبادلنا أنا وجوي النظرات. "هل يمكنكِ وصف شكلها؟" هزت السيدة بريتشارد رأسها. "كانت مجرد برك صغيرة أنيقة - مثل قلب زجاجة حبر." هذا، وفقًا لبلاي فير، كان وصفًا لبرك المياه الناتجة عن انفجار "كرة الطاقة". قال إنه يكاد يكون من المستحيل صنعها عن طريق سكب الماء على الأرض - من إبريق مثلاً - لأنه يتناثر. تبدو هذه البرك كما لو أن قطة صغيرة وضعت مؤخرتها بالقرب من الأرض وبولت. بدأت أشعر أن هناك شيئًا ما في نظريته الروحية في النهاية.

قالت السيدة بريتشارد إنه بمجرد تنظيفهم للمسابح، عادت المياه إلى أماكن أخرى. لكن مسؤولي الإيهام بالغرق لم يجدوا أي تسرب. وعندما فُتح الصنبور، اندفعت رغوة خضراء. ثم بدأ زر موزع الشاي يتحرك للداخل والخارج، مُغطيًا لوح التصريف بأوراق الشاي الجافة؛ وأُطفئت الأضواء وأُضيئت، ووجدت أصيص نباتات طريقه بطريقة ما من أسفل الدرج إلى أعلاه.

حدثت هذه المجموعة الأولى من المظاهر في عام 1966 وكان من الواضح أن فيليب كان محور الاهتمام لأن ديان كانت في إجازة في ذلك الوقت. بعد يومين، توقفت. ولكن عندما بدأت مرة أخرى في عام 1968 أصبحت ديان - التي كانت تبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عامًا - محور الاهتمام. نادرًا ما كان الشبح يزورها خلال النهار عندما تكون في المدرسة. ولكن في المساء يبدأ الضجيج - عادةً ما يكون صوتًا يشبه صوت طفل يدق طبلًا كبيرًا - وتطفو الزينة في جميع أنحاء الغرفة بينما تُضاء الأضواء وتُطفأ بشكل متقطع. ومع ذلك لم يبدُ الشبح خبيثًا - بل كان مزحة عملية مثيرة للغضب. بعد اصطدام هائل، عُثر على جميع محتويات خزانة الصين متناثرة في جميع أنحاء غرفة الجلوس، ومع ذلك لم يكن أي منها متصدعًا. عندما جاء القس لمحاولة طرد الشبح وأخبر العائلة أنه يعتقد أن مشكلتهم هي الهبوط، ارتفع شمعدان من الرف وطفا تحت أنفه. لم ينجح طرد الأرواح الشريرة.

وجدت ديان الأمر مخيفًا، لكن أقل مما كان متوقعًا. كانت تشعر دائمًا بنوع من الإشعار الداخلي عندما توشك المقالب على البدء. أُلقيت بعنف من السرير مع المرتبة فوقها، ولم تُصب بأذى. عندما طفت حاملة القاعة - المصنوعة من خشب البلوط الثقيل - في الهواء وثبتتها على الدرج (مع وجود ماكينة خياطة فوقه لمزيد من الثبات)، كانت...

لم تستطع الحركة، ولم تستطع العائلة تحريكها، ومع ذلك لم تُصب بأذى. عندما ألقى الشبح - الذي كانوا يُلقّبونه بالسيد لا أحد - ساعة الجدّ إلى الطابق السفلي فانفجرت كالقنبلة، لم يكن أحدٌ قريبًا.

في مرحلة متأخرة من مطاردة الأرواح، بدأ الشبح بالظهور. استيقظ جان وجو بريتشارد ذات ليلة ليريا شخصًا باهتًا يقف عند المدخل المفتوح. كانت جارتهما تقف عند المغسلة عندما شعرت بشخص يقف خلفها: اتضح أنه شخص طويل القامة يرتدي زي راهب ويغطي رأسه بقلنسوة. بدا قويًا وطبيعيًا لدرجة أنها لم تشعر بأي قلق: ثم اختفى. كان جار آخر، رينيه هولدن (الذي كان لديه بعض القدرات الخارقة)، في غرفة جلوس عائلة بريتشارد عندما انطفأت الأنوار. في الضوء الخافت لمصباح الشارع الذي تسلل عبر الستائر، رأت النصف السفلي من شخص يرتدي ثوبًا أسود طويلًا.

كان الرعب يقترب من ذروته. في إحدى الأمسيات، عندما انطفأت الأنوار، سُمعت ديان تصرخ: هرعت العائلة إلى الردهة ووجدوها تُسحب على الدرج. بدا أن الشبح يضع إحدى يديه على سترتها الصوفية الممدودة أمامها، والأخرى على حلقها. وبينما أمسكها فيليب وجين بريتشارد، أفلتها الشبح، وسقطوا جميعًا على الدرج. كان حلق ديان مغطى بعلامات أصابع حمراء، إلا أن السيد نوبدي لم يضغط عليها بما يكفي لإيذائها. بعد ذلك بقليل، نزلت جين بريتشارد إلى الطابق السفلي لتجد سجادة الردهة غارقة في الماء؛ وعلى سطحها المبلل آثار أقدام ضخمة.

في أحد الأيام، كان فيليب وديان يشاهدان التلفاز عندما رأيا الراهب الأسود - أو على الأقل شكله - يلوح في الأفق على الجانب الآخر من الباب الزجاجي المُعتم المُؤدي إلى غرفة الطعام. عندما فتح فيليب الباب، رأيا شكله الأسود الطويل وهو يختفي. بدا وكأنه يختفي في أرضية المطبخ. وهكذا انتهت رحلة بونتفراكت المسكونة. اختفى السيد نوبدي، ولم يُسمع عنه شيء منذ ذلك الحين.

قضيتُ عصر ذلك الأحد بأكمله أستمع إلى تسجيلاتٍ للشبح وهو يُصدر أصواتًا عنيفة، وأسأل العائلة والجيران. كما قرأتُ التقارير المنشورة في الصحف المحلية آنذاك. لم يكن هناك أدنى شكٍّ معقول في أن هذا المشهد المسكون حقيقي: فقد كان هناك عددٌ كبيرٌ من الشهود.

حتى لو لم ألتقِ بغاي بلاي فير، لكانت بعض ملامح القضية قد حيّرتني. كان هذا الروح الشرير يتصرف كالشبح، وكانت صلته بدير كلونياك السابق والمشنقة المحلية راسخة إلى حد ما. في تلك الحالة، بدت نظرية أنه كان في الواقع نوعًا من الأحداث الجانحين النجميين من عقل ديان اللاواعي سخيفة. علاوة على ذلك، بينما كانت ديان تصف مشاعرها عندما سحبها السيد نوبدي إلى الطابق العلوي، شعرتُ ب...

اقتناعٌ تامٌّ مفاجئٌ بأنّ هذا كيانٌ مستقلٌّ، وليس شظيةً منفصلةً عن نفسها. عندما غادرتُ منزل آل بريتشارد عصر ذلك اليوم، لم يكن لديّ شكٌّ مطلقٌ في أنّ غاي بلاي فير كان على حقّ: الأشباح هي أرواح.

كان اعترافًا مُحرجًا. باستثناء جاي بلاي فير، ربما لا يوجد عالم باراسيكولوجي واحد محترم في العالم سيعترف علنًا بوجود الأرواح. سيُقرّ الكثيرون سرًا بميلهم إلى قبول أدلة الحياة بعد الموت، ولكن في المطبوعات، حتى هذا الاعتراف سيُعتبر علامة ضعف. قبل تلك الرحلة إلى بونتفراكت، كنتُ على اتفاقٍ أساسي معهم: بدا من غير الضروري تمامًا افتراض وجود الأرواح. فسّرت نظرية "التسجيل الصوتي" لتوم ليثبريدج ظاهرة الأشباح؛ وفسّرت نظرية العقل اللاواعي وجود الأرواح الشريرة؛ واجتمعت مفاهيم "الوعي المزدوج" و"عالم المعلومات" لتفسير ألغاز مثل التخاطر، وقياس النفس، وحتى الاستبصار. أما الأرواح، فكانت غير ذات صلة على الإطلاق. مع ذلك، لم تترك لي قضية بونتفراكت أدنى شك في أن الكيان المعروف باسم السيد نوبدي كان روحًا - على الأرجح راهبًا محليًا مات موتًا مفاجئًا وعنيفًا، ربما على المشنقة، وقد يكون على علم بموته أو لا. ولا بد لي من الاعتراف بأن كتابة مثل هذه الجملة لا تزال تثير في نفسي نوعًا من الاعتراض: فالعقلاني بداخلي يريد أن يقول: "كفى...". ومع ذلك، تشير الأدلة بوضوح إلى هذا الاتجاه، وسيكون من الخداع ببساطة عدم الاعتراف بذلك.

عندما عدتُ من يوركشاير، أخذتُ نفسًا عميقًا وانغمستُ في سجلات نشاط البولترجيست بمساعدة مكتبة جمعية البحوث النفسية وكلية الدراسات النفسية. الصورة التي بدأت تتبلور الآن جعلتني أُدرك إلى أي مدى دفعتني أفكاري المسبقة إلى فرض منطق غير طبيعي على موضوع الخوارق برمته. لم تكن المفاهيم التي يقوم عليها كتاب "الغيبيات والأسرار" خاطئة بقدر ما كانت ناقصة. وكان الكثير من الأدلة اللازمة لإكمالها واضحًا لي منذ البداية.

بدأت، بناء على نصيحة جاي بلاي فير، بقراءة كتاب آلان كارديك.

*يُعلمني نيكولاس كلارك-لويس، أمين مكتبة جمعية الأبحاث النفسية، أن الدكتور ليبسلي يظهر في سجلاتهم باسم الدكتور جيمس إتش إم ليبسلي، الحاصل على دكتوراه في الطب، والذي عاش في باسادينا، كاليفورنيا عام 1922 وانتقل إلى هونولولو عام 1928. وكان آخر ظهور له في سجلات جمعية الأبحاث النفسية عام 1949.

*مجلة علم النفس غير الطبيعي، 1916.

*وقد تم وصف هذه الحالة بالتفصيل في كتاب لومبروزو "بعد الموت - ماذا؟" وفي كتابي "بولترجيست، دراسة في المطاردة المدمرة" (1981).

2
الحقيقة حول السحر

كان آلان كارديك أحد أوائل المتحولين إلى الروحانية وأكثرهم تأثيرًا. وُلد كارديك في ليون عام 1804 وكان اسمه الحقيقي دينيسارد هيبوليت ليون ريفيل، وكان ينحدر من أجيال من المحامين والقضاة. التحق بمدرسة عالم التربية العظيم بيستالوزي وسرعان ما كشف عن ذكاء لامع وواسع النطاق. ومثل روسكين أو كارليل في إنجلترا، كان معلمًا بالفطرة. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه الثلاثين من عمره كان مؤلفًا لقواعد اللغة الفرنسية وعمل في الحساب وأطروحة في التعليم. ألقى محاضرات ناجحة للغاية في علم الفلك والكيمياء والفيزياء وعلم التشريح وأصبح عضوًا في العديد من الجمعيات العلمية. كما كان مفتونًا بمسمر العظيم، الذي مات وحيدًا ومُشوهًا في عام 1815، عن عمر يناهز 81 عامًا. في خمسينيات القرن التاسع عشر، كان معظم الأطباء الفرنسيين يخشون الاعتراف باهتمامهم بالتنويم المغناطيسي؛ كان ذلك ليُعادل انهيارًا مهنيًا. لكن ريفيل لم يكن بحاجة إلى الحذر؛ فقد كان عالمًا مشهورًا يتمتع باستقلالية مالية، ولم يكن عليه أن يخشى كيد رفاقه. وهكذا، في مايو ١٨٥٥، عندما كان في الخمسين من عمره، حضر جلسة تنويم مغناطيسي مع مدام روجر، التي كانت، وهي في حالة غيبوبة، قادرة على أداء مآثر خارقة للطبيعة، مثل قراءة الأفكار. في تلك الجلسة، التقى ريفيل بمدام بلينيميسون، التي أقنعته بحضور جلسة استحضار أرواح في منزلها. هناك، اندهش هذا التلميذ للموسوعيين الفرنسيين لرؤية الطاولات ترقص وتتحرك في الغرفة. (لقد مرت سبع سنوات منذ ظهور الروحانيات في منزل عائلة فوكس في نيويورك، وأصبحت الروحانية بالفعل أحدث صيحة في جميع أنحاء أوروبا).

في منزل السيدة بلينيميسون، التقى ريفيل بالسيد بودان، الذي أخبره أن ابنتيه تمارسان الكتابة الآلية. كانتا على ما يبدو فتاتين تافهتين، مولعتين بالرقص والحفلات. ولكن عندما سألهما ريفيل أسئلة، ركضت أيديهما على الورقة وأعطتا إجابات تفوق بكثير ذكاء ناسخي الروح الجذابين. عندما سُئل: "هل الكثافة سمة أساسية للمادة؟" أجاب الذكاء المجرد: "نعم، للمادة كما تفهمها أنت، ولكن ليس للمادة باعتبارها السائل الكوني. إن المادة الأثيرية والدقيقة التي تشكل هذا السائل غير قابلة للقياس بالنسبة لك، ومع ذلك فهي مبدأ مادتك القابلة للقياس". عندما سُئل المتواصل عن سبب كون إجاباته أكثر من ذلك بكثير

كان هذا الإلهام أعمق من أي شيء تم نقله إلى الفتيات حتى الآن، فقد أوضح أن أرواحًا من مستوى أعلى بكثير جاءت خصيصًا من أجله، لتمكينه من تحقيق مهمة دينية.

عندما جمع ريفيل كمًا هائلًا من المعلومات، طُلب منه نشرها باسمه المستعار "آلان كارديك" - وهما الاسمان اللذان حملهما في تجسيدات سابقة. حقق كتاب الأرواح نجاحًا واسع النطاق وسريعًا، وكان من أوائل الكتب الكلاسيكية في الروحانية، وربما من أهمها.

إن فلسفة كتاب الأرواح عميقة ومتماسكة بشكل ملحوظ. يتخلل الكون مبدأ حيوي، لكن "الحياة" تعني اتحاد الروح والمادة. هذا المبدأ الحيوي، أو السائل، يبدو كـ"السائل المغناطيسي" عند مسمر. عندما يُحجب، تكون النتيجة اعتلال الصحة. يتخلل الكون أيضًا ذكاءات غير مجسدة، والبشر هم مثل هذه الذكاءات محصورة داخل جسد. لكن الغرض من وجودهم كبشر هو تطور معين. عندما يموت الجسد، تتجسد الروح في النهاية في جسد آخر. في هذه الأثناء، وحسب حالة تطورها، قد تتجول، غير مدركة لحالتها. قد تكون هذه الأرواح غير الناضجة مسؤولة عن أشكال مختلفة من الأذى مثل تأثيرات الأشباح، أو قد تظهر في جلسات استحضار الأرواح وتتحدث هراءً. علم كارديك أن مثل هذه الروح كانت سبب اضطرابات عنيفة في شارع نوييه، حيث تناثرت الأشياء وحُطمت جميع النوافذ. كان الجاني في هذه الحالة رجلاً ثملاً من عظام الخردة، مات منذ خمسين عامًا، وكان ينتقم من الناس لمعاملتهم له دون احترام خلال حياته. حصل على "الطاقة المغناطيسية" اللازمة من خادمة في المنزل: لم تكن الفتاة المسكينة على دراية بأن طاقاتها تُستنزف، وكانت أكثر رعبًا من أي شخص من "الشبح". كان رجل الخرق والعظام مصنفًا كروح دنيا، أحد أولئك الذين وقعوا في فخ العالم المادي ومدمني الأذى. لا تختبر أرواح الدرجة الثانية الأكثر تطورًا سوى الرغبة في الخير، بينما وصلت الأرواح الكاملة إلى ذروة تطورها. إلى حد ما، يمكن للروح اختيار التجارب التي ستخوضها في حياتها التالية: يتم اختيارها لغرض التطور. (كان رودولف شتاينر قد قال ذات مرة: "لا تشتكي أبدًا من نصيبك، لأنك اخترته قبل أن تولد"). كما ذكر مخبرو كارديك أن الإنسان كائن رباعي يتكون من الجسد، والمبدأ الحيوي ('الهالة')، والروح الذكية، والروح الروحية - نفس التقسيمات التي يمكن العثور عليها في شتاينر وفريدريك هاوف، "عرافة بريفورست".

على الرغم من نجاحه، سرعان ما أثار كتاب "كتاب الأرواح" جدلاً حاداً في الحركة الروحانية الفرنسية. وبشكل عام، لا يقبل الروحانيون عقيدة التناسخ، التي تُشكّل جوهر عقيدة كارديك.

كان ألفونس كاهاجنيه، المنافس الرئيسي لكاردِك كمصدر للمعلومات "الروحية"، رجلاً يُدعى ألفونس كاهاجنيه، الذي حصل على معلوماته عن العالم الآخر من خلال امرأة تُدعى أديل ماجينو، لم تُشر إلى التناسخ. سرعان ما انقسمت الحركة الروحانية الفرنسية إلى قسمين، وبما أن كارِكه سيُتوفى عام ١٨٦٩، أي قبل كاهاجنيه بستة عشر عامًا، فقد كانت عقائده أول ما رُفض بشكل عام. لكن كتاب الأرواح وخليفته كتاب الوسطاء شقّا طريقهما عبر المحيط الأطلسي إلى البرازيل، حيث ازدهرت بالفعل ديانة روحانية قوية (تعتمد، إلى حد ما، على الفودو)، وحيث أصبحتا من الكلاسيكيات الدينية، وتُحظى بتقدير يُضاهي تقدير العهد الجديد. لا تزال الروحانية (أو الكاردِكية) أكثر المعتقدات الدينية انتشارًا في البرازيل. وهناك اكتشفها غي بلايفير عندما وصل إلى ريو دي جانيرو عام ١٩٦١.

في رواية البقرة الطائرة، وصف بلاي فير تجربته المذهلة في عالم الروحانية. كان يعاني من ألم بسيط في المعدة، فأخذه صديق إلى معالج يُدعى إديفالدو سيلفا، فأعطاه بعض الحبوب، وأمره بالعودة لإجراء عملية جراحية. كان مستلقيًا على الطاولة رجل عجوز تمزق بطنه على مصراعيه، كاشفًا عن أحشائه. وبعد دقائق قليلة، ساعدت زوجته الرجل العجوز، وطُلب من بلاي فير الاستلقاء. بعد لحظات، شعر بلاي فير بنقرة واضحة عندما دخلت يدا إديفالدو معدته، التي شعرت فجأة بالبلل في جميع أنحاء معدته كما لو كان ينزف حتى الموت. شعر بدغدغة ورائحة تشبه رائحة الأثير. ثم قيل له إن الأمر قد انتهى: وضُع عليه ضمادة، وخرج من الغرفة وهو يشعر بتيبس غريب وضعف إلى حد ما. استقل سيارة أجرة إلى منزله. في اليوم التالي، شعر بحالته الطبيعية مرة أخرى. بعد بضعة أشهر، لم تُشفَ تمامًا من ألم المعدة، فعاد إلى التجربة برمتها: في هذه المرة شعر وكأن هناك يدين داخل جسده. ثم أُخبر أنه يستطيع الذهاب. هذه المرة، اختفت الآلام (التي يُفترض أنها ناجمة عن قرحة) لمدة عام. بدأ بلاي فير يقضي كل وقت فراغه في عيادة إديفالدو، يشاهده وهو يُدخل يديه في أجساد المرضى، ثم يُبقي الجسد سليمًا بعد العملية.

بالنسبة للقارئ غير المستعد، يبدو هذا الجزء من سرد بلاي فير سخيفًا لدرجة أنه من المؤكد أنه سيثير الشكوك حول كونه إما (أ) مجنونًا (ب) كاذبًا أو (ج) ساذجًا للغاية. لحسن الحظ، لم أكن غير مستعد تمامًا. أثناء كتابة كتاب "الغيبيات"، صادفتُ كتاب بيدرو ماكجريجور "القمر والجبلان"، وهو دراسة مهمة عن السحر والروحانية في البرازيل، سبقت كتاب "البقرة الطائرة" بتسع سنوات، والذي خصص فصلًا كاملاً لمناقشة خوسيه بيدرو دي فريتاس، المعروف بلقبه "أريغو"، أي البسيط. في عام ١٩٥٨، ادعى أريغو أنه "استولى عليه" روح جراح ألماني قُتل في الحرب العالمية الأولى: الآن يُجري عمليات معقدة مثل إزالة الأورام بسكين مطبخ.

مشرط، مقص، وملقط. كنت قد استشهدت بفقرةٍ شهد فيها عددٌ من الأطباء البارزين أريغو وهو يُدخل مقصاتٍ ومشارط في مهبل امرأةٍ شابةٍ تعاني من ورمٍ في الرحم: لاحظ الشهود أن أريغو كان يُمسك بمقبضٍ واحدٍ فقط من المقص، بينما كان الآخر يتحرك للداخل والخارج أثناء القطع. بعد أن قال أريغو: "لا دم يا رب"، توقف النزيف، وأزال الورم وسد الجرح بضغط حوافه بأصابعه.

كان من المقرر أن يموت أريغو في حادث سيارة عام 1971، ولكن ليس قبل أن يزور فريق من الأطباء والعلماء الأمريكيين قريته ليشهدوا عملياته. وقد وصف جون جي فولر ما رأوه في كتاب بعنوان "أريغو - جراح السكين الصدئ"، ويصف الكتاب العديد من هذه العمليات ويستشهد بالعديد من الشهود البارزين لدرجة أن القارئ يصبح في النهاية ثملًا بعض الشيء. وبحلول الوقت الذي قرأت فيه الكتاب، كنت قد أصبحت صديقًا لاثنين من العلماء - أندريا بوهاريتش وتيد باستين - وبالتالي كان لديهم تأكيد مباشر. لقد شاهدت أيضًا الفيلم الهواة الذي صنعه تيد باستين لأريجو، والذي ظهر فيه وهو يدفع سكينًا في عيني مريضين ويستخرج كتلة من القيح. بالمقارنة مع الأشياء التي وصفها فولر، كان الأمر مخيبًا للآمال إلى حد ما، لكنني لم أستطع مشاركة رأي اثنين من رفاقه في العرض، الراحل الدكتور كريستوفر إيفانز والساحر "راندي المذهل"، بأن الأمر برمته كان مزيفًا. لقد كان صحيحاً أن فيلماً مثل هذا لم يكن دليلاً نهائياً على أصالة أريغو، ولكن ما لم تكن كل الروايات الأخرى التي شهدناها جزءاً من مؤامرة، فمن المؤكد بنسبة 99% أن أريغو كان حقيقياً (على أية حال لم يكن لديه ما يكسبه من الاحتيال لأنه، مثل إيديفالدو، لم يتقاض أي أجر)، وفي هذه الحالة كان من الطبيعي أن تكون العمليات التي جرت في الفيلم حقيقية أيضاً.

عندما قرأتُ رواية غاي بلاي فير، أدركتُ فجأةً جوهرَ مشكلة "الغيبيات". فبالنسبة لشخصٍ مثل بلاي فير أو باستن أو بوهاريتش، ممن شهدوا مثل هذه الأمور، من البديهي أن تناقضها مع النظرية الطبية يعني بالضرورة خطأها. وأناسٌ مثلي، ممن لم يشهدوا الظواهر، بل قرأوا عنها وتحدثوا إلى أشخاصٍ صادقين شهدوها، مقتنعون تمامًا بأن مثل هذه الأمور تحدث بالفعل، وبالتالي فإن عالم ما وراء الطبيعة واقعٌ لا مجرد خرافة. لكن العلماء المتشككين الذين يعيشون في لندن أو نيويورك قد استنتجوا بالفعل أن ما وراء الطبيعة غير موجود، لأنه لا يمكن أن يوجد. ودون استثناء تقريبًا، لن يُكلفوا أنفسهم عناء زيارة جراحٍ نفسي حتى لو كان أحدهم قريبًا منهم: يقولون لك بضجرٍ إنهم يعلمون أن شيئًا لن يحدث، أو أنه إن حدث فسيكون خدعة. كل ما هم مستعدون له هو دراسة الأدلة من مصادرها الأصلية، ويفضل أن تكون في صيغةٍ سهلة الفهم، لأنهم جميعًا يفتقرون إلى الصبر، ثم يُختلقون الاعتراضات. ونتيجة مداولاتهم يتم قبولها بعد ذلك من قبل

ينظر المجتمع العلمي إلى هذه الآراء على أنها استنتاجات موضوعية لعلماء ذوي رؤى واقعية. في الواقع، إنها ليست أكثر من مجرد تكرار لآراء عبّروا عنها لسنوات، آراء لا تتغير لأن العلماء لا ينوون البتة دراسة الأدلة.

كان أحد الجناة الرئيسيين، كريستوفر إيفانز، صديقًا وزميلًا قديمًا
- حتى أننا حرّرنا سلسلة من الكتب معًا - ووجدتُ رواية "راندي المذهلة" محببةً ومعقولةً. كان مارتن غاردنر، المتشكك الأمريكي الرائد، صديقًا قديمًا لي أيضًا. (وللأسف، لم يعد كذلك: فقد ازداد غضبه من انتقاداتي، وقطع المراسلة في النهاية). ولكن ما إن اتضح أنهم متشبثون بنوع من الجمود العقائدي، حتى اتضح أنهم ببساطة لا يملكون الحق في الحكم على الحقائق؛ لم يكن لديهم في الواقع ما يقولونه، سوى تكرار قناعاتهم القديمة، التي مهما بلغت صدقها، كانت غير ذات صلة كدليل. لم يسعني إلا أن أؤيد التعليق الغاضب الذي أدلى به الباحث الأمريكي البروفيسور جيمس هيسلوب، الذي قال: "أعتبر وجود الأرواح المجردة أمرًا مثبتًا علميًا، ولم أعد أعتبر المتشكك صاحب حق في الحديث عن هذا الموضوع. أي رجل لا يقبل وجود الأرواح المجردة ودليلها إما جاهل أو جبان أخلاقيًا". أنا لا أتعامل معه بموضوعية، ولا أنوي الجدال معه على افتراض أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع. وسواء كان هذا التهكم مبررًا علميًا أم لا، فإنني أفهم تمامًا شعور هيسلوب - كما يفهمه بلا شك معظم قراء رواية جاي بلاي فير لتجربته الشخصية مع "الجراحة النفسية".

في الواقع، كانت هذه مجرد البداية بالنسبة لبلاى فير. انضم إلى المعهد البرازيلي للبحوث النفسية الحيوية الفيزيائية (IBPP) وانتقل إلى ساو باولو ودرس المزيد من الجراحين النفسيين. ثم سمع عن حالة من حالات مطاردة الأرواح الشريرة ووافق على البحث فيها لصالح المعهد. في أكتوبر 1973، جلس في منزل امرأة برتغالية مطلقة يقرأكتاب فرانك بودمور - المحقق المتشكك للغاية في جمعية البحوث النفسية - عن الأرواح الشريرة وينتظر حدوث شيء ما. بدأكل شيء وهو ينام: سلسلة من الانفجارات العالية التي هزت المنزل لكنها فشلت في التسبب في اهتزاز الأشياء كما تفعل الانفجارات عادةً. في الواقع، أظهر التحليل المختبري أن انفجارات الأرواح الشريرة تبدو مختلفة عن الانفجارات العادية. يظهر على الرسم البياني صوت عادي له منحنى يرتفع وينخفض مثل الجبل: تبدأ الانفجارات الروحية وتنتهي فجأة، مثل المنحدرات. لاحقًا، قفز مسند قدم من على الدرج، ودُفع درج مليء بالملابس إلى الفناء، وسُحبت وسادة من تحت رأس نورا، زوجة ابن المنزل. لاحظ بلاي فير مرارًا وتكرارًا أن مثل هذه الأمور تحدث عند النوم أو الاستيقاظ: افترض أن هذا مجرد توقيت ذكي لتجنب المراقبة. لكن أبحاث مافروماتيس في حالات التنويم تُشير إلى تفسير آخر. إذا كانت حالة الشفق بين

إذا كان النوم والاستيقاظ يجعل البشر أكثر "قدرة نفسية" (أي يسمح لهم بالدخول إلى حالة أخرى من الوجود)، فقد يكون بابًا ذا اتجاهين يسمح أيضًا لسكان العالم النفسي بغزو العالم المادي.

بمجرد أن اقتنع فريق IBPP بأنهم يتعاملون مع روح شريرة حقيقية وليست طفلاً مؤذٍ أو بالغًا خبيثًا، اتخذوا خطوات للتخلص منه. أرسلت عائلة بريتشارد من بونتفراكت إلى القس، غير مدركين أن طرد الأرواح الشريرة عديم الفائدة تمامًا في حالات الأرواح الشريرة. (يوضح كارديك أن هذا يرجع إلى أن الأرواح الشريرة ليست أرواحًا شريرة بل مجرد مزاحين عمليين مؤذين). يعرف البرازيليون، الأكثر خبرة، أن أفضل طريقة هي استخدام الوسطاء للتواصل مع الروح. جاء فريق من أربعة وسطاء إلى المنزل، وعلى الرغم من فشلهم في "التواصل"، فقد طلبوا من "مرشديهم الروحيين" إقناع الروح الشريرة بالذهاب إلى مكان آخر. لمدة أسبوعين بدا الأمر كما لو أن هذا قد نجح: ثم بدأت المظاهر مرة أخرى. (كان لدى الروح الشريرة عادة سيئة تتمثل في إشعال حرائق صغيرة). لذلك قررت العائلة اتخاذ الخطوة النهائية. استدعوا خبيرًا في الكاندومبليه - الكاندومبليه طائفة ذات تأثير أفريقي مرتبطة بالفودو. أمضى فريق الكاندومبليه عدة أيام في حرق البخور واستحضار أرواحهم لطرد الروح الشريرة. ويبدو أن هذا نجح: عندما تحقق بلاي فير بعد ثلاثة أشهر، كان كل شيء صامتًا.

في هذه المرحلة من روايته، أدلى بلاي فير بتصريح من شأنه بلا شك أن يسبب دهشة كبيرة بين أعضاء جمعية الأبحاث النفسية:

هيرناني غيمارايس أندرادي، العالم الروحاني، والأب كارلوس، طارد الأرواح الشريرة الكاثوليكي المحترف، وشيخ الكاندومبلي الشاب، يتفقون على رأي واحد. فهم مقتنعون بأن الأرواح الشريرة هي نتيجة سحر أسود، إلا في الحالات التي يكون فيها المكان مسكونًا، لا الناس.

يقول السيد أندرادي: "في كل حالة من حالات نشاط الأرواح الشريرة الموجهة من قِبل أشخاص، والتي تمكنتُ فيها من دراسة الخلفية العائلية، كانت هناك أدلة على أن أحد أفراد المنزل قد يكون هدفًا للانتقام من روح. قد يكون حبيبًا سابقًا انتحر، أو قريبًا غيورًا، أو جارًا حاقدًا، أو حتى فردًا من العائلة نفسها يكنّ ضغينة تافهة. أي برازيلي يدرك جيدًا أن هذا البلد مليء بمراكز السحر الأسود (كويمباندا) في الفناء الخلفي، حيث يستخدم الناس قوى الأرواح لأغراض شريرة".

بالنسبة لأي شخص متعلم في الغرب، يبدو هذا تصريحًا مذهلاً، مُدهشًا في سخافته - ليس أقل من خرافة بدائية. أقنعته تجارب بلاي فير في البرازيل بأنها الحقيقة المطلقة، كما هو الحال مع رواية ماكس فريدوم لونغ.

أقنعته تجاربه في هاواي بإمكانية استخدام الأرواح الشريرة (البولترجيست) لأغراض خبيثة. في الواقع، عندما قرأ بلاي فير كتاب ماكس فريدوم لونغ "العلم السري وراء المعجزات"، أدرك فورًا أن لونغ وأندرادي كانا متفقين جوهريًا بشأن الأرواح. وفقًا للهوناس، قد تنفصل "أرواح" الإنسان الثلاثة عند الموت. الذات الدنيوية، التي تمتلك ذاكرة، قد يُقنعها كاهن ساحر أو ممارس سحر أسود بارتكاب الأذى: هؤلاء هم البولترجيست، الأرواح المستخدمة في صلاة الموت. إذا انفصلت الذات الوسطى، فإنها تصبح شبحًا، تائهًا بلا عقل في مشاهد حياتها الماضية، لأنها لا ذاكرة لها.

في حالة الأسرة البرتغالية، رأى خبير الكاندومبليه أن هذه حالة من السحر الأسود، ووافقت PIBP على هذا الرأي. استمرت القضية ست سنوات، منذ أن تزوجت نورا من ابن الأسرة. تلقى أفراد الأسرة مكالمات هاتفية معادية؛ وعُثر على صور لإحدى بناتها، مخيطة بخيط، على الأرض - وهي علامة على السحر؛ وقد غيرت الأسرة منازلها ثلاث مرات خلال فترة المسكون، وحاولت نورا الانتحار مرتين. معظم مسكونات الأشباح لا تدوم إلا لفترة قصيرة - ربما، كما في حالة الراهب الأسود من بونتفراكت، بضعة أشهر. لكي تستمر القضية دون هوادة لمدة ست سنوات، يبدو أن الكيان يحتاج إلى هدف ما بعيدًا عن شعوره الصبياني بالضرر. ووفقًا لـ IBPP، لا يمكن توفير هذا الهدف إلا من قبل ساحر أسود.

- ربما، كما يقول أندرادي، بعض "سكان الفناء الخلفي" الذين سوف يلقون التعويذات مقابل المال.

في كتابه "ملعب الطبول والشموع"، وصف صديق ديفيد سانت كلير تجربته الشخصية في "السحر". عاش لمدة ثماني سنوات في شقة جميلة في ريو دي جانيرو، تخدمها خادمة جميلة سمراء البشرة تُدعى إيدنا. يؤكد للقارئ أنها لم تكن أكثر من خادمة. أخيرًا، عندما قرر سانت كلير مغادرة البرازيل، أعطاها مهلة ستة أشهر. فجأة، بدأت الأمور تسوء: تعطل الكتاب الذي كان يعمل عليه بشدة؛ رفضه ناشره؛ لم يكتمل ميراثه؛ فشلت علاقة غرامية؛ أصيب بمرض الملاريا. اضطر إلى تأجيل خططه للانتقال إلى اليونان.

ثم أوقفه صديق روحاني في الشارع وأخبره أن أحدهم قد ألقى عليه لعنة: "أُغلقت جميع طرقه". في الواقع، بدا الأمر مألوفًا في دوائر الأومباندا (الفودو). استقرت شكوك سانت كلير أخيرًا على خادمته الجميلة إدنا. صحيح أنها كاثوليكية تدّعي رفضها الأومباندا، ولكن عندما علم سانت كلير بإمكانية استدعاء اللعنة باستخدام قطعة ملابس شخصية، تذكر أن جواربه كانت تختفي مؤخرًا، وأن إدنا زعمت أنها انقطعت عن الشبكة. أخبر إدنا أنه يريد حضور جلسة أومباندا. بعد وقت طويل

احتجت على أنها وافقت على اصطحابه.

مع حلول منتصف الليل، بدأ الرقص الطقسي. ثم دخلت كاهنة أومباندا ورقصت كأنها ممسوسة. بعد شربة كحولية احتفالية - بصقت منها رشفة في وجه القديس كلير - سُئل وسيط روحي من الذي لعنه؟ فكان الرد: "الشخص الذي اشتراه هنا. تريدك أن تتزوجها أو تشتري لها منزلًا مع قطعة أرض". ثم أُمرت إدنا بالمغادرة، وبعد ذلك كان هناك المزيد من قرع الطبول والرقص الطقسي لرفع اللعنة. أخيرًا، قالت له الكاهنة: "أنت الآن حر".

بعد ذلك مباشرةً، تبدّل حظّ سانت كلير: دخل المال، وقُبل الكتاب، واستأنفت قصة الحبّ. لكنّ إدنا نفسها أُصيبت بمرضٍ خطيرٍ بسبب ورمٍ في المعدة. أخبرها كاهنٌ من طائفة أومباندا استشارته أنّ اللعنة التي ألقتها على سانت كلير قد ارتدّت عليها وستستمرّ ما دامت معه. عندها، اعترفت إدنا بأنّها حاولت تزويجه منها بالسحر الأسود، ثمّ انسحبت من حياته، مُقرّةً بأنّها جلبت على نفسها سوء الحظّ.

عندما وصل سانت كلير إلى ريو، ذهل من خرافات أصدقائه المثقفين. يروي أنه رأى تمثالًا طينيًا للشيطان محاطًا بشموع مشتعلة على رصيف شارع رئيسي: عندما انحنى ليلمسه، جذبه صديق له قائلًا: "إنه ديسباتشو"، وهو قربان للروح. سأله سانت كلير بدهشة: "ألا تصدق كل هذا الكلام؟" فأجابه أصدقاؤه بأنهم لا يصدقونه، لكنهم مع ذلك لم يسمحوا له بلمسه. بعد ذلك، رأى سانت كلير العديد من هذه القرابين على الرصيف. ولاحظ أن حتى المتسولين الجائعين لا يلمسون قرابين الدجاج المطبوخ، وأن الكلاب تشمّها ثم تتراجع.

أثارت قضيةٌ، على ما يبدو، اهتمام بلاي فير، إذ أظهرت أنه على عكس الافتراضات المعتادة، فإن الأرواح الشريرة ترتكب أحيانًا أذىً مميتًا. ففي ديسمبر 1965، زار عائلة كاثوليكية تعيش في بلدة جابوتيكابال الصغيرة ما وصفه بلاي فير بأنه "أحد أكثر الأرواح الشريرة شرًا في التاريخ". بدأ الأمر برشق الحجارة - أو بالأحرى رمي الطوب. جاء روحاني يُدعى فولبي لمعاينة الوضع، وقرر أن محور النشاط كان فتاةً جميلة تبلغ من العمر أحد عشر عامًا تُدعى ماريا خوسيه فيريرا، وهي وسيطة روحية طبيعية كانت تُقرض الأرواح طاقتها دون وعي. اصطحب الفتاة إلى منزله، وسرعان ما تطاير الطوب هناك أيضًا. ولكن في هذه المرحلة، بدت الأرواح ودودة إلى حد ما: إذا طلبت ماريا زهرة أو قطعة حلوى، ظهرت عند قدميها. ثم انتهت فترة شهر العسل، وبدأت الأرواح في إلقاء الأكواب والأطباق ومزهريات الزهور وغيرها من الأشياء في جميع أنحاء المنزل. بينما كانت ماريا نائمة، بدت محاولات خنقها بوضع أكواب أو أكواب على فمها واضحة، وبدا أن هجومًا في منطقة الأعضاء التناسلية يُشير إلى محاولة اغتصاب. ثم بدأ الشبح بغرس الإبر فيها.

كعبها الأيسر، وحقيقة أنها كانت ترتدي أحذية وجوارب لم تُحدث فرقًا: في أحد الأيام، أُزيلت خمسة وخمسون إبرة في نفس الوقت. وعندما تم تضميد القدم، تم نزع الضمادات دون فكها. وفي أحد الأيام في المدرسة، بدأت ملابسها تتصاعد منها دخان من حرق بدا كما لو كان ناتجًا عن سيجارة. وأخيرًا، أخذها الفولبيس إلى مركز أومباندا حيث جاءت "روح" وتحدثت من خلال تشيكو، أشهر وسيط في البرازيل. وأعلنت أن ماريا كانت ساحرة في حياة سابقة وأن العديد من الناس قد عانوا من خلالها - بما في ذلك الروح نفسها، التي تسببت في موتها. تم تجاهل التوسلات، وعلى الرغم من توقف الهجمات الأكثر إيلامًا، استمر الروح الشرير في إلقاء الفاكهة والخضروات في كل مكان. وفي النهاية ماتت ماريا بسبب شرب قاتل النمل في مشروب غازي. ولم يُحدد أبدًا ما إذا كان ذلك انتحارًا أو ما إذا كانت الأرواح قد أدخلت السم.

عندما انتهى بلاي فير من قراءة ملف ماريا، سأل أندرادي عن سبب وقوع مثل هذه الحالات دائمًا في المناطق النائية للأشخاص غير المتعلمين. هز أندرادي رأسه وأخذ ملفًا من درجه: "انظر إلى هذا". كانت القصة لا تُصدق لدرجة أن بلاي فير قرر التحقق مرة أخرى وذهب لمقابلة الفتاة المعنية. كانت كاثوليكية حاصلة على درجة الماجستير في علم النفس، ويسميها بلاي فير مارسيا ف. جلبت مارسيا غضب الأرواح لأنها التقطت قربانًا مقدمًا لإلهة البحر يمانجا. كان تمثالًا صغيرًا من الجبس لامرأة، وقد تم غسل معظم الطلاء عنه، وعندما وجدته مارسيا على الشاطئ بالقرب من سانتوس، قررت أنه سيكون زينة جميلة للشقة التي كانت تتشاركها مع فتاة أخرى. بعد بضعة أيام، أصيبت مارسيا بمرض شديد بسبب تسمم غذائي. ثم بدأت تبصق دمًا. كانت عطلة مع والديها ممتعة وخالية من الأحداث - بقي التمثال الصغير على رف الموقد. لكن عندما عادت، انفجر قدر الضغط وأحرق وجهها ورقبتها. انفجر الفرن، مطلقًا شعلة من اللهب نحو مارسيا؛ ولم يجد فني الغاز أي خلل في أنابيب الغاز.

بدأت مارسيا تشعر برغبة انتحارية - رغبة في إلقاء نفسها أمام السيارات القادمة ومن النافذة. بدا صوتٌ بداخلها يحثها على التخلص من نفسها. ثم أدركت وجود الأرواح. أتت ليلًا ودخلت فراشها: شعرت بأيادٍ تلامس جسدها. ثم صعد إليها رجلٌ وشعرت بقضيبٍ يخترقها. حاولت دفعه بعيدًا دون جدوى. لكن "الكابوس" - كما كانت تُعرف هذه الأرواح في العصور الوسطى - جاء لعدة ليالٍ.

أخيرًا، فعلت مارسيا ما كان ينبغي عليها فعله منذ زمن طويل، وذهبت إلى مركز أومباندا. عندما ذكرت التمثال، طُلب منها أن ترميه في البحر، حيث وجدته. بعد ذلك، عادت الحياة إلى طبيعتها. لم تلاحظ مارسيا شيئًا هزّها إلا بعد ذهابها إلى مركز أومباندا. تطابقت الحروق على وجهها ورقبتها.

تحديدًا، مناطق الطلاء المتبقية على رقبة التمثال. بقعة من السل ظهرت على لوحة الأشعة السينية بعد أن بدأت بصق الدم، تطابقت مع بقعة طلاء أخرى على ظهر التمثال. الطلاء الآخر الوحيد على التمثال كان عينًا زرقاء ثاقبة: فضّلت مارسيا عدم التفكير في ذلك.

بينما كنت أقرأ هذه القصص في كتابي "البقرة الطائرة" و"الحدود غير المحددة" لبلاي فير، شعرتُ تمامًا كما شعر هو أثناء بحثه فيها: إنها سخيفة لدرجة أن الناس العاديين والعقلاء لا يقبلونها أبدًا. هذه إحدى تلك الحقائق الغريبة والمستمرة حول "الغيبيات": إنها، بطريقة ما، لا تُناسب أبدًا الاستهلاك العام. الحقائق دائمًا ما تكون سخيفة بعض الشيء بحيث لا تتناسب مع تصورنا للأشياء. يمكن إقناع البشر بتوسيع حدودهم العقلية، ولكن يجب القيام بذلك تدريجيًا: مهما قال العهد الجديد على العكس، فإنهم سيبتلعون بعوضة ولن يبتلعوا جملًا. عندما قرر فريدريك مايرز والبروفيسور هنري سيدجويك تأسيس جمعية للأبحاث النفسية عام ١٨٦٩، شعرا أنه من الممكن بالتأكيد، باستخدام تقنيات البحث العلمي الحديثة، أن يُقررا بشكل قاطع ما إذا كانت الروحانية قائمة على حقائق أم هراء. لكنهما سرعان ما اكتشفا أن للخوارق ما يُعادلها من مبدأ عدم اليقين. يستطيع المحقق الروحاني إثبات حقيقة ما وراء الطبيعة بما لا يدع مجالاً للشك - سراً. لكن ما إن يحاول جرّ أدلته إلى ضوء التدقيق العام، حتى تذوب كالثلج في الشمس. وإذا صرخ يأساً: "أرجوك كفى من التلاعب وقدم لي بعض الأدلة العامة!"، يردّ المازح العملي ببرود: "بالتأكيد يا صديقي العزيز - ماذا عن دليله؟" ويقدم "دليلاً" سخيفاً لدرجة أن أحداً لن يأخذه على محمل الجد - مثل الجراحين الذين يشقّون البطون بأيديهم العارية ويستخرجون الأورام، أو الوسطاء الروحانيون الذين، مثل دانيال دونغلاس هوم، يخرجون من نافذة في الطابق الثاني ويدخلون من أخرى، أو يغسلون وجوههم بالجمر المتقد.

أظن أنني أعرف سبب ذلك. حذّرت إيلين غاريت ذات مرة من أن "التواصل مع العالم الآخر قد يكون بديلاً عن العيش في هذا العالم". لكن هذا العالم يجب أن تكون له الأولوية. السؤال الأعظم في الوجود البشري هو لماذا نحن هنا وماذا يُفترض بنا أن نفعل الآن ونحن هنا. القول بأننا سنستمر في الحياة بعد الموت ليس إجابةً على الإطلاق. لهذا السبب يُعاني جميع الأصحاء عقليًا من نفور غريزي من النظر عن كثب إلى الأرواح والأشباح. ومع ذلك، فإن المجتمع البراغماتي تمامًا سيكون أيضًا غير مُجدٍ، لأن الهوس الدائم بالأمن المادي يطرح أيضًا السؤال الحقيقي. لذا، يُفترض أن رئيس الخدمة المدنية الخارقة للطبيعة قد أصدر توجيهًا إلى إدارة الاتصالات الدبلوماسية مع الأرض ينص على أنه يجب إما إبقاء الأدلة غامضة، أو سخيفة لدرجة أن لا أحد سيصدقها على أي حال. الأرواح الشريرة والجراحون النفسيون غريبون بما فيه الكفاية؛ وكذلك التزامنيات، شريطة أن تكون نادرة بما يكفي لرفضها باعتبارها صدفة.

أو مبالغ فيه لدرجة يصعب تصديقها. لكن أي شيء أكثر مصداقية يجب تجنبه تمامًا.

في الواقع، عندما استرجعتُ اهتمامي بالظواهر الخارقة للطبيعة، لاحظتُ كلَّ علامات التردد والمقاومة التي تُزعجني الآن لدى المشككين. قبلتُ تكليف كتابة "الغيبيات" لمجرد حاجتي للمال. ما كنتُ لأُصاب بالضيق الشديد لو اكتشفتُ أن الأمر برمته كان مجرد دليل على سذاجة البشر. بل غمرني اتساق الأدلة وتنوعها. قبل أن أُكمل عُشر الكتاب، كنتُ على يقينٍ تامٍّ بوجود التخاطر والاستبصار والاستبصار. ومع ذلك، ورغم أنني كتبتُ أقسامًا عن التناسخ والحياة بعد الموت والأرواح الشريرة، إلا أنني ما زلتُ أُفضّل الاحتفاظ بما أسميته "عقلًا منفتحًا" تجاهها - أي أنني في الواقع أُفضّل البقاء مُترددًا. عندما عثرتُ على نظرية توم ليثبريدج "التسجيل الصوتي" عن الأشباح، سررتُ بدمجها في سلسلة "الأسرار". لم يكن لديّ أدنى شك في أن الأرواح الشريرة هي مظهر من مظاهر العقل الباطن، وأن "الاستحواذ الشيطاني" (كما في حالة راهبات لودون الشهيرة) مسألة قمع جنسي، وأن السحر والشعوذة مجرد أسماء قديمة لـ"القوى الخفية" للذات الأخرى. كانت علبة أنيقة، وشعرتُ بالفخر بها.

بدأت بعض الشكوك تتسلل إليّ عندما بدأتُ أُمعن النظر في السحر والشعوذة. في كتابي "الغيبيات"، كنتُ أفترض أن الساحرات هن سيدات عجوز تعيسات الحظ، يمتلكن قوى غريبة - كالشفاء مثلاً - وبالتالي يُنظر إليهن بخوفٍ خرافي من جيرانهن. ويبدو أن هذا الرأي مدعومٌ بحقيقة أن أول محاكمة سحر علمانية، والتي عُقدت في باريس عام ١٣٩٠، كانت لامرأة تُدعى جان دو بريغ، والتي عالجت رجلاً يُدعى رويلي عندما كان على وشك الموت. أصرت على أنها ليست ساحرة، بل استخدمت تعاويذ تتضمن "باسم الآب والابن والروح القدس". (كنتُ قد تحرّيت بنفسي عن بعض سحرة الثآليل المحليين الذين كانت "تعاويذهم" فعّالة. أخبروني أنهم ببساطة يكررون نصًا من الكتاب المقدس تلقّوه من ساحر ثآليل آخر). تحت التعذيب، اعترفت جان دي بريغ بممارسة الجنس مع مرافقها الشيطاني ومحاولة قتل رويلي بالسحر بناءً على طلب زوجته. (لم يتضح تمامًا سبب إنقاذها حياته بعد ذلك). أُعدمت هي وزوجته.

لطالما أبهرتني الحالة الغريبة لإيزوبيل غودي، زوجة مزارع اسكتلندي، التي قررت عام ١٦٦٢، فجأةً وطواعيةً، الاعتراف بانتمائها إلى جماعة سحرة وممارسة الجنس مع الشياطين. زعمت أن "رجلاً رمادياً" التقت به في المرتفعات أقنعها بأن تصبح ساحرة، وأنها عُمِّدت في نفس الليلة وانضمت إلى جماعة ساحرات أخرى. بعد ذلك، تمكنت من تحويل نفسها إلى...

أرنب أو قطة. كان الشيطان نفسه يجلد الساحرات العاريات بعصا مكنسة، وكثيرًا ما كان ينتهك إيزوبيل بقضيب ضخم متقشر، مما كان يسبب لها آلامًا مبرحة كالولادة، لكنها في الوقت نفسه ممتعة للغاية - كان سائله المنوي باردًا كالثلج. كان يستحوذ عليها أحيانًا وهي مستلقية في السرير بجانب زوجها النائم.

وفي تحليلي لهذه القضية كتبت:

الصورة التي تظهر هي لفتاة ذات خيال واسع وجنس مفرط تُدفع إلى حد الجنون من الإحباط، حتى تتطور لديها خيالات كاملة عن قوى الشر... يتطور انحرافها الجنسي حتى يصبح نوعًا من السم الحلو، يزداد قوة بسبب المشيخية الصارمة، والضرب الكالفيني للكتاب المقدس، الذي يهيمن على المجتمع... بعد خمسة عشر عامًا من هذا، تسيطر عليها فجأة فكرة مرعبة، تكاد تكون غير قابلة للتصديق... لماذا لا تجعل خيالها علنيًا، وتحطم الجميع بإخبارهم بما كان يحدث في مجتمعهم السبتي الجامد؟... يجردونها من ملابسها ويفتشونها بدقة بحثًا عن علامات الشيطان، وتجد كل شيء شهوانيًا بشكل لذيذ.

وفي الوقت المناسب، أُعدمت هي وزميلاتها "الساحرات". (ليس لدينا أي سجل لإعدام إيزوبيل، لكن يبدو أن الأمر مؤكد إلى حد ما).

تكمن مشكلة هذه النظرية في أن المتهمات الأخريات اعترفن أيضًا. الافتراض الطبيعي هو أن هذا كان تحت التعذيب، لكن سجلات المحكمة المفصلة لا تذكر أي شيء عن التعذيب.

ظهرت المشكلة نفسها في قضية شهيرة أخرى، وهي قضية ساحرات نورث بيريك. بدت هذه القضية، مجددًا، كقضية "معالجة" موهوبة بطبيعتها، عذبها متعصب خرافي حتى ورطت نساءً أخريات. شكّ ديفيد سيتون، نائب مأمور ترانِنت (قرب إدنبرة)، في الحركات الليلية لخادمة شابة، جيلي دنكان، اشتهرت بشفاء الأمراض. سحق أصابعها في كماشة، ولفّ حبلًا حول حلقها، وفحصها بحثًا عن علامات شيطانية. أخيرًا، اعترفت بأنها ساحرة، وورطت مدير المدرسة المحلي، جون فيان، وامرأة مسنة تُدعى أغنيس سامبسون، وسيدتين أخريين من ذوي النفوذ، هما باربرا نابير وإوفيميا ماكلين. تحت وطأة التعذيب، اعترفن بالتورط في مؤامرة لإغراق الملك جيمس الأول بإثارة عاصفة كادت تُدمر سفينته عندما كان في طريقه إلى أوسلو لاصطحاب عروسه المستقبلية، آن الدنماركية. من المفهوم أن الملك جيمس أبدى اهتمامًا كبيرًا بهذه القضية، ولكن عندما وصفت أغنيس كيف أبحرت الساحرات في غربال إلى شمال بيريك ثم أدين طقوس السحر الأسود في كنيسة تحت إشراف

من الشيطان، قرر فجأة أن كل هذا هراء. في هذه المرحلة همست أغنيس في أذنه ببعض الكلمات التي قالها لآن الدنماركية في ليلة زفافهما في أوسلو، فغير الملك رأيه. اعترف جون فيان أيضًا تحت التعذيب، وسحقت ساقه "بالحذاء": ولكن بعد أربع وعشرين ساعة هرب وعاد إلى منزله. عندما أُلقي القبض عليه مرة أخرى، سحب اعترافه، مدعيًا أنه تم الحصول عليه تحت التعذيب؛ وعلى الرغم من نزع أظافره وسحق ساقيه مرة أخرى في "الحذاء"، إلا أنه استمر في إنكار كل شيء وأُحرق في النهاية، مثل أغنيس سامبسون ويوفيميا ماكلين. هربت باربرا نابير بدعوى أنها حامل وأُطلق سراحها أخيرًا.

في موسوعة السحر وعلم الشياطين، يرى راسل هوب روبنز أن "هوس السحر" برمته كان مجرد خرافة سخيفة، وله بعضٌ من أقسى كلماته عن محققي ساحرات نورث بيريك. ومع ذلك، هناك بعض الأمور التي تتطلب تفسيرًا. لماذا أخبرت أغنيس سامبسون الملك بالكلمات التي قالها لآن الدنماركية ليلة زفافه، بينما كان قد قرر بالفعل أن الساحرات "كذاباتٌ متطرفات"؟ كانت تحكم على نفسها بالموت. يُدلي روبنز بتعليقٍ غريب مفاده أن "الشاهد الوحيد على هذا الإدراك الحسي الفائق كان جيمس نفسه؛ ويمكن إقناع المتعصب بسهولة، خاصةً عندما تُحاك مؤامرة محتملة لقتله". لكن هذا لا يُفسر لماذا همست أغنيس في أذنه وجعلته يغير رأيه. يتجاهل روبنز أيضًا حقيقة أن جون فيان كان سكرتيرًا لإيرل بوثويل، الذي يُعتقد أنه كان يتآمر لقتل الملك جيمس (كان بوثويل وريثًا للعرش). وقد اكتسب بوثويل في أواخر حياته سمعة بممارسة السحر الأسود. كان هناك سبب وجيه لتورط فيان في مؤامرة سحرية لقتل الملك. ولعله من اللافت للنظر أن الساحرات الثلاث الأخريات المتهمات كنّ جميعًا سيدات نبيلات، تربطهن صلة قرابة بالنبلاء، وليس مجرد عجائز فقيرات كما في قضية إيزوبيل جودي.

يفشل روبنز في تفسير غرابة أخرى. بعد اعترافه الأول، المُنتزع تحت التعذيب، تطوع فيان بمعرفة أن الشيطان زاره في زنزانته تلك الليلة. ولأنه لم يكن في خطر التعرض للتعذيب مجددًا، بدا هذا التصرف غريبًا. ربما كان فيان يُعاني من ألم ساقه المكسورة؟ ولكن إذا كانت الساق مكسورة إلى هذا الحد، فكيف نجا وعاد إلى منزله؟ يُفسر روبنز ذلك بالقول إن هروبه كان محض خيال، ولكن لا يوجد دليل على هذا الرأي.

عند إعادة قراءة كتاب "السحر"، خطر ببالي أنني قبلتُ أدلة السحر الأفريقي، واستشهدتُ بقصصٍ لتأكيدها. أخبرني صديقي نيغلي فارسون أنه رأى في مناسباتٍ عديدة ساحرًا يستحضر المطر من سماءٍ صافية. ووصف صديقٌ آخر، مارتن ديلاني، كيف أن ساحرًا نيجيريًا...

كان الطبيب قد أكد لشركته الأوروبية أن الأمطار الغزيرة التي استمرت لأسابيع ستتوقف مع حلول موعد حفل حديقة الموظفين. توقف المطر قبيل بدء الحفلة، ثم عاد ليعاود الهطول فور انتهائه. أخبرني مارتن ديلاني بقصص أخرى غريبة جدًا عن السحر الأفريقي، ذكرتها في كتابي عن راسبوتين. فلماذا أقبل أن يكون ساحر أفريقي قادرًا على التحكم في الطقس، بينما أصر على اعتبار ساحرات نورث بيريك بريئات؟ بحلول الوقت الذي كتبت فيه كتابًا صغيرًا ثانيًا عن الخوارق، بعنوان "القوى الغريبة"، بعد كتابي "الغيبيات" بفترة وجيزة، كنت قد أدركت هذا التناقض، وأشرت إليه في ذلك الكتاب.

في عام ١٩٢٦، أحدث القس مونتاجو سامرز ضجةً كبيرةً بعمله "تاريخ السحر"، حيث انطلق من افتراض أن "السحر الأسود" حقيقةٌ وأن العديد من النساء اللواتي أُحرقن على الخازوق مذنباتٌ بالتهم المنسوبة إليهن. صُدم إتش جي ويلز بشدةٍ لدرجة أنه شنّ هجومًا لاذعًا على الكتاب في صحيفة "صنداي إكسبريس". رأى العديد من النقاد أن سامرز كان يُظهر غطرسته فقط من أجل الدعاية. كان هذا غير صحيح: فقد اعتقد سامرز أن الساحرات قد يمتلكن قوىً حقيقية، وأن هذه القوى تعتمد على "قوى الشر". في كتاب "قوى غريبة"، خلصتُ إلى أن "الحقيقة تكمن على الأرجح في مكانٍ ما بين قبول سامرز التام للسحر الأسود وشكوك روبنز التامة". بعد سبع سنوات، وبعد قراءة ماكس فريدوم لونغ، وآلان كارديك، وديفيد سانت كلير، وجاي بلاي فير، بدأت أشعر أن الحقيقة أقرب إلى سامرز منها إلى روبنز.

ومع ذلك، بالمعنى الأساسي، لم يُحدث هذا التغيير في وجهة النظر فرقًا يُذكر. ظللتُ أعتقد - كما لا أزال أعتقد - أن "الغيبيات" أو ما وراء الطبيعة تتعلق بالقوى الخفية للبشر، لا بالأرواح. لكن قبول حقيقة الأرواح جعلني أقل تعصبًا تجاه الحالات الفردية. في الوقت الذي كنتُ أُقدم فيه برنامج روزنهايم في بي بي سي في بريستول، اقتربت مني فتاة في الكافتيريا وسألتني عن زميلتها في السكن، التي كانت محور تفشي الأرواح الشريرة. كانت ملابسها مُبعثرة في جميع أنحاء غرفة نومها المغلقة، وتضررت ممتلكاتها، وفي إحدى المرات اشتعلت النيران في معطفها. أكدتُ للفتاة أن الأرواح الشريرة هي تجليات للعقل اللاواعي وسألتها عما إذا كانت صديقتها تعاني من توترات نفسية أو مشاكل جنسية. عندما أقرت بذلك، قلت: "ها - كما ترين!"

بعد فترة وجيزة من برنامج روزنهايم، تلقيتُ رسالة من عرافة تُدعى السيدة روز. أخبرتني أنها أقامت جلسة في روزنهايم، وكانت على اتصال بروحٍ ادعت أنها مسؤولة عن ظهور البولترجيست. كانت فتاةً قُتلت خلال الحرب، ولا تزال جثتها في قبرٍ سريٍ. كانت تحاول استغلال آن ماري لجذب الانتباه إليها، ولإقناع أحدهم بدفنها.

أُعيد دفنها في أرضٍ مُقدسة. رددتُ على السيدة روز بأدب، لكنني لم أشك إطلاقًا في أنها تتكلم هراءً. بعد كتابة "بولترجيست"، غيّرتُ رأيي وقررتُ التواصل معها مجددًا. وافقت صديقة ألمانية تقضي شتاءها في ميونيخ على الذهاب إلى روزنهايم والبحث عن دليلٍ وثائقيٍّ على وجود الفتاة المقتولة. لو ثبت وجوده، لكنا طلبنا مساعدة السيدة روز في البحث عن الجثة. لدهشتي، تبيّن أن السيدة روز لم تتعاون إطلاقًا. مع ذلك، ما كان ينبغي أن يُفاجئني ذلك: لو أننا تتبعنا وجود الفتاة، ثم حددنا مكان جثتها، لكان ذلك دليلًا قاطعًا على حقيقة ما وراء الطبيعة - وكان ذلك ليُشكّل انتهاكًا لتوجيه رئيس الخدمة المدنية للظواهر الخارقة للطبيعة الذي ينص على أن مثل هذه الأمور يجب أن تبقى في حالة من الغموض المُحيط. بعد كتابة "بولترجيست" بفترة وجيزة، صادفتُ حالةً كان من الممكن أن يُبلغ عنها غاي بلاي فير. كتبت إليّ امرأة شابة متزوجة تطلب نصيحتي بشأن تجربةٍ غير سارة في البرازيل. بدأت تشك في أن زوجها على علاقة غرامية بامرأة من السكان الأصليين. أوقفها غريب ادعى أنه عراف في الشارع وأخبرها أنها ضحية تعويذة. ثم، كما هو الحال مع ديفيد سانت كلير، تحولت حياتها إلى كابوس من الإحباطات مع "إغلاق جميع الأزقة". وبينما كانت مستلقية في حوض الاستحمام، دهشت لرؤية خاتم زواجها ينزلق من إصبعها. كان محكمًا جدًا، وكان من المفترض أن ينتفخ لحمها بالماء، لكنه انزلق وسقط في الماء. قررت ألا تسحب السدادة - تحسبًا لسقوط الخاتم - بل أن تفرغ حوض الاستحمام بقدر. وعندما فرغ حوض الاستحمام، لم يكن هناك أثر لخاتمها. في أحد الأيام، مقتنعة بأن زوجها على وشك تركها، أطاعت رغبة مفاجئة بالذهاب والتحدث معه في العمل والتوسل إليه أن يتصالحا. والغريب أنها نجحت، وتم حل خلافاتهما. عادت إلى المنزل، وقد شعرت بارتياح كبير، وقررت الاستحمام. وبينما كانت تجلس في الماء الدافئ، قررت أن تغسل ملابسها الداخلية. وبينما كانت تفعل ذلك، كان خاتم زواجها...

سقط منهم.

قبل عام، لكانت القصة قد حيرتني، ولربما كنتُ سأُصدر أحكامًا مبهمة بشأن "الأبورتس" أو الأشباح. أما الآن، فقد تمكنتُ من إخبار الشابة بدقة بما كان سيخبرها به غاي بلاي فير: أن "المرأة الأخرى" قد عزمت على إجبار الزوج على هجر زوجته، فذهبت إلى أحد "المشعوذين" أو "المشعوذين" في الفناء الخلفي، ودفعت مبلغًا كبيرًا لإلقاء تعويذة. وكان المشعوذ بدوره يُؤدي الطقوس الصحيحة ويُقدم القرابين للأرواح الشريرة - بما في ذلك الطعام والكحول والتبغ - وكانت الأرواح تبذل قصارى جهدها لتنفيذ التعليمات. لحسن الحظ، كما يُشير بلاي فير، يبدو أن هذه الأرواح تحتاج إلى ظروف دقيقة للغاية لأداء مهامها، وتواجه العديد من العوائق. ويمكن تفسير نجاح هذه الحالة تحديدًا بملاحظة مُرشد بلاي فير، هيرناني.

أندرادي: "لإنتاج بولترجيست ناجح، كل ما تحتاجه هو مجموعة من الأرواح الشريرة لتؤدي مهمتك نيابةً عنك، مقابل مكافأة مناسبة، وضحية سريعة التأثر غير متطورة روحيًا بما يكفي للمقاومة". يبدو أن قرار الزوجة بالتوجه مباشرةً إلى زوجها قد أعاق العمل. عندما تحدثتُ معها، كانت تعيش حياةً سعيدةً في إنجلترا مع زوجها.

أوافقك الرأي، فمن الصعب على الناس العاديين والعاقلين تقبّل فكرة الأرواح هذه. فمعظمنا لم يصادف شبحًا قط في حياته، ومن غير المرجح أن يصادفه. لذا، فالأشباح، بكل بساطة، لا قيمة لها. وبما أن معظم الأطفال يقضون وقتًا طويلًا في خوف لا داعي له من الظلام، فمن الأفضل ألا يكون الإيمان بالأرواح جزءًا أساسيًا من ثقافتنا. وتبقى الحقيقة أن أي شخص يُكلّف نفسه عناء دراسة الأدلة سيُقرّ، مع الأسف، بوجود أرواح، وأنها، في ظل ظروف معينة، قد تؤثر على الوجود البشري. وعندما أعلن مونتيغو سامرز أن الروحانية الحديثة هي إحياء لسحر العصور الوسطى، كان دقيقًا تمامًا. يُقرّ سامرز بأن العديد من الرجال والنساء الذين أُحرقوا خلال قرون أوروبا الثلاثة من جنون السحر كانوا أبرياء. لكنه يُصرّ أيضًا على أن السحرة استخدموا الأرواح و"الشياطين" لممارسة سحرهم. والأدلة التي جمعها بلاي فير وماكس فريدوم لونغ تجعل من المؤكد عمليًا أنه كان على حق.

لدى رودولف شتاينر فكرة مثيرة للاهتمام - قد نأخذها أو نتركها حسب ميولنا - مفادها أن الإنسان مر بمراحل تطورية مختلفة ومتميزة، كل منها بدأ وانتهى في عام محدد. يقول إنه في زمن يسوع، انطلق الإنسان إلى مرحلة تطورية جديدة، طور فيها أخيرًا ذاتًا واعية، "أنا" قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها. قبل ذلك، كان الإنسان في جوهره كائنًا جماعيًا، ترتبط هويته بجماعته. في هذه المرحلة المبكرة، لم يكن هناك تمييز واضح بين عالم البشر وعالم الأرواح، وكان الشامان و"السحرة" (أو المعالجون السحريون) يعتبرون عالم الأرواح أمرًا مسلمًا به. تلاشى هذا في عصر "الروح العاقلة" الجديد (كما يسميه شتاينر). وعندما انقلب عصر "الروح العاقلة" إلى عصر "الروح الواعية" عام ١٤١٣، فقد الإنسان تقريبًا اتصاله بالعالم الخفي. وقد أدت الروح الجديدة إلى ظهور العلم التجريبي، وأدت في النهاية إلى عصر تم فيه نسيان العالم غير المرئي تمامًا.

لا شك أن هذه النظرة تنطوي على جوهرٍ رمزيٍّ عميق. لا شك أن الإنسان المعاصر أصبح أكثر تشتتًا في التفكير، فقد الاتصال بنصفه الحدسي، وأن الشعوب البدائية أكثر حدسًا و"قدرةً على التنبؤ". في كتاب "الغيبيات"، أستشهد بمقالٍ لنورمان لويس وجدته في ملحقٍ ملونٍ صدر يوم الأحد. ذهب لويس لدراسة...

كان هنود الهويتشول من سييرا مادري المكسيكية مفتونين بكيفية اعتبارهم لقوى الإدراك الحسي الفائق أمرًا مسلمًا به. أثناء وجود لويس هناك، أحس الشامان رامون ميدينا، الذي كان يزور قرية تُدعى سان أندرياس، بالموت، فسار إلى منزل مغلق. وُجدت جثة رجل مقتول في السقف. حتى الآباء المبشرون الفرنسيسكان المحليون تقبّلوا القدرة على حل الجرائم من خلال الإدراك الحسي الفائق كجزء طبيعي من الحياة.

إذا كان شتاينر مُحقًا، فإن "هوس السحر" بدأ في نفس الوقت الذي تحوّل فيه الإنسان من "الروح العاقلة" إلى "الروح الواعية"، واختفى آخر أثر لذلك الشعور بـ"العوالم الخفية" من أوروبا الغربية. لم تعد الساحرات جزءًا طبيعيًا من الحياة، كما لا يزال الهويتشول يقبلون الشامان، وأصبحن رمزًا للشر، وللتواصل مع القوى الشيطانية. وفي مواجهة الاضطهاد، لا شك أن العديد من الساحرات استخدمن قواهن الروحانية - فهذا ما كان يُفترض - لإلقاء التعاويذ وتعذيب معذبيهن.

دخلت ترشيد السحر مرحلة جديدة مع نشر كتاب مارغريت موراي "طائفة الساحرات في أوروبا الغربية" (1921) وخلفائه "إله الساحرات" و"الملك الإلهي" في إنجلترا. كانت مارغريت موراي عالمة آثار قضت الحرب العالمية الأولى في غلاستونبري تدرس أساطير الملك آرثر ومحاكمات السحر القديمة. انطلاقًا من افتراض أن الساحرات هن نساء عجائز فقيرات تعرضن للاضطهاد بسبب أوهامهن بشأن الشيطان، فوجئت بـ "الكشف" بأنهم كانوا في الواقع أعضاء في طائفة دينية قديمة سبقت المسيحية وعبدت قوى الطبيعة. أدركت فجأة أن كاهنهم كان مجرد شامان بدائي يرتدي جلد حيوان ذو قرون - مثل الرسومات على جدران مساكن كهوف كرو ماجنون. ولأنها طائفة خصوبة، فقد ركزت بشكل طبيعي على القضيب والجماع - وهو سبب آخر لرعب الكنيسة المسيحية. وفقًا لمارجريت موراي، كانت الساحرات مجرد عبدة للإلهة ديانا، اللاتي ما زلن يمارسن طقوس الخصوبة في المناطق الريفية.

كانت مُحقة إلى حد ما بلا شك. لكن في غمرة حماسها لإدراكها للدين ما قبل المسيحية، بالغت في الأمر وقررت أن جميع حكايات السحر الأسود محض خيال. بل إنها ذهبت إلى حد التصريح بأن عشرات الشخصيات التاريخية الشهيرة، مثل ويليام روفوس وجان دارك وجيل دو رايس، كانوا في الحقيقة أعضاءً في الدين القديم، وسمحوا لأنفسهم بأن يُذبحوا طقوسًا كما كان يُذبح الملوك سابقًا لضمان حصاد وفير. بعد نصف قرن، عاد البروفيسور نورمان كوهن إلى العديد من الوثائق الأصلية التي استشهدت بها مارغريت موراي، واكتشف أنها ارتكبت تحريفًا كبيرًا لدعم حججها. فحيث تركت نقاطًا رئيسية للإشارة إلى أن شيئًا ما قد تم إغفاله، كانت غالبًا غير محتملة إلى حد كبير.

أحداثٌ مثل وصف إيزوبيل جودي للجماع مع الشيطان، أو وصف أغنيس سامبسون للإبحار في غربال. لم يكن لدى كوهن شكٌّ بالطبع في أن "جنون السحر" برمته كان محض وهم. في الواقع، يُشير انتقاده لمارغريت موراي إلى أن القسّ مونتاج سامرز ربما كان أقرب إلى الحقيقة مما ظنّ معاصروه.

لكن ما الذي يمكن أن نفهمه من هذه الأوصاف السخيفة لحفلات الجنس الشيطاني واحتفالات السحرة؟ تشير تحقيقات بلاي فير في "عالم الباسي السفلي" إلى أن اعتراف إيزوبيل غودي بممارسة الجنس مع "شيطان" ربما كان صحيحًا من الناحية الواقعية. ويحظى هذا بدعم غير متوقع من عالم النفس المعاصر ستان غوتش، الذي جادل في كتابه الأول، "الإنسان الكامل"، الصادر عام ١٩٧٢، بأن كيان الإنسان الأكثر غموضًا وغريزةً يكمن في منطقة الدماغ المعروفة بالمخيخ، "الدماغ القديم" الذي ورثه الإنسان من الحيوانات. لكن في ذلك الكتاب الأكاديمي، اعترف غوتش أيضًا عرضًا بأنه حضر ذات مرة جلسة استحضار أرواح فقد فيها وعيه فجأة: وعندما استيقظ اكتشف أن عدة "أرواح" تحدثت من خلاله. في كتاب لاحق، "الخوارق" (١٩٧٨)، يواصل غوتش وصف تجاربه اللاحقة كوسيط روحي واهتمامه المتزايد بالخوارق. ولكن في كتب مثل "الشخصية والتطور" و"سؤال إنسان نياندرتال" و"اللولب المزدوج للعقل" (الذي يرفض فرضية الدماغ المنقسم لصالح نظريته الخاصة بالمخيخ)، يظل نهجه علميًا بحذر حتى عندما يتحدى الحكمة المقبولة. لذا تسبب كتابه "مخلوقات من الفضاء الداخلي" الصادر عام 1984 في إثارة الدهشة والذعر بين المراجعين. يبدأ الكتاب بوصف تجارب شرطي سابق، مارتن برايز، الذي بدأ في محاولة إحداث حالات منومية أثناء استلقائه في السرير والذي سرعان ما وجد نفسه "مهاجمًا" من قبل كيان غير مرئي كان مستلقيًا فوقه. وفي إحدى الليالي، عندما أمسكه الكيان من الخلف، أدرك أنها امرأة تريد منه أن يمارس الحب معها. استلقى هناك مشلولًا حتى تلاشى. ثم يواصل جوتش اقتباس تجارب ممثلة تدعى ساندي كانت مهتمة بـ "الغامض". استيقظت ذات ليلة لتجد ضوءًا كاشفًا في زاوية السقف قد تحول إلى عين، وشعرت بثقلٍ فوقها. سرعان ما بدأ يتحرك برفق، وشعرت بضغطٍ على مهبلها. كان جزءٌ منها راغبًا تمامًا في استمرار ممارسة الحب؛ بينما رفضه جزءٌ آخر. كافحت وتحررت في النهاية: عندما ذهبت إلى الحمام، وجدت فمها مليئًا بالدم نصف الجاف، على الرغم من عدم وجود أي أثر لنزيف من الأنف.

في هذه المرحلة، يواصل غوتش وصف تجربته الشخصية مع الساكوبس (المعادل الأنثوي للإنكبوس). في صباح أحد الأيام، وبينما كان مستلقيًا بهدوء على سريره، أدرك وجود شخص آخر معه في السرير - أنثى. دون أن يفتح عينيه، أدرك أنها مجموعة من صديقاته السابقات، بما في ذلك...

زوجته السابقة. وبينما غلبه اهتمامه الواعي بالموقف، اختفى الكائن. لكنه يعترف بأنه "في مناسبات لاحقة... ظلّ وجود الكيان قائمًا، حتى مارسنا الحب أخيرًا".

في الواقع، يخلص غوتش إلى أن مثل هذه الكيانات ليست حقيقية (بمعنى كونها أرواحًا حقيقية)، بل هي من صنع العقل البشري. ويستشهد مطولًا بحالة روث، التي وصفها الدكتور مورتون شاتزمان في كتابه.*في سن العاشرة، صدت روث اعتداءً بالاغتصاب من والدها. بعد زواجها وانتقالها إلى إنجلترا، راودتها أحلامٌ بأنها اغتصبت منه بالفعل. ثم بدأت تراودها هلوساتٌ عنه، أو كانت تسمعه يتجول في المنزل. استمر في التلميح إلى رغبته في ممارسة الحب معها. ثم بدأ الأب يظهر لها في غرفة استشارة شاتزمان، وتمكن شاتزمان من إجراء محادثات معه من خلال وسيط روث. شيئًا فشيئًا، أدركت روث أنها تستطيع التحكم في أطيافها - حتى أنها استطاعت توليد اثنين من شاتزمان. ما كانت تفعله كان تنويمًا ذاتيًا حرفيًا. يستطيع المنوم المغناطيسي الجيد أن يجعل مريضته ترى "أشباحًا" كما جعل الدكتور كاربنتر الشاب الأمريكي يرى سقراط، وتثبت الاختبارات النفسية بما لا يدع مجالًا للشك أن المريضة المنومة مغناطيسيًا ترى حقًا كائنًا متماسكًا ثلاثي الأبعاد. في مناسبة لاحقة، تخيلت روث زوجها - الذي كانت تنفر منه بشدة - في الفراش، ومارست معه علاقة جنسية كاملة، انتهت بقذفه داخلها. إدراك روث لقدرتها على التحكم في هلاوسها أدى في النهاية إلى شفائها.

حجة غوتش معقولة بالتأكيد، وهي تُذكّرنا بأن "قوانا الخفية" أعظم بكثير مما ندركه عادةً. لكن غوتش مقتنع أيضًا بأن البولترجيست هو "امتداد لشكل من أشكال الطاقة الحية التي يُسقطها الجهاز العصبي" - بمعنى آخر، مظهر من مظاهر العقل اللاواعي. في رأيي، بلاي فير مُحق، وهناك أدلة دامغة على أن معظم البولترجيست هي أرواح. كتاب لاحق، "هذا المنزل مسكون" (1980)، هو سرد لتحقيقات بلاي فير الخاصة في منزل في إنفيلد (شمال لندن) حيث تسبب بولترجيست مُدمر بشكل خاص في مشاكل لأكثر من عام. بدا أن التركيز في هذه المناسبة على ابنة العائلة البالغة من العمر أحد عشر عامًا، جانيت. في ديسمبر 1977، بعد خمسة أشهر من بدء الاضطرابات، بدأ البولترجيست في إصدار أصوات صفير ونباح ثم بدأ في الكلام. عرّف نفسه في البداية باسم جو، ثم أخبر المحققين لاحقًا: "أنا بيل هايلوك، من منتزه دورانتس، أبلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا، وقد أتيتُ إلى هنا لرؤية عائلتي، لكنهم ليسوا هنا الآن". (لديّ تسجيل صوتي لهذه الجلسات: يبدو الصوت غريبًا ومتقطعًا وميكانيكيًا، كأسطوانة أمتلكها لـ"دماغ إلكتروني" يغني "ديزي، ديزي"). عندما سأل جاي بلايفير: "هل تعلم أنك ميت؟"، قيل له: "ابتعد عني". كشف التحقيق أن جو المشار إليه كان جو.

واتسون الذي كان يعيش في المنزل، وأن بيل هايلوك كان من السكان المحليين والذي دفن الآن في المقبرة، ديورانت بارك.

علّق بلاي فير على الكائنات المختلفة التي ظهرت في المنزل قائلاً: "يبدو وكأننا امتلكنا نصف المقبرة المحلية في وقتٍ ما". انتهى "التشرّد" أخيرًا على يد وسيط روحي هولندي، دونو غميليج-ميلينج، الذي أقنع الكائنات بأنها ميتة وعليها التوقف عن إزعاج عائلة هارير. تدعم قضية إنفيلد بقوة وجهة نظر بلاي فير القائلة بأن الأشباح هي "أرواح أرضية" غالبًا ما تجهل موتها.

هذا لا يعني، بالطبع، أن غوتش مخطئ في اعتقاده أن تجربته مع الساكوبس كانت نوعًا من تجليات عقله الباطن. ولكنه يعني بالتأكيد أن غوتش مخطئ في اعتقاده أن جميع هذه التجارب يمكن تفسيرها بهذه الطريقة. إذا كان من غير المحتمل أن يكون العقل الباطن لديان بريتشارد قد جرّها إلى الطابق العلوي وأحدث كدمات في حلقها، فمن غير المحتمل أيضًا أن يكون العقل الباطن لمارسيا ف.، المحاضرة في علم النفس، هو من خلق الكيان الذي اغتصبها وهي ترقد مشلولة في سريرها.

يبدو من المرجح أننا لن نعرف أبدًا ما حدث بالفعل في سبتات الساحرات، أو ما إذا كان الكيان الذي مارس الحب مع إيزوبيل جودي شيطانًا حقيقيًا أم نتاجًا لعقلها الباطن. ولكن يبدو من المعقول القول إن السحر في أوروبا في العصور الوسطى كان على الأرجح مشابهًا إلى حد كبير للسحر في البرازيل الحديثة، وأنه من الخطأ استبعاده تمامًا من منظور الخرافات والأوهام.

*مورتون شاتزمان، قصة روث، (1980).

3
عالم الأرواح

في كتابه "الذكريات والأحلام والتأملات"، يكشف يونغ أنه قد أدرك حقيقة الحياة بعد الموت، ويصف إحدى التجارب التي أقنعته أخيرًا. في إحدى الليالي، كان مستيقظًا يفكر في صديق له انتهت جنازته للتو. "فجأة، شعرت أنه في الغرفة. بدا لي أنه يقف عند قدمي سريري ويطلب مني مرافقته. لم أشعر بطيف، بل كانت صورة بصرية داخلية له." سأل يونغ نفسه إن كان هذا خيالًا، ثم قرر - على سبيل التجربة - افتراض أنه حقيقي. عندها أشار له صديقه إلى الباب. في خياله (ويجب أن نتذكر أن يونغ كان يتمتع بقدرة فائقة على "التخيل النشط")، تبعه يونغ إلى منزله المجاور. في غرفة الدراسة، صعد صديقه على كرسي وأراه الكتاب الثاني من خمسة كتب حمراء على رف عالٍ. في صباح اليوم التالي، اتصل يونغ بأرملة الرجل ليسأله إن كان بإمكانه دخول غرفة دراسة صديقه. كان هناك المقعد الذي رآه الليلة الماضية، وبالقرب من السقف، الكتب ذات الأغلفة الحمراء. كان على يونغ الوقوف على المقعد لقراءة العناوين. الكتاب المشار إليه كان رواية لزولا بعنوان "إرث الموتى". *

مستشهدًا بهذه التجربة، يرفض غوتش قبولها كدليل على الحياة بعد الموت، مشيرًا إلى أن عقولنا لديها القدرة على الحصول على معلومات خارقة للطبيعة بوسائل أخرى. لكنه يذكر بعد ذلك حالة يعتبرها شبه مؤكدة. وُصفت في كتاب بعنوان "حياة بلا موت؟" لنيلز جاكوبسن. في عام ١٩٢٨، صدمت شاحنة عم جاكوبسن. صدمته الشاحنة بالحائط، وتوفي بعد ثلاثة أيام دون أن يستعيد وعيه. بعد ست سنوات، في جلسة استحضار أرواح في إنجلترا، أخبر الوسيط والده أن شقيقه المتوفى كان حاضرًا. ثم وصف الأخ الحادث الذي أودى بحياته، وأضاف أنه لم يمت بسبب إصابة في جمجمته، كما افترضت عائلته دائمًا، بل "جاءت من العظام". بعد سنوات، أدرك جاكوبسن أنه يستطيع التحقق من سجلات المستشفى، ففعل ذلك. أظهر تقرير ما بعد الوفاة أن عمه لم يمت بسبب كسر في الجمجمة، بل بسبب انسداد دماغي ناتج عن جلطة دموية من العظم - جلطة في العظم السفلي.

يقول جوتش إن الثغرة في هذه القصة هي أن الجراح الذي أجرى تشريح الجثة كان يعلم الحقيقة. لذا، كانت "المعلومات" متاحة في

ربما وصل هذا إلى عقل شخص ما، وربما وصل إلى عقل الوسيط من خلال هذا المصدر. صحيح أن هذا محتملٌ إلى حدٍّ ما، لكنه يبدو بعيد الاحتمال لدرجة يصعب معها أخذه على محمل الجد - مثل الاعتقاد بأن الطريق من لندن إلى ساوثيند يمر عبر القطب الشمالي. علينا أن نفترض أن الوسيط حصل على حقائق الحادث من عقل الجالس نفسه، ثم تواصل بطريقة ما مع عقل الجرّاح لمعرفة حقيقة ما حدث. إجمالاً، من الأسهل تصديق أن عم جاكوبسن نجا من الموت.

الحقيقة أن هذه القصص، وآلاف القصص المشابهة لها، هي أجزاء من أحجية معقدة تتراكم لتشكل صورةً مقنعةً للغاية، والمغزى العام لهذه الصورة هو أن النفس البشرية، أو الروح، مستقلة عن الجسد، ويمكنها النجاة من موت الجسد. أعترف مجددًا بشعوري ببعض الحرج في كتابة هذه الكلمات، فأنا، في واقع الأمر، لا أهتم البتة بنجاة البشر من موتهم. لم يدفعني اقتناعي المتزايد بقدرة العقل على النجاة من الموت إلى أن أصبح روحانيًا - أي لحضور جلسات تحضير الأرواح أو قراءة الصحف الروحانية. وعندما لا أكتب كتبًا عن "الغيبيات"، أميل إلى تجاهلها تمامًا وقراءة كتب في الفلسفة والعلم والتاريخ. ومع ذلك، كلما عدت إلى الموضوع، أذهلني اتساق الأدلة. وفيما يتعلق بـ"النجاة"، لا أستطيع، مثل ستان غوتش، أن أصدق أننا نستطيع تفسير الأدلة من منظور التخاطر. على سبيل المثال، أين يوجد مجال للتخاطر في التجربة التالية التي وصفها ويلبر رايت:

في أوائل عام ١٩٤١، كنتُ متمركزًا في قاعدة هيمسويل الجوية الملكية، لينكولن، كمهندس أرضي. عدتُ من إجازتي بالحافلة في وقت متأخر من مساء أحد، وكنتُ قد نفدت سجائري تمامًا، وكانت جميع المقاصف مغلقة. لكنني تذكرتُ أنني تركتُ بعض السجائر في الحظيرة ومشيتُ في غرفة التعتيم، ودخلتُ الحظيرة من الأبواب الفولاذية المركزية في المقدمة. كانت غرفة طاقم الطائرة على اليمين، حيث يحتفظ أفراد سرب القاذفات رقم ٦١ بملابس الطيران الخاصة بهم. سمعتُ ضجيجًا من غرفة الطاقم، ففتحتُ الباب لأتفقده. كان الظلام دامسًا، فأشعلتُ الضوء: كانت ستائر التعتيم في مكانها، ورأيتُ شخصًا يرتدي زيًا رسميًا يتحسس في إحدى الخزائن. كان يرتدي خوذة طيران، وسترة جلدية مبطنة بالفرو، وحذاء طيران أسود يصل إلى الركبتين، وتعرفتُ عليه بأنه قائد الطائرات ستوكر، وهو مدفعي من الطبقة المتوسطة العليا على متن قاذفة هامبدن، وكان عليه الطيران وغطاء رأسه مفتوحًا للبحث عن المقاتلات المهاجمة. (كان هذا قبل أن يحصل جميع أفراد طاقم الطائرة على رتبة رقيب للحصول على معاملة أفضل لأسرى الحرب.)

قلت، "مرحبًا، ستوك - ماذا تفعل؟"

فأجاب بانزعاج: "لا أستطيع العثور على قفازاتي الدموية".

"حسنًا، هذه مشكلتك،" قلت. "أطفئ الأنوار عندما تذهب."

لم يُجب، فدخلتُ الحظيرة، وعثرتُ على سجائري، ثم عدتُ إلى مسكني. في صباح اليوم التالي، ذهبتُ لتناول الفطور، وكما جرت العادة، سألتُ الرجل الذي بجانبي عمّا حدث خلال غيابي الذي دام أسبوعًا.

قال: "كان الوضع خطيرًا للغاية قبل ليلتين. كانوا يزرعون ألغامًا في قناة دورتموند إمس، وفقدنا ماكنتاير وطاقمه، إذ أصيبوا بنيران مضادة للطائرات على مستوى منخفض، فانقلبنا ودخلنا مباشرة. انفجر اللغم - لم تكن لديهم أي فرصة للنجاة".

"يا إلهي"، قلت. "لقد نجا ذلك الرجل ستوكر إذن!"

ستوكر؟ أوه، لقد دخل مع البقية. حدثت مشكلة قبل إقلاعهم - لم يجد قفازات الطيران الخاصة به، وكاد أن يتجمد حتى الموت بفتحة المدفع الخلفية المفتوحة. كان يئن طوال الطريق إلى عربة النقل.

لم أقل شيئًا، لكن هذا الأمر شغل تفكيري، وبعد يومين أبلغتُ عن مرضي، وأخبرتُ الضابط بما حدث. قال إنه صدقني، لكنه أعطاني بعض الحبوب لتهدئتي، ومع مرور الوقت، هدأت الارتعاشات ونسيت الأمر. بالنظر إلى الوراء، كان الجانب الأكثر لفتًا للانتباه هو أن المدفعي الجوي بدا لي طبيعيًا تمامًا. كانت ملابسه تصدر صريرًا كالمعتاد عند تحركه، وكان وجهه قلقًا، لكن ذلك لم يكن ملحوظًا بأي شكل من الأشكال، ولم أدرك إلا لاحقًا أنه كان يتلمس طريقه في خزانة ملابس الطيران في ظلام دامس.

أخذتُ بنصيحة الطبيب في المركز ولم أخبر أحدًا بالقصة. طلب مني أن أكتبها بخط اليد، فكتبتها على ظهر ورقة أوامر روتينية للمركز وأعطيتها له. منذ ذلك الحين، أتساءل كم من هذه الأشياء نراها في وضح النهار، ونعتبرها بشرًا أحياءً عاديين. في رأيي، لا سبيل إلى تمييزها عن شخص حيّ يتنفس.

تبرز عدة نقاط مثيرة للاهتمام في هذه الرواية. أولها أن ستوكر كان قادرًا بوضوح على فتح باب خزانته، وبالتالي كان، بمعنى ما، متماسكًا. هذا يُفند نظرية أنه ربما كان "إسقاطًا تواردًا" لشخص آخر في المحطة كان يفكر في ستوكر في تلك اللحظة. ثانيها أن ستوكر اعتقد بوضوح أنه حي. ثالثها أنه بدا وتصرف تمامًا كشخص حي. إن فكرة أن الأشباح شبه شفافة وأنها تبدو وتتصرف بطريقة "شبحية" هي مجرد خرافة. يصعب تحديد ما كان سيحدث لو حاول رايت مصافحة ستوكر، ولكن على الأرجح كان سيشعر بأنه طبيعي تمامًا ومتماسك. في كتابهما "الظهورات"، خصصت سيليا غرين وتشارلز ماكريري فصلًا كاملًا للمس والضغط، حيث توجد عدة حالات في...

صافح الناس الأشباح. يقول رجل صافح شبح والده: "لم تكن يده باردة كالجثة، بل كانت باردة فحسب". وفي حالة أخرى شهيرة من سجلات SPR، كان الملازم جيه جيه لاركن يكتب رسائل عندما فُتح الباب، وصاح صديقه الملازم ديفيد ماكونيل: "مرحباً يا فتى!". سمع لاركن بعد بضع ساعات أن ماكونيل قد نام في نفس الوقت تقريبًا الذي رآه فيه. ويبدو أن شبحه لم يجد صعوبة في فتح الباب وإجراء محادثة قصيرة.

يبدو أن القصص التي ذُكرت سابقًا عن الشبيهين تُشير إلى أن إحدى "قدراتنا الخفية" هي القدرة على إسقاط صورة ثابتة نوعًا ما عن أنفسنا على الآخرين. وغالبًا ما يحدث هذا دون وعي: تستشهد سيليا غرين بقصة امرأة كانت تحيك وهي تستمع إلى حديث على الراديو عندما دخل زوجها (الذي كان في الواقع في العمل) الغرفة ولمسها تحت ذقنها. كانت يده باردة كالثلج. ثم اختفى.* ومع ذلك، وصف الروائي ثيودور درايزر كيف أخبره زميله الروائي جون كوبر بويس، بعد تناول العشاء في منزله، أنه سيظهر له لاحقًا في تلك الليلة. وبعد ساعتين، وبينما كان يقرأ، رفع رأسه فرأى بويس واقفًا عند الباب. اختفى الشبح عندما توجه درايزر نحوه.† ورفض باويس في وقت لاحق أن يشرح كيف فعل ذلك، لكن يبدو من المؤكد أنه تعلم نفس "الحيلة" الغريبة التي تعلمها الطالب بيرد.

في ظل هذه الظروف، يبدو من المرجح جدًا أن يكون الأشخاص على وشك الموت قادرين على ممارسة هذه القدرة على "إسقاط الصورة" عن طريق التفكير: بمعنى آخر، إن أطياف المحتضرين التي يراها أقاربهم ليست "أشباحًا" بالمعنى التقليدي للكلمة - أي أرواح الموتى - بل هي أشبه بصورة تلفزيونية ذهنية. في بعض الحالات، تكون هذه "الصورة" قوية بما يكفي لفتح الأبواب أو مصافحة الآخرين، مما يدل على أن علماء مثل ديفيد بوم وجون ويلر قد يكونون على صواب في اعتقادهم بأن الواقع إلى حد ما بناء ذهني (وهو موضوع سنعود إليه في الفصل الأخير). ولكن ما يبدو واضحًا بنفس القدر هو أنه إذا كان قائد الطائرة ستوكر لا يزال قادرًا على إسقاط صورته بعد ليلتين من تفجير جثته، فلا بد أن الجزء "المُسقط للصورة" في عقله كان يعمل بشكل طبيعي، وهو أمر لم يكن ممكنًا لولا أنه نجا من الموت.

في عام ١٩٧٩، تم الاعتراف ببقاء العقل على قيد الحياة بعد الموت في إحدى المحاكم الأمريكية. كانت المناسبة محاكمة رجل يُدعى آلان شويري بتهمة قتل ممرضة فلبينية، تيريسيتا باسا. طُعنت حتى الموت في شقتها بإيفانستون، إلينوي، في ٢١ فبراير ١٩٧٧. أشارت الأدلة الطبية إلى أن الممرضة البالغة من العمر ثمانية وأربعين عامًا سمحت لرجل بالدخول إلى شقتها، وأنه أحاط عنقها من الخلف بسيف ياباني نصف نيلسون، مما أدى إلى فقدانها الوعي: ثم جردها من ملابسها وطعنها بين...

طعنها بقوة حتى اخترقت السكين ضلوعها. تركها في وضعية توحي بالاغتصاب لتشتيت التحقيق (كان دافعه الحقيقي السرقة)، ثم أشعل النار في المكان.

بعد أسبوعين، في مستشفى إيدج ووتر حيث كانت تيريزيتا باسا تعمل، قال أحد زملائها لطبيبة فلبينية أخرى، وهي أخصائية علاج تنفسي تُدعى ريمي تشوا: "لا بد أن تيريزيتا تتقلب في قبرها. من المؤسف أنها لا تستطيع إخبار الشرطة بمن فعل ذلك". فأجابت ريمي تشوا بجدية: "يمكنها أن تأتي إليّ في المنام. أنا لست خائفة". في وقت لاحق من ذلك اليوم، وبينما كانت تغفو في غرفة تبديل الملابس، فتحت ريمي تشوا عينيها لترى تيريزيتا باسا واقفة أمامها. ركضت خارج الغرفة مذعورة.

بدأت ريمي تشوا تحلم بالقتل وبالقاتل، الذي تعرفت عليه بعد ذلك بأنه ممرض مستشفى أسود يُدعى آلان شويري. وفي يوم من الأيام، بينما كانت مستلقية على سريرها، تحدث صوت من خلال فمها قائلاً: "أنا تيريسيتا باسا. أريدك أن تخبري الشرطة ...". تحدث الصوت باللغة التاغالوغية، اللغة الأم للفلبين. سمع زوجها الكلمات على الرغم من أن ريمي تشوا لم تتذكر شيئًا عندما أفاقت من غيبوبتها. قرروا عدم فعل أي شيء حيال ذلك. بعد أسبوعين عادت "تيرسيتا" وتحدثت من خلال فم ريمي تشوا مرة أخرى، وهذه المرة سمت قاتلها باسم "آلان". بعد بضعة أيام سمته باسم آلان شويري، وقالت إنه سرق مجوهراتها وأعطاها لصديقته - حتى أنها أعطت رقم هاتف شخص يمكنه التعرف على المجوهرات. ادعت أن "آل" جاء لإصلاح جهاز التلفزيون الخاص بها وقتلها.

أخيرًا، اتصل آل تشوا بالشرطة. لم يقتنعوا، ومرت أيام قبل استجواب شويري، الذي اعترف بأنه وعد بإصلاح تلفزيون تيريزيتا، لكنه ادعى أنه نسي ببساطة. ومع ذلك، عندما استجوبت الشرطة يانكا، صديقة شويري المقيمة معه، وسألتها إن كان قد أهداها مجوهرات من قبل، أرتهم خاتمًا أثريًا أهداها إياه كهدية عيد ميلاد متأخرة. اتصلت الشرطة بالرقم الذي تحدثت به السيدة تشوا وهي في حالة غيبوبة، فحضر اثنان من أبناء عمومة الضحية إلى مركز الشرطة وحددا الخاتم على أنه خاتم تيريزيتا. كما تعرفا على بعض المجوهرات الأخرى التي كانت تخصها. أمام هذه الأدلة، انهار شويري واعترف.

في محاكمة يناير/كانون الثاني 1979، جادل الدفاع برفض القضية على أساس أن الأدلة - على ما يبدو - قدّمها شبح، وألمح إلى أن الأشباح غير جديرة بالثقة. رفض القاضي فرانك دبليو باربيرو هذا الاعتراض. لكن هيئة المحلفين كانت لديها شكوكها بوضوح، واعترفت بأنها وصلت إلى طريق مسدود. في محاكمة ثانية بعد شهر، غيّر شويري إقراره إلى مذنب، وحُكم عليه بالسجن أربعة عشر عامًا.

قد يجادل ستان جوتش بأن هذه القضية بها ثغرات أيضًا.

عملت في نفس المستشفى الذي عملت فيه تيريسيتا باسا. ربما اشتبهت ريمي تشوا في شاوري - أو حتى حصلت على معلومات خارقة للطبيعة حول جريمة القتل - ووجدت هذه الطريقة للتعبير عن شكوكها. ربما حصلت على جميع معلوماتها - عن المجوهرات، ودافع إصلاح التلفزيون، وصديقتها - من عقل شاوري. لكن كيف استطاعت الحصول على رقم هاتف أبناء عمومتها الذين يمكنهم التعرف على المجوهرات من عقل شاوري؟ مع أنها كانت تتحدث إلى تيريسيتا كثيرًا عندما تتداخل نوبات عملهما، إلا أنهما لم تكونا صديقتين مقربتين، ولم يكن لديها سبب لمعرفة رقم الهاتف. تيريسيتا وحدها من يمكنها تقديمه.

لم تشهد إنجلترا مثيلاً لقضية باسا، لكن قضية إريك تومب -التي وقعت عام 1922- لها بعض أوجه الشبه الغريبة. تومب، وهو ضابط سابق في الجيش، أُطلق عليه الرصاص في مؤخرة رأسه من قِبل شريكه التجاري الملتوي، إرنست داير، في إسطبل سباق الخيل الذي كانا يديرانه معًا في كينلي، سري. أخفى داير الجثة في حفرة صرف صحي و"اختفى". بعد وقت قصير من جريمة القتل، بدأت والدة تومب -زوجة القس جوردون تومب- تحلم بأنه ميت، وأن جثته كانت في بئر مغطى بلوح حجري على فمه. لم تكن قد ذهبت إلى إسطبل سباق الخيل في كينلي من قبل، ولم تكن تعلم بوجوده: تعقب زوجها المكان أخيرًا عندما حاول العثور على ابنه. ولكن مع استمرار الأحلام حول الجثة في البئر، قررت الشرطة مجاراتها وتفتيش مزرعة الخيول في كينلي. لم يكن هناك بئر ولكن كان هناك أربعة حفر صرف صحي، كل منها مغطى بلوح حجري ثقيل. عُثر على جثة إريك تومب في إحدى هذه القبور، مُخبأة في تجويف. في تلك الأثناء، انتقل القاتل - الذي لم يكن آل تومب على علم بوجوده - إلى سكاربورو، حيث كان يعيش حياةً هشةً بفضل إصدار شيكاتٍ دون رصيد. عندما جاءت الشرطة لاستجوابه بشأن إحدى هذه الشيكات، أخرج مسدسًا وانتحر - ظنًا منه على الأرجح أنهم جاؤوا لاستجوابه بشأن جريمة القتل.

قُتل تومبي من الخلف، إذ انفجرت مؤخرة رأسه ببندقية، لذا لم يكن بإمكانه نقل معرفته بالجريمة عن طريق التخاطر أثناء احتضاره. لذا، يصعب تجاهل استنتاج أن إريك تومبي نجا من موته وجعل والدته تحلم بمكان دفنه.

تتعلق كلتا الحالتين أساسًا بالوساطة الروحية. علمت السيدة تشوا بوجود تيريزيتا باسا لأول مرة وهي تغفو، وشعرت أن أحدهم يحاول التواصل معها. وكانت قد أعربت بالفعل عن استعدادها لأن "يسيطر عليها" مواطنها الفلبيني. وبمجرد أن نجحت تيريزيتا باسا في "التسلل إلى داخلها"، إذا جاز التعبير، تمكنت من السيطرة عليها عندما كان ريمي تشوا نائمًا أو نائمًا في سريره. كما علمت والدة إريك تومبي بجريمة القتل وهي نائمة: بمعنى ما، أصبحت هي الأخرى وسيطة روحية.

يُذكرنا هذا بأن الوساطة الروحانية يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال "الاستحواذ". يدخل الوسيط في حالة غيبوبة، لا تختلف عن الغيبوبة المنومة، ويُسيطر عليه.

بواسطة "مرشد روحي" يعمل مديرًا للحفل، أو بواسطة "أرواح". لكن هذا بدوره قد يذكرنا بأن حالات تعدد الشخصيات تبدو أيضًا كشكل من أشكال "الاستحواذ". سقطت ماري رينولدز في نوم عميق لمدة عشرين ساعة واستيقظت "مسكونة" بشخصية أخرى. تم تنويم كلارا فاولر مغناطيسيًا عندما تولت سالي زمام الأمور. فقدت دوريس فيشر وعيها للحظة، بعد أن ألقاها والدها على الأرض، عندما تولت أول شخصية من شخصياتها المتعددة زمام الأمور. كان بيير جانيت ينوم فتاة تُدعى لوسي مغناطيسيًا عندما غاصت في نوم عميق لدرجة أنه كان من المستحيل إيقاظها: عندما استيقظت أخيرًا كانت شخصية أخرى. في عام 1877، بدأ شاب فرنسي يُدعى لويس فيفيه يعاني من نوبات صرع بعد أن لدغته أفعى: بعد نوبة استمرت خمس عشرة ساعة، أصبح شخصية أخرى - مجرمًا متمردًا كان مختلفًا تمامًا عن لويس الخجول والهادئ في الأيام السابقة. أصبحت فيفي إحدى أشهر حالات ازدواجية الشخصية في أواخر القرن التاسع عشر. (يقول ماكس فريدوم لونغ، وهو عالم نفس أمريكي، إن الصرع نتيجة هجوم معتاد من قِبَل أشخاص منخفضي الشخصية، قادرين على التغلب على الذات المنخفضة المقيمة لدى الشخص المصاب، وامتصاص القوة الحيوية من جسده في غضون دقائق معدودة.)

من الجدير بالذكر أيضًا أنه عندما سأل كارديك "الأرواح" عن "الاستحواذ"، قيل له إن البشر يمكن أن يتأثروا بالأرواح بدرجة أكبر بكثير مما نظن: فهي غالبًا ما تؤثر على أفكارنا وأفعالنا. لا يمكن للأرواح الدنيئة في الواقع السيطرة على الجسد لأنه ملك لساكنه الأصلي. ومع ذلك، يمكنهم، إما من خلال تعاون ذلك الساكن أو ضعفه، ممارسة سيطرة كاملة: وهذا، كما قال مُخبر كارديك، هو المعنى الحقيقي لـ "الاستحواذ".

الدراسة الحديثة الكلاسيكية لحالة الاستحواذ هي رواية ألدوس هكسلي "شياطين لودون"، والتي تصف كيف بدأ دير الراهبات الأورسوليات في لودون في الالتواء والالتواء والتجديف والتصرف بشكل عام كما لو كانوا "ممسوسين بالشياطين". تم استدعاء كاهن الرعية المحلي، الأب أوربان جرانديه - المعروف أيضًا باسم دون جوان - لطردهم: وسرعان ما اتهموه بالمسؤولية عن استحواذهم. تعرض جرانديه للتعذيب وحُكم عليه بالإعدام وأُحرق حيًا. لا يشك هكسلي على الإطلاق في أن الراهبات كن في قبضة هستيريا جنسية وأن القضية يمكن فهمها بمصطلحات فرويدية تمامًا. عند مناقشتها في كتاب "الغيبيات"، كنت متفقًا تمامًا مع هذا الحكم، وكتبت، "... يمكن للمرء أن يكون متأكدًا تمامًا من أن "الشياطين" لم تكن موجودة بالمعنى العادي، لكن الراهبات الممسوسات آمنوا بها... ولم تتجاوز تصرفات الراهبات التجديف، وإبداء اقتراحات بذيئة، والتدحرج على الأرض بطريقة أظهرت الجزء من الجسم الذي كان سبب المشكلة.

لكن الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك بقليل. لم تكن الراهبات فقط

الذين كانوا ممسوسين، وكذلك الكهنة الذين حاولوا طردهم. ويبدو من المستبعد جدًا أن تكون هذه مجرد حالة هستيريا معدية. الأب لاكتانس، المتعصب السادي الذي خالف عمدًا وعده بخنق غرانديه قبل حرقه، بدأ يرى ويسمع أشياءً في غضون أسابيع من وفاة غرانديه المروعة، ثم بدأ يزبد من فمه ويصرخ بالتجديف؛ توفي بعد شهر من الإعدام. ثم بدأ الدكتور مانوري، الجراح الذي وخز غرانديه في جميع أنحاء جسده وادعى أنه وجد "علامات شيطانية" (بقع مخدرة لأنها لمسها الشيطان)، برؤية شبح غرانديه، ومات مجنونًا. الأب ترانكيل، وهو محقق كابوشي ذهب إلى لودون مقتنعًا بأن الكنيسة ستحميه، أصيب بمسٍّ روحي بين الحين والآخر بعد وفاة غرانديه، لكنه استسلم أخيرًا بعد أربع سنوات، حيث كان يتلوى على الأرض، يلعن ويهسهس وينبح ويصهل. وبينما كان يحتضر، غادرت الشياطين جسده ودخلت جسد راهب راكع يصلي، فبدأ يتلوى ويجدف.

كان الضحية الأخيرة للشياطين هو الأب اليسوعي المتصوف جان جوزيف سورين، الذي جاء إلى لودون بعد أربعة أشهر من وفاة جرانديه، في ديسمبر 1634، لطرد الأرواح الشريرة من الراهبات اللاتي ما زلن ممسوسات. كان رجلاً ميالاً إلى العصاب الوسواسي، وكان الضحية المثالية للأرواح المتملكه، التي سرعان ما دخلت جسده. في رسالة إلى صديق وصف كيف أن "الروح الغريبة متحدة بي، دون أن تحرمني من الوعي أو الحرية الداخلية، ومع ذلك تشكل "أنا" ثانيًا، كما لو كان لدي روحان، إحداهما مجرّدة من جسدي ... وتحتفظ بغرفتها، وتراقب الأخرى، الدخيلة، تفعل ما تشاء". عندما حاول رسم إشارة الصليب، كانت "الروح الأخرى" تلوي يده جانبًا أو تدفع الأصابع بين أسنانه وتعضها بوحشية. في هذه الأثناء، واصلت الراهبات تقديم عروض عامة مبهرة: كانت راهبة شابة تُدعى الأخت كلير تتدحرج على ظهرها وهي تستمني وتصرخ: "هيا، مارس الجنس معي". ثبتت جميع محاولات سورين لطرد الأرواح الشريرة دون جدوى. وعانى سورين نفسه من نوبات جنون و"مس" دورية على مدى خمسة وعشرين عامًا تالية: ولم يتحرر إلا في السنوات الخمس الأخيرة من حياته. عند قراءة روايته لمرضه، يصعب ألا تشعر أن كتاب "أرواح" لكارديك يشرحه بشكل أفضل من كتاب "شياطين لودون" لهكسلي.

واجه والتر فرانكلين برينس نفسه حالة غريبة من "الاستحواذ" عام ١٩٢٢. أخبرته امرأة ثرية ومثقفة، يُطلق عليها اسم السيدة فيليس لاتيمر (اسم مستعار)، أنها "مهووسة". كان "الروح" المقصود هو ابن عمها مارفن، الذي توفي قبل عامين. بعد أيام قليلة من وفاته، بدأت تسمع صوته يُخبرها أنه سيجعلها تعاني، وأن لديه سببًا لذلك. سرعان ما بدأ الصوت يُحدثها في رأسها، مُخبرًا إياها أنها سببت له المعاناة. لم تستطع تذكر أي إصابة سببتها له، وتوسلت إليه أن يُخبرها بما يقصده. أخيرًا أخبرها.

كيف غادرت الغرفة ذات يوم، قبل وفاته بفترة وجيزة، وهي تكتب رسالة: قرأ الرسالة ووجد فيها تعليقًا عن نفسه أساء إليه وأزعجه بشدة. الآن وقد تذكرته، تذكرت السيدة لاتيمر الرسالة والتعليق الذي سبب له كل هذا العناء.

بدا أن ابن عمها مارفن يتمتع بمعرفةٍ استثنائية بالمستقبل: كان يُخبرها ببهجةٍ عن أفعالٍ قد يفعلها الناس لتعاستها، ودائمًا ما كانت تحدث كما هو مُتوقع. خلال أزمةٍ عائلية، أخبرها الصوت أن شخصًا ما سيعرض عليها المساعدة، لكن وعده لن يُوفى. ومرة أخرى، أثبت دقته. كما عاتبها الصوت على عدم إرسالها حتى الزهور إلى جنازته. احتجت قائلةً إنها أرسلت الورود، لكن عند الاستفسار، وجدت أنها لم تُعرض.

كان الافتراض الأول للأمير هو أن فيليس لاتيمر كانت تعاني من جنون العظمة

- أوهام الاضطهاد - ومعرفته بمثل هذه الحالات، حيث كانت أوهام الاضطهاد مصحوبة بهلوسات سمعية، أقنعته بأنه لا أمل في الشفاء. لكن صديقه جيمس هيسلوب من الجمعية الأمريكية لعلم النفس كان يعتقد بوجود حالة من المس الروحي، وقرر برنس العمل بناءً على هذه النظرية. (كان من شبه المؤكد أنه مخادع. بحثه عن هذه القضية* يجعل الأمر يبدو كما لو كان معالجًا نفسيًا أرثوذكسيًا لا يؤمن بـ "الأرواح"، ومع ذلك فإننا نعلم من روايته لقضية دوريس فيشر أنه قبل أربيل كروح.) لذا، مثل الدكتور بريغهام في مسلسل ماكس فريدوم لونغ، قرر الأمير التحدث إلى "الروح" ومعرفة ما إذا كان يمكن إقناعه بترك السيدة لاتيمر وشأنها. وبافتراض أن ابن عمه مارفن يستطيع سماعه، أوضح الأمير أنه يرغب في التحدث كرجل نبيل إلى آخر، ثم استمر في الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى امتلاك ابنة عمه، فإن مارفن كان أيضًا ممسوسًا بها - أي من خلال هوسه بالانتقام. وبعد الكثير من الحديث المقنع في هذا السياق، استمر الأمير في اقتراح أنه كتجربة بحتة، يجب على مارفن أن يحاول التفكير بإحسان في ابنة عمه فيليس ومعرفة ما إذا كان هذا سيحرره من الكراهية التي تعذبه الآن.

بعد ليلتين من ذلك، حلمت السيدة لاتيمر أن والدتها المتوفاة جاءت إليها وقالت لها: "سمعنا ما قاله الرجل. سأعتني بمارفن". استمرت في سماع الصوت بعد ذلك، لكنه لم يعد يعبر عن الكراهية. بناءً على تعليمات الأمير، رفضت السيدة لاتيمر الرد. أخيرًا، في أحد الأيام، سمحت للصوت بالتحدث إليها. أخبرها أن مارفن مات وهو يحمل أفكارًا حاقدة عليها، ولم يستطع التخلص منها. قال إنه عندما بدأ باضطهادها، "انضم إليه آخرون" وحثوه على الاستمرار. الآن، وقد اتبع نصيحة أكثر حكمة، سيتركها. بعد ذلك بوقت قصير، تلاشت كل توتراتها الداخلية، وشعرت بالحرية مرة أخرى.

من الممكن بالطبع أن تكون هذه مجرد حالة بسيطة من جنون العظمة: ولكن هناك عدد من الأسباب التي تجعلنا نميل إلى المبالغة في تقدير هذه الأسباب.

تشير بعض النقاط في رواية الأمير إلى أنه لا يعتقد ذلك. يذكر أن السيدة لاتيمر لم تكن لديها أدنى فكرة عن سبب استياء ابنة عمها منها، واضطرت إلى تذكيرها بالرسالة. لو أنها تذكرت كتابة الرسالة بالفعل وخمنت أن ابنة عمها قرأتها عندما كانت خارج الغرفة، لكان ذلك سبب جنونها، ولكن ليس إصرارها على أنها لا تعرف سبب كره مارفن لها. قد تُفسر قدرة مارفن على التنبؤ بالمستقبل بشكل طبيعي إذا كانت "روحه" مجرد خيال: لكن رواية الأمير تشير إلى أنه يعتقد أن الأمر يتجاوز ذلك، وكذلك حادثة الورود التي لم تُعرض في الجنازة. وأخيرا، هناك تعليق الأمير بأنه لم ينجح حتى الآن في علاج حالة من جنون العظمة المصحوب بالهلوسة: ومن الصعب ألا نشعر بأن النتيجة الناجحة للحالة تهدف إلى تلميح القارئ إلى أنه يعتقد أن هذه واحدة من تلك الحالات النادرة حيث يكون اعتقاد الشخص بأنه يتعرض للتعذيب من قبل "ذكاءات غير مرئية" "له أساس في الحقيقة المقابلة".

كان الدكتور جيمس هيسلوب، الذي ذكره الأمير، قد توصل إلى الاعتقاد بأن الاستحواذ يمكن أن يكون حقيقيًا من خلال حالة غريبة إلى حد ما. في عام 1907، جاء صائغ يُدعى فريدريك طومسون لزيارة هيسلوب، الذي كان رئيسًا للجمعية الأمريكية للأبحاث النفسية من عام 1905 حتى عام 1920، وهو عام وفاته. كان طومسون قد التقى رسام المناظر الطبيعية الأمريكي روبرت سوين جيفورد مرة أو مرتين. في يناير 1905، أصيب بشكل غير متوقع برغبة في الرسم والتلوين، واكتشف لاحقًا أن هذه الدوافع قد بدأت في وقت وفاة جيفورد في نيويورك. الآن سمع صوت جيفورد يحثه على ذلك وكانت لديه رؤى للمناظر الطبيعية. استشار هيسلوب صديقه الدكتور تيتوس بول، وهو طبيب أعصاب كان مهتمًا أيضًا بالبحث النفسي: أحاله بول إلى طبيبي أعصاب آخرين، كان لديهما آراء متناقضة حول هذه القضية. ثم علم هايسلوب أن الوسطاء كانوا يتلقون رسائل من كيان يزعم أنه الراحل روبرت سوين جيفورد والذي ادعى أنه كان يؤثر على تومسون. بدأ الأمر يبدو كما لو أن تومسون قد يكون بالفعل "ممسوسًا" من قبل الرسام الميت. رسم تومسون بأسلوب جيفورد على الرغم من أنه لم يكن لديه تدريب فني، وعندما نظر هايسلوب إلى بعض الرسومات النهائية لجيفورد، التي تم رسمها قبل وفاته بفترة وجيزة ولم تعرض أبدًا، اندهش عندما وجد أنها متطابقة مع بعض رسومات تومسون. علاوة على ذلك، رسم تومسون صورًا لأماكن لم يزرها من قبل، وعندما ذهب هايسلوب إلى مستنقعات نيو إنجلاند والجزر الساحلية حيث اعتاد جيفورد الرسم، تعرف على الفور على المناظر الطبيعية التي رسمها تومسون. أقنع هذا هايسلوب أخيرًا أن هذه كانت حالة حقيقية من الاستحواذ، وليست مرضًا عقليًا.

في الواقع، توصّل ويليام جيمس إلى النتيجة نفسها. فإذا كان من الممكن أن تُستحوذ أرواح الموتى على وسيط روحي - مؤقتًا - فهل من غير المعقول أن يُستحوذ على أشخاص آخرين؟ خلال السنوات الثلاث عشرة المتبقية من حياته،

درس هيسلوب حالات "الاستحواذ"، وعندما توفي طلب من الدكتور تيتوس بول أن يكمل ما بدأه.*

لسوء الحظ، يبدو أن معظم سجلات بول قد ضاعت، لكن الحسابات

بقيت حالتان من أبرز حالاته. إحداهما تتعلق برجل آخر يبدو أنه استحوذت عليه روح فنان ميت. كان سي إي، كما يسميه بول، في حالة يرثى لها منذ أن "استحوذت عليه" روح الرسام النمساوي جوزيف سيليني، الذي كان صديقًا للإمبراطور ماكسيميليان. كان يعاني من الخرف المبكر ونوبات الصرع وأفكار جنسية متواصلة. (قد نتذكر تأكيد لونغ على أن الصرع ناتج عن هجمات من الأرواح الشريرة التي تستنفذ طاقة الشخص الحيوية مثل مصاصي الدماء). حتى أنه كان في مصح عقلي. يبدو أن سي إي قد نُقل إلى المستشفى بسبب إصابة في الرأس، مما قد يفسر "جنونه" - أو كيف نجح كيان روحي في "الاستحواذ عليه".

توصل بول إلى نفس النتيجة التي توصل إليها هيسلوب: أنه إذا كان شخص ما "مسكونًا" بروح شريرة، فإن أفضل حل هو إقناع الأرواح الطيبة بالمساعدة في التخلص منها. (بالطبع في بعض الحالات، مثل حالة روبرت سوين جيفورد، لم تكن الروح المستحوذة شريرة بالفعل وكان لا بد من إقناعها بالمغادرة). ولهذا الغرض، استخدم بول وسطاء مدربين تدريبًا خاصًا، أحدهم، السيدة كونكلين، وجدها في مصحة عقلية وشفيها بطرد الأرواح الشريرة منها. بحث أحد وسطاءه الآن في قصة سي إي لمعرفة ما إذا كان جوزيف سيليني من نسج خياله. كانت الإجابة لا. بعد الكثير من البحث اكتشفت أن سيليني موجود بالفعل - على الرغم من أنه لم يكن معروفًا تقريبًا خارج النمسا - وأنه كان بالفعل صديقًا للإمبراطور ماكسيميليان. لم يستطع سي إي قراءة الألمانية، لذا بدا الأمر كما لو كانت هذه حالة حقيقية من الاستحواذ.

عندما بدأ الوسطاء العمل على "طرد" سي إي، سرعان ما اكتشفوا أن سيليني لم يكن سوى روح واحدة من بين أرواح عديدة. كان الروح الرئيسي كاهنًا مسلمًا دافع عن نفسه ضد محاولات طرده باستحضار روح شاب: ولكن في النهاية، وبعد أكثر من ثلاثين جلسة، شُفي سي إي.

حالة أخرى - يُطلق عليها بول اسم المريضة KL - تتعلق بامرأة مصابة بالاكتئاب الهوسي في السابعة والثلاثين من عمرها. بدأت مشاكلها عندما شعرت بالرعب من عاصفة رعدية في طفولتها: حبستها ممرضتها في خزانة وطلبت المساعدة. لاحقًا، أدت محاولة اغتصاب إلى تقويض ثقتها بنفسها. الآن، تتأرجح بين الاكتئاب الشديد ونوبات الغضب الهوسي.

كشفت الجلسات، على ما يبدو، أن "المسيطر" الرئيسي هو الممرضة المسؤولة عن العصاب الأصلي. لم تكن سيئة الطباع، بل كانت تميل فقط إلى الاستمرار في السيطرة على المريضة ورعاية شؤونها. عندما طُلب منها المغادرة وترك كيه إل بسلام، أجابت: "لا أعرف إن كنت سأفعل أم لا".

لا. لكنها اقتنعت أخيرًا بضرورة الرحيل. كان المالكون الآخرون أقل طواعية: أعلن أحدهم: "إنها ملكي وسأحتفظ بها. ابقَ بعيدًا عن هذا". ولكن عندما تدخلت ضوابط الوسيط وأخبرتها أنهم يستطيعون كسرها إلى نصفين إذا أرادوا ذلك، غيرت رأيها وغادرت. في النهاية لم يبقَ سوى كيان واحد، وأصبحت "مهووسة" بالصدفة. كانت امرأة تخلى عنها عشيقها ليموت بمرض تناسلي وكانت لا تزال في حالة من الارتباك العقلي. عندما أوضح لها بول وضعها، غادرت طواعية. بعد أن غادرت كيه إل، لم تعد تعاني من تهيج في منطقة الأعضاء التناسلية. كان العلاج ناجحًا تمامًا: بعد عامين كتبت إلى الدكتور بول، "لم أشعر أبدًا بمثل هذا الشعور بالراحة والسعادة في حياتي".

لا بد من الاعتراف بأنه في معظم هذه الحالات، لا بد من وجود شك قوي في أنه مهما كانت أدلة الاستحواذ مقنعة، فإن السبب الحقيقي هو عقل المريض الذاتي الذي يُنتج - كما يقول جيمس - نوعًا من التنويم المغناطيسي الذاتي اللاواعي. ومع ذلك، هناك بعض الحالات التي لا تدع مجالًا للشك. شهدت إحدى هذه الحالات في كازابلانكا الدكتورة ناتالي مونات، التي تمارس الطب حاليًا في الإسكندرية، فرجينيا.[*] وصفت كيف اقترب منها عام ١٩٤٣ تاجر بضائع جافة ثري تُطلق عليه اسم محمد سيد، وأخبرها أن ابنه ممسوس منذ شهرين. كان أساس المشكلة هو صرامة سيد كأب: كان ابنه مرعوبًا منه. كان الصبي، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، قد سهر في الخارج ليلةً ما وسكر. في الساعات الأولى من الصباح، سمعته والدته يتسلل إلى المنزل ويدخل الحمام. عندما طرقت الباب - الذي كان مغلقًا - أجابها صوت امرأة حاد: "لا تناديني ابنك. أنا ابنتك لأنني أستغل جسد ابنك". منذ ذلك الحين، تصرف ابنهما وبدا وكأنه امرأة. استنتج الدكتور بيرسون، وهو طبيب نفسي من الدار البيضاء، أن الصبي كان خائفًا جدًا من غضب والده لدرجة أنه أصيب بانهيار عصبي. بناءً على نصيحة الطبيب، تم إيداع الشاب في دار للأمراض العقلية. ولكن نظرًا لأنه لم يُظهر أي تحسن، فقد أعادوه إلى المنزل.

لم يتحدث الصبي/المرأة العربية المغربية الحديثة فحسب، بل تحدثا أيضًا بلغة غير مفهومة لم يستطيعا فهمها. ومع ذلك، في أحد الأيام، سمع معلم الصبي "حديثها" وتعرف على اللغة على أنها مصرية، اللغة التي كان يتحدث بها في المغرب القديم. ولأن المعلم نفسه كان يجيد التحدث باللغة المصرية، فقد دخل "في محادثة" معها وعلم أنها فتاة توفيت في سن الثامنة عشرة قبل سنوات عديدة؛ لقد استاءت من الموت في سن مبكرة وكانت تبحث عن جسد آخر لفترة طويلة. ثم وجدت الصبي، "الذي كانت روحه ملتصقة بجسده بشكل فضفاض بسبب تأثير بعض المشروبات وخوفه من غضب [والده]"، وألقته من جسده، تمامًا كما اعتادت مارغريت أن تطرد دوريس فيشر. قاومت بعنف جميع محاولات المعلم لإقناعها بترك الشاب.

كانت المعلمة تعرف ساحرة تعيش في الجنوب: أرسل التاجر في طلبها. رسمت دائرة حول الشاب وطلبت منهم الصلاة معها. لم يتمكن الصبي من عبور خط الطباشير وصرخ بغضب بينما كانوا يصلون. خاطبت المرأة - التي كانت وسيطة روحية على ما يبدو - الروح بأسلوب أكثر إلحاحًا، مستخدمة تعاويذ غريبة مختلفة. استمر صوت الفتاة في الصراخ: "لا! لن أغادر الجسد أبدًا". لكن في النهاية انهار الصبي في نوبة من الغثيان، وفمه يزبد. ثم كان هناك عواء من الغضب واليأس وفقد الصبي وعيه. منع المعلم والدته من الاندفاع إليه. بعد بضع دقائق فتح عينيه وسأل في ذهول: "لماذا أجلس على الأرض؟ لماذا تحدقون بي جميعًا؟" انتهى المس.

تبدو مثل هذه الحالات سخيفة: ومع ذلك بحلول الوقت الذي بدأت فيه البحث في الألغاز في منتصف السبعينيات، كنت قد صادفت الكثير منها لدرجة أنه كان من المستحيل تجاهلها. أخبرني رئيس قسم الدراما التلفزيونية في بي بي سي، بيل سلاتر، بإحدى أغرب الحالات. في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، عندما كان طالبًا في الدراما، حضر حفلة حيث بدأ الضيوف في تجربة لوحة ويجا - وهي عبارة عن كأس مقلوبة حولها دائرة من الحروف. تحرك الكأس حول الطاولة بسرعة مذهلة، مما أدى إلى تهجئة إجابات للأسئلة بسرعة كبيرة بحيث بدا من غير المحتمل أن يكون الضيوف يدفعونها. أدلى بيل سلاتر ببعض التعليقات الساخرة التي بدا أن الكأس مستاءة منها: سأل عما إذا كان يود أن يغادر أي شخص الدائرة التي أطلقها نحوه بشكل لا لبس فيه. ذهب لمغازلة فتاة جميلة. في تلك الليلة، في غرفته، استيقظ على "وجود" ما يجلس على صدره ويبدو أنه يحاول السيطرة على عقله وجسده. ركّز طاقاته وقاوم: بدا أن الصراع استمر لحوالي عشرين دقيقة. خلال هذه الفترة، شعر بالشلل وعجز عن الكلام. أخيرًا، تمكن من الصراخ، فاستيقظ رفيقه في السكن وأضاء النور - "ليجدني"، كما يقول سلاتر، "أحمقًا أشبه بالثرثرة". كان هذا

لقاءه الوحيد مع "الخارق للطبيعة".

يبدو كل هذا مُخيفًا للغاية، لدرجة أننا قد نشعر أنه حتى لو حدث الاستحواذ بالفعل، فقد يكون من الأفضل عدم الحديث عنه. ففي النهاية، يعاني المرضى النفسيون من مشاكل كافية دون القلق بشأن الأرواح الشريرة. لكن رأي هيسلوب وجيمس وآخرين ممن قبلوا إمكانية الاستحواذ هو أنه نادر، لوجود "حواجز" بين عالم البشر وعالم "الكيانات غير المتجسدة". كما أن معظم الوسطاء الروحانيين مقتنعون تمامًا بأن لكل إنسان "روحًا حارسة" خاصة به، وأن كيانات أخرى حسنة النية تعمل أيضًا كشرطي لمنع التعديات.

كما رأينا، فإن الطبيب النفسي ويلسون فان دوسن، الذي تم الاستشهاد بآرائه فيالفصل الخامستوصل إلى استنتاج مفاده أن ليس كل المرضى الذين "سمعوا أصواتًا" يعانون من الهلوسة. في كتابه "وجود الآخرين"

العوالمفي دراسة لإيمانويل سويدنبورغ، يذهب فان دوسن إلى أبعد من ذلك. يبدأ الفصل المعنون "وجود الأرواح في الجنون" بالكلمات التالية: "بسبب سلسلة استثنائية من الظروف، يبدو أنني وجدت تأكيدًا لإحدى أكثر نتائج إيمانويل سويدنبورغ غرابة: أن حياة الإنسان تنطوي على تفاعل مع هرم من الأرواح. هذا التفاعل ليس واعيًا عادةً، ولكن ربما في بعض حالات المرض العقلي أصبح واعيًا". يصف كيف بدأ، أثناء عمله في مستشفى ولاية ميندوسينو في كاليفورنيا في ستينيات القرن الماضي وفحصه لآلاف المرضى العقليين، بملاحظة التشابه بين هلوساتهم ووصف سويدنبورغ "للأرواح". ومثل كارديك، ينص سويدنبورغ على وجود نوعين من الأرواح: دنيا وعليا، وأن الأرواح الدنيا هي في الأساس أرواح الموتى الأرضية.

جاء الاختراق الذي حققه فان دوسن ذات يوم عندما سأل مريضًا يعاني من الهلوسة إن كان بإمكانه التحدث إلى "الروح". ومنذ ذلك الحين، اعتاد على التحدث مع الهلوسة قدر الإمكان، ووجد أن ذلك أثرى تجربته النفسية بشكل كبير. في بعض الحالات، كان مرضى الذهان قد تغلبت عليهم هلاوسهم لدرجة أنهما امتزجا ولم يتمكنوا من التمييز بينهما: "لقد غمرت قوى غريبة الأنا". لكن المرضى الذين ما زالوا قادرين على رؤية هلاوسهم كحقائق موضوعية، تمكنوا من تقديم رؤى قيّمة.

لاحظ فان دوسن سريعًا أن الهلوسات تبدو وكأنها تأتي على نوعين، وأنها تُقرّ بانتمائها إما إلى "رتبة عليا" أو "رتبة أدنى". بدت الأصوات الأدنى غبية وخبيثة، "أشبه بمتشردين سكارى في حانة يستمتعون بالمضايقة والتعذيب لمجرد التسلية". كانت هذه الأصوات تكتشف نقطة ضعف المريض ثم تعمل عليها بلا نهاية. كانت تُهدده بالكارثة والموت، أو تسمح له بسماع أصوات تُدبّر له الموت. والجدير بالذكر أنها بدت بلا هوية ولا ذاكرة (أو بلا ذاكرة يعترفون بها). كانت غالبًا ما تُبدي عداءً شديدًا للدين، مما يُشير إلى أنها ربما كانت مُتطابقة مع "الأرواح" التي استحوذت على راهبات لودون. كما اكتشف فان دوسن أنها كانت على استعداد تام لقبول الهويات التي تُوحى إليها - وهو ما قد يُساعد مجددًا في تفسير سبب إصرار العديد من "الكيانات المُستحوذة" في الماضي على أنها شياطين. ومن ناحية أخرى، كانت الأرواح ذات المستوى الأعلى مفيدة ومتعاطفة: فقد احترمت فردية المريض ولم تحاول "الغزو".

بدا لفان دوسن غريبًا أن تصنف الهلوسة ضمن هاتين الفئتين بدقة: ففي النهاية، قد يتوقع المرء من مرضى الذهان أن يعتقدوا أنهم يُعذبون من قِبل الطيور أو الحيوانات، وربما حتى الآلات أو حوامل القبعات. ومع ذلك، لم تكن هذه تجربة فان دوسن. وكما رأينا، بدت تجارب المرضى غريبةً مثل معنويات سويدنبورج العالية والمنخفضة، أو

"الشياطين" الموصوفة في الأدبيات حول الاستحواذ ومحاكمات السحرة: أعلنت إحدى النساء أن تجاربها الجنسية مع روح ذكرية كانت أكثر متعة و"داخلية" من الجماع الطبيعي.

يبدو أن ملاحظات فان دوسن حول الروح المعنوية العالية مدعومة بالحالة الغريبة للكاتب الخيالي العلمي فيليب ك. ديك. كان لعمل ديك المبكر مسحة قوية من العصاب والتشاؤم. كان مهووسًا بفكرة أن كل واحد منا يعيش في عالم فردي وبالتالي لا يوجد شيء مثل العالم الحقيقي الموضوعي - وهي فكرة خطيرة يمكن أن تقوض بوضوح "وظيفة الواقع" لدينا. في مقابلة مع زميله الكاتب تشارلز بلات، وصف ديك كيف رأى في طفولته فيلمًا إخباريًا لجندي ياباني أصيب بقاذف لهب ويحترق مثل الشعلة، وكيف أصيب بالذهول من الرعب بينما كان الجمهور يهتف ويضحك. استمر في هوسه بالألم والمعاناة وأخيرًا، في الأربعينيات من عمره، وصل إلى "حضيض" في حياته عندما لم ير سوى معاناة لا يمكن تفسيرها. في هذه المرحلة، كما يقول، "لقد أُزيل عني معاناتي النفسية ببساطة كما لو كان ذلك بمرسوم إلهي ... تدخلت قوة إلهية سامية، ليست شريرة، بل حميدة، لاستعادة عقلي وشفاء جسدي، ومنحي إحساسًا بجمال العالم وبهجته وسلامته العقلية. يبدو الأمر كما لو أن "إرادةً لا واعيةً" قد تدخلت: لكن ديك يُؤكد أن الأمر كان أكثر من ذلك. في عام ١٩٧٤ (عندما كان في السادسة والأربعين من عمره)، اختبر "غزوًا لعقلي من عقلٍ عقلانيٍّ متسامٍ، كما لو كنتُ مجنونًا طوال حياتي وفجأةً أصبحتُ عاقلًا". هذا العقل العقلاني،

"... سيطر على مراكز حركتي وتولى التمثيل والتفكير نيابةً عني. كنتُ متفرجًا عليه. شرع في شفائي جسديًا، وشفاء ابني ذي الأربع سنوات، الذي كان يعاني من عيب خلقي مهدد للحياة لم يُشخَّص ولم يكن أحد على علم به. هذا العقل، الذي كانت هويته غامضة تمامًا بالنسبة لي، كان مزودًا بمعرفة تقنية هائلة - معرفة هندسية وطبية وكونية وفلسفية. كانت لديه ذكريات تعود إلى أكثر من ألفي عام، وكان يتحدث اليونانية والعبرية والسنسكريتية. لم يكن هناك شيء يبدو أنه يعرفه. شرع على الفور في ترتيب أموري. طرد وكيل أعمالي وناشري. أعاد ترتيب آلة الكتابة الخاصة بي. كان عمليًا للغاية: قرر أن الشقة لم تُنظف بالمكنسة الكهربائية مؤخرًا بما فيه الكفاية؛ قرر أن أتوقف عن شرب النبيذ بسبب الرواسب... ارتكب أخطاءً بدائية مثل مناداة الكلب بـ "هو" والقطة بـ "هي"، مما أزعج زوجتي، وظل يناديها بـ "سيدتي".

... ربحتُ أموالاً طائلة بسرعة كبيرة. بدأنا نتلقى شيكات بآلاف الدولارات - أموالٌ مستحقةٌ لي، وهو ما كنتُ أدركه.

كان موجودًا في نيويورك... وقادني إلى الطبيب، الذي أكد تشخيص الأمراض المختلفة التي كنت أعاني منها... فعل كل شيء باستثناء تغطية جدران الشقة بالورق. كما قال إنه سيبقى روحًا حارسة لي. اضطررتُ للبحث عن كلمة "حارسة" لأعرف معناها.

وصف ديك لاحقًا هذه التجربة في روايته "فاليس". لكن زملاءه من كُتّاب الخيال العلمي لم يصدقوا ذلك: أخبرته أورسولا لو جوين أنها تعتقد أنه مجنون. وسجلت المُحاورة المُذهلة: "لا أستطيع أن أصدق فجأةً أن هناك بالفعل كائنات فضائية تغزو عقول البشر". ومع ذلك، يُقرّ بأنه "أعتقد أن شيئًا لافتًا حدث له، ولو نفسيًا فقط...". بناءً على أدلة مقابلة ديك، يصعب تحديد ما إذا كان "الاستحواذ" نفسيًا بحتًا أم حقيقيًا - على الرغم من أن نصف مليون كلمة كتبها عن تجربته قد تُلقي بعض الضوء عليها في النهاية. (توفي ديك بسكتة دماغية عام ١٩٨٢). ولكن إذا كان ديك مُحقًا في قوله إن الكيان كان يتحدث اليونانية والعبرية والسنسكريتية، وأن لديه ذكريات تعود إلى ألفي عام، فسيكون هذا بلا شك دليلًا قويًا على اعتباره أحد "الرتب العليا" في سويدنبورغ. وهذا يثير، بالطبع، سؤالاً مثيراً للاهتمام: لماذا يرغب كيان كهذا في مساعدة ديك في تنظيم حياته؟ إحدى الإجابات المحتملة هي أنه بحلول أوائل سبعينيات القرن العشرين، أصبح ديك أحد أكثر كُتّاب الخيال العلمي إثارةً للإعجاب في عصره، وبالتالي كان من الجدير تحويله إلى قناعة بأن الحياة ليست كابوساً بلا معنى في نهاية المطاف.

إن مفهوم الاستحواذ الرحيم هذا أقدم من الحضارة. في كتابه الكلاسيكي "الاستحواذ، الشيطاني والآخر" (1930)، خلص البروفيسور ت. ك. أوسترايش إلى أن "استحواذ" عراف دلفي في اليونان القديمة كان حالة من الاستحواذ الرحيم. وصف جوزيف روك، أحد أعضاء بعثة الجمعية الجغرافية الوطنية إلى يونان عام 1928، مشهدًا استثنائيًا استحوذ فيه "الشيطان" تشيتشين على سونغما (نوع من الوسيط الروحي). جلس السونغما في المعبد بينما كان الرهبان التبتيون ينشدون الترانيم ويقرعون الأجراس وينفخون في أصداف المحار: كان يرتدي قبعة حديدية طويلة مربوطة تحت ذقنه. عندما وصلت الروح، انتفخ وجهه بشدة لدرجة أن رباط ذقنه انشق وسال الدم من فمه وأنفه. ثم سُلِّم السونغما سيفًا فولاذيًا منغوليًا سُمكه ثلث بوصة، فشرع في لفّه عقدًا كأنه ورق: يُفترض أن الروح كانت تمتلك نفس قدرة أوري جيلر على ثني المعادن. وانتهى به الأمر بأداء رقصة مذهلة في كومة من القش المشتعل، "يدور كالشيطان" في النيران دون أن يحترق.*

دكتورتيتوس ثور بعناية مخفي له الاعتقاد في تملُّك من له زملاء العمل والمرضى العاديين. في السنوات الأخيرة، كان هناك اثنان على الأقل

أظهر الطبيبان النفسيان الأمريكيان، آدم كرابتري ورالف أليسون، روحًا أكثر جرأة. كان كرابتري طالبًا لاهوتيًا في مينيسوتا عندما عثر على كُتيّب بعنوان "ارحل يا شيطان"، يصف إحدى أغرب حالات "الاستحواذ" المسجلة.

في عام 1896، عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وجدت آنا إيكلوند نفسها غير قادرة على دخول مبنى الكنيسة، على الرغم من أنها كانت كاثوليكية متدينة. كانت مضطربة بتخيلات ارتكاب "أفعال جنسية لا توصف" ودافع لمهاجمة الأشياء المقدسة. في منتصف العشرينيات من عمرها طلبت المساعدة، لكن الكنيسة كانت متشككة ولم يكن حتى عام 1912 أن طقوس طرد الأرواح الشريرة جلبت لها الراحة. في عام 1928 كانت لا تزال تعاني من الهجمات وقرر الأب ثيوفيلوس رايزنجر، وهو راهب كابوشي من مجتمع القديس أنتوني في ماراثون، ويسكونسن، إجراء طرد أرواح شريرة ثانٍ في دير في إيرلينج، أيوا. بمجرد أن بدأ صيغة طرد الأرواح الشريرة، نهضت آنا من السرير - على الرغم من يقظة العديد من الراهبات الأقوياء - وعلقت على الحائط فوق الباب. وبينما استمر في طرد الأرواح الشريرة، جلبت صراخها وعواءها أهل البلدة يركضون لمعرفة ما يحدث.

كانت آنا تتحدث بأصوات أجشّة متنوعة حتى وهي مغلقة الفم، وعندما تكون مفتوحة، لا تتحرك شفتاها. تورم رأسها بحجم إبريق ماء، واحمرّ وجهها احمرارًا شديدًا. تقيأت كميات هائلة من المواد القذرة - علامة أخرى على "المس" (كان الأب ترانكيل قد تقيأ أيضًا في قضية لودون). إذا كان الطعام قد رُشّ سرًا بالماء المقدس، فقد عرفت ذلك فورًا. عندما كان الكاهن يتلو أجزاءً من طقوس طرد الأرواح الشريرة بالألمانية واللاتينية، كان "الشيطان" يردّ بشكل صحيح بنفس اللغة. وأوضح شيطان يُطلق على نفسه اسم بعلزبول أخيرًا أنهم يعذبونها لأن والدها لعنها. نجحت محاولات استدعاء والدها المتوفى أخيرًا، واعترف بأنه حاول مرارًا ممارسة الجنس معها لكنها قاومته: لهذا السبب لعنها وتمنى أن تدخل الشياطين فيها لإغوائها. ظهرت أيضًا عشيقته السابقة واعترفت بقتل أربعة من أطفالها - ربما في عمليات إجهاض. استمر كل هذا لمدة ثلاثة وعشرين يومًا، وخلال هذه الفترة، اضطرت عدة راهبات إلى نقلهن إلى دير آخر بسبب الاضطرابات، وتورط القس في حادث سيارة غريب. ظلت آنا فاقدة للوعي خلال معظم جلسة طرد الأرواح الشريرة، لكنها كانت تتحدث بأصوات متعددة. ثم، في اليوم الثالث والعشرين، انتصب جسدها فجأة كما لو كان يندفع بنابض، ولم يلامس السرير سوى كعبيها. انهارت على ركبتيها بينما كان صوت رهيب يردد أسماء الأرواح المعذبة حتى اختفى في الأفق. عند هذه النقطة، فتحت آنا عينيها وابتسمت.

كان الراهب الذي ترجم الكُتيّب من الألمانية في الدير نفسه الذي كان فيه كرابتري، وتمكّن من التحقّق من تفاصيل القصة.

كان من الطبيعي الاعتقاد بأن آنا تُصارع شياطين من الجحيم. لكن يبدو أن الأرجح أنهم كانوا نفس "الأرواح الأرضية" التي سببت كل هذه المشاكل في منزل هاربر في إنفيلد.

في عام ١٩٦٩، قرر كرابتري مغادرة الدير ليصبح طبيبًا نفسيًا. وسرعان ما تقبّل حقيقة التخاطر والاستبصار. ولكن في عام ١٩٧٦، أخبره أحد زملائه عن مريض "ممسوس"، فشهد الظاهرة لأول مرة. نفى رفضًا قاطعًا تصديق أنه يشهد أي شيء "خارق للطبيعة". ولكن في العام التالي، بدأ يواجه حالات بين مرضاه. قادته هذه الحالات في النهاية إلى استنتاج غير تقليدي تمامًا، وهو أن الأحياء يمكن أن يتأثروا بالموتى - والمثير للدهشة، بالأحياء.

كانت حالته الأولى لامرأة شابة يُطلق عليها اسم سارة ورثينجتون، والتي أحالها إليه أحد زملائه. بدأ كرابتري بسؤالها عما إذا كانت قد سمعت "أصواتًا داخل رأسها"، واعترفت بذلك. ثم أقنعها بالدخول في حالة استرخاء عميق على الأريكة. فجأة تحدثت سارة بصوت آخر، صوت أقوى وأكثر سلطة، معلنة أنها مثيرة. وعندما طُلب منها تسمية نفسها، قال الصوت إنه جدة سارة، سارة جاكسون. وقالت إن هدفها هو مساعدة سارة. وكان التعليق حول كونها مثيرة يشير إلى تجربة مؤلمة في حياة سارة جاكسون الزوجية المبكرة عندما اعتقدت أن ابنها البالغ من العمر سبع سنوات محاصر في منزل مشتعل. أصبح من الواضح أن سارة جاكسون - التي ادعت أنها "دخلت" حفيدتها أثناء عزفها على البيانو وكانت بالتالي في حالة ذهنية "منفتحة" - كانت تعاني من مشاكل نفسية كثيرة مثل حفيدتها، وربما أكثر.

في نهاية المطاف، تبيّن أن تجريد سارة وورثينجتون من ممتلكاتها لم يكن ضروريًا. الآن، بعد أن أدركت أن الصوت الذي بداخلها هو صوت جدتها، لم يعد يقلقها، بل بدأت تشعر ببعض الراحة من وجود جدتها في أعماقها. في هذه الحالة، كان الشفاء مُجرّد فهم ما كان يحدث.

في حالة أخرى، كانت عاملة اجتماعية تُدعى سوزان "مُسْكًا" من قِبل والدها، الذي تُوفي في حادث سيارة، وكان مهووسًا بابنته جنسيًا لدرجة أنه كان يتسلل إلى غرفة نومها أثناء نومها ليداعب أعضائها التناسلية. لم يكن هذا التملك متعمدًا: فقد تركه حادث السيارة في حالة من الارتباك. تمكنت كرابتري من إقناعه بتركها وشأنها.

عملت كرابتري مع زميلة لها على حالة فتاة تُدعى جين، كانت مهووسة بذكرى أختها المتخلفة عقليًا، آمي، التي توفيت في سن العشرين. شعرت جين بنوع من "كتلة غريبة" بداخلها، حاولت - دون جدوى - التخلص منها باستخدام الطاقة الحيوية. الآن، وهي مستلقية على أريكة كرابتري، بدأ صوت آمي الطفولي ينطق من فمها. أخبرت آمي الأطباء أنها "دخلت" جين لأول مرة عندما كانت في الخامسة من عمرها.

كانت عجوزًا، ثم "عاشت" معها. "استطاعت الذهاب إلى أماكن وتعلم أشياء كان من المستحيل في حالتها أن تتعلمها". كانت الخلفية العائلية مليئة بالمشاعر السلبية العنيفة، لذا كانت "شراكتهما" مهمة.

بتوجيه من كرابتري، نظرت إيمي حولها ولاحظت رجلاً مسنًا أشيب الشعر أخبرها أنه عُيّن معلمًا لها. كان من الصعب إقناع إيمي بالانصراف والاستماع إلى معلمها، لكن كرابتري نجح في النهاية - بعد "نقاش حاد". بعد ذلك، استمرت جين في الشعور بوجود إيمي كشخصية طيبة، لكن "الكتلة الغريبة" بداخلها اختفت.

إذا سلّمنا بأن جين كانت بالفعل "مسكونة" بأيمي، ولم تكن تشعر بالذنب تجاهها فحسب - كما اعتقدت هي نفسها في وقت ما - فإن الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في القضية هو أن آمي "دخلت" إلى أختها بينما كانتا لا تزالان على قيد الحياة، وتمكنت من استغلالها لأغراض التجربة بالنيابة. يُفترض أن ما حدث هو أنها أقامت نوعًا من التواصل التخاطري مكّنها من مشاركة حياة أختها.

يبدو أن الأمر نفسه قد حدث في حالة استثنائية أخرى، وهي حالة أستاذ جامعي يُدعى آرت، الذي عانى من "عواصف داخلية" عبّر فيها صوت والدته اللاذع عن كراهيتها لأصدقائه وسلوكه. كانت والدته على قيد الحياة وتعيش في ديترويت. في حالة من الاسترخاء العميق، عرّف آرت نفسه بأنه فيرونيكا، والدته. "آرت ملكي وحياته ملكي". بدأت تُدلي بتعليقات قاسية على فتاة تقدم آرت للزواج منها. لطالما كانت أمًا شديدة التملك، وحتى في سنوات مراهقته، كانت تدعوه إلى فراشها بعد مغادرة زوجها للعمل وتستفزه حتى يصل إلى حالة من الإثارة الجنسية القوية. من الواضح أن هذه العلاقة القوية بينهما - واهتمامه الجنسي بها - هي التي فتحت له الباب أمام "التملك".

اعترفت فيرونيكا في النهاية بأن هذا الهوس بابنها لم يكن في صالح أيٍّ منهما. وعندما أصيبت، وهي لا تزال في ديترويت، بورم سرطاني واحتاجت إلى عملية جراحية، أقرّ الكيان المُستحوذ بأن السبب قد يكون توزيع طاقاتها بينها وبين ابنها قد سلبها حيويتها. عند هذه النقطة، تلاشت "الوسواس" تدريجيًا، بينما شهدت والدة آرت في ديترويت تحولًا مذهلًا: من كونها خاملة ومنطوية، بدأت تعيش حياة اجتماعية نشطة. (سيكون من المثير للاهتمام معرفة ما إذا كانت والدة آرت قد أدركت أنها تُسيطر على ابنها، لكن كرابتري لم تذكر ذلك).

في كتابات تيتوس بول، عثر كرابتري على ملاحظة مثيرة للاهتمام مفادها أن الأسلاف الموتى يمكن أن يؤثروا على حياة أحفادهم، والهدف هو "الحفاظ على انسجام الإنسان مع مُثُل عائلته". بدا أن اثنتين من مريضات كرابتري تُجسّدان ما قصده بول - إحداهما إيطالية، والأخرى من شرق أوروبا، وكلاهما تخضعان لـ"سحابة مظلمة" تجعلهما خاضعتين لـ"تأثير خارجي".

— ولكن يمكن تفسير كلتا الحالتين أيضًا على أنهما عصاب عادي. ومع ذلك

في حالة رجل يُدعى مايك دوان، ظهر كيان غريب يشبه العفريت التقليدي. كان يتحدث بلهجة أيرلندية قوية، وألقى تعليقات ساخرة ومسلية عن مايك وعائلته. في النهاية، أوضح هذا الشخص - الذي أطلق على نفسه اسم شاموس - أنه أحد أسلاف مايك. كانت العائلة في الأصل مزدهرة وناجحة، ولكن بعد ذلك سيطرت عليها النساء الجشعات، وأدى دناءتهم في النهاية إلى الفقر والبؤس. في أحد الأيام، هاجم رجال العائلة - ربما كانوا سكارى - النساء وأخضعوهن للإذلال الجنسي، كما دنسوا تمثالًا للسيدة مريم العذراء. منذ ذلك الحين، اقتنعوا بأنهم ملعونون، واستمر شعورهم بالذنب على مر القرون. كان شاموس، الذي شارك في "الجريمة"، مثقلًا بالذنب، ولا يزال تحت سيطرة "النساء". عندما تحدث عن الجريمة وشعوره بالذنب، تحرر أخيرًا من عبء الخطيئة، وتحرر مايك من وجوده. يظل كل من كرابتري ومايك دوان منفتحين بشأن ما إذا كان شاموس شخصًا حقيقيًا أم مجرد خلق من العقل الباطن لمايك، لكن كرابتري يصر على أنه من وجهة نظر المعالج لا يوجد فرق: علاج مايك يبرر هذه الطريقة.

من بين جميع الحالات التي ذكرها كرابتري، فإن الحالة الأكثر شيوعًا ونموذجية - من وجهة نظر البحث النفسي - هي حالة صديقة لكرابتري تُدعى بات، والتي قضت عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة أجداد صديقتها، وسمحت لنفسها بالانجراف إلى الكتابة التلقائية. دخلت على الفور في حالة أشبه بالغيبوبة، وبدا أنها رأت امرأة ترتدي زيًا بنفسجيًا، بينما كتبت يدها "إليزابيث باريت براوننج". تسببت "كيانات" أخرى في كتابة يدها للرسائل، ولكن لم يكن الأمر كذلك إلا بعد عودتها إلى المنزل عندما بدأت تسمع صوت "إليزابيث" داخل رأسها، محاولًا إقناعها بمزيد من الكتابة التلقائية، مصرًا، "نحن بحاجة إليك". تجاهلته وحاولت القراءة، لكنها شعرت كما لو أن شخصًا ما يضغط وجهها على وجهها. استغرق الأمر عدة أيام من تجاهل الكيان قبل أن يرحل تدريجيًا، وفي النهاية ظنت أنها تستطيع رؤية المرأة تتراجع.

تبدو بعض حالات كرابتري سخيفة لدرجة يصعب معها أخذها على محمل الجد، ويوضح - ربما دفاعًا عن النفس - أنه يشعر بنفس الشعور، ولكنه مع ذلك يرويها كما حدثت بالضبط. بدأت شابة، ظهرت عليها علامات ازدواجية الشخصية، أخيرًا بالتحدث بصوت كيان عرّف عن نفسه بأنه "المدرب"، وأكدت للأطباء أن الشابة تحت سيطرته التامة. بعد الكثير من التساؤلات، تذكر "المدرب" أنه كان إنسانًا في يوم من الأيام. شيئًا فشيئًا، تمكن من تذكر تفاصيل ثلاث حيوات، في آخرها أُعدم بشكل مروع بإلقائه في حفرة مع ثعبان بايثون جائع أو أفعى عاصرة؛ ولأنه مات، فقد عاش "تجربة خروج من الجسد" وشاهد نفسه يُسحق حتى الموت. (وصفت الفتاة هذا المشهد، وملأت الغرفة بـ...

صرخاتٌ مُدمّرة.) حلّ بها نوعٌ من فقدان الذاكرة، فأصبح "المدرب" كيانًا بلا جسد، يتجول بلا ذاكرة، ويمتلك أجيالًا متعاقبة من عائلة المريضة. بعد شهرٍ من العلاج المُكثّف، لم تعد الفتاة على وشك الانهيار العصبي، وغادر "المدرب". وسواءٌ كان ذلك وهمًا في عقلها الباطن أم لا، فقد نجح العلاج بالتأكيد.

أغرب حالة تتعلق بكيان بدا وكأنه يستحوذ على محاضر تاريخ جامعي يُدعى ماريوس، والذي بدأ يشعر بدوافع غير منطقية لقتل زوجته. تحدث عن "وحش في داخله". عندما نجح كرابتري ومجموعة من مساعديه في طرد بعض من غضب ماريوس المكبوت، تمكن من وصف مشهد في الماضي البعيد عندما قتل صيادون "نصف بشر" دبًا بسادية مروعة. أثناء قيامهم بذلك، امتص كيان غير محدد - "ثقب دائري في الفضاء" - العنف. كان أحد الصيادين "مسكونًا" بروح الدب و"الثقب الدائري". بعد جلسة كرابتري مع ماريوس، غادر "الدب" لكن "الثقب الدائري في الفضاء" بقي. في اليوم التالي، نجح كرابتري في التحدث إلى هذا الكيان، الذي وصف نفسه بأنه دوامة غير بشرية تحتاج إلى طاقة الكائنات الحية للتغذية. عندما ركزت المجموعة مشاعر الحب والعاطفة على ماريوس، اشتكى الكيان من انزعاجه من "الضوء الأبيض". في جلسات لاحقة، استذكر تجاربه قبل وصوله إلى الأرض، وأنه لم يكن دائمًا مظلمًا تمامًا. في النهاية، أُقنع بالمغادرة، ولم يعد لدى ماريوس أي دوافع لارتكاب العنف.

من الواضح أنه يجب قبول هذه الحالات على حقيقتها - دراسات لأفراد يعانون من اضطرابات سريرية، ومن غير الحكمة استخلاص استنتاجات عامة منها. ومع ذلك، لا يوجد فيها ما يتعارض مع الاستنتاجات التي توصل إليها جاي بلاي فير نتيجة سنواته في البرازيل. أمر واحد حيرني: أن يكون كرابتري قد واجه هذا العدد الكبير من حالات "الاستحواذ". بدا الأمر أروع من أن يُصدق، أشبه بشخصية الآنسة ماربلز في روايات أجاثا كريستي التي تتعثر باستمرار في جرائم القتل. لم تكن حالات الاستحواذ الاثنتي عشرة أو نحو ذلك التي ذكرها كرابتري، بالطبع، سوى جزء ضئيل من خبرته السريرية، ومع ذلك بدا الأمر غريبًا، وعندما دخلت في مراسلات معه - نتيجة لكتابة مقدمة لكتابه "الرجل المتعدد" - انتهزت الفرصة لطرح هذا السؤال. أجاب بأنه فكّر في هذا الأمر بنفسه مرارًا وتكرارًا، وتساءل عما إذا كان "يخلق" هذه الظاهرة لدى مرضاه. احتمال آخر هو أنه ربما "يجذب" هؤلاء المرضى إليه دون وعي منه. لكن بدا له أن التفسير الأرجح هو أن هذه الظاهرة ليست نادرة كما يُفترض، بل عادةً ما تُغفل. وأشار لي إلى أن معالجًا آخر، رالف أليسون، قد صادف أيضًا عددًا مفاجئًا من حالات اضطراب الشخصية المتعددة في منطقة لوس أوسوس الصغيرة نسبيًا.

كاليفورنيا.

في الواقع، لم أكن أجهل فكرة أن الأمراض النفسية - أو حتى الجسدية - قد تُسببها "كيانات غير مجسدة"، فقد ألّف صديقي القديم الدكتور آرثر غيردهام كتابًا بعنوان "الهوس" يتناول هذا الموضوع تحديدًا. لكن غيردهام يؤمن إيمانًا راسخًا بالتناسخ، مما يجعل أفكاره موضع شك في نظر زملائه الأطباء، وقد حرص على عدم نشر أفكاره غير التقليدية حتى تقاعده عن ممارسة الطب.

آدم كرابتري ورالف أليسون كلاهما طبيبان نفسيان يعملان، وقد أُجبرا على طرح فرضياتهما غير العادية نتيجةً للخبرة السريرية. قصة أليسون لا تقل روعةً عن قصة كرابتري. في كتابه "عقول في أجزاء متعددة"، يقدم أليسون سردًا شيقًا ومسليًا لأيامه الأولى كطبيب نفسي. بدأ ممارسته في سانتا كروز في منتصف الستينيات، عندما كان العديد من مرضاه من الهيبيين الذين يعانون من تعاطي المخدرات وإدمان الكحول والشعور العام بعدم معنى الحياة. لم يواجه أول حالة من اضطراب الشخصية المتعددة إلا في عام 1972. كانت جانيت امرأة هادئة وخجولة نوعًا ما، شُخِّصت بأنها مصابة بالفصام مع ميول قهرية: فقد عانت من دوافع لقتل زوجها وأطفالها. في أحد المستشفيات التي عولجت فيها، تعرضت للاغتصاب من قبل مجموعة من الممرضين الذين أعطوها زوجًا من الأقراط لرشوتها حتى تلتزم الصمت. أرسلها أليسون إلى طبيب نفسي آخر لأخذ رأي ثانٍ، وكان الطبيب النفسي الآخر هو من أخبره أن لديه حالة أخرى من حالات "ثلاثة وجوه لحواء": كانت جانيت تتجول بانفعال قائلة: "إنها من تعاني من الاكتئاب، وليس أنا". لذلك في صباح اليوم التالي، أوضح أليسون لجانيت أنه يعتقد أن هناك شخصية أخرى داخل جسدها، وأقنعها بالاسترخاء التام، ثم سألها إن كان بإمكانه التحدث إلى "الشخص الآخر". تغيرت جانيت على الفور: تصلب وجهها وتحدثت بصوت مزعج: "يا إلهي، من الجيد التخلص من جانيت اللعينة". عرّفت هذه الشخصية الجديدة نفسها باسم ليديا. ومثل الأنا البديلة لحواء، بدت وكأنها النقيض التام للشخصية الأصلية. عندما سُئلت عما تعتبره ممتعًا، أوضحت: "الشرب والرقص وممارسة الجنس"، ثم انتقلت إلى وضعية استفزازية. خطر ببال أليسون أن اغتصاب الممرضات ربما لم يكن دون استفزاز تمامًا.

تحولت مشكلة جانيت إلى قلة الحنان في طفولتها. كرهت والدتها، وعندما التحق والدها، الذي كانت تُحبه، بالجيش، شعرت أنه تخلى عنها. فرحت بعودته أخيرًا، ثم تحطمت عندما أنجبت والدتها طفلًا آخر، ابنًا. عند هذه النقطة، انسحبت جانيت من الحياة، وسيطر عليها الأنا "الشقية" الأخرى، ليديا. حتى أن ليديا تخلت عن أخيها الرضيع، أملًا في تحطيم جمجمته، لكنها فشلت. حاول القس المحلي التحرش بها جنسيًا، وفي سن الحادية عشرة، اغتصبها صبي في الرابعة عشرة. تولت فتاة أخرى تُدعى ماري زمام الأمور، لكن ماري كانت...

من الغباء أنها لم تتعلم شيئًا وتركت المدرسة في السادسة عشرة للعمل كنادلة. كان زواجها الأول - من رجل مثلي الجنس - كارثيًا.

كانت مشكلة أليسون الرئيسية مع جانيت أن مريضته لم تكن مقتنعة تمامًا بأنها تعاني من تعدد الشخصيات - أو أنها ليست كافية لجعلها ترغب حقًا في الشفاء. ما دفعها في النهاية إلى اتخاذ قرارها هو تجربة مرت بها أثناء عودتها إلى المنزل ذات يوم. كانت ليديا قد أقلّت اثنين من الشباب المتشدد (البيتنيك) المخمورين وذوي الرائحة الكريهة. تولّت جانيت زمام الأمور، وعندما نظرت حولها لمعرفة سبب الرائحة، صرخت واندفعت بعيدًا عن الطريق إلى حفرة. منذ ذلك الحين، كانت مصممة على الشفاء.

كانت لدى أليسون فكرة صائبة. كان من الواضح أن جزءًا من مشكلة جانيت يكمن في خوفها من الحياة، مما جعلها سلبيةً واستدعت ليديا العدوانية. أقنعها أليسون بأن تعيش حياةً اجتماعيةً أكثر نشاطًا، وأن تبدأ بحضور اجتماعات المعلمين وأولياء الأمور. كما بدأ علاجًا نفسيًا للتخلص من نفورها من ممارسة الجنس مع زوجها. ومع ازدياد قوة جانيت وانفتاحها، ضعفت ليديا.

عندما اتصلت على ما يبدو بمكتب أليسون وتركت رسالة، افترضت جانيت -التي لم تكن تتذكر فعل ذلك- أنها ليديا. لكن ليديا أنكرت ذلك. أجرت جانيت الآن تجربة رائعة. قامت بإعداد جهاز تسجيل، وطلبت من ليديا "الخروج"، وشرعت في إجراء حوار معها. سرعان ما تحول إلى شجار. في هذه المرحلة، قاطعها صوت ثالث فجأة -الشخصية التي أجرت المكالمة الهاتفية والتي أطلقت على نفسها اسم كارين. بدت وكأنها تتوافق تقريبًا مع B-4 الخاصة بكلارا فاولر، وكانت شخصًا أكثر نضجًا وتوازنًا من الآخرين. عندما أجرى أليسون اختبارات نفسية على كارين، وجد أنها على عكس الآخرين، بدت طبيعية تمامًا. كانت تجربته الأولى لما أطلق عليه فيما بعد "المساعد الذاتي الداخلي"، وهو جزء من الشخصية يبذل قصارى جهده لدمج الآخرين.

في النهاية، وبمساعدة كارين و"علاجه الخاص بالتعبير عن الذات"، نجح أليسون في دمج شخصيات جانيت. حتى أن العلاج استمر حتى بعد انفصالها عن زوجها. "إنها تتأقلم كغيرها، تواجه تقلبات الحياة كشخصية متكاملة".

ما يُهمّ هذه الحالة هو أنها لا تدع مجالاً للشك في أن تعدد الشخصيات هو "آلية تكيّف" وليست، كما اعتقد ماكس فريدوم لونغ، مسألة "تملك". وهذا يُفسّر بوضوح لماذا يبدو أن العديد من الشخصيات المتعددة تُكمّل بعضها البعض - كما لو أن الأنا البديلة مُكوّنة من قطع الغيار التي تركتها "الشخصية الأصلية" دون استخدام. الشخصية الواعية هي الجزء منّا الذي يتكيّف مع العالم، وهي في الأساس مُكوّنة من قرارات. نحن نُقرّر، من لحظة إلى أخرى، كيف سنتفاعل مع وضعنا الحالي - مثل تلميذ في الصف يُقرّر ما إذا كان سيرفع يده للإجابة على سؤال أم يلتزم الصمت. "الذات الأصلية" لمعظم...

الشخصيات المتعددة - كلارا فاولر، كريس سايزمور، جانيت - قررت أن الصمت هو أقل الاستراتيجيات إزعاجًا. لكن جوانب أخرى من الذات ستشعر بالإحباط حتمًا بسبب هذا الموقف الحذر، الذي يعيق تطورها الشخصي. عندما تكون الضغوط شديدة بما يكفي، والشخصية الأصلية ضعيفة وبائسة بما يكفي، يتولى الأنا البديل زمام الأمور...

هل هذه هي القصة كاملة؟ أثارت حالة أليسون الثانية من تعدد الشخصية عنصرًا من الشك. كانت كاري هورنزبي حمراء الشعر جميلة بشكل لا يصدق وكان مظهرها الجيد هو أكبر مصيبة لها. مثل جانيت، رفضتها والدتها وانزعجت عندما هجرها والدها - الذي كان في الجيش - على ما يبدو. ظهرت أول شخصية بديلة لها عندما كانت في الرابعة من عمرها وجلس صبي صغير على صدرها حتى كادت تختنق. يبدو أن إنشاء الأنا البديلة دائمًا ما يكون آلية انسحاب، تراجعًا عن بعض المواقف غير السارة، مثل النعامة التي تدفن رأسها في الرمال. كانت هذه الشخصية الأولى صبيًا، مثل معذبها. تطور جانبها الذكوري نتيجة ارتباطاتها بالمثليات اللاتي استأجرتهن جدتها كمساعدات في المزرعة: كانت الجدة تكره الرجال.

في إحدى الليالي في المزرعة، لم تستطع كاري النوم، فقررت الذهاب في جولة ليلية إلى بحيرة قريبة. وهناك، صادفت مجموعة من راكبي الدراجات النارية يقيمون حفلةً سكارى، وتعرضت لاغتصاب جماعي. بعد ذلك، أصبحت تخشى ممارسة الجنس. عندما أخبرها حبيبها في المدرسة الثانوية أن الوقت قد حان "لللقاء"، فقدت وعيها. عندما استعادت وعيها، كانا يقودان سيارتهما عائدين إلى المنزل، واستنتجت من تعليقات حبيبها أنها استمتعت بالعلاقة الحميمة على ما يبدو. لاحقًا، تزوجت من هذا الحبيب.

أقنعها طبيب في مركز علاج مدمني الكحول الذي تعمل فيه كاري بممارسة الجنس الفموي معه: كان ذلك يحدث بحضور زوجة الطبيب التي تكتب على الآلة الكاتبة أمام الباب. بل إنه كان يفرض عليها رسوم هذه الجلسات، وكانت هي من تدفعها: كانت العلاقة سادية-ماسوشية بشكل واضح.

قررت كاري أنها بحاجة إلى علاج عندما وجدت نفسها غارقة في البحر حتى رقبتها، فاضطرت إلى السباحة عائدةً إلى الشاطئ. تحت تأثير التنويم المغناطيسي في عيادة أليسون، ظهرت الشخصية المسؤولة عن هذه الحالة: فتاة تُدعى واندا وصفت أليسون بأنه ابن عاهرة غبي. لاحقًا، ظهرت شخصية ثالثة، فتاة صغيرة تُدعى ديبرا. عاملت أليسون كأب لها، وعاملت جانيت، مريضته الأخرى بتعدد الشخصيات، كأم لها، مما تسبب في بعض المواقف المحرجة.

في أحد الأيام، اقتربت أليسون، صديقة كاري - ممرضة أخرى - وأخبرته قصة غريبة. كانت مهتمة بالإدراك الحسي الخارجي والتخاطر، وحضرت دورة مع مدرب ادعى قدرته على الولوج إلى عقول الآخرين: كان قادرًا على ذلك بمجرد وصف مفصل للشخص. بعد أن أثبت قدراته بنجاح، حاول "الولوج" إلى عقول كاري.

شعر بالقلق والتوتر على الفور، فأوقف التجربة. لاحقًا، اعترف بأنه واجه قوة شريرة، وأعلن أن مدمن مخدرات، توفي قبل بضع سنوات، قد استولى على جسد كاري: قال إن اسمها بوني بيرس أو برايس.

كان أليسون متشككًا للغاية: لقد نشأ عقلانيًا وهذا بدا سخيفًا. ومع ذلك، أرسل إلى أقسام السجلات المختلفة ليرى ما إذا كان بإمكانه التحقق من وجود بوني بيرس التي توفيت في نيويورك عام 1968. لم ينجح. ولكن مع تدهور حالة كاري، قرر تجربة تجربة غير عادية: طرد الأرواح الشريرة منها. كان يعلم أنها مارست السحر في المدرسة الثانوية وأن أحد أصدقائها كان جادًا بشأن السحر الأسود. تبع ذلك أن كاري نفسها قد تؤمن بفعالية طرد الأرواح الشريرة وأنه قد يشفيها. تم وضعها تحت التنويم المغناطيسي لكنها أنكرت وجود بوني. اقترح زميل كان موجودًا أيضًا في الغرفة محاولة وضعها في غيبوبة أعمق. نجح هذا. الآن قالت كاري إن هناك بوني بداخلها وأنها تريد التخلص منها بشدة. علق أليسون كرة بلورية على سلسلة فوق رأس كاري وأمر بوني بمغادرة جسدها. أعلن أن الكرة ستتأرجح حتى تغادر الروح، وأنه عند حدوث ذلك، على كاري أن ترفع إصبعها إشارةً إلى تحررها. ولدهشة أليسون، بدأت الكرة تتأرجح في دائرة، رغم محاولته جاهدةً تثبيتها. ثم تباطأت. في الوقت نفسه، رفعت كاري إصبعها. عندما أفاقت من غيبوبتها، اعترفت بأنها لطالما شعرت بوجود روح بداخلها، وأنها الآن تشعر بالتحرر منها.

لكن هذا لم يُحل مشكلة واندا والشخصيات الأخرى. كانت واندا تكره كاري: كانت تجرح معصميها وتتناول جرعات زائدة من الحبوب. في النهاية، باءت محاولات أليسون للاندماج بالفشل. بعد أن اعتدت عليه بعنف، وكادت أن تُشلّ أربعة من ضباط الشرطة ورجلي إسعاف، كُبّلت كاري ونُقلت إلى المستشفى. عندما خرجت، انتحرت بجرعة زائدة من المخدرات والكحول. لم تكتشف أليسون قط ما إذا كانت بوني شخصية حقيقية أم من نسج خيال أحدهم.

مثل آدم كرابتري، بدا أليسون وكأنه يواجه أكثر من نصيبه من الشخصيات المتعددة، مما يثير تساؤلاً واضحاً حول مدى تحقق توقعاته. ومع ذلك، في حالة واحدة على الأقل، تؤكد الأعراض الكلاسيكية صحة تشخيصه.

أُرسلت امرأةٌ تُدعى بابس، تعاني من زيادة وزنٍ غريبة، إلى أليسون بعد محاولتها الانتحار. ومن الغريب أن ليلى، وهي مريضةٌ أخرى باضطراب تعدد الشخصيات، والتي أصبحت مساعدةً لأليسون، هي من أدركت أن بابس تعاني من نفس الاضطراب. وعندما اعترفت بابس بأنها عانت من نوبات إغماءٍ قضت خلالها على جوانبَ كاملةٍ من حياتها، وأنها فاتتها سنةٌ دراسيةٌ كاملةٌ في إحدى المرات، تأكدت أليسون من أن ليلى...

صحيح. سرعان ما قابلت أليسون لينور، وهي شخصية سلبية ومدمرة، وأليس، وهي شخصية كفؤة أخرى من النوع 4-B. بعد ذلك بوقت قصير، ظهرت شخصية أخرى تُدعى تامي، وهي شخصية ساحرة واثقة بنفسها، ويبدو أنها تعرف كل شيء عن بابس ومشاكلها: في الواقع، كانت تامي بمثابة "معالجة ذاتية". أوضحت أن بابس أصبحت تعاني من تعدد الشخصيات بسبب طفولة بائسة خالية من الحب وتجارب مؤلمة مختلفة.

بمساعدة تامي، بدا أن العلاج يُحرز تقدمًا ممتازًا. ثم في إحدى الليالي، اتصلت بابس وهي في حالة يأس. كانت قد فقدت وعيها للتو في الكنيسة وأهانت صديقتها المقربة: الآن تكاد تكون في حالة هستيرية. فجأة، طلبت منها أليسون الاستلقاء، ووضع نفسها في حالة غيبوبة، واستدعاء تامي. ثم انضمتا إلى الصلاة طالبتين قوة الله الشافية لحل مشاكلهما. كانت هذه الحيلة ناجحة للغاية. عندما استدعى زوج بابس أليسون في صباح اليوم التالي، اكتشف أن بابس قد تحولت إلى طفلة في الخامسة من عمرها. وظلت هذه الشخصية الجديدة مسيطرة. ومع ذلك، لو تذكر أليسون حالة ماري رينولدز التي سجلها ويليام جيمس، لكان قد وجد بعض العزاء. كانت ماري الثانية أيضًا بمثابة طفلة حديثة الولادة عندما ظهرت لأول مرة، ومع ذلك "كبرت" بسرعة مذهلة، وتعلمت الكلام في غضون أسابيع. هذا ما حدث لبابس. لقد نضجت بسرعة ملحوظة. لقد خاضت هي وزوجها تجربة الخطوبة الثانية ثم تزوجا مرة أخرى، وعندما عادت إليها ذاكرتها بالكامل أصبحت أخيراً شخصية متكاملة.

هنا أيضًا، يبدو التشخيص واضحًا تمامًا. لقد "خلقت" بابس شخصيات أخرى للتعامل مع مشاكلها، واضطرت في النهاية إلى البدء من الصفر وتكوين شخصية متكاملة.

تُوضّح حالة بابس مجددًا أن تعدد الشخصيات يُمكن تفسيره كآلية تكيّف، وأنه في مثل هذه الحالات، من غير الضروري تمامًا استحضار فرضية الروح المعنوية المنخفضة التي وضعها لونغ لتفسيرها. لذا، يُفاجئ قارئ كتاب "عقول في قطع مُتعددة" أن يعلم أن أليسون انتهى إلى قبول فكرة أن "فرضية الروح" هي الوحيدة الفعّالة في بعض الحالات. جاء تغيير رأيه عندما كان يُعالج فتاةً تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا تُدعى إليز، والتي كان لديها ستة عشر شخصية بديلة وخمسة "مساعدين ذاتيين داخليين". "لكلٍّ منها غرض مُحدد في حياتها، وقد خُلقت كلٌّ منها للتعامل مع صدمة لم تستطع إليز نفسها مواجهتها". بمجرد أن يتعلم الشخص "حل" مشكلة من خلال خلق شخصية بديلة، تُصبح أبسط طريقة لتجنب أي مشاكل صعبة.

في أحد الأيام، بينما كانت إليز تناقش وفاة جدتها، اختفت فجأةً، وتولى رجلٌ عرّف عن نفسه بأنه دينيس. بعد استجواب دينيس بدقة، اقتنعت أليسون أخيرًا بأنه ليس شخصًا عاديًا.

الأنا؛ بدا أنه لا يخدم أي غرض ولم تتمكن أليسون من اكتشاف متى "وُلد". واصل دينيس شرحه أنه بقي في جسد إليز لأنه كان يحب ممارسة الجنس مع شانون، وهي شخصية بديلة أخرى. لقد "وُلدت" شانون للتعامل مع فقدان إليز لطفلها: الآن تعود كل شهر أكتوبر وتبقى حتى ذكرى وفاة الطفل في مارس التالي. كانت قوية عاطفياً وواثقة من نفسها وكان دينيس، على ما يبدو، قد وقع في حبها. عندما سألت أليسون كيف يمكن لدينيس ممارسة الجنس معها، أوضح أنه عندما يمارس الرجال الآخرون الحب مع شانون، كان ينزلق إلى أجسادهم ويستمتع بذلك. لم يكن مهتمًا جنسيًا بإليز على الإطلاق، على الرغم من أنها وشانون لديهما نفس الجسم - وهي عبارة تقدم نظرة ثاقبة رائعة في علم نفس الجنس.

عندما استيقظت إليز، اشتكت من دينيس وأعلنت أن أياً من الشخصيات الأخرى لم يكن معجباً به. يبدو أن دينيس كان يقرصها عندما كانت شانون تمارس الجنس مع رجل من اختيارها ليُعلمها أنه يستمتع بذلك أيضاً. كما أكد "مساعدو الذات الداخليون" لإليز أن دينيس لم يكن من شخصياتها، بل كان دخيلاً على جسدها. في مقابلة أخرى، أوضح دينيس أنه كان سمسار بورصة يُدعى جوليوس، عاش في لويزيانا، وقد أُصيب برصاصة في حادثة سرقة. ومنذ ذلك الحين، كان يتجول داخل وخارج أجساد رجال مختلفة، على ما يبدو بتوجيه من شخص "مُكلّف" - لم يكن متأكداً من هويته. أخبر "مساعد الذات الداخلي" الرئيسي أليسون أن دينيس "دخل" إليز عندما كانت هي وأصدقاؤها يُجرون تجارب على السحر الأسود في أواخر مراهقتها: حاولت استحضار شيطانية و"فتحت عقلها". أُخبِر أليسون أيضًا أنه يستطيع التخلص من دينيس في اليوم التالي، لكن عليه أن يبتعد عنه تحسبًا لدخوله جسده. لكن عندما وضع أليسون إليز تحت التنويم المغناطيسي في اليوم التالي، ظهرت شخصية أخرى: امرأة تُدعى ميشيل، أعلنت أنها تكره الله ولا تنوي طردها منه.

أخذت أليسون إليز - التي كانت قد استمعت إلى تسجيلات صوتية لهذه الشخصيات الأخرى - إلى بقعة عشبية في أرض المستشفى. انهارت على العشب وبدأت تصرخ: "اخرجي من جسدي! اخرجي!". ردّ صوت آخر: "لن أغادر". صرخت إليز: "إن كان هناك إله، فساعديني"، ثم فقدت وعيها. عندما استيقظت، سيطرت عليها شخصية بديلة تُدعى ساندي، ووصفت ساندي ثلاث كرات زرقاء داكنة تخرج من جسد إليز. في اليوم التالي، قال "مساعد الذات الداخلي" إن دينيس وميشيل وروحًا أنثوية أخرى لم يلتقِ بها من قبل قد غادروا إليز جميعًا.

كانت هناك مفاجأة أخرى. أعلن "المساعد الداخلي" أن شانون ليست شخصية بديلة، بل روح طفل إليز الميت. ويجب التخلص من الطفل أيضًا. في أحد الأيام، وبعد جلسة صاخبة أخرى، أخبرت شانون أليسون أنها ستغادر خلال ساعات قليلة. استيقظت إليز وهي فاقدة للذاكرة.

لقد اختفى هذا ببطء على مدى الأيام القليلة التالية، لكن شانون لم يعد أبدًا.

يواصل أليسون وصف حالة أخرى أقنعته بوجود "أرواح" متورطة. كانت هذه فتاة تُدعى صوفيا، وقد نجحت محاولات أليسون لدمج شخصياتها نجاحًا باهرًا. ومع ذلك، بقيت شخصيتان، فتاتان تُدعى ماري وماريا، ويبدو أنهما لا تُجديان نفعًا. أخيرًا، وتحت التنويم المغناطيسي، عادت صوفيا إلى حالتها الأصلية، وذكرت أن والدتها أنجبت ثلاثة توائم. قام الطبيب، الذي كان عشيق والدتها، بخنق الأولين، لكن أحد الجيران قاطعه قبل أن يتمكن من قتل صوفيا. كانت الأرواح الثلاثة تحوم فوق أجساد الأطفال، مستعدة للدخول، والآن أصبح اثنان منهم "مشردين". لذلك دعتهم صوفيا لمشاركة جسدها، فقبلوا بامتنان.

كانت صوفيا هي من أخبرت أليسون أنها لم تعد بحاجة إلى أختيها. وضعت أليسون زجاجة في كل يد وأدخلتها في حالة غيبوبة. ثم أمرها بوضع ماري في زجاجة وماريا في الأخرى. بعد أن همست وتأوهت، استرخَت صوفيا. عندما حاول أليسون تذكر ماري وماريا، لم يستطع: لقد رحلتا.

على الرغم من أن أليسون يكتب: "هل هناك استحواذ روحي حقيقي؟ لا أعلم"، إلا أن الصفحات الأخيرة من كتابه توضح اعتقاده بوجوده. ويواصل وصف خمسة مستويات من "استحواذ الروح" حددها في ممارسته. الأول هو العصاب القهري، مثل إدمان الكحول - وهو مثال مشكوك فيه ولا يبدو أنه يرقى إلى مستوى "استحواذ الروح". يليه تعدد الشخصية، والذي، إذا كانت نظرية أليسون "للتكيف" صحيحة، لا يرقى إلى مستوى الاستحواذ الروحي أيضًا. يتضمن المستوى التالي غزو عقل إنسان آخر، كما في حالة آدم كرابتري لآرت ووالدته فيرونيكا. يستشهد أليسون بحالة امرأة مكسيكية اشتكت من اكتئاب عام، تطور بعد وفاة ابن أخيها في حادث سيارة. اتضح أن أختها - والدة الشاب - ألقت باللوم عليها في وفاته، وشوهدت هي ووالدتها تزوران ساحرة سوداء وتؤديان طقوسًا سحرية. تحت تأثير التنويم المغناطيسي، خرجت الأخت واعترفت بأنها سبب المشاكل العصبية. أمرتها أليسون بالمغادرة، ونجحت عملية طرد الأرواح الشريرة على ما يبدو: استيقظت المرأة وقد خفّت أعراضها.

النوع الرابع من الاستحواذ، الذي يُعرّفه أليسون، هو استحواذ روحٍ بلا جسد. شعرت إحدى مريضاته برغبةٍ مُلحةٍ في مواصلة السير إلى الميناء المحلي، وخلال ذلك الوقتٍ فقدت وعيها بأفعالها. تحت التنويم المغناطيسي، خرج صوتٌ عرّف نفسه بأنه روح امرأةٍ غرقت أثناء بحثها عن زوجها وأطفالها المفقودين في قوارب الميناء. قالت إنها سيطرت على جسد المرأة لمواصلة بحثها، لكنها وافقت على ترك المريضة، التي توقفت بعد ذلك عن الشعور برغبةٍ مُلحةٍ في السير إلى الميناء.

يقول أليسون إن النوع الخامس من المسّ هو ما يبدو أنه أرواح غير بشرية. يصف مريضًا أصيب بنوبات تشنجية بعد حادث عمل، على الرغم من أن إصاباته لم تكن كافية لتفسير النوبات جسديًا. تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أوضح صوت يدّعي أنه "شيطان" أنه دخل إلى الرجل عندما كان جنديًا في اليابان، وأن انفجارًا في منزل محترق أدى إلى دخوله المستشفى. استشار أليسون كاهنًا محليًا، نجح أخيرًا في طرد "الشيطان" من خلال طقوس طرد الأرواح الشريرة في الكنيسة.

لذا، في التحليل النهائي، تدعم استنتاجات أليسون استنتاجات آدم كرابتري، وكلاهما يتوافق مع ملاحظات غاي بلايفير حول أومباندا في البرازيل، ومع المعلومات التي حصل عليها كارديك من "أرواحه". قد تبدو هذه الاستنتاجات للكثيرين مثيرة للقلق، إذ تبدو انحرافًا تامًا عن أساليب التفكير الغربية التي تطورت على مدى القرنين الماضيين، وعودةً إلى الخرافات القبلية. صحيحٌ أن هذا صحيحٌ بلا شك، ولكنه لا يُمثل في حد ذاته سببًا لرفضها.

في ورقة بحثية حول علاج اضطراب الشخصية المتعددة (عادةً ما يُختصر إلى MPD) في البرازيل* يكشف عالم النفس الباراسيكولوجي ستانلي كريبنر أن "فرضية الروح" مقبولة من قبل عدد متزايد من الأطباء والمعالجين وأن العديد منهم لا يمكن رفضهم كممارسين لـ أومباندا. إليعازر سيركويرا مينديز جراح متقاعد؛ كارلوس ألبرتو جاكوب طبيب تخدير درّس في كلية الطب لسنوات عديدة؛ بينما هيرناني جوارمايس أندرادي - معلم بلاي فير - مهندس ومؤسس ما يعادل جمعية البحوث النفسية البرازيلية. لكن الافتراضات التي يبدو أنهم يتشاركونها هي أن اضطراب الشخصية المتعددة له ثلاث فئات أساسية: (1) "تراجع" الشخصية الأساسية بسبب بعض الصدمات التي لا تطاق: (2) "الاستحواذ" من قبل "الأرواح المرتبطة بالأرض"؛ (3) "الاستحواذ" من قبل أحد تجسيدات الماضي الخاصة بالموضوع. في الوقت الذي أجرى فيه كريبنر مقابلة معه عام 1985، كان مينديز قد تعامل مع حوالي 20000 حالة نفسية وشخص 300 منها على أنها اضطرابات تعدد الشخصيات. في معظم هذه الحالات، كان العلاج يتكون من محاولة دمج الشخصيات المختلفة: أي أن مينديز افترض أن "الانقسام" ناتج عن صدمة. كان العلاج نفسه مناسبًا أحيانًا في حالة "الهوس" بشخصية سابقة: وصف مينديز حالة فتاة تبلغ من العمر 12 عامًا أصبحت صبيانية في سن البلوغ وأعربت عن كراهيتها لتشريحها الأنثوي المتطور. أفاد "فريق خارق" من الوسطاء أن الفتاة كانت ذكرًا في وجود سابق وأن شخصيتها السابقة قد استُحضرت من خلال التغييرات البيولوجية. بعد ثلاثة أشهر من العلاج، اندمجت الشخصية الذكورية مع الشخصية الأنثوية. لكن في حالة وصفها أندرادي، حيث كانت الشخصية البديلة للمريضة هي حياتها الماضية كغجرية إسبانية (تتحدث بلهجة غجرية أيبيرية)، كان على الشخصيتين ببساطة أن تتعلما التعايش. في حالات "الهوس" بروح أرضية أو أرواح غير بشرية، عادةً ما...

وكان الحل هو طرد الأرواح الشريرة لطرد الكيان المتطفل.

وصف جاكوب حالةً تتعلق أيضًا بشخصية غجرية بديلة. عانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها تُدعى إيزابيل من فترات فقدان ذاكرة تجولت خلالها في الشوارع مرتدية ملابس وأقراطًا غجرية (ملابس كانت تحب ارتداءها عادةً في الكرنفال). أحضرت والدة إيزابيل، وهي امرأة متملكّة وقوية الإرادة، ابنتها إلى جاكوب للعلاج. تحت تأثير التنويم المغناطيسي، تذكرت إيزابيل حياةً سابقة كغجرية فرنسية تمتعت بحياة هانئة من السفر والغناء والرقص. اختارت الغجرية تجسيدها الحالي كإيزابيل لأنها شعرت أن النضال من أجل الاستقلال في بيئتها الجديدة سيضيف قوةً معينةً إلى شخصيتها. شرع جاكوب في دمج الشخصيتين، وبدأت إيزابيل في مواجهة والدتها ومقاومة نزعتها التملكية - مما أثار استياء والدتها. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الصراع، أفادت إيزابيل أنها أصبحت أسعد بكثير من ذي قبل.

....

يتسم موقف كريبنر من هذه النظريات بالانحياز: فهو يلاحظ ببساطة أنها تبدو فعالة، وأن هذا هو كل ما يهم من وجهة نظر الطبيب. ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أيضًا أن الأمر ليس مسألة إما هذا أو ذاك. فكما فعل الطبيبان البرازيليان، لا ينكر أليسون وكرابتري أن معظم حالات تعدد الشخصية هي شكل من أشكال الدفاع النفسي عن النفس ضد صدمة لا تُطاق: بل يؤكدان ببساطة أنه في تجربتهما السريرية الخاصة، لا تنطبق بعض الحالات على هذه الفئة، لكنها تبدو وكأنها تنطبق على ما كان يُعرف سابقًا بـ"الاستحواذ". إنهما لا يحاولان قلب النظريات النفسية السائدة، بل توسيع نطاقها فحسب. لذا، تتفق أهدافهما مع أهداف هذا الكتاب. ما حاولتُ إثباته هو أن الإنسان، في سياق "تحضره"، قد قمع عمدًا بعض القدرات الخارقة للطبيعة - مثل "حساسية الغابة" لدى جيم كوربيت - لأنه لم يعد بحاجة إليها. لكن أحد الآثار الجانبية غير المرغوب فيها لهذا القمع هو أنه يجد نفسه محاصرًا في عالم مادي يبدو تافهًا، تتكرر عملياته بلا نهاية. شرح يونغ سبب شعوره بخطورة هذا الأمر:

يبدو لي أن أقصى درجات الوعي التي تم بلوغها في أي مكان تُشكل الحد الأقصى للمعرفة التي يمكن للموتى بلوغها. ولعل هذا هو سبب أهمية الحياة الأرضية، وأهمية ما يُقدمه الإنسان عند وفاته. هنا فقط، في الحياة على الأرض، حيث تتصادم الأضداد، يُمكن رفع مستوى الوعي العام. ويبدو أن هذه هي مهمة الإنسان الميتافيزيقية - التي لا يستطيع إنجازها دون "أسطرة". الأسطورة هي الطبيعة و...

مرحلة وسيطة لا غنى عنها بين الإدراك اللاواعي والإدراك الواعي.*

في هذه المرحلة من تطور الحضارة، كان الهدف هو إعادة إرساء ذلك الاتصال القديم مع "اللاوعي"، عالم الأساطير. عالم الأساطير هذا هو أيضًا عالم "القوى الخفية" للإنسان. ما كان ينبغي أن يوضحه الفصلان الأخيران بوضوح تام هو أنه، شئنا أم أبينا، هو أيضًا عالم "الأرواح". لم يؤمن الإنسان القديم بالأرواح لأنه كان جاهلًا خرافيًا، بل لأنه كان يراها كثيرًا. بهذا المعنى، كان فولتير والعقلانيون الفرنسيون مخطئين تمامًا. يكتب فولتير باستخفاف في مقاله عن الخرافات في القاموس الفلسفي: "آمن جميع آباء الكنيسة، دون استثناء، بالسحر. لطالما أدانت الكنيسة السحر، لكنها آمنت به دائمًا؛ لم تحرم السحرة باعتبارهم مجانين مخدوعين، بل باعتبارهم رجالًا مارسوا الجنس مع الشياطين". وهذا، بالنسبة لفولتير، كان سخيفًا لدرجة أنه لم يكن يستحق حتى مناقشته. لا يسعنا لوم فولتير على اتخاذه موقفًا يبدو لنا عقلانيًا في نهاية المطاف. يبقى أننا نمتلك الآن أدلةً واقعية تُمكّننا من تجاوز فولتير، وتشير هذه الأدلة إلى أن العالم مكانٌ أغرب وأكثر تعقيدًا مما كنا نظن. يبدو أن يونغ وكارديك متفقان على نقطة جوهرية واحدة: أن الطريق الذي سيقودنا إلى الأمام هو نفسه الطريق الذي سيقودنا إلى الداخل.

*كارل يونج، الذكريات، الأحلام، التأملات، ص 289.

*سيليا جرين وتشارلز ماكريري، الظهورات، ص 102.

†تم سرد القصة بشكل أكثر تفصيلاً في كتاب "الغيبيات"، ص 54-55.

*"علاج حالتين من جنون العظمة"، النشرة السادسة لجمعية بوسطن للأبحاث النفسية، ديسمبر 1927.

*يجب أن أعرب عن امتناني للفصل الخاص بـ "عمل الدكتور تيتوس بول" في "الحدود اللانهائية" بقلم د. سكوت روجو، و د. سكوت روجو نفسه لتزويدي بالمعلومات الإضافية.

*أعيد طبعه في كتاب طرد الأرواح الشريرة - حقيقة وليس خيال، تحرير مارتن إيبون.

*نقلاً عن ج. فينلي هيرلي في كتاب السحر (1985)، ص 191.

*النهج الثقافي المتبادل لاضطراب الشخصية المتعددة: الممارسات في الروحانية البرازيلية. (مجلة الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية)، سبتمبر 1987.

*الذكريات والأحلام والتأملات، ص 288.

4
رؤى

لو استطاع الإنسان العودة إلى تلك الحالة البدائية "الرؤيوية"، فكيف سيبدو العالم؟ تُقدم السيرة الذاتية لإيلين غاريت بعض الأدلة المثيرة للاهتمام. في صباح أحد الأيام، عندما كانت طفلة في الرابعة من عمرها، كانت مستلقية على سريرها تنظر إلى الظلال عندما لاحظت كرات ضوئية تنفجر على فترات متقطعة في شعاع الشمس. كانت كرات ضوئية بيضاوية الشكل، بدت وكأنها مليئة بالألوان، وانتفخت وانفجرت كفقاعات. وبينما كانت تدور في ضوء الشمس، كانت تتحرك أيضًا في نمط منظم جيدًا كالرقص. لاحظت في الوقت نفسه أن الهواء كان مليئًا بـ"أصوات الغناء". وبينما كانت تُحدق في "الفقاعات"، شعرت بنفسها منجذبة إلى رقصها حتى بدت وكأنها مُنقسمة.

- "كما لو كانت مُقسّمة إلى قطع صغيرة، كل قطعة تقع في مكان مختلف". بدأت تُطوّر هذه القدرة على إسقاط جزء "سائل" من ذاتها على الزهور والأشجار والصخور - وأحيانًا على البشر - لتختبر هويتهم.

هذا يُشبه وصف وردزورث للطفولة في قصيدة "تلميحات الخلود"، بما تحمله من شعور "بمجد ونضارة الحلم". في الواقع، يُمكننا جميعًا أن نختبر شيئًا كهذا في حالات استرخاء عميق - حتى عند الانغماس في حمام دافئ. ما يحدث هو أنه بتركيزنا على متعة الاسترخاء، نتجاوز بطريقة ما الأنا في الجانب الأيسر من الدماغ، أي الشخصية، ونرى الأشياء كما هي ببساطة بدلًا من رؤيتها من منظور فائدتها لنا.

كانت إيلين جاريت أيضًا على دراية بما أسمته "محيط" الكائنات الحية، والذي يطلق عليه العرافون عادةً اسم هالاتهم.

في طفولتي، عرفتُ أن شخصية الإنسان تعتمد على ما يحيط به. من خلال جودة الضوء واللون الذي يُصدره، استطعتُ الحكم على شخصيته. كان بعض الناس يتحركون في ظلال رمادية، والبعض الآخر في أضواء متوهجة... كان هذا ينطبق عليّ أيضًا فيما يتعلق بالنباتات والحيوانات: كنتُ أعرف، بناءً على حالة الأغلفة، متى تكون حيوية الأشجار والزهور عالية أو منخفضة... لاحظتُ كيف تتصرف الحيوانات تجاه بعضها البعض... واستطعتُ أن أقول إنها...

شعرتُ بهذه الأُطُر المحيطة. وكما يتفاعل الفأر مع وجود الصقر قبل أن يرى شكله، كذلك كنتُ أعلم أن جميع الحيوانات تتفاعل مع أعدائها وأصدقائها، من خلال هذه الأشكال المُحيطة.

عندما كانت إيلين غاريت في الرابعة من عمرها، أدركت وجود ثلاثة أطفال في حديقة منزلها الريفي. بدا هؤلاء الأطفال وكأنهم مصنوعون بالكامل من النور الذي يحيط بالبشر. استطاعت التواصل معهم دون كلام، "كما فعلتُ مع كل ما هو حي؛ إذ بدا لي أنني أعرف ما تقوله الزهور والأشجار دون استخدام الكلمات". يذكر رالف أليسون أن العديد من مرضاه المصابين باضطراب تعدد الشخصيات كان لديهم رفقاء خياليون في طفولتهم بدوا لهم حقيقيين كبشر حقيقيين، وأن بعضهم كان يرى هالات حول الناس. لكن معظم مرضاه المصابين باضطراب تعدد الشخصيات كانوا يمتلكون أيضًا قدرة إيلين غاريت الغريبة على "الانطواء" على نفسها. يتحدث ألدوس هكسلي، واصفًا ردود أفعاله بعد تناول الميسكالين، عن الشعور بالمعنى العميق الذي بدا وكأنه يشع من كل ما نظر إليه - من زهرة إلى كرسي استرخاء.

- كما لو كانت تُخاطبه بطريقة ما. وقد وصف أوسبنسكي كيف أنه كان يشعر، وهو يتجول في سانت بطرسبرغ ليلًا ويمارس "التذكر الذاتي"، بأن المنازل تتواصل معه. عند قراءة مثل هذه الأوصاف، نفترض أنها أسلوب في الكلام، نوع من التحرر الشعري. لكننا بذلك نفشل في فهم الآليات الأساسية للإدراك: فشخصياتنا تستبعد معظم معنى العالم من حولنا؛ ويصبح الأمر أشبه بجهاز تلفزيون مع خفض الصوت. أما العرافات مثل إيلين غاريت، فهن ببساطة يرون العالم مع رفع الصوت. هناك شعور بأن إدراكهن أكثر طبيعية من إدراكنا.

هناك درجاتٌ عديدةٌ من الاستبصار. امتلكت إيلين غاريت مستوىً رفيعًا؛ بينما يكاد بعض الناس يفتقرون إليه تمامًا. تكشف روايات سارتر، على سبيل المثال، أنه رأى العالم واقعًا باهتًا ومتماسكًا يُرهق حواسه. لكن معظم الفنانين والشعراء يمتلكون درجةً أعلى بقليل من معظم الناس. والنتيجة هي أنهم عندما يشعرون بالانتعاش واليقظة، يشعرون بمعنىً ينضح به كل ما يحيط بهم. يميل معظمهم إلى الاعتقاد بأن هذا مجرد وهمٍ مُمتع، أو طريقةٍ للانغماس في طاقة الحياة الذاتية: في الواقع، إنهم يلقون نظرةً خاطفةً على العالم في حالته البدائية "الرؤيوية".

كلما زرتُ معرضًا فنيًا، أدركتُ أن الفنّ محاولةٌ لإيصال هذا الشعور "بالمعنى الذي تُضفيه الأشياء". الفنان الذي يرسم ما يراه أمامه ليس سوى مُجرّد عاملٍ ماهر. الفنان الحقيقي يُبهر بـ"جاذبية" الخطوط والألوان، ويرغب في...

يعزلهم على القماش. إنه في الواقع يُلقي نظرة خاطفة على عالم العراف. هناك ما يُبرر القول إن جميع الفنانين عرافون أو أصحاب رؤى غير متطورين.

ألبرت تاكر أحد أرقى فناني أستراليا المعاصرين. عندما سألته إن كان قد مرّ بتجارب خارقة للطبيعة، أجاب: "قليلة جدًا". ومع ذلك، تؤكد هذه التجارب القليلة أنه يعيش في عالم مختلف تمامًا عنا - عالمٌ أقرب إلى عالم إيلين غاريت.

أول تجربة "خارقة للطبيعة" يتذكرها حدثت في سن السابعة عشرة تقريبًا. كل ليلة، بينما كان يستلقي للنوم، كان وزن ثقيل يستقر على ساقه - وزن إنسان، ناعم ودافئ نوعًا ما. بمجرد أن يستدير من جانبه إلى ظهره، يختفي الوزن. ومن الغريب أنه كان يعرف تمامًا شكل زائرته: كانت لديه صورة ذهنية واضحة لامرأة عجوز صغيرة، قصيرة، ممتلئة الجسم، ذات شعر رمادي مجعد ومعطف بني. استمر هذا لعدة أسابيع، ثم توقف. ولم يحدث ذلك منذ ذلك الحين.

بعد ذلك بوقت قصير، كان بيرت ووالدته يتناولان غداءهما ذات يوم عندما دوّى صوت تحطم مروع من الغرفة المجاورة - اهتزّ المنزل بأكمله. قالت السيدة تاكر: "يا إلهي، لقد سقطت خزانة الكتب!"، فاندفعا إلى الغرفة. لم يكن هناك أي اضطراب. في حيرة من أمرهما، لكنهما شعرا بالارتياح، عادا إلى غداءهما.

بعد بضع سنوات، كانت لدى ألبرت تاكر تجربته الوحيدة في الاستبصار أو التنبؤ. كان يسير في شارع في ضاحية مالفرن في ملبورن، مقتربًا من زاوية، ففزعته صورة بصرية قوية خطرت بباله. كانت للشارع الذي يقترب منه، وقد وقف ساكنًا، مثل فيلم متوقف، حتى يتمكن من مسحه بالتفصيل. في منتصف الشارع كان يقف رجل يتحدث إلى شخص ما عند بوابة: كان يرتدي قبعة رمادية من اللباد ومعطفًا من التويد بنقش متعرج واضح وقوي للغاية. وعلى الرغم من أن الرجل كان في منتصف الشارع، إلا أن تاكر استطاع رؤية كل التفاصيل في قماش المعطف، كل سدى ولحمة في القماش. وبعد ثوانٍ وصل إلى الزاوية، ونظر إلى أسفل الشارع، ورأى نفس الرجل يقف عند البوابة يتحدث إلى شخص ما.

بعد عشر سنوات، كان تاكر يعيش في منزل بشارع باوليت، شرق ملبورن، مع زوجته الأولى جوي. كان السريران المفردان في الغرفة متجاورين. كاد تاكر أن يغفو، فاستيقظ فجأة على صوت تحطم مدوٍّ عند قدم سرير زوجته. جلس واستند على مرفقه، ثم رأى زوجته جالسة على طرف سريرها. ظن أنها نهضت للذهاب إلى الحمام وركلت منضدة الزينة. ولدهشته، استمرت زوجته في الجلوس على السرير، وكما هو الحال مع الرجل ذي المعطف، كان يدرك أنه قادر على رؤية كل تفاصيل المادة.

من ثوب نومها وكل شعرة على رأسها. بدا هذا غريبًا بالنسبة له لأن ضوء القمر الخافت بالكاد أضاء الغرفة. وبينما كان على وشك فتح فمه للتحدث، اختفت زوجته "كما لو أن ضوءًا قد أُطفئ". في الوقت نفسه، جاء صوت تنفس أجش من وسادتها. توجه تاكر إليها ونظر إلى أسفل: كانت ملتفة في وضع الجنين، تتنفس بصعوبة شديدة حتى بدا الأمر كما لو أنها تلهث. ثم، ببطء، عاد تنفسها طبيعيًا مرة أخرى. في الصباح سألها إن كانت تتذكر أي أحلام: قالت لا. عندما وصف ما رآه كانت في حيرة مثله. ولأنه لم يسمع قط عن "التوأم النجمي"، لم يكن لدى تاكر أي فكرة عما يمكن أن يفعله بهذه التجربة.

يبدو أن تجربة لاحقة تنتمي إلى نفس فئة قصة الرجل ذي المعطف الصوفي. في إحدى الأمسيات، كان تاكر جالسًا يشاهد التلفاز وينتظر عودة زوجته الثانية، باربرا، من حفل إطلاق كتاب؛ كانت كلبته الدوبرمان بينشر، غريتل، مستلقية على الأريكة تغفو. فجأة سمعا كلاهما صوت سيارة باربرا العائدة؛ ارتعشت غريتل وركضت إلى الباب. مرت السيارة من المنزل إلى المرآب؛ التصقت إطاراتها بالحصى ودارت دورة المحرك. فتح الباب ونظر نحو المرآب؛ لم تكن هناك أضواء خلفية مرئية ولم يكن ضوء المرآب مضاءً. انطلق الكلب مسرعًا إلى المرآب بينما سار تاكر إلى نهاية الشرفة. بعد لحظات، عادت غريتل وهي تبدو في حيرة من أمرها. لم تكن هناك سيارة. عاد كلاهما إلى المنزل. بعد عشر دقائق، سمعا نفس الأصوات؛ إطاراتها تلتصق بالحصى، ودارت دورة المحرك مع مرور السيارة بالمنزل. هذه المرة كانت باربرا عائدة إلى المنزل. لقد كان الوقت السابق بمثابة نوع من "البروفة"، أو ما يسميه النرويجيون "vardoger" أو "السابق" - وهو حدث يبدو أنه يقع قبل وقت من حدوثه في الواقع.

لكن أغرب تجارب تاكر الخارقة للطبيعة، بلا شك، وقعت في نفس الغرفة شرق ملبورن حيث كان يعيش مع زوجته الأولى. في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، ذهبت جوي لزيارة والدتها، تاركةً ألبرت وحيدًا في الغرفة لأول مرة منذ خمس سنوات. شعر بنوبة عصبية غريبة عند فكرة قضاء الليلة وحيدًا، والتي ظن أنها مجرد ذكريات من الطفولة - وتساءل لاحقًا إن كانت مجرد هاجس. في ذلك المساء، ذهب لزيارة بعض الأصدقاء في ضاحية جنوب يارو المجاورة. مع اقتراب منتصف الليل، انطلق عائدًا إلى منزله سيرًا على الأقدام، مسافة ميل تقريبًا. وبينما كان يتجول على ضفة النهر، شعر بشعور من القلق - والذي عزاه مرة أخرى إلى معرفته بأنه سيقضي الليلة وحيدًا. كلما اقترب من المنزل، ازداد شعوره بالتوتر. كان قويًا لدرجة أنه بدأ يُلقي محاضرات على نفسه حول طفولته. ومع ذلك، بحلول الوقت الذي اقترب فيه من المنزل، أصبح شعورًا بالقلق الحاد. تحول هذا إلى خوف، ثم إلى رعب. عندما انعطف إلى شارع باوليت،

كان مدفوعًا بإرادة خالصة، مصممًا على عدم الاستسلام لرعب مجهول لا هدف له. دخل المنزل وتحسس طريقه إلى الطابق العلوي في الظلام - لم يكن هناك سوى مفتاح إضاءة واحد في أسفل الدرج - ثم أضاء الضوء في غرفته. عندما دخل، هاجمته ما وصفه بأنه "رائحة كريهة للغاية - لا يمكنني وصفها إلا بأنها نوع الرائحة التي ربما التقطتها بنفسك في حدائق الحيوان - نوع من الفراء الرطب والساخن ورائحة حيوانية حادة". وقف في منتصف الغرفة، متصلبًا من الرعب ولكنه لا يزال يقاومه كطفل، ثم لاحظ شيئًا على غطاء سريره. كان فأرًا ميتًا. (في الواقع، لم يرَ آل تاكر فأرًا في هذا المنزل من قبل). كان مستلقيًا على السرير ورجلاه الخلفيتان مفرودتين، وبينما كان ينحني فوقه، استطاع أن يرى قطرات بول متناثرة على طول الغطاء على بعد قدم تقريبًا خلف الفأر. انحنى ولمسها بإصبعه السبابة. كان لا يزال دافئًا كما لو كان حيًا. «فجأة، على الفور، عرفتُ أنني لو قضيتُ الليل في الغرفة فلن أرى الصباح - كنتُ أعرف ذلك يقينًا داخليًا مطلقًا». استدار ونزل. ما إن خرج إلى الشارع حتى اختفى الرعب. عاد إلى منزل أصدقائه وقضى الليلة على أريكتهم. في صباح اليوم التالي، عاد إلى الغرفة. كانت الغرفة مضاءة بأشعة الشمس، وقد تبخّر الرعب.

بالتفكير في هذا لاحقًا، توصل تاكر إلى استنتاج مفاده أنه "بطريقة ما، تم إنشاء منفذ يمكن أن تظهر من خلاله قوى شيطانية". كان لدى صاحبة المنزل ابن أحمق كان يُودع في مؤسسة: كان يعود إلى المنزل بشكل دوري لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وكان موجودًا في المنزل في تلك العطلة، في الغرفة التي تقع مباشرة أسفل منزل عائلة تاكر. شعر بيرت تاكر أن وجوده هو الذي "فتح الباب" بطريقة ما للكيان الشيطاني. وماذا عن الفأر الميت؟ كان استنتاجه أنه أصبح "ساحة معركة" بين قوى الشر وقوة كانت تحاول الحفاظ عليه. كانت هذه القوة "الحارسة" هي التي ملأته بالرعب في طريق عودته إلى المنزل والتي - إدراكًا منه أنه كان عنيدًا جدًا لدرجة أنه لم يقبل التحذير - قتلت الفأر عند دخوله الغرفة وأقنعته أخيرًا أن هذا لم يكن خوفًا غير منطقي بحتًا.

تبدو هذه الحلقات المختلفة متباينة للغاية لدرجة يصعب معها تحديد أي نمط عام. ومع ذلك، فإن أول وأوضح ما يتبين هو أن ألبرت تاكر "متنبئ" بطبيعته، مما يعني، بكل بساطة، أنه يدرك إلى حد ما ذلك "العالم الخفي" الذي يعتبره الشامان مثل رامون ميدينا أمرًا مسلمًا به. يذكر أنه أدرك ذلك في أوائل مراهقته، ولكن لم يكن هناك ما يمكن اعتباره "حدثًا خارقًا للطبيعة". ومثل العديد من الفنانين، ربما كان متأخرًا في التطور، لذا فإن السيدة ذات الشعر الرمادي التي جلست على ساقيه كانت ببساطة تستغل الطاقات الغريبة للمراهقة. (هل من المهم أنها اختفت عندما استدار على ظهره، مما أدى إلى إزالة الضغط من المنطقة المعنية؟) وينطبق التفسير نفسه على الرعد...

الاصطدام: بما أنه حدث مرة واحدة فقط، فقد يتم تفسيره على أنه وداع الروح الشريرة.

يمكن اعتبار "رؤية" الرجل ذي المعطف الصوفي إما استبصارًا أو استبصارًا. إذا كانت استبصارًا، فإن عقله كان ببساطة يستوعب شيئًا يحدث على بُعد بضع مئات من الأمتار، كما لو أن السياج والمنازل الفاصلة غير موجودة. ولكن بالنظر إلى الحادثة الأخيرة للسيارة الشبحية، أميل إلى اعتبارها استبصارًا. ولأنه كان مسترخيًا تمامًا، استطاع عقله، بطريقة غريبة، مسح المستقبل. في هذه الحالة، يجب أن نفترض أن الحادثة بأكملها حدثت داخل رأسه، وأنه لو كان هناك شخص آخر في الغرفة لما سمع شيئًا. في هذه الحالة، ستكون استجابة الكلب مجرد استجابة لردود فعل تاكر، أو ربما علاقة توارد خواطر. التفسير البديل هو أن باربرا تاكر، وهي تقود سيارتها عائدة إلى المنزل، تخيلت دخولها إلى الممر، وبطريقة ما "أسقطت" الحدث على عقل زوجها. وقد ذكرتُ في مكان آخر.* الحالة الغريبة للقس ماونت فورد من بوسطن، الذي كان يقف بجوار النافذة في منزل صديق عندما رأى حصانًا وعربة يصلان؛ رآها مضيفه أيضًا. ولكن عندما وصلوا إلى الباب الأمامي لم يكن هناك شيء هناك. توقفت العربة الأصلية بعد عشر دقائق. ولكن في هذه الأثناء وصلت ابنة راكبيها، ويبدو عليها القلق. كانت تسير على طول الطريق عندما مرت العربة بجانبها، وتساءلت عن سبب تجاهل والديها لها ومرورهما مباشرة. في الواقع كان والداها لا يزالان جالسين أمام النار في المنزل، يستريحان قبل الانطلاق. التفسير الأكثر ترجيحًا هو أن أحد الوالدين قد سقط في غفوة أو تأمل و"أسقط" صورة العربة.

تثير حادثة الفأر بعض التساؤلات المثيرة للاهتمام. لا شك أن تاكر كان محقًا في افتراضه أن أحد سكان العالم الروحي البغيضين قد تمكن من "إيجاد الباب" إلى الكون المادي بسرقة طاقات الابن الأحمق، وربما تكون حساسية تاكر النفسية قد جعلته أكثر عرضة للخطر. الافتراض الطبيعي هو أن ذلك كان "روحًا دنيوية" سيئة الطباع - أي، في الأساس، روح شريرة. لكن نادرًا ما تُظهر الأرواح الشريرة أي سوء نية حقيقي إلا إذا "أرشدها" إنسان خبيث. يبدو أن هذا الكيان كان شريرًا بحق في حد ذاته. علاوة على ذلك، غالبًا ما تُربط رائحة فراء الحيوانات المبلل بالشياطين في محاكمات السحرة. يجب أن نقبل، على الأقل كاحتمال، أن القوى الشيطانية في اللاهوت في العصور الوسطى قد يكون لها وجود حقيقي - حتى لو لم تكن، كما يُصرّ كارديك، شريرة بشكل دائم لا رجعة فيه.

من الواضح أن ألبرت تاكر شخصٌ غير راغب في تطوير قدراته، ولا يرغب في ذلك. قد يبدو هذا غريبًا، فمعظمنا يتمنى أن يكون قادرًا على التنبؤ بالمستقبل والتواصل مع أحبائه الموتى.

لكن للقدرات النفسية أيضًا عيوبها: فالعيش "بين عالمين" قد يكون تجربة مرهقة. تشير آن بانكروفت إلى أنها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها "شعرت بالخوف فتوقفت عن كل شيء". حتى إيلين غاريت راودتها الشكوك حول الأمر. تصف "أحلامها" في طفولتها قائلةً: "لم تكن تلك بداية قدرتي على الانسحاب من العالم والعيش في ذاتي. أعتقد أنني ربما كنت أتمتع بهذه القدرة دائمًا، ولكن مع ازدياد إلحاح العالم الخارجي العملي في متطلباته، طورتُ القدرة على عزله... في صراع غريزي من أجل الحفاظ على الذات".

يبدو أن التجربة النفسية تبدأ بـ"انفتاح" معين، يجلب معه حساسية شديدة للطبيعة - إحساس آن بانكروفت بـ"حضور" في الغابات والحقول، وقدرة إيلين غاريت على "التواصل" مع الأشجار والزهور. هناك شخصية أخرى مميزة، روزاليند هيوود - التي كتبت عنها بإسهاب في مكان آخر.* — طوّرت إحساسها الطفولي بوجود "أشخاص" في سفوح جبال الهيمالايا، وبكت حتى غلبها الحنين عندما عادت عائلتها إلى إنجلترا. عندها أدركت وجود "أشخاص" آخرين في منزل جدها قرب دارتمور: "شخصية" أنثوية في غرفة نومها (اعترفت والدتها لاحقًا برؤية شبح امرأة عجوز هناك)، و"أشخاص" حزينون" آخرون في منزل عمتها في نورفولك. بعد سنوات، رأت عمتها صورة لرجل يرتدي زيًا من القرن السابع عشر، فصرخت قائلة: "هذا هو الرجل الذي يحاول دائمًا منعي من الصعود". قيل لها إنه أوليفر كرومويل، الذي كان مغرمًا بفتاة عاشت في منزلها يومًا ما.

لقد لاحظنا أن إيلين جاريت سمعت "أصوات غناء" عندما كانت تحدق في
"كريات من الضوء" في غرفتها. خصصت روزاليند هيوود فصلاً كاملاً من سيرتها الذاتية "الخلية اللانهائية" لـ"الغناء"،

... نوع من شبه الصوت الداخلي النابض المستمر، أقرب تشبيه له هو الضجيج الناتج عن ضغط صدفة بحرية على الأذن، أو ربما أزيز مولد كهربائي بعيد... وهو أوضح بكثير في بعض الأماكن من غيرها: لا سيما في غابة هادئة، على سبيل المثال، أو في أرضٍ مستنقعية أو جبل - أماكن برية نظيفة لم يفسدها الإنسان. وهو واضح أيضًا، على سبيل المثال، في كنيسة أو مكتبة جامعية، أماكن كان فيها الفكر أو التدين مكثفًا لسنوات...

في جملتها الأخيرة يبدو أنها تتحدث عن "عالم المعلومات" وحقيقة أن الأشياء قادرة على "تسجيل" اهتزازات العقل البشري.

توضح روزاليند هيوود أيضًا لماذا قد يكون العيش مع هذا النوع من "الانفتاح" أمرًا مزعجًا. في مثل هذه الحالات، يبدو أدنى صوت أو لمسة وكأنه...

زلزال. تصف عودتها من حفل موسيقي وهي تشعر بسعادة غامرة لدرجة أنها استلقت على السرير،

... للتفكير في الأمر... . تقريبًا على الفور، عادت ذروة الارتفاع الحية بأكملها، في وقت واحد، ليس في الصوت ولكن لعيني الداخلية في اللون. لقد انجرفت فيه وأعلى حتى خرجت في الأعلى إلى قاعة رخامية واسعة وجميلة، مستطيلة الشكل، بجدران مطلية والطرف الشرقي بأكمله مفتوح على سماء الليل والنجوم. بينما كنت أحدق مفتونًا بهذه الأجواء الرائعة، اعتقد زوجي أنني أبدو غريبة ولمسني برفق. كان تأثير لمسته بعيدًا عن اللطف: لقد أجبرني على العودة بحدة وألم إلى جسدي... وأخبرت الرجل المسكين، مرتجفًا وخائب الأمل، بما فكرت فيه عنه بعبارات لا لبس فيها.

في مناسبة أخرى، كانت تحاول ممارسة قراءة الأفكار في غرفة نومها، وشعرت بشعور "كأنها نسخة مُمجَّدة... من التخدير". ثم انتشلتها سلسلة من الضربات القوية المؤلمة: كان زوجها يطرق الباب برفق ليسألها إن كانت مستعدة للفطور. وهذا يُفسِّر بوضوح خطورة "إيقاظ" وسيطة روحية فجأةً وهي في حالة غيبوبة: فإذا كان قلب الوسيطة ضعيفًا، فقد تكون النتيجة قاتلة.

كما أن "انفتاح" روزاليند هيوود جعلها تدرك الوجود غير البشري. عندما خرجت هي وزوجها إلى دارتمور عند الغسق، "اجتاحني الجمال المذهل عبر حاجز. لم أعد أنظر إلى الطبيعة. الطبيعة كانت تنظر إلي. ولم يعجبها ما رأته. كان إحساسًا غريبًا ومتواضعًا، كما لو أن عددًا لا يحصى من المخلوقات المسالمة تتراجع، مستاءة من غزونا ..." قررت أنه يجب عليهما الوقوف في صمت تام ومحاولة شرح عقلي أنهم جاءوا كأصدقاء. ثم "بدا لي أنني أشعر بتنهدهم من الراحة ... تم قبول اعتذارنا". بعد بضعة أيام، وهي تواجه المستنقع من خلال نافذة مفتوحة، "عانت من غزو ... كان الأمر كما لو أن سربًا من الكائنات الصغيرة غير المرئية طاف من النافذة ليقول "مرحباً!" ويغريني باللعب معهم."

في زيارةٍ لمجلس العموم، جلست مسترخيةً عند مدخل قاعة وستمنستر "ودعت العالم يتلاشى". وجدت نفسها "تتجاوز الغناء" إلى حضرة "كائنٍ حكيمٍ وقويٍّ للغاية، شعرتُ أنه يحيط بمجلسي البرلمان. في تلك المساحة الداخلية، كان شاهقًا لدرجة أن المباني الفعلية بدت وكأنها متجمعة حول قدميه". قررت أن تتحدث عن تجربتها مع شيخٍ متصوفٍ قديس.

عرفتُ ذلك. لكن تبيّن أن هذا غير ضروري: فبمجرد وصولها، بدأ يتحدث تلقائيًا عن "ملاك" مجلس العموم... وبعد بضع سنوات، بينما كنتُ أنتظر ابنها في مدرسة الموسيقى في إيتون، "بدا لي مرة أخرى أنني مررتُ عبر عالم الغناء إلى أجواء كائن عظيم. بدا وكأنه يتولى رعاية المدرسة، ومثل زميله في وستمنستر، خلق جوًا من الحكمة والهدوء العميقين".

إن التساؤل عما إذا كانت هذه التجارب "حقيقية" يثير سؤالاً مثيراً للاهتمام. فهو يوحي بأن روزاليند هيوود ربما كانت تتخيل "الحضور". ومع ذلك، إذا كان وصفها دقيقاً، فقد أدركته بـ"ترك العالم يتلاشى" والسقوط "في جحر الأرنب" في حالة من الوعي أشبه بالغيبوبة. ما "رأته" إذن ربما كان مجرد نتاج عقلها الباطن: أي أن عقلها ربما فسّر إدراكها رمزياً، منتجاً هذا الانطباع بكائن عملاق يشمخ فوق المبنى. ومع ذلك، فإن إدراكنا لآليات الاستبصار يوحي بأن الإدراك الذي كانت تفسره كان لشيء حقيقي: لم تكن "الحضور" خيالاً شعرياً، مثل الحضور الذي شعر به وردزورث في منطقة البحيرة، بل "كائنات" حقيقية. ولكن إذا استطعنا قبول هذا الاحتمال، فمن الصعب أن نفهم لماذا يجب علينا وضع حد ووصف "حضور" وردزورث بأنه خيالي. يستطيع العقل "المفتوح" للشاعر والفنان استشعار حقائق تتجاوز إدراك حواسنا العادية. تكمن المشكلة الحقيقية في أن افتراضاتنا المادية تنطوي على عدد من المقدمات الخاطئة: فقط عندما ندرك ذلك، ندرك أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين عالمنا اليومي وعالمنا الخفي.

كانت روزاليند هيوود محظوظة. فبصفتها شابة إنجليزية من الطبقة الراقية، كان والدها موظفًا في الخدمة المدنية الهندية (وكانت والدتها أيضًا قادرة على "رؤية الأشباح")، لم تواجه أي تعارض بين الحياة اليومية وعالم بصيرتها. وفي نهاية المطاف، تزوجت ضابطًا سابقًا في الجيش عمل في وزارة الحرب ثم أصبح دبلوماسيًا، وكان قادرًا أيضًا على ومضات من الإدراك البصري. (كما طور ابنها الأصغر "قوى" غريبة: في أحد الأيام سألته عن سبب قراءته لأطلس لندن، فأخبرها أنه في وقت لاحق من اليوم سيسأله غريب عن الطريق إلى شارع معين. حدث هذا في غضون ساعة). وفي نهاية المطاف، تمكنت من الانضمام إلى جمعية الأبحاث الروحانية وممارسة اهتمامها بالظواهر الخارقة للطبيعة بطريقة علمية ومنعزلة. لم يكن هناك أي إغراء لممارسة الوساطة الروحية نظرًا لانشغالها بأمور أخرى كثيرة.

كانت مسيرة إيلين غاريت المهنية أقل سلاسةً. نشأت على يد عمّها وخالها في مزرعة بمقاطعة ميث، أيرلندا، وكانت "غريبة" منذ البداية. كانت عمتها امرأةً قوية الإرادة، وكان موقفها من الخوارق مُنكرًا تمامًا: لقد جعلت حياة الطفلة بائسة.

في أحد الأيام، بينما كانت إيلين جالسة على الشرفة، سارت نحوها عمتها ليون وقالت لها: "يجب أن أذهب الآن وأخذ الطفل معي". ركضت إلى الداخل لأخذ عمتها، لكن عندما خرجا، كانت العمة ليون قد اختفت. تعرضت إيلين للجلد لكذبها وأُرسلت إلى الفراش. لكن في اليوم التالي، توفيت العمة ليون أثناء الولادة. رفضت العمة تصديق أن الطفل قد رأى العمة ليون، وقالت لها بغضب: "يجب ألا تتحدثي عن مثل هذه الأمور مرة أخرى، لأنها قد تتحقق". انعزلت إيلين في عالمها الخاص، وبدأت تُصاب بأمراض جسدية كرد فعل على رفضها. بعد أيام قليلة من وفاة عمها - الذي كانت تُحبه - فُتح الباب ودخل غرفتها، مُشرقًا ومعافى، وتحدث معها مطولًا. أوضح لها أنها ستُجبر على تحمّل عمتها وبذل قصارى جهدها، وتوقع أنها ستذهب إلى لندن بعد عامين. ثم خرج وأغلق الباب خلفه. لم يخطر ببالي قط أنني رأيت شبحًا، أو أن شيئًا غريبًا قد حدث. ولكن عندما توفيت ابنة عمها آن، رأت "مادة رمادية غامضة" ترتفع فوق جسدها، ثم تتجمع في دوامة قبل أن تختفي.

بعد عامين، وفي السادسة عشرة من عمرها، وجدت إيلين غاريت نفسها في لندن، وسرعان ما تزوجت شابًا لطيفًا التقت به على العشاء في منزل ابن عم عمتها. ولكن عندما عادا من شهر العسل، أخبرها بجدية أنه يجب عليها التخلي عن ميلها إلى "التخيل" وأنه قد يؤدي إلى الجنون. شعرت بتقسيم ذاتي أكثر من أي وقت مضى. أسعدها ولادة ابن، إلى أن حذرها وجود غير مرئي من أنه لن يبقى معها طويلًا. وُلد طفل ثانٍ، لكنها شعرت بحدس أنه سيموت صغيرًا. بعد ذلك بوقت قصير، توفي الطفلان بسبب التهاب السحايا. انتهى زواجها بالطلاق. خلال الحرب العالمية الأولى، التقت بضابط شاب وتزوجته. بعد ذلك بوقت قصير، في مطعم مزدحم، شعرت أنها علقت في خضم انفجار عنيف ثم "شاهدت" زوجها يتمزق إربًا إربًا. بعد يومين، أُبلغت أنه مفقود.

تزوجت مرة أخرى وأنجبت ابنة. أصيبت الطفلة بالتهاب رئوي، وفي أحد الأيام سمعت الطبيب يقول إنه فقد الأمل. أخرجت الطفلة من سريرها واحتضنتها. فجأة سمعت صوتًا يقول: "يجب أن تتنفس المزيد من الهواء. افتحي النافذة". بعد ذلك، أدركت وجود رجل يقف بجانب السرير: ففارقها الخوف فجأة. "ما أتذكره بعد ذلك هو صوت مدوي في أذني، اتضح أنه شخص يطرق الباب." (يبدو أن هذا يشير إلى أنها كانت في حالة غيبوبة آنذاك). كان زوجها. عندما نظروا إلى الطفلة، كانت نائمة بهدوء، وقد انتهت أزمتها.

انضمت إيلين غاريت بعد ذلك إلى جمعية روحانية وحضرت محاضرات في الاستبصار والقياس النفسي. كما انضمت إلى مجموعة من النساء اللواتي عقدن

جلسات تحضير الأرواح. في الجلسة الثالثة، شعرت بالنعاس وغلبها النعاس. عندما استيقظت، قيل لها إن الموتى تحدثوا من خلالها، وإنها وسيطة روحية موهوبة. نصحها أحدهم باستشارة عراف سويسري يُدعى هونلي. في حضوره، غلبها النعاس مرة أخرى. عندما استيقظت، أخبرها هونلي أن "روحها" التي تُدعى أوفاني، تحدثت إليه، وأن أوفاني يريد "القيام بعمل جاد لإثبات نظرية البقاء". عندما عادت إلى المنزل وأخبرت زوجها أنه كان غاضبًا جدًا وأخبرها أنها على وشك الجنون. تجاهلته واستمرت في زيارة السيد هونلي. في النهاية، تسببت صراعاتها في نزيف حاد. وبينما كانت تتعافى، بدأت أخيرًا تفهم ما كان يحدث لها طوال حياتها. المقطع في سيرتها الذاتية الذي تتحدث فيه عن هذا يوضح تمامًا مدى قرب تجربتها الشخصية من تجارب العديد من مرضى رالف أليسون المصابين بتعدد الشخصيات:

أدركتُ لأول مرة أن حالة الغيبوبة قد تكون جزءًا من نمط نفسي بدأ في طفولتي المبكرة. بدأتُ أفهم كيف دفعني ألم ومعاناة تلك الأيام المبكرة إلى الانسحاب من عالم الناس إلى عالم النور واللون والحركة. أتذكر الآن أن أول مرة نجحتُ فيها في الهروب من ألم العقاب الذي فرضته عليّ عمتي كانت عندما انعزلتُ تمامًا لدرجة أنني رأيتُ شفتيها تتحركان وهي تُوبّخني، لكن دون أن أسمع كلمة. أتذكر الآن أيضًا أنه عندما أصبح العقاب الجسدي لا يُطاق تقريبًا... تعلمتُ أن أُغرق في نفسي وأغفو بسرعة، مُتخلصًا بذلك من الآثار المؤلمة للضرب... أتذكر أيضًا نوبات فقدان الذاكرة العديدة التي مررتُ بها خلال السنوات الأولى وغير المُرضية من زواجي الأول، وخلال الوقائع المأساوية لوفاة أبنائي. أدركتُ الآن بوضوح أكبر أن فترات ما يُسمى بفقدان الذاكرة هذه كانت أيضًا أشكالًا من الهروب من ظروف الحياة المؤلمة للغاية.

كل هذا يُظهر بوضوح أن إيلين غاريت كانت محظوظة لأنها نجت من تعدد الشخصيات. قد يجادل المتشككون بأنها أصبحت كذلك، وأن أوفاني لم تكن سوى جانب آخر من شخصيتها. إلا أن النجاحات الباهرة التي حققتها لاحقًا في مجال الوساطة الروحية تُثبت عكس ذلك تمامًا.

في الواقع، أذهلها مرشدها الثاني المهم، هيوات ماكنزي، مؤسس كلية العلوم النفسية، بموقفه المتشكك والمنعش تجاه "الضوابط". أوضح أنه من الخطأ اعتبار عبارات "الضوابط" صادرة عن قوة عليا - فهم غالبًا ما يكونون شخصيات محدودة تحتاج إلى قدر مماثل من التعليم والتدريب الذي يحتاجه الوسيط.

اعتقد أن غياب هذا أدى إلى تدهور الوساطة الروحية حتى أصبحت تعمل بشكل رئيسي على المستويين العاطفي والوجداني. هذا دفع إيلين غاريت نفسها إلى التعبير عن شكوكها حول ما إذا كانت أوفاني أداة تحكم حقيقية أم مجرد جزء منفصل من عقلها - وهو موقف صدم ماكنزي.

بعد انفصال زواجها الثالث، أصبحت إيلين غاريت وسيطةً روحيةً متفرغةً. بالنسبة لها، كان الأمر محبطًا بعض الشيء. كان يعني ببساطة أنها فقدت وعيها، وأُبلغت بما حدث عندما استيقظت. لم يكن الأمر مُجزيًا إلا في بعض الأحيان، كما حدث عندما طلب منها هيوات ماكنزي مساعدته في التحقيق في اضطراب روحي. يبدو أن أوفاني تحدثت إلى "الروح المضطربة" واكتشفت سبب تسببها في كل هذا الاضطراب لأقاربها: اتضح أن المشكلة تتعلق بوصية مفقودة، عُثر عليها خلف إطار صورة. بعد ذلك، توقفت الاضطرابات. لكنها في معظم جلساتها شعرت أن الجالسين كانوا تافهين في الأساس. كانوا يريدون الاتصال بأقاربهم الموتى لأسباب عاطفية بحتة، ولم يكن لديهم أي اهتمام حقيقي بأسرار الحياة بعد الموت. بدا لها الأمر كله تافهًا ومزعجًا، وبدأت تشعر بالاشمئزاز من الدور الذي كانت تلعبه.

تحسن مستوى التواصل الروحي فجأةً عندما ظهر "متحكم" جديد يُدعى عبد اللطيف. ادعى أنه كان طبيبًا فارسيًا في زمن الحروب الصليبية، واهتمّت باكتشاف لاحقًا أنها لم تكن أول وسيط روحي يتجلى من خلاله. ومع ذلك، استمر شعورها بالاشمئزاز، فقررت أخيرًا التخلي عن الوساطة الروحية وقبول عرض زواج من صديقة قديمة. ثم سمعت مجددًا الصوت الذي أعلن وفاة طفلها: حثّها على استغلال سعادتها على أكمل وجه لأنها لن تدوم. في يوم نشر إعلان الزواج، أصيبت بالتهاب في عظم الخشاء، وأُصيب هو بقشعريرة: وفي غضون أسبوع توفي. عندما تعافت من مرض خطير، أدركت أن قدراتها الاستبصارية قد تطورت أكثر من أي وقت مضى. عندها، سئمت من غموض مشاعر الروحانيين الإنجليز، فقررت الذهاب إلى أمريكا. كان ذلك في خريف عام ١٩٣١، وكانت في الثامنة والثلاثين من عمرها.

أثبتت الولايات المتحدة في البداية أنها خيبة أمل كبيرة. ومرة أخرى، وجدت نفسها مطالبة بالعمل مع أشخاص لا يهمهم سوى التواصل مع أحبائهم الموتى. وازداد الأمر سوءًا عندما وصلت إلى لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو. ثم اكتشفت وجود عدد قليل من الباحثين الجادين، مثل هيريوارد كارينغتون، الذي كان يعمل آنذاك مع سيلفان مولدون، وعالم النفس ويليام ماكدوغال وأستاذه المساعد ج.
ب. راين. في نيويورك، أجرت تجربةً كلاسيكيةً في الإسقاط النجمي مع طبيبٍ من نيوفاوندلاند يمتلك القدرة نفسها. أسقطت نفسها على غرفةٍ في منزله في نيوفاوندلاند وهي في كامل وعيها.

الغرفة في نيويورك. نزل الطبيب إلى الطابق السفلي بضمادة حول رأسه عندما "وصلت": شعر بوجودها وأوضح أنه تعرض لحادث. وعندما نقلت هذه المعلومات في نيويورك سمعت شخصًا يقول، "هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا - لقد تلقيت رسالة منذ بضعة أيام وكان بصحة جيدة حينها". طلب منها الطبيب أن تنظر إلى الأشياء الموجودة على الطاولة؛ وصفتها للمختزل في نيويورك. ثم أخذ كتابًا عن أينشتاين من الرف وقرأ فقرة لنفسه: في نيويورك فسرت إيلين جاريت معنى ما كان يقرأه. بعد ذلك، ألقى الطبيب نفسه على غرفة نوم أحد المشاركين في التجربة في نيويورك ووصفها، مشيرًا إلى أنها قد أعيد تزيينها منذ زيارته الأخيرة وأن صورتين لم تعودا موجودتين. ثم انتهت التجربة: استغرقت خمس عشرة دقيقة. في اليوم التالي تلقوا برقية من الطبيب تذكر الحادث الذي أصاب رأسه؛ وفي وقت لاحق، تم التحقق من ملاحظاته التفصيلية مع سجل كاتب الاختزال في نيويورك، وتبين أنها دقيقة.

مع ازدياد انغماسها في هذا النوع من العمل العلمي، تخلّت عن الوساطة الروحانية واتجهت إلى الاستبصار. تُلخّص حصيلة سنوات خبرتها على النحو التالي: "أصبحتُ أعتقد أنني أرى مبدأً مُحدّدًا وراء كل تواصل - ألا وهو أن العقل الباطن أداةٌ قادرة على التوسع بلا حدود، وقادرٌ على التواصل مع جميع مجالات الفهم الممكنة التي قد يختار الوصول إليها" - باختصار، إدراكٌ بأننا نعيش في "عالم معلومات"، وأن جميع هذه المعلومات متاحةٌ لمستوياتٍ مُحدّدةٍ من العقل البشري.

من الغريب أن محاولاتها لإثبات قدراتها في جامعة ديوك مع جيه بي راين - الرجل الذي سيصبح أباً لعلم النفس الخارق - باءت بالفشل: لم تتجاوز نتيجتها في قراءة بطاقات زينا المعدل. كانت مقتنعة أن السبب في ذلك هو أن "الاستبصار والتخاطر يعتمدان على إشعاع نشط يُسجل بين شخصين أو بين فرد وجسم"، ولأن بطاقات زينا لا تحتوي على "إشعاع"، فلا يوجد رابط بينهما. (وفقًا لماكس فريدوم لونغ، تعمل قوتنا الحيوية - المانا - من خلال مادة غير مرئية تُسمى أكا أو "المادة الجسدية الغامضة". هذه الأكا "لزجة"، وفقًا للكاهونا، ويمكن سحبها إلى خيوط طويلة ولزجة، كشبكات العنكبوت؛ أما التخاطر والاستبصار والقياس النفسي، فيعملان من خلال خطوط الهاتف غير المرئية هذه لأكا. هذا يُفسر لماذا وجدت إيلين غاريت أن التعامل مع بطاقات زينا أمر مستحيل، ولكنه لا يُفسر سبب حصول أشخاص آخرين على درجات عالية.)

في عام ١٩٣٤، عادت إلى إنجلترا وانخرطت في المزيد من العمل العلمي مع الدكتور ويليام براون في مختبره بجامعة أكسفورد. ظن براون أنها قد تكون مجرد شخصية متعددة، وأراد استجوابها تحت التنويم المغناطيسي. ولكن على الرغم من قدرتها على استرجاع ذكريات الطفولة بالتفصيل تحت التنويم المغناطيسي،

لم تكن هناك أي علامة على "سيطرتها". لم تتمكن براون من التحدث إلى أوفاني إلا عندما دخلت في حالة غيبوبة روحية في الجلسة الأخيرة.

في سيرتها الذاتية، اهتمت إيلين غاريت كثيرًا بشرح التحقيقات العلمية لدرجة أنها فشلت في الإشارة ولو بشكل عابر إلى إحدى أغرب الحالات التي تورطت فيها على الإطلاق: مطاردة أش مانور في ساسكس. اشترى المنزل في يونيو 1934 أمريكي يُدعى كيل، والذي فوجئ بأن المالك طلب القليل جدًا مقابل ذلك - فقد قرر أن المصارف بحاجة إلى إصلاحات واسعة النطاق. ولكن في إحدى ليالي نوفمبر، استيقظ كيل ليجد دخيلًا - رجل عجوز قصير القامة - في غرفة نومه. وعندما حاول الإمساك به، اخترقت يده جسده مباشرة، وأغمي على كيل. ثم هرع إلى غرفة نوم زوجته، وهو يتلعثم بشكل غير مترابط، وذهبت لإحضار البراندي. رأت خارج غرفة نوم زوجها نفس الرجل العجوز - يرتدي ملابس قديمة الطراز بما في ذلك السراويل الضيقة وقبعة حوض الحلوى. وعندما حاولت ضربه، اخترقت يداها جسده واختفى. بعد ذلك، اعتادت العائلة رؤيته: كان يخرج من مدخنة ويدخل خزانة كانت في السابق حجرة قساوسة. أصبح زائرًا متكررًا لدرجة أن العائلة لم تعد تشعر بالقلق عليه - خاصةً عندما اكتشفت السيدة كيل أنها تستطيع إخفاءه بمجرد لمسه.

كان ناندور فودور، مسؤول الأبحاث في المعهد الدولي للأبحاث النفسية، هو من أقنع السيدة غاريت بمرافقته للتحقيق في قصر آش. دخلت في حالة غيبوبة، فتولى أوفاني زمام الأمور وأوضح لها أن الأشباح لا تحدث إلا عندما يكون الشخص في حالة نفسية سيئة. (سرعان ما اتضح أن عائلة كيل كانت تعاني من مشاكل خطيرة: كان كيل مثليًا جنسيًا، وكانت ابنته مهووسة بأبيه وتغار من والدتها). كان هناك سجن قريب من المنزل في القرن الخامس عشر، وقد مات فيه العديد من الرجال والنساء.

بعد ذلك، سمح أوفاني لروح الرجل العجوز بأن "تستحوذ" على السيدة غاريت. بدا أن الرجل العجوز ظنّ فودور سجانه، فسقط على ركبتيه، ممسكًا بيد فودور بقوة حتى عوى من الألم ولم يستطع تحريرها. أخيرًا، بدأ الرجل العجوز يتحدث بلهجة إنجليزية غريبة من العصور الوسطى، متحدثًا عن إيرل هانتينغدون ودوق باكنغهام - اللذين يبدو أنهما خاناه - ومتوسلًا إلى فودور أن يساعده في العثور على زوجته. قال الرجل إن اسمه تشارلز إدوارد هينلي، ابن اللورد هينلي، وأشار إلى القرية المجاورة باسمها الذي كان يُعرف في العصور الوسطى باسم إيسي. عندما تحدث عن الانتقام، حاولوا إقناعه بأن الرغبة في الانتقام تُلزمه بالأرض، وأنه يجب عليه بذل جهد للمسامحة. أخيرًا، صرخت الروح قائلة: "امسكوني، لا أستطيع البقاء..." فاختفت. قالت السيدة كيل، التي كانت حاضرة أيضًا، إن وجه إيلين غاريت بدا كوجه الرجل العجوز أثناء "تستحوذه".

ها.

يبدو أن عدة جلسات أخرى لم تُسفر عن أي نتائج، مع أن هنلي، وللغرابة، تجلى من خلال وسيط روحي آخر في كلية العلوم النفسية. أدلى أوفاني بتصريح مثير للاهتمام مفاده أن آل كيلز كانوا مسؤولين عن منع الشبح من الهروب من وجوده الأرضي: قال إنهم كانوا يستخدمونه للهجوم على بعضهم البعض. وعندما وُجهت إليه هذه الملاحظة، أقرّ كيل بصحتها، وكان لاعترافه أثرٌ في "إلقاء" الشبح في النهاية.

تجدر الإشارة إلى أنه بعد أكثر من ثلاثين عامًا، أشار فودور في كتابه "الغير مُحاسب" إلى أنه لم يتم التحقق من أيٍّ من روايات شبح قصر آش من خلال بحث تاريخي دقيق، وأن العلماء لم يجدوا لغته الإنجليزية في العصور الوسطى موثوقة. وهكذا، وكما هو الحال في معظم قصص الأشباح الحقيقية، فإن قصة قصر آش - التي أثبتها عدد من المراقبين العلميين - تتلاشى في عالم الغموض الذي يفرضه قانون جيمس.

عادت إيلين غاريت إلى أمريكا، حيث واصلت العمل مع العلماء - من بينهم لورانس ليشان وأندريا بوهاريتش - وأصبحت تدريجيًا تُعتبر أبرز "الوسطاء الروحانيين" في القرن العشرين. خضعت العديد من الوسطاء الروحانيين الآخرين، مثل السيدة بايبر والسيدة ليونارد، لاختبارات مكثفة وثبتت صحتهم، لكن إيلين غاريت وحدها كانت مصممة، مثل محققيها، على فهم سر قواها.

في ثقافتنا الغربية، تُعتبر هذه القدرات غير طبيعية أو مجرد احتيال. أما في ثقافات أخرى، فتُعتبر أمرًا مسلمًا به. في أواخر خمسينيات القرن الماضي، أمضى عالم أنثروبولوجيا يُدعى ستايلز بعض الوقت في دراسة هنود مونتانييه في شرق كندا. وعند عودته، وصف لزميله البروفيسور كلارنس ويانت كيف كان الهنود قادرين على التواصل مع بعضهم البعض عبر مسافة مئات الأميال عن طريق "السمع الباطني". كانوا يبنون كوخًا صغيرًا بحجم كشك الهاتف في الغابة، ويبقون فيه حتى تتراكم الطاقة بما يكفي لإجراء محادثة ثنائية الاتجاه مع أحد أقاربهم البعيدين. وبينما كان ذلك يحدث، كان الملجأ يهتز. وقد سجل ستيفن شوارتز أن مبشرًا كاثوليكيًا رومانيًا وصيادًا كنديًا عاش بين هنود مونتانييه شهدا أيضًا هذه الظاهرة.*

رافق عالم أنثروبولوجيا آخر، دوغ بويد، فريقًا من العلماء لمراقبة طبيب هندي أمريكي أثناء عمله، والنتائج، المسجلة في كتاب "الرعد المتدحرج"، لا تدع مجالًا للشك في قواه "السحرية". يؤكد بويد قدرة الهنود على التواصل فيما بينهم عن طريق التخاطر، وقدرتهم على التحكم في الطقس. شاهد بويد الرعد المتدحرج وهو يوخز حشرة كريهة الرائحة بعصا، مسببًا عاصفة عنيفة. في كل مرة، كان الرعد المتدحرج يقلب الحشرة على ظهرها،

... كان هناك صوت طقطقة عالٍ وحاد: صاعقة برق... تكرر الفعل مرارًا وتكرارًا، وظهر البرق مرارًا وتكرارًا... بدا وكأنه متزامن تمامًا مع أفعال الحشرة. ربما كنت أشاهد شخصًا يخدش مفك براغي على عمود بطارية أو يلمس سلكين كهربائيين موصولين ببعضهما. ومع استمراره، اتضح أن هذه ظاهرة نادرة ولكنها طبيعية ناتجة عن علاقة سببية حقيقية.

وبعد بضع دقائق من هذا كان هناك "هطول أمطار غزيرة".

كما أظهر رولينج ثاندر قدراته في تحرير هندي سُجن لرفضه القتال في فيتنام. وعلى الرغم من أن بويد لم يشهد ذلك، إلا أنه أكد القصة من خلال شهود موثوق بهم. ووصف عالم أنثروبولوجيا آخر، جون ويلش، كيف رافق رولينج ثاندر إلى سجن ليفنوورث وأخبر الحراس أنه جاء لأخذ الهندي وإعادته إلى منزله. خرج ضابط السجن أخيرًا وأخبرهم أنه من المستحيل زيارة الرجل. كان رولينج ثاندر مُصرًا، وفي النهاية خرج ضابط آخر وأخبرهم أن الرجل قد نُقل إلى سجن آخر. ذهب ويلش ورلينج ثاندر إلى فندق قريب لقضاء الليلة. وفي منتصف الليل غضب رولينج ثاندر بشدة: أخبر ويلش أنه كان داخل السجن ويعلم أن الضباط كذبوا. إذا كان بإمكانهم استخدام الأكاذيب لتحقيق مرادهم، فيمكنه استخدام الخوف.

في صباح اليوم التالي، أصر رولينج ثاندر على أن ينضم إليه ويلش في تدخين الغليون والهتاف على ضفة النهر. وبعد برهة، أنتجت النار دخانًا أسود كثيفًا ارتفع مباشرة في الهواء. ثم كان هناك دوي رعد وبدأت السحب تتجمع. بدا أن سحابة سوداء كبيرة، على شكل قمع، تتبعهم وهم يقتربون من السجن مرة أخرى. وهناك صرخ رولينج ثاندر بشدة لدرجة أن الحراس هرعوا لإحضار ضباط السجن. طلبوا منه المغادرة. أشار رولينج ثاندر إلى القمع وطلب منهم مراقبته. وبينما كانوا يفعلون ذلك، جاء نحوهم. ثم بدأت الرمال والصخور تتطاير في الهواء وكانوا في وسط زوبعة. تم نزع بوابة السجن من مفصلاتها وبدأت تطير في الهواء. عند هذا اقتنع مسؤولو السجن أخيرًا: أخرجوا السجين وسمحوا له بالمغادرة مع رولينج ثاندر.

وفقًا لبويد، فإن قوى رولينج ثاندر هي نتيجة علاقة خاصة مع الطبيعة، مبنية على إدراكه أن الأرض كائن حي. لكن يبدو أن هذا الموقف ليس ضروريًا لممارسة السحر - كما لا بد أن بعض حراس ليفنوورث كانوا على دراية به وقت زيارة رولينج ثاندر غير المرغوب فيها. قبل ربع قرن، كان ليفنوورث...

كان يضم قاتلًا متعددًا يُدعى حداد. التقى به عالم النفس دونالد باول ويلسون لأول مرة عندما اقتيد إلى زنزانة حداد ووجد جثته معلقة بقضبان الزنزانة. يبدو أن حداد قد استخدم حزام أحد الحراس الذي قام بتنويمه مغناطيسيًا في جولاته في وقت سابق من اليوم. كان الحارس - الذي كان حاضرًا أيضًا عند اكتشاف الجثة - مقتنعًا بأنه لا يزال يرتدي الحزام حول خصره، حتى عندما أشار أحد زملائه إلى اختفائه. بعد بضعة أيام، تم نقل جثة حداد إلى غرفة التشريح. وبينما كان الجراحون يلتقطون مشارطهم، نهض ببطء إلى وضعية الجلوس وقال بلكنة أكسفوردية لا تشوبها شائبة: "أيها السادة، أفضل عدم القيام بذلك، إذا لم يكن لديكم مانع". كان تفسيره اللاحق أنه كان قادرًا على الدخول في غيبوبة عميقة لدرجة أن جميع وظائفه الطبيعية توقفت.

في اليوم التالي، قدّم حداد عرضًا آخر لقدراته. كان هناك العديد من مرضى الصرع في جناح المرضى النفسيين الذين يعانون من نوبات متكررة. عرض حداد إيقاف جميع هذه النوبات لمدة ثلاثة أيام. وفعل ما وعد به: عادت النوبات بعد ظهر الخميس التالي. كان تفسير ويلسون نفسه أن حداد مارس قدراته التنويمية عندما كان في الجناح آخر مرة، وأن هذا كان مجرد عرض لإيحاء ما بعد التنويم.

قدّم حداد لويلسون عرضًا آخر لقدراته. خلع ملابسه واستلقى على مكتبين، ثم دخل في حالة أشبه بالموت. ثم، كما تنبأ، ظهرت علامات البروج الاثنتا عشرة في أماكن مختلفة من جسده على شكل بقع حمراء - ما يُطلق عليه ويلسون مثالًا على "الجلد المُتحكّم". عندما خُزِنَ وريد حداد، لم يكن هناك دم تقريبًا: أكّد ويلسون أن هذا يتجاوز الغيبوبة الذهانية المعتادة أو التصلب.

كشفت تحقيقات ويلسون أن حداد كان بإمكانه دخول السجن والخروج منه كما يشاء. في إحدى المرات، اختفى أثناء تنقله: فتح الحراس الشاحنة ليجدوها فارغة. بعد ذلك بوقت قصير، طرق حداد باب السجن، موضحًا أنه ضل طريقه في الطريق. وفي مناسبة أخرى، رآه مدير السجن في حفل موسيقي سيمفوني في بلدة قريبة، فقال: "لقد مرّ وقت طويل منذ أن حضرت حفلة موسيقية، وشعرت أنه من المؤسف ألا أذهب. فأنا على بُعد مسافة قصيرة من المدينة".

عندما سأله ويلسون عما يفعله في السجن، أعلن حداد أنه هنا في مهمة. وأوضح أنه مُقدّر له أن يجوب العالم بحثًا عن "روحين شريرتين وخبيثة للغاية" - قصد البشر - "وأن يُزيل عنهما أجسادهما" (أي أن يقتلهما). وقد عثر على أحدهما بالفعل، "وهو ليس كذلك". لكن تحقيقات ويلسون كشفت أن حداد كان عضوًا في عصابة سيئة السمعة تُرعب الجنوب الغربي. كان "المساعد" للعصابة، مستخدمًا مهاراته الخفية لاستدراج ضحايا العصابة من مخابئهم حتى يتم قتلهم. وعندما أُلقي القبض عليه، أمطرت الشرطة السيارة بوابل من نيران الرشاشات حتى بدت وكأنها...

لكن حداد خرج سالمًا. وادعى أنه صدّ الرصاصات.

أخبر حداد ويلسون وزميله الطبيب أن مهمته على الأرض قد شارفت على الانتهاء، وأنه اختارهما ليكونا تلميذين له ليُنزل عليهما عباءته - كان عليهما الحضور إلى زنزانته الساعة الثانية صباحًا للمشاركة في "طقوس دموية". رفض كلاهما هذا الشرف - ربما لخسارة العلوم الطبية. من ناحية أخرى، ربما كان حكم ويلسون صائبًا. فهو يصف حداد بأنه متبجح يحب أن يدّعي أنه أعظم من محمد أو المسيح (حتى أنه أشار إلى أنه قام بعد ثلاثة أيام بينما لم يمت المسيح إلا لمدة يومين) - وهو نوع من الأنانية كان بمثابة نقطة ضعف العديد من "السحرة"، بمن فيهم الراحل أليستر كراولي. على الرغم من قواه الخارقة الواضحة، يبدو أن حداد كان إنسانًا مشكوكًا فيه إلى حد ما، وربما يكون هذا هو السبب في أن ويلسون حصر قضيته في بضع صفحات فقط في فصل لاحق من كتابه "مدانيّ الستة". ومن ناحية أخرى، قد يكون ذلك نتيجة للإحراج الشديد بسبب الاضطرار إلى الاعتراف بأي شيء سخيف إلى هذا الحد.

قد يكون افتراض ويلسون بأن حداد كان منومًا مغناطيسيًا غير صحيح. وقد تساءل الأكاديمي الأمريكي كيرياكوس سي. ماركيدس، وهو ساحر معاصر بارز آخر، عن بعض المآثر الاستثنائية لشامان ياكي دون خوان، كما وصفها كارلوس كاستانيدا: على سبيل المثال، كيف دفع دون خوان كاستانيدا ووجد نفسه فجأة على بُعد ميلين. (التفسير الصحيح هو على الأرجح أن هذا لم يحدث قط، ولكن هذا كان قبل أن تكشف تحليلات ريتشارد دي ميل أن كتب دون خوان ربما كانت خدعة).*) أجاب داسكالوس بالتمييز بين التنويم المغناطيسي والهلوسة المُستحثة. وصف داسكالوس زيارة من عالم إنجليزي شهد خدعة الحبل الهندية - كيف تم إلقاء الحبل في الهواء ثم تسلقه صبي. لاحقًا، صور العالم خدعة الحبل وشعر بخيبة أمل عندما وجد أن صورته أظهرت أن الصبي والحبل بقيا على الأرض. وفقًا لداسكالوس "نشر الفقير هالته حوله ووضع الجمهور في الداخل. ثم بدأ يفكر بشدة وخلق بعقله كل تلك الصور التي كانوا "يرونها". سأل ماركيدس عما إذا لم يكن هذا شكلاً من أشكال التنويم المغناطيسي. "التنويم المغناطيسي ظاهرة مختلفة تمامًا. في التنويم المغناطيسي يستخدم المنوم المغناطيسي اقتراحات قوية من خلال الكلمات أو بمساعدة بعض الأدوات [مثل البندول] لجمهور متقبل ومتعاون. يستخدم الفقير قوة الفكر للتأثير على جمهوره غير الواعي عن طريق التخاطر وجعلهم "يرون" أشياء لم تكن موجودة على المستوى المادي الخام. لذا فإن ما فعله الفقير - وربما ما فعله حداد - كان "سحرًا" وفقًا لتعريف كراولي: "السحر هو علم وفن إحداث التغيير بما يتوافق مع الإرادة". (تؤكد العديد من القصص أن كراولي

كان يمتلك هذه القوة بنفسه: على سبيل المثال، كان بإمكانه أن يجعل رجلاً عاقلاً وطبيعياً يسقط على أربع ويبدأ في النباح والأنين مثل الكلب.*)

يوضح كتاب ماركيدس الرائع "ساحر ستروفولوس" أن
داسكالوس ساحر بالمعنى الدقيق للكلمة. داسكالوس، الذي يعيش في نيقوسيا، معروف على نطاق واسع بين القبارصة كمعالج، وكان لمعرفة المزيد عن قدراته العلاجية زاره ماركيدس في عام 1978. وسرعان ما أصبح واضحًا أن داسكالوس أكثر من مجرد معالج: أنه كمعلم، يستحق أن يُصنف مع شتاينر وغوردجييف. عندما زاره ماركيدس، بدا داسكالوس كما هو - موظف حكومي طويل القامة ولطيف في منتصف الستينيات من عمره. أوضح لماركيدس أن معظم عمليات الشفاء التي أجراها كانت تتم في حالة "خارج الجسم" (التي يسميها exomatosis) بمساعدة مساعدين غير مرئيين. تحدث ماركيدس إلى فلاح كان داسكالوس قد شفاه للتو من إصابة طويلة الأمد في العمود الفقري وحصل من داسكالوس على إذن لدراسته بهدف كتابة كتاب عن قدراته.

كانت إحدى تجارب ماركيدس الأولى مع هذه القوى درامية بشكل لافت. سأله صديق إن كان بإمكانه رؤية ثلاث نساء يهوديات، اثنتان منهن قادمتان للتو من إسرائيل. كانت ابنة إحداهن تعاني من مشاكل نفسية حادة. سارع داسكالوس إلى إثبات جدارته كعراف: أخبرها أنها ترتدي نجمة داوود على قلبها، وهو ما كان صحيحًا. ثم شرحت الفتاة - التي كانت تُدعى هاداس - المشكلة: إنها ممسوسة بشياطين لا تسمح لها بالراحة. أعلنت عمتها أن هذا محض خيال. لكن بعد أن طلب من الفتاة أن تغمض عينيها وتأملها لبعض الوقت، أعلن داسكالوس أنها ممسوسة بأرواح اثنين من النازيين، زوج وزوجة، لقيا حتفهما في قصف هامبورغ وكانا يكرهان اليهود. كانا قد أرسلا بالفعل أربع نساء يهوديات أخريات إلى مصحات عقلية، ونجحا في الاستيلاء على الفتاة "عندما كانت ذبذباتهما وذبذباتك على نفس التردد".

أشعل داسكالوس شمعةً وشرع في أداء طقوس القبالة باستخدام نجمة سداسية ونسر أبيض. لاحظ ماركيدس أنه عندما ركز داسكالوس على لهب الشمعة، كان سلوكها غريبًا، إذ استطال وأنتج دخانًا أسود، ثم انكمش وانطفأ. بمجرد أن توقف داسكالوس عن التحديق في اللهب - الذي كان على بُعد عدة أقدام - سكن. استمر الطقس طويلًا، وكان داسكالوس يخاطب اللهب بصرامة. أخيرًا، وبتعبير عن الارتياح، أخبرهم داسكالوس أن الأرواح قد طُردت ولم تعد قادرة على إيذاء أحد. وكعادته، رفض قبول المال مقابل خدماته.

بعد أسبوع، تحدث ماركيدس مع الفتاة التي توقفت عن سماع الأصوات بعد طقوس طرد الأرواح الشريرة. أخبرته كيف بدأت المشكلة بعد شجار مع حبيبها: بينما كانت مستلقية على السرير، بدا لها أن شيئًا ما يخطر ببالها.

مرضت وتوترت وتقيأت كثيرًا. أخبرها حاخام أنها ستتقيأ أكثر من المعتاد في اليوم الأربعين، وأن المشكلة ستزول. وتبين أن هذا صحيح. ولكن بعد شجار لاحق مع صديق آخر، شعرت بشيء يدخل معدتها. بعد ذلك، بدأت تسمع أصواتًا تُنذرها بأنهم سيعذبونها ويصيبونها بالجنون. كل ليلة كانوا يحاولون إجبارها على الانتحار. ثم، عن طريق عمتها التي كانت تعيش في قبرص، سمعت عن داسكالوس، الذي شفاها الآن.

استفاض داسكالوس في شرحه. وقال إن الاستحواذ يمكن أن يكون على ثلاثة أنواع: أرواح بشرية شريرة، وشياطين، وعناصر. إلا أن الاستحواذ لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان اهتزاز الضحية مطابقًا لاهتزازه. "بعبارة أخرى، لا بد أن يكون لدى الشخص نفسه استعداد للإيذاء". وبدا وكأنه يُلمّح إلى أن أفكار الفتاة الانتقامية تجاه حبيبها هي التي جعلتها عرضة للاعتداء.

أوضح داسكالوس لاحقًا أن "العناصر" هي أفكار ورغبات بشرية تكتسب حياةً خاصة بها. قد يكون ذلك بوعي أو لاوعي. عندما يُفكّر البشر في أي رغبة قوية، تنشأ "مادة نفسية (أو عقلية)"، وهي المادة الأساسية للكون. "العنصر" هو صورة ذهنية داخلية. إذا كانت الرغبة الفكرية عاطفة سلبية، كالحسد أو الكراهية، فإنها تتخذ حياةً خاصة بها وتتجه نحو الشخص الذي تُوجّه إليه: لكنها عاجلًا أم آجلًا تعود إلى خالقها.

يصف داسكالوس تجربة مثيرة للاهتمام تلقي بعض الضوء على حادثة في حياة رولينج ثاندر. أخبر طلابه أن يغلقوا أعينهم ويتخيلوا أنهم يحملون ثعبانًا. أخبره رد فعلهم أن الكثير منهم وجد الفكرة مرعبة، لذلك أخبرهم بتغييره إلى ثعبان ذهبي. قال داسكالوس إنهم عندما يتخيلونه بعناية، سيصبح "عنصريًا". يجب أن يتخيلوا بعد ذلك إطلاقه على الأرض. "أقول لك، لن يكون لديك ما تخاف منه من الثعابين من الآن فصاعدًا. سيدخل هذا العنصر داخل أي ثعبان قد يكون مستعدًا لإيذائك وسيهدئه. هذه طريقة يمكنك استخدامها لترويض الحيوانات من حولك." في أحد الأيام عندما كان دوج بويد يشاهد رولينج ثاندر وهو يتحكم في النمل بمجرد الإشارة بإصبعه إليهم، لامست أفعى جرسية حذائه. ركع رولينج ثاندر بجانب الثعبان ومد يديه نحوه. التفت الثعبان ورفع رأسه لمقابلة اليد لكنه لم يحاول الضرب. عندما تقدمت اليد، عاد الرأس للخلف؛ عندما عادت اليد، تقدم الرأس. ثم رفع رولينج ثاندر كلتا يديه على جانبي رأس الثعبان، فتمايل الثعبان ببطء بينهما، من أحدهما إلى الآخر. أخيرًا، عندما نهض رولينج ثاندر وصرفه، انحلَّ الثعبان وانزلق بعيدًا. تحدث ماركيدس إلى شاهد عيان رأى داسكالوس يضع السكر في فمه ثم يدعو ثعبانًا ليأخذه: كاد شاهد العيان أن يُغمى عليه بينما كان الثعبان يلعق...

يبدو أن رولينج ثاندر وداسكالوس كان لديهما نفس الفهم الأساسي للحيوانات.

في عام ١٩٨١، سنحت لماركيدس فرصةٌ لملاحظة مثالٍ على ضبط النفس شبه العجيب. فقد سمع أن داسكالوس كان مريضًا مرضًا خطيرًا بجرحٍ في قدمه لا يلتئم. لكن داسكالوس أوضح أنه تعمد تحمّل هذا المرض ليُخفف عن صهره عبءً ثقيلًا من "دينٍ كرمي". وقد حذّره طبيبه من البقاء في الفراش؛ فإذا وقف على قدمه المصابة، سينفتح الجرح مجددًا. في هذه المرحلة من الحديث، عرض داسكالوس أن يُبيّن ما كان يتحدث عنه من خلال "ظاهرة". ("عادةً لا يُسمح لي بممارسة الظواهر، لكنني سأستثنيها".) ثم دخل داسكالوس في حالة تأمل عميق لبضع دقائق، ومرر يده على ساقه اليمنى المصابة. ثم نهض من السرير بخفة، وشرع في القفز بقوة في أرجاء الغرفة على ساقه اليمنى، على الرغم من اعتراضات ماركيدس. وعندما عاد إلى السرير، عاد إلى التأمل ولوّح بيده على ساقه. قال لماركيدس بمرح: "الآن عليّ استعادة الكارما". أخبره أن الكارما ستستغرق حوالي أسبوع آخر قبل أن تُستنفد: في الواقع، عندما زاره ماركيدس بعد ستة أيام، كان يرسم في مرسمه.

رغم حظر "الظواهر"، دأب داسكالوس على تقديم أدلة على امتلاكه قوى خارقة للطبيعة. واستطاع وصف منزل ماركيدس في ولاية مين بـ"تفاصيل مذهلة"، مع أنه لم يكن ليتمكن من معرفة هذه التفاصيل. في أحد الأيام، حلم ماركيدس أن داسكالوس يتحدث إليه، ثم اختفى فجأة: استدار فرأى داسكالوس يقترب منه من الخلف. في اليوم التالي، ذكر ماركيدس لداسكالوس أنه حلم به، وقبل أن يكمل حديثه، قال داسكالوس عفوًا: "أجل، كنت أعطيك درسًا في طبيعة الفضاء في البعد الرابع". في مناسبة أخرى، كان ماركيدس وصديق له يحاولان العثور على داسكالوس، لكن دون جدوى، فعلق ماركيدس مازحًا أن داسكالوس ربما كان يزور عشيقة. وعندما وجداه أخيرًا وسألاه أين كان، قال بانفعال: "أزور عشيقة"، ثم تابع قائلًا إنه سمع "محادثتهما السخيفة".

لا بد من الاعتراف بأن كتاب "ساحر ستروفولوس" يصعب على القارئ غير المتخصص في علوم السحر والتنجيم استيعابه. فعند دراسة بعض ادعاءات داسكالوس بمعزل عن غيرها، تبدو غريبة لدرجة أن رد الفعل الطبيعي هو اعتباره إما دجالاً أو مُخادعاً. ومع ذلك، عند قراءتها في سياق تعاليمه وقدراته العلاجية المذهلة، تصبح أكثر مصداقية. ويعترف ماركيدس نفسه بأن نيته الأصلية في دراسة داسكالوس من منظور عالم اجتماع مستقل قد تلاشت تدريجياً مع مشاهدته جلسات شفاء خارقة ومصادفته "مصادفات" كتلك الموصوفة في الفقرة السابقة.

أحداثٌ كهذه أقنعت ماركيدس بأن داسكالوس ساحرٌ حقيقي، وليس مجرد معالجٍ ذي معتقداتٍ وافتراضاتٍ غريبة. كما لاحظ أنه كلما طالت مدة بقائه في أجواء هذه المعتقدات والافتراضات، ازدادت تجاربه غير العادية. يصف كيف أنه عندما كان يُكافح لترجمة ترنيمة بيزنطية مُهداة للقديس سبيريدون (الذي ادعى داسكالوس أنه أحد تجسيداته السابقة)، قرر أخيرًا الاستسلام والذهاب في نزهةٍ إلى المكتبة لقراءة الصحف. بعد أن قرأ الأخبار التي أثارت اهتمامه في صحيفة "هيلينيك كرونيكل"، فتح صفحةً أخرى عرضًا ووجد مقالًا عن القديس سبيريدون انتهى بترجمة الترنيمة إلى الإنجليزية. يسأل ماركيدس: "هل هذه الأشياء مصادفات؟ ربما". ولكنني لا أستطيع بكل صدق ألا أطرح تساؤلات في ذهني عما إذا كان داسكالوس وياكوفوس [تابعه الرئيسي] يعيشان في عالم، مهما بدا غريباً ومختلفاً جذرياً عن عالمنا، فهو حقيقي بنفس القدر إن لم يكن أكثر.

بعد ذلك بوقت قصير، اكتشف ماركيدس أنه "شعر كأنه عالم اجتماع نهارًا، متصوف ليلًا". في إحدى المرات، حلم أن ابنه يهاجمه حوت: في تلك اللحظة أيقظه صراخ ابنه. بعد ذلك، بدأ يرى "أحلامًا واضحة" - أحلام يعلم فيها الحالم أنه نائم - وفي أحدها عبر منعطفًا إلى العالم النفسي. في كل من هذه الأحلام، شعر أن العالم الذي دخله كان أكثر واقعية من حالة اليقظة. في أحد أحلامه، كان على وشك مخاطبة فتاة عندما تراجعت وقالت: "أنت لست من عالمنا". يفضل ماركيدس عدم التكهن بما إذا كانت هذه أحلامًا حقيقية أم أنه اكتسب منفذًا حدوديًا معينًا إلى العالم النفسي.

إذا كان عالم داسكالوس "الغريب والمتباين جذريًا" حقيقيًا ككوننا المادي، فلا بد من الاعتراف بأنه أقرب إلى عالم برام ستوكر أو إم آر جيمس منه إلى العالم الذي يعتبره الغربيون أمرًا مسلمًا به. على سبيل المثال، يروي داسكالوس قصة فتاة صغيرة التقى بها في زيارة لجنوب اليونان، وكانت تعاني من مشاكل نفسية. علم داسكالوس أن والديها رفضا زواجها من راعٍ يكبرها بسنوات عديدة. بعد خمس سنوات من وفاة الراعي، ادعت الفتاة أنها رأته وهي ترعى الماعز. هربت الفتاة، فتبعها ونوّمها مغناطيسيًا. بعد ثلاثة أيام، دخل منزلها وفضّ عذريتها. أصر طبيب فحصها على أنها فُضّت بكارتها بأصابعها، لكنها أنكرت ذلك. لاحظ داسكالوس بقعًا حمراء على رقبتها، فقالت له: "يقبلني هناك، لكن قبلاته غريبة. تشبه المص، لكنني أحبها".

حتى الآن، يبدو الأمر أشبه بخيال عذراء محبطة. لكن داسكالوس تابع وصفه كيف رأى، بعد أيام قليلة، الراعي - واسمه لويزو.

- دخل المنزل. رحب به، وشرع لويزو في شرح أنه لم يمارس الجنس مع امرأة طوال حياته - فقط مع الماعز والحمير. الآن وقد أصبحت له عشيقة، لم يكن ينوي تركها. أشار داسكالوس إلى أنه لم يعد على قيد الحياة. "عن ماذا تتحدث؟ ها أنا أتحدث إليك، أنا أمارس الجنس، وأنت تقول لي إنني لست على قيد الحياة؟" لكن داسكالوس نجح أخيرًا في إقناعه بأنه إذا استمر في استخلاص الطاقة من الفتاة، فسيظل "في حالة مخدرة كمصاص دماء"، وغادر، والكلاب تنبح خلفه. عندما سأل الطبيب المحلي داسكالوس عما حدث، أوضح أن الفتاة كانت تعاني من أوهام وأنه عالجها عن طريق التحليل النفسي. في تلك الليلة، ألقى الطبيب محاضرة عن التحليل النفسي على القرويين بينما كان داسكالوس يستمع، وهو يضحك.

واصل داسكالوس شرحه أن العديد من الشباب يُصابون بـ"استحواذ" صور الاستمناء التي يرسمونها لشابات، وأن هذه العناصر قد تبدأ بامتصاص حيوية الفرد الأثيرية. (وفقًا لداسكالوس، فإن السكوبي التي وصفها ستان جوتش تُعتبر من هذه العناصر).

شرح داسكالوس انتشار السحر الأسود في قبرص بعد أن طردت الحرب الأهلية في لبنان العديد من السحرة السود؛ وكانوا يعرضون خدماتهم مقابل المال. وافق أحد السحرة على قتل زوجين شابين مقابل ثلاثمائة جنيه إسترليني، وللقيام بذلك، حبس شيطانًا داخل زجاجة تحتوي على صورة شيطان منحوتة من إطار سيارة قديم. تمكن من وضعها تحت سريرهما، فبدأا يفقدان طاقتهما وينزفان من أنفهما وفمهما. عثر الزوجان الشابان على الزجاجة وأخذاها إلى داسكالوس، الذي أجرى إحدى طقوسه وقطع الصلة بين الشيطان والزوجين الشابين، فتوقف نزيفهما على الفور. ستبدو هذه القصة أغرب من الخيال لولا أن بلاي فير شهدت العديد من الحالات المماثلة في البرازيل. يبدو أن هذا يعني أنه في المجتمعات التي تربطها صلة وثيقة بالماضي البدائي، لا يزال السحر يُمارس كأمر طبيعي. لكن هذه ليست نهاية قصة داسكالوس. عندما وضع الزجاجة في حرمه الخاص، كافح الشيطان بشدة حتى هرب: دوى انفجار هائل سمعه إياكوفوس أيضًا. لكن وفقًا لداسكالوس، عاد الشيطان. "بدا لي ساتيرًا أسطوريًا. كان لونه أخضر داكنًا. كانت عيناه حمراوين، وعلى جبهته نتوءات تشبه القرون." عندما كان داسكالوس يعقد اجتماعًا لدائرته المقربة، دخل الشيطان - على الأرجح غير مرئي للآخرين - وسلّم داسكالوس صورة لنفسه في طين مخبوز، كانت لا تزال ساخنة بسبب الانتقال من بُعد إلى آخر. أصبح داسكالوس والشيطان صديقين حميمين.

بينما كان ماركيدس يستمع إلى هذه القصة، طمأنه داسكالوس - مما أثار قلق ماركيدس سرًا - بأن الشيطان قد دخل الغرفة للتو وجلس بجانبه. يبدو أن داسكالوس كان يستمتع بسحب ساقه. لكن بقية...

يوضح الكتاب بوضوح تام أنه على الرغم من تمتع داسكالوس بحس فكاهة، إلا أنه لا يُفرط في شد ساقيه. إنه جاد تمامًا عندما يشرح: "الشياطين هي نفحات ملائكية في الجانب الآخر من الوجود لخلق عوالم منفصلة".

كان حادثٌ غريبٌ بنفس القدر يتعلق بالقمر الصناعي الأمريكي سكايلاب. في اليوم الذي كان من المقرر أن يعود فيه سكايلاب إلى الغلاف الجوي للأرض، قرر داسكالوس الذهاب لإلقاء نظرة عليه. بحضور ماركيدس وإياكوفوس، دخل في غيبوبة، وعندما عاد قال إنه كان يحاول دفع سكايلاب إلى نصف الكرة الجنوبي، حيث يوجد المزيد من البحر ليسقط فيه. (في هذه المرحلة، فقد الأمريكيون السيطرة عليه). فعل ذلك عن طريق خلق قرص يشبه القمر في ذهنه وارتداده عن سكايلاب. في المرة التالية التي دخل فيها في غيبوبة، أعلن داسكالوس أنه واجه كائنات ذكية في ثلاثة أطباق طائرة كانت تحاول تحويل مسار سكايلاب بطرقها الخاصة. "هذه الكائنات متطورة حقًا. إنهم يعيشون في العالم العقلي الأعلى وليس لديهم شكل". دخل في غيبوبة أخرى وعندما خرج منها ادعى أنه وكيانات الأطباق الطائرة قد غيروا مسار سكايلاب. أوضح داسكالوس أن هذه "الذكاءات الفائقة" هي حراس كوكب الأرض، وأنهم "يحبوننا بصدق". في الحادثة، عاد مختبر سكايلاب، الذي كان من المتوقع سقوطه في نصف الكرة الشمالي، إلى نصف الكرة الجنوبي؛ وسقطت أجزاء منه في المحيط الهندي، وأجزاء أخرى في أستراليا.

من الواضح أن على القارئ أن يُقرر بنفسه مدى مصداقية ادعاءات داسكالوس. يبدو جليًا أن ماركيدس انتهى بقبول معظمها: على سبيل المثال، لم يكن لديه أدنى شك في أن حدثًا مهمًا ومثيرًا للاهتمام قد حدث بالفعل عندما ادعى داسكالوس أنه يصارع سكايلاب. ومع ذلك، فإن أهم أجزاء كتاب "ساحر ستروفولوس" ليست قصص الشفاء أو طرد الأرواح الشريرة، بل شرح علم الكونيات و"التعليم النفسي". على سبيل المثال، ربما كان غوردجييف أو أحد معلمي الزن قد قال ذلك:

دعني أطرح عليك سؤالاً. كم من الأشياء تُركز عليها بوعي كامل خلال حياتك اليومية؟ قليلة جدًا. عندما تُدرّب نفسك على التركيز، ستُصبح مُدركًا لأشياء أكثر بكثير في حياتك. في البداية، تُخصّص ربع ساعة يوميًا. خلال ذلك الوقت، قد تتمشّى وستُلاحظ كل شيء من حولك تمامًا. لا شيء يجب أن يغيب عن انتباهك، لا شيء على الإطلاق. قد تشعر بالتعب في البداية لأنك غير مُعتاد على الانتباه لكل شيء من حولك، النملة تمشي، الزهور، الأصوات، الأصوات. تُدرك كل شيء، وتشعر بكل شيء. عندما تبدأ هذا

من خلال التمرين، ستتعلم أنك خلال ربع الساعة هذه تعيش حياةً أكثر اكتمالاً وكثافةً من أي فترة أخرى من اليوم. ستكتشف أن ما يُعتبر عادةً حالة يقظة هو في الواقع شكل من أشكال التنويم المغناطيسي الجزئي...

يدّعي داسكالوس أن "تعليمه" ليس خاصًا به، بل يأتي إليه من كيان يُدعى الأب يوحنا - القديس يوحنا المذكور في الكتاب المقدس. يوحنا هو من يتولى إدارة اجتماع "حلقة البحث عن الحقيقة"، ويُلقي المحاضرات ويُجيب على الأسئلة. وما يقوله يوحنا يتوافق بشكل ملحوظ مع ما قاله غيره من الصوفيين وعلماء النفس. على سبيل المثال:

هل يمكن التواصل مع زهرة أو نبتة؟ الناس العاديون، مهما بلغ حبهم للنباتات والزهور، لا يستطيعون التواصل معها بوعي. تبدو لهم كأشياء، خارج ذواتهم. قد يستلهم الشاعر من جمال زهرة، لكن هل يستطيع أن يدمج في وعيه ما يُسمى بـ"شبه وعي الزهرة"؟ الأمر مختلف تمامًا في عالم النفس. عندما تتقدم، ستتمكن من التواصل مع جميع أشكال الحياة. كل شيء حيّ وله لغته الخاصة، وذبذباته، وإشراقته التي تشعر بها في جسدك النفسي.

هذا إعادة صياغة لتعليقات إيلين غاريت حول التواصل مع الطبيعة. تُلقي ملاحظات أخرى لداسكالوس الضوء على عملية القياس النفسي: "في العالم النفسي، لا يوجد فصل بيننا وبين أي شيء خارجنا. عندما نُنسّق أنفسنا ونُركز على شيء ما، نكون في آنٍ واحد مع هذا الشيء. نحن داخله وحوله."

لعلنا نتذكر أن ماريا دي زيرولد عندما كانت تمسك بشيء ما وتركز عليه، كانت تشعر به، فإذا وخزته بدبوس شعرت به، وإذا رُطِّبت بالكحول تذوقته. وعندما نظرت آن بانكروفت إلى غصن الرودودندرون، شعرت "بشعور من التواصل معه، كما لو أنني أصبحتُ أنا وهو واحدًا". يتضح مرارًا وتكرارًا أنه لا يوجد فرق جوهري بين تجربة الروحاني وتجربة الصوفي.

مرة أخرى، سيُذهل دارسو علوم الباطنية الغربية بالتشابه الملحوظ بين أفكار داسكالوس الأساسية وأفكار رودولف شتاينر. ومن الواضح أن هذا ليس لأن داسكالوس استقى أفكاره من شتاينر، إذ يتضح جليًا في جميع أنحاء الكتاب أن كل ما يقوله هو نتيجة تجربة مباشرة. ويبدو أن السبب في ذلك هو وجود تطابق وثيق بين...

تجربة شتاينر مع "العالم الروحي" وتجربة داسكالوس. شتاينر، على سبيل المثال، فريد بين المتصوفين الغربيين في إصراره على أن "العالم الروحي" هو عالم الإنسان الداخلي. يُذكر أن داسكالوس (أو يوحنان) أدلى بتصريح غريب: "عندما نغادر أجسادنا، إما بالموت أو بالخروج من الجسد، فإننا ندخل في داخل أنفسنا". وقد يُضاف فصل يتناول الانتقال من الموت إلى البعث إلى أحد كتب شتاينر دون أن يلاحظ أحد الفرق.

وفقاً لداسكالوس، الموت هو انفصال الجسد المادي عن "الثنائي الأثيري" (أو "الهالة"). تستغرق الهالة حوالي أربعين يوماً لتتلاشى. في لحظة الموت، يغمر الفرد شعورٌ هائل بالحرية والسكينة. ثم يدخل الفرد "العالم النفسي"، حاملاً معه فضائله ورذائله. في العوالم النفسية، تكتسب المشاعر شدةً أكبر بكثير، لأنها لم تعد تُخففها أجسادنا المادية، لذا فإن أولئك الذين يعانون من مشاعر سلبية قوية - كالحسد والغضب والشهوة - سيعانون منها بشدةٍ مُريعة. هذه في الواقع هي معاناة الجحيم - أو بالأحرى معاناة المطهر، لأن داسكالوس ينكر وجود الجحيم أو العقاب الجزائي. الغرض من هذه المعاناة هو "أن نكتشف من نحن حقاً".

في العالم النفسي، يعيش الفرد في عالمه الذاتي وفي عالمه الخاص في آنٍ واحد. حتى على الأرض، يعيش البشر داخل رؤوسهم بقدر ما يعيشون في العالم الحقيقي. على المستوى النفسي، يكاد يكون بإمكانهم تجاهل الواقع الموضوعي. لذا، فرغم أن العالم النفسي، وفقًا لداسكالوس، يضم أشجارًا وجبالًا ومحيطات وأنهارًا (يقول إن "عالمنا الحقيقي" ليس سوى انعكاس لهذا العالم النفسي)، فإن "معظم من يعيشون فيه يدركونه من خلال العناصر التي يصنعونها بأنفسهم". يستشهد داسكالوس بمثال لمقامر مات بمرض السل، والذي خلق مع آخرين بيئةً شبيهةً بتلك التي عرفها على الأرض: نوافذ وطاولات متسخة، ونفس المشاجرات والشجارات. لا يزال جد ياكوفوس المتوفى يرعى بستانًا، ويبيع ثماره، ويقلق بشأن هطول الأمطار. عاجلًا أم آجلًا، سيدرك هؤلاء الناس أن بإمكانهم القيام بأشياء أكثر إثارة للاهتمام، وينتقلون إلى مستويات نفسية أعلى. وأخيرًا، سيأمر "أسياد الكارما" الفرد بالعودة إلى الأرض لتعلم المزيد من الدروس. تساءل ماركيدس عن سبب ضرورة كل هذا، فكان الجواب: "ربما لإدراك هوية المرء واكتساب الوعي الذاتي".

كل هذا يُشبه شتاينر إلى حدٍّ كبير، لدرجة أنه لا يوجد فرق يُذكر. يقول شتاينر إن الهالة تستغرق ثلاثة أيام لتتلاشى، بينما يقول داسكالوس إنها تستغرق أربعين يومًا. يقول شتاينر إن الروح والجسد النجمي يدخلان العوالم النفسية الدنيا، وأن الجسد النجمي يتلاشى عندما يُطهّره معاناته الخاصة: يقول داسكالوس فقط إن "الفرد" يدخل العوالم النفسية الدنيا بعد الموت. لكن هذه الاختلافات - إن وُجدت - تافهة مقارنةً بالاتفاقات الأساسية. تجدر الإشارة أيضًا إلى أن داسكالوس، مثل شتاينر، يُولي أهمية بالغة لـ

شخصية المسيح في التاريخ العالمي، بل ويتحدث، مثل شتاينر، عن تسلسلات رؤساء الملائكة، بما في ذلك ميخائيل وجبرائيل. (وفقًا لشتاينر، كان جبرائيل روح العصر في عصر الوردية الصليب السابق، الذي انتهى عام ١٨٧٩، وميخائيل هو الروح المرشد لعصرنا). يُصرّ داسكالوس أيضًا على حقيقة السجلات الأكاشية أو الذاكرة العالمية. ويُدلي بتصريحٍ مثيرٍ للاهتمام مفاده:

... كل ما هو موجود، وكان، وسيوجد، مطبوع في هذا الحاسوب العملاق الشامل. علاوة على ذلك، تحتوي ذرة واحدة على كل معارف الكون. لذا، من الممكن، بالتركيز على ذرة واحدة، الحصول على معلومات عن شيء أو حدث وقع في الماضي البعيد. ويتم ذلك بالدخول إلى السجلات الأكاشية، تمامًا كما يدخل الباحث إلى مكتبة للبحث في مسألة معينة.

داسكالوس، مثل شتاينر، ادعى أنه قادر على رؤية تجسيدات الشخص الماضية ببساطة عن طريق استخدام قدرته على الرؤية النفسية.

هناك أيضًا اتفاق أساسي حول مسألة "مستويات الوجود". وفقًا لداسكالوس، يعيش الإنسان في آنٍ واحد على ثلاثة مستويات: المادي، والنفسي، والنووي. جميعها أكوان مادية، ولكن بمستويات اهتزاز مختلفة. (توصل ليثبريدج إلى استنتاجات متشابهة جدًا باستخدام البندول). عالمنا المادي، المكان والزمان، هو المستوى الأدنى. يليه العالم النفسي أو رباعي الأبعاد: "الفضاء هنا مُحايد، ويمكن للفرد أن يقطع مسافات شاسعة في آنٍ واحد". (يُفترض أن "إسقاط التماثل" يمكن أن يحدث في هذا البُعد). وأخيرًا، في البعد النوتي أو الخامس، تُتجاوز قوانين المكان والزمان، بحيث يمكن للفرد أن يسافر عبر الزمان والمكان. لكل فرد "جسد مُناظر" لهذه العوالم الثلاثة، وجميع الأجساد الثلاثة تُشكل الشخصية الكلية. (يُقسّم الجسد العقلي إلى جسدين، أعلى وأسفل، لذا يبدو الترتيب بأكمله غريبًا كمفهوم هونا للذات الثلاث). لا يوجد شيء في الكون المادي يخلو من نظيره النفسي والعقلاني (مفهوم آخر استنبطه ليثبريدج من دراسته للبندول). الأرض أيضًا كائن حي - لا شيء "ميت" في الواقع. لكن النظراء العقلانيين في المملكة المعدنية والحيوانية لا يشكلون أجسامًا يمكنها العمل بشكل مستقل عن الشكل المادي: الإنسان وحده لديه هذه القدرة. (ينكر داسكالوس، مثل شتاينر، أن للحيوانات "أرواحًا" أو أنانية فردية). الأنا الفردية للإنسان، أو روحه، مستقلة عن أجساده المادية أو النفسية أو العقلية، والتي يمكن أن تموت جميعها: الروح أبدية. لذا، مرة أخرى، فإن رواية داسكالوس عن

الإنسان يتوافق بشكل وثيق مع رجل شتاينر.

في الواقع، من أكثر الأمور إثارةً للاهتمام في رواية ماركيدس عن داسكالوس أنها تُذكّرنا في كثير من الأحيان برواد آخرين من رواد "التراث الخفي". فعندما يتحدث عن تيارات الطاقة الحيوية التي تُغذي الكون، يُذكرنا ميسمر ورايخ. وعندما يقول إن الماء هو العنصر المهيمن على المستويات النفسية، وأن الرطوبة تُساعد على التنفّس، يُذكرنا ليثبريدج. وعندما يتحدث عن الانسحاب إلى حالات "داخلية"، يُذكرنا إيلين غاريت ورودولف شتاينر. وعندما يتحدث عن الأرض ككائن حي، يُذكرنا رولينج رعد. وعندما يُقارن الوعي اليومي بحالة التنويم المغناطيسي، يُذكرنا غوردجيف. كل من لديه معرفة ولو بسيطة بـ"التراث الخفي"، من هرمس تريسميغستوس إلى شتاينر وأوسبنسكي، يُمكنه أن يُدرك أن داسكالوس جزءٌ حيٌّ منه. بمعنى ما، لا شيء مما يقوله أصيل. وبمعنى آخر، كل ما يقوله أصيل، إذ إنه يتحدث بوضوح انطلاقًا من معرفة شخصية مباشرة، ويبتكر تركيباته الخاصة.

داسكالوس، مثل رولينج ثاندر، من أولئك البشر الذين يعيشون براحة تامة على الحدود بين عالمين، المرئي وغير المرئي. يبدو أنه وُلد ولديه القدرة على تجربة اللامرئي. واجه آخرون، مثل إيلين غاريت وروزاليند هيوود، صعوبة في تقبّل الأمر، لكنهم تعلموا في النهاية تقبّله. ويفضل آخرون، مثل ألبرت تاكر، العيش على هذا الجانب من الحدود. لكن لا يمكن لأحد أن يتهم أيًا منهم بـ"الحساسية المفرطة"، أي أناسٌ يضعون قدمًا في "العالم الآخر". جميعهم، بلا شك، بشرٌ طبيعيون وعاقلون - بل أكثر توازنًا منا. الفرق الرئيسي هو أنهم يدركون تأثير "اللامرئي" على المرئي، بينما نبقى نحن غافلين عنه. لا شك في أيٍّ منهما يمتلك نظرةً أوسع، وبالتالي أكثر عقلانية، للحياة.

*الآخرة، ص 141، مقتبس من كتاب مايرز "الشخصية الإنسانية وبقائها بعد الموت الجسدي".

*الآخرة، الفصل الثاني "عالم العراف".

*ستيفن شوارتز، الخزائن السرية للزمن، علم الآثار النفسية والبحث عن بدايات الإنسان، ص 207.

*انظر ريتشارد دي ميل، رحلة كاستانيدا (1976) وأوراق دون جوان (1980).

*انظر كتابي أليستر كراولي، طبيعة الوحش، ص 157.

5
إكمال الصورة

علينا الآن أن نواجه بحزم السؤال الذي ازداد إلحاحًا خلال الجزء الثاني من هذا الكتاب: إلى أي مدى يُهم وجود "عالم روحي"، ووجود الأرواح، وحقيقة التناسخ، وتواصل الوسطاء الروحانيين مع الموتى؟ رأينا، على سبيل المثال، أن إيلين غاريت ازدادت مللًا وضيقًا من الروحانية. كما يُحذر داسكالوس منها، مُشيرًا إلى أن محاولة التواصل مع الموتى قد تُشتت انتباههم عن أمور أهم. قال شتاينر لجمهوره: "الروحانيون أسوأ الماديين على الإطلاق". يُصرّ آدم كرابتري على أنه لا فرق بين إيمانه بحقيقة الأرواح التي يُطردها أو اعتبارها خيالات نفسية: كل ما يهم هو شفاء المريض. ويبدو هذا، في المجمل، موقفًا عاقلًا. فالعالم الذي نعيش فيه خطير بما فيه الكفاية، بوجود الإرهابيين واللصوص والقتلة المتسلسلين، دون نشر المزيد من الذعر واليأس بين المُتوترين بالحديث عن الأرواح الشريرة والشياطين.

كان هذا هو موقفي عندما انتهيت من كتابة بولترجيست. لقد تركني ثقل الأدلة الهائل بلا شك في وجود أشياء مثل الأرواح. وهذا بدوره يعني أن الحياة بعد الموت كانت حقيقة وأن الروحانيين كانوا على حق منذ البداية. ومع ذلك، ظللت أشعر أن هذا، بمعنى أساسي، غير ذي صلة. إن ما يثير الاهتمام في الخوارق هو اقتراحها بأننا نمتلك "قوى خفية". يميل البشر إلى المعاناة من "المغالطة السلبية"، وهي فكرة أننا مجرد نتاج للعالم المادي وأن العالم المادي هو الحقيقة المطلقة. بالنسبة لجزء كبير من حياتنا، فإن وعينا ليس أكثر من مجرد مرآة تعكس هذا "الواقع". فقط في لحظات التركيز والإثارة ندرك أن الغرض الحقيقي من الوعي هو تغيير العالم. تجعلنا التزامنات، ومضات الاستبصار أو الإدراك المسبق أو البصيرة الصوفية، ندرك أن قدرتنا على تغيير العالم أعظم بكثير مما نتخيل. هذه هي أهم بصيرة تنشأ من دراسة الخوارق. هذا هو جوهر "الرؤية الخفية". بالمقارنة، تبدو الأشباح والأرواح مثيرة للاهتمام، لكنها ليست ذات أهمية خاصة.

سأعتبر الآن هذا الرأي تبسيطًا مفرطًا. فحالات الوعي اليومية الباهتة تخبرنا أن العالم المادي هو "كل ما هو موجود". أما حالات الوعي الأكثر كثافة فتكشف أن هذا العالم ليس "كل ما هو موجود". فهناك جوانب خفية

عوالم من الواقع تتجاوز إدراك الوعي اليومي. وإذا كانت "الأرواح" جزءًا من هذه العوالم الخفية، فسيكون من الخطأ تجاهلها باعتبارها غير مهمة. تكمن المشكلة في محاولة اكتشاف دورها بدقة. تُقدِّم بعض الأدلة المهمة في فصل أوسبنسكي عن التصوف التجريبي في كتاب "نموذج جديد للكون"، ويجب الآن دراستها بمزيد من التعمق.

أوضح أوسبنسكي أن أول مشكلة واجهته في "العوالم الغامضة" التي دخلها كانت استحالة وصفها تقريبًا، لأن كل شيء كان مترابطًا. "لوصف الانطباعات الأولى... لا بد من وصف كل شيء دفعة واحدة". هذا دليل حيوي. كلما شعرتُ بالتعب والملل، بدت الأشياء "مُنفصلة". إذا أشار أحدهم إلى شيء وقال: "ألا ترى معناه؟" أهز رأسي: "لا يعني" سوى ذاته. من ناحية أخرى، عندما أكون في حالة من الحيوية المُكثفة، "يعني" كل شيء شيئًا مُنفصلًا عن ذاته: يبدو أن كل شيء يُذكرني بشيء آخر. أرى أن كل شيء في الكون يُشير إلى شيء آخر، وهذا يُشير إلى شيء آخر، وهذا يُشير إلى شيء آخر، بحيث يبدو أن شبكة من العلاقات تمتد إلى ما لا نهاية. الوعي كبركة ماء، وكل ما أنظر إليه يُسبب تموجات تنتشر على سطحها. عندما أكون مملًا ومُتعبًا، يبدو الأمر كما لو أن السطح قد تجمد تمامًا.

لقد مررنا جميعًا بهذه الحالات التي يحاول أوسبنسكي وصفها، على سبيل المثال عندما نرى حلًا لمشكلة ما "بلمح البصر"، أو عندما نشعر بذلك الشعور الغريب بالفرح ونحن نشم أولى روائح الربيع. إنه "المنظر من أعلى". ولكن كما رأينا، فإن "الذات اليومية" تنظر من الجانب الأيسر من الدماغ وتعمل باللغة والمنطق. فإذا كان فيض الحدس شديدًا جدًا، يُترك الدماغ الأيسر يتخبط بلا أمل، والنتيجة هي شعور بالإحباط الشديد.

لاحظتُ هذا أول مرة في طفولتي: السعادة المفرطة تُملّني. إذا خرجتُ في نزهة صباحية مشمسة وبدأتُ أشعر بفرحة عارمة متزايدة، تأتي لحظة أشعر فيها بالملل وأُعيد عقلي إلى أرض الواقع عمدًا. بالتفكير في هذا لاحقًا، وجدتُ دائمًا صعوبة في فهم سبب رغبتي في انتهاء تلك السعادة. الآن الحل واضح. عندما نمر ببصيرة مفاجئة، نريد استيعابها، وتحويلها إلى كلمات. لكن الدماغ الأيسر يشبه كاتبًا يكتب كل شيء بخط يده. إذا جاءت الحدس بسرعة كبيرة، فإنه يريد أن يصرخ: "تمهل، تمهل!" وإذا رفض المتحدث التباطؤ، فإنه يلقي قلمه في اشمئزاز. كما رأينا في القسم الخاص بهيلين كيلر (ص 116)، فإن مهمتنا البشرية هي التقاط الأشياء بالكلمات، وأن نصبح سادة الواقع من خلال استخدام الكلمات والمفاهيم. لذا فإن البصيرة الحدسية المفرطة لا طائل منها تمامًا.

يواصل أوسبنسكي ملاحظته أنه وراء هذا العالم من الأفكار الرائعة

(الذي يقارنه بعالم من العلاقات الرياضية المعقدة للغاية)، مر بحالة انتقالية لا تختلف عن الحالة التنويمية على حافة النوم. في هذه الحالة سمع "أصواتًا". "تحدثت الأصوات عن كل نوع ممكن من الأشياء. لقد حذروني. لقد أثبتوا وشرحوا لي كل شيء في العالم، ولكن بطريقة ما فعلوا ذلك ببساطة شديدة". بدأ يتساءل عما إذا كانت الأصوات تأتي من خياله، لذلك حاول طرح أسئلة عليهم. كان أحد أسئلته يتعلق بالكيمياء، وأخبره صوت ادعى أنه شخص مشهور أن الإجابة يمكن العثور عليها في كتاب معين. عندما حصل أخيرًا على الكتاب وجد أنه يحتوي على "تلميحات معينة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسؤالي، على الرغم من أنها لم تقدم إجابة كاملة له". استنتج أن "الأصوات" كانت في الأساس هي نفسها التي يسمعها الوسطاء.

ومع ذلك، ومن الغريب أنه شعر بخيبة أمل لأنه لم يجد في هذه الحالات الصوفية شيئًا يشبه "العالم النجمي" الذي وصفه أشخاص مثل شتاينر والسيدة بلافاتسكي. وتوصل إلى استنتاج مفاده أن هذا لأن مثل هذه العوالم غير موجودة. ومع ذلك، يبدو أن تجاربه مع "الأصوات" تتناقض مع هذا. وكذلك وصفه لحادثة سبق ذكرها حاول فيها الاتصال بالموتى. يوضح أوسبنسكي أنه كان يفكر في شخص شعر تجاهه ببعض الذنب لخذلانه له في السنوات الأخيرة من حياته. (يبدو من تعليقات أوسبنسكي أنه كان يتحدث عن والده). لذلك، خلال إحدى تجاربه الصوفية، أعرب أوسبنسكي عن رغبته في رؤية هذا الشخص وطرح سؤال واحد فقط. "وفجأة، ودون أي استعداد، تحققت رغبتي، ورأيته. لم يكن إحساسًا بصريًا، وما رأيته لم يكن مظهره الخارجي، بل حياته بأكملها، التي تومض بسرعة أمامي. هذه الحياة - هذا هو". يبدو أن أوسبنسكي يقصد أنه لم ينتبه إلا إلى لمحة ثاقبة، لكن الأمر ليس كذلك. ويضيف أنه رغم عدم تبادلهما أي حديث، "مع ذلك، أعلم أنه هو، وأنه هو من أخبرني عن نفسه بأكثر مما كنت أطلب".

لكن ما أخبره الرجل الميت كان محيرًا، كغيره من تجارب أوسبنسكي الصوفية. يقول أوسبنسكي:

الرجل الذي عرفته ومات لم يكن موجودًا قط. ما وُجد كان شيئًا مختلفًا تمامًا، لأن حياته لم تكن مجرد سلسلة من الأحداث، كما نتصور عادةً حياة الإنسان، بل كانت كائنًا مفكّرًا وشاعرًا لم يتغير بموته. الرجل الذي عرفته كان، إن جاز التعبير، وجه هذا الكائن - الوجه الذي تغير بموته.

سنوات، لكن وراءها يكمن الواقع الثابت... رأيتُ بوضوح أن أحداث السنوات الأخيرة من حياته كانت مرتبطة به ارتباطًا وثيقًا كسمات وجهه... لم يكن بإمكان أحد أن يغير شيئًا فيها، تمامًا كما لم يكن بإمكان أحد أن يغير لون شعره أو عينيه أو شكل أنفه.

بمعنى آخر، رأى أوسبنسكي الإنسان "استمرارية رباعية الأبعاد" - مثل صورة ويلبر رايت للشمس كأنبوب ذهبي رباعي الأبعاد - وأدرك أن هذه الكلية الرباعية الأبعاد غير قابلة للتغيير في بعض النواحي، على الأقل من قِبل الآخرين. "لسنا مسؤولين عن أحداث حياة بعضنا البعض أكثر من مسؤوليتنا عن ملامح وجوه بعضنا البعض. لكلٍّ منا وجهه الخاص ... ولكلٍّ مصيره الخاص، الذي قد يشغل فيه رجل آخر مكانًا معينًا، لكنه لا يستطيع تغيير شيء فيه."

هذا دفع أوسبنسكي إلى إدراك أننا "مرتبطون بماضينا وبالأشخاص الذين نتواصل معهم أكثر بكثير مما نعتقد عادةً، وقد فهمتُ بوضوح تام أن الموت لا يُغير شيئًا في هذا. فنحن نبقى مرتبطين بكل من كنا مرتبطين به. ولكن للتواصل معهم، لا بد من أن نكون في حالة خاصة". هذه الكلمات قريبة جدًا من تعليقات شتاينر على الموت والحياة بعد الموت، لدرجة أنه من الصعب ألا نشعر بأنها تُعبّر عن نفس الرؤية تمامًا.

ويستمر أوسبنسكي في محاولة وصف رؤيته باستخدام صورة فرع:

إذا أخذنا غصن شجرة مع الأغصان، فإن المقطع العرضي للفرع سيتوافق مع الرجل كما نراه عادةً؛ سيكون الفرع نفسه هو حياة الرجل، وستكون الأغصان هي حياة الأشخاص الذين يتعامل معهم... كل رجل هو فرع لنفسه، والأشخاص الآخرون الذين يرتبط بهم هم فروعه. لكن كل واحد من هؤلاء الأشخاص هو فرع رئيسي لنفسه و[الرجال الآخرون هم] الفروع... وبهذه الطريقة ترتبط حياة كل رجل بعدد من الحيوات الأخرى؛ تدخل حياة واحدة، بمعنى ما، في حياة أخرى، وكلها مجتمعة تشكل كلاً واحدًا، لا نفهم طبيعته.

كل هذا يُمكّننا من إدراك أن الفكرة البسيطة القائلة بأن البشر ينجوون من الموت ويستمرون في الوجود في "عالم آخر" هي تبسيط مُفرط للواقع. إن كوننا المادي، بجاذبيته الهائلة التي تُشلّ أفكارنا بحيث "يبدو كل شيء منفصلاً"، يُعطينا صورة خاطئة تمامًا عن الواقع. لهذا السبب قال شتاينر: "الروحانيون...

هم أعظم الماديين على الإطلاق. كان يقصد أنهم يحاولون اختزال واقع رباعي الأبعاد إلى صورة ثلاثية الأبعاد بسيطة، وهو في جوهره تزييف. حتى سؤال "هل هناك حياة بعد الموت؟" سؤال خاطئ، إذ ينطوي على جميع المفاهيم الخاطئة. من الواضح أن أوسبنسكي لن يجيب: "نعم، هناك حياة بعد الموت". بل سيشير إلى أن مفهومنا برمته عما يُشكل الحياة - وبالتالي الموت - خاطئ جوهريًا، وبالتالي فإن السؤال يكاد يكون بلا معنى. (سؤال "هل هناك إله؟" يحمل نفس المفاهيم الخاطئة المضمنة).

كل هذا يُمكّننا من إدراك لماذا يُعدّ سؤال "هل الأرواح موجودة؟" ذا صلة ومُضلّلاً للغاية في آنٍ واحد. إنّ دليل نشاط البولترجيست لا يدع مجالاً للشك في وجود الأرواح، وأنها، إلى حدٍّ ما، لا تخضع لقوانين المكان والزمان التي تحكم البشر. لكنّ افتراض أن هذه الأرواح تُقدّم دليلاً على الطبيعة الجوهرية للكون هو سوء فهم. إلى أن نبدأ في استيعاب الأفكار التي لمّح إليها أوسبنسكي في تجاربه الصوفية، ونتمكّن من إلقاء نظرة خاطفة على "الصورة الكاملة"، فإنّ الأسئلة المتعلقة بالأرواح مُضلّلة للغاية، ومن الأفضل تركها معلّقة.

أفضل طريقة لفهم هذه "الصورة الشاملة" هي البدء بلمحات غامضة من الناس العاديين. لنأخذ على سبيل المثال تجربة العالم الأمريكي، سي. دالي كينغ، وهو ينتظر على رصيف قطار في نيوجيرسي:

على الرصيف، كانت هناك عدة هياكل صغيرة لمصاعد الشحن وأكشاك بيع الصحف وما إلى ذلك، مصنوعة من الطوب ذي اللون البني الداكن. كان مرتاحًا نفسيًا، يُخطط على مهل لجدول زياراته المختلفة في المدينة، ويحاول في الوقت نفسه أن يكون واعيًا، بنشاط وحيادية، لحركات جسده، وأن يكون واعيًا في الوقت نفسه لجميع الأحاسيس السمعية الصادرة من أذنيه.

ونستطيع أن نرى أن الملك كان في حالة استرخاء في الجانب الأيمن من دماغه، وأنه كان يطبق أيضًا الانضباط الذي أوصى به داسكالوس، حيث كان ينتبه بشكل كامل إلى العالم الخارجي.

فجأةً، تغيّر المشهد المحيط بأكمله. بدا الجوّ العامّ حيويًا بشكلٍ غريب، وفجأةً، اتخذ الأشخاص القلائل الآخرون على الرصيف مظهرًا لا يكاد يكون أكثر أهميةً أو دلالةً من مظهر مقابض الأبواب عند مدخل غرفة انتظار الركاب. لكن التغيير الأكثر غرابةً كان طوبَ اللون البنيّ الداكن. بقي، بطبيعة الحال، طوبًا بنيّ اللون، إذ لم يكن هناك أيّ وهمٍ حسيٍّ مصاحبٍ في...

التجربة. لكن فجأةً، بدوا في غاية الحيوية: دون أي حركة خارجية، بدوا وكأنهم يغليون فرحًا تقريبًا في داخلهم، وأعطوا انطباعًا واضحًا بأنهم يعيشون ويستمتعون بها. أثر هذا الانطباع على الكاتب لدرجة أنه ظل يحدق بهم لبضع دقائق، حتى وصل القطار واضطر إلى صعود الدرج ودخول عربة.*

في مناسبة أخرى، عندما كان عائداً إلى منزله من نيويورك وهو يشعر بالتعب إلى حد ما، كانت لدى دالي كينج تجربة مختلفة تماماً:

مرة أخرى، تغير المشهد فجأةً وبشكلٍ مفاجئ ومفاجئ، كما لو أن مشهدًا قد استُبدل بآخر على الفور. لكن الآن، أصبح الآخرون هم محور الاهتمام بشكلٍ رئيسي. بدوا موتى، موتى حقًا. توقع المرء أن يرى علامات التحلل، لكن بالطبع لم يكن هناك أي شيء. ما رآه المرء كان فقدانًا صارخًا للوعي، عشرات الدمى المتحركة التي لا تعمل ذاتيًا بل تحركها قوة غريبة عن نفسها، تسير على طول مساراتها الآلية ميكانيكيًا ودون هدف. كانت بعض الأفواه مفتوحة وبدت وكأنها ثقوب في صناديق من الورق المقوى. كانت الوجوه فارغة تمامًا: حتى تلك التي كان من الممكن أن يظهر عليها بعض التعبيرات قد جُردت من أي أهمية، ورأى المرء أن تلك التعبيرات لا علاقة لها بالكيانات التي كانت ترتديها. لأول مرة أصبح مفهوم الزومبي معقولًا.

ويقول الملك إنه شعر بمزيج غريب من الشفقة والازدراء.

إذا نظرنا عن كثب إلى هذه التجارب، يمكننا أن نرى أن الأولى كانت في الأساس بسبب موجة من الحيوية: أي شعور مفاجئ بالسعادة يجلب نفس التجربة بدرجة أقل. يصف كومبتون ماكنزي في روايته السيرة الذاتية "شارع سينستر" بطله وهو ينتظر في زاوية شارع فتاة وقع في حبها للتو، ويقول: "... في مزاجه الحالي من النشوة، يمكنه الاستمتاع بالتواصل حتى مع الطوب والأسمنت". لكن بطل ماكنزي ينتظر حبيبته، ولم يكن لدى دالي كينج سبب مماثل للبهجة. ما حدث في حالته كان مختلفًا بعض الشيء. يشبه الوعي البشري اليومي إطارًا به ثقب بطيء: نحن نتسرب. يجب خلق الطاقة باستمرار أثناء استنزافها. نلاحظ هذا أكثر عندما نشعر بالملل أو الإحباط المفاجئ: نشعر بالفعل بالطاقة تتسرب منا مثل إطار يفرغ من الهواء. التركيز يسد التسربات. لقد نجح دالي كينج عن طريق الصدفة في إغلاق جميع تسريباته في وقت واحد، وكانت النتيجة ارتفاعًا مفاجئًا في ضغط الوعي وإحساسًا بالسيطرة يكاد يكون نشوانًا.

في المرة الثانية كان متعبًا، لذا لم يكن هناك أي أثر لإغلاق التسريبات.

موجة من الضغط الداخلي، لم يكن سوى وعي بحريته، على النقيض من ذلك، اتضحت فيه عدم حرية معظم الناس. كانت لدى أوسبنسكي رؤية مماثلة، رأى فيها الناس نائمين تمامًا، وأحلامهم تحوم كالغيوم حول رؤوسهم. في حالة وعيه المتصاعدة، أدرك دالي كينج فجأة حقيقة البشر: أنهم ليسوا أكثر من مجرد آلات تستجيب لمحفزات من البيئة. تُفسر هذه الرؤية أيضًا سبب اعتبار المستقبل مُحددًا مسبقًا إلى حد ما: لأننا لا نفعل سوى القليل جدًا مما هو ميكانيكي بحت.

ومع ذلك، إذا نظرنا إلى التجربتين معًا، فإنّ البصيرة الكلية ليست مُحبطة بأي حال من الأحوال. ما كان دالي كينج يدركه هو أنّه من السهل نسبيًا، في نهاية المطاف، الارتقاء إلى هذه الحالة العليا من الضغط الداخلي. تمنعنا "آليتنا" من إدراكها، ولكن في اللحظة التي ندركها، يمكننا البدء في فعل شيء حيالها. ومن هنا يأتي الشعور بـ"أخبار سارة سخيفة".

هذا هو جوهر "الرؤية الخفية". قال الفيلسوف فيشته ذات مرة: "الحرية لا تعني شيئًا: أن تصبح حرًا هي سماوي". السبب واضح الآن. عندما نتحرر فجأة، أو عندما تتلاشى أزمة ما فجأة، أو تنفتح أمامنا آفاق جديدة وشيقة، نستجيب بطفرة من الطاقة. هذه الطفرة من الطاقة ترفعنا فوق "آليتنا" المعتادة، وتجعلنا ندرك الروابط، ومدى حريتنا. ولكن بما أنه من المستحيل العيش بدون "الروبوت"، فسرعان ما نغرق في حالتنا المعتادة من السلبية "غير المتصلة".

وصفتُ في موضعٍ آخر تجربة فتاةٍ من معارفي "تحررت" فجأةً. كانت متزوجةً من أكاديمي أمريكي خانها، فقررت أخيرًا تركه - وهو قرارٌ صعبٌ نظرًا لصغر سنّهما. عُرض على شقيقها مؤخرًا منصبٌ أكاديمي في أوهايو، فاقترح عليها أن تأتي لرعايته. ثم عُرض على زوجها منصبٌ أكاديميٌّ آخر في أوريغون، فتوسّل إليها أن تذهب معه. لأيامٍ، تساءلت: هل تذهب إلى أوريغون مع زوجها أم إلى أوهايو مع شقيقها؟ وفجأةً، وبينما كانت تُصارع المشكلة، أدركت: "لستُ مضطرةً للذهاب إلى أوريغون أو أوهايو. أنا حرة". قالت إن التجربة ملأتها بفرحٍ غامرٍ وخفةٍ، حتى شعرت وكأنها تطير في الهواء. حتى أن مستواها في التنس تحسّن.

هنا نرى أن تجربة الحرية هي في جوهرها إدراكٌ بأن بعض الحدود التي كنا نعتبرها أمرًا مسلمًا به كانت وهمًا. ولكن ما هي هذه الحدود تحديدًا؟ بالنسبة للأشخاص العاديين الأصحاء، فهي ليست قيودًا جسدية. وأنا أجلس في هذه الغرفة، لا أشعر بأنني سجينٌ بين جدرانها الأربعة. إن القيد الحقيقي هو إحساسي بما يستحق القيام به. إذا تلقيتُ للتو خيبة أملٍ ساحقة، فإن كل جهدٍ يُستنزف حيويتي. إذا تلقيتُ للتو خبرًا سارًا غير متوقع، فإن لديّ طاقةً هائلةً لدرجة أنني أشعر وكأنني...

أدور في دوامة. أسمح للأحداث التي تحدث لي بتحديد شعوري بالحرية. ولأن حياتنا متكررة إلى حد كبير، نبدأ بافتراض أننا نمتلك درجة محددة من الحرية، لا أكثر ولا أقل. يمكننا القول إن الوعي العادي هو نوع من "التقييم المعتاد" لحريتنا، مع ميل إلى أن يكون في أدنى مستوياته.

يمكننا أيضًا أن نرى أنه عندما عاشت والدة ماسلو الشابة تجربةً رائعةً وهي تشاهد زوجها وأطفالها يتناولون الفطور، انقضّت فجأةً موجةٌ من الطاقة على هذا "التقييم المُعتاد" وأصبحت "حرة". قبل لحظةٍ كانت حرةً، لكنها اعتبرت الأمر أمرًا مُسلّمًا به: أما الآن فقد أصبحت حرة. لقد تذكرت كم كان لديها ما يُشعرها بالسعادة والارتياح. إن شعورنا المُعتاد بعدم الحرية هو نوعٌ من النسيان.

هذه، بمعنى ما، إحدى أكثر ملاحظاتنا تفاؤلاً حتى الآن. ففي النهاية، لا شيء أسهل علاجاً من النسيان العادي. أستطيع أن أعقد عقدة في منديل، وأترك ملاحظة لنفسي، وأضبط المنبه... يمكننا أن نفهم، على سبيل المثال، أنه بعد أن رأى دالي كينج الطوب يتوهج بالحياة الداخلية، لن ينظر إلى تلك الطوب نفسها مجدداً دون أن يتذكر ما رآه ويبذل جهداً لاستعادة الرؤية. ولأنه يتذكر، تصبح الرؤية أسهل استعادةً تدريجياً. لهذا السبب بدأ طلاب ماسلو يمرون بتجارب ذروة طوال الوقت عندما بدأوا يتحدثون ويفكرون في تجارب الذروة. هنا لدينا إحدى أبسط الطرق لإعادة خلق تجربة الذروة أو التجربة الغامضة: محاولة التذكر عمداً، لاستحضار ذلك الشعور الغريب بالفرح والسكينة الكامن في قلب تجربة الذروة. في أغلب الأحيان، يبدو أن لا شيء يحدث: يرفض جوهر التجربة العودة. ثم، ربما بعد خمس دقائق، يعود يتجول في الذهن كنغمة منسية. وبقدر ما نتذكر اللحن، يصبح من الأسهل تذكره متى شئنا.

ما أدهشني مرارًا وتكرارًا أثناء مناقشة تجارب الذروة والتجارب الصوفية مع من مروا بها هو سهولة حدوثها. يكفي أن نفعل شيئًا يكسر عادة قديمة، وتكون النتيجة هي تجربة الذروة. بمعنى آخر، مشكلتنا الحقيقية هي أننا اعتدنا على عدم خوض تجارب الذروة، والانشغال بروتين الحياة اليومية. لكن تجربة الذروة نوع خاص من البصيرة، وبمجرد خوضها، تميل إلى التكرار. أعطتني باربرا تاكر، زوجة ألبرت تاكر، مثالًا مثيرًا للاهتمام. وصفته ببساطة وهي تقودني إلى ضاحية نائية في ملبورن، ردًا على بعض الملاحظات التي أبديتها عن ماسلو. في سن العشرين، أصبحت فجأة مهتمة بالموسيقى بشدة. جاءت تجربتها الصوفية ذات يوم بينما كانت تستمع إلى رباعية بيتهوفن الأخيرة، العمل رقم 132. "لقد مررت فجأة بتجربة رؤية الكون بأكمله". لم تكن مهتمة بالتصوف.

ولم أقرأ شيئًا عنه، لذا كانت التجربة بمثابة صدمة إلى حد ما.

وفجأة انفتح أمامي هذا الأفق الواسع. وفجأة عرفتُ - أو رأيتُ - أن الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل، واحد، وأنني الله، وفي الوقت نفسه لم أكن سوى حبة رمل صغيرة. أتذكر أنني فكرتُ: "يا له من أمرٍ مذهل - كيف يُمكن للمرء أن يكون شيئين في آنٍ واحد؟" ورأيتُ أيضًا أن الكون بأكمله على نظام شبكي - بل رأيتُ الشبكة تمتد إلى ما لا نهاية - وأن كل فكرة، وكل فعل، وكل كلمة، وكل شيء حدث، لم يكن صدفة. كل شيء في الكون مترابط: في كل مرة تقابل فيها شخصًا ما، ليس لقاءً صدفة - هناك غاية لذلك اللقاء، وكل شيء يرتبط بكل شيء آخر في الكون. كان الأمر أروع ما رأيت - كل شيء يترابط، كل شيء يترابط. وقد غيرت تلك التجربة حياتي - جعلتني أرى الأشياء بشكل مختلف تمامًا.

ومن الواضح أنها "رأت" بالضبط ما رآه أوسبنسكي.

مرّت باربرا تاكر بثلاث أو أربع تجارب مماثلة خلال اثني عشر شهرًا، جميعها كانت أقلّ كشفًا بكثير من الأولى، ومع ذلك أتاحت لها كلٌّ منها لمحةً عن رؤيتها الأصلية. في إحدى التجارب النموذجية، حضرت حفلةً أقامها أصدقاؤها، وشعرت ببعض التناقض حيالها. ("أميل إلى الجلوس في زاوية، ولا أستمتع بها كثيرًا").

كان جميع من حولي يضحكون ويتحادثون ويفعلون ما يفعله الناس في الحفلات - وفجأةً، أدركتُ كل الروابط بين هؤلاء الناس - كيف كانوا جميعًا مترابطين - كيف أن كل هذا العرض الذي كان يجري لم يكن في الواقع مجرد ثرثرة عابرة. بل كان كل شيء مترابطًا في علاقاتهم ببعضهم البعض بطريقة استثنائية للغاية. لكن ما وجدته مثيرًا للاهتمام هو أنني لم أكن جزءًا منه. كنتُ مجرد دخيل تمامًا، شخصًا ينظر إلى الداخل. لم أكن على صلة بهم...

من الصعب جدًا، بالطبع، استيعاب ما رأته بدقة: فبينما أستمع إلى التسجيل الذي سجّلته لي، بتوقفاته الطويلة، أدرك دائمًا محاولتها إجبار اللغة على التعبير عما لا يُوصف. ليس لأن تجاربها كانت عصية على الوصف، بل لأن اللغة صُممت للتعبير عن حقائق وأفكار ملموسة: إنها عاجزة عن وصف حتى الفرق.

بين رائحة البرتقال والليمون. ما رأته بدا واضحًا لها، ولا تزال ذكراه عالقة في ذهنها منذ ذلك الحين.

من الواضح أيضًا أن القدرة على استيعاب هذا النوع من التجارب قد تؤدي أيضًا إلى تجارب "نفسية" أكثر وضوحًا. وهنا أيضًا، يُقدم حدث وصفه ألبرت تاكر مثالًا نموذجيًا. نتيجةً جزئيًا للتجارب الغريبة التي سبق وصفها، أصبح مهتمًا بشدة بالإيحاء الذاتي والتنويم المغناطيسي الذاتي. طوّر عادة الاستلقاء لمدة نصف ساعة بعد الغداء، مُحدثًا حالة من الاسترخاء العميق، ثم يُقدم لنفسه جميع أنواع الإيحاءات الإيجابية:

خلال هذه التجربة، مررتُ ببعض التجارب الغريبة، منها أن المرتبة والسرير بدا وكأنهما يهتزان كموجة، وكنت أشعر بهذا الإحساس المميز والواضح، كما لو أن موجات طاقة مختلفة تتدفق. شعرتُ حقًا أن شيئًا ما بدأ ولم أكن مستعدًا له. لم أكن أعرف إلى أين يتجه كل هذا، فتجنبته.

خلال إحدى هذه الجلسات، حاول تاكر أن يتخيل ما قد يحدث لصديق له أخذ بعض لوحاته إلى نيويورك. "فجأة، لمعت في ذهني صورة لمبنى حديث بأبواب زجاجية دوارة. ومن خلال الأبواب، استطعت أن أرى معرضًا فنيًا. على الحائط كانت لوحة لي - إحدى هذه اللوحات التي أخذتها صديقتي معها." استمرت هذه الصورة في الطفو في ذهنه في كل "جلسة استرخاء" لمدة أسبوع أو أكثر. وبعد ذلك بفترة، ذهب إلى نيويورك، وفي اليوم الأول انطلق مليئًا بالحماس للذهاب وإلقاء نظرة على متحف الفن الحديث. من بعيد، بدا مألوفًا بعض الشيء. وعندما اقترب من الباب الدوار، تعرف عليه على أنه المكان الذي رآه كثيرًا في جلسات الاسترخاء بعد الغداء. في مواجهته على الحائط، تمامًا حيث "رأها"، كانت نفس اللوحة.

من المثير للاهتمام التكهن بما كان سيحدث لو سمح لـ"موجات الطاقة" بالتطور. يبدو الأمر أشبه بتجربة ما يسميه الهندوس "أفعى الكونداليني"، وهي الطاقة الروحية الملتفة عند قاعدة العمود الفقري، والتي يمكن إطلاقها لتتدفق صعودًا عبر الشاكرات السبع - نقاط اتصال الجسد المادي بالجسد النجمي. يبدو من المعقول أنه ربما تطور إلى قوى روحية متكاملة، ويبدو جليًا أن حتى الاسترخاء العادي كان كافيًا لإنتاج "استبصار".

وهكذا ندرك مرة أخرى أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين التجربة الصوفية والتجربة "النفسية": حيث يمتزج أحدهما بالآخر.

لكن إذا كان الوعي الباطني "قريبًا" إلى هذا الحد، فما الذي يمنعنا من تجربته يومًا بعد يوم؟ هذا السؤال يُلامس جوهر المشكلة. والجواب، في جملة واحدة، هو أن الوعي يميل إلى التركيز على ما ينقصنا بدلًا مما نملك. فمنذ ولادتنا، نكافح لتحقيق ما نفتقر إليه، أو نعتقد أننا نفتقر إليه: الطعام والشراب، والممتلكات، وتقدير الآخرين، والأمان، والاكتمال الشخصي. فقط عندما نواجه تهديدًا أو أزمة ما، نُدرك كم نحن محظوظون، وكم نملك بالفعل. ثم، فجأة، يتوقف الوعي عن التركيز على ما نريده، ويُركز على ما نملكه بالفعل. هذا ما حدث لوالدة ماسلو وهي تراقب زوجها وأطفالها يتناولون الإفطار.

عندما نواجه أزمة، ندرك فجأة أننا نملك سر السعادة. أمام احتمال دخول معسكر اعتقال، كان بإمكان هانز كيلر أن يقول: "لو استطعت الفرار من ألمانيا، أقسم أنني لن أعيش تعيسًا طوال حياتي"، وفي تلك اللحظة أدرك أنه من السهل جدًا الوفاء بهذا الوعد. يقف دوستويفسكي أمام فرقة الإعدام ليدرك أن الحياة كلها ممتعة بلا حدود، وأنه إذا حالفه الحظ بالنجاة، فسيكون من السهل جدًا ألا ينسى هذه الرؤية أبدًا. ما حدث، بالطبع، هو أنه انغمس في الحالة التي نختبرها غالبًا في سرير دافئ في صباح شتوي بارد عندما نضطر إلى الاستيقاظ في غضون خمس دقائق: حالة يمكن تسميتها "الوعي التأملي الذاتي" حيث نكون على وعي تام بأنفسنا وبوضعنا الحالي، مستريحين تمامًا في اللحظة الحالية بدلاً من إجهاد أعيننا نحو المستقبل. من الواضح أن هذه الخدعة المتمثلة في إثارة "الوعي التأملي الذاتي" هي الخدعة الأساسية للتجربة القصوى ولكل سعادة إنسانية.

هذا هو جوهر البوذية الأساسي: أن نتوقف عن الانجراف وراء الرغبة (أي أن ندرك ما ينقصنا) وأن ندرك أننا نملك بالفعل كمال الوجود. ومع ذلك، عندما يحاول الصوفي التعبير عن هذه الرؤية البسيطة، يجد نفسه في صراع مع لغة غير مُرضية.

كان للطبيب الأمريكي فرانكلين ميريل وولف تجربة خاصة مع النيرفانا في أغسطس 1936، وبعد عشرة أيام حاول التعبير عما حدث في مذكراته:

كنت جالسًا على أرجوحة الشرفة أقرأ... قبل التسلسل في

بعد قراءة كتاب "التحرر"، لجأتُ إلى القسم المخصص له، إذ بدا لي أنني أشعر برغبة خاصة فيه. غطيتُ المادة سريعًا، وبدا كل شيء واضحًا ومرضيًا. ثم، بينما كنتُ أجلسُ بعد ذلك مُتأملًا في الموضوع الذي قرأتُه للتو، أدركتُ فجأةً أن خطأً شائعًا في التأمل الأعلى، أي التأمل من أجل التحرر، هو البحث عن هدفٍ دقيقٍ للإدراك، أي شيءٍ يُمكن تجربته. بالطبع، كنتُ أعرفُ منذ زمنٍ طويلٍ زيفَ هذا الموقف نظريًا، لكنني فشلتُ في إدراكه. (وهذا تمييزٌ دقيقٌ ولكنه بالغ الأهمية). على الفور، تخلّيتُ عن توقع حدوث أي شيء. ثم، وعيناي مفتوحتان، وعقلي خالٍ من أي غيبوبة، جردتُ اللحظة الذاتية - عنصر "أنا أكون" أو "أتمان" - من مجمل الوعي الموضوعي المُتشعب. ركزتُ على هذا. وبطبيعة الحال، وجدتُ، من وجهة النظر النسبية، ما يُسمى الظلام والفراغ. لكنني أدركتُه نورًا وامتلاءً مطلقين، وأنني كنتُ ذلك. بالطبع، لا أستطيع تحديد ماهيته في طبيعته. فالأشكال النسبية للوعي تُشوّه الوعي غير النسبي حتمًا. لا أستطيع إخبار الآخرين بهذا فحسب، بل لا أستطيع حتى احتواءه في وعيي النسبي، سواءً كان إحساسًا أو شعورًا أو فكرًا. سيدرك كل مفكر ميتافيزيقي هذه الاستحالة فورًا. كنتُ مستعدًا حتى لعدم مشاركة الوعي الشخصي في هذا الإدراك بأي شكل من الأشكال. لكنني شعرتُ بخيبة أمل كبيرة في هذا. بعد قليل، شعرتُ بنوعية الأمبروزيا في النفس مع النعمة المُطهّرة التي تُلقيها على الشخصية بأكملها، بما في ذلك الجسد المادي. وجدتُ نفسي فوق الكون، ليس بمعنى مغادرة الجسد المادي والانطلاق إلى الفضاء، بل بمعنى كوني فوق المكان والزمان والسببية. بدا أن الكارما الخاصة بي قد تلاشت مني كمسؤولية فردية. شعرتُ بحرية غير ملموسة، وإن كانت رائعة. لقد حافظتُ على هذا الكون ولم أكن مُقيدًا به. ازدادت الرغبات والطموحات غموضًا. ضاعت كلُّ كرامات الدنيا مني. بدت الحياة المادية غير مرغوبة. وطوال الأيام التي تلت، كنتُ غارقًا في التفكير العميق، أفكر في أفكارٍ مُجرّدة لدرجةٍ لا تُمثّلها. بدا لي أنني أستوعبُ مكتبةً هائلةً من المعرفة، كلها أقلّ واقعيةً من أكثر الرياضيات تجريدًا. غمرتني سعادةٌ خفيفة، وإن كانت رقيقةً جدًا، إلا أنها كانت قويةً لدرجة أنها أخمدت أشدّ اللذات الحسية. كذلك، استوعبني الشعورُ بألم الدنيا. نظرتُ، كما لو كنتُ، إلى العالم، متسائلًا: "ما الذي يُثير الاهتمام هنا؟ ما الذي يستحقّ العناء؟" لم أجد سوى اهتمامٍ واحد: الرغبة في أن تُدرك النفوس الأخرى ما أدركتُه، ففيه يكمن المفتاحُ الوحيدُ الفعالُ لحلِّ مشاكلها. لم تُبالِ بي مآسي البشر الصغيرة.لقد رأيت مأساة عظيمة، سبب كل المأساة الأخرى، وهي فشل الإنسان في إدراك ألوهيته.

لم نر سوى حل واحد، وهو إدراك هذه الألوهية.*

هذا مقطع طويل وصعب. ومع ذلك، من الواضح أن ميريل-وولف يُعبّر عن نفس البصيرة التي تجلّت لباربرا تاكر وهي تستمع إلى رباعية بيتهوفن. "وجدتُ نفسي فوق الكون... بمعنى كوني فوق المكان والزمان والسببية". "شعرتُ بحرية غير ملموسة، وإن كانت رائعة". لكن الجزء الأصعب هو وصف كيفية وصوله إلى هذه الحالة من النعيم - إدراكه أن الخطأ الأساسي هو النظر إلى الخارج بحثًا عن نوع من الوحي. فجأةً، ندرك أنه حوّل تركيزه من ما نفتقر إليه إلى ما نملكه بالفعل، ثم إلى جوهره. هذا أوصله إلى "النيرفانا" على الفور.

لكن مفتاح التجربة برمتها يكمن بوضوح في المقطع الذي يتحدث عن المأساة الكبرى - فشل الإنسان في إدراك ألوهيته. بالنسبة للآذان الغربية، يبدو هذا الأمر مبتذلاً - ملكوت الله بداخلك وما إلى ذلك. ومع ذلك، فقد فهمه ميريل وولف كحقيقة مباشرة. يذكرنا أن بيتهوفن قال لإليزابيث برينتانو: "يجب على أولئك الذين يفهمون موسيقاي أن يتحرروا من كل البؤس الذي يحمله الآخرون معهم ... أخبر [غوته] أن يستمع إلى سيمفونياتي، وسيدرك أنني أقول إن الموسيقى هي المدخل غير المادي الوحيد إلى عوالم المعرفة العليا التي تفهمها البشرية، ولكن لا تستطيع البشرية فهمها". قد نتذكر أيضًا أن بيتهوفن قال لسكرتير البلاط فون زميسكال: "ليأخذك الشيطان. لا أريد أن أعرف أي شيء عن نظامك الأخلاقي بأكمله. القوة هي أخلاق الرجال الذين يبرزون عن البقية، وهي أخلاقي أيضًا". من الواضح أن بيتهوفن شعر - كما شعر ميريل وولف - أن معظمنا ينظر إلى نفسه باستخفاف شديد. ونتيجة لذلك، نصاب بالإحباط بسهولة ونميل إلى تضخيم الأمور. وقد أصبح هذا التشاؤم المتأصل - كما رأينا في فصل سابق - جزءًا لا يتجزأ من ثقافتنا الغربية: "الإنسان شغف لا طائل منه"، "الحياة البشرية منعزلة، فقيرة، بغيضة، وحشية وقصيرة"، "يموت معظم الرجال كالحيوانات، لا كالبشر". نشعر أن هذا الموقف مبرر بمشاكل الحضارة الحديثة، وسباق الفئران، وارتفاع معدل الجريمة، والتهديد النووي. بالنسبة للإنسان المعاصر، يبدو التشاؤم استجابة منطقية للوجود الإنساني. ومع ذلك، فإن كل تجربة ذروة، وكل ومضة من الشدة الصوفية، تكشف أن هذا هراء. لماذا؟ لأنها تجعلنا ندرك أنفسنا كقوى فاعلة، كـ"محركين"، ككائنات قادرة على إحداث التغيير في الكون. كان هذا جوهر رؤية بيتهوفن لنفسه وجوهر تجربة ميريل-وولف في النيرفانا. يقول داسكالوس: "نحن آلهة، لكننا لا نعي ذلك. نعاني من فقدان ذاكرة نفرضه على أنفسنا".

تُقدم طريقة ميريل-وولف لتحقيق تجربة النيرفانا رؤيةً جوهرية. لقد فعل ذلك بأسلوبٍ بالغ الصعوبة: النظر إلى الداخل، ثم

"تجريد العنصر الذاتي" من "متعدد جوانب الوعي الموضوعي". أي أنه تجاهل كل ما هو "ليس أنا"، وبالتالي نجح في التركيز على "أنا"، مركز الوعي. كان، كما يروي لنا، نوعًا من الظلام، ومرت فترة زمنية قبل أن يدرك أنه "نورٌ وامتلاءٌ مطلقان".

يُفضّل معظمنا، غريزيًا، أسلوبًا أبسط لتركيز الذات. أي شيء يُشعِرنا بإحساس قوي مفاجئ يُنير الذات كما لو كان ومضة برق. قال نيجينسكي، متحدثًا عن هذه الومضة المفاجئة: "الله نارٌ في الرأس". تحدث الومضة نفسها "عندما يُصاب الإنسان بالجنون" و"يُكمل عقله الجزئي". في اليوغا التانترا، يُستخدم الجنس عمدًا لتوليد هذه البصيرة. لكن لهذه الأساليب عيب. ومضة البرق قصيرة جدًا بحيث لا تُتيح لنا فرصة استيعاب ما يُظهره لنا. لهذا السبب يقضي دون جوان وكازانوفا وفرانك هاريس حياتهم في محاولة تكرار التجربة الجنسية ألف مرة: يأملون أن يُدركوا أخيرًا ما ينظرون إليه مع الومضة الألف. ومع ذلك، تميل هذه العملية إلى أن تكون مُحبطة للذات، كما أوضح ميريل وولف. إنهم يبحثون عن "هدف دقيق للإدراك"، شيء يُمكنهم استيعابه. في الواقع، ما يدركه فرانك هاريس في لحظة النشوة الجنسية هو إدراكٌ عبثي بأنه ليس فرانك هاريس. الحقيقة هي: "أنا الله". لكن بعد لحظة، يعود فرانك هاريس، وتصبح هذه البصيرة بلا معنى.

أوضح داسكالوس جوهر المشكلة عندما سأله أحد أتباعه عن معنى الشخصية. أوضح أن هناك شخصيتين: الشخصية الدائمة والشخصية الحاضرة. الشخصية الحاضرة هي "ما أعتقد أنني عليه في هذه اللحظة". أما الشخصية الدائمة فهي "ذلك الجزء من أنفسنا الذي تُسجل عليه التجارب المتجسدة وتُنقل من تجسد إلى آخر":

لنفترض [كما قال داسكالوس] أن الشخصية الدائمة دائرة كبيرة. تخيّل دائرة أخرى خارجها بلا محيط. نُسمّيها الروح، التي هي في الله، في اللانهاية واللانهاية... هناك أيضًا دائرة صغيرة داخل الدائرتين الأخريين، أُسمّيها الشخصية الواعية بذاتها الحاضرة. جميع الدوائر الثلاث لها المركز نفسه... مركز الشخصية الدائمة الحاضرة، وكذلك الروح الواعية بذاتها، هو نفسه.

كلما اتسعت دائرة الشخصية الواعية بذاتها، تغلغلت الشخصية الدائمة فيها. كلما تطورت في المسار الروحي، زاد تأثير الذات الداخلية وسيطرتها على الشخصية الحالية. نقول عادةً، على سبيل المثال، إن هذا الرجل لديه...

ضميرٌ واحدٌ، بينما لا يملكه غيره. في الحقيقة، لا يوجد إنسانٌ بلا مركز.

إذن، مشكلة فرانك هاريس، وهو يدخل هذا المركز ويدرك أن الدائرة تمتد إلى ما لا نهاية، هي أنه يتوقف للحظة عن كونه فرانك هاريس: بعد لحظة، لا يستطيع فهم ما لمحه. فماذا عساه أن يفعل حيال ذلك؟ سيقول داسكالوس إنه يجب عليه أن يستمر في النضج حتى يدرك الحقيقة المتناقضة المتمثلة في أنه ليس شخصيته الحالية. لكن هذه الإجابة ستكون محبطة لنا جميعًا، فنحن نرغب في نصيحة أكثر تحديدًا. البديل - محاولة الانغماس في تجربة صوفية مثل ميريل-وولف - ليس أكثر إرضاءً، لأن التجربة، كما يعترف ميريل-وولف نفسه، تتبخر وترفض العودة عندما نريدها.

حاولتُ خلال هذا الكتاب أن أقترح وجود طريق أكثر واقعية ووضوحًا لهذه الأفكار. فمنذ أفلاطون، أدرك الإنسان الغربي قدرته على صياغة رؤى معقدة بلغة واضحة وبسيطة. وقد عبّر العديد من الفلاسفة العظماء عن أفكارهم بغموضٍ مُريع، ومع ذلك، يستطيع أيُّ مُعلّقٍ ذكيٍّ شرح معانيها بكلماتٍ يفهمها طفلٌ ذكيٌّ إلى حدٍّ ما. وعندما تُقاربُ مشاكل التصوف بنفس الروح، فإنها تبدأ في الظهور بمفارقاتٍ أقلَّ حيرةً.

برز الدليل الأساسي في الفصل الثالث من الجزء الأول من هذا الكتاب: مفهوم "الانقلاب". هذا، كما رأينا، هو السبب الرئيسي وراء ميل نظرتنا إلى السلبية. لدينا ثلاث مجموعات من "القيم": المادية والعاطفية والفكرية. يهدف العقل إلى رؤية عقلانية وموضوعية للعالم، لكنه يتعرض باستمرار لتقويض المشاعر السلبية. عندما نسمح لهذه المشاعر بالتغلب على العقل، تكون النتيجة حالة من "الانقلاب". والعالم، كما يُرى من حالة "الانقلاب"، مكان تافه لا معنى له. يُنتج "الانقلاب" "تأثير سفر الجامعة"، أي الشعور بأن "كل شيء باطل". كما يُنتج ما يُسميه سارتر "التفكير السحري"، وهو ميل يسمح للعاطفة بتشويه حكمنا تمامًا بحيث لا نستطيع التمييز بين الوهم والواقع.

تُرتكب معظم جرائم القتل في حالة من "الانقلاب"، لأن "الانقلاب" ينطوي على فقدان السيطرة. في كتابي "تاريخ إجرامي للبشرية"، أشرتُ إلى أن طاقاتنا تعمل بنظام ثقل موازن، مثل أبواب الجراجات التي تُفتح وتغلق. يمكن الإشارة إلى القوى المعنية بالقوة "ت" - التي ترمز إلى التوتر - والقوة "ج" التي ترمز إلى السيطرة. عندما أشعر بالغضب أو نفاد الصبر أو التعب، تصرخ القوة "ت" طالبةً التحرر، مما يُسبب شعورًا بعدم الارتياح يشبه تمامًا الرغبة الشديدة في التبول. إنها تحاول زعزعة استقراري. من ناحية أخرى،

إذا اهتممتُ بشيءٍ ما اهتمامًا عميقًا، فإنني أتعمد "إخماد" قوى عدم الاستقرار هذه للسيطرة عليها. يمكننا أن نرى أنه عندما دخلت باربرا تاكر في حالة من البصيرة الصوفية وهي تستمع إلى رباعية بيتهوفن، فقد حققت ما يمكن تسميته "حالة من السيطرة". لقد هدأت جميع قوى عدم الاستقرار إلى هدوء عميق.

يبدو كل هذا بسيطًا لدرجة يصعب معها فهم سبب عدم قدرتنا على تحقيق حالة من التحكم كلما استمعنا إلى الموسيقى. يكمن الجواب في جوهر هذه المشكلة. ذلك لأن قيمنا الفكرية لا تزال "مقلوبة". شعورنا الغريزي الكامن هو أن الحياة قاتمة وصعبة، وأن أمرًا فظيعًا قد يحدث في أي لحظة. بعبارة أخرى، مهما بدا الأمر سخيفًا، فإن المشكلة الأساسية هي مشكلة فكرية. ليس الأمر مجرد أن مشاعرنا سلبية، بل أن عقلنا يتفق معها. إن أحكامنا تُصادق على هذه النظرة "المقلوبة" للعالم.

في الواقع، ينبغي أن يكون الحل بسيطًا إلى حد ما. كلما اختفت أزمة بسيطة، أشعر بالراحة وأدرك مدى روعة التخلص من المشكلة. إذا كنت أعاني من ألم أسنان ثم توقف، فأنا أُقدّر بشدة حالة عدم الشعور بالألم. ومن الغريب أنني ممتن لحالة سلبية - عدم وجود ألم أسنان. لو استطعت استخدام خيالي كما ينبغي، لكنت ممتنًا لمئات الحالات السلبية الأخرى: عدم وجود صداع، عدم وجود ألم في الأذن، عدم وجود نقرس في إبهام قدمي... فلماذا يصعب عليّ إذن استخدام هذه الطريقة البسيطة للاستمتاع بالحياة؟

هذا يقودني إلى أهم إدراك حتى الآن. عقولنا تميل إلى قبول اللحظة الراهنة كما هي، دون أي تساؤل. بالطبع نطرح أسئلة عندما نكون تعساء أو متألمين. لكن في وعينا اليومي العادي - ما يمكن أن نسميه "الوعي المحايد" - نقبل اللحظة الراهنة كما لو كانت مكتملة في ذاتها.

يكشف تأمل بسيط أن هذا خطأٌ جسيم. كلُّ غبيٍّ ومتشكِّكٍ هو غبيٌّ لأنه يفترض هذا. قبل بضع سنوات، في قريةٍ كورنيشيةٍ ليست بعيدةً عن هنا، مات رجلٌ كان يتفاخر بأنه لم يغادر القريةَ قطُّ طوال حياته. لم يشعر قطُّ بفضولٍ للذهاب إلى القرية المجاورة، التي تبعد أقلَّ من ميل. كان على ما يبدو شخصًا طبيعيًّا تمامًا، بلا إعاقاتٍ - باستثناء افتقارٍ تامٍّ للخيال. يتخيل المرء أنه عانى من نفس مشكلة صاحب مقهى سارتر في رواية "الغثيان": "عندما يفرغ مقهاه، يفرغ رأسه أيضًا". لطالما بدا له الحاضرُ مُكتملًا بذاته.

الحقيقة هي أن اللحظة الحاضرة دائمًا ما تكون ناقصة، وأن النشاط الأساسي لعقلي هو "إكمالها". تخيل أن كائنًا من مكان ما...

يجد مجرة بعيدة نفسه فجأة، بسبب حادث غريب في الزمكان، مسافرًا في حافلة عبر ميدان بيكاديللي. بالنسبة له، يبدو العالم فوضى لا معنى لها، لأنه لا يستطيع فهم أي شيء يمكنه رؤيته. عندما نرى أنا وأنت رجلاً يرفع عود ثقاب إلى شفتيه، نعلم أنه سيشعل سيجارة فقط، ولن يشعل شعره. عندما نرى امرأة تضع منديلًا على أنفها، نعلم أنها ستنفخه، ولن تمزقه. عندما نرى رجلاً يتسلق سلمًا، نعلم أنه لا يأمل في الوصول إلى السماء. عندما نرى أضواء وامضة تعلن عن معجون أسنان، نعلم أنها لا تعلن نهاية العالم. لا يعرف ساكن نجمنا أيًا من هذه الأشياء. عالمه لا معنى له لأنه لا يستطيع "إكمال" الأشياء. أي شيء ينظر إليه قد يدل على أي شيء.

هذا يجعلنا ندرك أن عملية التعليم هي ببساطة عملية "إكمال" ما نراه. عندما يرن هاتفي، أعلم أن أحدهم يتصل بي، لكن الطفل لا يدرك ما يحدث. عندما أنظر إلى منزل، أعلم أن له جانبين أو ثلاثة جوانب لا أراها، لكن كل ما يعرفه الطفل أنه قد يكون مجرد واجهة. أُكمله في ذهني دون أن أُدرك ذلك. هذا "الإكمال" هو أبسط نشاط لجميع الكائنات الذكية. ولأننا نفعله في كل لحظة يقظة من حياتنا، فإننا نتقبله بتلقائية كنبض قلبنا.

لكن أنشطتنا "الإنجازية" تختلف من لحظة لأخرى. عندما أشعر بالتعب، قد أشاهد التلفاز دون أن أستوعبه: لا أرغب في "إنجازه". من ناحية أخرى، عندما أبدأ عطلتي، يبدو لي العالم مكانًا مثيرًا للاهتمام بشكل استثنائي - لا أفهم لماذا كنت أعتقد أنه ممل. عقلي الآن يُنجز مهمة "الإنجاز" بحماس وكفاءة.

لهذا السبب نتوق جميعًا إلى التجربة. إنها الطريقة الوحيدة لتنمية هذه القدرة على "الإكمال" بالغة الأهمية. الخيال يُساعد، لكنه لا يُغني عنه أبدًا. تخيّل شخصين يشاهدان برنامجًا تلفزيونيًا عن أهرامات مصر؛ أحدهما زار الأهرامات والآخر لم يزرها. بالنسبة لمن زار الأهرامات، يحمل البرنامج بُعدًا إضافيًا من المعنى. فهو قادر على "إكمال" ما يراه على الشاشة.

بالطبع، قد نُكمل الأمور بشكل خاطئ تمامًا. يتخيل المصاب بجنون العظمة أن العالم بأسره مُتورط في مؤامرة ضده: يعتقد أن عامل تنظيف النوافذ في الجهة المقابلة من الشارع يتجسس عليه ليُبلغ وكالة المخابرات المركزية. إنه يُكمل اللحظة الحالية، لكنه يُضيف بعض الافتراضات غير المبررة. يُدرك هذا المثال أن "الإكمال" ليس طبيعيًا وفطريًا كما يبدو. إنه إلى حد ما نشاط فكري دقيق. حتى "الإكمال" رواية بوليسية، عليّ استخدام قدراتي العقلية. لكن هذا النوع من "الإكمال" واضح تمامًا ولا يُمثل أي مشكلة. إنه...

إنَّ "الإكمال" الغريزي هو ما يجعل الحياة صعبة للغاية، إذ لدينا عادة راسخة في تقبُّل اللحظة الحالية على أنها كاملة في حد ذاتها، وبالتالي اعتبارها أمرًا مسلمًا به. الحياة هي ما تبدو عليه. إذا شعرتُ بالملل، فذلك لأن الحياة مملة. إذا شعرتُ بالتعب، فذلك لأن الحياة مُرهقة. إذا شعرتُ بالارتباك، فذلك لأن الحياة مُربكة. أنظر إلى العالم بسلبية كطفل رضيع، وأتساءل لماذا، في المجمل، يبدو كل شيء بلا معنى على نحو غريب. عبّر كيركيغارد عن هذا الارتباك عندما كتب:

يُدخل المرء إصبعه في التربة ليعرف أي أرض هو فيها؛ أُدخل إصبعي إلى الوجود - لا رائحة له. أين أنا؟ من أنا؟ كيف جئت إلى هنا؟ ما هذا الشيء الذي يُسمى العالم؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ من الذي أغواني إلى هذا الشيء، ويتركني الآن هناك؟ ... كيف أتيت إلى العالم؟ لماذا لم يُستشار... وإذا أُجبرت على المشاركة فيه، فأين المخرج؟ أود رؤيته.

كُتبت هذه الكلمات عام ١٨٤٣. وعندما "اكتُشف" كيركيغارد، بعد قرن تقريبًا، وجد النقاد موقفه "حديثًا" بشكلٍ ملحوظ، وأصبح - مع كافكا - أحد أبطال الثقافة الوجودية. ومع ذلك، يمكننا أن نرى بوضوح أن شعور كيركيغارد بالحيرة نشأ من سوء فهم بسيط. فهو يُذكرنا برجل يدفع بابًا بجنون، مُقتنعًا بأنه مُغلق عليه، وفشل في إدراك أنه يُفتح إلى الداخل. مشكلته هي ببساطة فشل في "الإكمال". يتضح هذا إذا فكرنا في دوستويفسكي أمام فرقة الإعدام، مُدركًا فجأةً أن الحياة مثيرة للاهتمام بلا حدود - وهو شعور عبّر عنه في "الجريمة والعقاب" عندما يقول بطله إنه يُفضل الوقوف على حافة ضيقة إلى الأبد، في الظلام والعاصفة، على الموت دفعةً واحدة. في خضمّ الأزمة، يُحفّز عقله للقيام بعمله المُناسب، ألا وهو "الإكمال". وبمجرد أن يفعل ذلك، يُدرك أن الحياة ليست بلا معنى، بل هي آفاقٌ لا متناهية من المعاني.

هذه، أكرر، هي المشكلة المحورية للوجود الإنساني: نميل إلى قبول اللحظة الراهنة على أنها "مكتملة بذاتها"، كلوحة فنية على جدار معرض فني. وبالطبع، هناك لحظات يمنحنا فيها القدر ثراءً ساحرًا من التجارب، لدرجة أن اللحظة تكاد تكون مكتملة بذاتها. طفل في يوم عيد الميلاد، عاشق يُقبّل الفتاة التي يعشقها، متسلق جبال على قمة إيفرست - هؤلاء الناس يختبرون إحساسًا آسرًا بثراء الحياة، لدرجة أن مجرد التفكير في الهزيمة أو اليأس يبدو ضربًا من الجنون. لكن هذه اللمحات من "النظرة الشاملة" نادرة. في أغلب الأحيان، علينا أن نكون...

الرضا برؤية ثاقبة و"إكمالها" من داخلنا. لهذا السبب يتوق جميع الشباب للسفر، والوقوع في الحب، وتجربة الغزو: لأنهم سيجدون حينها المواد اللازمة "للإكمال" مخزنة في مخزن خلف أعينهم. هذه هي النظرية على أي حال. بينما أجلس خارج مقهى باريسي في صباح مشمس، أشم رائحة غولواز وأحمص حبوب البن وأراقب الحشود المارة، يبدو لي الآن أن القدر قد منحني بصيرة ستنقذني دائمًا من اليأس - أو حتى الاكتئاب. كل ما عليّ فعله هو أن أتذكر كم يمكن أن تكون الحياة رائعة، وسأدرك أن النكسات المؤقتة لا أهمية لها. في مثل هذه الحالة الذهنية، حتى أسوأ البؤس والإذلال يُنظر إليه على أنه مجرد تحديات مثيرة، مثل الأمواج العاتية لراكب الأمواج.

لطالما رأى الفنان أن من واجبه تذكير نفسه بهذه اللحظات التي يرى فيها أن "كوارث الحياة لا ضرر منها". تساءل وردزوورث:

أين فرُّ بريقُ الرؤية؟ أين هو الآن، المجدُ والحلم؟

لكنه كان يعتقد أن الحل يكمن في "التذكر في هدوء". وكذلك فعل بروست. تكمن المشكلة في أن استعادة اللذة المفقودة أصعب مما تبدو: وكما لاحظ مارسيل بروست: "إن محاولة استعادتها جهدٌ عبثي؛ فكل جهود عقولنا ستذهب سدىً".

قد يكون في ذلك بعض الحقيقة، ولكن ما إن نفهم دور "الإكمال" حتى ندرك أنه لا يُذكر. والآن يُمكننا فجأةً إدراك الأهمية الهائلة لمفهوم "الانقلاب". "الانقلاب" هو الشعور بأهمية تقلبات الحياة، وأن كوارثها بعيدة كل البعد عن كونها حميدة، وأن قصرها حقيقيٌّ للغاية. باختصار، إنها حالةٌ فرضت فيها القيم العاطفية قصيرة النظر نفسها على العقل. يحدث هذا لأن القيم العاطفية والفكرية لدى معظمنا تُشكلان نفس الوزن تقريبًا - كنصفي ساعة بيض قديمة الطراز. مشكلتنا، كما نرى في كل لمحة تفاؤل، هي ببساطة إضافة ثقل فكري حتى لا نعود قادرين على قلب الأمور رأسًا على عقب - أو على الأقل، حتى نتمكن من تصحيح أنفسنا فورًا عندما نقلبها. تكشف موسيقى بيتهوفن عن بلوغه هذه الحالة، ولذلك قال لإليزابيث برينتانو: "من يفهم موسيقاي يجب أن يتحرر من كل المآسي التي يجرها الآخرون معه". عندما واجه بيتهوفن مشاكل من شأنها أن تجعل الرومانسيين الآخرين ينفجرون بالبكاء، كان قويًا بما يكفي ليمسك بمؤقت البيضة ويضبطه على الوضع الصحيح. لكن الأمر لم يكن مجرد...

مسألة قوة عاتية كالدببة: يكمن السر الحقيقي في بصيرته الفكرية، إدراكه الراشد أن معظم المشاكل التي تُقلق البشر هي مجرد تفاهات طفولية. تكمن قوة موسيقى بيتهوفن في تفاؤلها الكامن: ليس تفاؤلاً عاطفياً أو مزاجياً، بل بصيرة فيلسوف وازن الحياة بميزان الموضوعية، وقرر أن الخير يفوق الشر بكثير.

ومع ذلك، ليس من الضروري أن تكون بيتهوفنًا أو حتى فيلسوفًا لتُدرك هذه البصيرة. إنها تأتي مع كل تجربة قمة: إدراك أن معظم مشاكلنا سببها "الانقلاب". كلما شعرنا بالبهجة، نُدرك أن الحل يكمن ببساطة في ترجمة هذه البهجة إلى مصطلحات فكرية - كلمات وأفكار - ثم نثق بالعقل. من هنا فصاعدًا، يجب أن نتعلم القيام بعملية "الإكمال" بتأنٍّ واعي، مع يقين راسخ بأنه يُقدم لنا الحل الصحيح. عندما نُدرك هذه الحقيقة، تكون النتيجة هي البصيرة التي أطلق عليها بوذا اسم "التنوير". إنها إدراك أن معظم المعاناة غير ضرورية على الإطلاق وأننا حمقى لتحملها. يكفي أن نُدرك هذه البصيرة حول "الإكمال" و"الانقلاب" لندرك أن معظم معاناة الإنسان هي من صنع أيدينا. الآلية النفسية المعنية مماثلة لآلية التحول الديني، باستثناء أن هذا التحول هو إدراك واضح وموضوعي، دون أي دلالة على "الإيمان" أو الاعتقاد بما لا يُمكن إثباته.

نتيجة هذه البصيرة ليست حالة من النشوة الدائمة، بل إدراك هادئ بأن الحياة ليست صعبة ولا خطيرة ولا مَغْرِقة، وأن معظم المشاكل التي تواجهنا يمكن حلها باستخدام ما يمكن تسميته "قوة الإرادة البناءة". يرتكز هذا على اليقين بأننا إذا تصرفنا بحكمة وعقلانية، سنحقق ما ننشده. معظم مشاكلنا هي مجرد أشباح خفية خلقها "الانقلاب".

كيف ترتبط هذه الرؤية بـ"الرؤية الخفية" التي حاولتُ شرحها في هذا الكتاب؟ بدايةً، يجب أن يكون واضحًا أنها تتوافق تمامًا مع التجارب الصوفية التي وصفتها آن بانكروفت، ووارنر ألين، وأرنولد توينبي، وميريل-وولف، ودالي كينغ، وغيرهم. جوهر رؤيتهم دائمًا هو شعورٌ بـ"أخبارٍ سارةٍ سخيفة" تنبع من "نظرةٍ شاملة" مفاجئة للحياة والتاريخ. غالبًا ما يصاحب ذلك شعورٌ بالشفقة على البشر لعجزهم عن إدراك أن معظم بؤسهم وقلقهم من صنع أنفسهم، ولـ"فشلهم في إدراك ألوهيتهم". من ناحية أخرى، إذا كانوا مقدسين، فلا داعي للشفقة، لأنهم سيكتشفون ذلك عاجلًا أم آجلًا.

تُهدر كمية هائلة من الطاقة الحيوية في حالات "الانقلاب"، ويُحرر "التنوير" هذه الطاقة لاستخدامات أكثر إثارة للاهتمام. والنتيجة، كما لاحظت آن بانكروفت، هي أن "كل شيء يتحول". "كنت في حالة مختلفة"

حالة وعي كاملة... كان هناك شعور بالوضوح، بفراغٍ رائعٍ ونافعٍ للغاية. هذا الفراغ هو الفراغ المحيط برجلٍ يقف على قمة جبل. ولكن لأن الإدراك ينبض بالحياة فجأةً بكل هذه الطاقة الإضافية، يبدو كل شيء أكثر حيوية. إن شعور دالي كينج بأن الطوب كان يتوهج بالحياة يُشبه إلى حد كبير رؤى ألدوس هكسلي تحت تأثير الميسكالين.

هذا بالطبع مفهوم تمامًا: إنه مجرد نسخة مكثفة من مشاعر كومبتون ماكنزي وهو ينتظر حبيبته. ما يصعب فهمه أكثر هو بعض القوى الأخرى التي يبدو أنها تنشط من خلال البصيرة: على سبيل المثال قدرة ديريك جيبسون على الرؤية داخل الأشجار والعشب، كما لو كان كل شيء "مضخمًا إلى ما لا نهاية". من الواضح أن هذه نسخة أخرى من تجربة ألبرت تاكر في قدرته على رؤية كل خيط في معطف الرجل التويد، أو كل شعرة على رأس زوجته وهو ينظر إلى "شكلها النجمي" على السرير. يبدو من الواضح أن قوة أخرى من قوة الرؤية قد تم تنشيطها، وهي قوة لا ندركها عادةً. وصفت إيلين غاريت هذا بأنه نوع من الاستبصار. "يرى المرء الطريق بأكمله تمامًا ... ومداه البعيد واضح بدقة مثل المناطق القريبة ..." لكننا رأينا أيضًا، في حالة توينبي، أن فيض البصيرة يبدو أنه يُبيد الزمن، مما يسمح له برؤية معركة دارت قبل أكثر من ألفي عام. وسواء كانت هذه "الرؤية" مجرد حالة من الخيال المُكثّف، فهذا أمرٌ غير ذي أهمية؛ فنحن لا نزال نتحدث عن التنشيط المفاجئ لـ"قوى خفية". وكما رأينا في الفصل المتعلق بـ"الانزلاقات الزمنية"، يبدو أن هذه تشمل القدرة على العودة إلى الماضي. باختصار، القوى المُنشّطة هي قوى مُتنوعة تُمكّننا من قراءة "المعلومات" المُشفّرة في الكون من حولنا. هناك صلة واضحة ومباشرة بين "التنوير" وما يُسمى بالقوى الاستبصارية. وهذه القوى بدورها هي ببساطة امتداد لقدرتنا الطبيعية على "الإكمال".

يبدو إذًا أن لورانس ليشان كان مُحقًا: فالكون الذي يراه العراف يتشابه كثيرًا مع الكون الذي يراه الصوفي، وكلاهما أكبر وأكمل من الكون الذي نراه نحن. تستند رؤية المُتشكك إلى فكرة خاطئة: وهي أن الصوفي - أو العراف - يُقدم بديلًا للواقع العادي الذي يحيط بنا. اعترض أحد أتباع داسكالوس قائلًا: "الواقع المادي هو الشيء الوحيد الذي أعرفه موجودًا. إنه ما أستطيع الشعور به، ولمسه، ورؤيته، وشمه". فأجاب داسكالوس: "لا يوجد شيء أكثر تضليلًا من الحواس الخمس". يعني أن افتراضنا بأن الحواس الخمس "تكشف" عن الواقع خاطئ. فهي تكشف فقط عن الواقع المحدود للحاضر المباشر، وهذا لا معنى له بالنسبة لنا ما لم "تُكمله" عقولنا. حواس الصوفي والعراف أشبه بأبواب تُفتح على مصراعيها أكثر من أبواب البشرية العادية. ماذا؟

إنهم يدركون أن هذا ليس واقعًا بديلًا بل هو امتداد للواقع الطبيعي.

قليلون هم من يختلفون على أن حالهم سيكون أفضل لو استطاعوا إحداث تجارب ذروة واستنارات صوفية بإرادتهم، واختبار الاستبصار والتنبؤ عند الضرورة. أما الأمر الأصعب تحديده فهو ما إذا كان حالنا سيكون أفضل لو استطعنا رؤية الأرواح والتواصل مع الموتى. وهنا تكمن الحلقة الأساسية في سلسلة الجدل، وهي ظاهرة "الخروج من الجسد". وتنتشر روايات هذه التجربة على نطاق واسع، مما يجعل من الصعب إدراجها ضمن "قدراتنا الخفية". حتى أن بعض الكُتّاب يقدمون تعليمات مفصلة إلى حد معقول حول كيفية تحقيقها. إليكم على سبيل المثال مقطعًا من كتاب "اعترافات دماغ جانوس" لجون هيرون:

قبل سنوات، عشتُ وحدي في كوخٍ ناءٍ في جزيرة مان، ومن خلال ضبط نظامي الغذائي، وممارسة الطقوس، والتأمل، تمكنتُ لفترةٍ من التحكم في عملية الخروج من الجسد المادي في جسد الكا. [يستخدم هيرون هذا المصطلح للإشارة إلى "الجسد النجمي"]. سأصف هذه التجربة في زمن المضارع، كما لو كانت تحدث الآن.

أستلقي على السرير، لا يهم في أي وضعية، طالما أنني مسترخٍ تمامًا، عقليًا وجسديًا. ثم أتخيل كل الطاقة في جسدي تُجذب إلى نقطة مركزية حول منطقة الضفيرة الشمسية: أسحب الطاقة بوعي من جميع الأطراف، وأركزها وأكثفها في هذا المكان الواحد - وهو، بالطبع، فضاء الكا داخل الجسد المادي.

يجب أن أُحافظ على هذه القوة الواعية للطاقة في منطقة الكا من الضفيرة الشمسية، دون أي تشتيت للانتباه، أو أي "تسرب" للطاقة إلى الأطراف. يكمن التحدي في الحفاظ على التركيز لفترة كافية، في حالة تجمع بين اليقظة الشديدة والاسترخاء العميق. ينقبض نشاط الوعي إلى نقطة مركزية، دون الانجراف إلى الأطراف.

- التي تبقى خاملة تمامًا، مُجردة من كل شيء. ثم، بعد فترة من الشحن، تبدأ عملية الخروج.

الخروج تجربةٌ دراماتيكية. هناك اندفاعٌ حلزونيٌّ قويٌّ وسريعٌ جدًا من الطاقة، دوامةٌ شديدةٌ من الحركة في فضاء الكا، تدفع وعيي من منطقة الضفيرة الشمسية إلى أعلى وإلى خارج رأسي. الأمر أشبه بأن أُحمل بعيدًا في زوبعةٍ هائجة.

لا يُمكن الخلط بين هذه العملية والخيال أو الوهم أو أي شيء من هذا القبيل. إنها مواجهةٌ مُذهلةٌ مع الواقع العميق للفضاء الداخلي. تُفرّقني الدوامة القوية أو الطاقة الخفية بلا رحمة عن ركائز جسدي المادي الآمنة، فأُبحر إلى العالم الآخر.

ويواصل هيرون قائلاً:

بمجرد أن أتجاوز الخوف وأستسلم لطاقة العملية الجبارة، أخرج من الجسد المادي وأبدأ بالسفر. لطالما كانت تجربتي في السفر إلى مجالات الكا هي التحرك بسرعة فائقة، في ما يشبه رياح طاقة متدفقة، مع حجب جميع حواس الكا لديّ، فلا أدرك نوع الفضاءات التي أسافر عبرها. أشعر فقط بوجود من يقودونني في الرحلة، دون أن أمتلك أي إدراك.

....

وهنا، كما في حالة آرثر إليسون، نواجه فكرة تورط نوع من "الكيانات الحامية". (نتذكر أن إليسون شعر بأيدٍ تُمسك برأسه وتُرشده بقوة إلى جسده). لا تُصادف هذه الأيدي دائمًا في أوصاف السفر "خارج الجسد"، ولكنها غالبًا ما تُشير إلى أنها جزء طبيعي من هذا "العالم النجمي".

لكن هل هي موجودة حقًا؟ لا شك أن "السفر النجمي" ينطوي على عنصر من الخيال: على سبيل المثال، يوضح داسكالوس أنه للوصول إلى مكان ما على الجانب الآخر من العالم، يكفي "المسافر النجمي" أن يتخيله، فيُنقل إلى هناك. لذا، يُمكن القول إن "تجارب الخروج من الجسد" هي ببساطة نسخة من "الخيال النشط" عند يونغ، وأن الكيانات التي قد تُصادف هي في الواقع "نماذج أولية للاوعي الجمعي"، مثل فليمون وسالومي. لا يوجد سبب يمنعنا من تبني هذا الرأي ورفض المضي قدمًا: أي أنه يُمكننا - مجازيًا - وضع حدٍّ لـ"السفر النجمي" وتجاهل جميع الأدلة على وجود الأرواح والأرواح الشريرة والتواصل مع الموتى. في هذه الحالة، يُمكننا تعريف البحث في الخوارق ببساطة بأنه دراسة "القوى الخفية" للعقل اللاواعي - وهي وجهة نظر يُمكن وصفها بنظرية "الإنسان" للخوارق. وإذا كنا مستعدين للاعتراف بوجود "اللاوعي الجماعي" عند يونغ، فلا بد من الاعتراف بأن الحجج المؤيدة لنظرية الإنسان قوية جدًا. فالأرواح، وفقًا لهذه النظرية، من صنع الخيال البشري، استجابةً لخوف الإنسان الغريزي العميق من الموت.

تبدو لي نظرية الأنثروبولوجيا، إجمالاً، معقولة ومُرضية، ويبدو أن غالبية باحثي الخوارق يتفقون معها. مع ذلك، لستُ راضياً عنها، فمعظمهم، إن سُئلوا سراً، سيُقرّون بميلهم لقبول حقيقة "البقاء". قبل وفاتها بسرطان الرئة بفترة وجيزة، سألتُ أنيتا غريغوري - المعروفة بكونها من أكثر الباحثين المعاصرين تشككاً - إن كانت تؤمن بالحياة بعد الموت. فأجابت:

أنت محق تمامًا في قولك إنني أُعتبر من أكثر الباحثين صرامةً في SPR. دعني أحاول شرح ما أقصده بذلك. بالنسبة لي، الصرامة تعني الحذر والضمير الحي فيما يتعلق بالأدلة، والتدقيق في المنهجية، والبحث عن أي إخفاقات محتملة، سواءً كانت لي أو للآخرين. هذا النوع من الصرامة بالنسبة لي مسألة مبدأ، وغالبًا ما يُوقعني، للأسف الشديد، في صراع مع أشخاص أُحبهم وأتفق معهم في أمور أكبر.

مع ذلك، هناك معنى آخر تمامًا لكلمة "قاسية"، وهو ما لا أستحقه إطلاقًا. إنه معنى أن تكون إيجابيًا اختزاليًا، تؤمن بأن العالم مجرد سلسلة من الحوادث والدفعات والجذبات السببية. من وجهة نظري، هذه فلسفة حقيرة وهزيلة لا أؤمن بها. أعتقد أن العالم مكان غامض ورائع للغاية، ولا نعرف إلا جزءًا ضئيلًا من خصائصه.

يجب أن أقول إنني لم أُجرِ دراسةً مُتخصصةً جدًا عن البقاء على قيد الحياة، لكنني مُعجبٌ جدًا بالأدلة المُؤيدة لها. لا أقصد فقط الأدلة الروحانية التقليدية من نوع SPR (مع أن معظمها ممتاز)، بل أقصد أيضًا أدلة تجربة الاقتراب من الموت الأحدث. هناك أيضًا بعض بيانات التناسخ التي يصعب رفضها على الإطلاق؛ مع أن الأدلة في حالتها تبدو مُشيرةً إلى حادثٍ عرضيٍّ أكثر من كونها حدثًا مُنتظمًا.

باختصار، أميل إلى تجاوز آلان غولد قليلاً، وأقول إنني أميل إلى الإيمان ببقاء الفرد على قيد الحياة بعد الموت. صحيحٌ أنه لم يُثبت بعد، ولكن نادرًا ما يُثبت أي شيء، أو يُحتمل أن يُثبت، مما يقع على هامش المعرفة.*

في تجربتي الخاصة، سيكون معظم الباحثين على استعداد للإدلاء بمثل هذا الاعتراف الحذر، على الرغم من أن قلة منهم ستكون سعيدة بالاقتباس. والسبب واضح. إن الأدلة على "القوى الخفية" - التخاطر والاستبصار وحتى الاستبصار - قوية جدًا بالفعل، وسيكون معظم الأشخاص العقلانيين على استعداد للاعتراف بأن الإيمان بها لا يتعارض مع الموقف العلمي. لكن الرجل الذي يعترف بالإيمان بالتواصل مع الموتى معرض لخطر وصفه بالروحاني ورفضه باعتباره عاطفيًا ساذجًا. حدث هذا في عشرينيات القرن العشرين للسير أوليفر لودج والسير آرثر كونان دويل: كان هناك شعور عام - لا يزال قائماً - بأنهما قد أصبحا ضعيفي العقل. ما لم يُدرك عمومًا هو أن كليهما لم يقتنعا في النهاية إلا بعد سنوات عديدة من الشك. كان لودج مهتمًا بالتخاطر منذ عام 1884؛ ولم يعترف أخيرًا إلا في عام 1908 بقبوله البقاء على قيد الحياة. ظل صديقه كونان دويل غير مقتنع؛ ولم يكن حتى عام 1915 عندما تلقى أدلة دامغة على نجاة صهره مالكولم ليكي، الذي قُتل في مونس، واعترف باعتناقه المسيحية.

الإيمان بالحياة بعد الموت.

لا شك أن هذا هو السبب الذي دفع يونغ لقضاء معظم حياته مُصرّاً على أن جميع الظواهر "الخفية" يُمكن تفسيرها من خلال العقل الباطن، وأنه لم يمرّ قط بتجربة مباشرة تُقنعه بخلاف ذلك. ولم يُقرر حرق سفنه والاعتراف باهتمامه الدائم بالظواهر الخارقة للطبيعة وإيمانه بالحياة بعد الموت إلا بعد سقوطه العرضي عام ١٩٤٣، وهو في الثامنة والستين من عمره، والذي أوشك على الموت. كان موقفه السابق، بلا شك، حذراً.

ومن المثير للدهشة أن حتى تي إس إليوت تخلى عن موقف الأرثوذكسية الصارمة قبل بضع سنوات من وفاته (في عام 1965) واعترف بإعجابه برودیولف شتاينر:

أعتقد أن الحاضر سيؤدي تلقائيًا إلى ما يشبه انفصال الأفراد عن أحداث الزمن. سيقفون على أقدامهم، ويبحثون من أعماق أنفسهم عن مسارات جديدة، مسارات روحية.

يبدو لي أن غوته، على سبيل المثال، كان يتمتع بنطاق وعي يفوق بكثير نطاق وعي معاصريه في القرن التاسع عشر. وقد أيد رودولف شتاينر هذا الأمر صراحةً، وأنا كذلك.

في سياقٍ ما، للعلم الذري معنى، أي من حيث كونه في أيدي رجالٍ عاجزين عن التعامل معه. ليس له أي أهميةٍ على الإطلاق لتقدم البشرية. أرى مسار تقدم الإنسان المعاصر في انشغاله بذاته، بجوهره، كما أشار رودولف شتاينر.

ولكن هذه الكلمات الرائعة قيلت في بث مباشر على إذاعة نوردويست دويتشر روندفونك الألمانية في 26 سبتمبر/أيلول 1959، وظلت غير مذكورة في إنجلترا أو أميركا.

لا شك أن إليوت كان سيُصاب بالذهول لو استطاع التنبؤ بأن العلم الذري الذي كان ينظر إليه بشكٍّ كهذا سيُسفر، خلال ربع قرن، عن نظريةٍ تتفق جوهريًا مع شتاينر. كان هذا هو "المبدأ الأنثروبي" الذي تناولناه بإيجاز. ويستحق هذا المبدأ دراسةً أكثر تفصيلًا في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

*ج. دالي كينج، حالات الوعي الإنساني (1963)، ص 120.

*فرانكلين ميريل وولف، مسارات إلى الفضاء، مجلة تجريبية، ص 4-5.

*رسالة إلى المؤلف.

6
نحو المنطقة المجهولة

بمجرد أن بدأ الإنسان بدراسة السماء، توصل إلى استنتاج أن أرضنا هي مركز الكون. وبما أن الإنسان هو بلا شك أذكى مخلوق على الأرض، فلا بد أنه أهم مخلوق في الخليقة.

في عام ١٥١٢، أدرك أحد كهنة الكنيسة، ويُدعى نيكولاس كوبرنيكوس، أن العديد من ألغاز علم الفلك يمكن حلها بافتراض أن الشمس، لا الأرض، هي مركز الكون. ولأنه كان خجولاً، فضّل عدم نشر الفكرة، على الرغم من أن الساعد الأيمن للبابا، الكاردينال كابوا، حثّه على ذلك. وأخيرًا، ظهر كتابه "حول دورات الأجرام السماوية" وهو على فراش الموت.

عمومًا، كانت شكوكه في محلها. ومع تزايد قبول النظرية الجديدة تدريجيًا، أدرك العلم أن الإنسان أقل أهمية مما كان يظن. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان معظم العلماء قد تقبّلوا فكرة أن الإنسان مخلوق عرضي وُلد على كوكب غير مهم، يدور حول نجم ثانوي. مال رجال الدين إلى تحدي هذه الرؤية. لكن لم يبدأ العلم في إثارة اعتراضاته الخفيفة إلا عام ١٩٧٤.

في ذلك العام، صاغ عالم الفلك براندون كارتر، من مرصد باريس، ما أسماه "المبدأ الأنثروبي الضعيف". وقد نصّ هذا المبدأ، في الواقع، على ما يلي: "حسنًا، هناك أمرٌ واحدٌ يتعلق بالكون - ما كان لأحدٍ أن يرصده لو لم يخلق الراصدين أصلًا. لذا، في هذا الصدد على الأقل، نحن محظوظون". بعبارة أخرى، ربما يكون قد فعل ذلك عن طريق الصدفة، ولكنه فعل ذلك بالفعل. لذا، لا داعي لاعتبار أنفسنا لا وجود لهم على الإطلاق.

لكن عندما نتحدث عن "صدفة"، فإننا نستخدم كلمة لا مكان لها في العلم. إذا كان الكون آلة، فلا وجود للصدفة: كان لا بد أن يحدث كل شيء كما حدث. وهذا في حد ذاته يُشبه اللغز. إذا تخيلنا إلهين يجلسان في "فضاء فائق بلا أبعاد" ويناقشان فكرة خلق كون، يمكننا أن نرى أن أمامهما عددًا لا نهائيًا من الخيارات: "ماذا عن وزن الإلكترون - ماذا سنصنع منه؟ ماذا عن سرعة الضوء؟ ماذا عن قوة الجاذبية؟ والقوى الكهرومغناطيسية..." لو كان أيٌّ من هذه مختلفًا، لما وُجد الكون كما نعرفه. لكن هذه "الثوابت" لم تكن...

مختلف، وظهر كوننا. ومع مرور الوقت، هو من أوجدنا. لو تغير واحد فقط من هذه الثوابت، لما كنا هنا أيضًا.

دفعت اعتبارات كهذه كارتر إلى صياغة ما أسماه "المبدأ الإنساني القوي"، الذي ينص على أن الكون كان على هذا النحو الذي استلزم تطور الحياة. قد يبدو هذا للوهلة الأولى تصريحًا مثيرًا للجدل، يكاد يكون دينيًا في دلالاته. لكن من يقرأ الجمل السابقة مجددًا سيدرك أنها نتيجة منطقية تمامًا لحجتنا العلمية.

قبل أن يفكر كارتر في مبدأ الأنثروبولوجيا بوقت طويل، كان العلماء على دراية ببعض الغرائب المثيرة للاهتمام حول العلاقة بين الإنسان والكون. على سبيل المثال، كوكبنا مُهيأ تمامًا لاحتضان الحياة. كان لا بد أن تكون درجة حرارة الشمس مناسبة تمامًا: لو كانت أعلى أو أقل ببضع درجات لما وُجدت حياة. كان لا بد أن تكون الجاذبية بالقوة المناسبة تمامًا: لو كانت أقل قليلًا لما وُجد غلاف جوي؛ ولو كانت أعلى قليلًا لما كانت الكائنات الحية قادرة على الحركة. الحياة على الأرض في حالة توازن، ولو كان علماء الدين في العصر الفيكتوري على دراية بهذا الأمر لاستخدموه بلا شك دليلًا على أن الله خلق الأرض خصيصًا للإنسان. وقد سُمي هذا "تأثير الضبط الدقيق"، وهو ينطبق على الكون بأسره: باختصار، يبدو الكون نفسه مُهيأً بشكل فريد لوجود الحياة. أشار عالم اللاهوت ويليام بيلي في القرن الثامن عشر إلى ساعته كدليل على وجود الله، مجادلًا بأنه حتى الإنسان البدائي سيدرك أن لهذه الآلة المعقدة خالقًا، وأن هذا ينطبق أكثر على الإنسان. حجة الضبط الدقيق متشابهة في بعض النواحي، إلا أن المقارنة الأفضل ستكون أشبه بأحجية ضخمة، كل جزء منها يتناسب تمامًا مع الجزء الذي يليه. تتشابك الثوابت الفيزيائية للكون بهذه الطريقة تحديدًا. وكانت إحدى النتائج الحتمية لذلك هي خلق الحياة.

حتى الآن، ظلت الحجة محصورة في حدود العلوم المادية الأكثر صرامة: فنحن نقول فقط إن الحياة هي أحد الآثار الجانبية الحتمية لكون مثل كوننا. لكن بعض العلماء - مثل فريد هويل والكيميائي لورانس هندرسون - ذهبوا إلى أبعد من ذلك وجادلوا بأن الكون يبدو مناسبًا بشكل غير معقول لوجود الحياة. في خمسينيات القرن الماضي، كان هويل يعمل على كيفية تكوين العناصر في قلب النجوم. ولاحظ أنه من أجل تكوين الكربون - العنصر الأساسي للحياة - يجب أن تصطدم نواتا هيليوم، وهو احتمال مستبعد مثل اصطدام كرتي بلياردو على طاولة بلياردو بحجم الصحراء الكبرى. ولكن عندما يحدث هذا، يبدو أن الذرة الجديدة تجذب ذرة هيليوم ثالثة لتكوين الكربون: لا يوجد عنصر آخر يتصرف بهذه الطريقة. علاوة على ذلك، إذا اصطدمت ذرة هيليوم أخرى بالكربون، فإنها تنتج الأكسجين، وهو عنصر أساسي آخر للحياة. فلماذا لم...

هل تحول كل الكربون في الكون إلى أكسجين؟ لأن القوى المعنية غير متناغمة بشكل دقيق لدرجة أن نصف الكربون فقط يتحول إلى أكسجين - وهي حادثة سهلة للغاية لنشأة الحياة. توصل هويل إلى استنتاج مذهل مفاده:

يشير التفسير المنطقي للحقائق إلى أن "مشرفًا" قد تلاعب بالفيزياء - وكذلك بالكيمياء والأحياء - وأنه لا توجد "قوى عمياء" جديرة بالحديث عنها في الطبيعة. لا أعتقد أن أي فيزيائي فحص الأدلة سيعجز عن استنتاج أن قوانين الفيزياء النووية قد صُممت عمدًا مع مراعاة العواقب التي تُحدثها داخل النجوم.

هذا لا يفصلنا إلا خطوة واحدة عن القول بأن هذه القوانين صُممت لإنتاج الحياة. هذا استنتاجٌ مُذهل، ولكنه ليس مُجسّدًا تمامًا كحجة بيلي حول الساعة. عندما نضيف إليه مجموعة الأدلة المُثيرة للإعجاب حول ضبط الكون بدقة، يبدو افتراضًا مُبررًا - وإن كان مجرد افتراض.

كما رأينا سابقًا (ص ٢٤٢)، فقد ذهب البروفيسور جون ويلر بهذه الحجة خطوةً أبعد من ذلك بكثير. تستند حجة ويلر إلى مبدأ عدم اليقين لهايزنبرغ. أبسط تفسير لهذا المبدأ هو أنه لا يمكننا معرفة كلٍّ من موضع وسرعة الإلكترون (أو الفوتون) لأنه لرصدهما، علينا "التداخل" معهما. يشبه الأمر إلى حدٍّ ما محاولة رصد تكوّن قطعة فيلم بتسليط ضوء قوي عليها: فالتعريض يُدمّر الصورة. ومع ذلك، يُصرّ ويلر والعديد من علماء فيزياء الكم الآخرين على أن مبدأ هايزنبرغ يعني أكثر من ذلك بكثير. إنه يعني - بحسب بور وويلر - لا مكان للإلكترون حتى نكشفه برصده. وهذا يعني بدوره أننا نخلقه برصده، لأنه ما لم نرصده، فهو لا وجود له في أي مكان محدد. هذا التفسير لمبدأ هايزنبرغ قاد ويلر إلى موقف غريب - يُذكرنا بالأسقف بيركلي - وهو أننا قد نخلق الكون بأكمله برصده: فالكون، في النهاية، مكون من إلكترونات.

شرح ويلر وجهة نظره بوصف لعبة عشرين سؤالاً لعبها ذات مرة في حفل عشاء. يُطرد شخص من الغرفة: يُختار شيء ما، ثم يُعاد إدخال الضحية إلى المستشفى ويُطلب منه طرح عشرين سؤالاً لتحديد طبيعة الشيء. لاحظ ويلر أن أصدقاءه كانوا يبتسمون عند دخوله، فظن أنهم قرروا المزاح معه. ما حيره هو أنه عندما طرح الأسئلة، كان هناك توقف ملحوظ.

قبل أن يتلقى إجابة، وطال التوقف مع استمرار اللعبة. أخيرًا، سأل ويلر: "هل هي سحابة؟" فكّر أصدقاؤه طويلًا ثم أجابوا بنعم، فانفجر الجميع ضاحكين. اتضح أنهم قرروا عدم اختيار كلمة: يمكن لأي شخص الإجابة كما يشاء، لكن يجب أن تكون جميع الإجابات متسقة. يقول ويلر إن هذا تشبيه جيد لوصف رؤية بور للإلكترون. يفترض الجميع أن له موقعًا وسرعة قبل رصده، تمامًا كما افترض ويلر أنه تم اختيار كلمة قبل دخوله الغرفة. لكن لم تكن هناك كلمة: لقد خلقه بطرح الأسئلة. ووفقًا لويلر، لا يوجد إلكترون قبل أن يخلقه العالم بمحاولة رصده. لاحظنا أيضًا في الفصل السابق التجربة التي يبدو فيها، بطريقة محيرة، أن فوتونًا واحدًا "يتداخل" مع نفسه. ابتكر ويلر نسخة أكثر تعقيدًا قليلاً من هذه التجربة والتي يعتقد أنها حاسمة لمبدأ المشاركة البشرية. يُقسّم شعاع ضوء إلى شعاعين متعامدين بواسطة مرآة نصف مفضضة، ثم يُجبر الشعاعان على التقاطع بانعكاسهما عن مرآتين أخريين. ثم يُضاف جهاز بصري آخر عند نقطة التقاطع، بحيث يصبح كلا الشعاعين مزيجًا من الاثنين. يمكن ضبط هذا الجهاز بحيث يلغي أحد الشعاعين المزدوجين نفسه. (تخيل مجموعتين من الأمواج على بركة متراكبة فوق بعضها البعض بحيث تختفي ويصبح السطح مسطحًا.)

الأمر المذهل حقًا هو أنه حتى لو خفتت شدة الشعاع حتى أصبح فوتونًا واحدًا فقط في كل مرة، فإن تأثير "التداخل" هذا يظل قائمًا. يبدو هذا سخيفًا: فالفوتون الواحد لا يتداخل معه شيء، لذا ينبغي أن يكون قادرًا على اختيار أي من المسارين. أما سبب عدم قيامه بذلك فهو أمر محير. إذا أُدخل عداد فوتونات في النظام لمعرفة ما يحدث بالضبط، فإن هذا التأثير الغامض يتلاشى فورًا وتتصرف الفوتونات كما هو متوقع، باختيار أي من المسارين. يجادل ويلر بأن هذا يثبت أن الفوتون لا وجود له حتى يُرصد. ويقترح أن الأمر نفسه ينطبق على كوننا.

هناك اعتراض واضح. نعلم أن الكون كان موجودًا لمليارات السنين قبل ظهور الحياة. هل يخبرنا ويلر أنه لم يكن موجودًا قبل وجود المراقبين؟

هو كذلك بالفعل. يُجادل بأنه إذا استُخدم ضوء نجم بعيد في التجربة نفسها، فإن هذا الضوء انطلق منذ ملايين السنين. ومع ذلك، تنطبق الحجة نفسها: الضوء لا وجود له إلا عند رصده. لذا، يقول ويلر، نحن في الواقع نصنع الماضي. لخص جون بارو وفرانك تيبلر وجهة نظره على النحو التالي:

يشير ويلر إلى أنه وفقًا لتفسير كوبنهاجن، يمكننا اعتبار بعض الخصائص المحدودة للمجرات البعيدة، التي نراها الآن كما كانت قبل مليارات السنين، وكأنها وُجدت الآن. ربما تكون جميع الخصائص
- وبالتالي الكون بأكمله - تُوجد بفضل ملاحظاتٍ تُجريها كائناتٌ واعية في مرحلةٍ زمنيةٍ ما. ومع ذلك، لا نستطيع نحنُ أن نُوجد إلا خصائصَ صغيرةَ جدًا، مثل دوران الإلكترون. فهل يتطلّب الأمرُ كائناتٍ ذكيةً "أكثر وعيًا" منّا لإيجاد الإلكترونات والجسيمات الأخرى؟*

في الواقع، إن مبدأ ويلر الأنثروبي التشاركي هو ببساطة نسخة مُحدثة من اقتراح بيركلي القائل بأننا نوجد الأشياء برؤيتها، وهو موقف نرفضه جميعًا غريزيًا لاعتباره سخيفًا. سيعتقد معظمنا أنه إذا أدى تفسير كوبنهاغن إلى هذه النظرة السخيفة، فلا بد أن تفسير كوبنهاغن خاطئ. يبدو أن الأرجح بكثير أن يكون أينشتاين مُصيبًا، وأن للإلكترون موضعًا وسرعة، مع أن العلم لا يملك وسيلة لتحديدهما.

ولكن حتى لو رفضنا مبدأ ويلر الأنثروبي التشاركي، فإن النسختين السابقتين لا تزالان ثابتتين. وكما يشير بارو وتيبلر، فإنهما يقترحان خطوة منطقية أخرى نحو مبدأ أنثروبي نهائي:

لنفترض، لسببٍ مجهول، أن مبدأ الأنثروبولوجيا القوي صحيح، وأن الحياة الذكية لا بد أن تظهر في مرحلةٍ ما من تاريخ الكون. ولكن إذا انقرضت في مرحلتنا من التطور، قبل وقتٍ طويل من أن يكون لها أي تأثيرٍ غير كميٍّ قابلٍ للقياس على الكون ككل، فسيكون من الصعب فهم سبب ظهورها أصلًا. وهذا ما يدفعنا إلى تعميم مبدأ الأنثروبولوجيا القوي.

المبدأ الأنثروبي النهائي: يجب أن تظهر معالجة المعلومات الذكية في الكون، وبمجرد ظهورها، فلن تموت أبدًا.

بعبارة أخرى، ووفقًا للمبدأ الأنثروبي، يبدو أن وجود الحياة في الكون يُشير إلى أن الكون صُمم بطريقة ما لخلق الحياة، وأن الحياة مُقدّر لها في النهاية أن تستوطن أقصى أركان الكون. ليس من الضروري حتى تبني وجهة نظر هويل القائلة بأن "مشرفًا" ما قد تلاعب بالفيزياء للوصول إلى هذا الاستنتاج. يكفي أن نُدرك أن الكون الخالي من الحياة هو آلة عظيمة لا وجود فيها للصدفة: فكل شيء يجب أن يحدث كما يحدث. وبما أنه هو من أوجد الحياة، فمن الطبيعي أن يحدث ذلك. ولكن حتى وصل إلى مرحلة...

لم تكن للحياة، التي تتأمل ذاتها بذكاء، أي حرية تُذكر: فقد كانت مدفوعة بدوافع بيولوجية عمياء. وما إن اكتسبت ذكاءً، حتى اكتسبت قدرًا من الحرية - وفيما يتعلق بالحياة، فإن الحرية تعني حرية التوسع والتطور. يبدو من الممكن بالطبع أن تُجبرها القوى الميكانيكية للكون على الانقراض مجددًا، لكن منطقيًا، يبدو ذلك مستبعدًا. فالحياة هي القدرة على تحدي القوة الغاشمة، والنضال من أجل البقاء. فإذا استطاعت أن تنبثق في كون ميكانيكي وتعيش لنصف مليار سنة، فلا يبدو أن هناك سببًا منطقيًا يجعل أشكالها الذكية العليا محكومًا عليها بالانقراض.

عند هذه النقطة يجب الاعتراف بأن هذه الحجة برمتها غير ذات صلة بمعنى ما. نحن نفترض، كما يفعل علماء الأحياء المعاصرون، أن الحياة قد خُلقت بطريقة ما من مادة ميتة من خلال نوع من التفاعل الكيميائي. وقد رفض هذا الكتاب مثل هذا الموقف منذ البداية. إذا بدا أن البحث الخارق للطبيعة يثبت أي شيء على الإطلاق فهو أن الحياة، بمعنى أساسي، مستقلة عن المادة. إنها تنتمي إلى نوع آخر من الواقع. في عالم عالم الأحياء الحديث، لا يوجد مجال للاستبصار أو التنبؤ أو تجارب الخروج من الجسد أو الأرواح الشريرة أو الانزلاقات الزمنية أو التزامن، ولا يوجد بالتأكيد مجال للحياة بعد الموت. بما أن الدليل على كل هذه الأشياء مقنع - لأي شخص يفحصها بعقل منفتح - فيجب رفض فكرة أن كوننا "جلب الحياة إلى الوجود".

البديل الوحيد هو أن الحياة دخلت بطريقة ما إلى عالم المادة من "خارجها". وهذا ما يُعرف بالمذهب الحيوي. يرى هذا المذهب أن الحياة تحاول التسلل إلى المادة وتوسيع "تسرب" الحرية، وهدفها النهائي هو السيطرة الكاملة على المادة. لذا، يرى المذهب الحيوي للمبدأ الإنساني أنه في مرحلة معينة من تطوره، هيأ الكون الظروف المناسبة لغزو الحياة، وأن الحياة استغلتها على الفور.

ومع ذلك، فإن وجهة النظر التي عبر عنها أتباع الفلسفة الحيوية، مثل هنري برغسون وبرنارد شو، هي أن الحياة كانت مجرد قوة عمياء شقت طريقها تدريجيًا - على الأرض - نحو الوعي الذاتي. ولكن مجددًا، تُلقي أدلة الخوارق بظلال من الشك على هذه الرؤية. إذا كان الإنسان يمتلك "قوى خفية"، فمتى تطورت؟ حتى القدرة العجيبة التي يتمتع بها عباقرة الرياضيات على تحديد ما إذا كان عدد من ثمانية أرقام عددًا أوليًا تتحدى ما يمكن تسميته بنظرية "الفلسفة الحيوية البسيطة" للتطور. إذا استغرق الإنسان كل هذا الوقت ليتطور إلى المرحلة الحالية، فمن المفترض أن يستغرق الأمر مليون سنة أخرى أو نحو ذلك لتطوير قدرة تفوق قدرة أفضل أجهزة الكمبيوتر لدينا. ويبدو أن المزامنات تُجادل أيضًا بأن العقل يمتلك قدرة غريبة على التسبب في المصادفات، وهو أمر لا يمكن تفسيره بنفس القدر من الناحية التطورية المباشرة. وإذا قبلنا أدلة الاستبصار، والإدراك المسبق، و"الأرواح"، والحياة بعد الموت، فعندئذٍ...

يصبح من الواضح أن الحيوية البسيطة غير كافية على الإطلاق لتفسير كوننا.

ماذا لدى الصوفيين ليخبرونا عن طبيعة الكون؟ إنهم يصرون بلا استثناء على وجود معنى وهدف غير مرئيين لذكائنا الأرضيين. حتى أبسط تجربة صوفية تبدو وكأنها تتناقض مع تجربتنا الإنسانية الأساسية للوجود في مكان واحد في وقت واحد. "امتد وعيي عبر المحيط والأرض في جميع الاتجاهات، عبر السماء وخارجًا إلى الفضاء". "بدا أن الحد الفاصل بين ذاتي الجسدية ومحيطي قد تلاشى وتلاشى شعوري بالانفصال". "أدركت أن مخطط الكون كان جيدًا، وليس شرًا ...". "رأيت أن الكون ليس مكونًا من مادة ميتة، بل هو، على العكس من ذلك، وجود حي ... رأيت أن جميع البشر خالدون". "نحن وحدنا المسؤولون عن معاناتنا ومشاكلنا نتيجة لسوء استخدام إرادتنا الحرة". "في لحظة من الزمن، عرفت فجأة، دون أي شك، أنني جزء من "كل"."

تبدو مثل هذه التجارب ضئيلة المعنى لدرجة أننا نميل إلى اعتبارها ضربًا من السُّكر، أو ربما نوعًا من "الوعي الحلمي". ولكن في أعقاب الحلم أو السُّكر، ندرك بوضوح تام أننا كنا منفصلين عن الواقع. يؤكد المتصوفون مرارًا وتكرارًا أنهم شعروا بأن تجربتهم أكثر واقعية من "واقعنا العادي"، وأن هذا اليقين المطلق استمر حتى عندما وجدوا أنفسهم مجددًا عالقين في عالم الوعي البشري الطبيعي. إذا كان هذا صحيحًا، فلا بد أن تكون هناك على الأقل فرصة معقولة لتعلم استيعاب تجربتهم من خلال وعينا البشري المحدود.

خصص أحد "المتصوفين التجريبيين"، آر إتش وارد، كتابًا لتجاربه الخاصة مع غاز الأسنان ومخدر إل إس دي، وهذا يمنحنا بعض الأفكار المثيرة للاهتمام.* أول ما يلفت انتباهنا هو التشابه الملحوظ بين تجارب وارد وتلك التي وصفها أوسبنسكي. يصف وارد تجربته مع غاز أكسيد النيتروز قائلاً: "... بعد الاستنشاقات القليلة الأولى من الغاز، انتقلتُ مباشرةً إلى حالة وعي أكثر اكتمالاً بكثير من أقصى درجات الوعي اليقظ العادي...". وهنا نجد مجددًا ذلك التأكيد الأساسي على أن سبب عدم قدرتنا على فهم كوننا هو كسل وعينا وضعفهما. يبدو أنه لا يستطيع إلا التركيز على ما هو تحت أنوفنا.

يؤكد وارد مجددًا على عدم واقعية فكرتنا عن الزمن. «من ناحية، دام الزمن أطول بكثير من الفترة القصيرة بين استنشاق الغاز و«العودة إلى الوعي»، بل دام إلى الأبد، ومن ناحية أخرى، لم يستغرق وقتًا على الإطلاق.»

تفاجأ وارد بأنه لم يفقد وعيه، بل أصبح فجأة أكثر وعيًا من المعتاد. "لأنني كنت أعرف، وفهمت، و..."

كان في الواقع، أكثر بكثير مما كنت أعرفه وأفهمه وأكون عليه عادةً... ويضيف أنه شعر أنه يعيد اكتشاف تلك الأشياء "التي كانت ملكي ذات يوم، لكنني فقدتها قبل سنوات عديدة. وبينما كان الأمر غريبًا تمامًا، كانت هذه الحالة الجديدة مألوفة أيضًا؛ بل كانت إلى حد ما حالتي الشرعية. في هذه الأثناء، كان ما أصبح غير واقعي وبطيئًا وأخرق هو العالم العادي الذي أتركه ورائي".

معنى هذه الكلمات واضحٌ تمامًا. لقد انحدر الإنسان إلى المادة - إلى "سيبيريا الخارجية" للكون - من حالةٍ أكثر جاذبية. ويبدو أن هذا الأمر يُؤكده مرارًا وتكرارًا أشخاصٌ كانوا على وشك الموت. كتاب ريموند مودي "الحياة بعد الحياة"، وهو دراسةٌ لعشرات "تجارب الاقتراب من الموت"، مليءٌ بعباراتٍ مثل: "الثانيةٍ واحدةٍ عرفتُ جميع أسرار العصور، وكل معنى الكون". هناك شعورٌ بالمعرفة، والتحرر، والابتهاج، مما يوحي بأن تجربة الموت هي تجربة صعودٍ من المادة، من "سيبيريا"، والعودة إلى حالتنا الطبيعية. وهذا يثير، بالطبع، السؤالَ المثير للاهتمام حولَ سبب نزول البشر إلى "سيبيريا" في المقام الأول - خاصةً إذا كان ذلك، كما يقترح شتاينر، خيارنا الخاص.

يبدو أن وارد قد انتقل سريعًا إلى عالم أطلق عليه أوسبنسكي اسم عالم العلاقات الرياضية. يُفضل وارد تسميته "منطقة الأفكار". لكن الأفكار، في صورة مفاهيم، كانت غير ضرورية تمامًا، "لأن المرء يستطيع أن يتدبر أمره جيدًا بدونها: كانت هذه حالة من الوضوح التام والعفوي، حيث لم تكن هناك أدنى حاجة إلى "التفكير". كان المرء يعرف ببساطة؛ ولم يكن يعرف شيئًا واحدًا هنا وشيء آخر هناك ... كان يعرف كل ما يجب معرفته. وهكذا عرف المرء أن كل شيء شيء واحد، وأن المعرفة الحقيقية هي معرفة متزامنة بالكون وكل ما يحتويه، بما في ذلك نفسه". بعبارة أخرى، اختفى "الانفصال"؛ وبدا أن كل شيء متصل. في هذا العالم، كما يقول، كان هناك شعور رائع بـ "الصواب". أصبحت الصور والرموز غير ضرورية. "كان كل شيء فكرة، ولم يكن الشكل موجودًا. (ويبدو لي من المثير للاهتمام للغاية أن يتلقى المرء، في عيادة طبيب أسنان وفي القرن العشرين، تأكيدًا عمليًا لنظريات أفلاطون). في هذا المجال من الأفكار، «كان كل شيء يعيش ويتحرك؛ كل شيء «يتنفس»، ولكنه يتنفس «بنفس واحد» وهو الإلهام والزفير العالميان المعبر عنهما في الأضداد الجوهرية لليل والنهار، والذكر والأنثى، والصيف والشتاء. في الواقع، بدا أن حيوية كل شيء الرائعة والمذهلة كانت جزءًا من ترابط كل شيء».

مثل أوسبنسكي، أدرك وارد أن مفاهيمنا البشرية عن الذات والموضوع خاطئة تمامًا. لقد أدرك "إدراكًا جديدًا للعلاقة بين الذات والموضوع...". عرفنا وفهمنا هذا العالم المختلف على أنه...

"مشاهدة ذلك، والتعرف عليه باعتباره موضوع إدراك المرء، ولكن في الوقت نفسه عرف وفهم أنه موجود داخل نفسه؛ وبالتالي كان المرء في آن واحد أقل ذرة أهمية في الكل الكوني وهذا الكل الكوني." (عبرت باربرا تاكر عن ذلك قائلة: "وفجأة عرفت - أو رأيت - أن الزمن الماضي والحاضر والمستقبل كان واحدًا، وأنني كنت الله، ومع ذلك كنت في نفس الوقت مجرد حبة رمل دقيقة.") يشرح وارد أنه من الضروري "التفكير من الداخل إلى الخارج" من أجل فهم هذه العلاقة الجديدة المحيرة بين الذات والموضوع.

انتهى "الطيران الصاعد" لوارد بـ"كمال نور"، حالة من "نقاء لا يوصف" ووحدة تامة. ومرة أخرى، شعر بشعور غريب بالألفة، كما لو كان هذا شيئًا يتذكره. بعد ذلك، بدأ "الطيران الهابط" عائدًا إلى الأرض، عائدًا عبر منطقة الأفكار، ثم "مع تقلص الوعي نحو وعي الحياة اليومية"، بدأت منطقة الأفكار تتخذ أشكالًا.

على أطرافه السفلى، تم توفير الرموز التي نحتاجها في حالة اليقظة إذا أردنا أن نفهم "الحدس". في ومضة ... رأيت المعنى؛ أي معنى الكون والحياة على الأرض والإنسان. وكما أن ظلام ما ندلل أنفسنا به هو وعي مغلق عليّ، وحتى عندما كنت أدرك بشكل خافت أنني "آتي إلى"، ظهر مجموع الأشياء أمام عيني الداخلية كشكل هندسي حي، ترتيب معقد بلا حدود وبسيط بلا حدود من الخطوط الذهبية المتحركة باستمرار والمتغيرة باستمرار على خلفية من الظلام ... بدا أن هذا الشكل الهندسي الحي يخبرني أن كل شيء على ما يرام، وأن كل شيء يعمل وفقًا لنمط لا مفر منه، وأن ... لا شيء يجب أن يكون بلا معنى تمامًا، حتى على الأرض ... شريطة أن نضع وجود النمط في الاعتبار، حتى الألم ... يمكن أن يكون له معنى؛ وكذلك الموت؛ وكذلك أسوأ ما قد نضطر إلى تحمله؛ في حين أن إمكانية تمييز هذا المعنى هي في حد ذاتها معنى الرحمة الإلهية.

وبينما خرج من الغاز حاول استعادة هذه الرؤية للمعنى في الكلمات "داخل وداخل وداخل و..." التي تتكرر مثل رقم عشري يتكرر بلا نهاية.

ويبدو أن أوسبنسكي رأى أيضًا "المعنى" في شكل شكل هندسي،

... في شكل زهرة كبيرة، مثل الوردة أو اللوتس، بتلات

التي كانت تتكشف باستمرار من المنتصف، وتنمو، وتزداد في الحجم، وتصل إلى خارج الزهرة ثم تعود بطريقة ما إلى المنتصف وتبدأ من جديد من البداية... في هذه الزهرة كانت هناك كمية لا تُصدق من الضوء والحركة واللون والموسيقى والعاطفة والإثارة والمعرفة والذكاء والرياضيات والنمو المستمر المتواصل. وبينما كنت أنظر إلى هذه الزهرة، بدا لي أحدهم وكأنه يشرح لي أن هذا هو "العالم" أو "براهما" في أوضح صوره وفي أقرب تقريب لما هو عليه في الواقع - قال الصوت: "إذا كان التقريب أقرب، فسيكون براهما نفسه كما هو".

تبدو هذه الصورة للزهرة التي تتفتح ثم تعود باستمرار إلى مركزها وكأنها تفسر أيضًا عبارة وارد "في الداخل وفي الداخل وفي الداخل ...".

هنا أيضًا، ربما يكون الجزء الأسهل فهمًا من رؤية وارد هو إدراكه "للترابط" بين كل شيء، وإدراكه أن "لا شيء منفصل". يقول: "كانت الأشياء مترابطة فيما بينها، وهو ما لا يربطها بتفكيرنا العادي أي صلة، ومرتبطة ببعضها بطرق لا نستطيع تصورها عادةً. أشياءٌ نعتبرها متباعدة، سواءً في المكان أو الزمان أو بطبيعتها، تداخلت هنا؛ أشياءٌ نعتبرها مختلفةً تمامًا عن بعضها البعض أصبحت بعضها البعض". في اللحظة التي نبدأ فيها بتجربة شعورٍ بالحيوية المتصاعدة، ينتابنا شعورٌ غريبٌ بمعنى كل شيء - كما لو أن كل ما ننظر إليه يتواصل معنا - والشعور بأن كل شيء يذكرنا بشيءٍ آخر.

في مقاله عن التصوف والمنطق، يرفض برتراند راسل هذه "اللمحات" باعتبارها مجرد مشاعر، كما لو كان من الممكن مقارنتها بالسكر. لا يشك وارد وأوسبنسكي في أنها تُمثل لمحة أوسع عن الواقع. وتشير أبحاث الدماغ الحديثة إلى أنهما على الأرجح على صواب. في كتابه "الدماغ الضخم"، يصف مايكل هاتشيسون جهازًا يُسمى "المحفز العصبي الكهربائي عبر الجلد"، اخترعه عالم وظائف الدماغ جوزيف لايت، والذي يمكنه إرسال تيار كهربائي إلى الدماغ. اختار لايت ترددًا قدره 7.83 هرتز، وهو تردد المجال الكهربائي المتردد بين الأرض والغلاف الأيوني، والذي يبدو أنه قادر على مواءمة الجسم والدماغ مع الطاقة الكهرومغناطيسية للأرض. كان هاتشيسون متصلًا بالجهاز، لكنه لم يكن يعلم أنه قيد التشغيل.

نعم، نعم، بكيت. شعرتُ وكأنني أتفجر من شدة الدهشة والحماس، فقلتُ للايت بعضًا من مشاعري تجاه أبحاث الدماغ. أخبرته

عن مقال كنتُ بصدد إعادة كتابته عن الدماغ. أخبرته كيف أصبح اهتمامي بالدماغ. في تلك اللحظة، تبادرت إلى ذهني سلسلة من الدراسات التي قرأتها حول مواضيع متنوعة، بما في ذلك العلاقة بين تخليق البروتين والذاكرة والأساس الكيميائي الحيوي للإدمان، وفهمتُ شيئًا جديدًا. بدأتُ أشرح رؤيتي الجديدة بإيماءات سريعة وكتابة على منديل ورقي... فجأة توقفتُ، وفمي مفتوح في تخمين جامح. كان الجالسون في الأكشاك القريبة يحدقون بي باهتمام بالغ. قلتُ لـ لايت: "استمع إليّ وأنا أتحدث! أثرثر كقرد موصول بسلك كهربائي!"

ابتسم لي لايت ابتسامة شيطانية وأشار بإصبعه إلى الأداة السوداء على الطاولة، فأدركتُ أن موجات كهربائية صغيرة وخفيفة كانت تتسلل إلى دماغي طوال هذا الوقت. انفجرتُ ضاحكًا، ممتلئًا بمتعة لا تُوصف. شعرتُ أن دماغي يعمل أسرع وأكثر كفاءة من أي وقت مضى - كانت الأفكار تتزاحم بسرعة لدرجة أنني بالكاد استطعتُ التقاطها.

من الواضح أن هاتشيسون يصف تجربةً تُشبه جوهريًا أحاسيس أوسبنسكي في حالاته الصوفية: الترابط - "قد يُجنّ المرء من منفضة سجائر واحدة". لا يسعنا إلا أن نطالب بدليلٍ أفضل على أن أدمغتنا عادةً ما تكون دون المستوى الطبيعي، وأننا عندما نبدأ بتجربة الانبهار والإثارة، نقترب من قدراتنا الطبيعية. يصف هاتشيسون أيضًا ما يُطلق عليه كويستلر "تجربة يوريكا"، عندما تترابط الأفكار فجأةً، كأحجية الصور المقطوعة، مُشكّلةً نمطًا مُحددًا. "في تلك اللحظة، تداعت في ذهني سلسلةٌ من الدراسات التي قرأتها حول مواضيع مُتنوعة... وفهمتُ شيئًا جديدًا".

ما فعله لايت هو أنه جعل جهازه يُطلق كميات كبيرة من المواد الأفيونية الطبيعية في الدماغ، وهي الإندورفينات المُسكّنة للألم والمُسببة للنشوة. روى لهتشيسون كيف قاد سيارته ذات مرة لمسافة ستمائة ميل لحضور مؤتمر وهو متصل بجهازه الدماغي، وقضى الرحلة بأكملها في القيام بأعمال ذهنية مفيدة، ثم عاد بعد المؤتمر. "عندما عدت، لم أكن حتى مُتعبًا."

من المهم أن يُطلق وارد على الفصل الذي يصف فيه تجربته الشخصية اسم "الوعي ليس ثابتًا". فهذا، بلا شك، هو أساس المشكلة: افتراضنا أن الوعي العادي يُخبرنا بحقيقة العالم الخارجي. ومع ذلك، في كل مرة نمر فيها بتجربة ذروة، ندرك مجددًا أن الوعي العادي يستحق النظر إليه بعين الريبة. لأنه باهت وباهت لدرجة أنه يُخفي عنا أكاذيب. بمجرد أن نبدأ بإدراك هذا، يُمكننا أيضًا إدراك وجود مستويات مُختلفة من الوعي يختبرها كلٌّ منا خلال حياته.

دعونا، كنوع من التمرين، نرى ما إذا كان بوسعنا التعرف على أكثر الجوانب الأساسية

هذه المستويات. لنبدأ بالحالة الأساسية لعدم الوعي التي نختبرها في النوم العميق جدًا، ونسميها المستوى O. في هذه الحالة، المستوى 1 هو المستوى الذي نختبره أثناء الحلم، والذي يستمر في التجارب التنويمية. المستوى 2 هو أبسط مستوى للوعي اليقظ: أي مجرد إدراك. يختبر الطفل هذا عندما يكون متعبًا جدًا لدرجة أنه لا يهتم بأي شيء. قد يكون في طريقه إلى المنزل من حفلة ولكنه ينظر بنظرة فارغة إلى العالم المار. إذا سألته، "ماذا رأيت للتو؟" سيجيب، "لا أعرف". وعيه مجرد مرآة تعكس العالم الخارجي. قال نيتشه ذات مرة أننا نحسد الأبقار على هدوئها، ولكن لن يكون هناك جدوى من سؤالها عن سر سعادتها لأنها ستكون قد نسيت

قبل أن يتمكنوا من الإجابة. هذا هو المستوى الثاني.

في المستوى الثالث أصبح الوعي واعيًا بذاته ولكنه لا يزال باهتًا وثقيلًا — ثقيلٌ لدرجة أننا لا ندرك إلا شيئًا واحدًا في كل مرة: يبدو كل شيء "مجرد ذاته"، بلا معنى على الإطلاق، ويبدو انعكاسك في المرآة غريبًا. هذا هو المستوى الذي يُطلق عليه سارتر اسم "الغثيان".

المستوى الرابع هو الوعي الطبيعي الذي نختبره يوميًا. لم يعد ثقيلًا جدًا على الحركة: لقد تعلم كيف يتأقلم مع الوجود، ومع ذلك يميل إلى اعتبار الحياة معركةً ضارية - ربما معركةً خاسرة. وبالتالي، يميل إلى التراجع بسهولة نحو المستوى الثالث، ويجد التجربة بلا معنى ومملة.

حتى الآن، القاسم المشترك بين جميع المستويات هو موقف سلبي تجاه الحياة والتجربة. أما في المستوى الخامس، فيتوقف هذا الوضع. وهو مستوى أسميته مؤقتًا "وعي صباح الربيع" أو "وعي العطلة". يتميز هذا المستوى بذلك الشعور المتدفق بالسعادة الذي نشعر به عندما تصبح الحياة فجأة أكثر تشويقًا وإثارة، وتبدو لنا آفاقٌ واسعة. يختفي الحذر والشك فجأةً، وتصبح الحياة آسرةً ومبهجةً بلا شك. هذا هو الشعور الذي يختبره ذئب سهوب هيسه وهو يتذوق كأسًا من النبيذ، فيتذكر "موزارت والنجوم".

يمكن وصف المستوى السادس بأنه "المستوى السحري". إنه ما يحدث لطفل في يوم عيد الميلاد، عندما يتحد كل شيء ليجعل الحياة تبدو رائعة. أو تخيّل وعي عروسين في شهر العسل ليلة زفافهما ينظران من شرفتهما إلى بحيرة مضاءة بنور القمر، وتلوح في الأفق أشكال جبال داكنة. في مثل هذه الحالات، نشعر بتصالح تام مع حياتنا. يقول ستيبنوولف: "للحظات معًا، وقف قلبي بين الفرح والحزن لأكتشف كم كان معرض حياتي غنيًا". تبدو المشاكل تافهة؛ فنرى أن الفضيلة الحقيقية الوحيدة هي الشجاعة. أصبح الوعي تجربة ذروة خفيفة مستمرة، ما يسميه جيه بي بريستلي "البهجة".

المستوى السابع هو كلية إكس - تجربة توينبي مع فارسالوس، وتجربة بروست وهو يتذوق المادلين المغموسة في الشاي. هناك شعور إلهي تقريبًا

إحساس: "لم أعد أشعر بأنني عادي، عرضي، فانٍ...". هذا أكثر من مجرد تجربة قمة: إنه شعور غريب بالسيطرة على الزمن، كما لو أن كل لحظة من حياتك يمكن تذكرها بوضوح الدقائق العشر الأخيرة. ندرك فجأة أن الزمن مظهر من مظاهر ثقل الجسد وضعف الروح. ونرى أيضًا أنه إذا تمكنا من تحقيق هذه السيطرة بشكل دائم، فسيصبح الزمن، بمعنى أساسي، غير موجود.

الأمر الأكثر إثارة للاهتمام في المستويات التي تلي المستوى السابع - المستويات التي استكشفها أوسبنسكي وغيره من المتصوفين - هو أنها تبدو وكأنها تتناقض مع أدلة حواسنا ووعينا اليومي. يصبح الداخلي خارجيًا، والخارجي داخليًا، والإنسان هو الكون كله ومجرد ذرة، ويُنظر إلى المكان والزمان على أنهما أوهام، وهكذا. ومع ذلك، يمكننا أن نرى أن هذه التناقضات متأصلة بالفعل في الوعي اليومي. في المستوى الثاني، لا يوجد أي نوع من "الترابط" في الوعي؛ إنه مجرد تدفق من الانطباعات الفارغة. يبدأ المستوى الثالث - الغثيان - في إيقاف هذا التدفق، في ربط الأشياء معًا، لكنه يستمر في الانهيار إلى إدراك مفاجئ بأن العالم في النهاية لا معنى له تمامًا وغير مجدٍ. المستوى الرابع - الوعي العادي - "يربط" الأشياء بدرجة أعلى بكثير، ومع ذلك لا يزال يعتبر أن الحياة صراع شاق لا نهاية له وأن علينا بذل جهد مستمر لرؤية أي معنى فيه. في المستوى الخامس - "وعي العطلة" - يتغير كل هذا: نشعر بالقدرة على رؤية آفاق بعيدة، ونصبح على دراية بـ"موزارت والنجوم". ندرك فجأة أن العالم من حولنا ساحرٌ في حد ذاته، ولا يتطلب أي جهد. كل شيء يدفعنا للتفكير في شيء آخر، فنبقى في حالة من التشويق والإثارة الدائمة.

في المستوى السادس - "الوعي السحري" - يبدو أننا نسبح في بحرٍ من المعاني، ونجد صعوبةً في فهم كيف كان من الممكن أن نكون تعساء، أو كيف يمكن لأي شخص آخر أن يكون كذلك. حتى أسوأ تجارب الماضي تبدو الآن محاولاتٍ شيقةً للغاية لتعليمنا شيئًا ما، خطواتٍ أساسية على الطريق الصاعد نحو هذا الشعور بالتفاؤل والتحكم. يبدو أن المأساة الوحيدة في هذا الكون هي أن الكثير من الناس يفتقرون إلى الشجاعة والعناد الشديد للاستمرار، وبالتالي يفتقدون هذا الشعور "السماوي" بالدهشة والتصالح.

المستوى السابع، بما يحمله من شعور بالحرية والإتقان مع مرور الوقت، لا يبعد سوى خطوة واحدة عن المستوى الصوفي، تمامًا كما أن المستوى السادس - "السحر" - لا يبعد سوى خطوة واحدة عن الكلية س. جهد إضافي مفاجئ كفيلٌ بحمل العقل إلى ذلك العالم الغريب حيث يُنظر إلى "الانفصال" على أنه وهمٌ ناجم عن التعب، ويُرى كل شيء مترابطًا. ومن أكثر الأمور المشجعة في هذه الرؤية الثاقبة للمستويات أن كل مستوى لا يبعد سوى خطوة قصيرة وسهلة عن سابقه.

جميع التجارب الصوفية تُواجهنا بالسؤال الجوهري نفسه: ماذا نفعل هنا؟ وماذا يُفترض بنا أن نفعل الآن ونحن هنا؟ إذا كانت التجربة الصوفية تُعطينا تجربة غريبة، وهي "العودة إلى الوطن" إلى حالتنا الطبيعية، فماذا نفعل هنا أصلًا؟ لماذا نزلنا إلى هذه "السيبيريا الخارجية"؟

يبدو افتراضٌ واحدٌ جليًا: أننا هنا لهدفٍ ما. ومثل الرواد الذين ذهبوا إلى يوكون، نحن مدفوعون بدافعٍ قوي. من الواضح أن المخاطر أكبر مما نتصور. التفسير الواضح هو أننا بعثةٌ استعمارية، وأن هدفنا هو استعمار عالم المادة. ووفقًا لهذا الرأي، فإن الحياة - أو الروح - تحاول إنشاء موطئ قدمٍ في المادة، تمامًا كما قد يحاول الإنسان إنشاء محطة فضائية على القمر. تكمن المشكلة في أن خطوط الإمداد طويلة جدًا، مما يجعل الاتصال بالقاعدة غير منتظم وغير مؤكد. حتى الاتصال اللاسلكي متقطع. وبعد سنواتٍ في هذه البيئة الصعبة، يميل المستكشفون إلى الهوس بمشكلة البقاء على قيد الحياة فحسب، وينسون سبب مجيئهم إلى هناك. ولهذا السبب، لملايين السنين، كانت الحياة على الأرض مجرد قصة صراعٍ دموي، حيث يلتهم نوعٌ آخر. ولهذا السبب أيضًا، يُكرّس بعضٌ من أمهر البشر على كوكبنا حياتهم للسعي العبث وراء المال والسلطة - عاجزين عن رؤية أي بديلٍ منطقيٍّ جذاب.

تكمن المشكلة الأساسية، بوضوح تام، في أننا نهدر الكثير من الوقت على المستويات الأربعة الأولى من الوعي، التي يجعلها خاملة عديمة الفائدة تقريبًا. مجرد البقاء على قيد الحياة أمر جيد جدًا، ولكن لا نبدأ في العيش لغرض ما إلا عندما نبلغ المستوى الخامس. عندها فقط نتوقف عن تقويضنا بالشك في أن الحياة صراع شاق لا نهاية له، معركة لا يمكن كسبها، وندرك أنه حتى في "سيبيريا الخارجية"، فإن العالم ساحر لا نهاية له. تجدر الإشارة إلى أن جميع البشر الأصحاء يصلون إلى لمحات منتظمة من "وعي صباح الربيع"، عندما يرتقون كالفلين من المستوى الرابع إلى المستوى الخامس، لأن هذه اللمحات هي ما قصده ماسلو بتجربة الذروة. وفي مثل هذه اللحظات، يمكننا أن نرى بوضوح أن المشكلة الرئيسية تكمن في عدد الأخطاء التي نرتكبها عندما نكون محصورين في المستويات الدنيا.

يمكننا أيضًا أن نرى أن السبب الجذري لجميع المشاكل البشرية هو الكيان الذي أسميته الروبوت، ذلك الجزء الآلي منا الذي يتولى زمام الأمور عندما نكون متعبين ويتولى أمر معيشتنا نيابةً عنا. الروبوت ضروريٌّ للغاية للحياة على الأرض؛ فلا نستطيع البقاء لعشر ثوانٍ بدونه. عندما ينزل المتصوفون من عوالمهم التنويرية الصرفة إلى هذا العالم "الوهمي، البطيء، والأخرق" من الواقع البشري، يكون الروبوت بانتظارهم عند الباب. إنه أهم حتى من الرموز واللغة، فالكائنات الحية البسيطة جدًا تستطيع البقاء بدون رموز ولغة، لكن لا يمكن لأي مخلوق أن يعيش بدون روبوته.

إن الوزن الهائل للروبوت هو الذي يجعلنا نشعر بأننا نعيش في

"عالم خشبي". نرى، على سبيل المثال، أنه في اللحظة التي عاد فيها أوسبنسكي أو وارد من عالم الحرية المطلقة الغامض، ووجدا نفسيهما "عائدين إلى الجسد"، وجدا نفسيهما مجددًا مثقلين بكل عاداتهما القديمة المملة وهمومهما وعصابهما، وبكل إحساسهما القديم بالهوية المتراكمة من ردود أفعال الآخرين، وفوق كل ذلك، ذلك الثقل القديم الكئيب، كما لو أن الوعي قد تحول إلى ثقل ثقيل. هذا هو الإحساس الذي جعل الرومانسيين يشعرون بأن الحياة نوع من الجحيم - أو على الأقل، المطهر.

ومع ذلك، نعرف ما يكفي عن الروبوت لندرك أن هذا الشعور لا يُصدق، تمامًا مثل الاكتئاب الناتج عن صداع الكحول. تكمن مشكلة العيش "على الروبوت" في أنه عبء ثقيل. لا يتولى زمام الأمور إلا عندما تكون طاقاتنا منخفضة. لذا، عندما أفعل شيئًا آليًا، لا أشعر بسعادة مفاجئة. وهذا بدوره يجعلني أشعر بأنه لم يكن يستحق القيام به. يتفاعل "ستان" بالفشل في إرسال الطاقة، ويشعر "أولي" بشعور بالغرق. يصبح العيش أكثر آلية، ويتعزز تأثير الحلقة المفرغة. بعد نقطة معينة، نشعر وكأننا معزولون عن الواقع بنوع من جدار زجاجي: فجأة يبدو بديهيًا أنه لا يوجد شيء جديد تحت الشمس، وأن كل جهد بشري باطل، وأن الإنسان شغف لا طائل منه، وأن الحياة مزحة بشعة ابتكرها خالق شيطاني. هذه هي الحالة التي وصفتها بـ "الانقلاب"، أي الميل إلى السماح للأحكام العاطفية السلبية بأن تغتصب مكان الأحكام العقلانية الموضوعية. علاوة على ذلك، تتخفى هذه الحالة الكئيبة وراء قناع "صوت التجربة"، إذ يبدو جليًا أنك "تعرف" أكثر عن تجربة ما عندما تمر بها مئة مرة. هذا هو السبب الحقيقي للوفاة لدى معظم البشر: فهم يخلطون بين آثار الحلقة المفرغة "للتقلبات" وحكمة التقدم في السن، فيستسلمون للنضال.

من ناحية أخرى، لا يتطلب الأمر سوى ومضة من الوعي غير الآلي - بهجة صباح ربيعي، أو ارتياح مفاجئ عند اختفاء أزمة - لجعلنا ندرك أن "الانقلاب" خطأ فادح. ها نحن ذا من نتحكم، بدلاً من أن يتحكم بنا الروبوت، وتتميز الحالات غير الآلية بهذا الشعور بالسيطرة. في "ظروف السيطرة" هذه، تكون حيويتنا عالية لدرجة أن كل شيء يبدو جديدًا ومثيرًا للاهتمام؛ والنتيجة هي شعور ساحق وصادق بـ "أخبار سارة سخيفة". إذا سألت شخصًا يمر بهذه الحالة أن يحدد بالضبط ما "يراه"، فسيجيب أنه إدراك واضح وموضوعي بأن الكون مثير وجميل بلا حدود. كما أنه يقدم رؤية مبهرة لكيفية تحول الحياة البشرية. إذ يمكننا أن نرى، فورًا وبديهيًا، أن "تأثير سفر الجامعة" هو خدعة ثقة تجعل الحياة تبدو مملة ومملة بتأكيدها لنا أنها كذلك - وهذه العملية أشبه بالتنويم المغناطيسي. في "ظروف التحكم"، يمكننا أن نرى من خلال الكذب، ويكون التأثير بمثابة كشف. فجأةً يتضح كل شيء. الآن تحررنا من الروبوت الذي نستطيع رؤيته.

أن العالم مليء بتنوع لا نهائي وساحر؛ وأن الروبوت هو من يُحسّن إدراكنا ويجعل كل شيء يبدو متشابهًا - يجعل كل منزل يبدو كأي منزل آخر، وكل شجرة تبدو كأي شجرة أخرى. والأهم من ذلك، أننا نستطيع أن نرى كيف تُنتج آليات الروبوت "الانقلاب"، وأن قناعتنا اللاواعية بحقيقة "الانقلاب" - الشعور بأن الحياة لا تستحق كل هذا الجهد - هي التي تمنعنا حقًا من قضاء وقت أطول بكثير في الحالات غير الروبوتية. (إذا كنت ترغب في قياس مستوى اللاوعي لديك من "الانقلاب"، راقب مشاعرك في المرة القادمة التي تفعل فيها شيئًا "لا طائل منه" مثل التقاط شيء أسقطته أو إغلاق باب لم يكن ينبغي تركه مفتوحًا: في حالات "الانقلاب" فإنه يسبب غرق القلب ويكلف جهدًا حقيقيًا.) في ظروف السيطرة، ندرك فجأة أن "الانقلاب" هو خطأ منطقي، وأنه إذا تمكنا من استيعاب هذا بعقلنا الواعي، كما نستطيع استيعاب خدعة القسمة الطويلة أو استخراج الجذر التربيعي، فسيتم رفع حمل هائل من العقل وستصبح تجربة الذروة حدثًا يوميًا.

في الواقع، يُرفع هذا العبء عن العقل كلما انقضت أزمة ما، ورأينا العالم بلا "انقلاب". وهذا يُفسر سهولة وصول طلاب ماسلو إلى ذروة التجارب بمجرد أن بدأوا التفكير فيها والحديث عنها. مكّنتهم هذه التجربة، في لمحة بصر، من إدراك آليات "الانقلاب" وإدراك أنه لا يوجد سبب دنيوي يمنعنا من العيش بمستوى أعلى بكثير من التفاؤل. تجربة الذروة ليست خدعة، بل إدراك. ولهذا السبب تُنتج دائمًا شعورًا يُمكن تفسيره بـ "بالتأكيد".

إن فهم الروبوت يُمكّننا أيضًا من فهم آلية الاكتئاب والعصاب. في الوعي غير الآلي - وعي الحرية - نختبر تغذية راجعة مستمرة من الاهتمام بجميع أنشطتنا، وهذا يُعيد شحن بطارياتنا الحيوية. عندما نكون "على الروبوت" لا توجد تغذية راجعة، وتُفرغ بطارياتنا. لذا، يجد الأشخاص الذين يقضون وقتًا طويلاً في العيش الآلي أنفسهم منخرطين في صراع مستمر ضد الإحباط، والشك في أن الحياة معركة خاسرة. يمكن أن تؤدي بعض المشاكل الإضافية وتأثير الحلقة المفرغة إلى انهيار عصبي. ومع ذلك، بمجرد أن ندرك أن هذا خطأ منطقي، وإحدى أسوأ حيل "الانقلاب"، يُمكننا أن ندرك أنه عبث يكاد يكون مضحكًا، على مستوى هراء تلميذ المدرسة. يصف مفيستوفيليس غوته نفسه بأنه "الروح التي تنفي"، ويبدو الأمر كما لو أن معظمنا لديه مفيستوفيليس صغير يعيش داخل رؤوسنا ينتظر أن يقلب يقينياتنا رأسًا على عقب ويهمس: "الأمر لا يستحق العناء حقًا...". ومع ذلك، ينبغي أن يكون من الممكن الآن أن نرى أن "الانقلاب" ينطوي على خطأ بسيط، مماثل لخطأ رجل يدخل غرفة ذات إضاءة خافتة و

يشتبه في أنه سيفقد بصره. في اللحظة التي يدرك فيها أن بصره سليم، يتنهد بارتياح، وتتلاشى مخاوفه كالعفاريت. لو أدركنا أن الغثيان والاكتئاب مجرد شكلين من أشكال "الانقلاب"، لزالتا فورًا من خطورتهما.

نوبات الهلع التي أصابتني، والتي وصفتها فيالفصل الأول في الجزء الثاني، تكشف عن مدى خطورتها: شعرتُ وكأنني أنزلق نحو منحدرٍ يقودني إلى الجنون. في أسوأ حالاته، يُنتج "الانقلاب" شعورًا بالوقوف على حافة الهاوية. وقد ذكرتُ في مكانٍ آخر * مثالٌ مثيرٌ للاهتمام على ذلك يتعلق بالروائية مارغريت لين. في عام ١٩٤٥، تركها مخاضٌ طويلٌ وصعبٌ في حالةٍ من الإرهاق التام. كانت سعيدةً جدًا لكونها أمًا، لكنها وجدت نفسها في حالةٍ خطيرةٍ من الحساسية العاطفية المفرطة: عندما علقت القطة بمخلبها في الباب، شعرت أنها مأساةٌ كبيرة. في تلك اللحظة، وصلتها نسخةٌ من مجلة النيويوركر تحتوي على رواية جون هيرسي الشهيرة عن إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. قالت إن الأمر بدا فظيعًا لدرجة أنه فجر كل فتيل مشاعرها. فجأةً، فقدت القدرة على الشعور؛ وأصبحت الحياة رماديةً تمامًا وبلا إثارة. واصلت كونها زوجةً وأمًا صالحةً بالتصرف كما "ينبغي" لها؛ لكنها شعرت بأنها استُنزفت من أي استجابةٍ عاطفية. كان من أعراض هذا "الموت" الداخلي أن العشب بدا كالورق الأزرق والأوراق بدت كالقصدير الأخضر. (هذه أعراضٌ معروفةٌ للفصام).

استمرت هذه الحالة طويلاً. كلما أثارت فيها ظرفٌ سارٌّ استجابةً، كانت تُدرك ما يحدث، فيختفي الشعور فورًا. أصبحت الحياة نوعًا من الطقوس، بلا حبٍّ ولا كراهية. ولكن في يومٍ من الأيام، راودتها هي وزوجها فكرة شراء كوخٍ في هامبشاير، فذهبا لرؤيته. بطبيعة الحال، كانت تشعر ببهجةٍ أكبر من المعتاد، ولكن بينما كانت تسير وحدها في الحقل خلف الكوخ، كان العشب لا يزال يبدو كورقٍ أزرق، والأوراق تبدو كصفيحٍ أخضر. فجأةً، لاحظت بعض الزهور الزرقاء: كان لونها الأزرق شديدًا لدرجة أنها حدّقت فيها بوميضٍ من المتعة. وبينما كانت تفعل ذلك، اختفى "التجمد العاطفي". عاد العشب والأوراق فجأةً إلى طبيعتهما. انفجرت في البكاء عندما أدركت أن "الذوبان" قد بدأ. وعلى مدار الأيام القليلة التالية، عادت قدرتها على الشعور والاستجابة ببطء.

هنا يمكن دراسة مشكلة "الانقلاب" بالتفصيل. فقد أرهقها التعب الجسدي الناتج عن ولادة عسيرة؛ وكان لرواية هيرسي عن هيروشيما أثرٌ في إغراقها في "الغثيان"، وهو الشعور بأن الحياة البشرية بلا معنى، ووحشية، وقصيرة. عندما يكون البشر في حالة ذهنية سليمة، فإن استجابتهم الطبيعية للشر تتمثل في رغبة عقلانية في منع تكراره، لكن "الغثيان" يجلب شعورًا بالعجز والسلبية. وهكذا وجدت مارغريت لين نفسها عالقة في حلقة مفرغة من السلبية و"الانقلاب".

شعورٌ بالدونية، لم تستطع الفرار منه لأنه بدا لها قائمًا على إدراك منطقي. ومع صمودها، ازدادت مقاومتها. وقد ولّد لديها متعة رؤية الزهور الزرقاء تجربةً استثنائيةً أراحتها من "الغثيان" وحرّرتها من دائرة السلبية المفرغة، أي "وجهة نظر ميفستوفيلية".

في تجربة مارغريت لين، نرى على نطاق مُكبّر شيئًا يحدث لمعظمنا عشرات المرات يوميًا - ذلك الشعور المفاجئ بالإحباط، وأن الحياة، في نهاية المطاف، صراعٌ شاق، وأننا ربما نكون حمقى لبذل كل هذا الجهد فيه. يصاحب هذا الشعور نسخةٌ مصغّرة من الانهيار الذي عاشته مارغريت لين. ولأنها نسخةٌ مصغّرة، فإنّ تجربة ذروةٍ مصغّرة تكفي لإحداث تعافٍ سريع - كأسٌ من المارتيني الجاف، أو برنامجٌ تلفزيونيٌّ مُفضّل، أو صوت طفلٍ يضحك. لكنّ إدراك آليات الانهيار المصغّر كافٍ لمنع حدوثها.

في رواية "العودة إلى بيتون بليس" للكاتبة غريس ميتاليوس، تتعرض البطلة لحادث سيارة خطير بسبب تعطل دواسة الوقود. وتعلق الكاتبة قائلةً إنه لو كانت سائقة أكثر خبرة، لأدركت أن كل ما عليها فعله هو وضع إصبع قدمها تحت دواسة الوقود وفكها. وينطبق الأمر نفسه على "الدوائر المفرغة" التي تُسبب الكثير من الانهيارات العصبية والانتحارات.

أصبح من الممكن الآن محاولة الإجابة على السؤال السابق: ماذا نفعل في هذا "العالم الخشبي"؟ في حالات من النشوة الرؤيوية، يرى متصوفون مثل أوسبنسكي إجابةً على المشكلات الأساسية للوجود البشري، لكن كل شيء يحدث بسرعة فائقة لدرجة أنهم لا يستطيعون حتى البدء في تحديدها باللغة. وهنا تكمن المشكلة: تحديدها. يمكن تشبيه الأمر بمسافر تاه في غابة، فحمله ملاك فجأةً في الهواء وأرشده إلى أقرب طريق رئيسي. لكن بمجرد عودته إلى الأرض، نسي ما رآه. مشكلته هي كيف يحتفظ بما يكفي منه لرسم خريطة.

عندما كان آر إتش وارد يعود إلى وعيه اليقظ، لاحظ أن "الرموز التي نحتاجها لفهم "الحدس" كانت متوفرة". في "عالمنا الخشبي"، نحتاج إلى كلمات ورموز لتحديد المعاني لأننا لا نستطيع رؤيتها طوال الوقت: نستمر في فقدانها، كرجل يدخل غرفة ليحضر شيئًا ثم ينسى ما دخل من أجله. كان سميلي، صديق روبرت جريفز، استثنائيًا في هذا الصدد: فقد كان بإمكانه "رؤية" إجابة مسألة رياضية معقدة من منظور "عين الطائر" ولم يكن بحاجة إلى الرموز والصيغ الرياضية التي تُمكّننا نحن البقية من تلمس طريقنا إلى الحل. الرموز - والكلمات والمفاهيم - هي طريقتنا في النضال نحو المعاني التي لا نستطيع استيعابها "بلمح البصر". (بالطبع، كل واحد منا لديه ومضات مفاجئة من البصيرة: المشكلة هي أننا لا نستطيع ربطها برؤى أخرى). وهذا يفسر، بالمناسبة، سبب مقارنة أوسبنسكي

"العالم الغامض" إلى عالم من العلاقات الرياضية المعقدة: الرياضيات هي نموذج للطريقة التي نكافح بها للانتقال من معاني أصغر إلى معاني أكبر.

لذا، فإن ما نفعله بمنطقنا البطيء والمتعثر هو التقدم تدريجيًا نحو عالم الحدس المحض، ذلك العالم الغامض الذي لمّح إليه وارد وأوسبنسكي. من الممتع بالطبع أن نلقي نظرة خاطفة على معنى الحياة، لكن ما يمنح البشر شعورًا عميقًا بالرضا هو ترسيخها في كلمات لا يستطيعون الفرار منها.

يرجى ملاحظة أنه على الرغم من أن معظمنا يشعر بأن الحياة مؤلمة وصعبة - حتى أن الشعراء يحبون الإشارة إليها بـ"وادي دموع شاسع خافت" والتلميح إلى أننا هنا لتحسين شخصياتنا - فإننا جميعًا ندرك، في حالات "وعي صباح الربيع"، أنها يمكن أن تكون متعة دائمة. أوسبنسكي ليس دقيقًا تمامًا عندما يتحدث عن "العالم الخشبي". في جميع حالات الوعي التي تزيد عن المستوى الرابع، تكون "مقاومة" "العالم الخشبي" مصدرًا للبهجة: تخيل متعة متزلج يشعر بالريح تصفر بجانب أذنيه، أو سائق سباق ينطلق بأقصى سرعة، أو سباح قوي يشق طريقه عكس التيار، ومن الواضح أن الحياة تختبر نفسها بأقصى شدة في مواجهة المقاومة. وهذا قد يفسر لماذا قررت قوة الحياة القيام بالمغامرة الخطرة المتمثلة في غزو عالم المادة.

هناك بدأت مشاكله. قبل أن يتمكن من ترسيخ وجوده في المادة، كان عليه أن يخلق الروبوت، وسرعان ما أصبح الروبوت وحشًا فرانكشتاينيًا كاد أن يقضي على سيده. إن تعقيده الهائل يسلب الحياة عفويتها ويُقوّضها بإحباط. ومع ذلك، يجب أن يكون واضحًا أيضًا أن البشر يقتربون الآن من نقطة تحول في تطورهم. ففي المستويات الدنيا من الوعي تكون الحياة أكثر استعبادًا للروبوت: وفي المستويات العليا، يتضاءل تأثيره تدريجيًا حتى يختفي تمامًا في المستوى الصوفي. في المستوى الرابع، يلمح البشر لمحات متكررة من المستوى الخامس - "وعي العطلة" وتجربة الذروة. ما يمنعنا من ترسيخ وجودنا على هذا المستوى الأعلى هو مشكلة "الانقلاب"، وتجربة الذروة تجعلنا ندرك أن هذه ليست مشكلة حقيقية. بمجرد أن نستوعب هذه الرؤية ونُثبتها في اللغة، ستتلاشى المشكلة.

السلاح الأساسي في هذا الصراع التطوري هو اللغة. تأملوا في هذا التأمل الرصين: لو استطاع فولتير قراءة الصفحات الاثنتي عشرة الأخيرة من هذا الكتاب، لما كانت لديه أدنى فكرة عما نتحدث عنه. لقد فكر في فئات أبسط (الإلحاد مقابل الخرافة، إلخ)، وعلى الرغم من ذكائه، لكان في حيرة من أمره كما لو كنت أتحدث الصينية. ومع ذلك، فإن معظم القراء المعاصرين الأذكياء نسبيًا يستطيعون فهم ما نقوله دون صعوبة. هذا لأن اللغة نجحت في التوغل في عوالم المجهول منذ أواخر القرن الثامن عشر. كل مفهوم جديد -

البُعد الرابع، القصدية، ذروة التجربة، الكلية س - هي رأس جسر مُلقى إلى ذلك المجال من اللاوصف - مستوى أوسبنسكي الصوفي حيث يُرى كل شيء. مهمة اللغة هي خلق هذه الروابط التي رآها وارد وأوسبنسكي بمجرد تجاوزهما مستوى الوعي المادي العادي. وبمجرد تثبيت هذه الروابط في اللغة، فإنها تُصبح، إن جاز التعبير، كشفًا دائمًا عن المعنى، مثل زهور مارغريت لين الزرقاء.

كانت هذه بصيرة ثاقبة صدمتني فجأة في أوائل السبعينيات عندما جاءني صديق ليسألني عما إذا كان لدي أي بحث يمكنه القيام به من أجلي: شعر أنه على وشك الانهيار العصبي وأراد شيئًا يشغل ذهنه. كان علي أن أشرح باعتذار أنه ليس لدي ما أقدمه. ولكن عندما غادر أعطيته نسخة من كتابي عن ماسلو، مسارات جديدة في علم النفس. بعد بضعة أيام اتصل بي. "لقد كنت تعرف ما كنت تفعله عندما أعطيتني هذا الكتاب، أليس كذلك؟" أخبرني أن الفصل الأول، الذي يصف مفهوم ماسلو لتجربة الذروة، قد رفعه مباشرة من اكتئابه. مكنته أفكار ماسلو من التعامل مع مشكلته، التي بدت حتى ذلك الحين عدوًا خطيرًا وغير مرئي. عندما قرأ الكتاب، تبخر الاكتئاب ببساطة.

تُسلّط القصة الضوء على نقطة جوهرية: من السهل بشكلٍ مُدهش الانتقال من مستوى إلى آخر؛ لكن العائق الرئيسي هو الشك - ذلك الشعور المُستمر بأن الجهود التي تتطلبها الحياة لا تستحق العناء. وكما يقول بليك:

إذا شكت الشمس والقمر فانطفآ على الفور.

ومع ذلك، فإن الشك هو ما يُقدّم لنا المفتاح الأساسي لهذه المشكلة. تخيّل ما يحدث عندما تشعر بهذا الشعور بالغرق، أو عندما تُجبر نفسك على القيام بمهمة تبدو لك مضيعة للوقت. أنت "تتسرب"، وتستنزف طاقاتك. يقضي معظمنا جزءًا كبيرًا من حياتنا في محاولة التكيّف مع التسرب، مع نقص كامن في الحماس للمهام اليومية. يُسبّب الشك تشتت طاقاتنا وتشتتها. يُمكن تشبيهها بكرات البلياردو المتناثرة على سطح الطاولة. في اللحظة التي نُنتبه فيها، نجذب الكرات نحو مركز الطاولة. إذا انغمسنا في شيء ما، تضغط الكرات معًا في مجموعة ضيقة. إذا دُفعتُ إلى تركيز شديد، فإن الضغط يُسبّب تسلّق بعض الكرات فوق البقية. ولكن هذا هو أقصى ما يُمكن أن يصل إليه معظمنا: الجهد يُرهقنا، أو بعض الشك...

يتدخل، فنسمح للكرات بالتناثر مرة أخرى. لكن أحيانًا، إذا دفعتنا أزمة أو شعور بالهدف إلى بذل جهد يائس لإرادتنا،
- كرجل يقف أمام فرقة إعدام - يمكننا أن نجعل الكرات تُشكّل طبقة ثانية، ثم نبدأ بتكوين طبقة ثالثة. وبينما يحدث هذا، يصبح الإحساس بالمعاني، بـ"الروابط"، مثيرًا للغاية لدرجة أننا ندرك للحظة الهدف الحقيقي لقوى تركيزنا: "تركيز" كرات البلياردو في شكل هرم. لو استطعنا بالفعل تحقيق "الهرم"، لغذّت عقولنا بمثل هذا الإحساس القوي بالمعنى من "نطاقات الحقائق البعيدة" لدرجة أن "الشك" سيصبح مستحيلًا: لن يكون هناك إغراء للسماح للكرات بالتناثر، تمامًا كما قد يُغرى طفل بالنوم في منتصف حفلة عيد ميلاده. هذه هي الكلية X، مستوى التركيز الذي يسبق التجربة الصوفية. إنه إدراك لما سيُقدّر للوعي البشري أن يحققه يومًا ما، وهو ما أسماه الكابتن شوتوفر في رواية "شو" "الدرجة السابعة من التركيز". ستكون حالةً يتحكم فيها الإنسان تحكمًا كاملًا بقواه الخفية، ويخوض فيها صراع التطور في وضح النهار الواعي. في تلك المرحلة، ستكون القوى السلبية التي تعيقنا حاليًا قد تخلفت عن الركب.

يكشف تاريخ التطور البشري أن هذا التطور حتمي. وقد لاحظنا بالفعل أن الحياة على الأرض، خلال نصف مليار عام الأولى، لم تكن سوى صراعٍ لا هوادة فيه من أجل البقاء، وسجلٍّ لا ينضب من الوحشية. لم يكن هذا وصفةً لليوتوبيا، لذا كانت الخطوة التالية هي السعي نحو تطوير الذكاء. كان هذا مشروعًا ناجحًا بشكلٍ مذهل، وحتى قبل ألفي عام ونصف، بدأ عددٌ كبيرٌ من البشر يدركون أن الهدف الرئيسي للوجود البشري هو تطوير الذكاء وتهيئة الظروف التي تُعززه. كان اختراع الدراما في اليونان القديمة من أهم خطوات هذا التطور. فقد علّمت البشر أن لديهم مسرحًا داخل عقولهم، وفي هذا المسرح علّم سقراط وأفلاطون تلاميذهما تمثيل مسرحيات الأفكار. كان تطور الإنسان على مدى الألفي عام التالية تطورًا لهذا المسرح الداخلي. ويُطلق عليه اسمًا آخر وهو الخيال، لأنه يعني في الواقع أن الإنسان يُجسّد مسرحيات العالم الخارجي على مسرح داخلي. وقد جعل تطور الخيال الإنسان يدرك أن هذا العالم الباطني مستقل عن حوادث المادة ومصادفاتها. وكان هذا الإدراك هو ما حوّله من قرد ذكي للغاية إلى كائن يدرك - مهما كان إدراكه ضعيفًا - أنه قد يكون إلهًا.

ما هو الخيال؟ إنه القدرة على الربط. جلس عمي ذات مرة على غصن شجرة وهو يقطعه من جذعها، وفوجئ عندما سقط على الأرض: لقد فشل في ربط الأشياء ببعضها.

مُسبقًا. يبدو هذا مُستهجنًا، لكنني فعلتُ للتو شيئًا يُقارب السخافة. توقفتُ عن العمل لأُعدّ لنفسي كوبًا من الشاي، وملأت الغلاية حتى آخرها دون وعي، مُغفلةً أن غليانها سيستغرق وقتًا أطول. الخيال هو القدرة على استباق الواقع باستحضار روابط ذهنية.

الآن، عندما يعمل الخيال جيدًا، ينتشر كحريق غابة، فأرى جميع أنواع الروابط. (أؤكد على كلمة "أرى" لأن أوسبنسكي وورد يُصرّان على أنهما رأيا حرفيًا أن كل شيء في الكون مترابط). عندما أشعر بالتعب أو الخمول، أشعر كما لو أن الغابة غارقة في المطر، والنار تفشل في الانتشار. لكن عندما أشعر بالنشاط في صباح ربيعي، يبدو أن عقلي وحواسي تتحدان لتكوين عشرات الروابط - مع صباحات الربيع الماضية، مع الطفولة، مع ذكريات الريف، مع الماء المتلألئ في ضوء الشمس... قال سي إس لويس ذات مرة إن فكرة الخريف نفسها ملأته بشوق عميق، ومرة أخرى يمكننا أن نرى أن هذا الشوق مركب من أوراق الشجر الصفراء، ورائحة النيران، والسماء الرمادية الناعمة، وفكرة الكعك المحمص، وآلاف الأشياء الأخرى. من الواضح أن عقولنا لديها هذه القدرة على "الانتشار جانبيًا" إلى آلاف الروابط، لكن الخشب عادةً ما يكون رطبًا جدًا بحيث لا يحترق. أو بعبارة أخرى، أدمغتنا باهتة للغاية، بحيث لا يمكن للوعي العادي الوصول إلى الكنز العظيم من الذاكرة المخفية داخلنا.

الجنس مُحرِّرٌ قويٌّ للروابط. من السهل تخيُّل أن أنطونيوس عندما مارس الحب مع كليوباترا لأول مرة، أو باريس مع هيلين، اختبرا شعورًا شبه صوفيّ بالتصالح التام، شعورًا بأن كل شيء في الكون خير. وهذا يُفسِّر الشعبية الدائمة لقصص الحب: يكفي أن نقرأ عن شابٍّ يقع في حب فتاة لنشعر بتلك الموجة الدافئة من الاهتمام التي تعني أن الخيال قد تأثر. كما يُفسِّر شعبية المواد الإباحية - وهنا نواجه أحد أبرز التطورات البشرية التطورية. الإنسان هو المخلوق الوحيد على الأرض الذي يستطيع تخيُّل فعل جنسي بتفاصيل واقعية لدرجة أنه يستطيع أن يصل به إلى ذروة جسدية. على الرغم من عبثية الأمر، فإن الاستمناء هو أحد أبرز التطورات التطورية للبشرية. ولكن يمكننا أيضًا أن نرى أن اختراع الدراما، ولاحقًا الرواية، كانا امتدادًا رائعًا لقدرة الخيال البشري. بفضل رواية بين يديها، يمكن لابنة أحد قساوسة الريف في القرن التاسع عشر أن تعيش حياة ثرية مثل هيلين طروادة. أو ربما أكثر ثراءً، لأن هيلين الحقيقية كانت تقضي أيامها في تمشيط الكتان ومحاولة التغلب على الملل.

كان هذا التطور في الخيال هو ما أدى إلى ظهور ما نسميه الحركة الرومانسية، حيث لمع كل شعرائها وفنانيها وموسيقييها هذه الرؤية للتنوع الهائل في الكون. وظلت هذه الرؤية تملأ

لقد أظهروا لهم الشجاعة والتأكيد الخالص، حتى أن شيلي كتب:

لقد أقسمت أنني سأكرس قواي
إليكَ ولك - ألم أُوفِ بهذا العهد؟ بقلبٍ ينبض وعينيَّ دامعتين،
حتى الآن أستدعي أشباح ألف ساعة
كلٌّ من قبره الصامت...

ونستطيع أن نرى أيضًا أن شيلي يتحدث عن نفس "النظرة الخاطفة" التي غمرت بروست عندما تذوق المادلين.

أدرك هؤلاء الشعراء أنه لا ينبغي لنا أن نلوم الكون - أو الله - على مشاكل الوجود البشري، بل على ضيق حواسنا. كتب بليك: "لقد انغلق الإنسان على نفسه، حتى أصبح يرى كل شيء من خلال شقوق كهفه الضيقة"، بينما صرّح غوته:

العالم الروحي لا يغلق أبدًا
قلبك ميت، حواسك مغلقة...

ومع ذلك، فإن ما جعل الرومانسيين بائسين للغاية - لدرجة الانتحار أحيانًا - هو الشعور بأنهم لا يستطيعون فعل شيء حيال هذا الضيق: أن الإنسان محاصر في نوع من السجن ومحكوم عليه بالسجن مدى الحياة. صحيح أن عالم الخيال يسمح بقدر من الحرية، إلا أن الانغماس في ملذاته يبدو أنه يجعلهم أقل قدرة على التعامل مع مشاكل العالم المادي. بعد رحلة إلى "أرض الأحلام"، كانوا يشعرون عادةً بالوهن التام. بدا واضحًا أن الخيال ليس سوى هروب من قسوة الواقع "الحقيقي"، وأنه يزيد الأمور سوءًا عندما تضطر إلى التعامل مع كآبة صباح يوم اثنين بارد. الآن، الشخص الذي يعتبر عالم العقل غير حقيقي ولكنه يشعر أنه لا يزال يفضله على غباء الواقع وفظاظته هو "دخيل"، والجنس البشري لا يزال في مرحلة "الدخيل" من تطوره.

لقد عرّف كارليل مشكلة "الغريب" تعريفًا دقيقًا عندما تحدث عن الصراع بين النعم الأبدية واللا الأبدية. بعبارة أخرى، كانت مشكلة أيهما صحيح: لحظات التأكيد المطلق عندما يتضح جليًا أن الحياة آسرة بلا حدود، أم الشعور الكئيب بالبساطة الذي يملأ معظم حياتنا. بعض لوحات فان جوخ

هي أقوى تعبير عن تجربة التأكيد التي تم إجراؤها على الإطلاق، ومع ذلك فقد ترك رسالة انتحار كتب فيها: "لن ينتهي البؤس أبدًا". فلسفة نيتشه هي الرفض الأكثر نفاذًا وشاملة للتشاؤم الرومانسي على الإطلاق، ومع ذلك مات مجنونًا. لقد انحدر جميع الرومانسيين بسبب هذا الشك في أن لحظات رؤيتهم كانت أوهامًا وأن التفاؤل ليس سوى اسم آخر للصفير في الظلام. كل واحد منا يواجه نسخة أصغر من نفس المشكلة عشرات المرات في اليوم: شعاع من ضوء الشمس يجلب وهجًا من السعادة يتبعه على الفور "شعور بالغرق" عند التفكير في فاتورة الكهرباء. مع هذه الانقضاضات المستمرة من التفاؤل إلى التشاؤم والعودة مرة أخرى، فليس من المستغرب أن يعتقد ماكبث لشكسبير أن الحياة حكاية يرويها أحمق.

يتجلى لنا حل هذه المشكلة القديمة فور فهمنا لآليات الروبوت. ما أزعج الرومانسيين هو الشك في أن لحظات الرؤية والتجارب اللحظية ما هي إلا أوهام سارة ناجمة عن فيض من الطاقة الحيوية، وأنها لا تزيد أهمية عن النشوة التي يسببها الكحول. في هذه الحالة، الحقيقة هي أن الحياة مملة وعادية، وأن الفنانين الذين يسعون إلى تحويلها إلى شيء غامض ومثير هم هاربون مخادعون. بمجرد فهمنا لآليات الروبوت، ندرك أن هذا ببساطة غير صحيح. الروبوت أشبه بمثبط اهتزاز البيانو الذي يمنع الأوتار من الاهتزاز. لكن من الطبيعي أن يهتز الوتر ويتسبب في اهتزاز أوتار أخرى. الوعي غير الآلي هو وعي طبيعي. هذا يعني أنه من الطبيعي أن يدرك الوعي ترابط الأشياء. عندما رأى جندي البحرية في ماسلو ممرضة لأول مرة منذ سنوات، عاش تجربة ذروة لأنه أدرك فجأة أن النساء يختلفن عن الرجال. لم تكن مجرد امرأة، بل كانت كل النساء - الأنوثة الأبدية. وعندما يكون البشر في حالة من الإثارة الفكرية، يلمحون فجأةً دلالات فكرة ما: تبدو وكأنها تمتد كخيوط شبكة عنكبوت هائلة. يُولّد الروبوت شعورًا بـ"الانفصال" عن طريق تثبيط أوتارنا العقلية، لكن هذا يُشكّل انقطاعًا للاهتزاز الطبيعي.

باختصار، الروبوت هو من يُضعف حواسنا بحيث تبدو مغطاة بطبقة رقيقة من مادة عازلة تمنعنا من الشعور بأي شيء؛ إنه الروبوت الذي يجعل تجربتنا تبدو باهتة ومتكررة؛ إنه الروبوت الذي يُختزل عالم الواقع المُعقد بلا حدود إلى "عادية". لذا، فإن الإدراك الآلي خاطئ، والإدراك غير الآلي صحيح. لو أدرك الرومانسيون هذا، لأزالوا السبب الكامن وراء بؤسهم ويأسهم بجعلهم يدركون أن لحظات الرؤية هي إدراك حقيقي، وليست وهمًا سارًا. فإلى أن نتمكن من حسم أمرنا بشأن هذا السؤال الأساسي، ستظل الحياة سلسلة من تقلبات البندول.

بين التفاؤل والتشاؤم، والعزيمة والإحباط. نحن في وضع مُموّل طُلب منه الاستثمار في مشروعٍ يبدو في لحظةٍ ما سليمًا ومزدهرًا، وفي لحظةٍ أخرى على شفا الإفلاس: وبينما هو عاجزٌ عن اتخاذ قرار، يبقى رأس ماله عاطلًا. حالما يتأكد من سلامة المشروع، يُمكنه الشروع في تمويله. حالما نُدرك أن "العادية" الظاهرة للعالم هي وهمٌ صنعه الروبوت، وأن "الأخبار السارة السخيفة" لمحةٌ عن الواقع الكامن، يُمكننا الشروع في تغيير حياتنا.

كيف نتعلم الهروب من أوهام الروبوت؟ كيف نحوّل الوعي الآلي إلى وعي غير آلي؟ كانت هذه هي المشكلة التي كرّس لها غوردجييف حياته، وتمثّل حلّه فيما أسماه "المنبهات"، وهي سلسلة من الصدمات والمحفزات التي تُحفّز الناس على تجاوز "آليتهم" إلى مستوى أعلى من الجهد - لأنه، مثل جيمس، أدرك أن الجهود والإثارة هي التي تحملنا فوق السد. على سبيل المثال، اعتاد غوردجييف دخول السكن حيث كان تلاميذه نائمين وينقر بأصابعه، وكان على الجميع النهوض من فراشهم واتخاذ وضعية معقدة في غضون ثوانٍ. من الواضح أن مثل هذه التقنية ستُشجّع على اليقظة: لكن مشكلة هذه الأساليب أنها قد تصبح آلية بسهولة. لكن الخطر الحقيقي يكمن في أن هذا النهج المُرهق يميل إلى إثارة شعورٍ بعزيمةٍ قاتمةٍ تنزلق بسهولةٍ إلى التشاؤم: من المحزن أن نسجل أن أوسبنسكي قضى أيامه الأخيرة في الشرب بإفراطٍ، وهو يحلم أحلام يقظةٍ كئيبةٍ عن الأيام الخوالي الجميلة في روسيا. حتى غوردجييف أبدى انطباعًا غريبًا بالحزن في سنواته الأخيرة. هذا يجعلنا نُدرك أن "الشعور بالحرية" هو في جوهره شعورٌ بالتفاؤل، شعورٌ بأن الحياة مليئةٌ بالإمكانيات الرائعة. يحدث هذا عندما يكون العقل الباطن في مزاجٍ إيجابي - وفي هذه الحالة، يبدو الأمر كما لو أننا شغّلنا نوعًا من الإضاءة الوردية تحت الأرضية. هذا ما فعله طلاب ماسلو عندما بدأوا يفكرون ويتحدثون عن تجارب الذروة، وهذا يُفسر سبب استمرارهم في خوض تجارب الذروة. تجربة الذروة هي إدراكٌ بأن كل شيء على ما يرام، وأن "الانقلاب" الذي عادةً ما يملؤنا بعدم الثقة هو سوء فهم، وهمٌ طفولي.

هذا يُمكّننا أيضًا من فهم سبب خطأ ماسلو عندما قال إن تجربة الذروة لا يمكن استحثاثها بإرادتنا. نحن بالفعل نُستحث تجارب الذروة، لكن الآلية دقيقة للغاية لدرجة أننا نفشل في فهم كيفية حدوثها. كشف غوته أنه فهم الآلية عندما جعل الروح تقول لفاوست: "قلبك ميت، وحواسك مغلقة". يبدو أن القلب، على نحو غريب، هو العضو الأساسي المعني. عندما نكون في عجلة من أمرنا أو نفعل شيئًا لا نحبه، نضغط على قلوبنا، تمامًا كما نضغط على قبضة اليد، ولا يمكن لأي شيء أن يدخل. عندما يملؤنا شعور بالتعدد والإثارة، فإننا بطريقة ما "نفتح"...

قلوبنا تُفتح وتُتيح للواقع أن يتدفق. لكن في تلك الحالة، يكفي أن نُسيطر على فكرة مزعجة حتى تُغلق من جديد. والبشر بطبيعتهم مُعرضون لعدم الثقة، مما يُصعّب الحفاظ على هذا الانفتاح طويلًا. أما الأطفال، فيجدون سهولة في الانزلاق إلى حالات من الدهشة والبهجة عندما ينفتح القلب أخيرًا على مصراعيه، فيبدو العالم كله ساحرًا. تكمن "خدعة" تجربة الذروة في هذه القدرة على الاسترخاء والتخلص من وضعيتنا الدفاعية المعتادة، و"فتح القلب". تعلم طلاب ماسلو هذه الحيلة بسرعة، ثم كرروها مرارًا وتكرارًا.

يمكننا الآن أن نبدأ في فهم التوجه المستقبلي للتطور البشري. قال سقراط ذات مرة إنه بما أن الفيلسوف يقضي حياته محاولًا فصل جسده عن روحه، فيجب اعتبار الموت اكتمالًا. يبدو هذا التعليق أشبه بمغالطة: ومع ذلك، إذا استطعنا قبول أدلة الصوفيين وتجربة الاقتراب من الموت، فقد يكون الأمر أقل عبثية مما يبدو. وفي هذه الحالة، لا نزال نواجه السؤال المحوري: إذا كان الأمر كذلك، فماذا نفعل هنا؟ والأهم من ذلك، ما الذي يُفترض بنا فعله الآن وقد وصلنا إلى هنا؟ يمكننا أن نلمح الإجابة في تجربة الذروة وفيما قاله أوسبنسكي ووارد عن التجربة الصوفية. إذا كان شعور "كل شيء على ما يرام" بصيرة صحيحة وليس تبسيطًا مفرطًا سخيفًا، فإن البشر يخلقون معظم مشاكلهم الخاصة من خلال مواقفهم المربكة والسلبية. ثم يضاعفون المشكلة من خلال عدم الثقة ونوع من الاستخفاف بالذات. تُنبئنا تجارب الذروة برؤية مفادها أنه إذا أمكن القضاء على هذه المواقف، يُمكننا العيش على مستوى أعلى بكثير من التأكيد والحرية، مستوى - كما قال شو في العودة إلى متوشالح - تُصبح فيه كل حياة أشبه بالنشوة الجنسية. لمح إتش جي ويلز نفس الرؤية في كتب مثل "يوتوبيا حديثة" و"رجال كالآلهة"، لكن ماديته العلمية جعلته يرى المشكلة من منظور اجتماعي بحت، لذا فشل في إدراك أن "العصر الجديد" لا يمكن أن يُؤسس إلا على بصيرة نفسية جديدة: ونتيجة لذلك، تبدو يوتوبياه المستقبلية مخيبة للآمال وغير واقعية على نحو غريب. إن بصيرة الحرية، واعتراف ماسلو "بأسقف أعلى للطبيعة البشرية"، تعني أن البشر مخطئون في افتراض أن هذا العالم، في طبيعته الأساسية، "وادي قاتم وواسع من الدموع". لسنا محاصرين في نوع من الخطيئة الأصلية؛ فقط غباء أصلي. ويمكن التغلب على الغباء بجهد حثيث من الذكاء.

في المرحلة الحالية، تكمن مشكلتنا في فهم آليات تجربة الذروة، وفهم أن الشعور بالغرق ليس لمحةً عن انعدام المعنى الأساسي للحياة، بل هو مجرد "تسرب" يُخفف من ضغطنا الداخلي. عندها، سيكون من البديهي، على سبيل المثال، أن غثيان سارتر هو مجرد حالة تتناثر فيها كرات البلياردو على سطح الطاولة: ولهذا السبب انهار المعنى - من المستحيل إدراك المعنى باهتمام مُشتت. الاكتئاب الذي دفع غراهام غرين إلى لعب الروليت الروسي كان...

كذلك، تناثرت كرات البلياردو: دقات المطرقة جعلتها تتجمع في منتصف الطاولة، مُحدثةً رؤيةً ذات معنى. وينطبق الأمر نفسه على "لمحة" بروست وهو يتذوق المادلين: ما يعني بدوره أن شعوره بتوقفه عن الشعور بأنه "عادي"، "عرضي"، "فانٍ" كان إدراكًا حقيقيًا، لمحةً عن "قوى خفية"، وليس نزوةً عصبية.

كان هذا الكتاب محاولةً لإظهار أن هذه "القوى الخفية" دليلٌ على إمكاناتنا التطورية. ولمن يرغب في التفكير في الأمر بعقلٍ منفتح، فالأدلة دامغة. فعندما اكتشف ألفريد راسل والاس أن تلميذًا مُنومًا مغناطيسيًا "يشارك" أحاسيسه الخاصة، فقد عثر على إمكانات بشرية غير مكتشفة. وكذلك فعل ويليام دينتون عندما أدرك أن زوجته وشقيقة زوجته تستطيعان "قراءة" تاريخ الأحجار القديمة. وكذلك فعل أرنولد توينبي عندما "شاهد" معركة فارسالوس مُعاد تمثيلها. وكذلك فعلت جين أونيل عندما أمضت ساعةً في كنيسة فوثرينغهاي كما كانت موجودة قبل خمسمائة عام. وكذلك فعل ويلبر رايت عندما حلم بالفائزين في سباقات الخيول المستقبلية. وكذلك فعلت سوزي باور عندما "نقلها" شوقٌ شديدٌ بطريقةٍ ما لأكثر من سبعمائة ميل. وكذلك فعل أوسبنسكي عندما توقع أنه لن يقوم برحلته المُخطط لها إلى موسكو. كل هذه الحالات، ومئات غيرها، توضح أن تقييمنا للقدرات البشرية محدود وغير دقيق بشكلٍ سخيف. ينشأ هذا الخطأ من محدودية أجسامنا وبلادة حواسنا، وليس من خلال قدراتنا العقلية. لا تناقض بين قدراتنا العقلية واللمحات التي ندركها في لحظات الرؤية وومضات "الوعي الشديد". مشكلتنا الرئيسية هي تفسير هذه اللمحات من منظور العقل والمنطق. وبينما نفعل ذلك، ندرك وجود صلة حيوية بين التجربة الصوفية والتجربة الخارقة للطبيعة وقوى الخيال غير المستكشفة.

دعوني أحاول أن أشرح بإيجاز ما هو مُرادف للموضوع. الإنسان هو أول حيوان على وجه الأرض يمتلك حسًا بالهدف طويل الأمد. والمُفارقة أنه يُطبّق هذا الهدف على حياته الجسدية دون حياته العقلية. والنتيجة أنه، جسديًا، أصبح سيد الحضارة، بينما عقليًا، لا يزال يعيش في زمن الجامعة. لقد تسلق أعلى جبال العالم واستكشف أقسى براريها، ومع ذلك، فيما يتعلق بالوعي، لم يُغامر إلا نادرًا بالخروج من حديقته الخلفية. وإذا شعر برغبة في تغيير وعيه، فإنه يسكب لنفسه كأسًا من الويسكي أو يشتري تذكرة لنهائي الكأس. والنتيجة هي أنه يتقبل تجارب الذروة كنوع من المكافأة المُمتعة بدلًا من إدراك آثارها: أن الحياة كلها قد تكون نوعًا من تجربة ذروة مُستمرة. وهكذا، في كل مرة يصعد فيها إلى قمة سفح تل، يُعجب بالمنظر ثم يستدير ويعود إلى القاع مرة أخرى، بدلًا من إدراك أن مهمته الحقيقية هي تسلق...

جبلٌ يقع خلفه. يفعل ذلك لأنه يُسلّم بأن الحالة الطبيعية لكرات البلياردو التي تُشكّل وعيه هي البقاء متناثرةً على سطح الطاولة، وأن ما يختبره عندما تتجمع في مجموعةٍ مُتراصة لم يكن مُقدّرًا له أن يكون حالةً دائمة. لذا فهو يتقبّل الركود العقلي كقاعدة (فهذا هو جوهر الوعي العادي)، ولا يُحاول بناء رؤاه على شكل هرم.

ما دام هذا صحيحًا، سيستمر الإنسان في تحديد الزمن في مرحلته الحالية من التطور. وحالما يتوقف هذا عن كونه صحيحًا، ستبدأ المرحلة التالية من التطور البشري.

*جون بارو وفرانك تيبلر، المبدأ الكوني الأنثروبي (1986)، ص 470.

*آر إتش وارد، مذكرات متعاطي المخدرات.

*ما وراء الغريب. الملحق 1.

فهرس

ألين، وارنر. اللحظة الخالدة. فابر وفابر، لندن.
أليسون، د. م.، رالف مع شوارتز، تيد. عقولٌ في أجزاءٍ متعددة. مكتبة الكونجرس، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٠.
أركل، ويليام. الهولوغرام والعقل. دار أكورن للنشر، غلوستر.
بيكر، د. روبن. لغز الهجرة. منشورات ماكدونالد فوتورا، لندن، ١٩٨٠.
بانكروفت، آن. الرؤية المضيئة. جورج ألين وأونوين، لندن، ١٩٨٢.
ألين وأونوين، الولايات المتحدة الأمريكية، 1982.
باريت، السير ويليام. رؤى فراش الموت. دار نشر أكواريان، نورثهامبتونشاير، ١٩٨٦. نُشر لأول مرة عام ١٩٢٦.
بارو، جون د. وتيبلر، فرانك ج. المبدأ الكوني الأنثروبي.
دار كلارندون للنشر، أكسفورد، 1986.
بنتوف، إسحاق. مطاردة البندول الجامح. إي. بي. داتون، نيويورك، ١٩٧٧. بيرد، كريستوفر. اليد العرافة. إي. بي. داتون، نيويورك، ١٩٧٩.
بلاكمور، سوزان ج. "ما وراء الجسد". دار غرناطة للنشر، ١٩٨٣. بلاكسلي، توماس ر. "الدماغ الأيمن". مطبعة ماكميلان، لندن، ١٩٨٠. بويد، دوغ. "الرعد المتدحرج". دار راندوم هاوس، نيويورك، ١٩٧٤.
بريغز، جون، وبيات، ف. ديفيد. "عالم المرآة". سايمون وشوستر، نيويورك، ١٩٨٤.
بوكانان، دكتوراه في الطب، جوزيف رودس. دليل القياس النفسي: فجر حضارة جديدة. دار هولمان براذرز، بوسطن. ١٨٨٥.
باك، د. م.، ريتشارد موريس. الوعي الكوني. كتب الجامعة، نيويورك. ١٩٦١.
كابرا، فريتجوف. تاو الفيزياء. شامبالا، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٥. كارلسون، ريك ج. آفاق العلم والطب. وايلدوود هاوس.
لندن، 1975.
كورليس، ويليام ر. العقل الغامض: دليل الظواهر العقلية غير العادية. مشروع الكتاب المرجعي، جلين آرم، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٢.
كوكسهيد، نونا. أهمية النعيم. دار وايلدوود، لندن، ١٩٨٥. كرابتري، آدم. الإنسان المتعدد: استكشافات في التملك والتعدد.
شخصية. كولينز، أونتاريو، كندا، 1985.

كراكنيل، روبرت. أدلة على المجهول. هاملين للكتب الورقية، ميدلسكس، ١٩٨١. كروكال، روبرت. آليات الإسقاط النجمي. دارشانا الدولية.
الهند، 1968.
كرو، كاثرين. ال الجانب الليلي ل طبيعة. ال برج الدلو
يضغط،نورثهامبتونشاير، 1986. نُشر لأول مرة عام 1848.
دينتون، ويليام. روح الأشياء. دار أكواريان للنشر، نورثهامبتونشاير، ١٩٨٨. نُشر لأول مرة عام ١٨٦٣.
دان، جيه دبليو. تجربة مع الزمن. فابر وفابر، لندن، ١٩٢٧. دان، جيه دبليو. الخلود الجديد.
فابر وفابر، لندن، ١٩٢٧.
إيبون، مارتن. طرد الأرواح الشريرة: حقيقة لا خيال. المكتبة الأمريكية الجديدة، نيويورك، ١٩٧٤.
فلاماريون، كاميل. المجهول. هاربر وإخوانه، لندن ونيويورك، ١٩٠٠.
فلاماريون، كاميل. الموت وسره: ما قبل الموت. ت. فيشر أونوين، لندن، ١٩٢١.
فلاماريون، كاميل. الموت وغموضه: في لحظة الموت. ت. فيشر أونوين، لندن، ١٩٢٢.
فلاماريون، كاميل. الموت وسره: ما بعد الموت. ت. فيشر أونوين، لندن، ١٩٢٣.
فودور،ناندور. العقل المسكون. منشورات غاريت، نيويورك، ١٩٥٩. فورمان، جوان. قناع الزمن.
منشورات ماكدونالد وجينز، لندن،
1978.
غابارد، جلين أو.، وتويملو، ستيوارت دبليو. "بعيون العقل". دار نشر براجر، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٤.
غاريت، إيلين ج. حياتي. نادي الكتاب الروحاني، لندن، ١٩٣٩.
غاريت، إيلين ج. مغامرات في عالم ما وراء الطبيعة: مذكرات شخصية. دار نشر كرييتيف إيج، نيويورك، ١٩٤٩.
غوتش، ستان. مخلوقات من الفضاء الداخلي. رايدر وشركاه، لندن، ١٩٨٤.
جوس، مايكل. بولترجيست: ببليوغرافيا مُعلّقة للأعمال باللغة الإنجليزية، حوالي ١٨٨٠-١٩٧٥. مطبعة سكيركرو، ميتوتشين، نيوجيرسي، الولايات المتحدة الأمريكية، لندن، ١٩٧٩.
غرين، سيليا وماكريري، تشارلز. الأشباح. هاميش هاميلتون، لندن، ١٩٧٥.
غرين، غراهام. نوع من الحياة. بودلي هيد، لندن، ١٩٧١.
جرينهاوس، هربرت ب.، هواجس: قفزة نحو المستقبل. مطبعة تورنستون، لندن، ١٩٧٢.
غراي، مارغوت. العودة من الموت. أركانا، لندن، ١٩٨٥.
جورني، إي. ومايرز، إف دبليو إتش وبودمور، إف. أشباح الأحياء، المجلدان 1 و2
تروبنر وشركاه، لندن، 1886.

هاردي، السير أليستر. الطبيعة الروحية للإنسان. مطبعة جامعة أكسفورد، أكسفورد، ١٩٧٩.
هيرون، جون. اعترافات عقلٍ مزدوج. مطبعة توندیمیون، لندن، ١٩٨٧. هيوود، روزاليند. الخلية اللانهائية. دار بان بوكس المحدودة، لندن، ١٩٦٦.
هوفستاتر، دوغلاس ر. ودينيت، دانيال س. العقل الأول. دار نشر بينجوين المحدودة، ميدلسكس، 1982.
هدسون، تومسون جاي. قانون الظواهر النفسية. دار نشر جي بي بوتنام، لندن ١٩٠٢.
هيرلي، ج. فينلي. السحر. روتليدج وكيغان بول، لندن والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨٥. هاتشيسون، مايكل. ميجابرين. بيتش تري بوكس، ١٩٨٦.
إنجليس، برايان. العلوم والظواهر غير الطبيعية. هودر وستوتون، لندن والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٤.
إنجليس، برايان. الطبيعي والخارق للطبيعة. هودر وستوتون، لندن والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٧.
جاينز، جوليان. أصل الوعي في انهيار العقل ثنائي المجلس. هوتون ميفلين، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٦.
جينكينز، ستيفن. البلد غير المكتشف. نيفيل سبيرمان، سوفولك، ١٩٧٧. جيناراجاداسا، س. تحقيقات غامضة: وصف لأعمال آني
بيسانت وسي دبليو ليدبيتر. دار النشر الثيوصوفية، الهند، 1938.
جونسون، راينور سي. مراقب على التلال. هودر وستوتون، لندن، ١٩٥٩. يونغ، سي جي. ذكريات، أحلام، تأملات. تسجيل وتحرير أنييلا جافي.
كولينز وروتليدج وكيجان بول، لندن، 1963.
كارديك، آلان. كتاب الأرواح. بحيرة ليفراريا آلان كارديك إيديتورا المحدودة، البرازيل، 1972.
كيلر، هيلين. قصة حياتي. دار دوبلداي للنشر، نيويورك، ١٩٥٤.
كيز، دانيال. عقول بيلي ميليغان. دار نشر راندوم هاوس، نيويورك ١٩٨١. كينغ، سي. دالي. حالات الوعي البشري. كتب الجامعة، نيويورك.
يورك، 1963.
نايت، ديفيد س. قارئ ESP. كاسل بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٩.
كويستلر، آرثر. الكتابة الخفية: المجلد الثاني من "سهم في الأزرق". كولينز مع هاميش هاميلتون، لندن، ١٩٥٤.
كريبنر، دكتوراه، ستانلي. الإمكانيات البشرية. أنكور برس/دبلداي، نيويورك، ١٩٨٠.
كريبنر، دكتوراه، ستانلي وفيلولدو، ألبرتو. عوالم الشفاء. الفنون السماوية، كاليفورنيا، ١٩٨٦.
ليشان، لورانس. نحو نظرية عامة للظواهر الخارقة للطبيعة. دراسات في علم النفس الخارق للطبيعة رقم 9. مؤسسة علم النفس الخارق للطبيعة، نيويورك، 1969.

ليشان، لورانس. الوسيط، الصوفي، والفيزيائي. مطبعة تورنستون، لندن والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٤.
ليثبريدج، تي سي. الشبح والغول. روتليدج وكيجان بول، لندن، ١٩٦١. ليثبريدج، تي سي. قوة البندول. روتليدج وكيجان بول، لندن،
1976.
لويس، سي إس. رسائل سكروتاب. منشورات فونتانا، لندن، ١٩٥٥.
لويس، آي. إم. دينٌ مُتَنَعِّم. دار نشر بنغوين، ميدلسكس والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧١. لونغ، ماكس فريدوم. العلم السري وراء المعجزات. ديفورس، كاليفورنيا.
1981.
لوريمر، ديفيد. البقاء؟ الجسد والعقل والموت في ضوء التجربة النفسية. روتليدج وكيغان بول، لندن والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٤.
ليتلتون، إديث. عقلنا الفائق. فيليب ألان، ١٩٣١.
ماكديرموت، جون ج. كتابات ويليام جيمس. دار راندوم هاوس، نيويورك، ١٩٦٧.
مكيلار، بيتر. انقسام العقل. جيه إم دنت، لندن، ١٩٧٩.
ماكنزي، أندرو. لغز المستقبل. دار آرثر باركر المحدودة، لندن، ١٩٧٤. ماكنزي، أندرو. المرئي والخفي. وايدنفيلد ونيكلسون.
لندن، 1987.
موريس مايترلينك. الضيف المجهول. ميثوين، لندن، ١٩١٤.
ماركيدس، كيرياكوس سي. المجوس ستروفولوس. روتليدج وكيجان بول، لندن والولايات المتحدة الأمريكية، 1985.
مارتنسن، هانز ل.، جاكوب بوهم: دراسات في حياته وتعاليمه. روكليف، لندن، ١٩٤٩.
مافروماتيس، أندرياس. التنويم المغناطيسي. روتليدج وكيجان بول، لندن ونيويورك، 1987.
ميريل-وولف، فرانكلين. مسارات نحو الفضاء. جوليان برس، نيويورك، ١٩٨٣.
ميريل-وولف، فرانكلين. فلسفة الوعي بلا موضوع.
جوليان برس، نيويورك، 1983.
ميشيل، جون وريكارد، "الظواهر: كتاب العجائب". ثامز وهودسون، لندن، ١٩٧٧.
مونرو، روبرت أ. رحلات خارج الجسد. دوبلداي، الولايات المتحدة الأمريكية، ودار نشر سوفينير بريس المحدودة، لندن، ١٩٧٢.
مودي الابن، رايموند أ. الحياة بعد الحياة. دار بانتام بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٥.
مودي الابن، رايموند أ. تأملات في الحياة بعد الحياة. دار نشر كورجي، لندن، ١٩٧٨.
مولدون، سيلفان ج. وكارينغتون، هيروارد. إسقاط الجسد النجمي. رايدر وشركاه، لندن، ١٩٦٨.
مولدون، سيلفان ج. وكارينغتون، هيروارد. ظواهر النجمي

الإسقاط. رايدر وشركاه، لندن، 1969.
موراي، موز. مشاركة السعي. دار إليمنت بوكس، دورست، ١٩٨٦.
مايرز، ف. و. هـ.، الشخصية الإنسانية وبقائها بعد الموت الجسدي. كتب الجامعة، نيويورك، ١٩٦١.
نويكس، بن. محرر. رأى شبحًا. وايدنفيلد ونيكلسون، لندن، ١٩٨٦. أوسترايش، تي كيه. الاستحواذ، الشيطاني، وغيره. كيغان بول، ترينش.
تروبنر، لندن، 1930.
أورنشتاين، روبرت إي. طبيعة الوعي البشري. دار نشر دبليو إتش فريمان، سان فرانسيسكو، ١٩٧٣.
أوزبورن، آرثر دبليو. المستقبل الآن. كتب الجامعة، نيويورك، ١٩٦١. أوستي، يوجين. القدرات الخارقة في الإنسان. ميثوين، لندن، ١٩٢٣.
أوسبنسكي، ب. د. نموذج جديد للكون. روتليدج وكيغان بول، لندن، ١٩٣١.
بينفيلد، وايلدر. لغز العقل. مطبعة جامعة برينستون، سري ونيوجيرسي، ١٩٧٥.
بلات، تشارلز. صناع الأحلام. منشورات زانادو، لندن، ١٩٨٧. بلاي فير، جاي. البقرة الطائرة. مطبعة سوفينير، لندن، ١٩٧٥.
بلاي فير، جاي. الحدود غير المحددة. منشورات سوفينير، لندن، ١٩٧٦. بلاي فير، جاي. هذا المنزل مسكون. منشورات سوفينير، لندن، ١٩٨٠. بلاي فير، جاي. إذا كان هذا سحرًا. جوناثان كيب، لندن، ١٩٨٥.
بريستلي، ج. ب. "الإنسان والزمن". دار نشر ألدوس، لندن، ١٩٦٤. بريستلي، ج. ب. "فوق الجدار الطويل العالي". هاينمان، لندن، ١٩٧٢.
برنس، مورتون. تفكك الشخصية. لونجمانز، غرين. نيويورك، لندن، بومباي، وكلكتا، ١٩١٣.
برنس، مورتون (وآخرون). حالة دوريس للشخصية الخماسية: مساهمات في علم النفس. ريتشارد ج. بادجر، مطبعة جورهام، بوسطن، ١٩١٦.
برنس، والتر فرانكلين. شهودٌ بارزون على الظواهر النفسية. كتب الجامعة، نيويورك، ١٩٦٣.
راين، ج. ب. "مدى العقل". دار نشر بنغوين، ميدلسكس، الولايات المتحدة الأمريكية 1954.
ريشيت، دكتوراه، تشارلز. ثلاثون عامًا من البحث النفسي. دار نشر دبليو. كولينز، لندن، ١٩٢٣.
روغو، د. سكوت. الأشباح: تجارب وتحقيقات. ديفيد وتشارلز، ديفون، ١٩٧٦.
روغو، د. سكوت. الحدود اللانهائية. دود، ميد وشركاه. نيويورك، ١٩٨٧. راسل، بيتر. كتاب الدماغ. هوثورن بوكس، نيويورك، ١٩٧٩.
سانت كلير، ديفيد. طبل وشمعة. ماكدونالد، لندن، ١٩٧١.
ساندرسون، إيفان ت. "أشياء" و"أشياء أخرى". دار نشر بيراميد، نيويورك.

.1967
شاتزمان، د. م.، مورتون. قصة روث. دار زيبرا بوكس، نيويورك. شاليس، مايكل. في الوقت المحدد. دار بورنيت بوكس، لندن، ١٩٨٢.
سنكلير، أبتون. الراديو العقلي. هل يعمل، وكيف؟ فيرنر لوري، لندن، ١٩٣٠.
ستال، فريتس. استكشاف التصوف. دار نشر بنغوين، ميدلسكس، ١٩٧٥.
ستيفنسون، د. م.، إيان. عشرون حالة تُشير إلى التناسخ. الجمعية الأمريكية للأبحاث النفسية، نيويورك، ١٩٦٦.
تارت، تشارلز ت. حالات الوعي المتغيرة. دار نشر أنكور، نيويورك، ١٩٦٩.
تايلور، جون. شكل العقول القادمة. مايكل جوزيف، لندن، ١٩٧١. ثورستون، إس جيه، هربرت. الأشباح والأرواح الشريرة. بيرنز أوتس وواشبورن،
لندن، 1953.
توينبي، أرنولد ت. دراسة في التاريخ. مطبعة جامعة أكسفورد، نيويورك، ١٩٦٣.
تيريل، جي إن إم، شخصية الإنسان. دار نشر بنغوين، ميدلسكس، ١٩٤٧. فالي، جاك، رسل الخداع. دار نشر أند/أور، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٧٩.
فان دوسن، ويلسون. العمق الطبيعي للإنسان. هاربر ورو، نيويورك، ١٩٧٢.
فان دوسن، ويلسون. حضور عوالم أخرى. هاربر ورو، نيويورك، ١٩٧٤.
فوغان، آلان. مصادفة لا تُصدق: عالم التزامن المُحير.
سيجنت بوكس، نيويورك، 1980.
فولجيبيسي، فيرينك أندراس. التنويم المغناطيسي للإنسان والحيوان. بيلبير، تيندال وكاسيل، لندن، ١٩٦٦.
وارد، آر إتش. ملاحظات متعاطي المخدرات. غولانكز، لندن، ١٩٥٧. واتسون، بيتر. توينز. كتب سفير، لندن، ١٩٨٤.
واتس، آلان دبليو. طريق الزن. دار نشر بنغوين، ميدلسكس والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٥٧. ويب، جيمس. الدائرة المتناغمة. ثامز وهدسون، لندن، ١٩٨٠.
ويلبر، كين. النموذج الهولوغرافي ومفارقات أخرى. منشورات شامبالا، كولورادو، ١٩٨٢.
ويلسون، كولين. العلوم الخفية. هودر وستوتون، لندن، وراندوم هاوس، نيويورك، ١٩٧١.
ويلسون، كولين. الألغاز. هودر وستوتون، لندن، ١٩٧٨.
ويلسون، كولين. مسارات جديدة في علم النفس. فيكتور غولانكز، لندن، ١٩٧٩. ويلسون، كولين. بولترجيست! المكتبة الإنجليزية الجديدة، لندن، ١٩٨١.
ويلسون، كولين. الحياة الآخرة. هاراب، لندن، ١٩٨٥.
ويلسون، كولين. رودولف شتاينر: الإنسان ورؤيته. دار أكواريان للنشر، نورثهامبتونشاير، ١٩٨٥.

ويلسون، كولين. كولين ويلسون الأساسي. هاراب، لندن، ١٩٨٥.
ويلسون، كولين. المحققون النفسيون. دار نشر بان، لندن. (غلاف ورقي) ١٩٨٤، دار ميركوري هاوس، كاليفورنيا، ١٩٨٥.
ويلسون، كولين، ويلسون، دامون. موسوعة الألغاز غير المحلولة. هاراب، لندن، 1987.
ويلسون، دونالد باول. مدانيّ الستة. دار بانثر، لندن، ١٩٥٦.
زدينيك، ماريلي. تجربة الدماغ الأيمن. دار نشر كورجي، لندن، ١٩٨٥. زوهار، دانا. عبر حاجز الزمن. دار نشر غرناطة المحدودة، لندن.
.1983

نُشرت هذه الطبعة في المملكة المتحدة عام 2008 بواسطة دار نشر واتكينز، الطابق السادس، كاسل هاوس، 75-76 شارع ويلز، لندن W1T QH3

نُشر لأول مرة في غلاف مقوى بواسطة Bantam Press، قسم من Transworld Publishers Ltd في عام 1988 ونشرته Corgi Books في غلاف ورقي في عام 1989

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

مطبوع ومجلد في بريطانيا العظمى، بيانات الفهرسة أثناء النشر متوفرة في المكتبة البريطانية، رقم ISBN: 978 -1- 905857-69-2

www.watkinspublishing.co.uk

عن ويلسون:
الإفراط في الكتابة عن ويلسون يترك فجوةً هائلةً تمتد لخمسة عشر عامًا بين نجاح أول أعماله وعودته التجارية كـ"خبير في علوم السحر" عام ١٩٧١، مع التلميح في الوقت نفسه إلى أن هذا كان مفاجئًا أو انحدارًا نحو السذاجة. ولكن نظرًا لعدم أخذ أعمال ويلسون الوجودية الجديدة من تلك الفترة التي امتدت لخمسة عشر عامًا في الاعتبار، فقد فُقدت الاستمرارية .
بعيدًا عن كونه انحرافًا جذريًا، وسع كتاب "الخفي" من رؤيته إلى حالات الوعي غير العادية والإيجابية التي شغلته منذ البداية. تضمن كتاب "الغريب" أول دراسة متعمقة لـ"عمل" غوردجييف من قبل شخص ليس جزءًا من النظام وناقش هيرمان هيسه الذي كان منسيًا إلى حد كبير آنذاك، بالإضافة إلى الصوفيين مثل راماكريشنا وبليك. في التكملة - التي غالبًا ما يتم تسميتها ولكن نادرًا ما يتم التحقيق فيها - يتم

تحليل تأثير بليك على جاكوب بوهيمي إلى جانب سويدنبورغ وغيره من الصوفيين. كانت الدفعة الرابعة (كان "الغريب" الجزء الأول من سلسلة من سبعة مجلدات، وليس كتابًا مستقلاً) واحدة من أولى المحاولات لتحليل كاتب آخر منسي جزئيًا، هوارد فيليبس لافكرافت، مما وضعه في تقليد الخيال الخيالي إلى جانب ستريندبرغ وكازانتزاكيس ودورينمات. كان ويلسون يدرس راسبوتين، ويرسم صورًا خيالية لأليستر كراولي، ويسخر من أساطير كاثولو للوفكرافت فلسفيًا (وهي سابقة أخرى)، ويقدم "تقريرًا مؤقتًا" عن أفكاره الوجودية الجديدة تحت عنوان "الشعر والتصوف" . كل هذا حدث قبل نهاية الستينيات - في الواقع، عُرض معظمه قبل أن تبدأ حقبة الستينيات .

تعود الوجودية "الجديدة" لويلسون إلى ظاهراتية هوسرل، مبتعدةً عن وجودية هايدغر وسارتر، اللذين تخليا جوهريًا عن مفاهيم هوسرل عن القصدية وهدف الحالة المعروفة باسم "الأنا المتعالية" لصالح شيء أكثر شخصيةً أو التزامًا. قال ويلسون، ردًا على سؤال مجلة "الفلسفة الآن" حول اهتمامه بـ"ما وراء الطبيعة" (الذي يعتبره في الواقع إمكانيات طبيعية تمامًا للوعي البشري): "يتضمن السؤال "الوجودي" النهائي "من أنا؟" ضمنيًا إمكانية أن يتحول "أنا" إلى أكثر بكثير مما كنت أتوقع". من خلال دراسة التقليد الهرمسي ونهضاته العديدة، وجد ويلسون موقفًا ديناميكيًا نشطًا تجاه الوعي، مشابهًا لموقف هوسرل، وكان حريصًا على الإشارة إلى هذه التطابقات. على سبيل المثال، يُجري ويلسون مقارنة تبدو غريبة بين هوسرل وكراولي - حيث استخدم كلاهما كلمة "لا شك فيه" - مُشيرًا لاحقًا إلى أن فلسفة كراولي تدور حول اكتشاف "الأنا الخفية"، "العبقرية" (أو الأنا المتعالية وفقًا لمصطلحات هوسرل الكانطية). يكتب ويلسون: "السحر عملية لا واعية". لكن "الطقوس والشعائر الفعلية ليست "مرتبطة به ارتباطًا لا واعيًا"، كما أن وطء مجرفة يرتبط ارتباطًا لا واعيًا بضربها على الرأس". إن السحر، كما فضل كراولي أن يسميه، "يتجنب الوعي تمامًا"، وهي العملية التي يراها ويلسون مماثلة لمفاهيم هوسرل عن القصدية: فالوعي بعيد كل البعد عن القوى التي تحركه لدرجة أننا نرتكب خطأ الاعتقاد بأنه عاكس سلبي للواقع، باستثناء "لحظات الأزمة أو الإثارة" عندما نكمل عقلنا الجزئي (كما قال ييتس)، كما يلاحظ ويلسون .

يذكر كراولي أن كل فعل مقصود هو فعل سحري، فعل "إرادي"، في مقدمة كتابه السحر في النظرية والتطبيق :III] النظريات [مشيرًا مجازيًا في جميع أنحاء الكتاب إلى أن هذا يشمل أي نشاط ينطوي على حدوث تغيير وفقًا للإرادة. إن أول نظام عملي تم تحديده في مقدمة ويلسون للوجودية الجديدة (1966) هو تنمية وعي دائم بقصدية الأفعال الواعية. ويشير كراولي إلى أن "أي شخص أحمق يمكنه "جمع نفسه" وتكريس نفسه للدراسة والتخلص من عادة سيئة أو التغلب على الجبن". لكنه يواصل القول إن هذا هو في الواقع أهم عمل، لأنه "ينطوي على التحليل الأكثر حميمية" و"يتضمن البدء بمعناه الأعلى" - بلغة ويلسون، سيكون هذا الكشف عن "الأنا الخفية" وتطوير حالة الفهم التي أطلق عليها "الكلية ."X

بعد أن أشار كراولي إلى أهمية الأفعال العمدية، قال: "حتى الأفعال غير العمدية التي تبدو كذلك ليست كذلك في الحقيقة". وقد استخدم ويلسون، المتأثر بشدة بتعاليم غوردجييف التي تُصر على أن البشر ميكانيكيون في الغالب، مصطلح "روبوت" لوصف "طبقة متراصة من النوايا المتعمدة"، وشُبِّهت الظاهراتية إما بحفريات أثرية تُنقّب بين هذه الطبقات، أو (بمصطلحات غوردجييف أو الخيال العلمي) بعملية هندسية على دوائر الروبوت. وقد تناول هذا الأمر بمزيد من التفصيل في كتابه "دورة الخارج" (1956-1966)، الذي طوّر فيه أفكاره الوجودية الجديدة .

تنحدر طبقات النوايا الإرادية هذه من سطح الشخصية اليومية إلى الطبقة التالية من العادات المكتسبة، والقراءة والكتابة والقيادة وما إلى ذلك. ونحن نعتبرها "ميكانيكية" ولكن ويلسون يشير إلى أنه على الرغم من أنها أصبحت ميكانيكية أو بالأحرى، معتادة ، إلا أنها قد تم تعلمها في الأصل من خلال جهود متعمدة

صعبة أو خرقاء؛ إنها نوايا إرادية أصبحت آلية، وهي الآن تدندن بهدوء في الخلفية. "توجد طبقتان أو ثلاث طبقات أخرى أسفل نواياي الجنسية، والتي يمكن دراستها بالفعل كنوايا إرادية إذا طورت مهارة معينة في التحليل الوصفي" (راجع أصول الدافع الجنسي لويلسون ، 1963). يقول ويلسون: " المعادل الأثري لهذه الطبقات سيكون طروادة أو بابل". "وتحت هذه الطبقات تكمن المعادلات العقلية للعصر الميوسيني والجوراسي والكربوني". كل هذه هي الأفعال "غير المقصودة" التي أشار إليها كراولي، ولا شك أن علماء الباطن سيلاحظون التشابه مع "صيغ البعث البدائي" لأوستن عثمان سبير، حيث تُجسّد مستويات الوعي البدائية ظاهريًا عبر نظام جمالي شخصي. ويتابع ويلسون: "يجب أن تُتاح آثار العقل للوعي الحاضر". لو استطعنا فحص هذه الطبقات العميقة من خلال التحليل الظاهراتي، وكشف ما يسميه ويلسون "بنيتنا التطورية المقصودة"، لكنا نوعًا مختلفًا تمامًا من البشر. في الواقع، يُشير ويلسون إلى صعوبة تخيّل نوع "المخلوق" أو "الكائن" الذي سنكون عليه. يكتب: "قد يكون جسدي محكومًا عليه بالموت"، لكنني عقليًا "خالد وغير شخصي كالنجوم". بلغة الظاهراتية، "لقد وضعتُ "العالم" بين قوسين، وأصبحتُ واعيًا بنفسي كأنا متعالية ."

يُعلق ويلسون على أننا لا نُدرك "الطبقات الأعمق للقصدية". هذه الطبقات خفية، مُحجَّبة أو "غامضة"، وكانت دراسة هذه الأعماق، وليس أي إيمان مُحدَّد بما هو خارق للطبيعة، هي ما دفعه أكثر نحو هذا الموضوع. في الصفحة الأخيرة من كتاب "الغامض" ، يُصرِّح بأنه لا يعتبر نفسه "خبيرًا في علم الغيب" "لأنني أكثر اهتمامًا بآليات الوعي اليومي". كان اهتمامه منصبًّا على تعديل هذه "الآليات" (النوايا المُعتادة) بحيث تُتيح المزيد من الواقعية، كما هو الحال في عمله الوجودي الجديد. يميل الدين والهرمسية إلى الحديث عن واقعين، "عالمين" أو حقيقتين، لكن ويلسون يُصرُّ على أنهما جانبان من نفس الواقع، كما يُرى إما من خلال مجهر العقلانية أو تلسكوب الحدس الشعري. الرؤية العقلانية المُفصَّلة هي موقفنا اليومي، وقد تأتينا الأخرى كلمحات لمعنى أكبر (الفصل الأخير في " الغامض " بعنوان "لمحات"). ومع ذلك، تميل هذه اللمحات إلى الحدوث عن طريق الصدفة، ونحن بحاجة إلى تعلم كيفية جعلها تحدث بشكل مقصود ، من خلال تسميتها، كما تفعل مع الرافعات والأزرار الموجودة في آلة معقدة .

يمكننا اعتبار هذين "الواقعين" بمثابة الفرق بين الأبولوني والديونيسي عند نيتشه، أو "المباشرة التمثيلية" و"الفعالية السببية" عند البروفيسور وايتهيد، أو نصفي الدماغ الأيمن والأيسر كما ناقشهما سبيري وأورنشتاين أو جوليان جاينز. وبالإشارة إلى أسطورة أفلاطون عن تقسيم الآلهة للإنسان إلى ذكر وأنثى، يقول ويلسون إن هذا ليس بعيدًا عن الفكرة الظاهراتية، "إلا أن التقسيم، بالنسبة للظاهراتي، هو بين وعي سلبي وعقل لاواعٍ عمديّ". ويتفق ويلسون مع وايتهيد على أن "نوعي" الإدراك (التفاصيل الصغيرة والمعاني الكلية) يجب أن يعملا معًا، ويرمز إليهما بحالة الوعي الكونية الدقيقة والكبيرة "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل". وقد وثَّقت جميع طوائف الصوفيين وعلماء السحر هذا الأمر في كتاب "الغيبيات" (وجزئيه التكميليين، "الأسرار " عام ١٩٧٨، و" ما وراء السحر " عام ١٩٨٨، وكذلك في السير الذاتية الجذابة لراسبوتين، وغوردجييف، وويلهلم رايش، ويونغ، ورودولف شتاينر، وكراولي، وأوسبنسكي). يُشبِّه ويلسون حالة "الوعي الثنائي" هذه بالطائرات التي أسقطت القنابل في فيلم " مدمرو السدود " حيث كان لا بد من تركيز كشافين على نقطة محددة قبل إطلاق القنبلة. في فلسفة وايتهايد، عادةً ما يكون "الشعاعان" غير متزامنين قليلاً (حيث تكون التفاصيل أكثر وضوحًا من المعنى) باستثناء لحظات البصيرة الحقيقية حيث يتقاربان. تُعتبر هذه الحالات الصوفية - "تجارب الذروة" في لغة علم النفس الإنساني - غامضة أو غير قابلة للوصف، لكن الوجودية الجديدة تسعى إلى دراسة هذه

الحالات بدقة (أي ظاهريًا) من خلال اللغة والقيم. وتحت ثنايا تمارينها ومعتقداتها المعقدة المتنوعة، تسعى العلوم الباطنية إلى تحقيق هدف أساسي واحد، وهو اكتشاف "الإرادة الحقيقية" أو الذات الخفية .

في كتابه " ما وراء الغريب " (1965)، يُدلي ويلسون بتصريحٍ مثيرٍ للاهتمام مفاده أن التجارب "الصوفية" هي "انعكاسٌ مؤقت" لنوعي الإدراك اللذين حددهما وايتهايد، حيث يطغى المعنى الشامل لفترةٍ وجيزة على حالة المباشرة السائدة المعتادة (ولكن، كما يقول ويلسون، دون إضعاف هذه الأخيرة عادةً). تعتمد الطريقة الظاهراتية نفسها على عكس ما أسماه هوسرل بالموقف الطبيعي (الساذج) لإظهار أن الإدراك فعلٌ مقصود، مثل تعريف كراولي للممارسة السحرية (اقترح كراولي أيضًا تمرينًا للقراءة والمشي والتحدث والتفكير إلى الوراء، "بحيث تعود الذاكرة إلى دهورٍ بعيدةٍ لا تُحصى"). يرتبط علم الباطن عادةً بالانعكاس والعودة، وهي محاولةٌ للتراجع عن حالة "السقوط" التي نجد أنفسنا فيها (ستستخدم الوجودية مصطلح "مُلقى" كما في حالة "مُلقى إلى الوجود دون تفسير ."

بالنسبة لويلسون، الوعي العقلاني ليس "سقوطًا" - فهو يراه خيارًا تطوريًا (بينما يوافق على أن الوعي مقيد، فإنه يصر أيضًا على أن هذا التقييد طوعي) وهو أكثر فائدة من حالة الوعي المريحة للعصور القديمة أو ما قبل التاريخ. ومع ذلك، فإن دقته الحادة تميل إلى قطع الكثير من المعنى العام. كانت هذه معضلة الرومانسيين وأحفادهم، الوجوديين. يلاحظ ويلسون كيف أن اللغة الجامدة للرومانسية (النشوة، النشوة، إلخ) "انهارت تحت وطأة عدم دقتها اللفظية" وهبطت كآبة متشائمة، من الناحية الثقافية. لا تزال هذه "الانهزامية الرومانسية"، كما يسميها ويلسون، مزدهرة في الموقف الوجودي (ليس فقط في الفلسفة، التي يشير إليها ويلسون باسم "الرومانسية المثقفة"، ولكن أيضًا في شعر ريلكه وإليوت، وروايات جويس وحتى في إتش جي ويلز). لذا، ورغم دقتها اللغوية الأكثر صرامة، تفاقمت الجبرية الرومانسية داخل الوجودية، إلا أن تشاؤمها الرواقي بعيد كل البعد عن أصوله في الظاهراتية. لاحقًا، ادّعت شبه الظاهراتية لما بعد الحداثة (تفكيك الخصوصية) دقةً فائقةً في اللغة، لكنها فشلت في تحليل قبولها السطحي للعبثية. منهج ويلسون الوجودي الجديد يتجاهل هذا الموقف أولًا، و"يقبل تجربة الإنسان لحريته الداخلية على أنها أساسية لا تقبل الاختزال". وينشأ هذا من "التحليل الظاهراتي الدقيق" لهذه اللمحات من الحرية .

يجب أن نتذكر أن كلمة "غامض" هي مجرد كلمة لاتينية تعني "مخفي". سيشير ويلسون إلى الأنا المتعالية باسم "الأنا الخفية" في نصوصه الوجودية الجديدة، ويؤكد على الطبيعة العمدية للأفعال الواعية، حيث تكون الأفعال العمدية أفعالاً سحرية، وفقًا لأحد الممارسين سيئي السمعة. يكتب ويلسون: "شعر كل من هوسرل وهايدجر أن السعي الظاهراتي سيمنح الإنسان إمكانية التجربة "الصوفية" دون الحاجة إلى تخصصات مسيحية أو يوغية محددة. قال هوسرل إن دراسة القصدية في الفعل ستؤدي إلى "حراس مفتاح المصادر النهائية للوجود" (عبارة هايدجرية تمامًا)، وإلى "كشف الإنجازات الخفية للأنا المتعالية" (عبارة مثل "مفتاح المصادر النهائية للوجود" لم تكن لتبدو في غير محلها في رواية لوفكرافت عبر بوابات المفتاح الفضي) . يُصرّ ويلسون أيضًا على أن الظاهراتية فلسفة فاعلة للإرادة - بل هي في الواقع "مذهب إرادة" - مثل مذهب نيتشه. وتُعدّ الإرادة أيضًا عاملًا بالغ الأهمية في علم الباطن؛ إذ يُصرّح كراولي بأن جميع الأفعال العمدية وغير العمدية ظاهريًا هي أفعال "مُرادة". ويُشدّد أحد التعليقات التي كتبها على الطابع الأحادي للإرادة، مُشيرًا إلى الفيلسوف فيتشي، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ على ويلسون، لِما يُثبت ذلك .

يُشير ويلسون في كتابه " أسرار " إلى الأهمية المستمرة للإرادة من كتب السحر القديمة، من خلال

نصوص متنوعة من إحياءات السحر العديدة عبر التاريخ : "تتضمن جميع هذه التعريفات افتراضًا أساسيًا بأن "الإرادة" من نوع خاص". ثم يقتبس من دليل معاصر للطقوس (كتب له مقدمة) ينص على أن "قوة الإرادة البشرية قوة حقيقية، قابلة للتدريب والتركيز [...] والإرادة المنضبطة قادرة على تغيير بيئتها وإحداث تأثيرات خارقة للطبيعة". لكنه يُضيف أن قوة الإرادة هذه يجب أن تُوجَّه بالخيال (هاتان نقطتان أساسيتان حول علوم السحر، توجدان في جميع أنواع التعاليم تقريبًا؛ والنقطتان الأخريان هما أن الكون ليس مزيجًا من عوامل الصدفة، بل هو نظام مُنظَّم من المراسلات؛ وأن الكون المادي جزء من الواقع، وليس كليته). بعد مناقشة ممارسات التصور لجمعية الفجر الذهبي السحرية المؤثرة في القرن التاسع عشر، يُشير ويلسون إلى أن التركيز على الإرادة والخيال مُطابق للدراسة الظاهراتية للإدراك العمدي. إذا كانت لديّ فكرة عن الإله جوبيتر، فإن هذا الإله هو موضوعي المُقدّم، وهو "حاضرٌ جوهريًا" في فعلي، وله "عدم وجود ذهني" في الأخير، أو أي تعبير قد نستخدمه لإخفاء معنانا الحقيقي. لديّ فكرة عن الإله جوبيتر: هذا يعني أن لديّ تجربةً حاضرةً معينة، وأنّ تصوّر الإله جوبيتر مُتحقّقٌ في وعيي". هذا ليس من أوراق ريغاردي "الفجر الذهبي"، بل من المجلد الثاني من " التحقيقات المنطقية" لهوسرل) 1901 .(

انجذب ويلسون بشكل خاص إلى هذا المزيج من الإرادة والخيال الموجود في التقليد السحري لأنه كان مهتمًا بكلا الأمرين، كما يتضح من كتابه الأول. "وراء الإنسان تكمن الهاوية والعدم؛ يعرف الغريب هذا؛ إنه عمله أن يغرس مخالب الحديد في الحياة، وأن يبني، وأن يريد، على الرغم من الهاوية". يضع أهمية متساوية على تطوير الرواية، ويلفت الانتباه بشكل خاص إلى عمل ريتشاردسون عام 1740 باميلا . كانت الواقعية المثيرة لهذه الرواية هي الشرارة التي أشعلت الانفجار الخيالي المعروف باسم الرومانسية (يناقش ويلسون هذا في عمله عام 1975 حرفة الرواية) . بالمقارنة مع هذا المشهد الخيالي الغني، تبدو العلوم الخفية قاحلة إلى حد ما ؛ قال كاتبا سيرة كراولي ومحرراه، جون سيموندز وكينيث غرانت، في مناسبتين منفصلتين إن كراولي كان يفتقر إلى الخيال، رغم إرادته القوية، وتُظهر دراسة سيموندز المسلية، " الوحش العظيم" (1951)، هذه النقطة بوضوح. ومع ذلك، يقول ويلسون إنه يمكننا أن نعود إلى رواية بروست " البحث عن الزمن المفقود " "بشعور من الإثارة، وشعور بأنه كان على الطريق الصحيح، وأن طقوسًا سحرية معقدة لم تكن لتقربه من هدفه، تمامًا كما لم تُقرّب ماذرز أو كراولي أو ديون فورتشن من هدفهم ."

عندما نُشر كتاب "الغيبيات" في أوائل السبعينيات، كان نوع جديد من السحر والتنجيم يتشكل، وكان أقل اهتمامًا بضبط القيود الهرمية لنظام الفجر الذهبي وأكثر اهتمامًا بالإمكانات الإبداعية للخيال. كتب ويلسون في مقدمته لكتاب " البحث عن أبراكساس " (1974) لنيفيل دروري وستيفن سكينر: "لقد نشأت مدرسة كاملة من السحرة الشباب الممارسين". "إنهم ليسوا باحثين عن الشهرة أو من الهيبيين. إنهم يتابعون موضوعهم بنفس الجدية التي قد يدرسون بها الهندسة الإلكترونية أو علم الفلك الراديوي". وأشار ويلسون إلى أن محاولاتهم لضبط العقل والخيال كانت بعيدة كل البعد عن التشاؤم الرمادي في الخمسينيات عندما توقفت كتبه عن حدود الوعي "عن التعرض للهجوم، وتم تجاهلها ببساطة. بدا أن المد قد ابتعد قدر الإمكان. ثم، حوالي عام 1966 أو 1967، بدأ التغيير". كانت أعمالٌ لأسماءٍ شبه منسية أو غامضة، والتي تناثرت في كتب ويلسون السابقة - هيسه، لافكرافت، تولكين، غوردجييف، كرولي، فيليب ك. ديك، ديفيد ليندسي - إما تكتسب مكانةً مرموقةً أو تُباع بأعدادٍ هائلة. أما الضجة التي بدأت مع رواية " صباح السحرة في فرنسا " سيئة السمعة لباولز وبيرغييه عام ١٩٦٠، فقد تحولت الآن إلى طوفانٍ فكريٍّ هائل؛ ففي عام ١٩٧٩، كتب عالم السحر كينيث غرانت، مُتأملاً العقد الماضي،

مُندهشاً من "المجموعة الأدبية الجديدة الواسعة التي تدمج العلم والخيال والميتافيزيقيا بطريقةٍ قد تُجسّد في نهاية المطاف أشد كوابيس هوارد لافكرافت وحشية ."

أصبح كتاب "الغيبيات" من أكثر الكتب مبيعًا، حيث عاد ويلسون من الهامش إلى المجتمع الأدبي لفترة. وصفه العنوان الفرعي للطبعة البريطانية الأولى بدقة بأنه "دراسة للقوة الكامنة التي يمتلكها البشر للوصول إلى ما وراء الحاضر". لكن النسخة الورقية الضخمة ذات الغلاف الأخضر الفسفوري، التي نشرتها ماي فلاور بعد عام، تضمنت ما وصفه ويلسون لاحقًا بأنه "اقتباس غير منطقي حول كونه 'كتابًا لمن يسلكون مع الآلهة'" (في العام نفسه، قدمت ماي فلاور هذا الوصف غير المفهوم لعلم الغيبيات بأنه "جميع العلوم مخفية أو "مغطاة" باستقامة المجتمع الميكانيكية، وخاصة الغربية، التي تحجب عن الحواس وعن فهم الحقائق والأوهام الأكثر تحررًا في كوننا"). لا يزال كتاب "الغيبيات" يُقرأ جيدًا حتى اليوم، وسرده مسلٍّ وغني بالمعلومات، وتياره الظاهراتي لا يزال فريدًا ولكنه غير مُقدَّر حق قدره، وخاصة من قِبل علماء الغيبيات أنفسهم. وإذا أخذنا في الاعتبار أن "كل فعل مقصود هو فعل سحري"، فإن هذا القول مخيب للآمال إلى حد لا يتصوره الخيال .

استطراد قصير عن لافكرافت:

"لقد احتفظ صديقي القديم أوغست ديرليث بأعمال هوارد فيليبس لافكرافت مطبوعة منذ وفاته عام 1937" يتذكر ويلسون، "لكن زبائنه كانوا تقريبًا بمثابة نادي لافكرافت للكتاب؛ لم يكن بإمكانك دخول مكتبة وشرائها من على الرفوف. أظن أن جمهور كل هذه الكتب ظل كبيرًا مثل جمهور أسطوانات LP لأصوات القطارات". ساعد ديرليث في إنشاء مؤسسة نشر متخصصة - Arkham House - بسبب عدم اهتمام الناشرين بمجموعة من أفضل قصص لافكرافت التي ظهرت في الأصل في مجلات اللب. بيع كتاب " الغريب والآخرون" (1939)، وهو مجلد بغلاف مقوى يزيد عن 500 صفحة بسعر غلاف 5.00 دولارات، ببطء شديد على مدار أربع سنوات، مع 150 طلبًا مسبقًا فقط (بمبلغ 3.50 دولارات فقط) من إجمالي عدد النسخ البالغ 1268 نسخة (ستكلف النسخة الجديدة الآن أكثر من ألف دولار).

لا بد أن ويلسون كان من القلائل في المملكة المتحدة الذين قرأوا هذا الكتاب، بعد عشرين عامًا من نشره، ولكن قبل فترة طويلة من إحياء الاهتمام السائد به. (نشر ناشر ويلسون، فيكتور غولانكز، نسخًا صغيرة مماثلة من " صائد الظلام وحكايات رعب أخرى " والرواية القصيرة " قضية تشارلز دكستر وارد " عام ١٩٥١، لكنه لم ينشر أي أعمال أخرى للفكرافت حتى عام ١٩٦٦) .

خلال صيف عام 1959، كان ويلسون يقيم في مزرعة دورست لصديق أمريكي ("أمريكي متعلم للغاية، [الذي] تزوج ابنة مزارع من رغبة في العودة إلى الحياة البسيطة"). بعد قضاء أمسية في شرب عصير التفاح محلي الصنع، تقاعد ليلًا ونظر حوله بحثًا عن شيء يقرأه. لم يكن هناك الكثير بخلاف المجلدات القديمة المجلدة من Punch و The Illustrated London News ، ولكن كتابًا يحمل عنوانًا مشابهًا لعنوان أول أعماله لفت انتباهه. كان ويلسون متأكدًا من أنه لم يسمع عن لوفكرافت من قبل) على الرغم من أنه قال لاحقًا "ربما قرأت بعض مساهماته في Weird Tales عندما كنت طفلاً، لكنني نسيتها .(" وبينما كان يفتح الغلاف الأسود ويقلب الصفحات الصفراء العفنة المتهالكة ويقرأ The Outsider و The Rats in the Wallsو In the Vault ، تعرف على الفور على كاتب مهم للغاية، على الرغم من تحفظاته على أسلوب لوفكرافت. استعار ويلسون الكتاب، وسرعان ما بدأ في كتابة The Strength to Dream، المجلد الرابع من سلسلة "Outsider" التي تعد دراسة لأدب الخيال وأحد أوائل الكتب التي أخذت لافكرافت على محمل الجد. بعد النشر، كان ويلسون في الواقع في محيط منزل لافكرافت في بروفيدنس، حيث كان يُلقي محاضرات في جامعة براونز (التي اقترح ويلسون وآخرون أنها ربما كانت

نموذجًا لمدرسة ميسكاتونيك الخاصة بلافكرافت؛ فقد حلم لافكرافت نفسه بحضور جامعة براونز).
غالبًا ما كان ويلسون يفكر في لافكرافت أثناء إقامته في بروفيدنس، وكان خياله "مسكونًا" حيث تعود إليه قصصه عشرات المرات كل يوم: فقد أمضى ساعات في مكتبة الجامعة يقرأ رسائل لافكرافت في المخطوطة، وقرأ أطروحة جعلته أكثر دراية بالأساطير ، بل ورأى المنزل الذي عاش فيه لافكرافت. وبعد أن كتب إلى ديرليث على عنوان دار أركام هاوس، نشأت بينهما في النهاية صداقة (كان ديرليث يعرف عمل ويلسون)، وبعد تخفيف بعض التعليقات بشأن الطبعة الأمريكية الموسعة من كتاب " القوة للحلم " ، قبل ويلسون تحدي ديرليث بكتابة "رواية لافكرافت" وإنتاج " طفيليات العقل "، التي نشرتها دار أركام هاوس عام 1967 وحظيت بإشادة نقدية "سرية" (قام ويليام إس. بوروز بمراجعتها بشكل إيجابي في مجلة مضادة للثقافة) .
يرى ويلسون في لافكرافت نموذجًا أصيلًا لشخصية "الغريب"، وقد صرّح بأنه كان سيضمه إلى روايته الأولى لو صادفه قبل بضع سنوات. ومثل ستريندبرغ، بدا لافكرافت وكأنه يستبق أهوال القرنين العشرين والحادي والعشرين غير العقلانية. وعلى عكس ستريندبرغ، أصرّ لافكرافت على أنه عقلاني ملتزم، وهو موقفٌ موثّق في رسائله (التي تمتد لخمسة مجلدات) وفي أعماله القليلة غير الروائية.
أثناء جمعه المواد لما سيصبح لاحقًا "الغيبيات" ، سأل ويلسون ديرليث إن كان لافكرافت قد سمع بكراولي، إذ وجد التشابهات النغمية بين أعمالهما "لافتة للنظر لدرجة أنني تساءلت إن كان لافكرافت وكراولي يعرفان بعضهما". اعتقد ديرليث، محقًا، أن لافكرافت لم يسمع بكراولي. لذلك "تخليت على مضض عن الفكرة - التي كنت آمل أن أضيفها إلى " الغيبيات " - بأن أساطير لافكرافت مبنية على معرفته بالتقاليد السحرية الغربية". في العام التالي لنشر كتاب The Occult ، طُلب من ويلسون مراجعة كتاب The Magical Revival (1972) وهو أول ظهور رئيسي لكينيث جرانت، وهو عالم غامض ممارس عرف كرولي في الأربعينيات وشارك في تحرير إعادة إصدار "سيرته الذاتية" في عام 1969. استعرض ويلسون كتاب جرانت بشكل إيجابي، مشيرًا إلى أنه أجاب بمهارة على السؤال الذي طرحه على ديرليث قبل عدة سنوات بشأن التشابه النموذجي بين خيال لافكرافت وتحقيقات كرولي)لإعطاء مثال صارخ من مجلد لاحق: قبل عقدين من نشر لافكرافت لكتاب The Call of Cthulhu ، "تلقى" كرولي الحائر كلمة" Tutulu كما هي مكتوبة في ذلك الكتاب القديم .("كانت تفسيرات جرانت - والتي كانت ستملأ في النهاية تسعة مجلدات مترابطة، وكان The Magical Revival هو الأول منها - مثيرة للجدل ولكن ويلسون كان واحدًا من المؤلفين القلائل جدًا "السائدين" الذين دعموه، حيث أعرب عن تقديره في مقدمته لإحدى الطبعات العديدة التي تزعم أنها كتاب Necronomicon سيئ السمعة للوفكرافت في عام 1978 .
عندما بدأ ويلسون بقراءة صفحات كتاب "الغريب والآخرون " الهشة في أواخر الخمسينيات، كان غرانت قد بدأ بنشر طبعات صغيرة من دراسة تتناول الاهتمامات الباطنية، والتي وصلت إلى عشرة أعداد بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٣. أما العدد السابع، الذي أوصى برواية " صائد الظلام " للوفكرافت من بين روايات رعب أخرى، فقد نعى "فقدان القدرة على تقبّل الحقائق الطبيعية"، وأشار إلى أن الخيال هو البديل الرئيسي لهذا الشعور الضامر. كان ويلسون يردد نفس الشيء تقريبًا في ذلك الوقت، وبحلول السبعينيات، كان هناك تقارب آخر غير ملحوظ .
من خلال "عمله التأسيسي" الوجودي الجديد في الفترة من 1956 إلى 1966، طور ويلسون مفهوم "القدرة س" (كما كُتبت في الأصل لمحاضرة قدمت في اجتماع لعلماء النفس في عام 1967). جاءه مفهوم "واقع الأوقات والأماكن الأخرى" في يوم ثلجي في واشنطن العاصمة في أواخر عام 1966، على

الرغم من أنه كان يتحدث عن مثل هذه الأشياء منذ الخمسينيات (كما هو موثق في كتاب كينيث ألسوب العقد الغاضب). والمثال الأساسي لهذه القدرة هو بروست في روايته طريق سوان - "اللحظة السعيدة التي أثارتها المادلين" - عندما كان بإمكانه أن يقول إنه كان طفلاً في كومبراي ويعني ذلك . "يبدو الأمر كما لو أنه اكتسب فجأة بُعدًا آخر - بُعد زمني". وقد اختبره المؤرخ أرنولد توينبي على أنه فهم موجز لكل التاريخ؛ وصفها الشاعر روبرت جريفز ذات مرة كما لو أنه "يعرف كل شيء" بشكل حدسي واختبرها الكاتب المسرحي أوغست ستريندبرغ كنوع من "الوعي الثنائي"، وهو شعور غريب بالتواجد في مكانين في وقت واحد. في كتابه "الغيبيات" ، يقدم ويلسون العديد من الأمثلة الرائعة الأخرى، ويضعها تحت المصطلح الشامل "الكلية ."X أخبر عالم النفس أبراهام ماسلو عن جندي مشاة البحرية في إجازة أدرك فجأة أن النساء يختلفن عن الرجال ، وهذا الإدراك، هذا الفهم "للآخرية" هو الذي يمد الكلية التي يصنفها ويلسون بعلامة X (حتى تظهر معرفة أفضل بها من خلال التجربة، أي؛ في وقت سابق، تحدث ويلسون عنها على أنها "الكلية الظاهراتية"، القدرة على إدراك الواقع). يبدو الواقع، المدرك من خلال وعينا اليومي، وكأنه محاكاة رخيصة لا تسمح إلا بقليل من الآخرية أو الاختلاف، ولكن عندما تكون الكلية X فعالة، فإننا نعلم أن هذا كذبة. في ضوء ذلك، رفض ويلسون مفاهيم بودريار الحرفية عن "المحاكاة" و" الاختلاف" عند دريدا . «في اللحظة التي بدأ فيها الإنسان بتطوير ذاكرة الرموز واللغة وما إلى ذلك، كان قد بدأ في خلق قدرة جديدة. إن استمراريته بحد ذاتها تُمثل قدرة جديدة، وبُعدًا جديدًا لوجوده.«

على الرغم من عدم إدراك كينيث جرانت ظاهريًا لهذا الجانب من نظريات ويلسون، إلا أن أبحاثه في الجانب السريالي للتصوف، مثل أبحاث لافكرافت وكراولي، متشابهة بشكل لافت للنظر - بل وأكثر من ذلك (يشير ذات مرة إلى عمله الخاص على أنه "ظاهراتية مقدمة في هذا المجلد والمجلدات السابقة"). ومع تقدم سلسلة "ثلاثياته"، أصبح جرانت أقل اهتمامًا بالطقوس والانضباطات اليوغية وأكد على الحاجة إلى "تنمية كلية جديدة" بدلاً من ذلك. هذه الكلية، "التي ظلت كامنة في غالبية الأفراد لفترة طويلة جدًا"، تشبه الحدس أو الخيال؛ ولكن جرانت يقول إن الخيال يجب أن يكون خاليًا من السلبية ليكون مبدعًا حقًا. يقول: "يجب إجهاض الأفكار السلبية، فهي مصاصو دماء يتغذون على [...] أشياء العقل" - وهو مفهوم عبر عنه ويلسون في حبكة مسرحية لافكرافت المقلدة " طفيليات العقل " ، المستمدة بدورها من أبحاثه الوجودية الجديدة. يرى غرانت أن الحدس مطابقٌ للتنشئة، إذ إن التنشئة الحقيقية لا يمكن أن تكون إلا تنشئة ذاتية، وهذا ما تدعمه ملاحظات غوردجييف كما وثّقها أوسبنسكي في كتابه " البحث عن المعجزات " (1950). يقول غوردجييف: "لا وجود، ولا يمكن أن يكون، لأي تنشئة خارجية. في الواقع، لا يوجد سوى تنشئة ذاتية، أو تمثيل للذات". يصف غرانت هذه الحالة الحدسية بـ"ملكة الفهم" التي تُحدد موقعها خارج الوعي العقلاني. لكي نصبح أكثر وعيًا به، علينا أن نُعدّل حواسنا الجمالية بحيث "تستجيب لأدنى اهتزاز من تلك الأزمنة "الأخرى"، تلك الفضاءات "الأخرى"، تلك الأبعاد "الأخرى" التي تُمثّلنا في الواقع". وصف ويلسون لل"كلية س" بأنها إدراك لواقع أزمنة وأماكن أخرى مُتطابق من الناحية المفاهيمية. صرّح بروست في المجلد الثاني من سلسلة رواياته الضخمة بأن "قدراتنا كامنة" بسبب اعتمادنا على العادة، وهذه الغيبوبة المُعتادة هي ما حاول غوردجييف كسرها. إن القدرة التي يتحدث عنها ويلسون هي الترياق لمثل هذا الاضطراب. يكتب ويلسون: "لا نقول شيئًا ونعنيه إلا عندما تكون الكلية س مُستيقظة". "الكلية س هي مفتاح كل تجربة شعرية وصوفية". في المجلد الرابع من روايته الضخمة، يكتب بروست: "إذا كنتُ أجهل جزءًا كاملًا من الذكريات التي ورائي، إذا كانت غير مرئية لي، إذا لم تكن لديّ القدرة على استدعائها إليّ، فكيف لي أن أعرف في تلك الكتلة المجهولة..." "بالنسبة لي، لا يوجد ما يمتد إلى ما هو أبعد من وجودي الإنساني؟"

هذه هي القدرة التي أراد ويلسون تطويرها حتى نتمكن من التعمق في مثل هذه الطبقات البدائية من الوعي (ما وصفه هوسرل كـ "ترسبات معتادة")، ونفهم بنيتنا العمدية الخفية، بدلًا من الإيمان بأي شيء خارق للطبيعة. كتب ويلسون في كتابه "الغيبيات": "القدرة (س) ليست "حاسة سادسة"، بل هي قدرة وعي عادية."

يذكر غرانت أن هذه القدرة تتجاوز أو خارج (وهما من أكثر كلماته استخدامًا) الوعي العقلاني؛ إنها، في المصطلحات القبالية، "فوق الهاوية". يرمز إلى هذه العتبة بحرف X (معبر) وبصورة صحراء، ويشير إلى أنها مرتبطة بمفارقة مكانية تتمثل في "اللانهاية، والصمود، والبعد" والتي تتزامن مع "القريب متناهي الصغر والزائل بلا حدود"، والذي يقول إنه وعي (فهم) "بالبصيرة المفاجئة في جوهر الوجود الحقيقي"، وهو ما يشبه بشكل غريب هايدغر) الوجود، حرفX ، "الهاوية .("تظهر هذه الرموز أيضًا فيما يصفه ويلسون بمفارقة "القريب والبعيد" (نسبةً إلى رواية منسية للكاتب إل إتش مايرز تحمل نفس العنوان).

"ينظر الأمير الشاب جالي إلى الصحراء في ضوء غروب الشمس، ويتأمل أن هناك صحراويتين، "واحدة كانت مجدًا للعين، وأخرى كانت متعبة للمشي" - القريبة والبعيدة. والأفق، بكل ما يعد به، هو دائمًا "البعيد". القريب تافه وممل". لكن الخيال يمكن أن يحل هذه المشكلة - في روايته " ضد الطبيعة "، يتوق الراوي المنحط لهويسمانس إلى الذهاب إلى لندن، ولكن بعد تناول الطعام في حانة إنجليزية، يتخلى عن خطط سفره لأن "التغيير الأخرق للمكان" لا يمكن أن يكون مرضيًا مثل النسخة التي استحضرها للتو. يطلق ويلسون على هذه النظرة الواعية "الوضع الآخر"، "مع تلميحها المغري لنوع جديد من الإدراك، حيث تكون الحقائق البعيدة حقيقية مثل اللحظة الحالية ."

لذا، فإن ويلسون، مثل جرانت (وبروست)، مهتم بإحياء كلية كامنة تستخدم الخيال الجمالي والحدس (تعريف ويلسون للفلسفة هو "الحدس بمساعدة العقل") والتي يمكن أن تمكننا من فهم حقيقة، وإدراك حقيقة ، حقيقة الأوقات والأماكن الأخرى، ضد الشعور القمعي بالوقوع في فخ هنا والآن. يقول ويلسون، "بعد كل شيء، نحن نعلم جيدًا أن الماضي حقيقي مثل الحاضر وأن نيويورك وسنغافورة ولاسا وستيبني جرين حقيقية مثل هذا المكان الذي أصادف وجودي فيه في هذه اللحظة. ومع ذلك فإن حواسي لا تتفق . إنها تؤكد لي أن هذا المكان، هنا والآن ، أكثر واقعية بكثير من أي مكان آخر أو أي وقت آخر. فقط في لحظات معينة من الكثافة الداخلية أعرف أن هذا كذبة ". (ومن هنا جاءت مقولة ويلسون الوجودية الجديدة بأن "الوعي اليومي كاذب" ومجموعة مفارقات كراولي، كتاب الأكاذيب). في مواجهة هذا الوهم المُضطهد، يستشهد ويلسون بأحد كتبه المفضلة من شبابه، وهو كتاب بهاجافاد جيتا ، حيث يقول كريشنا: "أنا لست هنا، ولا في أي مكان آخر". وقد وصف الجميع هذا النوع من الوعي المكاني "القريب والبعيد"، من رابليه وباسكال، ومن كرولي نفسه إلى مُنظّر الإعلام مارشال ماكلوهان، بأنه:

هذا المفهوم للفضاء، وهو تعريف قديم لله أو الطبيعة، هو نقيض منظور عصر النهضة، حيث نقطة التلاشي (البعيد) في المسافة والمشاهد كـ "قريب" ثابت. هذا هو وهم الحقائق "بعيدة" في شكل تصويري، ولكن المنظور بالطبع وهم، تدرج رياضي للأشياء التي تصبح أصغر فأصغر على سطح مستو، في حين أن هذا "الوضع الآخر" أشبه بالمنظور المعكوس، حيث المشاهد هو نقطة التلاشي. لقد عدنا إلى عكس "وجهة نظرنا الطبيعية" (كما عرّفها هوسرل) ووصف ويلسون للتصوف بأنه عكس لنمطي الإدراك عند وايتهيد. هذا الوضع الآخر نادر لأن عقولنا تفرض أنماطًا على الإدراكات، وبالتالي "من الطبيعي أن تتضمن تجربتنا القليل من "الآخرية". العقل يستبعد تلقائيًا الآخرية". يواصل ويلسون قائلاً إن الآلية الأساسية للعقل هي "إدراك أوجه التشابه بين مجموعة من الانطباعات وأخرى"، وبالتالي فإن "اللمحات" الصوفية للشعراء نادرة - "يبدو أن الشعراء والمتصوفين متفقون عمومًا على أن هذه اللغة

لا يمكنها التعبير عن الرؤية الصوفية لـ "الاختلاف""، ومن هنا جاء ما أسماه ويلسون بالانهزامية الرومانسية. صحيح أن "ملكة فرض الشكل" لديها دافع لا هوادة فيه نحو التجانس، وأن رغبتها في النظام والبساطة يمكن أن تصبح مدمرة للذات ("أكد نيتشه على أنه من الأهم أن نسأل: "الحرية من أجل ماذا؟" بدلاً من "الحرية من ماذا؟"؛ وينطبق الشيء نفسه على النظام"). حتى أن كينيث جرانت يصفها بأنها "العدو اللدود - العقل النشط المنتج للشكل". ولكن يجب أولاً تحليل آليات ملكة فرض الشكل بعناية وتعديلها للسماح ببطء بمزيد من الاختلاف، بدلاً من الاعتماد على لمحات عشوائية أو عرضية، مثل إيقاظ بروست لقدراته الخاملة. مشكلة التصوف، كما قال غوردجييف لأوسبنسكي، هي أن العقول غير المستعدة لا تستطيع استيعاب "ارتباط مؤقت بمركز أعلى"، فتُترك مع ذكرى باهتة لبداية ونهاية هذا الفيض من المعلومات الجديدة، مع فراغ كبير لا طائل منه بينهما. علينا أولاً ضبط المستقبلات قبل أن نحاول فهم أي شيء.

يقول ويلسون عن كتاب " الخفي ": "الموقف الأساسي لهذا الكتاب هو أنه إذا أمكن جعل الآلة [أي طبقات العادات المتعمدة أو "آليات" الوعي] تعمل بشكل طبيعي ، فسيكتسب الإنسان أو يتعلم استخدام قوى وقدرات مختلفة موجودة حاليًا "خفية" (كامنة، مخفية) وسيكتشف أنها طبيعية تمامًا بعد كل شيء". قال بروست إن قدراته كانت خاملة، محجوبة بالعادات. أصر كينيث جرانت، مثل ويلسون، على أننا ننمي كلية كانت خاملة لفترة طويلة، ولكن "في الغرب، لا يوجد لهذه الكلية تسمية دقيقة" (على الرغم من أن ويلسون عرّف هذا الشيء بوضوح في إطار الفلسفة الغربية). يقول جرانت إن هذه الكلية هي "نظرة ثاقبة على الجانب الخفي للأشياء" أو "وعي خالص تُخزن فيه جميع الأفكار ويقف أو يقف تحت آلية التفكير ."

مكانين في آن واحد:

أحد أهم مفاهيم ويلسون الوجودية الجديدة يُعرف بـ"عتبة اللامبالاة"، وهي نوع من هامش الوعي تُحفّز فيه حيويتنا، على نحو متناقض، بالألم والمشقة، لكنها لا تُبالي بالراحة أو المتعة (لاحظ ويلسون أن الوعي دون أزمة يميل إلى السلبية). يمكن اعتبارها أيضًا مقياسًا لمدى سكون طاقتنا الحيوية: فهي تغفو تحت هذا الخط المظلم حتى توقظها أزمة، ولذلك تبدو لمحات من الحيوية والمعنى وكأنها "تحدث" عشوائيًا. بالطبع، أظهر هوسرل أننا لسنا ضحايا إدراكيين - فالأشياء لا تحدث لنا من تلقاء نفسها، بل إن عقولنا هي التي تُنظّم إدراكاتنا بعمليات انتقائية لا واعية. ولأننا قيّدنا وعينا من أجل البقاء، فإننا نستبعد معظم "الاختلاف" ويبدو الواقع رتيبًا أو غير مبالٍ (الاستبعاد نية عميقة ومُرادة). ويرى ويلسون أن هذا هو شكل من أشكال "نسيان الوجود" عند هايدغر .

استعار ويلسون مصطلح "العتبة" من ويليام جيمس، معلقًا على مقال جيمس " طاقات البشر " قائلًا : "ما نتعامل معه هنا هو طاقات باطنية، احتياطيات غير مرئية تقع تحت سطح إدراكنا الواعي. ولأنها بعيدة جدًا عن السطح، فهي غير متاحة للفحص الواعي". مع ذلك، يمكن للأزمة أو الطوارئ أن تُثير هذه الطاقات بقوة؛ مقال كتبه ويلسون عن نيتشه بعنوان " الاستجابة للقيمة المزدوجة " (1972) يناقش هذه المفارقة .

قوى خفية، نائمة تحت عتبة، تُنبّه إليها أزمة، قد تكون الحبكة النموذجية لرواية رعب شعبية. بالطبع، سخر ويلسون من هذه الأشكال بنية (ظاهراتية) خاصة تجاه أسلوب لافكرافت، على الرغم من أن هذا كان لمناقشة القيود الطوعية للإدراك بقدر ما كان لنقد فلسفة لافكرافت المادية. في "مذكراته الجنسية" المستوحاة من كراولي، رجل بلا ظل (1963) ، كتب "جيرارد سورم" (كولين ويلسون الخيالي) "إن القوى الموجودة داخلنا هي "المحظورة"، التي لا نعرف عنها شيئًا، ومع ذلك لدينا الحق في معرفتها".

هذه هي القوى الخفية أو الكامنة أو "الغامضة" التي يتحدث عنها ويلسون، لكنه يتحدث بلغة الظاهراتية - لذا بناءً على هذا المنطق فهي "محظورة" فقط بمعنى أننا حرمنا أنفسنا بطريقة ما من الوصول إليها .
في مقدمة كتاب(The R'lyeh Text (1995 ، وهو تكملة لكتاب Necronomicon لعام 1978 ، يشير ويلسون إلى تأكيد كينيث جرانت على أن "الكيانات الغريبة" التي وثقها كرولي "ليست، كما هو الحال في لافكرافت، قوى شريرة. ويقول إن هذا هو تحريف لافكرافت نفسه". التشوهات الذاتية هي من شأن الظاهراتي؛ يجب تحليلها، وليس الوثوق بها كموضوعية. في مقابل ذلك، يصف ويلسون تجربة غير عادية رواها جزئيًا أحد أبطال لافكرافت، كاتب الرعب آرثر ماشين في مجلد من السيرة الذاتية بعنوان مناسب الأشياء القريبة والبعيدة . لم تكن هناك "رؤية للرعب، للكيانات الشريرة؛ فقط قناعة بأن العالم المادي قد أظهر نفسه كحجاب فوق واقع أعمق". هذا هو في الأساس ما يعتقد ويلسون أنه يجب علينا التحقيق فيه ، وكيف يجب أن نحقق فيه، دون أي تشوهات ذاتية. يقول ويلسون في كتابه "الغيبيات " : "إذا كان للإنسان أن يتطور حقًا، فعليه أن يطور العمق والسيطرة على أعماقه". وضد اتهامات التشاؤم، يشير لافكرافت إلى نفسه بأنه "غير مبالٍ" (في رسالة من عام 1929) ويحاول التأكيد على أن هذه الحالة محايدة تمامًا. لو كان الأمر كذلك - لو كان ظاهريًا حقًا - لما سأل مراسله عما إذا كان يهتم "برفاهية صيني رديء أو زنجي ملعون" بعد بضع صفحات. وبالحكم من رسائله، يبدو لافكرافت متشائمًا، خاملًا مثل سارتر. وفي أسوأ الأحوال، يبدو وكأنه عدمي تمامًا ("الحياة شيء بشع" وما إلى ذلك) مثل مقارنة ويلسون الأصلية الصادمة والدقيقة إلى حد ما، القاتل الجماعي بيتر كورتن (الذي حلم بتفجير المدن بالديناميت). وقد حلل ويلسون وكينيث جرانت تقسيم لافكرافت الذاتي بخبرة .
يصر ويلسون على أن الإدراك الضعيف سيُزيف أشياء الإدراك، حيث تعتمد البصيرة على زيادة في الطاقة الحيوية - من النوع الذي يحدث عندما يتم تجاوز عتبة اللامبالاة عند تحفيزها بأزمة. وقد اختبر نيتشه هذا في الحالتين اللتين نوقشتا في الفصل الخامس من كتاب الغريب ، أثناء عاصفة رعدية على تل لوش عام 1866 وبعد أربع سنوات (أثناء الحرب الفرنسية البروسية) عندما استند إلى جدار ورأى فوج سلاح الفرسان القديم يمر. ومن خلال تغيير مفاجئ في التركيز من حالة التعب إلى حالة من النشوة، بسبب مجموعة من العوامل العشوائية على ما يبدو، بدأ نيتشه في صياغة فلسفته حول إرادة القوة. هذا التغيير المفاجئ في التركيز هو ما يسميه ويلسون "استجابة القيمة المزدوجة"، والقدرة على رؤية المواقف من التفاصيل المباشرة إلى المعنى العام في لحظة. إن وعينا المحدود قادر على تحليل التفاصيل من الأرض بسهولة، ولكن المعاني الأكبر تتطلب دافعًا أقوى، مثل الطائر الذي يحوم فوق المناظر الطبيعية (يستخدم كل من ويلسون ونيتشه مصطلح "منظور عين الطائر": في كتاب " الإنسان ، إنساني للغاية " ، يتحدث نيتشه عنه باعتباره "الاحتمال الوحيد" ضد "الخوف القلق، وكأن شيئًا معاديًا يكمن وراء كل ذلك والذي يجب على كل شيء أن ينطلق منه") .
في الكتاب نفسه، يتحدث نيتشه عن طاقات وُصفت خطأً بأنها "شريرة"، وهي نوع القوى المدمرة التي يربطها بالديونيسيوس (يستخدم صورة التجاويف الهائلة التي خلفتها الأنهار الجليدية). هذه الطاقات هي "المهندسون العملاقون وصانعو الطرق للبشرية" لأنها، على الرغم من كونها مدمرة، إلا أنها تمهد الطريق لغابات جميلة، نحو "حضارة ألطف"، كما يقول. سيتعرف قراء تحفة لافكرافت الأخيرة " في جبال الجنون " على رموز الأنهار الجليدية والطاقات العملاقية "الشريرة" المخيفة، لكن نيتشه يقدم هذه الصور دون أي تفسيرات أخلاقية صريحة: فهي تشترك أكثر مع ما أشار إليه ويليام بليك في قصيدته المضيئة " زواج السماء والجحيم " باسم " الطوفان الذين هم طاقاتنا". هذه هي القوى الجوفية النائمة تحت العتبة، لكن لافكرافت، "اللامبالي"، لم يستطع فهمها إلا على أنها خبيثة أو، في أكثر حالاته

موضوعية، غريبة. يقول ويلسون إنه إلى أن نفهم القدرة على فرض الشكل، فإننا "لسنا في وضع يسمح لنا بإصدار أحكام على أسئلة حول معنى الحياة والغرض منها، والطبيعة البشرية، وما إلى ذلك"، لأن أولئك الذين يفعلون ذلك "قد يخطئون في اعتبار جزء من أنفسهم غريبًا، أو دخيلًا" (تلعب مسرحيات ويلسون اللافكرافتية على هذه النقطة الأخيرة). تنتقي القدرة الانتقائية للوعي التفاصيل أو الأمور التي تستحق الاهتمام ولكنها تتجاهل أكثر من ذلك بكثير. لذا، "بغض النظر عن مدى غرابة الحياة أو عدم معناها للوعي المباشر"، يشير ويلسون، فإننا جميعًا "ندرك تمامًا معناها على مستوى أعمق" وهذه هي المستويات العميقة التي يرغب الظاهراتي في التحقيق فيها. مساحة شاسعة من كياننا "لا يمكن الوصول إليها بشعاع الوعي"، ولكن هناك لحظات أو لمحات ندرك فيها أننا نحتوي على "فوضى إلهية" وإمكانية أن نكون "قوة هائلة". هذا، كما يقول ويلسون، هو نقيض غثيان سارتر، شعوره بأننا معزولون في عالم من الأشياء الخارجية التي يجب أن نستمد منها معنى وجودنا (يصف سارتر نادلًا في رواية "الغثيان" بوصف دقيق ومدمر: "عندما يفرغ مطعمه، يفرغ رأسه أيضًا").

بدراسة الأفعال الإرادية (السحرية)، نبدأ بإدراك أن الجوانب "غير الإرادية" في حياتنا الواعية هي أيضًا إرادية، مع أننا غالبًا ما نجهل ذلك، لأن طبقات النوايا الإرادية (التي تُسمى خطأً "آليات") تقع أسفل إدراكنا الواعي بكثير. في لحظات الأزمة، تظهر هذه النوايا، ونفترض أن الأزمة نفسها هي المسؤولة. ما يجب علينا فعله لتحليل هذه الحالات تحليلًا صحيحًا هو فصل النية عن موضوعها ("النوما عن الفعل العقلي") بتجاهل المُحفِّز نفسه والتركيز على فعل النية. يكتب ويلسون: "التطور ببساطة هو القدرة على تسجيل المعاني الموجودة بالفعل". ما يُسمى بعلم الغيبيات هو في جوهره دراسة هذه الأعماق الخفية، وتفسير ويلسون له يفتح آفاقًا جديدة للفحص، بعيدًا عن التحريف الأخلاقي أو الثقافي، وبعيدًا عن ممارسات اليوغا أو الطقوس المحددة (يجب بالطبع أن نتذكر أن ويلسون مارس التأمل في شبابه).

إن "البحث الظاهراتي"، الذي ينطلق من دراسة القصدية في الفعل - فالظاهراتية نشاطٌ وليست مجرد تسمية فلسفية - يهدف إلى عكس مسار العمليات الإدراكية التي نعتبرها "طبيعية" وكشف "الإنجازات الخفية للأنا المتعالية"، وهو الهدف الأساسي لعلم الباطنية، إذا تجاهلنا الأدوات التقليدية. يكتب كينيث غرانت: "السحر، لا يقل عن العلم، قد أقام حواجز فعالة تردع الأفراد الذين يكونون أحيانًا أكثر تأهيلًا لإجراء مثل هذه التحقيقات من "المتخصصين" أنفسهم". ويشير غرانت إلى أن الفنان والشاعر - ويمكننا أن نقول "الغرباء" - يكونون عادةً أكثر نجاحًا من علماء الباطنية أنفسهم؛ أما "مروجو الغموض، ومن يخدعونهم" فيضيعون في "التصنيف والتحليل"، مفتقدين "الروابط الأساسية". إن قلة الوعي برؤية ويلسون الظاهراتية الجذرية لعلم الباطنية ليست في الواقع سوى مثال واحد على ذلك. ويشير غرانت بعد ذلك إلى أننا نحتاج إلى تنمية قدرة ظلت كامنة لفترة طويلة؛ فبدونها "لن يكون هناك قدر من التفسير يكفي لاختراق ما يسمى بأسرار السحر والتصوف ."

كما رأينا، فإن وصف جرانت لهذه القدرة مطابق لقدرة ويلسون العاشرة: الوعي بأوقات وأماكن (أو مساحات) أخرى. يكتب جرانت أن هذه الأوقات "الأخرى" والأماكن "الأخرى" هي في الواقع أنفسنا - لاحظ ويلسون أن لدينا قدرة ضئيلة على "الآخرية" بسبب الدافع المستمر للقدرة المفروضة على الشكل أو القصدية (التي ما زلنا نفهمها بالكاد)، وبالتالي فإننا لا نحكم على وجودنا في إصدار أحكام على معنى الحياة حتى نحقق فيما نعتبره "غريبًا"، حيث من المرجح أن تكون هذه الحالات الغريبة، كما يسمى، جزءًا منا، مثل طبقات النوايا الإرادية التي يتعذر الوصول إليها من خلال الوعي اليومي العقلاني. وفقًا لجرانت، تُعرف قدرة "إعادة تنشيط جميع حالات الوعي الماضية والمستقبلية" باسم " التيار 93 بسبب ارتباطها بالأشياء القديمة العظيمة" في أساطير لافكرافت . التيار 93 هو مصطلح فني لفلسفة كراولي

عن الثيليما θέλημα) هي كلمة يونانية قديمة تعني "الإرادة" أو "الأمنية"، على الرغم من أنه في علم اللغة الكلاسيكي - موضوع نيتشه المتخصص - كان سلفهاβουλή ، بمعنى "القصد" أو "المشروع" أو الإرادة الهادفة، والتي هي بالطبع مصطلحات مستخدمة أيضًا في الظاهراتية والوجودية. تحتوي التحقيقات المنطقية لهوسرل على تحليل شامل نموذجي لـ "الرغبة" و"الرغبة" و"القصد"، واقترح سارتر أن نصمم وننفذ "مشاريعنا" الخاصة نحو الحرية المعاشة .(كما هو الحال مع "ما قبل الطوفان" لبليك أو "بناة وصانعي طرق البشرية العملاقين" لنيتشه، يُنظر إلى كبار القدماء في لوفكرافت على أنهم "أشرار" من وجهة نظر الطبيعة البشرية العقلانية، كما هو مُصوَّر في حكايات لوفكرافت الشهيرة (لاحظ كيف يُشير نيتشه إلى الدافع القوي لرؤية عين الطائر لمقاومة "الخوف القلق" من شيء "عدو": دافع افتقر إليه لوفكرافت تمامًا). لاحظ غرانت، مثل ويلسون، كيف عانى لوفكرافت من انقسام ذاتي رهيب، حيث كانت شخصيته العقلانية في صراع مع أعماق خياله - حتى أن ويلسون يُشير إلى أن هذا الانقسام هو ما قتله بالفعل. وقد لاحظ جرانت، بصفته المحرر المشارك لكتاب اعترافات كرولي ، أن الكتاب يوثق "صراع كرولي ضد قبول التيار"، وهي النقطة التي أشار إليها ويلسون أيضًا في نهاية دراسة قصيرة عن "الوحش" قدمها في عام 1987. وفي كتابته عن "ميلاد كلية جديدة" في مجموعة قصيرة من المقالات "نحو الحقيقة" في عام 1938، أعطى كرولي الأولوية بحق "للتجربة المباشرة" (الوجودية) على الإيمان، ومع ذلك فإنه لا يزال يعلن أن هذه الكلية "غريبة ."

يُعرّف غرانت هذا "التيار" بأنه " نمط " السحر (الأفعال العمدية) القادر على إعادة تنشيط الماضي (الطبقات العميقة من النوايا المتعمدة) والمستقبل (قصديتنا التطورية الخفية). إنه "النمط الآخر" لويلسون - وهو نوع جديد من الإدراك، الوجودية الجديدة ، في الواقع - حيث "تكون الحقائق البعيدة حقيقية كاللحظة الحاضرة"، أو الكلية X (الملكة الظاهراتية). يُمكن فهم الشبكة المعقدة للعلاقات الشعرية بين تيار كراولي البالغ 93 عامًا وأسطورية لوفكرافت "القدامى العظماء" على أفضل وجه من خلال قراءة ثلاثيات غرانت المكونة من تسعة مجلدات. في المجلد الخامس، يقول إن القدامى العظماء والآلهة القديمة (المعروفة أيضًا باسم المنسيين) "قابلة للتبادل". وصف علماء الخفاء المرتبطون بغرانت هذه القوى بأنها تسكن "اللاوعي الفردي اللاعقلاني. إنها آلهة البقاء، وهي ما قبل عقلانية، وهي عمياء وذات قوة هائلة. تتجلى قوتها في الإنسان في الجوع، والرغبة الجنسية، واستجابة الأدرينالين "للقتال أو الهروب"، وعامل التماسك القبلي. يشكل الجوع الرابط الأساسي بين الآلهة القديمة والآلهة المنسيين" (على غرار مفهوم وايتهيد عن الإدراك). تتجلى هذه القوى في البشر في الجوع، والجنس، والأمان، والأمن - هرم احتياجات ماسلو الذي يجب تلبيته قبل تحقيق الذات (الإرادة الحقيقية، بمصطلحات سحرية). لذا فإن "الكبار القدماء" الخياليين في لوفكرافت، مثل "ما قبل الطوفان الذين هم طاقاتنا" عند بليك، مثل القوى التي وصفها نيتشه في مقولته "عملاق الثقافة"، هي النوايا العميقة الإرادية لظاهرات ويلسون، والتي "محظورة" على عقولنا الواعية. لكن كما يقول ويلسون، من حقنا أن نعرف عنها. دراسة القصدية هي البداية: يُشبّه ويلسون هذه القوة بنوع من اليد، أو المجس، أو شبه القدم، التي تمتد إلى بُعد جديد، "عضو" جديد يستوعب هذه الإدراكات الجديدة .

يقول ويلسون في كتابه " ما وراء الغريب " : "إن عدم التوازن في الإنسان الغربي جعله، حتى الآن، تجربة تطورية ناجحة للغاية" . ولكن "لقد حان الوقت الذي يجب فيه الاعتراف به وتعويضه بوعي. وإلا فلن تكون هناك "خطوة تالية" في التطور" (استخدم كرولي أيضًا عبارة "الخطوة التالية"). في دراسة "الجانب المظلم" للوعي البشري من خلال الضوء الواضح للاستقصاء الظاهراتي، ابتكر ويلسون توليفة قوية. لكن الآثار لا تزال غير مفهومة بالكاد من قبل "المتخصصين" سواء في الفلسفة أو الباطنية

حيث لم يلاحظ أي منهما الروابط الأساسية. التخصص هو جزء من عدم التوازن الذي جعلنا ناجحين للغاية، ولكن بثمن: نظل محاصرين في الضيق، غير مدركين للمعاني الأوسع. يجب تعويض ذلك من خلال تطوير الوعي بالطبقات الخفية ("المحظورة") للقصدية .
"إذا كان جهل عقلي الباطن غير صحيح - مزيف - فماذا عن جهلي بمن أنا، وما هي الحياة، وأين كنت قبل ولادتي وأين سأكون بعد وفاتي...؟ هل يمكنني أن أقول إن ولادتي كانت "متعمدة" أيضًا؟ يبدو هذا صحيحًا بالتأكيد في لحظات البصيرة الصوفية". تستمر هذه الملاحظات، من تعديلات ويلسون في نسخته الخاصة من مقدمة الوجودية الجديدة (نُشرت بشكل خاص في عام 1995) في التساؤل "هل نحن مدفوعون إلى الولادة والموت بقصد عميق، تمامًا كما نُدفع إلى النوم أو اليقظة؟" حتى ندرس هذه النوايا العميقة، فمن المحتمل ألا نكتشف ذلك أبدًا، وما يسميه ويلسون "سر الحياة" سيظل غريبًا علينا.
يكتب ويلسون في نهاية كتاب ما وراء السحر: "طالما ظل هذا صحيحًا، سيستمر الإنسان في تحديد الوقت في مرحلته الحالية من التطور . وفي اللحظة التي يتوقف فيها عن أن يكون صحيحًا، ستبدأ المرحلة التالية من التطور البشري ."